الدكتور القس حنَّا الخضري

تاريخ الفكر المسيحي

يسوع المسيح عبر الأجيال

www.christianlib.com

«من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟»

المجلد الأول

تاريخ الفكر المسيحي

يسوع المسيح عبر الأجيال

المجلد الأول

«من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟»

الدكتور القس حنا جرجس الخضري

المحرر المسئول

ديڤيد ڤيكتور

دار الثقافة

الطبعة الأولى

الكتـــــاب : تاريخ الفكر المسيحي ج١
المؤلـــــف : القس حنا الخضري
المحرر المسئول : ديفيد فيكتور
صدر عـــن : دار الثقافة - ص. ب. ١٦٢ - ١١٨١١ - البانوراما - القاهرة
رقم الإيداع : ١٠٣٥٧/ ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 6 - 960 - 213 - 977 - 978
المطبعة : مطبعة سيوبرس ت: ٢٦٢٢١٤٢٥/٦
الإخراج الفني والجمع: وحدة الإنتاج الفني «الهيئة القبطية الإنجيلية»
تنفيذ الغلاف : آن مجدي

جميع حقوق الطبع أو إعادة النشر محفوظة لدار الثقافة

١١٧٧/١٠ ط١/١ - ١ / ٢٠١٥

الخضري، حنا جرجس.
تاريخ الفكر المسيحي: يسوع المسيح عبر الأجيال/ حنا - جرجس الخضري: تحرير ديفيد فيكتور.-
القاهرة: دار الثقافة، ٢٠١٥
مج١: ٢٨ سم.
تدمك ٦ ٩٦٠ ٢١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- السيد المسيح
أ. فيكتور، ديفيد (محرر)
ب. العنوان
٢٧٣,٢

مقدمة الدار

منذ أن سأل يسوع تلاميذه: «من يقول الناس إني أنا؟» (مت ١٦: ١٣؛ مر ٨: ٢٧)، ظل هذا السؤال يدور بأذهان المسيحيين منذ البداية وحتى الآن، فإجابة بطرس التي كانت إعلانًا إلهيًّا له، قد تم البحث فيها عبر العصور، وتأثرت بتطور الفكر البشري والفلسفة؛ فاللاهوت علم يتطور بتطور العلوم الأخرى.

ولقد مر تاريخ الفكر المسيحي بعدة مراحل منها ما كان يشكِّل خطورة على الكنيسة ومنها ما زادها ثراءً واتساعًا في الأفق. ولعل أكثر ما أحدث فارقًا في تطور الفكر المسيحي، هو البدع أو الهرطقات والمجامع المسكونية؛ فقد أدت هذه العوامل إلى بلورة وصياغة الأفكار اللاهوتية للكنيسة ووضع أساس لعلم الكريستولوجي؛ أي العلم المختص بالمسيح.

ثمة شخصيات بارزة أيضًا كان لها دور كبير في صياغة الفكر المسيحي وتطويره عبر العصور، سواء من الهراطقة أو من آباء الكنيسة الذين قاوموا هذه الهرطقات؛ فقد كان الأثر الإيجابي لكل من الطرفين هو صياغة الفكر المسيحي وتطوره.

هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ هو إعادة إصدار لواحد من كنوز مكتبتنا المصرية، وقد أصدرته دار الثقافة عام ١٩٨١، لواحد من كبار اللاهوتيين المصريين الذين أثَّروا في الفكر المسيحي المصري وأثْروه وهو الراحل الدكتور القس حنا جرجس الخضري.

وتسعد دار الثقافة بإعادة إصدار هذا الكتاب، في مجلدين، إيمانًا منا بقيمته الكبيرة في إثراء مكتبتنا اللاهوتية العربية وأهميته لكل دارس وقارئ مهتم بتاريخ الفكر المسيحي.

دار الثقافة

إهداء

إذ أوجد وأحيا وأتحرك الآن، والفضل في ذلك يرجع إلى الرب يسوع المسيح الذي وهب لي الحياة من جديد فأنا مدين له بها.

كما أنني مدين أيضًا بهذه الحياة لأخي المحبوب فرح جرجس الذي أعطى جزءًا من حياته لإحيائي ولحياتي غير حاسب للخطر حسابًا، فأهدي له هذا الكتاب.

كما أني أهديه أيضًا إلى زوجتي المحبوبة مونيك جرجس التي بحبها وسهرها وتعبها وعنايتها ومساعداتها لي في العمل وفي الخدمة، استطعت أن أكتب هذا الكتاب.

المؤلف

المحتويات

• مقدمة الدار ٣
• إهداء ٥
• تمهيد ١١

الجزء الأول
المسيا
في العهد القديم

• الفصل الأول : المسيا في الأنبياء ١٧
• الفصل الثاني : تطور فكرة المسيا عند اليهود ٢٥
• الفصل الثالث : المكابيون والأحلام المسيانية ٣٧
• الفصل الرابع : الحركات الثورية الشمالية ٦١
• الفصل الخامس : المعتقدات المسيانية قبيل الميلاد ٧١
مراجع هامة ٧٥

الجزء الثاني
ميلاد المسيح
وحياته وموته وقيامته

• الفصل الأول : ميلاد المسيح ٧٩
• الفصل الثاني : الميلاد العذراوي ٩٥
• الفصل الثالث : طفولة يسوع وشبابه ١١١
• الفصل الرابع : يسوع ومعاصروه ١١٧
• الفصل الخامس : يسوع والغيورون ١٢٩
• الفصل السادس : موقف يسوع من الغيورين ١٣٣

• الفصــــل السابع : مفهوم التلاميذ عن يسوع ١٤٩
• الفصــــل الثامن : مفهوم يسوع عن نفسه ١٥٥
مراجع هامة ١٧٣
• الفصــــل التاسع : الفصح والعشاء الرباني ١٧٥
• الفصــــل العاشر : موت المسيح وقيامته ١٨٩

الجزء الثالث
عقيدة الكنيسة
والهرطقات في القرنين الأول والثاني

• الفصــــل الأول : إيمان الرسل ٢١١
• الفصــــل الثاني : كنيسة القرنين الأول والثاني ٢٢٧
• الفصــــل الثالث : إكليمندس الروماني ٢٣٥
• الفصــــل الرابع : بوليكاربوس ٢٣٩
• الفصــــل الخامس : إيريناوس ٢٤٣
مراجع هامة ٢٤٩
• الفصــــل السادس : يوستينوس الشهيد ٢٥١
• الفصــــل السابع : تاتيانوس ٢٥٧
مراجع هامة ٢٦٠
• الفصــــل الثامن : أثيناغوراس وثيوفيلوس ٢٦١
• الفصــــل التاسع : ميلتون الساردسي ٢٦٥
مراجع هامة ٢٦٨

الجزء الرابع
آباء الكنيسة
والهراطقة في القرن الثالث

- **الفصل الأول :** الغنوسية والماركيونية ٢٧١

مراجع هامة ٢٨٠

- **الفصل الثاني :** البنويون ٢٨١
- **الفصل الثالث :** إكليمندس الإسكندري ٢٨٧

مراجع هامة ٢٩٤

- **الفصل الرابع :** ترتليانوس ٢٩٥

مراجع هامة ٣٠٦

- **الفصل الخامس :** كبريانوس ٣٠٧
- **الفصل السادس :** أوريجانوس ٣٠٩

مراجع هامة ٣٢٢

- **الفصل السابع :** هيبوليتوس ٣٢٣

مراجع هامة ٣٣١

- **الفصل الثامن :** نوفاتيانوس ٣٣٣

مراجع هامة ٣٣٦

- **الفصل التاسع :** ديونيسيوس الإسكندري ٣٣٧

مراجع هامة ٣٤٠

- **الفصل العاشر :** الانتحالية ٣٤١

مراجع هامة ٣٤٥

- **الفصل الحادي عشر :** بولس السميساطي ٣٤٧

مراجع هامة ٣٥٢

- **الفصل الثاني عشر :** لوقيانوس ٣٥٣

مراجع هامة ٣٥٦

• **الفصـــل الثالث عشر :** آريوس ٣٥٧

مراجع هامة ٣٦٩

• **الفصـــل الرابع عشر :** القديس أثناسيوس ٣٧١

• **الفصـــل الخامس عشر :** أبولوناريوس ٣٨٥

مراجع هامة ٣٩١

تمهيد

ما هو الغرض من كتابة هذا الكتاب عن تاريخ الفكر المسيحي؟

عندما يقوم كاتب بتأليف كتاب، لابد أنه يكون مدفوعًا بدوافع محددة لمعالجة بعض الأمور التي يحتاج مجتمع ما لمعالجتها. والذي دفعني لكتابة هذا الكتاب عن تاريخ الفكر المسيحي أو العقائد (Dogmas) هو ما كنت أشعر به وألمسه عندما كنت طالبًا في المعهد الإكليريكي الكاثوليكي بالمعادي، ثم طالبًا ومدرسًا بكلية اللاهوت الإنجيلية بالعباسية، (المعهدان اللذان أكن لهما كل تقدير ومحبة واحترام)، من فقر المكتبة العربية في الكتب العقائدية، وحتى القلة القليلة الموجودة حاليًا من هذه الكتب العقائدية في اللغة العربية، مترجم فقط عن لغات أجنبية.

وقد يلاحظ القارئ عند اطلاعه على هذا الكتاب، أننا سنطيل الوقوف عند بعض النقاط التي لم يتكلم عنها الكتاب المقدس إلا بالإيجاز، أو لم يتكلم عنها مطلقًا والغرض الأساسي من ذلك، هو محاولة إيضاح بعض النقاط والمشاكل التي تخص تاريخ الفكر المسيحي عن شخص ربنا يسوع المسيح ولم يتكلم الكتاب عنها كثيرًا أو لم يذكرها بتاتًا. ولكن الاكتشافات الحديثة ساعدتنا على فهمها.

فمثلاً سوف نوجز في الكلام عن الصدوقيين والفريسيين والكتبة والهيرودسيين... إلخ. لأن هذه الأحزاب والطوائف الدينية والسياسية كانت موجودة ومعترف بها من اليهود في أيام السيد، ويسوع نفسه ذكرها كثيرًا. أما عندما نتكلم عن بدء ظهور هذه الأحزاب والشيع الدينية في التاريخ اليهودي سنتكلم عنها بإسهاب نسبي. لأن العهد القديم (إلا سفري المكابيين) لا يذكر شيئًا عن نشأة هذه الأحزاب. مثل آخر: لقد تكلم المسيح عن الكتبة والفريسيين والصدوقيين، بل وجه إليهم الويلات علانية أمام الجميع، ولذلك سوف لا نتكلم عنهم كثيرًا.

أما الغيورون، فإن المسيح والعهد الجديد لا يتكلمان عنهم إلا بالإيجاز وفي أحيان كثيرة بكيفية غير مفهومة، ولهذا السبب أيضًا سوف نتكلم بإسهاب عن أحزاب الغيورين ومشاكلهم وانتظاراتهم السياسية والمسيانية سنتبع أيضًا نفس الطريقة عندما نتكلم عن جماعة قمران أو الأسينيين الذين لم يرد ذكرهم في العهد الجديد ولا بكلمة واحدة رغم إنهم كانوا شيعة دينية يهودية ظهرت في القرن الثاني ق.م. وظلت قائمة إلى وقت سقوط أورشليم. فسنحاول إذن في هذا البحث إيضاح هذه النقاط ونقاط أخرى كثيرة لم يتكلم عنها العهد القديم ولا العهد الجديد مع أنها في غاية الأهمية بالنسبة للعهدين وخاصة فيما يتعلق بالتعاليم المسيانية والكريستولوجية*.

(*) إن الاصطلاح كريستولوچي (Christologie) يعني التعاليم المختصة بشخص المسيح.

ومع أن مجال تاريخ الفكر المسيحي أو العقائدي (Dogmas) يختلف كثيراً عن مجال الآداب والأخلاق المسيحية (Ethics) إلا أنه يجب أن يعالج هو أيضًا (أي التخصص في مجال الفكر المسيحي) مواضيع خاصة تعترض المجتمع والوسط الذي يعيش فيهما الإنسان المصري المعاصر. وتوجد علاقة كبيرة وهامة بين الآداب المسيحية والعقائد المسيحية؛ لأن كلاً منهما يعمل على تفسير وتوضيح فكرة ما أو عقيدة ما أو موقف ما.

وأما الذي يميز بين هذين المجالين هو أن العالم اللاهوتي المسيحي المتخصص في الآداب المسيحية (Ethics) يحاول في نور الكتاب المقدس شرح بعض المشاكل العقائدية التي يتعرض لها الإنسان في العصر الحالي، أي الذي يعيش فيه وفي البيئة التي تحيط به: مثلاً ما هو موقف الكنيسة من استعمال حبوب منع الحمل أو الإجهاض أو ما رأيها في الطلاق؟ أو تعدد الزوجات؟ أو الخدمة العسكرية أو علاقة الكنيسة بالدولة إلخ..؟ وأما اللاهوتي المتخصص في تاريخ الفكر المسيحي أو العقائد المسيحية، فهو يحاول أيضًا أن يشرح - في نور الكتاب المقدس - كيف وأين ومتى وُلدت عقيدة ما، ثم يتتبع تطورها في التاريخ. وهذا هو موضوع بحثنا في هذا الكتاب.

وسنركز في بحثنا هذا على شخص المسيا: «يسوع المسيح». وكما سبق القول فإن من يكتب في تاريخ الفكر المسيحي أو العقائد المسيحية، يحاول أن يتتبع تاريخيًا كيف وأين ومتى وُلدت عقيدة ما. وبما أن موضوع هذا الكتاب هو شخص المسيا: يسوع المسيح، فسنحاول إذن البحث عن أصل فكرة المسيا في العهد القديم ومتى وأين وكيف تطورت هذه الفكرة، وما هو مفهوم العهد القديم للمسيا. وسنتعرض أيضًا للمفاهيم المسيانية المختلفة التي كانت منتشرة في هذه الحقبة من الزمن. على أننا لن نقف طويلاً عند مفهوم العهد القديم والأنبياء للمسيا لأن كثيرين من الكتاب والمفسرين كتبوا في مجلدات لا تحصى ولا تُعد في هذا المجال ولكننا سنحاول أن نتتبع تطور فكرة المسيا والمفهوم المسياني الذي كان يحلم به شعب إسرائيل على مر العصور، وخاصة في الحقب التي يتكلم عنها الكتاب المقدس بإيجاز، إن كانت قد وردت أصلاً، كفترة ما بعد السبي والرجوع منه ثم عهد المكابيين إلى أن استولى الرومان على فلسطين في سنة ٦٣ ق.م. وبعد ذلك أصبح هيرودس الكبير حاكمًا على البلاد في سنة ٣٧ ق.م. فسنحاول إذن أن نتتبع تسلسل الحوادث من الناحية التاريخية ومن الناحية العقائدية لنفهم ما هي المفاهيم المسيانية التي كانت منتشرة في وسط الشعب اليهودي في كل حقبة من حقب الزمن.

ثم ما هي الطوائف اليهودية التي ظهرت ومتى ظهرت:

وعندما نصل إلى العصر الأول الذي وُلد فيه السيد سنتعرض أيضًا لبحث المفاهيم المختلفة المتنوعة التي كانت منتشرة في بلاد اليهود بخصوص المسيا ومجيئه. وما هي أيضًا الطوائف والأحزاب الدينية والسياسية التي ظهرت في ذلك العصر، وما موقفها من المسيح وما هو موقف المسيح منها؟ وبما أننا سوف لا نقف طويلاً أيضًا عند مفهوم العهد القديم للمسيا، فسوف لا نقف طويلاً أيضًا عند مفهوم الكتبة والفريسيين ولا عند مفهوم العهد الجديد للمسيا لأن هذه الطوائف (كتبة، فريسيين، هيروديسيين في العهد الجديد) معروفة لدينا وقد كتب عنها الكثير من الكتب، لكننا سنسهب في حديثنا عن المفاهيم والأماني المسيانية لبعض الطوائف الدينية التي لم يتحدث العهد الجديد عنها كثيراً مثل الغيورين والأسينيين... إلخ. وما هو موقفهم

من المسيا: يسوع المسيح وما هو موقف المسيح منهم ومنا. سنطرح على هذه الطوائف وعلى الطوائف الأخرى ذلك السؤال الذي سأله السيد لتلاميذه في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٧) هذا السؤال سيكون محور بحثنا ومركز تأملاتنا في هذا الكتاب، فما هو جواب كنيسة القرون الأربعة الأولى؟ هل اتفق جواب هذه الأحزاب والطوائف و الأجيال مع جواب بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» أم كانت لهم أجوبة مختلفة؟

وفي دراستنا لمفهوم كنيسة القرون الأربعة الأولى لشخص المسيح سنتعرض للهرطقات التي ظهرت في هذه القرون التي هددت الكنيسة بأخطار جسيمة وفي دراستنا لتاريخ الفكر المسيحي وتطوره على مر العصور سنتعرض لبعض المسائل الشائكة مثل: هل كان الحبل بالمسيح وولادته بطريقة طبيعية أم بطريقة معجزية؟ ثم هل قام فعلاً من بين الأموات؟ هل كان يسوع يعرف أنه المسيا؟ ما هو موقف المحافظين والعصريين من هذه المشاكل؟ وغير ذلك من هذه المشاكل الصعبة.

وهناك هدف آخر لهذا الكتاب وهو التركيز على أن فكرة المسيا وُلدت وتطورت في المفهوم اليهودي قبل الميلاد، ودراسة موقف وإيمان الذين كانوا ينتظرون المسيا المخلص في كل حقبة من حقب التاريخ التي مرت بهم.

وعندما نصل إلى ما بعد الميلاد سيكون بحثنا مركزًا على القرون الأربعة الأولى وبالتحديد إلى مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١.

وسنتناول بالتحليل عقيدة وإيمان الكنيسة في كل قرن من هذه القرون الأربعة في شخص المسيح يسوع. ومما لا شك فيه، أنه ليس من السهل أن ندرس كل التعاليم والهرطقات التي ظهرت في هذه القرون الأربعة لكثرتها واتساع انتشارها ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى بعض المعلمين الذين حملوا المشعل بشجاعة وإيمان لتوصيل الرسالة التي تسلموها من سابقيهم. وكذلك إلى بعض الهرطقات والتعاليم المضلة التي ظهرت في الكنيسة وخارجها. وعندما نتعرض للفريقين سنحاول أن نعطي نبذة تاريخية قصيرة عن كل واحد منهم، حتى نستطيع أن نعرف، إلى جانب تعاليمه الكريستولوجية (CHRISTOLOGIE) شيئًا عن حياته وتاريخه وكتاباته التي تركها لنا. والغرض من هذه النبذة التاريخية عن بعض هؤلاء الأبطال هو: أولاً أن هؤلاء الآباء الذين قاموا بحمل المشعل ونشروا إنجيل الخلاص المحرر، أمثال: أغناطيوس الأنطاكي، أكليمندس الروماني، وبوليكاربوس، وإيريناوس، ويوستينيوس الشهيد، وأكليمندس الإسكندري، وترتليانوس، وأوريجانوس، وأثناسيوس، وأغسطينوس وآخرين هم ملك للكنيسة العامة، وليس لكنيسة دون أخرى كاثوليكية كانت أم أرثوذكسية أو بروتستانتية أو تفخر بهم وحدها.

والكنيسة الإنجيلية ترى في هؤلاء الآباء سحابة من الشهود (عب ١٢: ١) قدموا شهادة لامعة لشخص الرب يسوع، بالرغم من ضعفاتهم وسقطاتهم وأغلاطهم كبشر.

ثانيًا: كما نود أيضًا أن يكرس بعض الدارسين في الشرق العربي جهدًا ووقتًا أطول في جمع تعاليم هؤلاء الآباء وتقديمها للعالم العربي. لأن الدراسة الحالية ليست شاملة لأنها تقتصر على جزء بسيط من تعاليم الآباء، فيما يخص موضوعنا أي ما هو إيمانهم وعقيدتهم في شخص الرب يسوع المسيح.

ولهذا السبب سنعطي في نهاية بعض الفصول قائمة ببعض المراجع الهامة لمساعدة الدارس على مواصلة البحث في هذا الموضوع.

لقد قُدِّم يسوع في الشهر الأول من حياته إلى الهيكل، وقُدِّمت أيضًا عنه التقدمة الطقسية وهناك في الهيكل يتقدم رجل شيخ، يدعى سمعان. ويأخذ الطفل بين ذراعيه ويقول مصليًا: «الآن تطلق عبدك حسب قولك بسلام. لأن عيني قد أبصرتا خلاصك.. وباركهما سمعان و قال لأنه ها أن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم...» (لو ٢: -٢٣ ٣٥).

إن هذه النبوة التي نطق بها سمعان الشيخ قد لازمت المسيح في كل حياته وتحققت فيه حرفيًا، لا بل إن المسيح بعد موته و قيامته أصبح علامة تقاوم على مر العصور.

وسنرى في دراستنا لتاريخ الفكر المسيحي، كيف أن شخص ربنا يسوع المسيح في خلال هذه القرون الأربعة الأولى أصبح فعلاً حجر عثرة.. وعلامة تقاوم.. لأنه في كل عصر وفي كل مكان كان يطرح نفس السؤال الذي طرحه في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان»؟ وللإجابة على هذا السؤال انقسم الناس إلى كنائس وطوائف وشيع، يعتقد كل منهم بأنه يملك الحق وكل الحق. وبدأ كل منهم يحارب ويهاجم الآخر. ولم يعلموا أنهم في صراعهم يمزقون الكنيسة الحقيقية التي هي جسده والتي من أجلها صلى السيد في أيامه الأخيرة قائلاً: «ليكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو ١٧: ٢١).

ليساعدنا الرب يسوع لكي يكون هدفنا الأسمى هو تمجيد اسمه وامتداد ملكوته أولاً، ثم العمل في حقله ليس لرفع مستوى الإنسان من الناحية الروحية فقط وقيادته للمصالحة مع الله، بل العمل أيضًا على رفع مستوى الإنسان المادي والاجتماعي. فإن كان المسيح قد جاء لكي يخلص ما قد هلك فإنه قد جاء أيضًا لكي «يكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» هنا على الأرض أيضًا وليس في الأبدية فقط.

الجزء الأول

المسيا في العهد القديم

الفصل الأول

المسيا في الأنبياء

إن الله في محبته التي لا توصف، خلق الإنسان الأول طاهرًا نقيًّا، لا عيب فيه، يتمتع بطهارة الطبيعة ونقاوة الفكر وحرية الإرادة والاختيار. وفي هذا الجو، جو للطهارة والقداسة ونقاوة الفكر وحرية الاختيار والتصرف، وُجد آدم. والوحي المقدس يعلمنا بأن الله أسند إلى آدم بعض المسئوليات الإدارية والهامة ومنها أنه كلفه بأن يعطي اسمًا لكل حيوان من الحيوانات ولكل طير من الطيور. وجبل الرب من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها (تك ٢: ١٩) وهذه هي المسئولية الثانية التي كلف بها آدم. أما المسئولية الأولى فكانت عنايته بالجنة وحفظها: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها» (تك ٢: ١٥). من هذا نرى أن الله أعطى لآدم سلطانًا عظيمًا جدًّا. وكاتب المزامير يقول: «فمن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله. تسلطه على أعمال يديك «جعلت كل شيء تحت قدميه». (مز ٨: ٤- ٦، عب ٢: ٦ - ٧). فإن الله قد أعطى لآدم سلطانًا مطلقًا ليس على حيوانات البرية وطيور السماء فحسب بل على الخليقة كلها (تك ١: ٢٦). المخلوق الوحيد من كل الخلائق الأرضية الذي يتمتع بهذا الامتياز الفريد. وإذا كان آدم هو الوحيد الذي انفرد بهذا الامتياز أي بأن يكون سيدًا ومتسلطًا على الطبيعة، (لا بل يمكننا أن نعطيه أيضًا لقب معاون الله: بمعنى أنه يساهم ويشترك في عمل الله) فإن ذلك يرجع إلى أن آدم هو المخلوق الوحيد من بين كل الخلائق الذي ينطبق عليه هذا الكلام: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك ١: ٢٧) وهو أيضًا المخلوق الوحيد الذي يتمتع بهذه الهبة التي لم تستطع أي خليقة أخرى على الأرض الحصول عليها ألا وهي النفخ في أنفه: فإن كل الخلائق خُلقت بأمر الله وسلطانه بلا شك، ولكن آدم هو المخلوق الوحيد الذي نفخ الله في أنفه نسمة حياة. بهذين الامتيازين (أي كونه على صورة الله، ونسمة الله في أنفه) أصبح آدم إنسانًا له روح وجسد (Psycho - Physique) وبهذين الامتيازين يختلف الإنسان في أشياء كثيرة عن الحيوان ويصبح قريبًا من الله، وبهذا أيضًا أصبح سيدًا على الطبيعة ومتسلطًا عليها.

فعندما خرج الإنسان من بين يدي الله، كان طاهرًا نقيًّا شفافًا يستمتع بالحديث معه وجهًا لوجه دون خوف أو خجل أو ارتعاب كما حدث بعد السقوط (تك ٣: ٨). هكذا كان الإنسان قبل السقوط، فقد كان على «صورة الله وكشبهه».

ولكن ما أن رأى الساقط الأول (الشيطان) (متى ٤: ١ - ١١، مز ١: ١٢ - ١٣، لو ٤: ١- ١٣، ايو ٣: ٨، تك ٣: ١- ٢٤) هذه

المحبة العميقة، والروابط الوثيقة والشركة المقدسة التي يتمتع بها الإنسان الأول مع الله، إلا وامتلأ قلبه حقدًا وغيظًا، وعندئذ دبر مؤامرة بالمكر والغش والكذب، وسقطت حواء وآدم اللذان انخدعا بكذب الكذاب (يو ٨: ٤٤). لقد قدم لهما نفس التجربة التي سقط فيها هو نفسه وهي: «.. الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر»، فطُردا من محضره ومن جنته، ومن ذلك التاريخ أصبح الإنسان في عداوة مستمرة مع إلهه، الإله الذي في محبته وفي حريته أيضًا خلقه طاهرًا نقيًا، يتمتع بالشركة المقدسة معه. ومن هذا التاريخ أيضًا وصدى صوت الإنسان يتردد على مر العصور قائلاً لله: «ابعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر» (أي ٢١: ١٤) وبعد ذلك «فسدت الأرض وامتلأت ظلمًا ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت» (تك ٦: ١١ - ١٢). إن سقوط الإنسان الأول كان عبارة عن الحلقة الأولى لسلسلة طويلة ثقيلة، قيدت البشر جميعًا وكانت تطيح بهم بلا رحمة إلى الهلاك الأبدي الذي هو انفصال الخالق عن المخلوق. إن قصة السقوط توضح لنا أن الذي قام بأخذ المبادرة العملية للانفصال عن الله والعصيان ضده هو الإنسان، وإن كنا نرى الحية تلعب دور المحرض المغري والمشوق أيضًا، إلا أن الإنسان كان يتمتع بحرية كاملة للرفض أو للقبول. نعم كانت الحية هي ذلك الكذاب وأبو الكذاب (يو ٨: ٤٤) لكن الإنسان هو الذي سمع وصدق وأطاع هذا الكذاب، وبذلك فقد عصى الله وثار ضده. لقد أراد أن يصير مثل الله.

والذي يهمنا في هذه القصة هو القول: «وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها. هو يسحق رأسكِ وأنتِ تسحقين عقبه». (تك ٣: ١٥). من هذه الآية نبدأ بحثنا، فلقد رأى كثيرون من العلماء والمفسرين في هذا النص وعدًا بمجيء ذاك الذي استطاع وحده أن يسحق سحقًا نهائيًا رأس الحية. والكتاب المقدس مليء بالآيات العديدة التي تبين لنا بوضوح أن يسوع، نسل المرأة هو الذي سحق الرأس المسموم، رأس الحية الذي سمم البشرية كلها. فالرسول يوحنا يقول: «من يفعل الخطية فهو من إبليس لأن إبليس من البدء يخطئ. لأجل هذا أظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس» (١يو ٣: ٨) ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني».. (غلا ٤: ٤، رو ٨: ٣، في ٢: ٧، ١كو ١٥: ٥٤، كو ٢: ١٥، تي ١: ١، عب ٢: ٤١) فعندما سجل كاتب سفر التكوين هذه الكلمات... «هو يسحق رأسكِ وأنتِ تسحقين عقبه» كان يعلن عن مجيء المخلص الفادي الذي يقول عنه القديس بولس: «وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعًا» (رو ١٦: ٢٠) فمن الواضح إذن أن هذه الآية (تك ٣: ١٥) تتضمن وعدًا بمجيء المخلص وتهديدًا بسحق مملكة وسلطان الشيطان، وهنا نلاحظ أن الإنسان هو الذي كان يأخذ دائمًا المبادرة في قطع العلاقات بينه وبين الله والقيام بالثورة والتمرد ضده. وعلى العكس من ذلك كان موقف الله فإنه هو الذي دائمًا يأخذ المبادرة لإرجاع العلاقات المقطوعة وتوطيد المحبة وإعطاء السلام. فإن كان آدم في جهله وعصيانه يريد أن يكون مثل الله، وبهذا الجهل والعصيان والجرأة غير الحكيمة فقد نقاوته الأولى، بل كاد يفقد جزءًا كبيرًا من كونه «على صورته وكشبهه» وأصبح بتصرفه وابتعاده عدوًا لله، فإن الله من جانبه قد أحب الإنسان محبة أبدية لا يدرك لها طولاً أو عرضًا، فهي محبة الله نفسه السرمدي، الأزلي، يهوه اسمه الذي له السماوات وكل ما فيها، الذي يقول عنه القديس بولس: «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله. لكنه أخلى نفسه آخذًا صورة عبد صائرًا في شبه الناس».. (في ٢: ٧). هذا هو الإله العظيم الجبار، المهوب، القدوس، الغيور، المخيف، والمحب أيضًا الذي قدمه لنا العهد القديم بهذه الصفات، هو نفسه يأتي إلينا وإلى عالمنا لكي يكون معنا: عمانوئيل

الذي تفسيره الله معنا. «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد تبرر في الروح تراءى لملائكة كرز به بين الأمم أومن به في العالم رفع في المجد» (١تي ٣: ١٦، يو ٣: ١٤، ١٦، ١يو ١: ٢) وعندما جاء الإله الحقيقي إلى العالم، لم يسلك مسلك آدم الذي أراد أن يكون مثل الله: بل هو الله صار إنسانًا بل أكثر من ذلك صار إنسانًا عبدًا لكي يحرر كل عبد يقبله كسيد ومخلص.

هذه هي المبادرة السعيدة التي اتخذها الله بعد سقوط الإنسان. فقد وعده بمخلص يسحق رأس الحية ويحرره من سلطان عدوه. وعلى هذا الوعد الذي تكرر في فم الأنبياء الذين تنبأوا بمجيء هذا المخلص المحرر، ركز المؤمنون عبر الأجيال آمالهم وأمنياتهم وأنظارهم على شخص هذا المحرر، المخلص الذي سيدعى فيما بعد باسم المسيا.

وفي دراستنا لهذا الموضوع سنحاول الاقتراب بطريقة موجزة وسريعة من الإعلانات الإلهية في الكتاب المقدس، أي نبوات الأنبياء، عن المسيا ثم كيف فُسِّرت هذه النبوات على مر العصور.

المسيا كما فهمه وتكلم عنه أنبياء العهد القديم

بعد أن سقطت البشرية في قبضة إبليس بسقوط آدم، إذ بسقوطه صار كل الجنس البشري في عداوة مع الله، قائلين له: «ابعد عنا وبمعرفة طرقك لا نُسَر» (أي ٢١: ١٤). وهنا نرى الله، الذي من عادته وفي محبته غير المتناهية، يأخذ دائمًا المبادرة بالمصالحة فيعطي هذا الوعد الثمين للإنسان الساقط المبتعد عنه قائلاً: «وأضع عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها. هو يسحق رأسكِ وأنتِ تسحقين عقبه» (تك ٣: ١٥).

وقد أعلن لنا الله أن نسل المرأة الذي سيسحق رأس الحية هو شخص الرب يسوع المسيح. هذا هو الوعد الأول الذي يشير به الوحي المقدس إلى المخلص. الوعد الذي أصبح فيما بعد وعلى مر العصور الطويلة موضوع الرجاء والأمل، ذلك الوعد يقول عنه كاتب الرسالة إلى العبرانيين: «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١: ١٣) إن هذا الوعد «هو يسحق رأسكِ» كان كالمشعل المنير الذي يضيء الطريق أمام الآباء ورجال الإيمان في العهد القديم، كان بابًا للرجاء بعد أن انقطع الرجاء بسقوط آدم. فمن المرأة التي عن طريقها دخلت الخطية ثم الموت إلى العالم (رو ٥: ١٢ - ١٣، ١كو ١٥: ٢١) سيخرج أيضًا الذي سيهب الحياة الأبدية للذين يقبلونه كمخلص وفادٍ (رو ٥: ١٥- ١٩، لو ٢: ١٥، غلا ٤: ٤) «لأنه كما بمعصية الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيُجعل الكثيرون أبرارًا» (رو ٥: ١٩). والرب في أمانته غير المتناهية كان يذكر شعبه بهذا الوعد العظيم مرارًا كثيرة وفي ظروف مختلفة، فهوذا موسى يلفت أنظار الشعب في البرية إلى هذا المخلص بالقول: «يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون» (تث ١٨: ١٥، ١٨) ولقد تحقق هذا الوعد عندما جاء المسيح، وهذا واضح من القول: «فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع بن يوسف الذي من الناصرة» (يو ١: ٤٥، أع ٣: ٢٢، ٧: ٣٧). وهناك نبوات أخرى تشير بطريقة غير مباشرة إلى المسيح وبطريقة مباشرة إلى الملك العتيد والذي من صلبه سيخرج المسيا المنتظر كقول بلعام.. «أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريبًا».. (عد ٢٤: ١٧- ١٩، ٢صم ٧: ١٢ - ١٦، ٢: ٤) ويمكننا أن نعتبر كل هذه النصوص وحدة واحدة، إذ أنها تعبر عن الملك داود الذي سيخرج من صلبه المسيح.

وجدير بالذكر أن نبوة بلعام هذه (عد ٢٤: ١٧- ١٩) قد تحققت في داود الذي جاء بعد بلعام.. فقد ظهر داود كملك عظيم انتصر على موآب وأدوم وعلى كثيرين من أعدائه (٢صم ٨: ٢، ١٤) وأسس مملكته العظيمة التي صارت فيما بعد المثال الذي يتغنى به كل إسرائيلي، والنموذج الذي يحلم به كل الملوك الذين جاءوا بعده. وفي العهد القديم نبوات كثيرة جدًّا تشير إلى داود باعتباره الشخص الذي منه سيخرج المسيا المنتظر. الذي سيعطي سلامًا وراحة لشعبه. ففي كتاب المزامير مثلاً نجد عبارات كثيرة يمكن أن ننسبها إلى المسيا المنتظر أو إلى رجال الله الأتقياء الذين عاشوا بأمانة أمام الله وتألموا واضطهدوا من أجل اسمه. (مز ٧٢: ٩ - ٩- ١٥، إش ٤٩: ٧، مي ٧: ٧) وبعض المزامير تتكلم عن المسيا نفسه وعن ملكه وعن كهنوته (مز ٤٥: ٦- ٧ ومز ٤٧: ١، ٢، مز ١١٠: ١- ٢٧، عب ١: ٨، ٩، ٥: ٦) وأما كتاب الأمثال فيقدم لنا وصفًا رائعًا دقيقًا عن الحكمة (أم ٨: ٢٢- ٣١) الحكمة الموجود عند الله «منذ البدء منذ أوائل الأرض» قبل أن يوجد القمر أو المياه وقبل الجبال، وقبل السماوات وقبل كل ما هو موجود ويحيا ويتحرك. فكل ما هو موجود قد وُجد لأن الحكمة كان «عنده صانعًا». وبلا شك، عندما نقرأ هذا الفصل بتدقيق نرى التشابه الذي لا يمكن إنكاره، بينه وبين إنجيل يوحنا (١: ١- ٥) «من قبل أن تقررت الجبال قبل التلال أبدئت.. لما ثبت السماوات كنت هناك أنا. كنت عنده صانعًا».. (أم ٨: ٢٢- ٣٢)، «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله.. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ١- ٥). والعهد الجديد يستعمل كلمة «حكمة» مرارًا كثيرة لكي يشير بها إلى المسيح: «وأما للمدعوين يهودًا ويونانيين فبالمسيح قوة الله وحكمة الله.. ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبرًّا وقداسة وفداء» (١كو ١: ٢٤، ٣٠) «فإنه فيه قد خلق الكل ما في السماوات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى.. الكل به وله قد خُلق. الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل» (كو ١: ١٦- ١٩). فالحكمة التي يتكلم عنها كاتب سفر الأمثال هو المسيح: هو اللوغوس (الكلمة) الذي كان منذ البدء في حضن الآب والذي به خلق كل شيء (عب ١: ١- ٢، ١كو ٨: ٦، كو ٢: ٣) وعندما نقرأ بتمعن سفر إشعياء النبي نجد فصولاً عديدة جدًّا تشير بطريقة واضحة وصريحة إلى المسيا. وإننا لا نجهل أن بعض المفسرين قد حاولوا نسبة معظم هذه الفصول الكتابية في سفر إشعياء إلى الأمة اليهودية كلها أثناء السبي وبعده (كعبد الله المتألم والمطروح، والمذلول والمجروح والمحتقر والمخذول من الناس الذي لا صورة له ولا جمال فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه) (إش ٥٣: ٣- ١٢). وأن البعض الآخر نسب هذه الفصول إلى بعض الأشخاص بطريقة رمزية (إش ٤: ٢، إر ٢٣: ٥ - ٧، زك ٣: ٨، ٦: ١٢) على أنه من الواضح أن هذه الفصول تتكلم عن المسيا بطريقة لا تترك للشك أو اللبس مجالاً، ومنها قوله: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية: ها العذراء تحبل و تلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٤) إن هذه الآية تشير قطعًا إلى شخص الرب يسوع المسيح (إش ٧: ١٤) ولا يمكننا أن نطبقها على أي ملك أو على أي قائد سياسي في إسرائيل.

فإن إسرائيل بعد السبي كان ينتظر مخلصًا: ينتظر مسيا، وهذا المخلص أو المسيا أو الملك: (إش ٤: ٢، ٤٢: ١، ٢، ٤٣: ١٠ و ٤٩: ١- ٣) هو إنسان ابن إنسان من نسل داود. إن الملك المنتظر، بحسب المفهوم اليهودي يجب أن يكون إنسانًا ومولودًا بطريقة بشرية، ولم يفكر أي يهودي في أية لحظة من لحظات تاريخه في السبي أو بعده بأن المسيا المنتظر هو كائن سماوي أو آت من عالم آخر. بل كان الأمر المهم بالنسبة لكل يهودي هو أن المسيا أو الملك المنتظر لابد أن يكون من نسل داود لكي يحرر الشعب من الاستعباد والاحتلال الأجنبي ويجلس على كرسي داود أبيه. فعندما يقول النبي: «ها العذراء تحبل...» لا

يقصد بأن المسيا الذي سيولد من العذراء هو ملك أرضي. ولكنه ملك على نظام آخر. على أية حال سوف نتكلم عن هذه الآية بإسهاب عندما نناقش موضوع الميلاد العذراوي في الفصول القادمة. وكل ما نريد أن نوضحه هنا هو سرد بعض الفصول الكتابية التي تكلمت عن المسيا، مع ذكر بعض التفصيلات البسيطة. ولذلك لا يمكننا أن نهمل (إش ٩: ٦ - ٧) «لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابنًا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبًا مشيراً قديرًا أبًا أبديًا رئيس السلام..» والنبي يعطي هنا بعض الصفات التي سيتمتع بها مولود العذراء (إش ٧: ١٤) فإن اسمه «عجيب»: وكيف لا يكون اسم ذلك المولود الذي سيولد عجيبًا هو يُدعى عمانوئيل (٧: ١٤) الذي تفسيره الله معنا (متى ١: ٢٣) فهو ذلك الشخص الذي صارع معه يعقوب الليل كله (تك ٣٢: ٢٩) وهو أيضًا الذي ظهر لمنوح وزوجته، وقال منوح لملاك الرب ما اسمك حتى إذا جاء كلامك نكرمك «فقال له ملاك الرب لماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب» (قض ١٣: ١٨). نعم إن اسمه عجيب لأنه قد تميز عن كل بني البشر فقد مُسح بزيت الابتهاج أكثر من كل شركائه (عب ١: ٩) فهو الله نفسه الذي في محبته غير المدركة صار عمانوئيل أي الله معنا، الله معنا ومثلنا - صار إنسانًا. أليس هذا عجيبًا! فإن كان هذا الابن عجيبًا فهو مشير أيضًا أي أنه صاحب مشورة، ومشورته تختلف كل الاختلاف عن مشورات الشيطان والبشر فإن الحية أشارت على حواء بأن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لكي تصير مثل الله، و النتيجة التي حصلت عليها حواء وآدم من هذه المشورة هي أنهما صارا عريانين ومطرودين من الجنة. أما هو الذي في حضن الآب منذ الأزل فهو صاحب المشورة الصالحة والذي يقول عنه كاتب سفر الأمثال «لي المشورة والرأي. أنا الفهم لي القدرة» (أم ٨: ١٤) لأنه حكمة الله وعلمه (١كو ١: ٢٤، ٣٠ و ٢: ٤، كو ٢: ٣، رؤ ٣: ١٨).

وهو أيضًا إله قدير: لا وجه للمقارنة بينه وبين الآلهة التي كانت تحيط بشعب الله: «فبمن تشبهون الله وأي شبه تعادلون به. الصنم يسبكه الصانع، والصائغ يغشيه بذهب ويصوغ سلاسل فضة» (إش ٤٠: ١٨ و ٤١: ٦، ٧ و ٤٤: ٩- ٢٠)، فهو الله القدير يقول للشيء كن فيكون (تك ١: ٦، ١٤، ٢٠، ٢٤، ٢٧) ومع أنه إله قدير وكل الأشياء كانت بأمره وطوع أمره، فهو ليس بالإله البعيد الذي يسكن في أقصى السماوات والذي لا يمكن أن يدنو منه الإنسان، بل إن هذا الإله القدير هو أيضًا أب أبدي محب.

رئيس السلام: هو نفسه سلام: مانح السلام الذي يفوق كل عقل (في ٤: ٧) وهو أيضًا سلامنا (أف ٢: ١٤). والسلام الذي يمنحه هذا الرئيس يختلف اختلافاً كليًا وجزئيًا عن السلام الذي يعطيه العالم والذي حلمت به أمة اليهود. فإن أمة اليهود حلمت بسلام ناتج عن تدمير وخراب الممالك الأخرى التي كانت تحيط بها وتهدد سلامها. إن هذا السلام لا يتم عن طريق سفك الدماء وقتل الأعداء وتهديم الحصون، لأن الحرب والعدوان والعنف لا ينتج عنها إلا الكراهية والعداوة، والفقر والجهل والمرض.

فلقد حاولت الأمم ولا تزال تحاول حتى الآن عبثًا الحصول على السلام عن طريق العنف والتسلح. أما النبي إشعياء فيرسم لنا صورة خلابة رائعة يحاول فيها إظهار التغيير الجذري الذي يحدث في حياة الذين يحصلون على هذا السلام في ملكوته الآتي، فعندما يتقابل الله مع الإنسان ويقبل هذا الأخير الدعوة الموجهة إليه لكي يكون ابنًا له وعضوًا في ملكوته، يصبح

الإنسان خليقة جديدة وبهذا يصبح عضوًا في ملكوت الله. إذ كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة وبهذا يصبح عضوًا في ملكوت الله. (٢كو ٥: ١٨). هذا هو ملكوت الله الذي يرسمه لنا إشعياء في هذه اللوحة الرائعة (إش ١١: ٦- ١٠) حيث يقول: «فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معًا وصبي صغير يسوقها..».

إن هذا الفصل لا يمكن تفسيره تفسيراً حرفيًا كما ظن البعض، بأنه ستأتي فترة من الزمان (الملك الألفي) حيث يجرد الله الحيوانات من طبائعها وغرائزها الوحشية فتعيش في سلام دون هجوم وافتراس، فلا يأكل فيما بعد الحيوان المفترس حيوانًا آخر.. إلخ. إن هذه الأعداد واضحة وصريحة، وهي تصف لنا حال الذين يتقابلون مع المخلص بعد دخولهم في ملكوت السماوات، فالله يريد بلا شك أن الذين يدخلون الملكوت يعيشون في سلام تام، فإن رغبة الله رئيس السلام هي أن يرى الأسود بجانب الأبيض والأصفر بجانب الأشقر، والفقير بجانب الغني والقوي بجانب الضعيف، يعيشون جميعًا في سلام وأمان. ومما لا شك فيه أن عالمنا الحاضر مُهدَّد في سلامه أكثر من أي وقت مضى، فالحروب وأخبار الحروب التي تندلع في كل مكان لا تترك في قلب الإنسان وفي البيئة التي يعيش فيها إلا خوفًا ورعبًا واضطرابًا وقلقًا، خصوصًا أن الوسائل التكنولوچية الحديثة المستعملة في الحروب أداة شيطانية وفعالة جدًا في التخريب والتدمير والقتل. فالقوي يهجم على الضعيف وينهش لحمه وعظمه، وهنا يسألنا الذين يؤمنون بحرفية هذا الفصل وفصول أخرى لها اتصال بهذا الموضوع (رؤ ٢٠: ٤- ٩) قائلين: هل يمكن للمسيح أن يسمح لأشياء مثل حروب أو مؤامرات أو أمراض... إلخ. أن تحدث في ملكه الألفي؟ والجواب على ذلك هو أن عبارة ألف سنة لا تعني ألف سنة حرفيًا. والرسول بطرس يقول: «..إن يومًا واحدًا عند الرب كألف سنة وألف سنة كيوم واحد» (٢بط ٣: ٨) وكاتب المزمور التسعين يقول: «لأن ألف سنة في عينيك مثل يوم أمس بعد ما عبر، وكهزيع من الليل...» (مز ٩٠: ٤).

فمن الصعب أن نبني عقيدة الألف السنة حرفيًا على عبارة وردت مرة واحدة في سفر الرؤيا، وهو سفر قد امتلأ من أوله إلى آخره بالرموز والتشبيهات والمجازات مما يزيده غموضًا.

أما بخصوص ملك السلام وتقييد الشيطان فإن هذا الملك يبدأ عندما يدخل المسيح القلب ويغيِّر الإنسان فيصير خليقة جديدة وتصبح حياته حياة جديدة. وهذا لا يتم إلا بعد أن يدخل المسيح إلى القلب ويربط الشيطان ويستولي على أمتعته (مت ١٢: ٢٥- ٢٩) ومن هذه اللحظة يسعى المؤمن جاهدًا أن يحيا ويسلك ويتصرف كعضو في ملكوت السلام، يعمل على انتشاره في القلوب. وهنا يمكن أن يسكن الذئب مع الخروف. ولكي لا نبتعد عن موضوعنا، وهو المسيا كما فهمه وتكلم عنه بعض أنبياء العهد القديم، نرجع إلى سفر إشعياء فنجد في ٤٢: ١- ٤ نصًّا قد نسبه البعض إلى المسيا ونسبه البعض الآخر إلى عبد الرب، وعبد الرب في بعض أسفار العهد القديم قد يكون كناية عن شعب الله كله، كما هو الحال في (إش ٤٥: ٤، ٤٩: ٣، ٥٥: ٣- ٥) «قال لي أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد» (إش ٤٩: ٣).

على أن كثيرين من المفسرين ينسبون نص إشعياء (٤٢: ١- ٤، ٥٣: ١- ٢، ٦١: ١- ٦) إلى المسيح. ولقد سبق القول بأن عددًا لا بأس به من المفسرين يتردد كثيرًا في نسب هذه النصوص إلى المسيح ظنًّا منهم بأن النبي يتكلم عن إسرائيل كله كشخص محتقر مخذول ومطرود... إلخ.

ولكننا نعتقد أن الصورة التي يقدمها إشعياء هنا سواء في ٥٣: ١- ١٢ أو في ٦١: ١ - ٦، لا تنطبق على إسرائيل كشعب إلا بطريقة جزئية ولكنها تنطبق على المسيح بطريقة كلية. فعندما نقرأ أصحاح ٥٣ لا يمكننا بسهولة أن ننسبه إلى أمة إسرائيل وخاصة النبوات التي تشير بطريقة مباشرة إلى المسيح وهو نفسه ما ينطبق على أصحاح ٦١ وخصوصًا أن السيد الرب نفسه قال عن هذا الأصحاح في أول عظة له في مجمع الناصرة: «إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم» (لو ٤: ٢١).

وهناك فصول أخرى كثيرة في العهد القديم تشير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى المسيا (مثل إر ٢٣: ٥، ٣٠: ٩، ٣٣: ١٤ - ١٦، حز ١: ٢٦، دا ٣: ٢٥، ٧: ١٣ - ١٤، مي ٥: ٢، حج ٢: ٢٣، زك ٣: ٨، ٩:٩).

لقد نطق بهذه الأقوال رجال الله الأتقياء مسوقين من روحه القدوس في كل عصر من العصور، فكانت كلماتهم هذه عن المسيح عبارة عن مصابيح تتلألأ في جو مظلم مخيف، فأنارت الطريق وفتحت باب الرجاء والأمل. فإن عيون شعب الله، وخاصة الذين كانوا ينتظرونه بالحق والاستقامة، كانت مثبتة على هذه الوعود المختصة بمجيء المسيا المخلص. والذين نطقوا بهذه الوعود وكثيرون من الذين سمعوها كانوا ينتظرون تحقيقها بفارغ الصبر. ففي كل عصر من العصور كان شعب الله يترقب منتظرًا أن تتحقق هذه الوعود في عصره: «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١: ١٣) «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس...» (غلا ٤: ٤)، وها فقط أصبح الحلم الذي راود خيال المنتظرين مدة طويلة، حقيقة ملموسة لا شك فيها. ولقد كانت فرحة ذلك الرجل العجوز سمعان عظيمة لا يدانيها فرح، عندما أدرك أن الوعود التي انتظرها الآباء وصدقوها وحيوها من بعيد تحققت وها هي الآن بين يديه. إذ «أن أنبياء وأبرارًا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا. وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (مت ١٣: ١٦- ١٧) فيهتف سمعان فرحًا بعد أن أخذ بين ذراعيه الطفل يسوع ويقول: «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد أبصرتا خلاصك، الذي أعددته قدام جميع الشعوب...» (لو ٢: ٢٦- ٣٥). نعم لقد تحقق الأمل، وأصبحت نبوة موسى القائلة: «يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون» حقيقة واقعة.

لقد كان موسى رمزًا للمسيح في أشياء كثيرة، فقد أُنقذا كلاهما من الموت في سن الطفولة، وترك كلاهما المجد لكي يشاركا إخوتهما في المشقة والآلام (عب ٣: ٢- ٤) وكانا متواضعين يفيضان بالحب والحنان والحلم (عد ١٢: ٣، ٢٧: ١٧، متى ١١: ٢٩، ٩: ٣٦) وكانا شفيعين (تث ٩: ١٨، عب ٧: ٢٥)، وكلاهما عرفا مجد الله وأعلناه (حز ٣٤: ٢٩، ٣٥ ومتى ١٧: ١- ٨ ولو ٢٤: ١٩، يو ١٧: ١- ٥ و٢كو ٣: ٧) كان كلاهما أيضًا وسيطي عهد (تث ٢٩: ١، عب ٨: ٦).

فعلى مر العصور كان شعب الله ينتظر المسيا المخلص الذي تكلم عنه موسى والأنبياء. فكيف إذن انتظر شعب الله المسيا؟

ومن هو المسيا بحسب المفهوم اليهودي؟ ومن أي شيء سيخلص شعبه؟ هل هو مخلص بالمعنى الديني أم السياسي؟ وسنحاول بنعمة الله أن نعالج هذه الأسئلة وأسئلة أخرى في الفصل التالي.

الفصل الثاني

تطور فكرة المسيا عند اليهود

كان الغرض من الفصل السابق أن نورد بعض الفصول الكتابية التي تشير إلى المسيا، وما هو العمل الذي سيقوم به عندما يأتي إلى العالم. ولقد رأينا أن معظم النبوات والأنبياء يقدمون لنا مسيا سيخلص شعبه من خطاياهم وسيحررهم من العبودية. ومما لا شك فيه أن الظروف التي اجتاز فيها الشعب قديمًا منذ دعوة الله لإبراهيم إلى ما بعد خراب أورشليم، شجعت كثيرًا على تأويل وتحريف هذه النبوات في الأوساط اليهودية وإلباسها ثوبًا سياسيًا وطنيًا. ومما لا شك فيه أيضًا، أن الذين تنبأوا بمجيء المخلص قد تنبأوا مسوقين من روح الله القدوس (٢تي ٣: ١٤ - ١٧، ٢بط ١: ١٩ - ٢١) إلا أنهم اقتبسوا أمثالهم وأقوالهم من البيئة التي كانوا يعيشون فيها، فقد كان شعب الله يعيش في وسط معادٍ له. وكم من المرات تعرض هذا الشعب لهجمات عنيفة وحروب شعواء ومؤامرات سوداء. في هذه الظروف العصيبة المؤلمة، لم يترك الرب شعبه ليد الأعداء بل كان يرسل لهم مرسلاً أو قائدًا لكي يذكرهم أولاً وقبل كل شيء بالعهد الذي قطعه معهم يهوه (تك ١٢: ٣، ١٥: ٤ - ٥، ١٧: ٩ - ١٠، ١٨ - ١٩، ١٨: ١٨، ٢٢: ١٥ - ١٧) لكي يكونوا له شعبًا. والعمل الثاني الذي يقوم به المرسل أو القائد هو أن يكون أداة في يد الله لخلاص شعبه من أعدائهم، وهنا نرى الجو الذي وُلد فيه الاصطلاح مخلص، أو مسيح.

وقبل أن ندخل في التفصيلات التاريخية السياسية، ومتى وكيف انتشر المفهوم الخاص بالمسيا عند اليهود، يحسن بنا أن نعرف ما معنى «مسيا» من الناحية اللغوية. إن كلمة «مسيا» أو (MASHIAH) عبرية الأصل ولقد تُرجمت إلى اليونانية «كريستوس (CHRISTOS)» وتعني الممسوح، فكلمة مسيا تعني ممسوح، وكلمة المسيح تعني الممسوح. ثم إن كلمة يسوع تعني في أصلها العبري «الله يخلص». ولقد أُعطي هذا اللقب لملوك إسرائيل بعد مسحهم ملوكًا وبذلك يصبح الملك «مسيح الرب». فنرى صموئيل النبي يمسح شاول ملكًا، فهو مسيح الرب. (١صم ٩: ١٦، ١٠: ١) وكذلك داود (١صم ١٦: ١٢)، وسليمان (١مل ١: ٤٥)، ويوآش (٢مل ١١: ١٢). وكانت المسحة ضرورية أيضًا بالنسبة للكهنة (خر ٢٨: ٤١، ٢٩: ٧) كذلك أيضًا بالنسبة للأنبياء (١مل ١٩: ١٦، إش ٦١: ١).

كانت المسحة لازمة وضرورية للملك، فعن طريقها يمكن للملك أن يقوم بممارسة بعض الخدمات الدينية (٢صم ٦: ١٢ - ١٨، ٢مل ١٦: ١٢ - ١٥، ١مل ٨: ١٤). والذي يهمنا في هذا الأمر هو ما كان ينتظره اليهود من ممسوح الرب أو مسيح الرب. وما كان ينتظره اليهود من ملكهم واضح وصريح في أول مظاهرة لهم في التاريخ للمطالبة بملك عندما جاءوا إلى صموئيل

النبي قائلين له: «فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب» (١صم ٨: ٥). لقد كانت رغبة قلب هذا الشعب أن يصير كباقي الشعوب، له ملكه فأعطى لهم الرب ملكًا حسب رغبة قلوبهم، وهو شاول الذي مسحه صموئيل النبي ملكًا (١صم ٩: ١٥ - ١٦، ١٠: ١). وصار شاول ملكًا على إسرائيل من سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠١٥ تقريبًا. ووظيفة الملك واضحة كما حددها هذا الشعب بالقول: «فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا» (١صم ٨: ٢٠).

على أن شاول لم يفلح في ملكه بل سلك حسب هوى قلبه، ورغبة نفسه، ولم يعر كلام الرب أذنًا صاغية، ولذلك رفضه الرب وأقام مكانه داود: «فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته على أن يملك على إسرائيل. املأ قرنك دهنًا وتعال أرسلك إلى يسى البيتلحمي لأني قد رأيت في بنيه ملكًا» (١صم ١٦: ١ - ١٣، مز ٧٨: ٧٠، ٨٩: ١٩، ٢٠).

ولقد نصب داود ملكًا رسميًا في سنة ١٠١٥ ق.م. وملك إلى سنة ٩٧٥ ق.م. تقريبًا، وبملك داود على إسرائيل بدأت صفحة جديدة في تاريخ هذا الشعب. فإن الوعود التي سبقت الإشارة إليها من الناحية الأرضية (تك ١٢: ٣، ٤ - ٥، ١٧: ٩ - ١٠، ١٨ - ١٩، ١٨: ١٨، ٢٢: ١٥ - ١٧) بدأت الآن تتحقق بطريقة عملية في ملك داود (١مل ٨: ٢٠، مز ٧٨: ٨٠، مز ٨٩: ٣، ٤، ٢٩، ٣٦، ٣٧).

ثم جاء ابنه سليمان وملك من سنة ٩٧٥ ق. م. تقريبًا. بعد أن مسحه صادوق الكاهن بأمر الملك داود نفسه (١مل ١: ١- ٥٣) وهو الذي قام ببناء هيكل الرب الذي أراد داود أبوه أن يبنيه ولكن الرب منعه عن ذلك (٢صم ٧: ١٣) ولقد تم بناء هذا الهيكل حوالي سنة ٩٦٤ ق. م. (١مل ٦: ٣٧ - ٣٨).

بعد أن مات سليمان وانضم إلى آبائه في سنة ٩٣٥ ق.م. انقسمت المملكة إلى قسمين: مملكة الجنوب وتدعى يهوذا وعاصمتها أورشليم، ولقد ملك عليها من سنة ٩٣٥ - ٥٨٦ عشرون ملكًا وكلهم من عشيرة داود، إذ استثنينا الملك أخزيا بن يهورام إذ أن أمه عثليا كانت بنت عمري ملك إسرائيل (١مل ٨: ١٨، ٢٦)، ولقد شمل هذا القسم كل بيت يهوذا وسبط بنيامين.

والقسم الثاني هو مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة، وكان هذا القسم يشمل عشرة أسباط. وأول ملك على إسرائيل بعد الانقسام في مملكة الشمال هو يربعام الذي عمل عجلي ذهب وقال لإسرائيل: «هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحدًا في بيت إيل وجعل الآخر في دان» (١مل ١٢: ٢٨ - ٢٩) وبذلك أراد يربعام أن يمنع شعب إسرائيل من الذهاب إلى أورشليم وتقديم الذبائح هناك حتى لا يرجع قلب هذا الشعب إلى رحبعام، وأن يقطع كل صلة يمكنها أن تربط شعب الجنوب (يهوذا) بشعب الشمال (إسرائيل)، وبهذا ازدادت شقة الخلاف واتسعت الفجوة بين الشعبين الشقيقين وأصبحا كفريستين بين مخالب الأمم التي تحيط بهما، ولقد كانت هذه الحقيقة كافية لتقوية روابط المحبة، ودفعهما إلى الاتحاد الحقيقي، ولكن حدث العكس، فقد شن كل منهما حربًا شعواء على أخيه، بل حدث في أحيان كثيرة أن انضم كل منهما إلى صف عدو كان في الماضي عدوًا مشتركًا لهما.

وهنا تبدأ المأساة المحزنة المؤلمة والتي ستستمر حقبة طويلة من الزمن يقوم خلالها إسرائيل بحرب ضد يهوذا ويهوذا بحرب ضد إسرائيل، ويريد كل منهما أن يفني الآخر.

لقد كان الصراع بين هذين الشعبين الشقيقين في أحيان كثيرة عنيفًا حتى أنه تطور إلى حروب وقتال وتدمير وتشريد. وهكذا نرى أن إسرائيل ويهوذا، المملكة المنقسمة، عاشت في صراع وحرب وقتال ولم تعرفا السلام إلا في فترات قصيرة وعابرة. «وكانت حرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام» (١مل ١٤: ٣٠، ١٥: ٦، ٢أخ ١٢: ١٥) ولقد استمرت هذه الحالة وسيطرت على المملكة المنقسمة من سنة ٩٣٥ إلى سنة ٧٢١ ق.م. أي سنة السبي الأول لإسرائيل. وفي هذه الفترة كان يحكم على إسرائيل ملوك وعلى يهوذا ملوك آخرون. تارة يقتربون من السيد متذكرين عهوده ووصاياه، وتارة يبتعدون، ولذلك أسلمهم الرب إلى أيدي أعدائهم مرات كثيرة عندما كانوا يبتعدون عنه ويفعلون الشر أمام عينيه. كما أنه أيضًا أسلم أعداءهم لأيديهم عندما رجعوا إليه بقلوبهم وتابوا عن خطاياهم واعترفوا بسيادته المطلقة عليهم (١مل ١٤: ٧ - ١٦، ١١: ٣١ - ٣٩ و ٢مل ١٧: ٦، ٢أخ ١٢: ١ - ٢ و١مل ١٦: ٢٥ و ٢أخ ١٥: ٢ و١مل ٢٠: ١ - ٣٤ و٢مل ٦: ١ - ٣٣، ٧: ١ - ٢٠ و٢مل ١٧: ٧ - ٤٠، ١٨: ١ - ٣٧).

هكذا عاش هذا الشعب المتمرد في المملكتين الجنوبية (يهوذا) والشمالية (إسرائيل) يعرج بين الفرقتين (١مل ١٨: ٢١) ولم يسمع لقول الأنبياء، الذين كانوا يعلنون محبة الله العظيمة له، بل سد أذنيه وأغمض عينيه وأغلق قلبه، ولأنه كان شعبًا صلب الرقبة عنيدًا وقاسي القلب، أسلمه الله إلى أيدي أعدائه. فبعد أن ذاق مرارة الانشقاق الذي دام أكثر من مائتي عام (٩٣٥ - ٧٢١ ق.م.) نراه الآن يدخل في محنة جديدة أو بالمعنى الأصح يُزج به في معصرة تعصر لحمه وعظمه بلا شفقة ولا رحمة. ولقد بدأت هذه الكارثة بشعب إسرائيل أولاً عندما جاء تغلث فلاسر ملك أشور وهجم على إسرائيل «وأخذ عيون وآبل بيت معكة وبانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى أشور» (٢مل ١٥: ٢٩). هذا هو السبي الأول الذي سُبي فيه حوالي ٢٧٢٩٠ يهوديًا فيما بين سنتي ٧٣٤ - ٧٣٢ ق.م. ولم يكن هذا السبي، إلا فاتحة لسلسلة طويلة من السباء في المملكتين. ثم في سنة ٧٢٤ ق.م جاءت الجيوش الأشورية وحاصرت مدينة السامرة التي بذلت كل ما في وسعها للمقاومة والصمود ضد العدو. إلا أن الحصار استمر حوالي ثلاث سنوات، فلم تستطع المدينة مقاومة الأعداء الذين كانوا يحاصرونها من الخارج، وإمداد السكان بالطعام والشراب من الداخل، فاضطرت السامرة في نهاية الأمر أن تسلم للعدو الأشوري. وهكذا سقطت السامرة في يد سرجون (SARGON) في سنة ٧٢١ ق.م. بعد حصار طويل ومقاومة باسلة. ولم يكتفِ الأشوريون بدخول المدينة وتخريبها بل سبوا الإسرائيليين وأسكنوهم في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي، ثم قاموا بحركة عكسية فأتوا بقوم من «بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنوهم في مدن السامرة عوضًا عن بني إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها» (٢مل ١٧: ١- ٢٤).

ولقد استطاع الأشوريون باتباعهم هذه السياسة، سياسة طرد المواطنين من أوطانهم، كما فعلوا مع السامريين والبابليين أن يحكموا هذه الشعوب المختلفة المتنوعة بيد من حديد. فبعد حركة تفريغ الأرض من الإسرائيليين وإسكانها بعدد كبير من الشعوب الأجنبية، لم يتبقَّ من هذا الشعب في الأرض الإسرائيلية إلا البعض من الفلاحين العجائز، ثم انتشرت الوثنية في

الأرض كلها، الوثنية التي بدأ بها يربعام عندما صنع عجلي الذهب وقال: «هوذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحدًا في بيت إيل والآخر في دان» (١مل ١٢: ٢٧ - ٢٩). فإن هذه البذرة الصغيرة التي زرعها يربعام أصبحت بعد سقوط السامرة شجرة كبيرة ضخمة تأوي الطيور إليها وتبني فيها أعشاشها: «فكانت كل أمة تعمل آلهتها، ووضعوها في بيوت المرتفعات التي عملها السامريون. كل أمة في مدنها التي سكنت فيها» (٢مل ١٧: ٢٩ - ٤٠) وهكذا سقطت السامرة ساجدة روحيًا وعسكريًا تحت أقدام الأشوريين وآلهتهم! فهل استطاعت مملكة الجنوب (يهوذا) أن تتخذ لنفسها عظة وعبرة من هذا السقوط المريع الذي سقطت فيه أختها مملكة الشمال (إسرائيل)؟ هل استطاعت أن تفتح عينيها وتميز صوت الرب الذي يكلمها في هذه الكوارث التي لحقت بأختها؟ للأسف الشديد لقد سدت أذنيها وأغلقت قلبها وصلّبت رقبتها ولم تسمع لصوت ذاك الذي كان يناديها بالقول: «افتحي لي يا أختي يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي لأن رأسي امتلأ من الطل وقصصي من ندى الليل». ولكن كان جوابها: «قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه. قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما... فتحت لحبيبي لكن حبيبي تحول وعبر» (نش ٥: ١ - ٨) نعم لقد تحول وعبر عن مملكة إسرائيل مسلّمًا إياها لملك أشور الذي سباها إلى أراض بعيدة ومتفرقة، وها الآن يأتي دور أورشليم، دور يهوذا (مملكة الجنوب)، ولكن الهجوم لا يأتي هذه المرة من أشور بل من بابل التي استطاعت أن تكسر شوكة أشور وإمبراطوريتها وتحل محلها، وإن كانت سياستها لا تختلف كثيرًا عن سياسة أشور. ولقد انهالت عدة كوارث على يهوذا عندما ظهر في التاريخ القائد المحارب المحتل نبوخذ راصر الذي غزا بلاد الأراراط (Dicitonnaire, **Biblique J. Dheilly.** p.p. 796- 797) في سنة ٦٠٦ ق. م (إر ٤٦: ٢) ثم استطاع أن يهزم فرعون نخو ملك مصر عند نهر الفرات في سنة ٦٠٥ (إر ٤٦: ٢) ثم قام باحتلال سوريا حتى وصل إلى حدود مصر، ولكنه في سنة ٦٠٤ اضطر للرجوع إلى بابل لسبب وفاة أبيه نابوبولاسار (Nabopolassar) ولقد تولى نبوخذ راصر الحكم وإدارة البلاد الواسعة المترامية الأطراف بيد قوية وإرادة صلبة.

ولذلك فعندما تمرد الملك يهوياقيم ملك يهوذا على بابل أرسل نبوخذ راصر بعضًا من قواته العسكرية المرابطة في المنطقة، من الكلدانيين والأراميين الموآبيين والعمونيين (٢مل ٢٤: ٢) فأخمدوا الثورة في أورشليم، على أن هذه الثورة تمخضت فولدت ثورة أخرى أعنف وأقسى فلقد حاول الحزب المؤيد لمصر في أورشليم إثارة الشعب ضد سياسة بابل وتدخلها بطريقة مباشرة في شئون اليهودية، وعندئذ ثار نبوخذ راصر ثورة عارمة، فجاء بجيوشه وقواته العسكرية وأحاط بأورشليم ولم تستطع هذه المدينة الصمود أمام قوات بابل المدربة، أكثر من ثلاثة شهور. ففي ١٦ مارس ٥٩٧ ق.م. سقطت أورشليم تمامًا في يد نبوخذ راصر. وهنا نرى القافلة الأولى من المسبيين وعلى رأسهم الملك يهوياكين وأمه وعبيده في طريقهم إلى بابل، إلى أرض السبي (٢ مل ٢٤: ٨ - ١٧، ٢أخ ٣٦: ٩ - ١٠ وإر ٢٢: ١٨ - ١٩، ٢٤: ١، ٢٩: ١ ودا ١: ١-٢، ٥: ١ - ٢، حب ١: ٦) وعدد الذين أخذوا في هذا السبي الأول ليهوذا حوالي عشرة آلاف شخص من أغنياء البلاد ومن ذوي البأس والصناع والعمال (٢مل ٢٤: ١٤ - ١٧) هذا هو السبي الأول الذي كان كضربة قاسية وقاضية على يهوذا مملكة الجنوب.

السبي الثاني: بالرغم من الخراب والتدمير والقتل والسبي الذي قاسته أورشليم وسكانها في ٥٩٧ ق.م، فإن هذه المدينة هبت ثانية ثائرة ضد بابل، وعندئذ جاءت القوات العسكرية البابلية وعلى رأسها نبوخذ راصر نفسه، وحاصر المدينة وبنى

حولها أبراجًا. وظلت المدينة تحت هذا الحصار القاسي القاتل ثمانية عشر شهرًا (من يوليو ٥٨٨ إلى يناير ٥٨٦). فاشتد الجوع وانتشر الوباء بين الشعب، وتذمر القادة فثغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً. فتبعتهم جيوش الكلدانيين وأدركوا الملك صدقيا والهاربين معه. وأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ربله وكلموه بالقضاء عليه، وقتلوا بنيه أمام عينه وقلعوا عينيه، وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل (٢مل ٢٥: ١ - ٧ و٢أخ ٣٦: ١٢ و إر ٢١: ١-٩، ٣٢: ١ - ٥، ٣٤: ١ - ٤، ٢١، ٥٢: ١ - ٣٤ وحز ١٢: ١٢ - ١٤، ١٧: ١١ - ٢١، ٢٣: ٢٨ - ٣٥).

السبي البابلي الثالث: أما السبي الثالث فقد تم على يد «نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل» الذي جاء إلى أورشليم عام ٥٨١ ق.م. وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم، وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرًا هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط، وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون سباهم نبوزرادان رئيس الشرط.. وأعمدة النحاس التي في بيت الرب والقواعد وبحر النحاس الذي في بيت الرب كسرها الكلدانيون وحملوا نحاسها إلى بابل. والقدور والرفوش والمقاص والصحون وجميع آنية النحاس التي كانوا يخدمون بها أخذوها، والمجامر والمناضح. ما كان من ذهب فالذهب وما كان من فضة فالفضة أخذها رئيس الشرطة (٢مل ٢٥: ٨ - ٣٠).

وبعد أن سلبوا المدينة وأهلها، وأشعلوا النيران في الهيكل وأخذوا من سبوهم وغنائمهم، ورجعوا إلى بابل لم يتركوا في أورشليم إلا الفقراء والعاجزين عن العمل والإنتاج، والفلاحين والكرَّامين. وحتى البقية القليلة التي بقيت بعد هذا السبي الثالث هرب معظمها إلى مصر بعد اغتيال جدليا (إر ٤٣: ٢، ٣، ٧، ٢ مل ٢٥: ٨ - ٣٠، ٢أخ ٣٦: ١٧ - ٢١). ولقد تضاربت الآراء بخصوص عدد المسبيين في المراحل الثلاث. على أن العدد الذي اتفقت عليه الأغلبية هو حوالي ٢٢,٠٠٠ مسبي، غير النساء والأولاد[١].

وهنا تتم نبوات إرميا والأنبياء الآخرين الذين حاولوا جاهدين بالإرشادات والإعلانات والصلوات إرجاع إسرائيل ويهوذا إلى صوابهما. إن إرميا النبي الذي كان معاصرًا لبعض الحوادث لم يستطِع الصمت أمام الكوارث التي حلت بشعبه، وقد وعظ وعلَّم وتنبأ بالرغم من السجن والضرب وطرحه في البئر، ولكن للأسف الشديد فقد صلَّب الشعب رقبته وغلَّظ قلبه ولم يسمع لصوت المحبة الذي كان يدعوه، ولذلك حلت بهم هذه الكوارث، وفي نهاية الأمر تُرك لهم بيتهم خرابًا (إر ١: ١٥، ١٧، ٣٢: ٢٦ - ٣٥، ٣٩: ٣، ١٠: ٢٢ وحز ١٢: ٨ - ١٦، ١٧: ١١ - ٢١).

وكيف لم يُترك لهم بيتهم خرابًا ونحن نرى بعد السبي أن مدن إسرائيل وقد خُربت وهُجرت وأصبح ساكنوها أجانب، وأقيمت المذابح والهياكل والمعابد الوثنية على اختلاف أشكالها وأنواعها في طول بلاد إسرائيل وعرضها، وفي مملكة يهوذا بعد أن رفضت أن تأخذ من سقوط أختها إسرائيل عظة، ووصلت هي أيضًا إلى نفس المصير، فسقطت أورشليم، ودُمرت جدرانها وهُدم هيكلها الذي بناه سليمان والذي كان فخرًا لكل الأمة. (هيكل سليمان بُني حوالي سنة ٩٦٤ ق.م). (١مل ٥: ٧ - ٣٨).

(١) انظر القاموس الفرنساوي .D.B ص ٢٦٧.

لقد سُبي الشعب المختار إلى بلاد بعيدة وكثيرة، وهناك في الغربة عندما جلس الإسرائيليون على ضفاف أنهار بابل يتذكرون بلادهم خصوصًا عندما سألهم الذين سبوهم أن يرنموا لهم ترنيمة من ترنيمات أورشليم. فقال هؤلاء المسبيون والحزن يقطع قلوبهم: «كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة، أن نسيتكِ يا أورشليم تنسى يميني، ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكركِ إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي» (مز ١٣٧: ١ - ٦).

في هذه الأرض الغربية والبعيدة عن أورشليم وعن السامرة، اندمج الشعب المختار في الشعوب الأخرى، خصوصًا مسبيو إسرائيل، الذين اختلطوا بسرعة بالشعوب التي تم سبيهم إليها، فأصبح وطن السبي والغربة وطنهم، لدرجة أن الكثيرين بل الأغلبية الساحقة من شعب إسرائيل فضلت البقاء في مدن السبي على العودة إلى بلاد إسرائيل. وأما مسبيو يهوذا فمع أن عددًا لا بأس به منهم استطاع أن يتأقلم في الإقليم الجديد وأن يتكيف في المجتمع الغريب بدون أية صعوبة، فإن عددًا لا بأس به أيضًا ظل متمسكًا بإلهه، لا يفكر إلا في العودة إلى أوشليم، حيث يستطيع أن يرنم ترنيماته الحلوة بصوت مرتفع وحرية كاملة. فالعودة من السبي بالنسبة للأقلية القليلة المبعثرة والمسبية «في حلح وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي» (٢مل ١٧: ١ - ٢٤). أي الذين تم سبيهم من إسرائيل، وبالنسبة للعدد الذي لا بأس به في بابل (أي الذين تم سبيهم من يهوذا)، أصبحت هذه العودة هي الحلم اللذيذ الذي يداعب خيال هؤلاء جميعًا، وقصة الرجاء الحلوة التي فيها يرى المسبيون قبسًا من النور وبابًا للأمل والرجاء.

ففي فترة السبي وبسببه أيضًا، بدأ بعض الأنبياء بالتحدث من جديد عن المسيا المخلص، الذي يختلف عن كل المخلصين والمحررين السابقين الذين عرفهم يهوذا وإسرائيل. ولقد عرفت هذه الأمة منذ ولادتها قادة، وقضاة، ومخلصين، وملوكًا وممالك؛ فقد أخرجها موسى من مصر، ويشوع دخل بها إلى أرض الموعد، وقضى لها القضاة دبورة وصموئيل وغيرهما، ثم ملك عليها شاول فداود فسليمان وحوالي أربعين ملكًا ملكوا في المملكتين الجنوبية يهوذا، والشمالية إسرائيل، كل هؤلاء ظهروا في وسط شعب الله، وقادوه خلال هذه الحقب التاريخية ولعبوا دورًا في حياته، البعض منهم بنى والبعض الآخر هدم. البعض حاول الجمع والآخر عمل على التفريق وإثارة الحروب. وانتهى الأمر بهذه الأمة إلى السبي، وهناك في السبي بدأ الشعب يحلم بمخلص وملك يخلصهم من سبيهم، ويحررهم من عبوديتهم، ويخرجهم لا من مصر كما كان يحلم الشعب قديمًا، بل من بابل والمدن الأخرى التي تشتتوا فيها، فإرميا يقول: «ها أيام تأتي يقول الرب وأقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجري حقًا وعدلاً في الأرض، في أيامه يخلَّص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنًا وهذا هو اسمه الذي يدعونه به: الرب برنا، لذلك ها أيام تأتي يقول الرب ولا يقولون بعد: حي هو الرب الذي أصعد بني إسرائيل من أرض مصر، بل: حي هو الرب الذي أصعد وأتى بنسل بيت إسرائيل من أرض الشمال ومن جميع الأراضي التي طردتهم إليها فيسكنون في أرضهم» (إر ٢٣: ١ - ٨).

ولكن كيف يستطيع هذا الشعب المشتت في مدن كثيرة مترامية الأطراف، الشعب المحطَّم المسحوق، الذي لا قوة له ولا نظام فيه، كيف يمكن لهذا الشعب المسبي والمشتت أن يرجع إلى وطنه؟! ويرسل الرب جوابًا إلى هذا الشعب الذي كان يعيش غريبًا بعيدًا عن وطنه، حزينًا ومحطمًا، في الرؤيا التي أعلنها إلى النبي حزقيال (٣٧: ١ - ١٤) (رؤيا النبي للعظام اليابسة).. «ثم

قال لي: يا ابن آدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل، ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا، لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي وآتي بكم إلى أرض إسرائيل» (حز ٣٧: ١١- ١٤). ثم قوله: «وآخذكم من بين الأمم وأجمعكم من جميع الأراضي وآتي بكم إلى أرضكم.. وتسكنون الأرض التي أعطيت آباءكم إياها وتكونون لي شعبًا وأنا أكون لكم إلهًا».. (حز ٣٦: ٢٤، ٣٨). «وأصيرهم أمة واحدة في الأرض على جبال إسرائيل، وملك واحد يكون ملكًا عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين.. وداود عبدي يكون ملكًا عليهم، ويكون لجميعهم راعٍ واحد.. ويسكنون في الأرض التي أعطيت عبدي يعقوب إياها».. (حز ٣٧: ٢٢، ٢٤، ٢٥).

وهنا نرجع إلى السؤال الذي طرحناه سابقًا: كيف يمكن لهذا الشعب المسبي والمشتَّت والمحطَّم الرجوع إلى وطنه؟!

مما لا شك فيه أن نبوات الأنبياء هنا تعني رجوع الشعب المطرود والمسبي إلى وطنه: إلى الأراضي التي سُبي منها. ولكن من الذي يقوم بعملية الإرجاع هذه؟ أو من هو الذي يستطيع أن يخلصهم من براثن الأسد القوي الذي يقبض عليهم بمخالبه؟ على أننا نود أن نفهم الجملة السابقة فهمًا جيدًا، وهي (مما لا شك فيه أن نبوات الأنبياء هنا تعني رجوع هذا الشعب المطرود والمسبي إلى الأراضي التي سُبى منها).

ونحن لا نقصد هنا بهذا القول رجوع أمة صهيونية إلى فلسطين، بل ما نريد أن نوضحه هو أن نبوات الأنبياء كانت موجهة إلى شعب مسبي في بلاد بعيدة، وفي أزمنة بعيدة أيضًا عن الزمن الذي نعيش فيه حاليًا. ولقد تم فعلاً كثير من هذه النبوات برجوع الكثيرين من المسبيين إلى أرضهم قبل الميلاد.

وأما الرجوع الذي يتكلم عنه الرسول بولس أو خلاص إسرائيل (رومية ٩ - ١١) «وهكذا سيخلص جميع إسرائيل..» (رو ١١: ٦) فإنما يُقصد به الخلاص الروحي وليس تكوين مملكة أو أمة، فإن باب الخلاص، أي قبول الرب يسوع المسيح كمخلص وفاد، مفتوح ليس فقط لليهود بل للأمم أيضًا: للأسود وللأصفر وللأبيض وللغني وللفقير. فالرجوع لا يقصد به إذن رجوعًا إلى أمة معينة أو إلى أرض معينة. بل إلى الرب يسوع. فعندما يرجع اليهود إلى المسيح ويقبلونه كمخلص يسر بهم قلب الآب وتفرح بهم السماء. وما نريد أن نلفت نظر القارئ إليه هو أننا لا نريد بهذه الكلمات القصيرة أن نتملق أي دولة أو هيئة حاكمة، بل إننا نحاول بروح الصلاة أن نشرح كلمة الرب معطين لها الأولوية، لأنه «ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس» (أع ٥: ٣٩).

على أية حال ليس هذا موضوع بحثنا، فلنرجع إذن إلى السؤال الذي طرحناه سابقًا، وهو من الذي سيقوم بعملية إرجاع إسرائيل الذي كان مشتتًا في أشور وبابل وفي مدن كثيرة وبعيدة؟

مما لا شك فيه أن مسبيي إسرائيل ويهوذا (٧٢١، ٥٩٧ - ٥٨٢) كانوا لا يعرفون كل النبوات المختصة بالرجوع إلى بلادهم، إذ أن هذه النبوات كثيرة وعديدة جدًا، ولم نذكر منها هنا إلا البعض القليل. على أن بعض هذه النبوات كانت معروفة ولو بطريقة جزئية وغير كاملة، خاصة النبوات التي كان ينطق بها الأنبياء شفويًا، أو بطريقة مباشرة كعظات مثل عاموس، هوشع،

إشعياء، ميخا، إرميا.. فمن هذه النبوات اكتشف المسبيون أن الله سيفتقد شعبه بإرساله مخلصًا لهم. وكما سبق القول فإن الأنبياء الذين تكلموا عن هذا المخلص وصفوه بأنه سيكون رئيسًا يختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن كل الرؤساء والملوك الذين سبقوه في إسرائيل ويهوذا. (إش ٩: ٦، ٧، ١١: ١-١٠). في عهد هذا الرئيس أو الملك سيكون السلام سائدًا بطريقة لم يسبق لها نظير.

ثبَّت بعض المسبيين أنظارهم على هذه النبوات وكأنها شعاع نور في ليلة مظلمة، غير أن البعض الآخر من هؤلاء المسبيين شطوا بعيدًا عن روح النبوات المقدسة، فقد انتظروا مخلصًا ومسيا سياسيًا لكي يخلصهم من السبي ومن الاستعباد.

وهناك في السبي تتبلور وتكبر فكرة المسيا عند اليهود، فإن فكرة مسيا الرب أو مسيح الرب كانت موجودة، ولكنها بدأت تأخذ شكلاً أكبر في السبي، ويمكن أن نقول إن هذا الانتظار - انتظار مخلص يخلص شعبه - هو نفس الانتظار الذي كان يحلم به إسرائيل في فترة حكم القضاة. فالشعب الذي كان يعيش مهددًا من الشعوب التي كانت تحيط به، كان ينتظر الخلاص من يهوه. وهنا في السبي، خصوصًا عند المسبيين من مملكة الجنوب (يهوذا) بدأت فكرة المخلص أو المسيا الذي من أصل داود، تختمر في أذهان المسبيين: «ويخرج قضيب من جزع يسى وينبت غصن من أصوله..» (إش ١١: ١ - ١٠). هذه الفكرة - فكرة المسيا أو مسيح الرب - التي كانت موجودة عند اليهود قبل السبي كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وُلدت من جديد في الوسط اليهودي في فترة السبي، وستظل مسيطرة على عقول وقلوب اليهود عبر التاريخ. وسنرى في المستقبل أن فكرة المسيا لعبت دورًا كبيرًا هامًّا في حياة الأمة اليهودية من الناحية السياسية والاجتماعية.

إن الشعب المسبي (خصوصًا مسبيي يهوذا) بدأ يفكر بطريقة جدية في تدخل الرب في كل ما حدث له. فقبل السبي رفض هذا الشعب أن يستمع لإنذارات الأنبياء، وضرب بها عرض الحائط، أما الآن بعد أن تحققت كل النبوات التي تنبأ بها الأنبياء فقد عرف الشعب أن مصدر هذه النبوات هو الله وأنه يريد رجوعه وتوبته، وفعلاً سمع البعض صوت الله الذي كان يكلمهم في الغربة بطرق متعددة، فرجع هو أيضًا إليهم واستجاب لصلاتهم.

ففي سنة ٥٥٠ ق. م. صار كورش ملكًا لفارس ومادي، وقام بالهجوم على بابل في سنة ٥٤٠، وهذه المدينة القوية الحصون لم تستطع الثبات أمام قوات جيوش كورش أكثر من خمسة عشر يومًا فسقطت بابل في يد ملك فارس، في الوقت الذي كانت الآمال والأحلام بالرجوع إلى يهوذا تملأ أذهان وقلوب اليهود في السبي. ولقد كانت سياسة كورش من الناحية الدينية تختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن سياسة بابل، فعندما أصبحت بابل تابعة له أصدر منشوره الشهير عام ٥٣٨ ق.م. (انظر القاموس الفرنسي D.B ص ٢٤٧) والذي يتضمن هذا القول: «هكذا قال كورش ملك فارس: جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتًا في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه، ليكن إلهه معه، ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا ويبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم» (عز ١: ٢- ٤).

كان كورش ملكًا متسامحًا من الناحية الدينية مع كل الشعوب والأمم التي كان يحكمها، وكان لا يعتبر نفسه الغازي

المنتصر على الشعوب التي دخلت تحت سلطانه، بل كان يعتبر نفسه المحرر لهذه الشعوب. ولذلك فقد ترك للكثير من هذه الشعوب حرية تقرير المصير. ولقد ظهر كورش على المسرح السياسي في الوقت الذي كان فيه البعض من اليهود يشتاقون للعودة إلى بلاد يهوذا. ولذلك فقبل أن يصل إلى بابل ويستولي عليها يكتب عنه إشعياء هذه الكلمات: «هكذا يقول الرب لمسيحه» لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أممًا وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق.. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل. لأجل عبدي يعقوب وإسرائيل مختاري دعوتك باسمك، لقبتك وأنت لست تعرفني» (إش ٤٥: ١ ، ٣- ٥، ٤١: ٢ - ٤، ٢٥). ثم يقول أيضًا: «القائل عن كورش راعي فكل مسرتي يتمم ويقول عن أورشليم ستبنى وللهيكل ستؤسس» (إش ٤٤: ٢٨ و٢ أخ ٣٦: ٢٢، ٢٣).

وهنا يدرك إسرائيل في غربته أن كل ما حدث لهم قبل السبي وفي أثنائه، لم يحدث لهم عفوًا أو عن طريق الصدفة، بل إن يد الله القدير كانت وراء هذه الحوادث، فهو الذي أرسل الأشوريين بجيوشهم على السامرة فخربوها، وهو أيضًا الذي أرسل نبوخذ راصر على أورشليم فقلبها رأسًا على عقب لأنهم تركوا السيد وحفروا لأنفسهم آبارًا كثيرة لا تضبط ماء كما يقول النبي المعاصر لسبي يهوذا: «لأن شعبي عمل شرين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارًا آبارًا مشققة لا تضبط ماء» (إر ٢: ١٣). وهو أيضًا نفسه الذي يسخر كورش ملك فارس لكي يصدر هذا القرار الشهير بعودة الذين يريدون العودة إلى أورشليم لأن «قلب الملك في يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يميله» (أم ٢١: ١). ولم يدرك هذا الأمر إلا عدد قليل جدًا من الشعب المسبي، أولئك الذين كانت لهم العيون المفتوحة فاستطاعوا أن يروا يد الله خلف كل هذه الأحداث: «خراب السامرة وأورشليم ثم ظهور كورش على المسرح أن يفهموا ولو جزئيًا بأن الله كان يكلمهم بطرق كثيرة» (عب ١: ١).

ومن هؤلاء الذين كانت لهم العيون المفتوحة والآذان الصاغية لصوت الله: زربابل من شالتئيل وهو من نسل يهوياكين الملك (أي ٣: ١٦ - ٢٠ وعزرا ٣: ٢ وحجي ١: ١ ومتى ١: ١٢).

فإن كان الله يسخِّر الملوك لكي يصدروا قراراتهم لتنفيذ إرادته فهو يستخدم أيضًا عبيده لقيادة هذا الشعب روحيًا وسياسيًا. إن الذي يقود هذا الشعب ليرجع به إلى أرض الموعد يجب أن يكون من هذا الشعب. فقد كان موسى الذي أخرج شعبه من مصر من هذه الأمة، وهو أيضًا الذي تنبأ فقال: «يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون» (تث ١٨: ١٥)، فمع أن هذه النبوة تشير إلى النبي الأعظم، المسيح، إلا أن الكثيرين رأوا فيها إشارة إلى زربابل، خصوصًا أن زربابل الذي كان ينتظر بدون شك بفارغ الصبر، فرصة الرجوع إلى أرض يهوذا، انتهز فرصة هذا القرار الصادر من الملك كورش وقام فورًا بتنظيم قافلتين للراغبين في الرجوع. القافلة الأولى غادرت بابل في سنة ٥٣١ ق.م، القافلة الثانية غادرت بابل أيضًا في سنة ٥٢٢ ق.م. وعندما وصل هؤلاء المسبيون وعلى رأسهم زربابل إلى أورشليم، بدأوا حالاً في إقامة مذبح الرب وإصلاح الهيكل الذي دشن في سنة ٥١٥ ق.م. (انظر القاموس الفرنسي ص ٥٤٣). ولأجل هذا فقد رأى فيه بعض العائدين من السبي (نوعًا من المسيا). أما الأنبياء فقد شجعوه وأيدوه بقوة وحماسة، فزكريا يقول: «*من أنت أيها الجبل العظيم* أمام زربابل تصير سهلاً... إن يدي زربابل قد أسستا هذا البيت فيداه تتممانه فتعلم أن رب الجنود أرسلني إليكم» (زك ٤: ٧، ٩). ثم يقول

حجي: «فالآن تشدد يازربابل، يقول الرب وتشدد يايهوشع بن يهوصادق الكاهن العظيم، وتشددوا يا جميع شعب الأرض، يقول الرب واعملوا فإني معكم يقول رب الجنود» (حج ٢: ٤، ١: ١، ٢: ٢١).

فزربابل يحقق نبوات الأنبياء وآمال الشعب الذي كان ينتظر من مدة طويلة مخلصًا يخلصه ويخرجه من أرض السبي «لأنه هكذا قال الرب: إني عند تمام سبعين سنة لبابل، أتعهدكم وأقيم لكم كلامي الصالح بردكم إلى هذا الموضع» (إر ٢٩: ١٠). «وأجلب على تلك الأرض كل كلامي الذي تكلمت به عليها كل ما كتب في هذا السفر الذي تنبأ به إرميا على كل الشعوب» (إر ٢٥: ١٣، ٣٣: ١٠ - ١٨، ٢٨: ٥- ٦)، قارن هذا مع (عز ٥: ١٢ - ١٧، إر ٣٠: ١٠ - ١٢، ٣٢: ٣٧ - ٤١، ٢٣: ٥ - ٨).

وهنا نرى زربابل كما لو كان بذرة زيتون صغيرة تنبت وتكبر وتصبح شجرة كبيرة، تحمل بين أغصانها سلامًا واستقرارًا لهذه الأمة الباقية الحزينة المشتتة. ولقد بدأت أحلام المسبيين الراجعين إلى يهوذا، بشأن مخلص أو مسيا تتبلور وتكاد أن تصبح حقيقة واقعة، عندما يُنصَّب زربابل حاكمًا على يهوذا: «كلم زربابل والي يهوذا..» (حج ٢: ٢٠ - ٢٣). وهكذا أصبح ليهوذا والٍ وحاكم يهودي، بعد ما ظلت ما يقرب من سبعين سنة (٥٩٧ - ٥٣٧) تغوص في بحر من الأمم يحيط بها وتندمج فيه ويسيطر عليها. وأما الآن فقد تغيرت الأوضاع فمع أن زربابل كان خاضعًا للملك كورش فإن هذا الأخير قد أقامه كحاكم مفوض على يهوذا من قبل ملك الفرس.

هذه هي نتيجة القافلتين الأولى والثانية (سنة ٥٣٧، ٥٢٢) اللتين قادهما زربابل إلى يهوذا للعودة من السبي. على أننا نلاحظ أنه بالرغم من المجهود الضخم الذي بذله زربابل ورفقاؤه في إصلاح ما يمكن إصلاحه في المدينة والهيكل، فقد ظلت أجزاء كثيرة وعديدة في المدينة وأسوارها والهيكل في حالة يرثى لها. فبعد ٩٢ عامًا من وصول القافلة الأولى للمسبيين من بابل إلى أورشليم، وبالتحديد في سنة ٤٤٥ ق.م. جاء إلى شوشن القصر بعض من رجال يهوذا على رأسهم أخو نحميا، وهذا الأخير سأل عن اليهود وعن أحوالهم في أرض يهوذا «فقالوا لي إن الباقين الذين بقوا من السبي هناك في البلاد هم في شر عظيم وعار. سور أورشليم منهدم أبوابها محروقة بالنار..» (نح ١: ١ - ١١) فلما سمع نحميا هذا الخبر المحزن حزن وبكى.

ولاحظ الملك أرتحشستا[١] أن وجه نحميا مكمدًا، وسأله عن ذلك فعرف السبب. وطلب نحميا منه بأن يذهب إلى أورشليم لكي يقوم ببناء هذه المدينة. وبعد صلاة وصوم (نح ١: ١ - ١١) قام نحميا برحلته الأولى إلى أورشليم سنة ٤٤٥ ق.م. (نح ٢: ١- ١٩).

وبعد أن طاف بالمدينة ورأى حالة اليهود المؤلمة المحزنة، جمعهم وقال لهم: «... هلم فنبني أسوار أورشليم ولا تكون بعد عارًا. وأخبرتهم عن يد إلهي الصالحة عليّ وأيضًا عن كلام الملك الذي قاله لي. فقالوا: لنقُم ولنبنِ. وشددوا أياديهم للخير» (نح ٢: ١٧، ١٨). ولقد رمموا أسوار أورشليم (نح ٣: ١ - ٣٣) وعندما رأى الأعداء نشاطهم قاموا ضدهم وأوقفوهم عن العمل (نح ٣: ٣٣، ٤: ١٧) ولكن نحميا استأنف نشاطه مع الشعب بعد أن أحبط حيلة الأعداء.

---

(١) يحتمل بأن أرتحشستا الذي يذكره نحميا هو أرتحشستا الأول. ARTAXE RXES I LONGUEMMAIN ٤٦٥ - ٤٢٥ ق. م. (انظر القاموس الفرنسي ص ٩٥ D. B.).

ولم يقم نحميا بترميم أسوار أورشليم المهدمة فحسب، بل قام أيضًا بعمل إصلاح اجتماعي، بل يمكن أن نقول: قام بثورة اجتماعية ضد الظلم الاجتماعي الذي كان سائدًا. إذ أن عددًا من أغنياء اليهود كانوا يستغلون إخوتهم اليهود أيضًا بأخذ الربا فطلب المصلح الاجتماعي أن يكف الشعب عن هذا العمل (نح ٥: ١- ١٣). وإن كان نحميا قد قام بدور المصلح الاجتماعي فإنه لم يهمل أبدًا الداء الخبيث وهو الحرب ضد الخطية، وإهمال الناموس، ولذلك دعا عزرا الكاتب الكاهن ليقرأ لهم سفر شريعة موسى (نح ٨) وبعد قراءة كلمات الناموس يأتي دور الاعتراف بالخطايا، فقد اعترف الشعب بخطيته وابتعاده عن الله (نح ٩) ولقد قام نحميا بإصلاحات أخرى عديدة (نح ١٠ - ١٣)، لأن الملك عينه حاكمًا لهذه المدينة (نح ٥: ١٤) ولكن كان عليه أن يرجع إلى شوشن القصر لكي يعطي تقريرًا عما فعل في مهمته هذه (نح ٢: ٦، ١٣: ٦ و٧) وبالرغم من المقاومات والمكايد التي حاكها أعداء هذا الرجل المصلح العظيم فقد استطاع أن يواصل البناء.

فقسم الرجال الذين كانوا يعملون معه إلى فريقين، فريق يبني والفريق الآخر مسلح يقوم بحراسة الذين يبنون (نح ٤: ١٥- ٢٣). وبهذه الحماسة والعزم استطاعوا أن ينهوا بناء أسوار أورشليم المنهدمة في أقل من شهرين.

بعد هذا الإصلاح الخارجي، بدأ نحميا في الإصلاح الداخلي: بنهضة روحية فيها تعهد الشعب أن يجدد عهده مع الرب. وعندما جدد الشعب عهده مع الله استراح المصلح فعاد إلى شوشن القصر لكي يعطي تقريرًا للملك عما قام بعمله في أثناء السنوات الاثنتي عشرة (٤٤٥ - ٤٣٣ق.م) واضطر هذا المصلح أن يرجع ثانية إلى أورشليم بعد أن سمع بأن الحياة الروحية انخفضت وأن الشعب بدأ يبتعد عن الرب. فقام برحلته الثانية في سنة ٤٢٣ ق.م. (نح ١٣: ٥و ٧). (انظر القاموس الفرنسي ص ٨٠٦).

فعندما عاد نحميا إلى أورشليم (٥٢٤ ق.م) قام بإصلاح ديني جذري وعميق في المجتمع اليهودي الذي كان قد اندمج في المجتمع الوثني، الذي كان يعيش في وسطه. ولقد طالب نحميا الشعب بحفظ ومراعاة الناموس والسبت. ولقد كان هذا الإصلاح شاملاً وجذريًا لدرجة أنه يقول: «وكان و احد من بني يوياداع بن ألياشيب الكاهن العظيم صهرًا لسنبلط الحوروني فطردته من عندي» (نح ١٣: ٢٣- ٣١). لقد كان نحميا حازمًا شديدًا في إصلاحه، لكي يبني هذه الأمة المنهدمة روحيًا وماديًا وأخلاقيًا.

لقد لعب نحميا دورًا هامًا وعظيمًا في بناء الأمة اليهودية بعد السبي، فعن طريق غيرته للرب وحماسته ونشاطه في العمل والبناء والتجديد استطاع أن يغيِّر شكل المدينة الحصينة والشعب المبتعد المتمرد اليائس في أحيان كثيرة، إلى شعب عامل نشط تملأه وتحركه من جديد الآمال المسيانية القديمة المختصة بملك يملك على إسرائيل.

إن هذه الآمال بدأت عندما قام زربابل بقيادة القافلة الأولى للعودة إلى أورشليم (٥٣٧ ق. م) ثم تثبتت حينما جاء نحميا، ورمم أسوار أورشليم المنهدمة (٤٤٥ ق. م). على أن هذه الآمال المسيانية تعمقت واتسعت في أذهان هذا الشعب عندما قام عزرا بقيادة قافلة كبيرة جدًا من المسبيين إلى بلاد يهوذا، فلقد وصل عزرا الكاتب الكاهن إلى أورشليم على رأس هذه القافلة

في سنة ٣٩٨ ق.م. (انظر القاموس الفرنسي ص ٥٤٣) إن وجود عزرا الكاتب الكاهن (عز ٧: ١١، ١٢، ٢١ و ٢٢) على رأس هذه القافلة العائدة إلى أرض الموعد يعتبر رمزًا روحيًا وماديًا له قيمته العظيمة. فلقد سبق ورأينا زربابل الذي جاء بالقافلة الأولى والذي أصبح حاكمًا لأورشليم كان من نسل ملوكي وهذا تحقيق للوعود التي لا تحصى ولا تعد بخصوص ملك داود. وهنا نرى خطوة أخرى تتحقق بمجيء عزرا الكاهن الكاتب لكي يحقق أيضًا الوعد الخاص بالكهنوت، فقد كان عزرا من نسل هارون. إن نحميا بذل جهدًا كبيرًا يحمد عليه لبناء المدينة المنهدمة، ثم بذل جهدًا جبارًا أيضًا لكي يدعو الشعب إلى التوبة والرجوع إلى الله، ولكن هذه المجهودات الكثيرة والجبارة والتي تظهر غيرة الرجل للرب وحماسته، كانت تحتاج من الناحية الطقسية إلى الكمال. ولكي تكمل هذه المجهودات يأتي عزرا الكاهن الكاتب لكي يهتم بالناحية الروحية. فقام بدعوة الشعب إلى التوبة والتقديس (عز ٩). وهنا يبدأ عزرا عملاً مكملاً لعمل نحميا، فالأول بنى الأسوار المنهدمة من الناحية المادية، والثاني قام ببناء الأسوار المنهدمة من الناحية الروحية.

وهنا تكتمل الصورة المسيانية التي كان يحلم بها المسبيون وهم على ضفاف بابل عندما طلب منهم الأعداء أن يرنموا لهم ترنيمة من ترنيمات بلادهم فقالوا لهم: «كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة، إن نسيتكِ يا أورشليم تنسى يمين ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكركِ إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي» (مز ١٣٧: ٤- ٦).

والآن لقد رجع عدد لا بأس به من الشعب إلى الأرض التي كان يحلم بالرجوع إليها فهل اتعظوا من هذه الغربة؟ هل سمع إسرائيل لصوت إلهه في العاصفة (١مل ١٩: ١٠ - ١٨) والشدة والسبي أم سمع لصوت إلهه المنخفض الهادئ؟

إن الله يدعو الإنسان في كل عصر من العصور لكي يعيش معه وبالقرب منه، وأن يتعبد له وأن يكون أيضًا نافعًا وعاملاً في المجتمع الذي يعيش فيه، فهل نسمع صوته عندما يوجه لنا هذه الدعوة؟

قبل أن أختم هذا الفصل أحب أن ألفت نظر القارئ إلى نقطة هامة: وهي أنه لولا وجود سفري عزرا ونحميا لأصبح التاريخ المختص بالشعب المختار غامضًا وغير واضح في فترة السبي وما بعدها، أي من تاريخ سقوط السامرة (٧٢١ ق.م) إلى القرن الرابع ق.م.

فبالرغم من المشكلات التاريخية والنقد الذي يتعرض له السفران، فإنهما يقدمان لنا سجلاً مفيدًا عن شعب الله، لأن الأنبياء الذين تنبأوا عن السبي والذين عاصروه تكلموا بطريقة نبوية وفي بعض الأحيان تنبأوا وتكلموا بأمثال وألغاز غير واضحة ومحددة، أما هذان الكتابان فقد قدما لنا سجلاً تاريخيًا عن تاريخ هذا الشعب في هذه الحقبة من الزمان، خصوصًا عندما يذكران أسماء بعض الملوك والممالك، الأمر الذي سهل كثيرًا عملية البحث لتحديد التواريخ التي جرت خلالها هذه الأحداث.

الفصل الثالث

المكابيون والأحلام المسيانية

في الفصل السابق رأينا كيف أن عناية الإله القدير دبرت أن يُكتب سفرا عزرا ونحميا لكي نستطيع أن نعرف عن طريقهما ما حدث لشعب الله. فإن هذين السفرين يعطيان لنا فكرة عن الفترة التي قضاها الشعب المسبي في أرض السبي، وما بعد السبي إلى سنة ٤٠٠ ق.م. تقريبًا. ومع أن هذه الحوادث التي حاول سفرا عزرا ونحميا شرحها ليست هي كل الحوادث التاريخية، إلا أنها واضحة وتشمل بعض الحقائق التاريخية الهامة التي بفضلها استطعنا أن نعرف ما حدث لهذا الشعب في هذه الحقبة من الزمن. فلو كنا لا نملك هذين الكتابين لأصبحت هذه الحقبة (من سنة ٧٢١ إلى ٤٠٠ ق.م) غامضة أمامنا.

ونحن لا نجهل أن كثيرين من المؤرخين والكتاب سجلوا وكتبوا الكثير عن الإمبراطوريات والممالك والأباطرة، والملوك الذين سيطروا وملكوا في هذه العصور. إلا أن هؤلاء المؤرخين والكتاب لم يسجلوا لنا إلا بشح مفرط ما يخص هذا الشعب. ولذلك فإن كتابيّ عزرا ونحميا لا يعتبران وثائق تاريخية فقط، قيمتها لا تقدر، بل يعتبران أيضًا دليلاً ومرشدًا للباحث المؤرخ. لأن أسماء الممالك والملوك والتواريخ والأماكن التي يتعرض لذكرها هذان الكتابان ساعدت وتساعد أيضًا كثيرًا، المؤرخين والباحثين الذين ينبشون التاريخ بحثًا عن الحقيقة التي تخص هذا الشعب.

وما قلناه الآن عن كتابيّ عزرا ونحميا يمكننا أن نقوله عن كتابين آخرين لعبا دورًا هامًّا جدًّا، يشبه إلى حد كبير الدور الذي لعبه كتابا عزرا ونحميا في تاريخ الأمة اليهودية. وقبل إن أذكر اسم هذين الكتابين أحب أن أنبه القارئ إلى أنهما لم يُذكرا في الكتاب المقدس العبري، ولا في العهد القديم للطبعة البروتستانتية، ومع ذلك يمكننا أن نقول إنه لولا وجود كتابي المكابيين الأول والثاني، لجهلنا حقائق تاريخية هامة جدًّا مرت بها الأمة اليهودية، وظهرت في خلالها أحلام وأشواق وأماني مسيانية دفعت هذا الشعب إلى أن يصارع ويناضل ويقاتل للحصول على حريته واستقلاله.

والذين يدرسون تاريخ الكتاب المقدس يعرفون جيدًا أنه توجد فترة صمت بدأت بنهاية الأنشطة والإصلاحات التي قام بها نحميا وعزرا في القرن الرابع ق.م. ونحن لا نملك إلا معلومات قليلة جدًّا ومحدودة من الناحية التاريخية عما يخص الشعب اليهودي في الفترة التي تمتد من سنة ٤٠٠ ق.م. إلى سنة ٦٣ ق.م. (سنة احتلال الرومان لفلسطين على يد بوتبي)، ولذلك فإننا نسمي هذه الفترة فترة الصمت. وإن كانت هذه الحقبة من الزمن تدعى في تاريخ الكتب المقدسة فترة صمت، إلا أنها لم تكن فترة جمود في التاريخ. فالعالم يتحرك باستمرار، بل إنه في تلك العصور كان يتحرك بأسرع من المعتاد. وكان يوجد في ذلك

العالم المتحرك شعب ينتظر المسيا. كانت لهذا الشعب آماله وأشواقه، وكانت له أيضًا مشاكله وصعوباته العديدة، والكتاب المقدس بدون سفري المكابيين الأول والثاني لا يعطي لنا أية معلومات عن فترة الصمت هذه.

والتاريخ يسجل لنا حوادث هذه القرون فيعلمنا بأن الفتح الفارسي اكتسح كل الشرق الأوسط تقريبًا. ثم على أنقاض الإمبراطورية الفارسية الضعيفة المنهارة قامت إمبراطورية أخرى قوية هي إمبراطورية الإسكندر الأكبر، الذي استطاع أن يصل في غزواته إلى الهند. فهذا الرجل الشاب الذي لم يتجاوز ثلاثة وثلاثين عامًا[1]، استطاع خلال هذه الأعوام القليلة أن يبني إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف من اليونان إلى الهند، وعندما اكتست رأس الإمبراطورية اليونانية بالشعر الأبيض وشاخت هي أيضًا بدورها خرجت إمبراطورية أخرى فتية فأزاحت الإمبراطورية اليونانية وتربعت مكانها على عروش الممالك الكثيرة الواسعة التي كانت تسيطر عليها هذه الإمبراطورية، ألا وهي الإمبراطورية الرومانية، أما الشعب اليهودي فقد رأى كل هذه العصور وما حدث في كل الإمبراطورية وكل مملكة فيها. ولكن الكتاب المقدس لم يسجل لنا أي شيء يخص فترة الصمت. وبلا شك، إن الكتاب المقدس ليس كتاب تاريخ وجغرافيا أو أي علم آخر، وإن كان في أحيان كثيرة يكلمنا عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الأخرى، إلا أنه أولاً وقبل كل شيء هو كتاب الله، الذي يكلمنا عن الله. لكن هذا لا يمنع أن الذين كانوا يعيشون في فترة الصمت كانوا يحتاجون أيضًا إلى كلمة الله. والإله الذي لا يمكن أن يترك نفسه بلا شاهد في أي عصر من العصور لابد أنه أعلن ذاته بطريقة أو بأخرى. وعلى ذلك فإن كثيرين يعتقدون بأن هذه الفترة التي تدعى فترة الصمت لم تكن في الحقيقة فترة صمت بل فترة صلاة، وحركة ونضال وحرب وسفك دماء وكفاح ونجاح واستقلال وحرية. هذا هو ما حاول أن يصفه لنا سفرا المكابيين الأول والثاني.

لقد سبق أن رأينا أن عددًا لا بأس به من المسبيين رجع إلى أورشليم وإلى يهوذا، وبدأوا في إصلاح الهيكل وتقديم الذبائح، وهناك يتحقق الحلم الذي كان يحلم به المسبيون (مز ١٣٧) ولكن عندما رجع هذا الشعب إلى بلاده التي نُفي منها، وعندما بدأ في الاستقرار وجد نفسه وسط شعوب كثيرة ومتنوعة وخاصة في السامرة ومدن الشمال التي هُجرت أثناء السبي الأشوري وامتلأت بأعداد كبيرة من جنسيات وبلاد مختلفة. ولقد اندمج شعب السامرة والمدن الشمالية مع الشعوب الأخرى بأكثر سرعة وبأكثر سهولة من شعب الجنوب (يهوذا). فإن شعب الجنوب (مملكة يهوذا سابقًا) حاول بقدر الإمكان الانفصال عن الشعوب المحيطة به، ولكن الظروف التاريخية والتقلبات السياسية وظهور إمبراطوريات وممالك على مسرح العالم عرضهم لاضطهادات عنيفة وصراعات حاولت أن تفرض تغييرًا جذريًا من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية في حياة سكان المنطقة، ومما لا شك فيه أن كثيرًا من هذه التغيرات والقوانين التي فرضها الأباطرة والحكام على الشعوب تتعارض تعارضًا كليًا وجزئيًا مع المبادئ والمفاهيم اليهودية، ومن هنا بدأ الصراع القديم الجديد الذي يلخص لنا سببه موسى في هذا القول والذي حاول البعض من شعب الله الأتقياء المحافظة عليه، على مر العصور بالرغم من الظروف المضادة وهو: «أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا ولا صورة ما مما في

(١) وُلد الإسكندر الأكبر في ٣٥٦ ق.م.

السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن» (خر ٢٠: ١- ٦).

فلقد حاول البعض من الأقلية الموجودة والراجعة من السبي التمسك بالناموس وتطبيقه على حياتهم العملية، ولهذا فقد تعرضوا لصعوبات كثيرة ومشاكل عديدة، بل لاضطهادات قاسية ومريرة. ويسجل كتابا المكابيين الأول والثاني سلسلة طويلة من هذه الاضطهادات والمعارك والجهاد. وقبل أن ندخل في بعض التفاصيل المختصة بالصراع والمعارك والحروب التي خاضها هذا الشعب من أجل الحصول على الاستقلال، يحسن بنا أن نلقي نظرة ولو سريعة جدًّا على هذين الكتابين.

في الحقيقة توجد أربعة كتب للمكابيين على أن الكتابين الأخيرين لم يعتبرا في أي وقت من الأوقات ككتب أبوكريفية. فهما يحتويان على بعض الأشعار والروايات التي تتسم بالطابع الخرافي.

كتاب المكابيين الأول:

وهو من الناحية التاريخية ذو أهمية عظيمة إذ أنه يعطي لنا حقائق تاريخية موثوق بها، وإن كانت فيه بعض المبالغات في وصفها. وهو يحتوي على ستة عشر فصلاً يقص لنا فيها تاريخ ثورة المكابيين ضد تدنيس الهيكل (الأصحاح الأول) يتكلم الأصحاح الثاني عن ثورة ماتاتياس (MATTATHIAS) والأصحاحات من الثالث إلى التاسع (٩: ٢٢) تصف لنا حملات وغزوات يهوذا المكابي. ومن الأصحاح التاسع (٩: ٢٣ - ٧٣) تكلم عن يوناثان (JONATHAN) وأخيراً من الأصحاح الثالث عشر إلى الأصحاح السادس عشر تكلم عن سمعان. إن هذا الكتاب يعتبر وثيقة ثمينة مكتوبة كتابة حسنة ومفصلة. وهو مكتوب باللغة اليونانية ولكن يحتمل أن الأصل كتب باللغة العبرية في حوالي سنة ١٠٠ ق.م. ويحتمل أن كاتبه فريسي ذو أسلوب سلس.

كتاب المكابيين الثاني:

الجدير بالملاحظة أن المكابيين الثاني لا يعتبر تكملة للكتاب الأول، إذ أن المكابيين الثاني كتب قبل المكابيين الأول، وفي الأصل فإن المكابيين الثاني عبارة عن كتاب ضخم يتكون من خمسة مجلدات وقد لخصه لنا في جزء واحد رجل يدعى (GASON) جازون القيرواني ويحتمل أن جازون قام بعملية التلخيص في حوالي سنة ١٢٠ ق.م. ويحتوي الكتاب على خمسة عشر فصلاً يصف فيها الفترة التي تمتد من سنة ١٧٦ - ١٦١ ق.م. أي أنها فترة أقصر من الفترة التي يغطيها كتاب المكابيين الأول. ويشدد كاتب المكابيين الثاني كثيراً على الاحتفال بعيد التجديد (يو ١٠: ٢٢) ثم أنه يسجل بعض القصص التي يذكرها كاتب الكتاب الأول، إلا أنه يقص لنا أيضًا بعض القصص التي لم يذكرها المكابيين الأول، مثل قصة الشهيد العازار معلم الناموس (٦: ١٨ - ٣١) ثم قصة الشهداء السبعة وأمهم (٢مكا ٧: ١ - ٤٢).

والكتابان (خصوصًا الكتاب الأول) يصوران لنا الصراع العنيف المرير الذي خاضه هذا الشعب للحصول على الحرية الدينية والاستقلال الوطني. فإن كان هذا الشعب استطاع الرجوع إلى أورشليم ويهوذا وإلى بعض المدن الأخرى فإن الظروف التي وُجد فيها لم تكن مشجعة له على إقامة الشعائر الدينية. لأن الاحتلال الأشوري. ثم الاحتلال البابلي، فالفارسي فاليوناني

قد تركت طابعًا لم يكن من السهل إزالته حيث انتشرت في طول البلاد وعرضها العبادات الوثنية على اختلافها، وشيدت في كل مدن إسرائيل ويهوذا معابد وهياكل لآلهة عديدة وكثيرة. وأما ديانة يهوه، فاضُطهدت وضعفت، بل في كثير من الأحيان لم تعد كديانة من الديانات الأخرى الموجودة في البلاد بل أصبحت ديانة مكلفة، كان ثمنها في بعض الأحيان حياة من كانوا يتمسكون بها ويحيونها حياة عملية. وبالرغم من هذه الظروف الصعبة القاسية، والاضطهادات المريرة العنيفة، والصمت القاتل الذي يشبه الموت، نجد حفنة من الناس لا يريدون الصمت ولا يقبلون الذل والإهانة والخنوع، فتهب هذه الجماعة القليلة العدد والضعيفة. في وجه الاستعمار مطالبة ليس فقط بحريتها الدينية، بل بالحرية الوطنية أيضًا. وفي حقيقة الأمر أن الذي قام بثورة المكابيين، لم تكن حفنة أو جماعة من الناس بل هو رجل كاهن يدعى متاتياس MATTATHIAS ولعل هذا الرجل الكاهن كان يعرف تاريخ بلاده، بل إنه عاش جزءًا من المأساة. فهو يعرف تاريخ عزرا ونحميا وما عملاه قبل وبعد السبي. وهو يعرف أيضًا كيف أن شعوب هذه المنطقة ومعهم اليهود قد رحبوا بالإسكندر الأكبر بعد أن خابت آمالهم في الحكام السابقين وظنوا بأنه يستطيع أن يمنحهم الاستقلال، أو على الأقل الاستقرار في بلادهم، ولكن بعد أن مات الإسكندر الأكبر أصبحت فلسطين من جديد فريسة ثمينة يتنازع عليها ثلاثة من جنرالاته وهم أنطيخوس وسلوقيوس وبطليموس (ANTIGONE, SELEUCUS, PTOLEME) ولقد مات الجنرال (ANTIGONE) في معركة (IPSUS) عام ٣٠١ ق.م.

وأصبحت فلسطين خاضعة للسيادة المصرية في حوالي ١٠٠ عام. وبعدها ساعد الفلسطينيون أنطيخوس الثالث على طرد المصريين من المنطقة والحلول محلهم[١] (في سنة ١٩٨). وفي بداية الأمر كان المستعمر متساهلاً ومتسامحًا مع المواطنين، ولكن عندما تولى الحكم ابنه أنطيخوس الرابع أبيفانس[٢] الذي سماه السوريون أبيفان أي المختل العقل. كان ماتاتياس يعرف هذه الحقائق التاريخية كما أنه لا ينسى أبدًا ذلك اليوم الذي أرسل فيه أبيفان أنطيخوس الرابع جيوشه إلى أورشليم فأشاعوا فيها رعبًا وخوفًا وسلبًا وقتلاً. بل إن هذا الملك المتجبر لم يكتفِ بقتل وتشريد الشعب فحسب، بل قام في عام ١٦٧ ق.م. بإجراء عملية تعتبر في عيون اليهود أبشع وأنجس عملية، ففي ربيع ذلك العام ١٦٧ ق.م. أمر أنطيخوس الرابع بإقامة تمثال يحتمل أن يكون تمثال جوبيتر الألومبي JUPITER OLYMPIEN في المكان الذي كان فيه مذبح التقدمة (١مكا ١: ٤١ - ٦٤، ٢مكا ٥: ١ - ١١) وبهذا العمل فقد نجس الهيكل وأهان الإله القديم الذي ليس له شريك أو نظير. وقد ذكر دانيآل هذه الحادثة (دا ٩: ٢٧، ١٢: ١١ ومتى ٢٤: ١٥ ومر ١٣: ١٤ ولو ٢١: ٢١). ويعتقد كثيرون من المفسرين بأن نبوة دانيآل تحققت في هذه الحادثة، كما أن بعض المفسرين اليهود يرون أن رجسة الخراب التي يتكلم عنها دانيآل لا تشير إلى حادثة تنجيس الهيكل في سنة ١٦٧ فحسب، بل تشير أيضًا إلى ما حدث في سنة ٤٠م. عندما أمر الإمبراطور جاليجولا (GALIGULA) بوضع تمثال في الهيكل. ويحتمل أن السيد كان يتنبأ بحادثة سنة ٤٠م. بهذا القول: «فمتى نظرتم «رجسة الخراب» التي قال عنها دانيآل النبي قائمة حيث لا ينبغي. ليفهم القارئ» (مر ١٣: ١٤).

---

(١) انظر **Des Prophétes à Jésus: Le Monde Juif vers La temps de Par Guignebert.** الفصل الثالث ص ٣٠- ٤٣

(٢) لقد ملك أنطيخوس الرابع أبيفانس من سنة ١٧٥- ١٦٤ ق.م.

ولم يكتفِ أنطيخوس أبيفانس الرابع بأن نجس الهيكل علانية بل أصدر قرارًا يمنع فيه اليهود من تقديم الذبائح أو العبادة لله. وكان هدف هذا القرار هو توحيد الديانة، والقضاء على تنوع الديانات وتكاثرها. ولم يكن هذا الأمر ضد اليهود فقط بل ضد بعض الديانات الأخرى. والمنشور الذي أرسله الملك ينص على أن كل الشعوب الخاضعة له لا تتعبد إلا للإله الذي عينه الملك، وكل من يتعبد أو يقدم ذبائح لآلهة أخرى يحكم عليه بالموت.

أمام هذا القرار الملكي القاسي انحنى الكثيرون، ثم هرب البعض إلى القرى والمدن النائية لكي يستطيعوا أن يتعبدوا لله ولو في الخفية. ومن بين الذين طُردوا من أورشليم الرجل الشيخ الكاهن ماتاتياس. فقد ذهب مع أولاده الخمسة إلى مدينة مودين (MODIN) وهي تبتعد عن أورشليم بحوالي ستة كيلو مترات: ولكن الأمر الملكي لم يكن مقصورًا على مدينة أورشليم، بل كان أمرًا لكل المملكة، ولذلك فقد جاء بعض الذين كانوا يشرفون على تنفيذ قرارات الملك إلى قرية مودين وطلبوا من شعبها أن يقدم ذبيحة للإله الذي عينه الملك، وكان ماتاتياس حاضرًا وطلب منه رئيس الشرطة أن يتقدم ويقدم الذبيحة فرفض، فقام شخص آخر يهودي لكي يقدم الذبيحة، وعندئذ امتلأ الرجل الشيخ الكاهن بغيرة تشبه غيرة فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن الذي أخذ رمحه وقتل رجلاً إسرائيليًّا اختلط بامرأة أجنبية. (عد ٢٥: ١ - ١٦، تث ١٣: ١١ - ١٢).

فعندما رأى ماتاتياس الرجل اليهودي يقترب من المذبح ليقدم ذبيحة للصنم أسرع إليه وخنقه فمات بين يديه. ولما طلب منه مندوب الملك أن يقدم الذبيحة هجم عليه وقتله هو الآخر، ثم خرج صارخًا وهو يقول: «من ليهوه فليتبعني» والتف حول ماتاتياس جماعة من الناس يزيد عددها على ستة آلاف شخص. (١مكا ٢: ١٥ - ٢٨). وعندما سمع الملك بهذا الخبر أرسل جيشًا قويًّا لسحق هذه الجماعة العاصية التي هربت إلى الجبل، وبمكر، حاصر الجيش هذه الجماعة يوم السبت فرفض اليهود الدفاع عن أنفسهم يوم السبت حتى لا يكسروه، فهجم عليهم جيش الملك وأهلك معظمهم إذ أنهم فضلوا الموت على أن يكسروا يوم السبت بالدفاع عن أنفسهم (١مكا ١: ٢٩ - ٤١). ولقد ظن الملك أنه استطاع أن يقضي على الجماعة الثائرة بهذه المذبحة الشنيعة ولم يعلم أن دماء هؤلاء الذين سقطوا كانت كالبذور الجيدة التي سقطت على أرض خصبة فأعطت ثمارًا كثيرة جدًّا.

إن الثورة التي قام بها الكاهن ماتاتياس لم تكن إلا بداية لعدة ثورات طويلة ومريعة ومحزنة: كلها قتل وحرب وسفك دماء. امتدت حتى بداية القرن الأول ق.م. فمن على فراش الموت ألقى ماتاتياس خطابًا مملوءًا بعبارات التشجيع لدفع أولاده لمواصلة الجهاد من بعده (١مكا ٢: ٤٩ - ٧٠)، ليحفظ اليهود الناموس ويمارسوه بدقة وأمانة.

يهوذا المكابي:

كان يهوذا الابن الثالث لماتاتياس الكاهن، ولقد أُعطي له لقب المكابي الذي يعني مطرقة. فعندما تولى قيادة الحركة الثورية التي بدأها أبوه، كانت ضرباته للعدو قاضية كضربات المطرقة. لما مات ماتاتياس الكاهن تولى يهوذا المكابي فورًا زعامة هذه الجماعة في سنة ١٦٦ ق.م. (١مكا ٣: ١ - ٩) وحاول تنظيم المحاربين وإعدادهم إعدادًا كاملاً من الناحية العسكرية. وانضم إليه الكثيرون ممن كانوا يحلمون بتحرير أورشليم، ثم تحرير اليهودية من القوانين التي فُرضت عليهم.

وكيف لا ينضم إليه عدد كبير من اليهود وقد ذاقوا الاضطهاد والحرمان وتاقوا إلى الحرية. إن الأوامر التي أصدرها الملك ضد اليهود كانت تحرم عليهم ليس فقط العبادة لله بل عدم ممارسة أي طقوس أو شرائع دينية. فقد صدر أمر بعدم ختان الأطفال، والأم التي تختن ابنها يعلق طفلها على رقبتها ويساق الاثنان إلى جبل عال حيث تُطرح الأم مع طفلها المختون (٢مكا ٦: ١٠ - ١١) لكي تكون مثالاً وعبرة لكل أم أو أب جريء يتمسك بديانته.

ولقد أُرغم اليهود أيضًا على أكل الخنزير، ومن كان يعصى أمر الملك فالموت عقابه (٢مكا ٦: ١ - ٣٠) كان الشعب مهددًا في حريته، ولهذا السبب عينه التف الكثيرون حول يهوذا المكابي. وكان هدفهم ليس فقط تحرير أورشليم المدينة الغالية على قلوبهم، بل أيضًا الحصول على الحرية الكاملة كي يستطيعوا ممارسة شعائرهم الدينية (٢مكا ٧: ١ - ٤١).

ولا ينسى اليهود المحافظون أبدًا اليوم الذي تجرأ في أنطيخوس الرابع ليس فقط على إرسال رسائل إلى كل بلاد اليهودية آمرًا فيها بإلغاء عبادة يهوه، ثم الاحتفال وتقديم الذبائح والعبادة للإله زيوس الألومبي (ZEUN OLYMPIEN) وهو إله كوني - للكون كله «COSMIQUE» وإله خاص للملك، بل لا ينسون أيضًا يوم ٧ ديسمبر ١٦٧ ق.م. عندما أمر الملك بإقامة تمثال الإله جوبيتر الألومبي في نفس المكان الذي كان فيه الهيكل. وتلت هذه العملية موجة عاتية قوية من الاضطهادات ضد اليهود والناموس (١مكا ١: ٢٩ - ٦٤)، لذلك فإن اليهود المحافظين على الناموس والمتمسكين بالعبادة لله، رأوا في يهوذا المكابي مخلصًا ومحررًا على نمط دبورة وجدعون ويفتاح وشمشون، فجاءت إليه جماعات كبيرة ومنها كون جيشه. ولما رأى القادة اليونان أن الجيش اليهودي يقوى ويعظم، هاجموه عدة مرات، ولكن في معظم هذه المناوشات والحروب كان النصر حليف الشعب المختار (١مكا ٣: ٣٨ - ٤: ٣٦، ٢مكا ٨: ٨ - ١٥، ٨: ١٦ - ٢٣، ١١: ١ - ١٢).

وبعد هذه الحروب والانتصارات المتوالية التي حصل عليها شعب اليهود ضد جيش أنطيخوس الرابع، قرر يهوذا مع إخوته أن يصعد إلى أورشليم لكي يحررها ويطهرها (١مكا ٤: ٣٦ - ٦١ و٢مكا ١ - ٢، ١٠: ١ - ٨ ويو ١٠: ٢٢) فجاء بجيوشه إلى أورشليم ودخلها واستولى عليها، وعندما رأى يهوذا والمحاربون معه حالة الهيكل مزق الرجال ثيابهم وبكوا بكاءً عظيمًا، لأن هيكل الرب أصبح كمغارة لصوص فبدأوا فورًا في تنظيفه وإصلاحه وبنيان ما تهدم منه، واشتروا أواني أخرى لخدمة الهيكل غير التي أخذها الملك أنطيخوس. ولقد قام الجيش المنتصر أو بالمعنى الصحيح الجماعة التي أخذت على عاتقها مسئولية تحرير وتطهير الهيكل، بتنظيف، وترميم وإعداد الهيكل والمدينة، فهدموا المذابح الوثنية التي كانت تحيط بالهيكل وكسروا التماثيل التي أمر بإقامتها الملك أنطيخوس الرابع، واقتلعوا الأشجار والشجيرات التي نمت حوله. وبعد أن قاموا بعملية الهدم والبناء والتطهير، طلب يهوذا المكابي من بعض الكهنة الذين ظلوا متمسكين بالناموس والوصايا ولم تغرهم الوعود ولم يرعبهم أي وعيد، طلب من هؤلاء الكهنة أن يقوموا بالخدمة في الهيكل (١مكا ٤: ٣٦ - ٦١).

وفي ١٤ ديسمبر سنة ١٦٤ ق.م دشن الهيكل رسميًا وقدمت عليه ذبائح بعد أن انقطع تقديمها ثلاث سنوات. ومنذ ذلك اليوم الذي دشن فيه الهيكل الذي يسميه يوحنا بعيد التجديد (يو ١٠: ٢٢) ويسميه اليهود بعيد الحانوكا (HANOUKAH) واليهود يحتفلون بهذا العيد كل عام لأنهم يعتبرونه عيدًا عظيمًا (١مكا ٤: ٥٩). وإنجيل يوحنا يدعوه عيد التجديد (يو ١٠:

٢٢) لأن اليهود استطاعوا أن يجددوا الهيكل، ليس فقط الهيكل المنهدم المتروك، بل أن يجددوا أيضًا عهودهم مع يهوه، (٢مكا ١ - ٢). وفي التاريخ اليهودي لا يقل عيد التجديد هذا أهمية - إن لم يكن أعظم - عن اليوم الذي فيه رجع المسبيون من السبي وبدأوا في بناء أورشليم وأسوارها وهيكلها متعهدين أن يسيروا بحسب ناموس ووصايا الرب، فإن يوم التدشين يشبه إلى حد كبير اليوم الذي وقف فيه عزرا الكاهن الكاتب لكي يقرأ على مسامح الشعب سفر شريعة موسى التي أمر بها الرب إسرائيل، لقد كان هذا اليوم يوم شكر وتوبة، وتجديد عهد (نحميا ٨: ١ - ١٨).

ومن الملاحظ أن كتابي المكابيين الأول والثاني يشددان كثيرًا على التمسك بالناموس. وهذا واضح كل الوضوح في الثورة التي قام بها المكابيون والتي كان هدفها ليس فقط تحرير البلاد من الأجنبي، بل تطبيق الناموس تطبيقًا عمليًا في حياة الشعب. ولهذا السبب قبل كثير من اليهود الاضطهاد والموت بشجاعة منقطعة النظير، عندما حاولت السلطات المحلية إرغامهم على كسر أو تعدي الناموس (٢مكا ٦: ١٨ - ٣١، ٧: ١ - ٤١). بل إن اليهود الذين كانوا يتبعون يهوذا في حركته الثورية ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فعندما كانوا يقومون بالهجوم على المدن والقرى كانوا يقتلون الوثنيين وبعض اليهود الذين اندمجوا مع الوثنيين واتبعوا عاداتهم وتقاليدهم (١مكا ١: ٢٤، ٣: ١ - ٩) ضاربين عرض الحائط بالشريعة والناموس. فقد كان الناموس وتطبيقه يحتلان المكانة الأولى في فكر هذه الجماعة. ولقد نادى ماتاتياس الكاهن بهذا الأمر كل حياته بل وفي ساعاته الأخيرة وهو على فراش الموت، حث أولاده على متابعة الجهاد ضد أعداء الناموس والشريعة (١مكا ٢: ٤٩ - ٦٤). كذلك الذين صعدوا إلى أورشليم مع يهوذا لتحريرها عام ١٦٤، كانوا مشبعين بهذه الفكرة عينها، وهي المحافظة على الناموس والعمل على تطبيقه بأية وسيلة وطريقة.

ولهذا السبب عينه كان الكثيرون من اليهود ينظرون إلى يهوذا - الذي حاول ويحاول الآن وخاصة بعد عيد التجديد - بعين الرضا والابتهاج بل إن البعض كان يرى فيه نوعًا من المسيا، مع أن فكرة المسيا في هذا الوقت كانت باهتة وغير واضحة، إلا أنها كانت منتشرة بين العامة. ولذلك فبعد عملية تطهير الهيكل وتدشينه أصبح يهوذا المكابي بطلاً له شعبيته العظيمة وشهرته الكبيرة.

إلا أن شهرة يهوذا هذه أثارت الحقد والضغينة في قلوب أعدائه، فإن كان البعض من اليهود المحافظين رأوا فيه بطلاً وربما بطلاً (مسيانيًا)، كانت الدول التي تحيط بهذا الشعب ترى فيه منافسًا بل مخربًا لسلطانها وقواتها. ولذلك فقد تحالفت بعض الدول ضده لكي يكسروا شوكته ويحطموا قوته ويحولوا نصرته إلى هزيمة (١مكا ٥: ١ - ٦٨، ٢مكا ١٠: ١٤ - ٣٣، ١٢: ١ - ٣١، ١٢: ٣٢ - ٤٥) وفي هذه الفصول نرى الحروب العنيفة التي خاضها هذا الشعب، والمؤامرات التي حيكت ضد يهوذا وضد اليهود للقضاء عليهم جميعًا، ولكن هذا القائد لم يعبأ بتهديدات المهددين، ولم ينخدع بوعود الواعدين الكاذبة، وكل تحالفات المتحالفين ضده لم تثنِ عزمه لحظة واحدة ولم تزحزحه عن موقفه قيد أنملة.

ويقدم لنا سفرا المكابيين صورة رائعة ليهوذا المحارب المناضل، ليس فقط ضد الملك وقواته وجيوشه الضخمة، وضد الأمم التي تحالفت ضده بسبب الغيرة والحقد، بل يقدمان لنا أيضًا صورة نضاله ضد اليهود أنفسهم، الذين كانوا يرون في الحركة

الثقافية اليونانية، التي نادت بها السلطات اليونانية نوعًا من التمدن (MODERNISME) وكانت هذه دعوة إلى تعميم اللغة اليونانية كلغة عامة، وسنرى فيما بعد كيف أن هذه الروح - أي اتباع ما هو عصري وجديد، وترك ما هو قديم - ستسود على كثيرين من اليهود وستكون أيضًا سببًا في انقسامهم وفي إثارة الحروب بينهم وبذلك يرجعون إلى النقطة التي بدأ بها جداهم رحبعام ويربعام.

على أية حال، فإن يهوذا المكابي قد ناضل ليل نهار لكي يجمع الشعب المتفرق المشتت ويوحد صفوفهم وهدفهم، ويمكن أن نقول إنه نجح إلى حد بعيد في بث الروح الوطنية في هذا الشعب وخلق منه من جديد شعبًا واعيًا - ولو جزئيًا - لمسئوليته الوطنية.

فقد ثابر يهوذا على العمل في بنيان هذه الأمة بالرغم من كل الصعوبات الخارجية والداخلية التي واجهته، واستطاع في سنوات قليلة جدًا أن يكوّن جماعة لها وزنها وكيانها، بل رأى أيضًا بعينيه سقوط ممالك ورؤساء أقوى منه وأعظم، ثم رأى أيضًا اختفاء ملوك وعظماء من على خشبة مسرح التاريخ، فقد مات الملك أنطيخوس الرابع، العدو اللدود للأمة اليهودية، الملك الذي حاول جاهدًا أن يلاشي هذه الأمة بإلهها وديانتها وثقافتها من الوجود، مات كما يصوره لنا المكابيون الأول غريبًا بعيدًا عن وطنه (١مكا ٦: ١٤، ٦: ١ - ١٧) ومريضًا متألمًا، تركته حاشيته كما يعرفنا بذلك المكابيون الثاني (٢مكا ١: ١١ - ١٧، ٩: ١٠ - ١٤) ويعتقد أن الملك أنطيخوس الرابع أبيفانس مات في سبتمبر أو أكتوبر ١٦٤ ق.م. ولم يرَ تدشين الهيكل كما ظن البعض خطأ؛ حيث إن تدشين الهيكل تم في ١٤ ديسمبر ١٦٤ ق. م. بعد موته.

في بداية عهد أنطيخوس الخامس كانت الحروب مستمرة بين إسرائيل والأسرة الحاكمة الأنطيخوسية، ونجد أن جيش هذه الأخيرة هاجم عدة مرات جيش يهوذا ولكنه رجع على أعقابه مقهورًا مكسورًا (١مكا ٦: ١٨ - ٥٤، ٢ مكا ١٣: ١ - ٢٣) مما اضطر معه الملك أنطيخوس الخامس إلى أن يمد يد المصالحة لأعدائه وأن يعترف لهم بحقوقهم الدينية التي كانوا يطالبون بها ويبذلون من أجلها دماءهم، فمنح أنطيخوس الخامس اليهود حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية (١مكا ٦: ٥٥ - ٦٣، ١١: ٢٢ - ٢٦، ١٣: ٢٣، ٢٦).

إلا أن فترة السلام التي وعد بها أنطيخوس الخامس لم تستمر طويلاً وكانت كأنها طفل صغير مات في مهده قبل أن يعرف الخير أو الشر. لأن الملك أنطيخوس الخامس قد اغتيل على ما يحتمل عام ١٦٣ق. م. وخلفه ديمتريوس الذي توج ملكًا في سنة ١٦٢ وظل على العرش إلى سنة ١٥٠ ق.م.[١]. وعندما قبض الملك ديمتريوس على زمام الحكم شن حربًا شعواء ضد اليهود. بل إن بعضًا من اليهود أنفسهم خصوصًا الراغبين في الحصول على مراكز هامة، في الدولة (كرئيس للكهنة ألياقيم) وشوا بيهوذا لدى الملك، فأرسل الملك عدة حملات عسكرية هجمت على يهوذا، وكل ما حصلت عليه في النهاية -بالرغم من بعض الانتصارات القليلة جدًا التي لا قيمة لها- هو الانكسار والتقهقر أمام جيش يهوذا (١مكا ٧: ١ - ٥٠ و٢مكا ١٤: ٥ - ٣٦)

(١) انظر القاموس الفرنسي .D.B ص ٢٦٤- ٢٦٥.

ولقد أدت هذه الانتصارات التي حازها يهوذا وجيشه إلى تثبيت سلطته وتدعيمها واتساع شهرته وتقويتها فأصبح يهوذا، في المنطقة قائدًا وزعيمًا مطروق الباب يرى فيه الشعب المظلوم والمغلوب على أمره مخلصًا.

معركة بئر زيت وموت يهوذا:

رأينا فيما سبق الانتصارات العديدة والعظيمة التي حازها يهوذا خلال السنوات السبع التي كون فيها جيشًا لإسرائيل وتزعم قياته. إن شهرته لم تكن قاصرة على منطقة فلسطين فحسب، بل ذاع صيته في روما فأرسل إلى مجلس الشيوخ الروماني لكي يخلق ويكون علاقات بين شعبه وشعب روما. وكان رد فعل روما على هذه المبادرة إيجابيًا مشجعًا (١مكا ٨: ١ - ٣٢) ولكن الذي عمل أكثر على اتساع شهرته، هو انتصاره العظيم على القائد المحنك نيكانور (NIKANOR) فكسر شوكته وحطم جيشه وقطع لسان هذا القائد وأعطاه لطيور السماء وقطع يده التي امتدت مهددة الهيكل بالهدم وأخيرًا علق جسده أمام الهيكل (١مكا ٧: ٣٩ - ٥٠، ٢مكا ١٥: ١ - ٣٦).

وعندما سمع ديمتريوس الملك بهذا الخبر المفجع امتلأ غيظًا وغضبًا وثار ثورة عارمة طالبًا الانتقام العاجل السريع من يهوذا. فأرسل إلى أورشليم أولاً جيشًا عظيمًا، وتحولت هذه الجحافل الضخمة المحاربة في أبريل ومايو ١٦٠ ق.م. إلى بئر زيت، وكان تعداد جيش الملك حوالي ٢٢,٠٠٠ جندي وجيش يهوذا ثلاثة آلاف من المختارين. وعندما رأى يهوذا والرجال الذين معه الجيوش المعادية ذابت قلوبهم وخارت قواهم وانكسرت روحهم. لقد حاول الذين معه أن يثبطوا عزيمته حتى يعدل عن الدخول في الحرب وعن مواجهة جيش العدو الضخم، بعدد قليل جدًا. «فقال: لا يمكن أن يقال عني فيما بعد بأني اخترت الهروب، لنمت بشجاعة لأجل إخوتنا ولا نشوه مجدنا» (١مكا ٩: ١٠) وعندما رأى الإسرائيليون جيش العدو الضخم لم يبقَ مع يهوذا إلا ثمانمائة رجل، ودخل يهوذا الحرب بهذا العدد القليل ومات موت الأبطال. فجاء أخواه يوناثان وسمعان وحملاه إلى مقبرة آبائه في مودين، حيث بكاه الشعب بمرارة وحزن. وكان الشعب يصرخ قائلاً: «كيف سقط البطل الذي كان يخلص إسرائيل؟» (١مكا ١٩: ٢١). إن هذه الجملة لها معناها في تاريخ الأمة اليهودية وخاصة فيما يتعلق بالآمال المسيانية. لقد سقط الرجل الذي علق عليه الكثيرون آمالهم لكي يخلصهم من الاستعباد اليوناني. ولذلك صرخوا والألم يعتصر قلوبهم قائلين: «كيف سقط البطل الذي كان يخلص إسرائيل؟» (١مكا ٩: ١ - ٢١).

يوناثان:

بعد أن اختفى البطل المحارب يهوذا في سنة ١٦١ - ١٦٠ ق.م. أصبح هذا الشعب فريسة شهية تنقض عليها وحوش البرية وطيور السماء. فبدأت من جديد الاضطهادات في المدن والقرى. ولقد تزعم هذه الحركة بكيدس (BAKIDES) الذي قام بحملة شاملة ضد اليهود هادفًا منها ملاشاة اليهودية من الوجود. ولقد مر أتباع يهوذا بفترة مؤلمة عصيبة (١مكا ٩: ٢٣ - ٢٨).

فاجتمع أصدقاء يهوذا وجاءوا إلى يوناثان أخي البطل الوطني الراحل وطلبوا منه أن يتولى القيادة وأن يكون رئيسًا لهم. فقبل يوناثان وأصبح قائدًا لهذا الشعب عام ١٦٠ ق.م.

كان يوناثان سياسيًا أكثر منه حربيًا، فمع أنه اضطر أن يستعمل العنف ويخوض بعض المعارك الحربية لكي يدافع عن الشعب، إلا أنه تفوق في مجال السياسة أكثر منه في ساحات القتال، فقد كان سياسيًا محنكًا ودبلوماسيًا بارعًا. وبالرغم من ذلك فقد استطاع أن يضرب بشدة وبقبضة من حديد على الأيدي التي كانت تمتد من كل ناحية للاستيلاء على الشعب واستعباده واستغلاله. واستطاع أيضًا أن يهزم بكيدس وجيشه ويحرر إخوته من سلطانه واضطهاداته (١مكا ٩: ٤٣ - ٥٧) خصوصًا عندما تآمر بكيدس مع بعض حلفائه لإبادة يوناثان وأتباعه والقضاء عليهم قضاءً نهائيًا، فلم تكن نتيجة هذه المؤامرة إلا هزيمة مريرة للجيش اليوناني وحلفائه.

ولقد بدأ نجم يوناثان يلمع في الأفق بعد هذه الانتصارات العسكرية العظيمة، ولهذا فقد نظر إليه قادة المنطقة من ملوك وعسكريين بشيء من الغيرة والإعجاب والتقدير. وكرجل سياسي ودبلوماسي انتهز يوناثان الفرصة الذهبية التي سنحت له، وهي فرصة الانقسام الذي كان يسود رؤساء المنطقة. ففي ذلك الوقت كانت آسيا كحقل واسع يتكالب عليه الكثيرون من كل ناحية، ولقد حاولت الدول التي كانت تريد أن توسع تخومها وأملاكها استخدام إسرائيل كطعم للصيد، فقد كان يتصارع على السلطة كلٌ من ألكسندر بالاس المغامر والذي كان يدعي أنه ابن أنطيخوس أبيفانس لتشابهه به[1]، ثم الملك ديمتريوس من ناحية، ومن الناحية الأخرى كان الرومان ينظرون إلى المنطقة كلها بنهم وشغف. ولذلك فقد حاولت كل جهة من هذه الجهات أن تستغل إسرائيل للاستفادة منها. وإسرائيل بدورها، وعلى رأسها الرجل الدبلوماسي الماهر يوناثان، أرادت هي أيضًا استغلال الموقف والاستفادة منه للحصول على الاستقلال والحرية. وأول من أراد استغلال هذا الموقف هو الملك ديمتريوس عندما رأى أن جيش ألكسندر بالاس قد وصل إلى المنطقة، فقد كتب خطابًا رقيقًا مملوءًا بالمواعيد التي يحلم بها شعب إسرائيل، وعندما علم بذلك الملك ألكسندر بالاس أسرع هو الآخر بإرسال رسالة أرق ومواعيد أكثر وامتيازات أعظم.

ومن هذه الامتيازات أن الملك ألكسندر سيعيِّن يوناثان رئيس كهنة ويعتبره صديقًا له، ولقد ألبس يوناثان الملابس الكهنوتية في ٢٥ أكتوبر ١٥٢ ق.م. إلا أن الملك ديمتريوس أرسل مرة ثانية خطابًا آخر يتضمن مواعيدًا لا حصر لها: كإلغاء بعض الضرائب ثم ترك ثلث محاصيل أرضه ونصف أثمار أشجاره لمساعدة الشعب اليهودي واعتبار أورشليم مدينة مقدسة وبناءً على ذلك يجب إعفاؤها من كل الضرائب، كما أعطيت قلعتها هدية لرئيس الكهنة ومنحت الحرية الكاملة لكل اليهود في كل المملكة مثل حرية العبادة وحرية العمل وحرية الوصول إلى أي مركز في الدولة مهما كان... إلخ.

بالرغم من هذه المواعيد الكثيرة التي لم نذكر منها إلا القليل جدًا، قرر الشعب ويوناثان التحالف مع الملك ألكسندر، لأن الشعب لم ينسَ بعد الاضطهادات العنيفة التي ذاقها على يد الملك ديمتريوس.

ونشبت الحرب بين ألكسندر وديميتريوس وانهزم الأول واضطر إلى الهروب، لكن ديمتريوس لم يتمتع بهذا النصر طويلاً لأنه عندما غربت شمس ذلك اليوم غربت أيضًا شمس حياة الملك.

(١) انظر المذكرات التفسيرية في ص ٢٠٠٨

Traduction Oecumenique de la Bible Ancien Testament.

بعد هذه الحادثة نلاحظ تغييراً جذريًا في مجرى الأحداث، فلم يعد هذا الشعب كرة تتقاذفها الأيدي وتلقي بها حيثما تشاء، بل أصبح قويًا له جيشه وسلاحه، حتى وإن لم يكن قد حصل بعد على استقلاله الكامل، فإنه كان يسير نحوه بخطوات واسعة وسريعة. وأصبح يوناثان الآن رجلاً سياسيًا له وزنه وكيانه، وبناءً على ذلك فهو يختار الحليف والصديق الذي تتفق سياسته ومصالح الشعب. و لذلك نراه مرة ينضم إلى حزب ألكسندر ومرة أخرى ينضم إلى حزب ديمتريوس ومرة ثالثة يتحالف مع أنطيخوس السادس ضد ديمتريوس الثاني (١مكا ١١: ١ - ١٢: ٣٦).

ولكن هذا السياسي المحنك الخبير سقط بسهولة في شباك الصياد تريفون (TRYPHON) وهو جنرال أنطاكي أرسل إلى يوناثان مدعيًا بأنه يقوم بمؤامرة لقلب الملك. وعندئذ ذهب إليه يوناثان فاستقبله استقبالاً عظيمًا وتظاهر تريفون بأنه يريد أن يسلم مدينة بتولمائيس (PTOLEMAIS) وبعض المدن الأخرى ليوناثان فاطمئن إليه وذهب معه إلى هذه المدينة وهناك أُغلقت الأبواب عليه وعلى الألف شخص الذين كانوا معه ولم تُفتح إلا لإخراج جثث القتلى. وهكذا سقط عظيم آخر في إسرائيل سنة ١٤٣ ق.م. كانت عليه تعقد الآمال. كان موت يوناثان كارثة تجل عن الوصف، فقد اختفى في الوقت الذي فيه أتاح الفرص لهذا الشعب لإثبات وجوده وكيانه وأن يقف على قدميه مرفوع الرأس. واستطاع يوناثان في الفترة التي قاد خلالها هذا الشعب (١٦٠ - ١٤٣ ق.م) أن يكون أمة عظيمة. وإن كان قد مات قبل إن يصل بشعبه إلى الاستقلال الكامل إلا أنه بفضل ما قام به من حروب ومحاولات سياسية ودبلوماسية ترك خلفه أمة تسير بخطوات واسعة وسريعة نحو الاستقلال الوطني والحرية الدينية الكاملة؛ إذ أنه هو نفسه قد تقلد منصب رئيس كهنة. وهنا نسأل هذا السؤال: عندما عيَّن الملك ألكسندر بالاس يوناثان رئيس كهنة، هل كان هذا التعيين نجاحًا أم فشلاً للديانة اليهودية؟ (١مكا ١٠: ١ - ٢١). إن الإجابة على هذا السؤال صعبة، ولكن يمكن أن نقول إن تعيين يوناثان رئيس كهنة يعتبر نجاحًا عظيمًا من الناحية السياسية، لأن الذي عينه رئيس كهنة للديانة اليهودية هو ألكسندر بالاس الذي كان يدَّعي بأنه أنطيخوس أبيفانس الذي كان يريد أن يلاشي الديانة اليهودية من الوجود (١مكا ١: ٤١ - ٦٤). فمع أن هذا التعيين اعتبر نجاحًا سياسيًا إلا أنه كان للأسف الشديد بداية للصراع والانشقاق وظهور أحزاب وطوائف في الديانة اليهودية نفسها، لأن كثيرين من اليهود المحافظين لم يوافقوا على تعيين يوناثان رئيس كهنة، إذ أنهم كانوا يرون أنه لا ينتسب إلى العائلة الكهنوتية، وبناء على ذلك لا يحق له أن يكون رئيس كهنة. وقائمة نسب سبط الكهنوت التي تذكرها مخطوطات قمران، تبين لنا أن ذكر عائلة يهورياب (عائلة يوناثان) لم ترد إلا بعد وصول هذه العائلة إلى الكهنوت في عصر يوناثان[١] وهذا يدل على إضافة هذه العائلة فيما بعد في الشواهد الآتية (١أخ ٢٤: ٧، نح ١١، ١٢).

على أية حال فإن جماعة من هذا الشعب لم تقبل إن يكون يوناثان رئيس كهنة وهو لا ينتسب لسبط الكهنوت بحسب اعتقادهم، ونتيجة لذلك يظن أن ابن أونياس الثالث الذي كان يجب أن يكون فعلاً رئيس كهنة لم يقبل هذه الأوضاع، فنزل إلى مصر وأسس معبدًا في ليونتوبوليس (LEONTOPOLIS) إن «سيد البر» ذهب إلى قمران واختبأ هناك[١]. وسنرى فيما

(١) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ص ١٩٨٤ لتفسير (١ مكا ٢: ١).

بعد الدور الذي قامت به جماعة قمران عندما نتعرض للكلام عن ذلك.

وهنا نرى أن الرجل الذي استطاع بمهارة أن يكمل عمل أبيه يهوذا في تكوين وجمع الشعب المشتت الممزق، كان وصوله إلى مركز رئيس كهنة السبب في تمزيق الشعب وانقسامه.

سمعان بن ماتاتياس:

عندما وصل خبر ما حدث بين تريفون ويوناثان إلى آذان سمعان، ظن هذا الأخير أن يوناثان قد سقط مع الذين سقطوا ولم يعرف إلا مؤخرًا بأن أخاه قد قتل فيما بعد على مقربة من باسكاما (BASKAMA) (١ مكا ١٣: ٢٠ - ٢٤). ولذلك فقد قام فور وصول هذا الخبر، بالرغم من الحزن الذي كان يعصر قلبه، خطيبًا في الشعب ومبينًا له ما بذله أبوه ماتاتياس وأخوه يوناثان لأجل المحافظة على الناموس وترميم مذبح الرب. ثم وعد بأن ينتقم انتقامًا مريعًا لأخيه من أعداء الشعب. وعندما سمع الشعب هذا الخطاب صرخ قائلاً: «أنت رئيسنا بدل يهوذا ويوناثان» (١مكا ١٢: ١ - ١١) فتولى سمعان بن ماتاتياس وأخو يوناثان قيادة الشعب من هذا اليوم، وأصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة والكاهن الأعظم لإسرائيل في سنة ١٤٣ ق.م.

إن السنين التي قضاها سمعان مع أخيه يهوذا كمستشار وكمرشد فني له (١مكا ٢: ٦٥) ومع أخيه يوناثان حيث كان يقوم بعمليات حربية ناجحة، قد صنعت منه رجلاً حربيًا ودبلوماسيًا يخشى بأسه (١مكا ٥: ١٧ - ٥٥، ١١: ٦٤ - ٦٦).

فحالما تولى سمعان الحكم أرسل خطابًا إلى الملك ديمتريوس الثاني يطلب منه أن يرفع الضرائب عن البلاد لأنها تعرضت لسلب ونهب تريفون. وكان رد الملك ديمتريوس الثاني إيجابيًا. وهذا الأمر أي إلغاء ورفع الضرائب عن الشعب كان يعتبر خطوة هامة جدًا للتقدم نحو الاستقلال الكامل. وهناك خطوة أخرى خطاها سمعان نحو الاستقلال الكامل لا تقل أهمية عن الخطوة الأولى، وهي استيلاؤه على قلعة أورشليم وطرد القواد الأجنبية الرابضة فيها. وبهذا أزاح سمعان الكابوس الذي كان جاثمًا على صدر أورشليم وصفى الاستعمار اليوناني الذي استغل هذه المدينة حوالي ٢٦ سنة (من ١٦٧- ١٤١ ق.م). انتشرت أخبار سمعان بسرعة البرق في البلاد القريبة والبعيدة - حتى أن الرومان كتبوا إليه لكي يجددوا عهد الصداقة الذي قطعوه مع يوناثان أخيه (١مكا ١٤: ١٦ - ٤٩). وأما اليهود فقد اجتمعوا في مجمع لكي يقدموا بطريقة عملية شكرهم إلى سمعان وإلى كل عائلته الذين بذلوا حياتهم لأجل حرية البلاد. ففي ١٣ سبتمبر سنة ١٤٠ ق.م. قرر هذا المجمع أن يكرم سمعان وعائلته، لأنه استطاع أن يواصل بجهاد وصبر وحكمة ودبلوماسية الأعمال التي بدأها أبوه وأخواه حتى وصل الشعب اليهودي إلى استقلاله الكامل وحريته التي كان ينشدها من زمن طويل، والامتيازات التي منحها المجمع لسمعان كثيرة لذلك سنذكر بعضها على سبيل المثال وليس للحصر: ١- الاعتراف بأنه الرئيس العام ٢- القائد الأعلى للقوات المسلحة ٣- رئيس كهنة مستديم إلى أورشليم إلى أن يأتي نبي لتعيينه (١مكا ١٤: ٤١). ٤- المسئول الأعلى عن كل الأعمال والإدارات والاجتماعات... إلخ (١مكا ١٤: ٢٥ - ٤٩).

(١) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ص ٢٠٠٨ لتفسير (١مكا ١٠: ٢٠).

هذه هي بعض الامتيازات التي اعترف بها مجمع اليهود لسمعان والتي كتبوها على حجر ووضعوها في الهيكل تخليدًا وشكرًا له ولعائلته.

والقارئ المدقق يلاحظ بأن المادة الخاصة برئاسة الكهنة تقول: «وسمعان رئيس كهنة مستديم إلى أن يأتي نبي لتعيينه». وكما سبق القول إن جماعة من اليهود لم تقبل تعيين يوناثان رئيس كهنة لأنه لم يكن من نسل هارون، وبما أن هذه الجماعة المجتمعة في مجمع سنة ١٤٠ ق.م. كانت لا تريد كما يبدو من النص توسيع الفجوة بين الذين يقبلون سمعان رئيس كهنة والذين لا يقبلونه فإنها قررت: أن سمعان يعين رئيس كهنة إلى أن يأتي نبي ليعينه أو ليمسحه رئيس كهنة أو بمعنى آخر أن يفصل في أمره «نبي» (١مكا ٤: ٦٤ - انظر أيضًا قوانين قمران ٩: ١١، يو ١: ٢١، ٢٥، يو ٦: ١٤) ومن هذا نستنتج أن اليهود لم يكونوا متفقين على أن يكون سمعان رئيس كهنة. ولقد أدى عدم الاتفاق هذا إلى انشقاق ونزاع، وحرب وانقسام. فما كادت هذه الأمة الممزقة المهددة من الداخل ومن الخارج تسترد حريتها الوطنية والدينية، وتستنشق هواء الحرية العليل حتى تعرضت هي نفسها وحريتها الدينية والوطنية إلى الضياع والهلاك.

إن الجماعة التي لم تقبل بأن يكون يوناثان رئيس كهنة، رفضت بالتالي هذا المركز لسمعان أخيه للسبب عينه، وانفصلت عن العائلة المالكة وأصبحت طائفة منعزلة داخل إسرائيل نفسه، وافقت في بادئ الأمر على سياسة المكابيين الخارجية والداخلية، إلا فيما يختص برئاسة الكهنوت التي أسندت إلى شخص على درجة كبيرة جدًا من الكفاءة العسكرية والدبلوماسية، ولكنه لا ينتمي لعائلة هارون، وبناءً عليه لا يمكن أن يكون رئيس كهنة بالرغم من أنه كان من عائلة خادمة للهيكل. إن القانون يحتم بأن يكون القائد الأعلى للدولة الثيوقراطية Théocrathique من نسل هارون أخي موسى ولهذا السبب انفصلت هذه الجماعة محتجة على هذا الوضع ولقب تابعوها باسم (HASSIDIM) أي «الأتقياء» (١مكا ٢: ٤٢، ٧: ١٣). ويبدو أن هذه الجماعة كانت موجودة قبل وجود يهوذا نفسه إذ أن كتاب المكابيين الأول يتكلم عنها واصفًا إياها بالبسالة والشجاعة (١مكا ٢: ٤٢) على أنها لم تظهر على مسرح التاريخ إلا عندما عين يوناثان رئيس كهنة فاحتجت على هذا احتجاجًا شديدًا وانعزلت عن اليهود. وبما أنهم اعتبروا أنفسهم «إخوة أتقياء» (HASSIDIM) فإنهم لم يشتركوا مع بقية اليهود في الاحتفالات الدينية التي كان يرأسها رئيس الكهنة غير القانوني بحسب اعتقادهم، ولكن مع انعزالهم عن بقية المجتمع فإنهم كانوا يعيشون فيه ويتعاملون معه.

ويبدو أن حادثة تعيين يوناثان رئيس كهنة ولدت حركة أو طائفة أخرى سُميت فيما بعد بطائفة الفريسيين (الانفصاليين) أي الذين فرزوا وعزلوا أنفسهم، إلا أن هذا اللقب قد ألصقه بهم أضدادهم. أما هم فكانوا يسمون أنفسهم «الأتقياء» ويظن كثيرون بأنه من هذه الطائفة - طائفة الانعزاليين أو الفريسيين - خرجت طائفة أخرى أكثر تدقيقًا وتزمتًا، فقد اعتقدوا بأن العالم المعاصر وقتئذ ضل الطريق الصحيح السليم فيجب الابتعاد عنه، فذهبوا إلى وادي قمران حيث كونوا جماعة تقضي معظم وقتها في الصلاة والتأمل والانتظار. وهكذا ولدت طائفة أو جماعة الأسينيين الذين كنا نجهل الكثير عنهم قبل اكتشاف مخطوطات وادي قمران، لأن ما وصل إلينا عن حياتهم ومعتقداتهم كان عن طريق يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي

الشهير ثم فيلون الإسكندري وأسابيوس ثم الشيخ بلنوس. ولكن اكتشاف هذه المخطوطات فتح أمامنا بابًا جديدًا لمعرفتهم، ولا نريد هنا أن ندخل في التفاصيل الكثيرة المختصة بعقائدهم وكتاباتهم التي تزيد على خمسمائة مجلد، ولكننا نريد فقط أن نلفت نظر القارئ إلى أن هذه الجماعة خرجت هي أيضًا من جماعة الأتقياء لأنها لم تقبل أن يكون رئيس الكهنة من عائلة غير عائلة هارون. إن الجماعة الأولى التي أفرزت نفسها عن بقية اليهود -والتي ستدعى فيما بعد بجماعة الفريسيين- كانت تعيش في المجتمع المعاصر حينذاك وتندمج فيه جزئيًا، أما جماعة قمران فقد انسحبت تمامًا من ذلك المجتمع وذهبت إلى وادي قمران في صحراء اليهودية تحيا حياة تشبه الحياة الرهبانية في المسيحية. وإن كانت الجماعة الأولى أسمت نفسها بالأتقياء فجماعة قمران تدَّعي لنفسها بأنها هي البقية الأمينة في إسرائيل. فذهبت بذلك مذهبًا أبعد من الجماعة الأولى في انفصالها عن الأمة، ورفضت تقديم الذبائح والاشتراك في الخدمات التعبدية في الهيكل لعدم شرعيتها، لكنها احتفظت بكهنتها المختصين بها، من البقية الباقية في إسرائيل ومن نسل صادوق، لكي يقدموا ذبائح الهيكل بعد تطهيره عندما يأتي اليوم الذي فيه يمسح رئيس كهنة بطريقة طقسية وتقليدية صحيحة، وبما أن هذه الجماعة أرادت أن تحتفظ بقداستها وبرها بعيدًا عن العالم والكهنة الذين يخدمون فيه غير معترفين لهم بكهنوتهم ولا بسلطانهم لأنهم لا ينتمون إلى بيت صادوق الكاهن الشرعي، وبناء على ذلك لا يملكون حق الكهنوت.

ويظن أن عدد الأسينيين قد بلغ حوالي ٤٠٠٠ عضو، كانت غالبيتهم في وادي قمران، ويظن أيضًا أن بعضًا منهم كان في مصر وسوريا ويحتمل أيضًا أن أعضاء هذه الجماعة اضطرت للهروب وتركت وادي قمران بسبب الحروب العنيفة التي شنها الرومان ضد الغيورين (من ٦٦ - ٧٣ م) والتي انتهت بسقوط أورشليم في سنة ٧٠ م. ولكن من حسن الحظ أن بعضًا من هذه الجماعة استطاع أن يخفي بطريقة محكمة وحكيمة جزءًا من مكتبة هذا الدير، حيث وجد محمد الديب أحد البدو من هذه المنطقة صدفة بعضًا من هذه المخطوطات الثمينة في ربيع ١٩٤٧ عندما كان يبحث عن إحدى نعاجه الضالة في هذه المنطقة، ومنذ هذا التاريخ والعلماء يدرسون هذه الوثائق التاريخية العظيمة ويحللون النتائج التي يصلون إليها.

ولنترك الآن هذه الطوائف الدينية ونرجع إلى سمعان الذي لم يحصل على لقب ملك إلا أنه حصل على حق سك العملة الخاصة ببلاده، فتمتع الشعب في فترة حكمه بسلام لم يعرف له نظيرًا إلا في أيام سليمان، عندما كان يستعمل كاتب المكابيين الأول التعبير الكتابي القديم والعزيز على قلب هذا الشعب ألا وهو: «واستراحت الأرض في أيامه» وقد كان كل فرد مشغولاً بزراعة أرضه الخصبة المثمرة. وكان الشيوخ يجلسون معًا يقصون قصص النجاح والفلاح والخصب والإثمار في هدوء وسلام (١مكا ١٤: ١ - ١٥). نعم كانت البلاد تتعرض من وقت لآخر لبعض هجمات الأعداء، ولكن سمعان كان يصدهم صدًا عنيفًا ويرغمهم بقوة جيشه على الرجوع إلى بلادهم (١مكا ١٦: ١ - ١٠). وقد اعتبرت هذه الحقبة أعظم الحقبات وأمجدها في تاريخ إسرائيل بعد حكم سليمان. سنرى فيما بعد كيف أن الشعب اليهودي نظر إلى عصر المكابيين كعصر مجد عظيم لا يفوقه في المجد إلا عصر داود وسليمان ورغم إن اليهود يبالغون كثيرًا في وصف عصر المكابيين، إلا أن هذه الحقبة تعتبر حقيقة حقبة مجد في تاريخ هذا الشعب، ويرجع الفضل في ذلك إلى عائلة يهوذا المكابي ويوناثان وسمعان خصوصًا أنه في عهد هذا الأخير نالت البلاد استقلالها وحريتها الدينية والوطنية، بفضل جهاده وصبره وكفاحه. ولقد كانت خاتمة حياة سمعان كأخويه

السابقين أي الموت في سبيل الوطن. ولكن موته يشبه إلى حد كبير موت أخيه يوناثان الذي قتله تريفون بحيلة ومكر. فقد كان زوج ابنته بطولمي أبو باس (PTOLEMEE ABOU BAS) حاكم أريحا طموحًا إلى الحكم بشغف عظيم ويتحين الفرص للاستيلاء عليه. ولذلك فقد انتهز فرصة مرور سمعان بأريحا مع ابنيه ماتاتياس ويهوذا، فدعاهم لوليمة عظيمة أقامها لهم وانتهت الوليمة باغتيالهم واغتيال الرجال الذين كانوا معهم. وبعد عملية الاغتيال أرسل إلى رؤساء الجيش والقواد للحضور ليوزع عليهم الذهب والفضة. ثم أرسل رسلاً لاغتيال يوحنا هركانوس بن سمعان حتى يخلو له الجو تمامًا.

ولكن يوحنا هذا علم بالأمر فقبض على الرجال الذين كانوا يريدون قتله. وهكذا تنتهي حياة الرجل الذي استطاع أن يبصر بعينيه ويجني ثمار الحرية والاستقلال الذي كان يحلم به الكثيرون في تلك البلاد. وهكذا ينتهي أيضًا تاريخ عائلة حكمت تلك البلاد حوالي ثلاث وثلاثين سنة (١٦٧ - ١٣٤ ق.م). إن الفترة التي حكم فيها المكابيون الذين أظهروا شجاعة منقطعة النظير لتحرير بلادهم- وكان عصرهم هو العصر الذهبي- ليست فقط الفترة الذهبية والمجيدة في تاريخ إسرائيل، بل والمثال الذي يجب أن يتبعه الشعب اليهودي، فأصبح ماتاتياس وعائلته أبطالاً وطنيين احتلوا مكانة مرموقة يفتقدهم الشعب في كل تجربة ومحنة وطنية وسياسية ودينية، فنلاحظ أن أبصار هذا الشعب كانت تنظر للوراء إلى ماتاتياس ويهوذا ويوناثان وسمعان، كما نلاحظ أيضًا أن أبصار هذا الشعب كانت تتطلع إلى يهوذا آخر لكي يخرجهم ويخلصهم من هذه الأزمات. وما يهمنا هو أن اختفاء هذه العائلة عندما تعرضت إسرائيل لهجمات عديدة خصوصًا في فترة احتلال الرومان عمل على نمو وترعرع فكرة مجيء المسيا، المسيا الذي تصوَّره البعض على مثال يهوذا المكابي، الذي سيسحق ويحطم أعداء شعبه. ولقد حلم الشعب بعصر سلام كامل حيث «يسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معًا، وصبي صغير يسوقها» (إش ١١: ٦).

كما تصور البعض الآخر أن المسيا سيظهر بإرادة يهوه، ويهلك الأشرار المقاومين ويطهر الأرض منهم وعندئذٍ يملك عليها. وقد ظن فريق آخر أن مجيء المسيا سيكون مسبوقًا بحوادث وكوارث خارقة للطبيعة وأوبئة وزلازل وحروب وأخبار حروب. على أن الكثيرين خصوصًا في الأوقات الصعبة، كانوا ينتظرون ظهور المسيا كمخلص ومنقذ لشعبه سياسيًا ودينيًا، ولذلك ظهر كثيرون يدَّعون لأنفسهم هذا الامتياز. وسنرى فيما بعد عددًا كبيرًا من المسايا الكذبة الذين ظهروا وحاولوا أن يلعبوا الدور الذي قام به يهوذا المكابي، ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل الذريع، وأخيرًا انتهت بالكارثة العظيمة المهولة وهي سقوط أورشليم في سنة ٧٠م.

يوحنا هركانوس (GEAN HYRCAN):

بعد أن رأينا الانتصارات العظيمة التي حققتها عائلة يهوذا المكابي في الفترة التاريخية بين ١٦٧ - ١٣٤ ق.م. نصل إلى الفترة التي حكم فيها يوحنا هركانوس وعائلته، ومع أن يوحنا هركانوس هو ابن سمعان وحفيد الكاهن ماتاتياس وابن أخي يهوذا المكابي رأس عائلة المكابيين ومؤسسها إلا أنه (يوحنا) يعتبر آخر المكابيين وأول عائلة الأسمونيين (LA FAMILLE ASMON EENNE).

ولقد تولى يوحنا هركانوس قيادة الحكم بعد أن اغتال بطولمي أباه وأخويه في فبراير ١٣٤ ق.م. فأصبح كأبيه قائدًا للقوات المسلحة ورئيسًا للكهنة. وعندما تولى قيادة البلاد قام السوريون بهجوم عنيف عليه وحاصروا أورشليم فاضطر أن يعترف بسيادة أنطيخوس السابع سيدتس (SIDETES)، ولم يتحرر من سلطانه إلا عندما حارب البارطيون أنطيخوس السابع سيدتس وقتلوه سنة ١٢٨ ق.م. وبهذه الحادثة تحرر يوحنا هركانوس من القيود التي كانت تعوقه عن السير إلى الأمام نحو الحرية و الاستقلال. فبعد قتل أنطيخوس السابع سيدتس صار ليوحنا هركانوس سلطان كامل، وهكذا بدأ يعمل ويتصرف ويحكم فأمر بهدم هيكل جرزيم ثم أجبر الأدوميين بالقوة على قبول الختان، وبمساعدة روما استطاع أن يحصل من جديد على استقلال بلاده. ولقد حاول أن يدخل النظم الحديثة في بلاده وينشر التمدن فيها فسمح بدخول ما يسمى «بالدنيوية أو العالمية» (Secularisme) في الديانة اليهودية وفي حياة الناس العملية، فشجع الحركات الأدبية والرياضية والثقافية في بلاده. فنشطت من جديد المراكز الثقافية اليونانية في مدن كثيرة وأصبح الهلينيون منتشرين في طول البلاد وعرضها، بل إن بعضًا من اليهود كانوا يتكلمون اليونانية بطلاقة رافضين إجادة لغة أجدادهم وذلك مشايعة «للمودة» الحديثة.

ولهذا السبب اتسعت الفجوة بين عائلة يوحنا هركانوس وبين «الأتقياء» {أي بين (LES ASMON EENS) وبين (LES HASIDIMES)} فإن جماعة الحسيديم (الأتقياء) كانت تعتبر اندماج الأمة اليونانية بلغتها وثقافتها وعاداتها في المجتمع اليهودي أمرًا خطيرًا جدًا على الحياة الروحية للإنسان اليهودي. فهم يعتقدون بأن السبي والاضطهاد والتشرد بين الأمم والظروف القاسية والمرة التي مر بها هذا الشعب في تاريخه المؤلم، كل هذا لم يكن إلا نتيجة لاندماج واختلاط وتزاوج هذا الشعب مع شعوب أخرى، ولذلك فقد رفضت جماعة الحسيديم حركة التمدن واتسعت الفجوة بينهم وبين الأسمونيين (العائلة المالكة)، وهي فجوة بدأ بحفرها يوناثان عم يوحنا هركانوس بقبوله رئاسة الكهنوت. وعندما أظهر الحسيديم معارضتهم الشديدة ورفضهم التام لسياسة يوحنا هركانوس، ظهرت طائفة أخرى أو حزب جديد هي طائفة الصدوقيين، مع أن جماعة الصدوقيين كانت أقدم من يوحنا هركانوس نفسه، فهم يعتقدون أن جدهم هو صادوق الذي كان كاهنًا في أيام يوناثان النبي وداود الملك وهو الذي مسح سليمان ملكًا (٢صم ٨: ١٧، ١مل ١: ٣٢ - ٣٩، حز ٤٠: ٤٦، ٤٣: ١٩).

والكتاب المقدس يقدم لنا صادوق وأبياثار كاهنين في أيام ملك داود (٢صم ٨: ١٧أ). وقد كان صادوق الكاهن أمينًا ومخلصًا لداود الملك خصوصًا في الأيام الصعبة القاسية التي اجتازها داود أثناء الثورة التي قام بها ابنه أبشالوم (٢صم ١٥: ٢٤ - ٢٩، ١٧: ١٥ - ٢٢، ١٩: ١٢). كما كان يؤيد سليمان ويقف بجانبه بينما انضم أبياثار الكاهن إلى حزب أدونيا المعارض لسليمان. وعندما جلس الملك سليمان على العرش عزل أبياثار من الكهنوت فلم يعد كاهنًا للرب (١مل ١: ٧ - ٨، ٣٢ - ٤٠، ٢: ٢٧). ومنذ هذا التاريخ إلى أيام المكابيين وعائلة صادوق الكاهن تتمتع بنصيب الأسد في الكهنوت، ونقول بنصيب الأسد لأن بعد العودة من السبي كان يوجد عدد من الكهنة من نسل أبياثار الذي حرمه سليمان من الكهنوت (عز ٨: ٢)، ولذلك يمكننا أن نقول إن عددًا كبيرًا جدًا من الكهنة كانوا صدوقيين. وكان حزب الصدوقيين - على النقيض من الحسيديم والأسينيين - يؤيد العائلة المالكة والحركة الهلينية، بل أظهروا استعدادهم للتعاون مع العائلة المالكة في اضطهاد الحسيديم، واضطهدوهم فعلاً في أيام حكم يوحنا هركانوس (١٢٧ - ١٠٤ ق.م) وفي أيام أرستوبولس الأول وفي أيام ألكسندر جونه. وكان هذا الحزب

يتكون من العائلات الكهنوتية الأرستقراطية الغنية، ضامًّا في حضنه أعضاء أرستقراطيين أغنياء واستمر هكذا إلى زمن السيد الرب على الأرض وحتى سنة ٧٠م. وبعد هذا التاريخ لا نسمع عنهم شيئًا البتة.

وبما أن هذا الحزب كان يضم جماعة من أغنياء البلاد وأثريائها فإن مصالحهم الشخصية كانت تتطلب تعاونًا كاملاً مع السلطة الحاكمة - وطنية كانت أم أجنبية - فقد كانوا في معظم الأحيان «عملاء الاستعمار» (كما نقول في تعبيراتنا الجارية). أما من ناحية عقيدتهم فإنهم كانوا يؤمنون بأسفار موسى ويرفضون كل تقليد شفهي، وكل الطقوس الخاصة بالطهارة، وهي طقوس تمسك بها الفريسيون كثيراً، كما كانوا يرفضون أيضًا قيامة الأموات (مت ٢٢: ٢٣ - ٣٣ أع ٤: ١ - ٢، ٢٣: ٦ - ٨) كما أنهم لا يؤمنون بالملائكة ولا بالشياطين (أع ٢٣: ٨) ولا يؤمنون بالعناية الإلهية، ويعتقدون بأن الإنسان حر في اختيار الخير ورفض الشر.

هذه هي شيعة الصدوقيين التي انتشرت ولاقت نجاحًا كبيراً في أيام يوحنا هركانوس وأيدت الهلينية. ومع أن يوحنا هركانوس شجع الثقافة اليونانية إلا أنه هاجم القوات اليونانية بشدة وضربها عدة ضربات قاسية مستغلاً ضعفها وتمزقها من ناحية، كما استغل صداقته للرومان ومعاهدات التعاون بينه وبينهم من ناحية أخرى. فبعد أن حصل على الاستقلال الوطني سنة ١٢٨ ق. م. بدأ في سياسة التوسع فقام بمحاصرة السامرة وخربها، وعندما طلب السامريون مساعدة الملك السلوقي (اليوناني)، حذره الرومان من التدخل في النزاع. فامتنع اليونانيون عن مساعدة السامريين وبذلك امتد سلطان يوحنا هركانوس إلى السامرة في الشمال. كما امتد سلطانه إلى الجنوب عندما حارب الأدوميين وانتصر عليهم وأرغمهم على الختان وقبول الديانة اليهودية. ففي عهده كادت اليهودية من الناحية الجغرافية والسياسية أن تصل إلى المجد الذي كانت عليه في أيام ملك داود وسليمان. ومات يوحنا هركانوس في ١٠٤ ق.م. تاركًا خلفه مملكة ممتدة الأطراف، دون ملك لأنه لم يحصل على لقب ملك، وتولى بعده ابنه أرستوبولس الأول.

الملك أرستوبولس الأول

استطاع أرستو بولس أن يحقق ما كان يحلم به آباؤه وأجداده بعد سقوط السامرة في أيدي الأشوريين (٧٢١ ق.م) وسقوط أورشليم في أيدي البابليين (٥٩٧ ق.م)، أي أن يقوم ملك ويملك على إسرائيل. فإن الذين سبقوا أرستو بولس من حكام بعد السبي والعودة إلى اليهودية لم يحصل واحد منهم على لقب ملك.

ولقد ملك الملك أرستو بولس سنة ١٠٤ق.م. وكانت محبته للثقافة اليونانية عظيمة جدًا لدرجة أنه دعي «المحب اليوناني» (PHILHELLEN). وهكذا اتبع سياسة أبيه فيما يخص الهلينية واضطهاده للفريسيين الذين كانوا يعارضون هذه السياسة. إلا أن الملك أرستو بولس لم يتمتع طويلاً بهذا اللقب الملوكي لأن الموت اختطفه بعد سنة واحدة من ملكه (١٠٤ - ١٠٣ ق.م) وخلفه في الملك أخوه ألكسندر جونه.

الملك ألكسندر جونه ALEXANDRE JANNEE

مات الملك أرستو بولس الأول دون أن يترك أولادًا فخلفه على عرش المملكة أخوه ألكسندر جونه الذي استمر في الحكم من ١٠٣ - ٧٦ ق.م. بعد أن تزوج من أرملة الملك الراحل سالومة ألكسندرا.

وعندما تربع ألكسندر جونه على العرش قبض بيديه على السلطتين المدنية والدينية، كملك على الأمة اليهودية وفي نفس الوقت رئيس كهنتها. ورئاسته للكهنة أثارت المشكلة القديمة التي قامت بين العائلة الحاكمة والفريسيين الذين رفضوا أيضًا بأن يكون ألكسندر جونه رئيسًا للكهنة. ولقد أغاظ موقف الفريسيين هذا الملك الجديد كما أغاظ سابقيه من العائلة المالكة. ومما زاد الأمر سوءًا حادثة التفاح المتعفن. ففي أحد أعياد المظال وبينما كان رئيس الكهنة (ألكسندر) يقدم الذبيحة رماه بعض المتعصبين بتفاح متعفن، إذ أنهم اعتبروا قيامه بهذه الخدمة المقدسة خرقًا للمقدسات لأنه لم يمنح الشرف بأن يكون خادمًا لها. وإزاء هذا التصرف ثار الملك ثورة عارمة كان من نتيجتها أن شبت حرب أهلية شعواء بين الفريسيين والموالين لهم وبين العائلة المالكة والموالين لها وخاصة الصدوقيين. ولقد راح ضحية هذه الثورة حوالي ستة آلاف فريسي، ولم تستطع هذه الدماء الكثيرة أن تخمد ثورة ألكسندر وتروي تعطشه لسفك الدماء. فقد حاول مرة أخرى أن ينتقم من الفريسيين بطريقة أبشع وأفظع فأمر بصلب ثمانمائة من الشخصيات البارزة منهم. وعندما كان المصلوبون يلفظون أنفاسهم الأخيرة ذبح أمام عيونهم نساءهم وأولادهم[1]. وعلى أثر هذه الحادثة هرب الكثيرون من وجه ألكسندر المضطهد للحزب الفريسي متخذين من الصحارى والكهوف مسكنًا لهم. ولكن عندما اقتربت ساعاته الأخيرة أوصى زوجته ألكسندرا التي خلفته على الملك أن تترفق بالفريسيين وتتصالح معهم.

كان الملك ألكسندر جونه طموحًا، فلم يكتفِ بالحدود التي وصل إليها يوحنا هركانوس بل قام أيضًا بعدة غزوات ضد المدن اليونانية واستولى على الكثير منها فاتسعت مملكته وعظم سلطانه، ولكن كانت المملكة في الداخل منقسمة ممزقة، فبالرغم من انتصاراته على الأعداء في الخارج وسقوط مدن كبيرة وكثيرة ومحصنة في يده، فإنه لم يستطع أن يسوي الأمور في الداخل؛ حيث كان الصراع بينه وبين أحزاب المعارضة شديدًا عنيفًا، وكان على رأس هذه الأحزاب المعارضة حزب الفريسيين. وقد تطرف بعض المعارضين في معارضتهم فطلبوا مساعدة وتدخل الملك ديمتريوس العدو اللدود لليهود. ويمكن أن نقول إن العلاقات ساءت جدًا بين العائلة المالكة والفريسيين أكثر من أي وقت مضى وكان هذا مؤشرًا إلى انهيار وسقوط هذه الدولة مرة أخرى في الفوضى والاستعمار. فعندما مات الملك ألكسندر جونه (٧٦ ق.م) ترك دولة قوية في سياستها الخارجية ضعيفة منقسمة على ذاتها في الداخل مما أدى بها فيما بعد إلى الوقوع في قبضة الاستعمار الروماني ثم الموت.

الملكة ألكسندرا سالومة

كما سبق ورأينا أن ألكسندرا سالومة كانت زوجة للملك أرستوبولس الأول. وبعد أن مات هذا الأخير بداء السل على ما

(١) انظر القاموس السابق ذكره ص ٢٩.

يبدو، تزوجت ألكسندرا سالومة من الملك ألكسندر جونه الذي أوصى عند موته بأن تخلفه على العرش. فصارت ألكسندرا سالومة ملكة على إسرائيل في سنة ٧٦ ق.م. وأسندت رئاسة الكهنوت إلى ابنها الأكبر يوحنا هركانوس الثاني، وقد ملكت من سنة ٧٦ - ٦٧ ق.م. وحاولت في السنوات التسع هذه أن تغير السياسة التي اتبعها سابقوها فيما يتعلق بالفريسيين، فطلبت هي نفسها منهم أن يمدوها بالنصائح والإرشادات ويتعاونوا معها في إدارة البلاد، فكانت الفترة التي حكمت فيها فترة هدوء إلى أن ماتت ألكسندرا سالومة ملكة إسرائيل في سنة ٦٧ ق.م.

فترة الانهيار والصراع

بعد أن ماتت الملكة ألكسندرا سالومة سقطت إسرائيل بين وحوش جائعة مفترسة. فمنذ زمن طويل جدًا وروما تنظر باهتمام شديد إلى اليهودية وما يحدث فيها من الداخل والخارج. ثم تحول هذا الاهتمام إلى مصلحة بالغة الأهمية بالنسبة للسياسة الرومانية، ولذلك رأت روما في موت الملكة وقيام حزبين يتصارعان على السلطة فرصة مناسبة لا تعوض للتدخل. فقد تصارع على السلطة بعد موت الملكة سالومة كل من ابنيها رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثاني وأرستوبولس الثاني. أما الأول الذي عينته أمه الملكة رئيسًا للكهنة في مدة حكمها (٧٦ - ٦٧ ق.م) فأراد أن ينتهز هذه الفرصة بعد موت أمه لكي يكون ملكًا على إسرائيل. ولكن أخاه أرستوبولس الثاني كان يطمع هو أيضًا في الملك. فصارت المملكة منقسمة ممزقة بها عدة أحزاب وطوائف يهاجم الواحد الآخر فيضعفون بعضهم بعضًا، وأصبحت العائلة المالكة نفسها منقسمة أيضًا وممزقة إلى حزبين يرأس كل منهما أحد الأخوين، حزب يرأسه رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثاني (GEAN HYRCAN 2e) وحزب آخر يرأسه أخوه أرستوبولس الثاني (ARISTOBULE 2e) كان يوحنا رئيس الكهنة رجلاً ضعيفًا، ولقد التف حول أرستوبولس المتذمرون وغير الراضين عن الأوضاع السائدة وقتئذٍ وخاصةً قادة الجيش والصدوقيون. وكان يؤيد رئيس الكهنة الذي أصبح ملكًا في سنة ٦٧ ق.م. الفريسيون والأدوميون. ومع أن الفريسيين لم يقبلوا أن يكون يوحنا هركانوس رئيس كهنة إلا أنهم قبلوه ملكًا، لأنه اتبع سياسة أمه في مد يد المصالحة لهم واستشارتهم في أمور الحكم وإدارة البلاد. وعندما استمرت المعارك بين الأخوين، لجأ كل منهما إلى كل الوسائل الممكنة المباحة وغير المباحة للوصول إلى العرش، فيوحنا هركانوس طلب مساعدة ملك النبطيين، وقد نصحه بذلك أنطيباتر (ANTIPATER) أبو الملك هيرودس الأكبر، وبالرغم من أن ملك النبطيين أرسل جيشًا عظيمًا لمساعدة الملك يوحنا هركانوس، فقد استطاع أرستوبولس قلب نظام الحكم وخلع الملك من على العرش.

وبينما كان الأخوان يتقاتلان ويتناحران، وصلت الجيوش الرومانية إلى سوريا واستولت عليها وضمتها إلى الإمبراطورية الرومانية سنة ٦٤ ق.م، وكانت سوريا تعتبر حصنًا من الحصون الأخيرة في مملكة السلوقيين (SELEVCIDE). وبوصول القوات الرومانية إلى المنطقة والاستيلاء على سوريا حدثت هذه المسرحية الغريبة: فلقد جاء عدد كبير من ممثلي الدول المحيطة بسوريا ليقدموا التهاني والتبجيل للقائد الروماني بومبي (POMPEE) كان من بينهم ثلاثة وفود من اليهود يمثلون ثلاثة أحزاب: وفد عن أرستوبولس والصدوقيين وكان يطالب بومبي بالتدخل السريع. والوفد الثاني، وكان على رأسه أنطيباتر (ANTIPATER) الذي كان يطالب بومبي بمساعدة يوحنا هركانوس وحزب الفريسيين. والوفد الثالث من الشعب، وكان يطالب بومبي

بالتدخل وتصفية العائلة المالكة عائلة الأسمونيين. وفي نهاية الأمر قرر بومبي مساعدة يوحنا هركانوس بعد أن حرمه من مزايا كثيرة. منها أنه حرمه من لقب ملك وأعطاه لقب حاكم أو والٍ. وحتى هذا المنصب نُزع منه لسبب ضعفه فترة من الزمن، ولكن قيصر أرجعه إلى منصبه في ٤٧ ق.م. ثم في سنة ٤٠ ق.م. وعندما غزى البارطيون أعداء روما الألداء سوريا خلعوا يوحنا هركانوس من الحكم وأقاموا مكانه ابن أخيه أنطيجنوس أرستوبولس (ANTIGONE ARISTOBVLE) وكان من أشد الأعداء لعمه يوحنا هركانوس لكي يغلق بطريقة نهائية أمامه الباب الذي يصل به إلى رئاسة الكهنوت قام بقطع أذنه[١] ولقد قضى يوحنا هركانوس عدة سنوات أسيراً في بلاد البارطيين ولكنه رجع أخيراً إلى اليهودية ومات هناك سنة ٣٠ ق. م.

ومع أنه يمكن أن نقول إن عهد الأسمونيين قد امتد إلى سنة ٣٧ ق.م. أي إلى أن تولى هيرودس الملك في اليهودية إلا أنه في حقيقة الأمر قد انتهى سلطانهم عمليًا سنة ٦٣ ق.م. عندما دخل بومبي مدينة أورشليم واستولى عليها، فأصبحت اليهودية منذ هذا التاريخ مقاطعة رومانية، وسقطت من جديد في يد مستعمر آخر وفقدت استقلالها وسيادتها الوطنية خصوصًا عندما تولى هيرودس الكبير سلطان الحكم في البلاد سنة ٣٧ ق.م.

إن عائلتي المكابيين والأسمونيين حكمتا اليهودية مدة قرن وثلث قرن تقريبًا. واستطاعت العائلة الأولى (المكابيون) بدم أبطالها المحاربين وغيرة المتحمسين أن تخلص هذا الشعب من الاستعباد والاستعمار الأجنبي وأن تسير معه طريقًا صعبًا طويلاً شاقًا شائكًا، إلى أن تصل به إلى عتبة الاستقلال، ثم جاءت العائلة الثانية (الأسمونيون) واستطاعت أن تصل بنجاح عظيم إلى الاستقلال الذي كان يحلم به الكثيرون من إسرائيل.

ولكن هذا الاستقلال الكامل كان شبيهًا بيقطينة يونان فلم ترَ النور إلا لفترة وجيزة وبعدها سقطت الأمة اليهودية تحت أقدام الرومان. وهنا تبدأ فترة جديدة في تاريخ هذه الأمة بما لها من.

انتصارات مسيانية، فإن كثيرين من اليهود استقبلوا الرومان بصدر رحب وقلب مفتوح. وتعاونوا معهم وسهلوا لهم مهمة الحكم في البلاد، أما البعض الآخر فقد اعتبروا وجود الرومان في هذه البلاد أمرًا كريهًا ويجب محاربتهم وطردهم وتحرير البلاد منهم، ومن هذه الجماعة ظهرت أحزاب سنراها فيما بعد.

على أية حال فقد نصب هيرودس ملكًا على من تعاونوا مع الرومان ومن لم يتعاونوا معهم.

هيرودس الملك

تولى هيرودس الأكبر زمام الحكم في هذه البلاد سنة ٣٧ ق.م. بعد أن حكم بالموت مربوطًا على خشبة، على أنطيجنوس أرستوبولس من عائلة الأسمونيين، وهكذا انتهى حكم هذه العائلة[٢].

(١) كان الناموس يحتم أن يكون رئيس الكهنة بلا عيب من الناحية الجسمية، فأصبح من المستحيل على يوحنا هركانوس أن يرتقي إلى درجة رئيس الكهنوت بسبب العيب الجسمي (تمزيق أذنه).

(2) Henri Gaubert. L'Attete du Messie. La Bible Dans L'Histoire: Mame 90 p 121.

كان هيرودس أدوميًّا وهو ابن أنطيباتر (ANTIPATER) الذي كان وزيرًا في أيام يوحنا هركانوس الثاني. وكان لأنطيباتر ولدان فازائيل وهيرودس ولقد عينهما أنطونيوس حاكمين على منطقة اليهودية. ولكن عندما استولى أنطيجنوس (ANTIGONE) على اليهودية، انتحر فازائيل وأما هيرودس فقد هرب إلى روما واتصل بالقادة الرومان خصوصًا أنطونيوس وأكتافيوس (OCTAVE ANTOINE) فعين ملكًا واستطاع عن طريق المساعدات العسكرية الرومانية استرداد اليهودية من يد أنطيجنوس. والجدير بالذكر أن قيصر نفسه قد اختار رجلاً عربيًّا لكي يكون حاكمًا على اليهودية سنة ٤٧ ق.م. ولم يكن ذلك الرجل العربي الحاكم لليهودية سوى هيرودس أنطيباتر الذي صار فيما بعد الملك هيرودس الأكبر(١).

كتب الكثيرون عن هيرودس وحياته وسياسته، ومما لا شك فيه أنه كان سياسيًّا ماهرًا ودبلوماسيًّا محنكًا، يعرف بسياسته ودبلوماسيته أن يكسب ثقة أصدقائه، بل وأعدائه أيضًا. وعندما كان يفشل في كسب ثقة الأعداء عن طريق الدبلوماسية والمكر، كان يلجأ إلى العنف والقتل والتشريد. هذه الصفات كانت خير مساعد له لتحقيق مآربه، ففي فجر حياته السياسية استطاع بسلوكه وتصرفاته ودبلوماسيته أن يحوز إعجاب أنطونيوس وأكتافيوس اللذين نصحا مجلس شيوخ روما باختياره ملكًا لليهودية، وعندما صار ملكًا سنة ٣٧ ق.م. ظل إلى موته الحليف المخلص والصديق الوفي لروما وسياستها. وبعد هزيمة أنطونيوس في معركة أكتيوم (ACTIUM) انضم هيرودس إلى أكتافيوس، وهذا الأخير حصل في ٢٧ ق.م. على لقب «أغسطس» ويعد هذا اللقب من الألقاب الدينية، ومعناه السامي أو العظيم أو الإلهي... ولقد عمل هيرودس جاهدًا على إرضاء أكتافيوس ومجلس الشيوخ من ناحية وعلى إرضاء الأمة اليهودية من ناحية أخرى، الأمر الذي لم يكن سهل التنفيذ. ولكي يرضي الأوساط الرومانية اتبع السياسة الهلينية فأقام على خرائب المدن المنهدمة مدنًا جديدة جميلة، على الطراز اليوناني. ثم بنى المسارح والمسارح المتدرجة، بل وصلت به الجرأة إلى أن وضع بعض الرموز والعلامات الرومانية في أورشليم نفسها، الأمر الذي اعتبره اليهود المتدينون عثرة وغير مقبول. ولقد كرس قاعة باسم القياصرة وقاعة باسم أغريباس...إلخ، ولكي يرضي الأوساط اليهودية بدأ في بناء الهيكل، كما قام بعدة أعمال إصلاحية أخرى لصالح اليهود حتى ينال رضاهم، أو على الأقل يتجنب ثورتهم. وبما أن هيرودس كان هجينًا، فقد اعتبر نفسه يهوديًّا ولكي يقوي الرابط العائلية بينه وبين اليهود تزوج من مريم حفيدة رئيس الكهنة يوحنا هركانوس الثاني وأنجب منها ولدين وأرسلهما إلى روما لكي يتعلما ويتهذبا في قصر القيصر. ومما لا شك فيه، أن نسبة هذين الولدين ألكسندر وأرستوبولس، إلى أم يهودية «مريم» كان لابد لها أن تلعب دورًا هامًّا في اختيار الملك الذي سيجلس على عرش اليهودية. ولذلك فقد حاول الابن الأكبر أنطيباتر(٢) أن يسمم أفكار أبيه من ناحية أخوية مما دفع هيرودس لقتلهما.

ومع أن هيرودس كان سياسيًّا ودبلوماسيًّا ماهرًا، فإن هذه الصفات لم تمنعه من استخدام القسوة والعنف والشراسة والقتل والانتقام بطريقة وحشية عند فشل السياسة والدبلوماسية، لذلك أطلق عليه اسم هيرودس السفاح، وقبل أن نذكر بعض جرائمه التي بالغ فيها الكثيرون وأضافوا إليها الكثير، يجب ألا ننسى أن هيرودس كان كريمًا غاية الكرم.

---

(1) Ch. Guignebert: Des Prophetes A Jésus. Le Monde Juif Vers le Temps de Jesus. 35- 46.

(٢) كان لهيرودس عدة زوجات.

ولقد أظهر روح السخاء والكرم عندما تعرضت اليهودية لمجاعة عنيفة فباع الصواني الذهبية التي كان يمتلكها لكي يشتري بها قمحًا للشعب الجائع، كما أنه حاول في مرات عديدة أن يلعب دور المصالح بين الشعب، ولكنه لم يفلح في القيام بهذا الدور لكثرة جرائمه التي جعلت له أعداء كثيرين. فالجرائم التي ارتكبها هيرودس عديدة ومصدرها شغفه الشديد بالحكم والتمسك به وإعطاؤه الأولوية المطلقة، ولذلك كان لا يتردد لحظة واحدة في تصفية أي شخص مهما كان قريبًا أو صديقًا، تحوم حوله الشبهات بأنه يريد قلب الحكم أو نزع المملكة من يديه. فعندما بدأت الشكوك تساوره في إخلاص ثلاثة من أبنائه ألكسندر وأرستوبولس وأنطيباتر، أمر باغتيالهم، كما أن زوجته المحبوبة مريم، وأمها ألكسندرا لاقتا نفس المصير ضحية لشكوكه فيهما. ولذلك قال عنه الإمبراطور أغسطس (أكتافيوس) إن خنازير هيرودس تتمتع بالأمن والسلام أكثر من أولاده. ويقال إن هيرودس كان مكروهًا جدًا من الشعب بسبب الفظائع التي ارتكبها، ولذلك عندما اقتربت أيامه الأخيرة وعرف أن الموت يقترب منه بخطوات واسعة، أمر بسجن عدد لا بأس به من العظماء ومن ذوي الجاه، ثم أعطى الأمر إلى المسئولين بأنه عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة يجب قتل هؤلاء المسجونين لأنه كان متأكدًا من أنه لا يوجد واحد سيذرف ولو دمعة واحدة على موته. ولذلك أمر بقتل هؤلاء جميعًا حتى يعم الحزن والمناحة والبكاء، وتذرف الدموع يوم وفاته حتى وإن لم تكن لأجله.

ولقد اضطهد أيضًا الأسمونيين وأعضاء السنهدريم بطريقة بشعة، وبلا شك أن قصة مذبحة بيت لحم تصور لنا طباع الرجل ووحشيته (مت ٢: ١ - ١٨).

ظل هيرودس ملكًا على اليهودية لمدة تزيد على أربعين سنة (من ٣٧ ق.م - ٤م) وللأسف الشديد، ما أكثر الجماجم التي ضحى بها ليبني عليها عرشه وسلطانه.

كان هيرودس مريضًا بحب السلطان، ولذلك كان لا يتورع أو يتردد في اضطهاد أو قتل من تحوم حوله الشبهات بأنه منافس له. ألم يأمر بقتل الأطفال الأبرياء في بيت لحم عندما علم أن منافسًا له في السلطان سيخرج من وسطهم (مت ٢: ١ - ١٨).

في عهد هذا الرجل الذي سُمي هيرودس السفاح جاء إلى عالمنا طفل كباقي الأطفال في الظاهر، وُلد في بيت لحم على مقربة من أورشليم، وعندما وُلد كانت اليهودية، بل العالم كله، يعيش في جو مظلم نتيجة لحب السيطرة والقوة ومحبة الذات والعنف والظلم الاجتماعي. جاء هذا الطفل إلى عالمنا لكي يعطيه سلامًا حقيقيًا، ولذلك فقد رنمت الملائكة قائلة: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة» (لو ٢: ١٤). مات هيرودس سنة ٤ م. تاركًا خلفه مملكة واسعة ولكنها ضعيفة اقتصاديًا. وهذا الضعف الاقتصادي - مع أسباب أخرى كثيرة - ساهم في إشعال الثورات والاضطرابات الشعبية التي سنراها فيما بعد. فقد استطاع هيرودس في حياته أن يسيطر على المملكة تارة بدبلوماسيته وسياسته الماهرة، وتارة بقسوته وعنفه كما استطاع أيضًا أن يحتفظ بثقة روما مدة طويلة، إلا أن الشعب لم يكن راضيًا عن سياسته خاضعًا لها، فبعد موته انفجرت البراكين التي استطاع في حياته أن يسكتها ويخرسها، واندلعت الثورات في أماكن كثيرة متعددة، وقامت أحزاب وطوائف معتدلة ومتعصبة انتهى بها الأمر إلى خراب أورشليم ودمارها سنة ٧٠م.

وعند موته، قسم الإمبراطور أغسطس المملكة بناء على وصية هيرودس، على أبنائه الثلاثة. فمنح أرخيلاوس (ARCHELAUS)

اليهودية والسامرة مع لقب حاكم فقط وليس لقب ملك، إلا أن الشعب كان يدعوه ملكًا (مت ٢: ٢٢). ثم أعطى الجزء الثاني من المملكة وهو «الجليل» لهيرودس أنتيباس مع لقب رئيس ربع، ولكن عندما حامت حوله الشبهات في إخلاصه لروما نُفي إلى ليون سنة ٣٩م. أما الجزء الثالث من المملكة «تراخونيتس» والذي كان تابعًا لسوريا فقد مُنح لابن هيرودس الثالث وهو فيليبس بن كليوباترا. وهكذا انقسمت المملكة سياسيًا ودينيًا. والذي يهمنا في هذا الأمر إلى جانب الناحية التاريخية التي تساعدنا كثيراً على فهم المكتوب، ظهور الأحزاب الدينية التي ظهرت في هذا الوقت ولعبت دورًا هامًا جدًا في تاريخ هذه الأمة. ومما ساعد على ظهور هذه الأحزاب الدينية هو أن الكثيرين من الشعب اليهودي قد تركوا في ذلك الوقت التمسك بالناموس والمكتوب. واندمج الكثيرون منهم في الأمم واشتركوا معهم في عاداتهم وتقاليدهم. حتى قادة الدين أنفسهم وخاصةً طبقة الكهنوت تواطأت بطريقة مكشوفة وبلا حياء مع الرومان واليونان. ولهذا السبب عينه واصلت جماعة الفريسيين المناداة بالعودة إلى الناموس والتمسك به والعمل بموجبه.

وبجانب هذا الحزب القديم نجد أيضًا جماعة الأسينيين الذين انفصلوا هم أيضًا عن العائلة المالكة، وكانوا ينتظرون «سيد البر». ولقد مرت بنا فيما سبق قصة هذين الحزبين، وسنرى في الفصول الآتية الدور الهام الذي ستقوم به هذه الأحزاب الدينية السياسية وعقيدتهم في المسيا: يسوع الناصري. ولكن قبل أن نبدأ دراسة هذه الأحزاب التي ظهرت قبل مجيء المسيا والتي واصلت نشاطها في أثناء حياته على الأرض، وبعد موته وقيامته، يحسن بنا أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ رجل لعب دورًا هامًا جدًا من الناحية التاريخية في هذه الحقبة، وهو المؤرخ المشهور يوسيفوس فلافيوس.

يعتبر يوسيفوس فلافيوس أعظم من أرَّخ للأمة اليهودية، وترجع أهمية ما كتبه يوسيفوس في التاريخ اليهودي إلى أنه كان معاصرًا وشاهد عيان لبعض الأحداث التي سجلها وخاصةً ما يرويه عن ثورة اليهود التي اندلعت سنة ٦٦م.

وُلد يوسيفوس عام ٣٧م. في عائلة يهودية من الأرستقراطية الكهنوتية. كان أبوه متى (MATHAIS) كاهنًا يخدم في الفرقة الرابعة والعشرين (١أخ ٢٤: ١٠، لو ١: ٥) أما أمه فكانت تنسب إلى العائلة المكابية الملكية. وبهذين النسبين الكهنوتي والملوكي كان يوسيفوس من الطبقة الحاكمة والقريبة من روما. ألهذا السبب انتقد يوسيفوس ثورة اليهود ضد روما؟ ولقد كان هو نفسه كاهنًا ويقال إنه قضى ثلاث سنوات مع جماعة قمران، فهو يعرف تقاليدهم وعاداتهم وتعاليمهم، كان يوسيفوس دارسًا متعمقًا وسياسيًا محنكًا. فانخرط في سلك السياسة ولمع في مجالها، ولذلك أرسله السنهدريم عام ٦٤م. إلى روما لكي يدافع عن الكهنة الذين سجنهم فيلكس، وفي طريقه إلى روما تعرف على ممثلة شهيرة قدمته إلى الأوساط الرومانية في البلاط الإمبراطوري. واستطاع يوسيفوس أن يستحوذ على إعجاب الكثيرين من الذين تقابل معهم في بلاط الإمبراطورية الرومانية، ونجح نجاحًا عظيمًا في دفاعه عن القضية التي بُعث من أجلها إلى روما بفضل مساعدة بوبيه (POPPEE) زوجة نيرون، التي أغدقت عليه الهدايا المادية والأدبية في روما.

عندما رجع يوسيفوس من روما وجد بلاده في اضطراب عظيم عندما حاول تنظيم ثوري تحرير البلاد من المستعمر. ويرى كثيرون من المؤرخين في يوسيفوس شخصًا خائنًا لبلاده لتواطئه وتعاونه مع العدو الأجنبي، وفي حقيقة الأمر كان يوسيفوس يريد

في بداية الأمر تحرير البلاد، ولكن بطريقة أخرى غير الطريقة التي كانت تتبعها الأحزاب المتعصبة في ذلك الوقت - فقد انضم هو نفسه إلى قوات المقاومة والتحرير وأصبح چنرالاً في جيش التحرير[1]، ولكنه غيَّر هذه السياسة عندما هجمت القوات الرومانية على مدينة جوتابات (GOTAPATE) التي كان يقوم فيها هو نفسه بتنظيم حركة المقاومة ضد فاسبازيان (VESPASIEN) الروماني عام ٦٧ م. فعند سقوط هذه المدينة في أيدي الرومان دمروها تدميرًا كاملاً ولم ينجُ من المذبحة إلا عدد قليل جدًّا. وكان هو من ضمن الذين أفلتوا من قبضة الموت في هذه المذبحة المريعة، إلا أن الجنود الرومان قرروا قتل كل الذين نجوا من هذه المذبحة وكان لابد أن يلاقي يوسيفوس نفس المصير. ولكنه عندما جاء دوره طلب أن يقابل القائد العام الروماني لأمر سري جدًّا خاص بالإمبراطورية، فقدموه للقائد العام فاسبازيان وعندما رأى يوسيفوس القائد العام الروماني تنبأ له بأنه سيكون الإمبراطور الروماني في وقت قريب -الأمر الذي كان يحلم به دائمًا هذا القائد الروماني وكان جواب فسبازيان ليوسيفوس: ستظل سجينًا إلى أن تتحقق من صحة أو كذب هذه النبوة. وهكذا استطاع يوسيفوس أن ينجو من مخالب الموت. ومنذ هذا الوقت أصبح عميلاً للرومان ومتعاونًا معهم، فقد تعاون معهم في الترجمة، بل أصبح المرشد والناصح للحكام الرومان فيما يختص بالأمور اليهودية مصاحبًا للقائد العام، ولذلك كان في صحبة تيطس ابن الإمبراطور فاسبازيان أثناء حصار أورشليم (سنة ٧٠)، وبعد سقوطها رجع معه إلى روما ليتخذ منها وطنًا ثانيًا، وهناك أضاف إلى اسمه اسم فلافيوس، ومات يوسيفوس فلافيوس، ذلك المؤرخ اليهودي العظيم، في نهاية القرن الأول وأقيم له تمثال في روما اعترافًا بخدماته لها.

كتاباته:

يحتفظ لنا التاريخ بعدة كتب من كتبه ومنها:

١- «تاريخ اليهود القديم» (JEWISH ANTIQUITIES) وأنهى كتابته عام ٩٣م. ويحتوي على عشرين مجلدًا وفيه بعض تاريخ اليهود من أول الخليقة إلى ٦٦م.

٢- «حرب اليهود» وقد كتبه بالأرامية وترجمه هو نفسه إلى اليونانية، ويحتوي على سبعة كتب، وأنهى كتابته عام ٧٨ م. ويتناول في هذه الكتب حروب اليهود ونضالهم للحصول على الاستقلال من أول عام ٦٦م.

٣- «تاريخ حياة يوسيفوس» عندما كان چنرالاً في الجليل وقد أضاف هذا الكتاب كتذييل لكتاب تاريخ اليهود القديم. ونُسب إليه خطأ كتاب المكابيين الرابع.

(1) Daniel M. Rhoads Israelin Eevolution 6 - 74 C.E.A. Political History Bases. Writing of Josephus Fortress Press. Philadelphia 4 - 5..

الفصل الرابع

الحركات الثورية الشمالية

بعد موت هيرودس الكبير عام ٤ م. حدثت عدة اشتباكات مسلحة بين القوات الرومانية وبين بعض اليهود، وخاصة اليهود الحجاج الذين جاءوا لزيارة أورشليم، إلا أن هذه الاشتباكات المسلحة لم تقتصر على العاصمة فقط بل امتدت إلى أماكن كثيرة أخرى في البلاد، ولم تستطع القوات الرومانية أن تسكت الأصوات الصارخة التي كانت تطالب بالحرية، إلا مؤقتًا، إذ أن الثورة بدأت من جديد وعلى نطاق واسع عندما صدر أمر بالاكتتاب في أيام حكم كيرنيوس والي سوريا(١)، وكان الهدف من هذا الاكتتاب أو الإحصاء هو معرفة الإمكانات المالية للمنطقة حتى يمكن فرض ضريبة مناسبة عليها.

وعندما علم بأمر هذا القرار الخاص بالاكتتاب الذي أصدره الإمبراطور أغسطس إلى الحاكم سولبيكوس كيرنيوس حاكم سوريا، نصح رئيس الكهنة - في ذلك الوقت وهو جوزار (Joasar) - الشعب بالخضوع لهذا الأمر تنفيذًا لمطالب روما، ولكن على العكس من رئيس الكهنة جوزار، ثار على هذا القرار الإمبراطوري معلم يهودي يدعى يهوذا الجليلي. ولقد ساعده على القيام بالثورة وسانده فيها بكل ما أوتي من قوة وعلم الفريسي صادوق. فعندما طرق خبر الاكتتاب هذا مسامع يهوذا الجليلي ثار ثورة عارمة وبدأ يخطب في الناس حاثًا إياهم على الثورة في كل البلاد والتمرد والخروج على السلطات الرومانية ومحاربتها أينما وجدت وبكل الوسائل. والذي دفع يهوذا الجليلي إلى القيام بهذه الثورة ضد روما في سنة ٦ م. هو اعتقاده بأن دفع الضريبة لدولة أممية وقبول سلطانها والخضوع لها يعد كسرًا للناموس وخطية وبالتالي رفضًا لسلطان يهوه، ولذلك طلب من كل اليهود بصفة عامة ومن أتباعه بصفة خاصة عدم دفع الضرائب، بل القيام بالثورة ضد القوات الرومانية الموجودة في البلاد. وعلى أثر هذا، التف حول يهوذا الجليلي عدد كبير لا بأس به من اليهود. وقد ذكر سفر الأعمال في كلمات قليلة جدًا هذا الثورة التي قام بها يهوذا الجليلي: «لأنه قبل هذه الأيام قام ثوداس قائلاً عن نفسه إنه شيء، الذي التصق به عدد كبير من الرجال نحو أربعمائة، الذي قُتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء. بعد هذه الأيام قام يهوذا الجليلي في أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبًا غفيرًا فذاك أيضًا هلك وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا» (أع ٥: ٣٦ و٣٧).

إن يهوذا الجليلي قام بثورته هذه في سنة ٦ أو ٧ م. ومنذ هذا التاريخ ظهرت حركة (أو حزب أو طائفة) دينية سياسية

(١) يجب التفريق بين هذا الاكتتاب الذي حدث سنة ٧ م. تقريبًا والاكتتاب الذي حدث أيضًا على يد كيرنيوس قبل أن يكون حاكمًا سنة ٦ أو ٧ ق.م في أثناء حكم هيرودس الذي في أيامه وُلد المسيح.

جديدة تهدف إلى تحرير البلاد من الاستعمار وحكمها بحسب التوراة بطريقة متعصبة، وقد أراد أتباع هذا الحزب أن يجعلوا من الناموس الموسوي دستورًا لأحكامهم وقضاياهم وسلطانهم على البلاد. فالله هو الإله الواحد لا إله غيره، والبلاد يجب أن تحكَم بحسب «كتابه» (الناموس) ويجب معاقبة وطرد من يخالف هذا الأمر، وهكذا ظهرت بظهور هذه الحركة السياسية الدينية طائفة جديدة أو مذهب ديني سياسي جديد يضاف إلى المذاهب السابقة والتي كانت معروفة (مذاهب الفريسيين والأسينيين والصدوقيين) ولقد كتب يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي الشهير الكثير عن هذه الجماعة، فقد قال عن مؤسس هذا الحزب: «.. إن يهوذا الذي يدعى الجليلي قد بث في نفوس اليهود روح الثورة وعدم دفع الجزية للرومان لأنه بدفعهم الجزية للرومان يساوون الإنسان بالله. وبذلك أسس يهوذا طائفة جديدة تختلف عن المذاهب الثلاثة الأخرى (الفريسيين، الصدوقيين، والأسينيين)» (حرب اليهود ٢: ١١٨). ثم كتب عن نفس الجماعة فقال: إن يهوذا الذي تكلمنا عنه سابقًا كان هو المؤسس للطائفة الرابعة. وهذه الطائفة تتفق في كل شيء مع الفريسيين... (يوسيفوس تاريخ اليهود ١٨: ٣ - ٦، ٢٣). وفي فصل آخر كتبه أيضًا مؤخرًا حاول فيه أن يبين أن يهوذا الجليلي هو الجد (SICAIRES) «إن ألعازر حامل الخنجر الجد لحركة «السيكر» (SICAIRE) أو القاتل كان هو الذي يتولى قيادة الجماعة التي هجمت على قلعة ماسادا (MASSADA) وهو من نسل يهوذا الذي حاول قديمًا إقناع اليهود بعدم الخضوع لأمر الإحصاء الذي قام به كيرنيوس... والذين لم يسمعوا له، عاملهم معاملة الأعداء فسُلبت أموالهم وأُخذت مواشيهم وأُحرقت منازلهم...» (يوسيفوس حرب اليهود ٧: ٢٥٣ - ٢٥٥).

إن الثورة التي قام بها يهوذا الجليلي وصادوق لم تكن تهدف إلى تحرير البلاد من المستعمر الروماني فقط بل إلى إعادة النظام الثيوقراطي (دولة الحاكم فيها هو الله) (Une nation Theo Cratique) ولإعادة هذا النظام الثيوقراطي إلى البلاد كان من الضروري وكخطوة أولى وأولية أن تسيطر على البلاد في ذلك الوقت، ولإشعال نار الثورة في البلاد قام كل من يهوذا الجليلي وصادوق بإلقاء العظات والخطب الحماسية ضد الرومان. ويقول يوسيفوس: «لقد كان لهذه الخطب التأثير العميق لدرجة أنها دفعت الجماهير إلى الثورة. إن هذين الرجلين استطاعا أن يلقيا الاضطراب والفوضى في وسط الشعب بطريقة غير معقولة» (يوسيفوس حرب اليهود ١١: ١١٨).

ومما لا شك فيه أن روما لم تكن تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الثورة التي كانت تريد طردها من البلاد والاستيلاء على السلطان والحكم، ولذلك فقد ضربت الجيوش الرومانية هذه الحركة الجديدة ضربات قاسية بل قاضية في بعض الأحيان، إذ هجمت على التجمعات الشعبية اليهودية والصدوقية فشتتها وقضت على الزعيمين قضاء شنيعًا. وهكذا انتهى أمر يهوذا الجليلي وصادوق كما يذكره سفر الأعمال «بعد هذا قام يهوذا الجليلي في أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبًا غفيرًا فذاك أيضًا هلك، وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا» (أع ٥: ٣٧).

والسؤال الذي نسأله الآن: ماذا حدث لهذا الحزب الجديد بعد موت قائده يهوذا الجليلي؟ إن كتاب الأعمال يقول: «وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا...» إن السلطات الرومانية قضت على المتمردين بطريقة وحشية قاسية ولكنها لم تستطع أن تقضي عليهم قضاء نهائيًا. ولذلك فقد تشتت أفراد هذا الحزب الجديد في البلاد، وخاصةً في الجليل مسقط رأس يهوذا الجليلي، وكان هذا الحزب

يقوم بأنشطة سياسية وعمليات هجومية ضد الرومان وأتباعهم ولكن بطريقة سرية جدًا، وبهذا استطاع الحزب الجديد أن يواصل نشاطه بهذه الطريقة الخفية إلى أن جاء اليوم الذي أمكنه فيه من جديد إعلان تمرده وعصيانه وثورته على الرومان، وأعوانهم.

ولكن ما هو هذا الحزب الجديد؟ إن المصادر التي تكلمنا عن هذا الحزب الجديد قليلة جدًا، فالمصدر الأول الذي ذكر كثيرًا عن هذا الحزب هو مصدر متحيِّز وهو المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس، كما أن الكاتب المسيحي هيبوليتوس ذكره أيضًا في كتاباته، كذلك بلينوس الشيخ. ولكن بالرغم من إن يوسيفوس مصدر متحيز إلا أنه يعطي لنا تفصيلات كثيرة ومطولة عن هذه الجماعة التي سماها باسم «حَمَلة الخناجر» (SICHIRES or SICAIRE) والكلمة المستَعمَلة هنا كلمة لاتينية تعني حامل الخنجر أو السكين، فإن هذا الحزب قد تبنَّى العنف والهجوم والقتل، كوسيلة من الوسائل التي استعملها لتحرير البلاد - فهذا الاسم «سيكر» يعني الشخص الذي يحمل سكينًا أو خنجرًا ويستعمله بطريقة خاطفة وسريعة. والسؤال الذي يجب طرحه الآن هو: «هل هذا الحزب «سيكر» يختلف عن حزب الغيورين أم هو نفس الحزب؟»

إن الرأي السائد حاليًا والذي يؤيده كل من هنجل وبراندون (M. HENGEL, S.G.F. BRANDON) هو أن حركة المقاومة كانت حركة مستمرة، وتدعى حركة الغيورين وعندما يذكر يوسيفوس هذه الحركة يسميها جماعة اللصوص أو (حملة الخناجر SICAIRES) وكان المثل الأعلى لحركة الغيورين فينحاس بن ألعازار (عد ٢٥: ٦ - ١٥)، وكذلك ماتاتياس اللذين غارا غيرة الرب (١مكا ١ و٢). ويعتقد كل من هنجل وبراندون أنه بالرغم من أن أصل الحركة الغيورية يرجع إلى فينحاس وماتاتياس المكابي، ولكنها لم تبدأ على نطاق واسع ومنظم إلا في سنة ٦ م. عندما قام يهوذا الجليلي بثورته ضد الرومان. والأغلبية الساحقة التي تؤيد هذه النظرية تعترف بأن كتابات يوسيفوس فلافيوس والكتابات الأخرى لا تحتوي إلا على القليل جدًا من المصادر التي تكلمنا عن نشاط الغيورين من سنة ٦ - ٦٦ م. فإن يوسيفوس يعطي في معظم الأحيان لهذه الحركة اسم لصوص «حاملي الخناجر» ففي هذه الفترة أي من سنة ٦ - ٦٦ لم تظهر كثيرًا كلمة «غيور» في كتابات يوسيفوس، وعلى الرغم من ذلك فإن يوسيفوس نفسه يذكر حادثة صلب اثنين من أتباع يهوذا الجليلي على يد الحاكم طيباريوس ألكسندر (٤٦ - ٤٨م.) كما يذكر لنا أيضًا حادثة أخرى في بداية حرب ٦٦م. وهي حادثة ابن أخ ليهوذا يدعى مناحيم (MENAHEM) الذي استولى على قلعة ماسادا (MASSADA) بعد أن قتل جيوش كتيبة رومانية وسلَّح رجاله بسلاحهم. ثم اتجه إلى أورشليم على رأس هذه الجماعة مدعيًا أنه المسيا. على أن الكهنة الذين قاموا بالثورة هجموا على مناحيم[1] وقتلوه مع عدد كبير من أتباعه. وبعد اغتيال هذا الزعيم الذي كان يدَّعي أنه المسيا ظهرت الانقسامات في حركة الغيورين، وهنا يظهر شخص آخر من نفس عائلة يهوذا الجليلي يدعى ألعازر بن يائير الذي كان يرأس جماعة من الغيورين في قلعة ماسادا. ولقد ظلت هذه الحركة الغيورية وشبه الغيورية تقوم بأنشطة مختلفة وعمليات حربية تخريبية تحت قيادات مختلفة متنوعة إلى سنة ٧٠ عندما سقطت أورشليم بعد أن أحرقت أبوابها وهدمت أسوارها وقُتل وسُبي سكانها. أما الذين لجأوا إلى قلعة ماسادا فقد اختبأوا فيها ودافعوا عنها ببسالة عظيمة حتى سقطت عام ٧٣ أو ٧٤ م. وعندما أدركوا بأنه لا أمل في الانتصار فضلوا الانتحار الجماعي مع عائلاتهم وأطفالهم على التسليم ليد العدو[1].

(١) في نهاية هذا الفصل سنعطي قائمة بالكتب التي اقتبسناها هنا، وكتب أخرى تساعد الدارس على التوسع في هذا الموضوع.

إن نظرية هنجل وبراندون تحاول إثبات أن حزب الغيورين هو الحزب الذي، وإن كان يرجع في الأصل إلى فينحاس والمكابيين، إلا أنه ظهر فعلاً بطريقة عملية وعلى نطاق واسع عام ٦ م. أي عندما ظهر يهوذا الجليلي. وبالرغم من أن يوسيفوس لا يتكلم عن الغيورين بطريقة واضحة إلا بعد ٦٦ م، فإن الحوادث التي يذكرها من سنة ٤٦ - ٦٦م. لا يمكن نسبتها إلا إلى الغيورين.

ولدحض نظرية هنجل وبراندون هذه، قامت جماعة أخرى تعترف أيضًا بأن يوسيفوس مؤرخ متحيز ولكنها تفسر كتاباته بطريقة تختلف عن هذين الكاتبين، فهي تعتقد في وجود بعض الأسباب التي من أجلها لم يستعمل يوسيفوس كلمة غيور إلا مؤخرًا، ومن هذه الأسباب، أن الفلاحين لعبوا دورًا هامًّا في هذه الثورات، لأن الحلم بدولة ثيوقراطية والغيرة على نقاوة الهيكل دفعتا الفلاحين إلى القيام بعدة ثورات في أماكن مختلفة وفي فترات متباعدة. ولقد ظهر في أثناء هذه الثورات بعض الأشخاص الذين كانوا يدَّعون المعجزات المسيانية. فهذه الاضطرابات والثورات التي قام بها الفلاحون أدت في نهاية الأمر إلى ظهور كل من جماعة السيكر والغيورين. ومؤيدو هذه النظرية يعتقدون بأن الذين لجأوا إلى قلعة ماسادا بعد ظهور مناحيم كمسيا واغتياله هم جماعة «السيكر» (SICAIRES حاملي الخناجر) وليسوا من الغيورين لأن هذه القلعة كانت ملجأ لجماعة حاملي الخناجر وليس لجماعة الغيورين، إذ أن حزب الغيورين لم يظهر إلا بعد حزب السيكر (سنة ٦٦م.) ويحتمل أن هذا الحزب (الغيورين) قد خرج من جماعة الأسينيين أو على الأقل كان على صلة وثيقة بهم. وهذا واضح من اتفاقهما في بعض المبادئ: فإن الغيورين كانوا يحاربون بعنف لتطهير الهيكل والوصول به إلى درجة النقاوة الكهنوتية التي حلم بها حزقيال (٤٠ - ٤٨). ولهذا السبب عينه فقد عينوا كاهنًا ريفيًّا من نسل صادوق، وكانوا يتبعون العادة القديمة في اختيار رئيس الكهنة وهي إلقاء القرعة. والغيورون لا يتفقون أيضًا وسياسة مناحيم وادعاءاته المسيانية. ويظن «مورتن سميث» (MORTON SMITH) أن حزب الغيورين لم يظهر كحزب على مسرح النضال إلا في شتاء سنة ٦٧ - ٦٨ م. أي بعد اغتيال مناحيم بسنة، وكان معظم أعضاء هذا الحزب من الفلاحين الأتقياء وليس من كهنة الدرجة الثانية[1] كما يظن بومباخ (BAUMBACH)، وكان هذا الحزب يبغض أغنياء المدينة وكهنة الدرجة السامية، كذلك كان يُكِن بغضة شديدة للرومان المستعمرين.

من هذه اللمحة التاريخية يمكننا أن نرى أنه توجد عدة نظريات بخصوص ظهور الغيورين، يمكن أن نلخصها في نظريتين: ١ - لقد ظهر حزب الغيورين بظهور المعلم يهوذا الجليلي في ٦ أو ٧ م. ٢ - إن حزب الغيورين لم يظهر إلا بعد ٦٦م. والذين يتمسكون بهذه النظرية الأخيرة يستشهدون بصمت المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس عن الكلام عن هذا الحزب.

على أننا نعتقد بأن جماعة الغيورين قد وُلدت في التاريخ اليهودي بعد المبادرة التي قام بها فينحاس بن ألعازار (عد ٢٥: ٦- ١٥) وبدأت الحركة الغيورية تنتشر في أيام حكم أنطيخوس أبيفانس الرابع بطريقة فردية أو جماعية، قوية وفعالة في

(١) إن الكهنة وعلى رأسهم رئيس الكهنة كانوا يشكلون جماعة الكهنة الأرستقراطية وهذه الجماعة كانت قريبة من الطبقات الأرستقراطية الغنية، ولهذا السبب تواطأت مع الطبقة الغنية ذات المصالح ومع المستعمر الروماني، ومع أن هاتين الطبقتين لم ترحبا بالاستعمار الروماني إلا أنهما تعاونتا وقبلتاه حارسًا على مصالحها وأملاكها. على أن جماعة من الكهنة لم تقبل هذا الخداع الاجتماعي ورفضت التعاون كليًّا وجزئيًّا مع الرومان ومع رئيس الكهنة، وكان معظم هؤلاء الكهنة من الطبقات الفقيرة فانضموا إلى حزب الغيورين وقاتلوا جنبًا إلى جنب معهم.

بعض الأحيان، وضعيفة وهزيلة في أحيان أخرى. هكذا ظلت هذه الحركة قائمة تظهر تارة وتختفي تارة أخرى، إلى أن جاء يهوذا الجليلي وقام بثورته ضد الرومان وضد الأرستقراطية الكهنوتية، ومنذ هذا التاريخ أصبحت هذه الحركة منظمة دينية سياسية، ومع أن هجوم الرومان على هذه الجماعة وقتلهم لقائديها يهوذا الجليلي وصادوق الفريسي وتشتيتهم لأفرادها في سنة ٦ أو ٧م. كان ضربة قاسية مريعة لحياة هذه المنظمة، فقد ظل الغيورون بالرغم من هذه الضربة متمسكين بغيرتهم الدينية والسياسية، والعمل على تنفيذ أغراضهم والوصول إلى أهدافهم التي وضعوها نصب أعينهم. فإن الذين أفلتوا (كما سبق القول) من أيدي الرومان الذين هجموا على يهوذا وصادوق، تشتتوا في البلاد خصوصًا في الجليل مسقط رأس يهوذا الجليلي وكونوا نواة للمقاومة، وكانت هذه النواة تعمل بطريقة خفية وسرية جدًا حتى لا تراها أعين الرومان أو أعوان الرومان، ولهذا السبب ظن البعض أن هجوم الرومان على يهوذا وأتباعه كان وثبة قاضية ونهائية، ولكن حقيقة الأمر هي غير ذلك فإن هذه النواة ظلت تنمو بطريقة خفية إلى أن استردت قوتها وحيويتها وعندئذ استأنفت مرة أخرى نشاطها السياسي والديني بطريقة فعلية وعملية.

ومن حركة الغيورين هذه خرجت عدة حركات أو أحزاب دينية وسياسية يعوزنا الوقت لو تعرضنا لذكرها وتحليل أهداف كل منها بطريقة مطولة، ولذلك نكتفي هنا بذكر بعضها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

١- الحزب الذي يمكننا أن نسميه «الحزب الشمالي المعتدل»: وهذا الحزب يؤمن بأن البلاد في حاجة ماسة وشديدة إلى الإصلاح والتغيير السريع الكلي والجزئي. وهذا التغيير يشمل العبادة في الهيكل والكهنوت والحياة العملية وطرد المستعمر.

٢- أما الحزب الثاني فيمكننا أن نسميه «الحزب الشمالي»: وهو يؤمن بنفس المبادئ وينادي بها ولكنه لا يقف عند هذا الحد، ولكي يصل إلى الأهداف لابد من استعمال القوة ضد الأجنبي فقط ثم الاعتماد على السلاح للتعاون مع يهوه لتحرير البلاد.

٣- أما الحزب الثالث والذي يمكننا أن نسميه «الحزب الشمالي المتطرف جدًا»، فهو حزب «السيكر» (SICAIRES). وهو يهدف إلى تطهير الهيكل وتحرير البلاد من المستعمر ثم تأسيس دولة ثيوقراطية. ولكي يصل هذا الحزب إلى هذه الأهداف التي قبلتها كل الأحزاب المتطرفة والمعتدلة، فقد استعمل كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للحصول على هذا الاستقلال وتأسيس الدولة الثيوقراطية (أي الدولة التي يحكمها ويديرها الله).

ولقد سمي هذا الحزب «بالسيكر» (SICAIRE) نسبة إلى السكاكين أو الخناجر التي كانوا يستعملونها في هجومهم على الرومان، وكان ضحاياهم من الرومان واليهود المتعاونين مع الرومان (أي المستعمرين وأعوانهم)، واتبعوا نفس السياسة التي اتبعها من قبلهم يهوذا المكابي، وهي الهجوم وقتل المستعمر والمتواطئ معه. ولقد اتخذوا من الجبال والمغاير مساكن وملاجئ لهم للهروب والاختفاء بعيدًا عن السلطة الرومانية، كما أنهم اتخذوا من الاحتفالات الدينية والوطنية والتجمعات الشعبية بصفة عامة ميدانًا لنشاطهم العملي. وبما أن اسمهم (SICAIRES) أي الذين يحملون الخناجر ويستعملونها بسرعة وبطريقة مفاجئة فقد كانوا يندسون وسط الجماهير ويهجمون بطريقة سريعة ومفاجئة على ضحيتهم المعينة، وبعد قتلها كان القاتل

يصرخ قائلاً: «النجدة» لكي لا تتجه إليه أنظار الجمهور[1]. واعتقد الغيورون بأن الله هو السيد المتسلط على الكون وله وحده يجب السجود والعبادة والطاعة، فالطاعة لأي سلطة أخرى مهما كانت مكانتها وعظمتها لا تتفق ووصية الله، والخضوع لأي ناموس أو قانون آخر غير ناموس وقانون يهوه يعتبر مخالفًا وكسرًا لوصيته وإهانة لشخصه. ولذلك اعتبروا أن وجود روما والنسر الروماني في هذه البلاد إهانة ليهوه، خصوصًا الضريبة التي فرضها الرومان والتي كان يجب أن تدفع للهيكل لا للأمم الغلف. وكانوا يعتقدون أيضًا أن إله إسرائيل الذي أخرجهم من مصر وسار معهم عبر التاريخ وخلص آباءهم من الظلم والاضطهاد سيخلصهم هم أيضًا من ظلم الرومان وسيطرتهم القاسية، بشرط أن يستعملوا هم أيضًا كل الوسائل التي يملكونها من قتل وغدر وسفك دماء للوصول إلى هذا الغرض وهو التخلص من المستعمر وأعوانه، وكانوا على استعداد أن يضحوا بأموالهم وحياتهم وحياة ذويهم ليحققوا حلم الاستقلال وحرية العبادة وسلطان الله المطلق، أي الثيوقراطية (THEOCRATE). وكانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن الله الذي تدخل بطريقة معجزية مع شعبه وخلصهم من يد الأعداء سيتدخل أيضًا بطريقة إلهية ويخلصهم من يد الرومان مهما كانت قوتهم وعظمتهم لأن يهوه أقوى من كل الأقوياء وأعظم من كل العظماء، على أن يواصلوا جهادهم وحروبهم ونضالهم المسلح.

ويقدم لنا يوسيفوس جماعة الغيورين كعصابة لصوص متعصبة دينيًا وسياسيًا تشيع في البلاد الاضطراب وترتكب الجرائم التي تقشعر منها الأبدان، كالسرقة والتخريب والقتل. وهو يحمّل هذه الجماعة مسئولية رد الفعل الذي قام به الرومان ضد جرائمهم، فهم المسئولون ليس فقط عما حدث من ثورات على يد يهوذا الجليلي وأتباعه، بل ما حدث أيضًا من سرقة وتخريب وقتل منذ قيام «هذه العصابة» خصوصًا ما حدث في ثورة ٦٦م. وأدى إلى خراب أورشليم، فهو يلقي مسئولية ثورة ٦٦م. وخراب أورشليم على الغيورين الذين استفزوا الرومان بتصرفاتهم المتطرفة وجرائمهم الكثيرة[2].

ومع أن حركة الغيورين قد لزمت الصمت بعد موت يهوذا مؤسسها، إلا أنها ظهرت من جديد واضعة أمامها نفس الأهداف التي كان يسعى يهوذا الجليلي وصادوق للوصول إليها كما أشرنا إلى ذلك سابقًا. والجدير بالذكر أنه يبدو أن أتباع يهوذا الجليلي قد بايعوه وعائلته لقيادة هذا الحزب كما حدث في تاريخ يهوذا المكابي وعائلته، ولذلك نرى أعضاء هذه العائلة في مقدمة المحاربين والمصارعين والمضحين بحياتهم. ويوسيفوس فلافيوس يشهد بأن الحاكم ألكسندر طيباريوس (٤٦ - ٤٨ م.) قد حكم بصلب اثنين من أولاد يهوذا الجليلي[3].

فمن الواضح إذًا، أن هذه العائلة قد لعبت دورًا كبيرًا وهامًا جدًا في حزب الغيورين لدرجة أن الجليل مسقط رأس يهوذا أصبح ملجأً للغيورين. وإنجيل لوقا يذكر لنا قصة هؤلاء الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم، «وكان حاضرًا في ذلك الوقت قوم يخبرونه عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم» (لو ١٣: ١- ٢).

(١) يوسيفوس «حرب اليهود» ٢: ٢٥٤ -٢٥٦.

(2) Joseph flavius. **antiquite**. 18 - 1.6.

S.G. Brandon gesus et les zelotes. flammarion idees et recherches. Teadut de l'naglais par georges et beatrice formentelli.

(٣) راجع كتاب (Brandon) ص ٧١- ٧٤.

ومن المحتمل أن جماعة من الغيورين أو من المؤيدين لهم قد جاءت إلى أورشليم لتقديم ذبائح كعادة اليهود وعندما رأت هذه الجماعة الأوضاع القائمة هناك والقوات الرومانية بالقرب من الهيكل ثم النسر الروماني، لم تستطع أن تحتمل إهانة كهذه فثارت وسببت هيجانًا مما اضطر بيلاطس إلى أن يرسل قوة عسكرية لتقضي على هؤلاء الثوار، وعندما وصلت القوة العسكرية إلى الهيكل لم تترك الثوار إلا جثثًا هامدة اختلطت دماؤهم بدماء الذبائح التي كانوا يقدمونها. ومع أن يوسيفوس لا يذكر شيئًا عن هذه الحادثة إلا أنه يعرفنا بأن الجليل كان في ذلك الوقت في حالة هيجان وثورة.

وهكذا واصلت هذه الحركة القتال والصراع المستمر ضد القوات الرومانية وضد الأرستقراطية الكهنوتية وضد كل مؤيد للحكومة القائمة، ولقد اتخذوا في جهادهم هذا ماتاتياس الكاهن وأولاده كمثل أعلى لهم.

ولذلك فقد اعتبروا هذه الحقبة من الزمن كالعصر الفضي إن لم يكن الذهبي بعد عصر داود وسليمان. وحاول الغيورون والمؤيدون لهم أن يبذلوا كل غالٍ ورخيص لكي تعيش إسرائيل هذا المجد الضائع. ولهذا السبب اشتعلت النيران واندلعت الثورات بين الرومان الذين كانوا يريدون حكم البلاد وضبطها والبقاء فيها مهما كلفهم الأمر، وبين هذه الأحزاب والمؤيدين لها الذين كانوا لا يقبلون أي سلطة مهما كانت إلا سلطة يهوه نفسه، ولا يقبلون أي اختلاط أو اندماج مع هذا الشعب الأغلف النجس، ولا يقبلون أيضًا أي مساومة في حقوق الله والوطن فهم يطالبون بالجلاء الكامل والسريع.

ومما عجل باندلاع الثورة أو بالمعنى الأصح الثورات ضد الرومان أسباب يعوزنا الوقت إذا دخلنا في تفصيلاتها، فنذكر إذًا بعضها على سبيل المثال لا الحصر: ازدياد سوء التفاهم بين اليهود والسطات الرومانية عندما قام بيلاطس البنطي ببناء مجرى مائي لكي يمد المدينة والهيكل بمياه صالحة للشرب، لأنه موَّل هذا المشروع من صندوق الهيكل وأخذ المال المكرس للهيكل ولخدمته ودفعه للعمال وللقائمين على هذا المشروع، فغضب اليهود لهذا الأمر حتى المعتدلين منهم. ثم هناك أمر آخر وسع الفجوة بين الفريقين: إن بعض الحكام الرومان جرحوا أحاسيس ومشاعر اليهود الدينية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ظهور عدد لا بأس به من اليهود يدَّعي كل منهم بأنه المسيا المنتظر ومنهم ثوداس الذي قُتل بأمر الحاكم فادوس (٤٤ - ٤٦ م) ولا ننسى قسوة فيلكس الوالي ومعاملته الوحشية للوطنيين الثوار. ثم هناك أيضًا مشكلة النزاع الذي قام بين يهود قيصرية والأمم بخصوص بعض الامتيازات المدنية. وعندما فشل فيلكس في حسم الأمر، أرسل ممثلين من الفريقين إلى روما وعندئذ منح الإمبراطور هذه الامتيازات المدنية للأمميين (٥٩ م) الأمر الذي زاد من حقد اليهود على السلطات الرومانية وعجل بثورة سنة ٦٦ م.

هذه الأسباب مع أسباب أخرى عديدة دفعت كثيرين من اليهود وخاصة أحزاب الغيورين إلى الثورة والعنف، ولذلك عندما أمر ألعازر بن حنان القائد العام لحرس الهيكل بأن لا تقدم فيما بعد الذبيحة اليومية التي كانت تقدم في الهيكل لأجل رفاهية وسعادة الإمبراطور الروماني، فقد كان هذا الأمر كشعلة نار ألقيت على بحيرة من البترول فاشتعلت نيرانها وكان اشتعالها عظيمًا. فعلى أثر هذا القرار اشتبكت القوات الوطنية مع القوات الرومانية، ولقد سيطرت القوات الوطنية في بداية الأمر على الموقف بالرغم من الجحافل الرومانية والمساعدات العكسرية التي جاءت من مناطق أخرى لإخماد الثورة وسحقها،

فإن القوات الرومانية نكصت على أعقابها متقهقرة منكسة الرأس (نوفمبر ٦٦). وقد كان لهذا النصر تأثير عميق في نفسية اليهود خصوصًا أحزاب الغيورين الذين اعتبروا أن النصر جاء من فوق، ولابد أن الله سيتدخل لكي يحرر شعبه من الاستعمار.

أما روما فلم يكن من السهل عليها أن تقبل هزيمة مثل هذه ولذلك فقد كلف فاسبازيان (VESPASIEN) بإخماد هذه الثورة، فجاء إلى الجليل وضرب بشدة وعنف دون رحمة. ولم يستطع الثائرون الثبات أمام قوته فسقط الكثيرون وهرب البعض الآخر خصوصًا قادة الحركة الوطنية إلى أورشليم (٦٧ م) لكي يواصلوا نضالهم هناك. وكان فاسبازيان ينوي مطاردتهم وحصرهم في أورشليم وفعلاً أعد العدة للذهاب إلى هناك، وبينما كان يقترب من المدينة وصل إليه خبر خلع واغتيال الإمبراطور نيرون في صيف ٦٨ م. ففتح هذا الخبر أمام طموحه العريض بابًا واسعًا للمجد والعظمة. وفعلاً أصبح فاسبازيان إمبراطورًا على روما وترك ابنه تيطس لإخماد الثورة اليهودية. استطاع تيطس القضاء على الثورة في كل اليهودية عام ٦٩ م. إلا في أورشليم وبعض الحصون الموجودة بالقرب من البحر الميت.

وفي مايو ٧٠ م. كان نصف مدينة أورشليم في يد الرومان. وفي ٢٩ أغسطس ٧٠ م. سقطت المدينة إلا أجزاء منها في يد الرومان فحرقوا المذبح. وفي آخر سبتمبر سقطت المدينة كلها في يد المحتل الروماني، فقلبوها رأسًا على عقب ولم يبق منها قائم إلا جزء من الحائط الغربي بأبراجه الثلاثة.

ولقد استخدم الرومان هذا الحائط الباقي من قلعة هيرودس ثكنة لبعض القوات الرومانية التي كانت تشرف على المدينة الخربة ومنع اليهود من الرجوع إليها وإعادة بنائها وأمر تيطس بأن تُحرث المدينة كلها بمحراث ما عدا هذه الأبراج الثلاثة.

لم يكن سقوط أورشليم في يد الرومان بالأمر السهل الهين؛ فبالرغم من أن القوات الرومانية كانت تحيط بها مع القوات الإضافية التي أُرسلت إليها من الأقاليم الأخرى التي كان يحتلها الرومان، فلقد استطاعت هذه المدينة البائسة أن تظهر شجاعة نادرة النظير ومقاومة عظيمة باسلة في أثناء حصارها، فإن سكان أورشليم دافعوا عنها دفاعًا مستميتًا، إذ أنهم بذلوا في الدفاع عنها أرواحهم وأجسامهم بسخاء عظيم وشجاعة مدهشة. وكان يتزعم حركة الدفاع هذه الغيورون وأحزاب أخرى ولكن الغيورين لعبوا دورًا هامًا جدًا في المقاومة، كما لعبوا دورًا هامًا أيضًا قبل حصار أورشليم عندما حاولوا التخلص من أعوان الرومان بالهجوم على كثيرين من رؤساء الكهنة والأغنياء والرومان في بيوتهم والمجامع ومجمع السنهدريم نفسه. وبذلك أضعفوا بل شلوا حركة اليهود العملاء بإرعابهم وتخويفهم باستعمال القوة والعنف والذبح. كانت سياسة العنف والقتل والذبح موجهة ليس فقط ضد الرومان الذي يحتلون البلاد، بل كانت متبعة أيضًا مع اليهود العملاء والمتواطئين مع الأجانب، ومع أن هذه السياسة سببت انقسامًا في الشعب، فإن المدينة بصفة عامة دافعت دفاعًا عظيمًا حتى آخر أيام الحصار عندما استطاع جنود الرومان - بعد حصار دام وقتًا طويلاً هلك فيه من الجوع والعطش آلاف مؤلفة من اليهود - دخول المدينة والاستيلاء عليها وإشعال النار فيها وفي هيكلها العظيم، الذي كان يعتبر أعجوبة من أعاجيب الزمان[1].

(١) اقرأ سقوط أورشليم بقلم ح. د كالنج تعريب د. عزت زكي (صدر عن لجنة النشر المسيحي ص.ب ٤٣ الفجالة. مصر. فمع أن الكتاب يعتبر قصة روائية إلا أن المؤلف يسرد فيه بعض الحقائق التاريخية التي لها قيمتها ص ٢٣٥ - ٣٣١).

وبعد أن ذاقت أورشليم الحصار المرير والآلام التي لا توصف سقطت مرة أخرى في يد الأجنبي وسُبي عدد كبير من سكانها (حوالي تسعين ألف) وهكذا تحققت نبوة السيد فيها عندما قال: «ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش، فحينئذ اعلموا أنه قد اقترب خرابها. حينئذ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال والذين في وسطها فليفروا خارجًا والذين في الكور فلا يدخلوها، لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب» (لو ٢١: ٢٠- ٢٢، مت ٢٤: ١٥- ١٩).

الفصل الخامس

المعتقدات المسيانية قبل الميلاد

لقد رأينا في الفصول السابقة كيف أن الله فتح باب الرجاء أمام الإنسان الساقط الخاطئ آدم، ووعده بمخلص يخلصه من خطاياه، وكما أن الحية قادت المرأة إلى الابتعاد عن الله المحب، فمن نسل المرأة سيأتي من يخلص نسلها من الخطية ويصالح الإنسان الساقط المتمرد؛ فعن طريق المسيح المخلص تمت المصالحة بين الله والإنسان، وتحرر الإنسان من قيود الخطية والاستعباد. ثم رأينا كيف تنبأ الأنبياء بهذه الحقيقة الإلهية ونادوا بها، وكيف أن الأجيال التالية فهمت هذه الإعلانات الإلهية الخاصة بالمسيا. وعرفنا أيضًا كيف أن كثيرين من شعب إسرائيل فهموا هذه النبوات كما لو كانت أقوالاً مختصة بخلاص مادي وسياسي، أي خلاص من الاستعمار والاستعباد الأجنبيين والحصول على الاستقلال الوطني وتأسيس أمة وطنية. بهذه الروح عينها قام زربابل بقيادة القافلة الأولى للرجوع إلى أورشليم (٥٣٧ ق.م) وبنفس الروح أيضًا قام نحميا بترميم أسوار أورشليم المنهدمة (٤٤٥ ق.م.) كانت هذه الأهداف، أي إقامة أمة يهودية مستقلة، هي التي دفعت عزرا أيضًا للرجوع من السبي على رأس قافلة عظيمة (٣٩٨ ق.م)، وهذه الأهداف عينها هي التي دفعت ماتاتياس وأولاده إلى القيام بالثورة ضد الملك أنطيخوس الرابع أبيفانس (١٦٧ ق.م.) وهي أيضًا نفس الأهداف التي أراد الوصول إليها كلٌ من المكابيين والأسمونيين والغيورين.

والغرض من كل ما ذكرناه في الفصول السابقة هو محاولة شرح العقيدة الخاصة بالمسيا على مر العصور، وكيف أن شعب الله كان ينتظر المسيا المخلص المنقذ المحرر.. إلخ، من الأزمة التي كانوا فيها روحيًا و ماديًا وسياسيًا. كانت العقيدة المسيانية في بداية الأمر باهتة وغير واضحة في ذهن الشعب ولكن عندما كان يمر هذا الشعب بتجربة قاسية أو محنة مؤلمة تمس حريته وسيادته الوطنية كان يبحث عن مخلص ومنقذ من يد أعدائه، فقد رأى مخلصًا في موسى ويشوع والقضاة والملوك والمكابيين والأسمونيين والغيورين. وعلى مر العصور والأجيال ولكثرة المحن والتجارب التي قاساها هذا الشعب ولحاجته المستديمة والملحة لمخلص، فإن عقيدة المسيا المخلص والمنقذ من الأعداء رسخت في قلوب الشعب وتأصلت في أذهانهم. وبلا شك عندما أقول الشعب، لا أريد أن أعمم لأنه في كل عصر من هذه العصور وجدت جماعة من الناس لا تقبل الأفكار المسيانية الشعبية، ولكن في كل عصر من العصور أيضًا وُجدت جماعات كثيرة ومتنوعة كانت تنتظر المسيا بحسب مفاهيمهم المختلفة المتنوعة. ولقد حاولت كل جماعة من هذه الجماعات التي كانت تنتظر المسيا وتؤمن بمجيئه أن ترسم صورة لمسياها، فقد

رآه البعض كالمخلص لشعبه إسرائيل محطمًا بقوته سلطان الأعداء ومعطيًا النصرة لشعبه، ورآه البعض الآخر كسيد للبر، ثم رآه آخرون كالمطهر والمخلص أي الذي يطهر ليس الأمم فحسب بل شعبه أيضًا من خطاياهم واختلاطهم بالشعوب الأخرى.

هذه العقائد وعقائد أخرى كثيرة كانت منتشرة وسائدة في العصور التي سبقت مجيء المسيح وفي أيامه أيضًا. كما سبق القول فإن العقائد المسيانية كانت في بداية الأمر باهتة وغير واضحة في أذهان الشعب، ولكنها تأصلت وتعمقت وتبلورت في أذهانهم بمرور الزمن. ولقد انتشرت هذه العقائد المسيانية انتشارًا عظيمًا وعلى نطاق واسع جدًا بين اليهود في آخر حكم هيرودس، أي قبل ميلاد المسيح ببضع سنوات، ووصلت هذه العقائد المسيانية إلى ذروتها في الانتشار خلال أيام المسيح نفسه، ففي هذا الوقت كان الشعب اليهودي ينتظر بفارغ الصبر مجيء المسيا. ولهذا السبب عينه فقد جاء كثيرون من المسايا الكذبة قبل المسيح وبعده يدَّعون لأنفسهم هذا الحق، وكانت التربة مهيَّأة ومُعدَّة لذلك؛ فالشعب اليهودي الذي كان يئن متألمًا تحت نير الرومان القاسي الظالم كانت ينتظر مخلصًا يخلصهم من الاستعمار في ذلك الوقت. وساعد على انتشار هذا الاعتقاد بين اليهود عدة عوامل منها: أن الزمان في المفهوم اليهودي ينقسم إلى قسمين: ٢٠٠٠ سنة بدون ناموس و ٢٠٠٠ سنة تحت الناموس وبعدها يأتي المسيا، وعلى هذا فقد اعتقد البعض أن المسيا قد وُلد فعلاً في ذلك الوقت في بيت لحم ولكن لا يعرف أحد أين هو بالضبط ولا من هو، ولكنه ينتظر اللحظة المناسبة التي يعلن فيها ذاته في الوقت المعين (يو ٧: ٢٧). عامل آخر: فقد اعتقد اليهود أنه لو استطاع شعب الله حفظ السبت وتنفيذ مطالبه مرتين فقط، فسيأتي المسيا وينقذ شعبه. ثم هناك عامل آخر مهم هو أن ضغط الرومان وظلمهم دفعا اليهود للانغماس في الأحلام المسيانية الحلوة التي حلم بها آباؤهم.

لهذه الأسباب وغيرها ظهر عدد لا بأس به قبل وأثناء وبعد مجيء المسيح، ادعى كلٌّ منهم بأنه المسيا المنتَظر والمخلِّص الذي سيحطم قوات الرومان ويحرر شعب الله من السلطان العاتي. ألم يحاول سمعان الجليلي في ثورته أن يحرر البلاد من الرومان لكي يحكمها حكمًا ثيوقراطيًا؟ ألم يتبع أيضًا كثيرون من الذين جاءوا بعده نفس السياسة ونفس المنهج؟ ألم يحاول الغيورون حكم البلاد بحسب التوراة، حتى لو تطلب الأمر القوة والعنف والقسوة؟ ولهذا فقد كان النزاع بين الرومان وبعض الأحزاب اليهودية صراعًا مستمرًا وعنيفًا وداميًا ولم تتردد القوات الرومانية لحظة واحدة في أن تضرب بقضيب من حديد وبشدة على رأس كل من كان يحاول أن يفرض سلطانًا آخر على إسرائيل غير سلطان قيصر. ألم تضرب القوات الرومانية بشدة المصري الذي كان يتزعم حزبًا يزيد أعضاؤه على أربعة آلاف عضو وكانت له نفس الأهداف والأطماح المسيانية التي كان ينتظر شعب ذلك الوقت تحقيقها بفارغ الصبر؟

ولقد أشار سفر الأعمال إلى هذا الرجل (أع ٢١: ٣٨) كما أنه أشار إلى حوادث أخرى مماثلة (أع ٥: ٣٦- ٣٨). ويوسيفوس المؤرخ اليهودي يتكلم عن هذا الرجل المصري الجنسية الذي جمع حوله ما يقرب من أربعة آلاف شخص وصعد إلى جبل الزيتون ووعد الشعب بأنه سيعمل بأورشليم ما عمله يشوع بأريحا عندما أسقط جدرانها، ووعد الشعب أيضًا - الذي خرج وراءه - بأنه عند سقوط أسوار أورشليم والاستيلاء عليها سيقتل الرومان ويحرر المدينة منهم. وعندما عرف الوالي فيلكس بهذا الأمر طلب من الجيوش ملاحقة هذا الرجل والجمهور الذي سار معه، وبدأت المعركة بين جيوش فيلكس وبين هذا الرجل

المصري واليهود الذين كانوا يؤمنون بمسيانيته، وانتهى الأمر بقتل عدد كبير من أتباعه، وأما الرجل فقد هرب ولم يستطع فيلكس ولا جيوشه القبض عليه[1]. ولقد كان هذا الرجل عضوًا نشطًا عاملاً في حزب السيكر (SICAIRES). وكما سبق القول فإن هذا الحزب وأحزابًا أخرى يهودية كانت تؤمن بأن المسيا العتيد أن يظهر سيحرر البلاد من الاستعمار الروماني، وبه سيبدأ بملكوت الله. ويقدم لنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي سلسلة طويلة لعدد كبير من الأشخاص الذين ادعى كل منهم بأنه المسيا المنتظر الذي يجب أن يخلص شعبه من قبضة المستعمر. فهو يذكر لنا أيضًا قصة ذلك الرجل المصري ثم في أثناء حكم فادوس (CUSPIDIUS FADUS) ظهر ثوداس الذي ادعي نفس هذا الادعاء، ولكنه لقي حتفه مع أربعمائة رجل (أع ٥: ٣٦ - ٣٨)[2] وفي حكم كومانوس ظهرت جماعة ألعازار. (VENTIDIUS CUMNUS).

ودارس التاريخ اليهودي يلاحظ أنه منذ آخر حكم هيرودس إلى حوالي سنة ٧٤ م. قد شاهدت البلاد ظهور عدد كبير من الثوار والأشخاص الذين ادعوا أنهم مسايا. ولقد ازداد عدد هؤلاء في السنوات الأربعين الأخيرة أي من سنة ٣٠ م. إلى سنة ٧٠ م. ولقد كانت هذه الحركات المسيانية السياسية سببًا من الأسباب الهامة التي أثارت غضب الرومان وجعلتهم ينظرون إليها كحركات عدائية ومقاومة للرومان ولقيصر نفسه. ومما لا شك فيه أن القادة الرومان في هذه البلاد كانوا يعرفون عقائد وأهداف هذه الحركات، فإن بعض هذه الحركات كان ينادي بقرب مجيء ملكوت الله، ومعنى ملكوت الله على الأرض بالنسبة لبعض هذه الحركات لا يعني تحرير البلاد من الاستعمار الروماني فقط، بل إن كل الأمم ستصير هي نفسها خاضعة لإسرائيل وتأتمر بأمرها وتدين بديانتها (إش ٩: ٢- ٧، ١١: ١- ١٢، حز ٣٢: ٧، إر ٤: ٢٤، إش ٣٠: ٢٧، ٣٤: ٥- ١٠، ١٠: ١٤- ١٩، ٦١: ١٥- ١٦).

ولكي تتحقق هذه الأمنية لابد أن يهوه نفسه سيتدخل في الأمر، فهو الذي قاد شعبه في القديم وأعطاه الانتصارات الباهرة العظيمة على أعدائه، فهو يهوه نفسه الذي سيؤيد هذا الشعب ضد الرومان لطردهم من هذه البلاد. كانت بعض هذه الحركات تؤمن بأن المسيا سيُخضِع الأمم تحت قدميه، لأن عمله سيمتد إلى الأمم أيضًا. ألم يكن هذا هو الشرك الذي مده الشيطان للمسيح في التجربة على الجبل «ثم أصعده إبليس إلى جبلٍ عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إليَّ قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد» (لو ٤: ٥- ٦). ألم يكن هذا هو ما يسعى إليه كل غيور ويريد الحصول عليه؟ على أية حال سنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد.

تشبعت الجماهير اليهودية بالأفكار المنتشرة في ذلك الوقت بخصوص المسيا. ثم إن بعض الكتب الأبوكريفية التي كانت معروفة في ذلك الوقت ساعدت على انتشار الأفكار المسيانية: فإن الذين قاموا بالثورات ضد المستعمر كانوا في معظم الأحيان يتخذون كمثل لهم في نضالهم وصراعهم أبطال المكابيين والأسمونيين... إلخ. ولذلك نلاحظ أن كتابي المكابيين كان لهما تأثير عميق جدًا في النضال. كذلك أيضًا كتاب أخنوخ الذي لعب دورًا هامًّا جدًا في التأثير على اليهود، بل إن تأثير هذا الكتاب امتد

(١) انظر S. G. Brandon ص ١٣١ - ١٣٢.
كان فيلكس واليًا من سنة ٥٢ - ٥٩ ب.م.
(٢) يوسيفوس التاريخ اليهودي ٢٠، ٥٠، ١.

إلى كاتب من كتاب العهد الجديد فاقتبس منه وهو يهوذا (يه ١٤).

وكتاب أخنوخ - دون الدخول في التفاصيل - عبارة عن رؤيا رأى فيها الكاتب تاريخ البشرية كلها. وفي وسط هذه البشرية رأى الرائي قطيع غنم، وهذا القطيع الذي يمثل أمة اليهود، مر تحت حكم ونير ٧٠ راعيًا أي تحت حكم ونير ٧٠ ملكًا وثنيًا فأساءوا معاملته جدًا. ولكن من وسط هذا القطيع المغلوب على أمره خرجت بعض الخراف ذات شجاعة وبأس وهم المكابيون والموالون لهم، فقاموا بحروب عنيفة ضد الغربان التي كانت تنهش لحم الخراف. وكادت الغربان أن تتغلب على المكابيين وعلى رأسهم يوحنا هركانوس، فاستغاث هذا الأخير بالله وعندئذ فتح الملاك السفر الذي سجل فيه فظائع هؤلاء الملوك (٧٠ ملكًا) فاغتاظ الرب وامتلأ غضبًا، ولذلك فقد فتحت الأرض فاها وابتلعت الغربان التي كانت تهدد الشاب يوحنا هركانوس وقطيعه الأبيض، وانتصر الشاب بالسيف الذي أعطاه له السيد لقتل الأمم أعداء الرب. وهكذا قضى الرب على أعداء قطيعه، وأصبح هذا القطيع طاهرًا نقيًا ودخل الهيكل الجديد الذي أحضره الله من السماء لهذا الغرض، ثم يقوم الوثنيون الذين لم يهلكوا بخدمة هذا القطيع والسهر على راحته، وبعد هذا يظهر المسيا كثور بقرون سوداء كبيرة[1].

كانت هذه القصص وقصص كثيرة أخرى شعبية معروفة ومنتشرة بين الشعب اليهودي عن المسيا. ولقد قدمت هذه الروايات شخص المسيا كالمنقذ من الظلم والاستعمار والمحرر والمخلص والمعلم والمرشد الذي يعلم شعبه ويرشده إلى الحق الإلهي. ألم تقل المرأة السامرية للمسيح: «قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء» (يو ٤: ٢٥، تث ١٨: ١٨).

لقد احتلت هذه القصص والروايات المسيانية مكانة مرموقة في الثقافة وفي التعاليم اللاهوتية اليهودية في ذلك العصر. ولهذا السبب فإن كثيرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور المسيا القريب والمفاجئ، المسيا الذي سيحرر شعبه من النير الروماني القاسي والظالم. ولهذا السبب أيضًا كانت القوات الرومانية تضرب بلا رحمة وبلا شفقة كل ادعاء مسياني، إذ كانت تعلم جيدًا أن كل حركة مسيانية سياسية خطر على سياستها ووجودها، ولذلك فقد كان الصراع بين الرومان وقوات التحرير الوطنية مستمرًا وعنيفًا، ووصل هذا الصراع أشده في السنوات السابقة واللاحقة لميلاد يسوع.

(1) Jesus - Christ et les Croyances Messianiques de son temps. Deuxléme éditior revue et angmantée. Strasbourg. Treutiel et Wurtz Livrairie. Edétion 1864.

مراجع هامة

1. S.G.F. Brandon, **Jesus and the Zealots: A Study of the Political Factor in Primitive Christianity,** New York, 1968.

2. Oscar Cullmann, **Jesus et Les Revolutionnaires de Son Temps.** Neuchatel, 1970.

3. Georges R. Edwards, **Jesus and the Politics of Violence,** New York, 1972.

4. Comtantin Daniel, *Esseniens.* **Zelotes et Ssicaires et leur Mention par Paronymie dans le N.T.** (in Numan 13, 1966. pp. 88- 115).

5. H. Kingdon, **Who were the Zealots and Their Leaders in A.D. 66?,** In New York Testament Studies 17 (1970) pp. 68 ff.

6. Morton Smith, **Zealots and Sicarii, their Origins and Relations,** in Harvard Theological Review 64 (1971) pp. 1 - 19.

7. Walter Wink, **Jesus and Revolution. Reflections on S.G.F. Brandon's Jesus and the Zealots** in Union Seminary Quarterly Review 25 (1969) pp. 37 - 59.

8. **Dict, of the Bible** (J. Hasting, 5th vol., Edim., 1897 - 1904.

9. Alfred, Bertholet. **Histoire de La Civilisation D'Israel, Trade.** Jacques Marty. Paris Payot 1929.

10. Louis De Porte, **La Mesopotamie. Les Civilization Babylonienne et Assyrienne,** Paris.

11. Charles F. Jean, **Les Milieu Biblique A van ler,** Vol. 1922. 2em 1923.

12. Jean Juster, **Les Juifs dans L'Empire Romains, Leurs Condition Juridique, Economique et Sociale,** 2 vols., Paris Geuthner, 1914.

13. M. J. Lagrange, **Le Judaisme A vant Jesus Chirst,** Paris 1931.

14. Ad. Lods Israel, **des Origines au milieu du 8 Siecle,** Paris.

15. S. Matthews, **The History of The New Testament Times in Palestine,** New York, 1910.

16. Johs. Pedersen, **Israel, its Life and Culture** 1 - 2 Londre Milford, 1926.

17. CH. Guignebert, **des Prophetes a Jesus Le Monde Juif. Vors Le Temps de Jesus.**

18. Cecil Roth, **Histoire du Peuple Juif des Origines a 1962** (Ed. de La Terre Petrouvee. 12 R. de La Victoire, 12. 1963).

19. Henri Caubert, **L'Attente du Messie La Bible dans L'Histoire,** Mame. Paris 21. 2. 1968.

20 Marcel Simon, **Les Sectes Juives Au de Jésus,** Press UniVersitaires de France.

21. S.G. Brandon, **Jésus el Les Zélotes Flammarion Idess et Recherches,** Trod.

22. C. Kittel, **Theological Dictionary of the N.T.** Grand Rapids, from 1964 Onwards: **Articles sur Zelotes** (Stumpff) vol. 2 pp. 877 - 888 *Sur Lestes (Rengstorf)* Vol. IV pp. 257 - 262. et Sur Sikarios (Betz) Vol. 7 pp. 278 - 282.

23. F M. Abel, **Histoire de La Palestine depuis La Conquete d'Alexandre Jusqu'a L, Invasion** Arab 2 Vol. (Coll. Etudes bibl. Paris, 1952).

24. Joachim Jeremais, **Jerusalem au Temps de Jesus.** Recherches d'Histoire Economique et Sociale, Trad de L'all 525 p. Paris 1967.

25. Daniel M. Rhoads, **Israel in Revolution 6 - 74 C.E A Political History.**

26 T. Colan. Jesus - **Christ el Les Espernace Messianique de son temps.**

27. W. Trilling, **Jesus devant L. Histoire tr.** Par Joseph Schmit Les Editions du Cerf.

الجزء الثاني

ميلاد المسيح

وحياته وموته وقيامته

الفصل الأول

ميلاد المسيح

إن كل ما قلناه في الفصول السابقة عن «المسيا» كما يقدمه لنا العهد القديم، المسيا كما رآه وانتظره اليهود قبل الميلاد، ثم فترة المكابيين وما بعدها، وأخيرًا المعتقدات التي كانت سائدة عن المسيا من قبل وبعد مجيئه. كل هذا لا يعد إلا تمهيدًا للدخول في صلب الموضوع الذي نريد دراسته دراسةً عقائديةً، وحتى نعرف كيف فهم التلاميذ والكنيسة الأولى، والمدافعون (APLOGISTES) والعصور اللاحقة شخص ربنا يسوع المسيح، كان من اللازم والضروري أن نلقي نظرة تاريخية سريعة على مفهوم المسيا عند اليهود وأي نوع من المسيا كانوا ينتظرون. فبعد أن رأينا الآمال الروحية والسياسية والاقتصادية التي كان اليهود يعلقونها عن مجيء المسيا، لنتقدم الآن للدخول في موضوع دراستنا: «يسوع المسيح على مر العصور»، وسنحاول بنعمة الله أن نتناول بالتحليل مفهوم كل حقبة مبتدئين من سنة ٤ ق.م. إلى العصر الحاضر، أو بعبارة أخرى: ما هي إجابة الكنيسة أو الكنائس أو الشعوب والطوائف على سؤال الرب يسوع نفسه، الذي سأله لتلاميذه في قيصرية فيلبس قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٣) إن الرب يسوع الذي طرح هذا السؤال على تلاميذه، طرحه أيضًا على كل جيل وعصر مرت به كنيسته. وكما أن التلاميذ كانوا ملزمين بإعطاء إجابة على هذا السؤال، فالكنيسة أيضًا ملزمة في كل عصر وكل مكان بأن تعطي جوابًا واضحًا وصريحًا عن عقيدتها في شخص المسيح يسوع؛ فالدراسة التي سنقوم بها الآن تتركز على مفهوم الكنيسة لشخص الرب يسوع المسيح. وكيف فهمت الكنيسة على مر العصور شخص المسيح. وبناءً على ذلك فسنضطر للدخول في تفصيل وشرح بعض العقائد الكريستولوچية (CRISTOLOGIE) (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) وبعض الهرطقات التي ظهرت في كل الحقب التاريخية وموقف الكنيسة منها، والصراع العنيف القاسي المرير والمحزن الذي مرت به كنيسة الفادي، جسد المسيح. هذا الصراع الشنيع بدأت بوادره تظهر بين التلاميذ أنفسهم، ثم ازداد في الكنيسة الأولى، وللأسف الشديد، فإن دارس تاريخ العقائد يلاحظ أنه على قدر ما كانت الرسالة تنتشر في العالم على قدر ما كانت تظهر انشقاقات و بدع وهرطقات، لأنه حيثما بُشِّر بالمسيح، كان سؤاله يطرح نفسه: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» وكان الذين يسمعون هذه الرسالة المفرحة ملزمين بالإجابة على: «من هو يسوع المسيح؟ أهو يوحنا المعمدان، أهو إيليا، أهو إرميا أو واحد من الأنبياء؟» أم كما اعترف بطرس ملهمًا من الآب نفسه: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»؟ والكنيسة المسيحية حاولت على مر العصور الإجابة على هذا السؤال: من هو يسوع المسيح؟ أم نبي، أم مصلح اجتماعي، أم مصلح ديني، أم إنسان غير عادي وخارق للطبيعة أم هو ابن الله الحي الله الذي ظهر في الجسد؟ والناس في إجاباتهم على هذا

السؤال: «من هو يسوع المسيح؟» انقسموا إلى أحزاب وطوائف وكنائس، وتحققت كلمات سمعان التي نطق بها عندما أخذ الطفل يسوع بين يديه وقال: «إن هذا (يسوع) قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تُقاوَم» (لو ٢: ٣٤). نعم لقد جاء المسيح لسقوط وقيام كثيرين ليس فقط في إسرائيل. بل في الكنيسة كلها والعالم كله. «إلى خاصته جاء، وخاصته لم تقبله. وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو ١: ١١ - ١٢). هنا يبدأ الانقسام والصراع بين الذين قبلوه سيدًا ومخلصًا لحياتهم وتصرفاتهم وإيمانهم وبين الذين رفضوه أو لم يعطوه المكان اللائق به كرب وسيد. لقد جاء المسيح - المسيا - الذي كان شعب اليهود ينتظره بفارغ الصبر، جاء إلى خاصته لخلاصها وتحريرها، فهل عرفته خاصته وقبلته كمخلص وسيد؟ إن النبي إشعياء يقول: «الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف شعبي لا يفهم» (إش ١: ٣).

إن جواب هذه الأمة على سؤال المسيح: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» كان «إن معه بعلزبول، وأنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين» (مر ٣: ٢٢). ولذلك فقد طلبوا كهنة وشعبًا، من بيلاطس أن يصلب يسوع وأن يطلق لهم باراباس: «فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا، حينئذٍ أطلق لهم باراباس، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليُصلب» (متى ٢٧: ٢٥- ٢٦).

منذ هذا التاريخ، أي بعد أن أعلن الشعب اليهودي أن دم المسيح عليهم وعلى أولادهم وأنه ليس لهم ملك إلا قيصر (يو ١٩: ١٥) تحول المسيح عنهم وعن أمتهم وترك لهم بيتهم خرابًا، وجُردت هذه الأمة من كل الامتيازات التي كانت تتمتع بها لأنها هي نفسها التي طلبت بأن تُجرَّد من هذه الامتيازات عندما أنكرت سيدها وربها طالبة سيادة قيصر. بهذا الجواب «دمه علينا وعلى أولادنا» أصبحت الأمة اليهودية كباقي الأمم وأصبحت الكنيسة المسيحية شعب الله المختار، إذا تمسكت بدعوتها واحتفظت بمقامها الذي منحه لها الرب في فرط محبته. على أن هذا لا يعني أن الباب أُغلق نهائيًا أمام هذه الأمة، بل إذا قبلت المسيح كالمخلص والفادي تصبح بدورها عضوًا في كنيسته المنتشرة في الأرض كلها. إن هذا «يسوع» قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تُقاوَم.

ولكي لا نبتعد عن موضوع دراستنا: «من هو يسوع المسيح؟» سنحاول أن نتبع نفس الطريقة التي اتبعناها في الفصول السابقة من الناحي التاريخية. فالسؤال الأول الذي يفرض نفسه هو:

١. هل يمكننا أن نثبت من الناحية التاريخية وجود المسيح؟ ومتى وُلد؟

قبل أن نبدأ البحث في السؤال الأول: «هل يمكننا أن نثبت من الناحية التاريخية وجود يسوع»، نريد أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أمر مهم جدًا، وهو أن إيماننا بالمسيح يسوع الذي وُلد من عذراء في بيت لحم وعاش في أرض فلسطين وصُلب ومات وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله الآب وسيأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات، إن إيماننا هذا بالرب يسوع لا يتوقف على ما يقوله المؤرخون سلبيًا أو إيجابيًا، لأن الإيمان بشخصه الكريم هو هبة الله، وكما

يقول الرسول: «لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم. هو عطية الله» (أف ٢: ٨) فحتى الإيمان الذي نؤمن عن طريقه بالمسيح هو عطية من الله. وهذا الإيمان يولد في قلب الإنسان عندما يتقابل الرب يسوع المسيح معه. فعن طريق هذا اللقاء بين بيسوع المسيح وبين الإنسان، يولد الإيمان ويصبح الإنسان خليقة جديدة.

فإن كنا سنحاول في الصفحات التالية البحث عن بعض النصوص والوثائق التاريخية التي تتكلم عن يسوع ووجوده التاريخي، فإن هذا لا يعني أن إيماننا بالمسيح متوقف على هذه الأدلة التاريخية، لأن إيماننا بالمسيح راسخ على صخر صلب وأدلة أعظم وشهود أكثر أمانة وإخلاصًا. لأن مسيح الإيمان الذي عمل ويعمل الآن في كنيسته بالروح القدس يستطيع بمقابلته للإنسان أن يقنعه بوجود يسوع التاريخي. فمع أن «يسوع التاريخي» وُجد فعلاً، وُلد وعاش وتألم وفرح وأخيراً صُلب ومات وقام، إلا أن هذه الحوادث التاريخية لا يمكن أن تصبح حقيقة مقنعة لها تأثيرها وفاعليتها إن لم يصبح مسيح الإيمان حقيقة واقعية يحيا به الإنسان ويحيا فيه، فأساس إيماننا في وجود يسوع التاريخ لا يرتكز إذن على ما قاله أو يقوله المؤرخون بل يرتكز على «يسوع الإيمان» الذي يشهد بروحه القدوس لنفسه، ثم على أقوال الكتب المقدسة التي تشهد له: «فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية وهي التي تشهد لي» (يو ٥: ٣٩).

هذا لا يعني أن دراسة التاريخ والبحث العلمي والتنقيب فيه لا قيمة له بالنسبة للمسيحي أو للإيمان المسيحي، كلا، فإن كان المسيحي الحقيقي لا يبني إيمانه على ما يقدمه التاريخ، إلا أن ما يقدمه التاريخ عن يسوع من الناحية الإيجابية يغذي ويقوي إيمان المؤمن في يسوع، وبذلك تصبح دراسة التاريخ ومعرفته وما يرويه عن يسوع مهمة جدًّا وضرورية لكل دارس وباحث. ولهذا السبب فمن واجبنا أن ننقب ونبحث التاريخ باحثين بأمانة وإخلاص عن بعض النصوص والكتابات التي تتكلم عن وجود يسوع التاريخي. ولكن قبل أن نتكلم عن بعض هذه الأدلة التاريخية يجدر بنا أن نذكر الأدلة الكتابية.

الأدلة الكتابية التي تتكلم عن وجود يسوع:

إن الأدلة الكتابية التي تتكلم عن وجود يسوع لا حصر لها ولا عدد، ولذلك لا نذكر أقوال الأنبياء التي نطقوا بها معلنين مجيء المسيا المخلص، ونكتفي فقط -على سبيل المثال لا الحصر - بسرد بعض الأدلة الكتابية:

أول الأدلة الكتابية التي تكلمنا عن يسوع، هي رسائل القديس بولس الرسول ونذكر أولاً رسائل بولس لأنها كُتبت وأُرسلت إلى الكنائس قبل أن تُكتب الأناجيل. فهذه الرسائل تكلمنا عن أصل يسوع (رو ١: ٣ وغلا ١: ١٩، ٣: ١٦) وعن حياته (١كو ١١: ١، ٢ وكو ٥: ٢١، ١٠: ١)، وتكلمنا أيضًا عن موته (١كو ٢: ٢ وغلا ٢: ٢٠ وفي ٢: ٨) وعن قيامته (١كو ١٥) إن أقدم رسالة من هذه الرسائل كتبت حوالي سنة ٥٢ م.

المصدر الثاني الذي نستقي منه معلوماتنا عن يسوع، هو الأناجيل. فإن الأناجيل الثالثة الأولى التي كتبت بين ٧٠، ٨٥ م. ثم إنجيل يوحنا الذي كُتب فيما بين سنة ٩٠، ١٠٠ م. تروي لنا قصة ميلاد وحياة ومعجزات وجهاد، وصلب ودفن وقيامة وصعود يسوع.

كل هذه الرسائل: رسائل بولس الرسول والرسائل الأخرى وكذلك الأناجيل الأربعة، موضوعها الأساسي هو شخص يسوع المسيح. فهي من ناحية تقدم لنا يسوع الناصري: كان إنسانًا وُلد من امرأة وعاش بين الناس مشتركًا معهم في أفراحهم وأحزانهم، وكان عرضة للعطش والجوع والآلام وللموت. ومن ناحية أخرى تقدم لنا يسوع المسيح ابن الله، الذي ولد من امرأة عذراء وعمل المعجزات، وأقام الموتى وقام هو نفسه من الأموات وصعد إلى السماء. هذه هي شهادة الكتاب المقدس عن يسوع المسيح. وبهذه الصورة المزدوجة يقدم لنا العهد الجديد شخص يسوع المسيح، معطيًا لنا شهادة عن أصله وسبب وجوده على أرضنا. ومن الواضح أن العهد الجديد لم يحاول أن يعطي لنا قصة حياة كاملة (LA BIOGRAPHIE DE JESUS) عن يسوع، إذ أن هدف الأناجيل لم يكن هدفًا روائيًا، لأن الذين كتبوا هذه الكتب وخاصة الإنجيليين لم يحاولوا أن يقدموا قصة حياة يسوع لكي يشبعوا رغبة محب الاستطلاع في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجنس وعلم البيولوجيا، بل قدموا لنا بعض الحوادث والقصص التي تروي لنا ما قام بعمله يسوع الناصري، دون أن يدخلوا في التفصيلات التي يهتم بها عالم النفس، وعالم الاجتماع وعالم الجنس وعالم البيولوجيا. فعلى سبيل المثال نحن نعرف أن يسوع لم يكن عابسًا كئيبًا، رغم ذلك فإن العهد الجديد لا يذكر ولو مرة واحدة أن يسوع ضحك أو ابتسم. نعم إنه يقول: «في تلك الساعة تهلل يسوع بالروح وقال أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض...» (لو ١٠: ٢١) ومع ذلك فلم يقل ضحك يسوع أو ابتسم يسوع، مع أنه هو مصدر السرور والفرح الحقيقيين.

ظاهرة أخرى: العهد الجديد لا يذكر ولو مرة واحدة أن يسوع كان يقوم كأي إنسان آخر بمطالب جسده الطبيعية.

من هذه الأمثال وأمثال أخرى يتضح لنا أن كتّاب العهد الجديد لم يكن في قصدهم تقديم قصة كاملة عن حياة يسوع تشمل كل تصرفاته الداخلية والخارجية، بل أرادوا أن يصفوا لنا الإنسان يسوع الناصري الذي تقابل معه بعضهم أثناء حياته على الأرض، فرأوا فيه ليس فقط الإنسان يسوع الناصري ابن مريم، بل رأوا فيه أيضًا المسيح ابن الله الحي. إن الرسل والإنجيليين يقدمون لنا شهادة حية حقيقية لا يمكن رفضها أو إنكارها عن وجود يسوع على الأرض، ويمكننا أن نلخص هذه الشهادة في كلمات القديس يوحنا القائلة: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة... الذي رأيناه وسمعناه نخبركم به لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا...» (١يو ١: ١، ٣).

الأدلة التاريخية التي تكلمنا عن وجود يسوع:

كما سبق القول إن إيماننا في المسيح لا يرتكز بأي حال من الأحوال على ما يقوله المؤرخون إيجابيًا كان أو سلبيًا عن يسوع، بل إن إيماننا الذي هو هبة وعطية منه، يرتكز أولاً وقبل كل شيء على شخصه الكريم، صخر الإيمان ومنبعه الحقيقي. ثم يرتكز أيضًا على وحيه الصادق أي الكتاب المقدس. وهذا الأخير يستمد سلطانه ونفوذه وتأثيره من الله المثلث الأقانيم.

فإن كنا ننبش التاريخ باحثين عن بعض الأدلة التاريخية التي تتكلم عن يسوع، فإننا لا نريد بذلك، البحث عن أساس لإيماننا بالمسيح في التاريخ، إلا أن التاريخ بوثائقه وأدلته التاريخية يمكن أن يكون عاملاً في تقوية إيماننا بالمسيح، وليس مصدرًا له. ولهذا السبب، أي لتقوية الإيمان، ولأسباب أخرى، يتحتم على كل دارس، وخاصةً الذي يريد دراسة العقيدة المسيحية فيما يتعلق بشخص الرب يسوع أن يعطي اهتمامًا كبيرًا لدراسة التاريخ.

والسؤال الأول الذي يفرض نفسه فرضًا على الباحث في التاريخ هو السؤال الذي سأله الأستاذ موريس جوجل (MAURICE GOGUEL) *الذي كتب عدة مؤلفات عن حياة يسوع، محاولاً الإجابة على السؤال الآتي: هل يسوع هو شخصية حقيقية لحمًا* ودمًا، وهل عاش فعلاً في منطقة ما على الأرض؟ وفي وقت معين؟ أم هو مجرد حقيقة روحية رمزية، أسطورة عن طريقها استطاعت الكنيسة الأولى أن تعبِّر عن آمالها وأحلامها وعبادتها[١]؟ هذا هو السؤال الذي سأله جوجل والذي نسأله ويسأله الكثيرون من المؤرخين، هل يسوع الناصري حقيقة أم خيال؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول إنه لا يوجد مؤرخ واحد جاد ينكر وجود يسوع التاريخي، فمع أن الأدلة التاريخية التي تتكلم عن وجوده نادرة جدًّا إلا أن المؤرخين اتفقوا على أن وجود يسوع حقيقة لا يمكن إنكارها كما يقول الكاتب الألماني ترلنج (W. TRILLING) في كتابه: «يسوع أمام التاريخ». وإن كان البعض رفض فكرة وجود يسوع التاريخي وعلى رأسهم فولني (P. VOLNEY) ثم دوبوي (CH.F. DUPUIS) في سنة ١٧٩١، فإن حقيقة وجود يسوع التاريخية حقيقة ثابتة، وإنكارها يعني إنكار حقيقة تاريخية لا شك فيها، كما لو قلنا إن الإمبراطور أغسطس قيصر ونابليون لم يوجدا في التاريخ. ولدحض هذه الادعاءات التي لا أساس لها، يواصل الكاتب شرحه بالقول: «يكفي إثبات حادثة واحدة تكون قد حدثت فعلاً مع يسوع على المستوى التاريخي لإثبات وجوده التاريخي. ونحن نملك أكثر من حادثة تثبت وجود يسوع التاريخي»[٢]. وهنا نسأل هذا السؤال: ما هي المصادر التاريخية التي تتكلم عن يسوع؟

أ- التلمود[٣]

يعتبر التلمود من أهم المصادر التاريخية القديمة التي تكلمنا عن يسوع الناصري. ولقد حاول كلاوزن (KLAUSNER) جمع كل النصوص التلمودية التي تتكلم عن يسوع. ومن أهم هذه النصوص التي ذكرها التلمود (LA BARAITA) والتي حُفظت في كتابات السنهدريم في التلمود البابلي، النص الآتي: «لقد علق يسوع الناصري على خشبة في عشية عيد الفصح، فلمدة أربعين يومًا كان يتقدمه منادٍ صارخًا: لقد استعمل السحر وأغوى إسرائيل وجره إلى العصيان، فهو إذن مستحق الرجم، فإن كان يوجد من يدافع عنه لكي يبرر موقفه فليدافع، ولكن لم يوجد من يدافع عنه أو يبرره ولذلك قُضي عليه في عشية عيد الفصح». ثم يقول جوجل إنه يوجد تقليد يهودي قديم يرجع إلى العصر الأول وبداية القرن الثاني، يقول هذا التقليد إن: «يسوع ابن عسكري روماني. وهدف هذا التقليد هو استبعاد يسوع من النسل الداودي». كما أن التلمود يذكر أيضًا بأن الإسرائيليين اعترفوا ليس فقط بوجود شخص يسوع الناصري بل بالمعجزات التي عملها، إلا أنهم نسبوا معظم هذه المعجزات إلى الشيطان.

---

(١) كتب مسيو Goguel عدة مؤلفات عن حياة يسوع ومنها:

(A) La Vie de Jésus. Pauot. Paris. 106 Boyl. St. Germain 1932, 164, 174.

(B) Jésus: Jistoire des vies de Jésus- les temoigange Paulinien, les Evangiles - les origines des Jésus.

(C) Jésus de Nazareth. Mythe ou Histoire. Payot. Paris 106 Boul. St. Germain W. Trilling: Jésus devant l'histoire. Traduit de P'Allemand par Joseph Schmit. Les edition du CGRB 29 Bl. Latour Maukourg Paris, 1986 p. 15 - 18.

(٢) اقتبسه في كتابه ص ٥١، ٥٣.

(٣) التلمود عبارة عن مجموعة التقاليد اليهودية وتفاسير للشريعة.

ب- شهادة يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي:

في معرض حديثه عن هيرودس أنتيباس يقول: «في نحو ذلك الزمان جاء يسوع، إنسان حكيم، لو أمكن أن ندعوه إنسانًا، لأنه كان يقوم بعمل معجزات عجيبة ويعلم الحق للباحثين عنه، فتبعه عدد كبير من اليهود ومن الأمم، فهو المسيح، ولكن زعماء أمتنا وشوا به لدى بيلاطس فحكم عليه بالصلب، وأما الذين اتبعوه فظلوا على حبهم له، ولذلك فقد ظهر لهؤلاء حيًّا في اليوم الثالث من موته مثبتًا أقوال الأنبياء المختصة به وبمعجزاته التي لا حصر لها وتوجد حتى الآن جماعة باقية تدعى باسم «مسيحيين» نسبة له»[1].

ونفس المؤرخ (يوسيفوس) يتكلم عن حادثة أخرى ويذكر فيها اسم يسوع فيقول: لقد دعا حنانيا السنهدريم للانعقاد وقدم له يعقوب أخا يسوع الذي يُقال له المسيح مع آخرين، ولقد اتهموهم بكسر الناموس فحكم عليهم بالرجم ونُفِّذ هذا الحكم في عيد الفصح في سنة ٦٢ م». وسفر أعمال الرسل يشير إلى هذه الحادثة بالقول: «في ذلك الوقت مد هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة، فقتل يعقوب أخا يوحنا بالسيف» (أع ١٢: ١، ٢).

بالنسبة للنص الأول المنسوب ليوسيفوس المؤرخ يقول جوجل (Goguel) إن أوريجانوس استشهد بهذه الشهادة دون أن يذكر المرجع بالضبط[2].

قبل أن ننتقل إلى المصادر غير المسيحية التي تكلمت عن يسوع، يجب أن نقف قليلاً عند النص الأول المنسوب ليوسيفوس، لأن الأمانة العلمية تتطلب من الباحث المدقق لا البحث والتنقيب عن النصوص القديمة والحديثة التي تؤيد وجهة نظره أو النتيجة التي يريد أن يصل إليها فحسب، بل يجب عليه أيضًا أن يبحث بدقة فيما إذا كانت هذه النصوص صحيحة أو غير صحيحة. ثم يدرس الآراء المعارضة لها، ولذلك يجب أن نلفت نظر القارئ إلى أن النص الأول الذي يتكلم عن يسوع: «إنسان حكيم.. فهو المسيح..»، تعرض لبعض النقد، والنقد الذي وجهه الكثيرون من المتخصصين في النقد التاريخي هو أن هذا النص أدخلته يد مسيحية في كتابات يوسيفوس فلافيوس. وتوجد عدة أسباب دفعت النقاد لافتراض هذا.

١. إن يوسفوس لم يتكلم أبدًا في كتاباته العديدة والكثيرة (انظر ص ١١٥) عن يسوع إلا في هذين النصين، فكيف يمكن أن مؤرخًا عظيمًا كيوسيفوس كتب عن تاريخ اليهود من بدء الخليقة إلى سنة ٦٦ م. (٢٠ مجلدًا)، ولا يتكلم عن يسوع بشيء من التفصيل، وقد كرس صفحات كثيرة لأحداث وأشخاص تقل كثيرًا جدًا في أهميتها عن شخص يسوع؟!

٢. يقول النقاد أيضًا إن اعتراف يوسيفوس بأن يسوع هو المسيح يعني أنه يعترف بمسيانيته، وهذا الأمر لا يمكن قبوله بسهولة. ذلك لأن يوسيفوس كان من الطبقة اليهودية المتعاونة مع الأجنبي الروماني، وسياسة الرومان كانت ضد كل الحركات المسيانية. ولقد لقب يوسيفوس نفسه هذه الحركات «بجماعة اللصوص».

---

(١) انظر كتاب تاريخ اليهود ليوسيفوس فلافيوس (كتاب ١٨: ٣٠٣).

(٢) انظر كتاب جوجل Goguel حياة يسوع ص ٥٦.

٣. إن اعتراف المؤرخ اليهودي بمسيانية يسوع يعني أنه تجدد أو قبل المسيحية الأمر الذي لم يذكره في أي كتاب من كتبه. ولذلك يجد كثيرون من النقاد أنه من الصعب قبول هذا النص الذي يعترف فيه بأن يسوع هو المسيح.

وهنا يجب أن نطرح السؤال الآتي: إذا كان يسوع الناصري حقيقة تاريخية فعلية، فلماذا لم يتكلم هذا المؤرخ اليهودي العظيم والمتخصص في تاريخ أمته؟ عنه بالتفصيل والذي عاش في نفس القرن الذي عاش فيه يسوع، وخاصة أن يوسيفوس كتب الكثير عن سياسة وتاريخ الحركات المسيانية ومقاومتها لروما ولسياستها؟

إن النقاد ودارسي التاريخ يتساءلون باندهاش عظيم عن صمت يوسيفوس وعدم ذكره ليسوع في كتاباته، ولماذا التزم هذا الصمت الذي يكاد أن يكون كاملاً، إذا استثنينا النصين اللذين اقتبسناهما أعلاه.

والأمر فعلاً مدهش جدًا عندما نعرف أن يوسيفوس لم يكن مؤرخًا مشهورًا وعارفًا بتاريخ الأمة اليهودية فقط، بل كان أيضًا سياسيًا محنكًا ومسئولاً كبيرًا في السياسة اليهودية. بل أصبح فيما بعد مستشارًا للإمبراطور الروماني فيما يختص بالأمور السياسية اليهودية. وبهذه الصفات الثقافية والسياسية والدبلوماسية والدينية كان يوسيفوس على صلة وثيقة بكل ما يحدث في فلسطين، فلماذا إذًا كان يوسيفوس شحيحًا في إعطائه المعلومات التاريخية المختصة بيسوع؟!

عندما ندرس ما كتبه يوسيفوس عن فترة الثورات والاضطرابات التي قام بها بعض اليهود من سنة ٦ إلى ٧١ م. نلاحظ عداوته ومقاومته الشديدة للحركات المسيانية بطريقة عامة، ثم مقاومته وعداوته لحزب الغيورين بصفة خاصة. ونرى أيضًا كيف أن يوسيفوس حمَّل اليهود الثوار مسئولية الخسائر الجسيمة في الأرواح والأموال، الخسائر التي سببوها بثوراتهم ضد الرومان من سنة ٦٦ إلى ٧٠، وخاصة في سنة ٧٠ عندما سقطت أورشليم محروقة الأسوار، منهدمة البناء، بسبب تعصبهم الديني الأعمى غير الحكيم. ولقد وصف يوسيفوس هذه الحركات التي كانت تدَّعي أنها حركات مسيانية «باللصوص والقراصنة»... ولذلك فقد اعتبر الرومان أن هذه الحركات وقادتها تمثل خطرًا حقيقيًا وعظيمًا عليهم، وبناءً عليه كانت القوات الرومانية المحتلة للبلاد في ذلك الوقت تعمل جاهدة وبلا تهاون على تنظيف البلاد من كل هذه الشيع الغيورية وأمثالها التي لا هدف لها إلا تصفية الرومان من البلاد وعودة الحكم الثيوقراطي. وقد تعرضت فلسطين من سنة ٥ ق.م. إلى سنة ٧٠ م. لحركات مسيانية كثيرة، مما اضطر الرومان إلى الضرب بشدة لأي حركة تصطبغ بهذا اللون المسياني.

وعلى ما يبدو كان يوسيفوس يرى في يسوع وتلاميذه نوعًا آخر يختلف تمامًا عن كل المسايا وكل الحركات المسيانية التي وصفها في كتاباته، لذلك فإن يوسيفوس الدبلوماسي والسياسي حاول أن يتجنب الكلام من قريب أو بعيد أن يعتبره عن يسوع أو تلاميذه. فقد كان يخشى أن الكتابة عنه وعن تلاميذه، تجذب نظر الرومان إلى جماعة المسيحيين واعتبارهم شيعة أو حزبًا من الأحزاب السياسية المسيانية المشابهة للأحزاب الأخرى. مما كان يجلب عليهم عداوة الرومان ومقاومتهم لهذه الجماعة المسيحية. فلو مدح أو تكلم عن يسوع أو عن تلاميذه بطريقة حيادية، لعرض نفسه لخطرين مهمين: (١) أن يعتبره الرومان واحدًا من أتباع هذا الحزب الذي قد يظن الرومان بأنه يمثل خطرًا عليهم. (٢) أن يعتبره الحزب الكهنوتي الأرستقراطي واحدًا

من أتباع طريق الناصريين. ونحن لا نجهل أن يوسيفوس انتهى من كتابة «تاريخ اليهود» (٢٠ كتابًا) في حوالي سنة ٩٣ م، ولكن لا يفوتنا أيضًا أن اليهود الذي تشتتوا بسبب سقوط أورشليم والذين تشتتوا من قبل ذلك كانت لهم كلمتهم ومجامعهم حيثما وجدوا في كل الإمبراطورية الرومانية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لو كتب يوسيفوس عن يسوع وحياته وأعماله وتصرفاته وكذلك عن تلاميذه فلابد له أن يتكلم عن اليهود وانتظاراتهم المسيانية وآمالهم المعلقة على المسيا الذي سيأتي لكي يقلب الأوضاع الراهنة ويقيم على أنقاض الإمبراطورية الرمانية ملكوت الله. إذًا فقد كان صمت يوسيفوس (أو شبه الصمت) ما هو إلا صمتًا سياسيًّا دبلوماسيًّا لأنه لم يرد أن يسيء إلى علاقته بالسلطات الحاكمة الرومانية التي منحته امتيازات كثيرة، ولا علاقاته مع اليهود أبناء شعبه. وفي الوقت نفسه لا يريد أن يعرض أتباع يسوع لبطش الرومان.

لهذه الأسباب يعتقد الكثيرون بأن يوسيفوس فضل أن يسدل ستارًا على شخصية يسوع. ولهذه الأسباب أيضًا اعتقد البعض بأن النص الذي ذكرناه آنفًا عن يسوع بأنه إنسان حكيم.. فهو المسيح... إلخ. والذي ارتكزت عليه الكنيسة وقتًا طويلاً، قد يكون مصدره مسيحيًّا أو على الأقل امتدت إليه يد مسيحية فغيرت الكثير منه، ولكن هذا لا يغير شيئًا من إيماننا بالمسيح يسوع.

ج. المصادر الوثنية:

إن المؤرخ الروماني الوثني «تاسيت» الذي كان معاصرًا لبعض الرسل «٥٥ - ١٢٠ م»، يذكر في حديثه عن حريق روما اسم المسيح فيقول: إن المسيحيين لُقِّبوا بهذا الاسم بسبب نسبتهم إلى المسيح الذي في عهد طيباريوس، حكم عليه بالموت بيلاطس البنطي، ومع أن هذه الخرافة الشنيعة قُضي عليها في وقتها، بالقضاء على الذي بدأ بها، إلا أنها انتشرت من جديد ليس فقط في اليهودية مهد هذا الشر بل في روما نفسها. ولهذا فقد اضطر الحكام إلى مطاردة من يعتنقون هذه الديانة، ليس فقط لأنهم أحرقوا روما بل لأنهم أعداء الجنس البشري»[1]. إن أسلوب هذه الشهادة يبعد عنها كل الشبهات بأنها دخيلة على التاريخ أو من عمل يد مسيحية لأنها تلقي جريمة حرق روما على المسيحيين، وهي التهمة التي اتهم بها نيرون المسيحيين، كما أن المؤرخ يصفهم بأعداء البشرية ثم هناك شهادة أخرى لا تقل أهمية عن هذه الشهادة وهي خطاب بلينوس الصغير الحاكم الروماني لبيثينيا، إلى الإمبراطور تراخاموس في سنة ١١١ م. ويقول في هذا التقرير: «إن هذا المذهب انتشر في كل مدينة وفي كل قرية، فقد هجرت هياكل آلهتا مع مذابحها، ولهذا فقد ألقيت الشماسات في السجون لتعذيبهن، وكان رد الفعل هو صلواتهن الحارة. وعادة يجتمع المسيحيون قبيل الفجر في يوم محدد لإكرام المسيح إلههم بالترانيم»[2].

توجد أيضًا شهادة أخرى، هي شهادة طاليس السامري الذي يتكلم عن كسوف الشمس الذي حدث في أيام طيباريوس، ويعلق يوليانوس الأفريقي على هذا الحدث بالقول بأن طاليس أخطأ عندما قال إنه قد حدث كسوف طبيعي للشمس؛ لأنها كانت معجزة. على أننا كنا نتوقع - كما يقول الأستاذ جوجل GOGUEL أن يوليانوس الأفريقي يضيف موضحًا بأن هذه

(١) انظر كتاب بورنكام (G. Bornkamm) ص ٣٤، ٣٥.

(٢) انظر كتاب الأب بولس إلياس اليسوعي «يسوع المسيح شخصيته وتعاليمه» ص ١٢، ١٣.

الظاهرة التي حدثت في ذلك التاريخ بالذات والتي يعتبرها طاليس ظاهرة طبيعية هي معجزة لأن يسوع صُلب في هذا التاريخ، وهو الكسوف الذي تتكلم عنه الأناجيل (مت ٢٧: ٤٥، مر ١٥: ٣٣، لو ٢٣: ٤٤- ٤٥)[1].

إن الوثائق اليهودية والوثنية التي سبق أن أشرنا إليها تثبت بطريقة لا تترك للشك مجالاً، وجود يسوع التاريخي على أرضنا. ومع ذلك فلابد أن القارئ يندهش كثيرًا جدًا لضآلة وقلة هذه الوثائق التاريخية التي تتكلم عن يسوع وكيف أن رومية التي كان يمتد سلطانها على دول كبيرة وعديدة في الشرق وفي الغرب، لا تحتفظ بهذه الوثائق خصوصًا أن يسوع قد حكم عليه بالصلب على يد بيلاطس البنطي الحاكم الروماني؟

مما لا شك فيه أن المؤرخين الوثنيين لم يسجلوا لنا عن يسوع إلا القليل الذي رأيناه ويرجع ذلك إلى أن تاسيت وبنينوس الشاب وبلينوس العجوز، وسوتيون وآخرون، بل المجتمع الروماني بأسره في القرن الأول إلا القلة القليلة جدًا (الكنيسة الرومانية) - لم يعتبروا المسيحية إلا خرافة من خرافات الشرق، وبناء عليه لم يعيروها اهتمامًا كبيرًا، (المسيحية) تمثل خطرًا على الدولة أو تشيع اضطرابات سياسية فيها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد ظن كثيرون أن المسيحية شيعة أو طائفة يهودية جديدة وليست ديانة جديدة. ولذلك لم يهتم المؤرخون الوثنيون في بادئ الأمر بتاريخ ميلادها ونشأتها وتتطورها.

أما بخصوص غياب اسم يسوع من التقارير المرفوعة إلى روما بالرغم من محاكمته في محكمة رومانية على يد حاكم روماني، فصحيح أن اسم يسوع لا يوجد في التقارير الموجودة، وبالرغم من ذلك فإن يوستينوس الشهيد (JUSTIN MARTYR) يشير في إحدى عظاته إلى أن السجلات الرومانية تحتوي على قضية محاكمة يسوع، كذلك أشار ترتليانوس إلى هذا التقرير، وفي حقيقة الأمر فإن السجلات الرومانية لا تحتوي على قضية محاكمة يسوع. ويوستينوس الشهيد كان يظن أن قضية مثل هذه لابد وأن تكون مسجلة في السجلات الرومانية، وهو لم يقل بأنه اطلع على قضية محاكمة يسوع في السجلات الرومانية، بل كان يعتقد بأن قضية مثل هذه لابد وأن تكون قد سجلت في التقارير التي رفعت إلى الإمبراطور.

والسؤال الذي يجب طرحه الآن هو: لماذا إذن لا يوجد أي أثر في السجلات الرومانية لقضية محاكمة يسوع؟

إن كنا لا نجد حتى الآن أي أثر لاسم يسوع في التقارير الرسمية المرفوعة إلى روما فإن ذلك يرجع إلى عدة حقائق:

١- كان بيلاطس شخصًا قاسيًا وله عدة سوابق مع روما ومع الشعب اليهودي، ومن هذه السوابق أنه حكم بقتل كثيرين دون محاكمة رسمية، ولقد ذكر هذا أغريباس في أحد تقاريره ضد بيلاطس.

٢- إذا كان بيلاطس لم يرسل تقريرًا مفصلاً أو لم يرسل أي تقرير إلى روما بخصوص محاكمة يسوع، فذلك لأنه ربما كان يعتبر أن يسوع لا يتمتع بالجنسية الرومانية فلا داعي إذن لإرسال تقرير عن هذه الحالة.

٣- ربما اعتبر بيلاطس أيضًا أن محاكمة يسوع قضية محلية ولا تخص إلا النظام والبوليس المحلي فلا داعي إذًا لإبلاغ روما.

(١) انظر كتاب جوجل (La Vie de Jésus) ص ٧٠ - ٧٥.

هذا في حالة عدم وجود أي وثائق تاريخية مرفوعة من بيلاطس إلى روما بخصوص محاكمة يسوع، لأن علم الحفريات يقدم لنا في كل يوم مفاجآت علمية سارة، فربما يقدم لنا المستقبل حلاً سليمًا ومنطقيًا لهذه المشكلة.

د. حركة النقد التاريخي:

مما سبق يتضح لنا جيدًا أن وجود «يسوع التاريخي» حقيقة لا شك فيها، ولقد قامت في القرنين الماضيين حركات متنوعة ومختلفة موضوع بحثها هو :«يسوع التاريخي». فقد بدأ النقد التاريخي لحياة يسوع في القرن الثامن عشر، على أنه لم يبدأ بطريقة جدية وعلمية إلا في القرن التاسع عشر عندما قام ريتشارد سيمون (RICHARD SIMON) بتقديم بحث شامل ودقيق عن حياة يسوع. وكان هذا النقد وليد الحركة التي سميت بحركة التحرر والتي قام بها النقاد في إنجلترا وفرنسا، ثم مدرسة العقليين والتنوير في ألمانيا. ومن مشاهير الذين قاموا بحركة النقد التاريخي في ألمانيا أحد أساتذة اللغات الشرقية في مدينة همبورج وهو هرمان صموئيل ريماوس (HERMANN SAMUEL REIMARUS) (١٦٩٤ - ١٧٦٨) الذي ترك حوالي ٤٠٠٠ صفحة، تعتبر دفاعًا عن الديانة الطبيعية. ويعتقد ريماروس (REIMARUS) أن يسوع كان وظل يهوديًا ولم يفكر في أن يخلق ديانة جديدة. وكل ما أراد أن يفعله هو الحصول على الاستقلال الوطني، وأن يفهم الشعب أنه ابن الله بمعنى الملك المسيا. ويواصل ريماروس بحثه بالقول إن يسوع كاد يصل إلى تحقيق غرضه أو برنامجه في حادثتين أولاهما: عندما أرسل تلاميذه اثنين اثنين في إرسالية. ثانيتهما: عندما جاء هو نفسه مع تلاميذه إلى أورشليم ودخل إليها دخول الملك المنتصر. ولكن هذه المحاولة كما يقول ريماروس قادت يسوع إلى الموت، وأما التلاميذ الذين لم يريدوا العودة إلى العمل بعد موته اخترعوا من عندياتهم فكرة قيامته من الأموات وكذلك فكرة الفداء.

وجاء بور (BAUR) بعد ريماروس الذي وإن كان قد ناقش مشكلة يسوع وحياته، إلا أنه نبر كثيرًا على الناحية التفسيرية. وبعد ذلك جاءت المدرسة العقلية التي تعتبر يسوع إنسانًا ذا تعاليم سامية، فهو معلم عظيم، حكيم، مصلح... إلخ، والذي فيه يتحد العقل والدين، والممثل لهذه المدرسة هو جوتلب بولس (SCHLEIER MACHER) ويظهر بعد هذه المدرسة شلير مخر (K. H VENTURINI) الذي ركز جهوده على الإنجيل الرابع. فإن كان العقليون قد وجدوا في يسوع رسولاً لديانة معقولة وحديثة فإن شلير يرى في يسوع معلم العقيدة.

ثم جاءت طائفة أخرى من الكتاب يمكننا أن نسميها الرومانسية. وعلى رأس هذه الطائفة فنتيني (K. H VENTURINI) (١٧٦٨ - ١٨٤٨) ثم باهرد (K. F. BAHRD) (١٧٤١ - ١٧٩٢) ويظن كل منهما بأن يسوع كان عضوًا في شيعة الأسينيين (ESSENIENS) وقد تعلم وتدرب على يد معلمي هذه الشيعة. ونظريتهما عن قيامة يسوع تقول: إن يسوع أُنزل من على الصليب فاقد الوعي وعالجه أطباء أسينيون إلى أن استرد قوته وظهر لتلاميذه الذين اعتقدوا أنه مات.

وبعد هذه الطائفة من الكتاب والنقاد، ظهر في عام ١٨٣٥ كتاب كل له تأثير كبير جدًا في الأوساط العلمية واللاهوتية. وهو كتاب ستراوس (DANIEL FRIEDRICK STRAUSS) وكان محور بحث استراوس في هذا الكتاب هو أن الديانة

لا ترتكز على حقائق أو أحداث بل على أفكار، والأفكار تحتاج إلى ظواهر لكي تلعب دورها. فلا يهم ما إذا كانت القصص الإنجيلية تاريخية أو غير تاريخية، ولكن المهم الفكرة. وهنا يدخل استراوس فكرة الأسطورة (MYTHE) لشرح حقيقة سامية ولقد أثارت أفكاره في ذلك الوقت نقاشًا حادًا حول النقاط الثلاث الآتية:

١- الأسطورة.

٢- العلاقة بين يسوع التاريخي وبين المسيح.

٣- موضوع تأليف الأناجيل.

ثم في سنة ١٨٤٩ ظهر كتاب رينان (RENAN) الذي كتبه في سوريا. والذي يقدم لنا فيه صورة ليسوع كشاب حلو حالم، يتجول في قرى الجليل وهو باسم للحياة، ولقد صنع منه أتباعه صانع معجزات ومسيا، الأمر الذي قاده في نهاية الأمر إلى الموت[١].

مشكلة حياة يسوع في القرن العشرين

إن السؤال المختص بحياة يسوع التاريخية كان موضوع نقاش، وفي أحيانٍ كثيرة، كان موضوع نقاش شائك، إلا أنه لم يكن من المواضيع التي لها أولويتها في النقاش والبحث. ولم يأخذ هذه الأولية إلا في القرن التاسع عشر عندما ظهرت كتابات فلهاوزن (WELL HAUSEN) ثم ويز (WREDE JOHANNES WEISS) وآخرين. ولقد حاول هؤلاء بكتابتهم أن يبينوا أن إنجيل مرقس هو أقدم الأناجيل الأربعة الموجودة لدينا، وأن هذا الإنجيل عبارة عن أجزاء متفرقة، يتكلم عن حقبات مختلفة من الزمن. ولقد جمعت هذه الأجزاء تحت تأثير بعض الأفكار اللاهوتية. وهذا يعني أن قصة مرقس المختصة بحياة يسوع قد مرت ببعض التصحيحات والتكملة. وبناء على ذلك فإن متى ولوقا بل ويوحنا قد استقوا من هذه المعلومات الصحيحة.

ولقد كان لهذه الكتابات تأثيرها العميق، فهزت معظم الأوساط العلمية واللاهوتية.

ثم جاء بعد ذلك ألبرت شفايتزر الذي أشاد بالجهود التي بذلها كتاب القرن التاسع عشر لإيجاد حل لمشكلة يسوع التاريخي دون جدوى. وعلق على هذه المجهودات بالقول: «إن كل جهد للوصول إلى تأليف أو «بناء» حياة ليسوع من الناحية التاريخية لا يقودنا إلا إلى سلسلة من المتناقضات التي لا يمكن حلها». وبعد اثنتي عشرة سنة من ظهور كتاب شفايتزر «يسوع» ظهرت مدرسة أخرى ألمانية يمكننا أن نلخص تعاليمها عن يسوع في النقاط التالية:

(١) إن قصص الأناجيل عبارة عن عناصر متناثرة لا تتبع تسلسلاً عضويًا تكوينيًا وأنها سطحية.

(١) راجع كتاب «La Vie de Jésus Goguel» من ص ١ - ٣٩.

(٢) عدم اعتبار الأناجيل مستندات تاريخية بحتة؛ لأنها لم تؤلَّف وتحفظ لكي تعطي فكرة عن يسوع، الذي عاش وعلم في الجليل واليهودية والذي مات في أورشليم، بل هي مستندات دينية لشرح من هو يسوع بالنسبة للإيمان أي أن الأناجيل لم تُكتَب كوثائق تاريخية بل كرسائل دينية وتَقوية لتثبيت إيمان المؤمنين.

(٣) إن مواد الأناجيل تبدو كأنها كتبت لتملأ الوظائف المتنوعة المختلفة في حياة الكنيسة الأولى وحاجاتها. ولذلك فإنه من الصعب التمييز بين العناصر التاريخية وبين العناصر غير التاريخية الخاصة بحياة يسوع في الأناجيل. ولقد كتب بولتمان: «إنه ليس في استطاعتنا أن نعرف سمات يسوع وحياته الشخصية... إذ لا يمكن أن نثبت صحة أي كلمة من كلامه. وكل ما يمكن لنا أن نقوله عن حياة يسوع وعن شخصيته هو ألا نقول شيئًا... يرجع ذلك إلى عدم التأكد من الوثائق التي لدينا وخصوصًا أنها قليلة، فمن الصعب التأكد مما إذا كانت هذه الأقوال هي فعلاً أقوال المسيح أم هي إضافات من الكنيسة الأولى»(١).

ويتساءل جوجل مستغربًا عن النتيجة التي وصل إليها البحث العلمي التاريخي بالرغم من الجهود التي بذلت منذ أيام ريماروس إلى المدرسة الألمانية في القرن العشرين، ويعلق بالقول: «إن كانت جهود الباحثين قد أدت إلى هذه النتيجة السلبية فربما يرجع ذلك الفشل وعدم التأكد إلى أن الإنسان يريد أن يحصل على تأكيد ١٠٠٪ الأمر الذي ليس في استطاعة التاريخ أن يقدمه للإنسان»(٢).

وحول هذا الموضوع دار حوار حاد وجاد عام ١٩٢٣ بين هرنك وبين كارل بارت، وكانت وجهة نظر هرنك أستاذ تاريخ العقائد المشهور في ألمانيا هي أن البحث العلمي والتاريخ والنقد التاريخي هي الأدوات التي بها وعن طريقها يجب الوصول إلى تكوين عقيدة منطقية وصحيحة عن المسيح، يمكن أن يقبلها الإنسان العصري، والتي بها يجب شرح الكتاب المقدس الغامض، والتمييز بين يسوع الأحلام ويسوع الحقيقة. أما كارل بارت فقد رفض رفضًا باتًا فكرة هرنك، لأنه كان يؤمن بأن العلم الأكيد والصحيح لا يأتي إلا عن طريق الإيمان الذي يعطيه الله نفسه، لأننا لا نعرف المسيح حسب الجسد كما يقول الرسول: «إذ نحن من الآن لا نعرف أحدًا حسب الجسد. وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد» (٢كو ٥: ١٦). وهنا نلاحظ أن كارل بارت يضع على رأس القائمة الوحي الإلهي وليس البحث العلمي والنقدي للتاريخ للوصول إلى معرفة المسيح(٣)، لأنه إن لم يعلن المسيح نفسه بالروح القدس للجاهل والباحث فسيظل كلاهما في ظلام دامس لأنه هو النور الذي بنوره نرى نورًا.

ولا نريد أن نستطرد في الحديث واقتباس أقوال الكتاب واللاهوتين وتفنيد آرائهم بخصوص هذا الموضوع وإلا لأفردنا له

(١) راجع ص ٣٨ من كتاب جوجل La Vie de Jésus

Rodolf Bultmann. Jésus 33 - 36, 39.

(٢) انظر كتاب جوجل ص ٣٩ Goguel. La Vie de Jésus

(3) Jean Robinson, pp. 44- 46.

مجلدًا خاصًا. إلا أنه من واجبنا لفت نظر القارئ إلى حقيقة هامة هي: لقد ظهرت، نتيجة الحوار والنقاش والمجادلات التي تحولت إلى صراع عنيف ومرير ليس فقط في القرون الثلاثة الأخيرة بل منذ أن وُلدت الكنيسة، عدة اتجاهات ونزعات لاهوتية مختلفة يمكننا أن نسميها، الاتجاهات اللاهوتية المحافظة والاتجاهات اللاهوتية المتحررة. وتحت هذين الاسمين: «المحافظة والمتحررة» نجد اتجاهات لاهوتية أخرى كثيرة. ولكي لا ندخل في التفاصيل، نكتفي إذًا بهذين الاسمين (الاتجاهات المحافظة) و(الاتجاهات المتحررة) وموقفها من يسوع.

والاتجاهات اللاهوتية المتحررة كما تدَّعي لنفسها هذا الاسم، ترى في يسوع إنسانًا حكيمًا ومعلمًا عظيمًا ومصلحًا اجتماعيًا لا يُقارَن. ولقد رفعته هذه الحركة إلى درجة لم يرتفع إليها أي إنسان في الوجود من قبله، على أنها لم ترتفع به إلى درجة أعلى من إنسان، فهو إنسان ومازال إنسانًا بالرغم من سموه فوق كل إنسان. فهي لا ترى فيه إلا يسوع المثال الحي للحب والحنان والتضحية، يسوع الذي كان يطوف كل الجليل يعلم ويكرز ببشارة الملكوت. لقد تزعم هذه الحركة البعض من الذين ذكرنا أسماءهم في مجال الحديث عن يسوع وحركة النقد التاريخي.

أما الاتجاهات اللاهوتية المحافظة فقد رأت في يسوع الناصري ما رأته الاتجاهات اللاهوتية المتحررة من أن يسوع الناصري إنسان حكيم ومعلم عظيم ومصلح اجتماعي لا يقارن، ولكن كل هذه الأوصاف ليست هي كل أوصاف يسوع، فإن يسوع الناصري ابن مريم، فهو أيضًا وقبل كل شيء ابن الله. ومن اللاهوتيين الذين تمسكوا بشدة بهذا الأمر، كارل بارت، فقد ظل يدافع طوال حياته ضد «حركة التحرر». وستكون لنا الفرصة فيما بعد للرجوع إلى كتاباته العديدة، فهو من الكثيرين الذين يعلنون أن يسوع الناصري قبل أن يكون يسوع الناصري هو المسيح، ابن الله، بل هو الله نفسه. فإن يسوع الناصري لم يرتفع إلى درجة سامية وعالية و عظيمة لم يصل إليها إنسان، لم يرتفع إلى درجة الألوهية أو منح صفة إلهية لم تكن من حقه ومن صفاته الطبيعية من قبل، بل قبل أن يكون إنسانًا محبًا، حنونًا، وديعًا مضحيًا، عظيمًا... إلخ هو الله، وكل الأعمال التي قام بها يسوع والمعجزات التي عملها. قام بها وعملها بصفته الله، «اللوغس» الساكن في يسوع الناصري.

والله هو الذي يعلن نفسه على مر العصور بطرق مختلفة متنوعة. فعندما يتقابل «يسوع الإيمان» مع الإنسان فإن هذا الأخير (الإنسان) لا يستطيع ببحثه وتنقيبه الوصول إلى يسوع التاريخ. وهذا يذكرنا بقول القديس أنسلم: «أؤمن لكي أفهم ولست أفهم لكي أؤمن». وأنا لا أريد أن أقول إنه لا داعي للبحث العلمي والنقد التاريخي، ولكن ما أريد قوله هو إن المقابلة الشخصية مع الرب يسوع كالمخلص وكالمسيح بالإيمان، هي الخطوة الأولى التي يجب على كل باحث ودارس القيام بها، هي قبول المسيح الذي شهدت له الكتب المقدسة الصادقة، قبل البحث عن الأدلة التاريخية سلبية كانت أم إيجابية عن وجوده، فبدون المقابلة مع يسوع الإيمان ستكون أبحاثنا ودراستنا عبارة عن نقر آبار مشققة لا تضبط ماء كما يقول النبي: «تركوني أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آبارًا آبارًا مشققة لا تضبط ماء» (إر ٢: ١٣).

فمسيح الإيمان كان ولايزال وسيظل حجر عثرة أمام الأجيال والشعوب على مر العصور في كل مكان وستظل نبوة سمعان صادقة ومطبقة في كل زمان ومكان، النبوة القائلة: «إن هذا (يسوع) قد وُضِع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة

تُقاوَم» (لو ٢: ٣٤). «..من له أذنان للسمع فليسمع... فانظروا كيف تسمعون» (لو ٨: ٨، ١٨) افتح أذهاننا يارب لكي نؤمن ونفهم.

رأينا في الصفحات السابقة أن يسوع الناصري حقيقة واقعية لا شك فيها، فإن مرور يسوع على أرضنا لم تشهد به الكتب المقدسة فحسب، حيث الشواهد في العهد الجديد التي تشير إلى يسوع عديدة جدًّا، بل إن التاريخ العالمي اليهودي والوثني قدم لنا أدلة ووثائق تاريخية، وإن كانت قليلة ومحدودة جدًّا، إلا أن معظمها مؤكد وصحيح لا شك فيه، فإن كان يسوع الناصري الذي تشهد له الكتب المقدسة حقيقة تاريخية واقعية، فأين ومتى وُلد؟

أين وُلد يسوع؟

إن الأناجيل تعلمنا بأن يسوع الناصري وُلد في بيت لحم اليهودية، «ولما وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق جاءوا إلى أورشليم»، (مت ٢: ١، ١: ١٨- ٢٤)، «فصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية، إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته... وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد...» (لو ٢: ٤، ٦).

متى وُلد يسوع؟

لقد اعتقد ويعتقد الكثيرون بأن التقويم الحالي يحدد لنا سنة ميلاد يسوع. فعندما نقول على سبيل المثال سنة ١٩٧٩ يظن البعض أن هذا التاريخ يحدد لنا تاريخ الميلاد: ففي عرفهم أن يسوع ولد في بيت لحم منذ ١٩٧٩. وحقيقة الأمر تختلف عن ذلك، إذ أن التقويم الحالي الذي نستعمله الآن لا يدل على ميلاد يسوع أو التاريخ الحقيقي لميلاده. ويرجع عدم الصواب في ذلك أو بعبارة أصح عدم التأكد من حقيقة هذا التاريخ إلى الطريقة التي استعملها الراهب دينسيوس الصغير الأرمني (DENIS LE PETIT). بدأ الراهب دينسيوس الصغير في وضع تقويمه في بداية القرن السادس متخذًا التقويم الروماني قاعدة لحسابه. ومن المعروف أن التقويم الروماني يبدأ بسنة ٧٤٥ ق.م.[١] وعليه فقد ظن بأن عملية التجسد حدثت في سنة واحد، وبذلك تصبح سنة واحد هي سنة التجسد، والسنة الفاصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الجديد.

ونعرف من التاريخ أن الكنيسة لم تبدأ في الاحتفال بعيد الميلاد قبل القرن الثالث، وكان يحتفل به في السادس من يناير (٦ يناير). على أن الأب هولز مشتين (HOLZ MEISTEN) حاول جمع بعض الوثائق التاريخية الخاصة بميلاد يسوع والتي منها يستنتج بأن الميلاد حدث في الفترة ما بين سنتي ٥ ق.م- ٢ م.[٢]

على أن البعض الآخر من المؤرخين يظن أن سنة الميلاد تقع بين سنتي ٧ ق.م و٣ م.

---

(١) السنة التي تأسست فيها روما.

(٢) راجع كتاب. Goguel. Jésus. Histoire de vies de Jeans ص ١٥٠ - ١٦٣.

ولكن عندما ندرس الأناجيل والتاريخ بطريقة واعية يمكننا الوصول إلى تحديد تاريخ تقريبي لميلاد يسوع. فإن إنجيلي متى ولوقا يسجلان أن حادثة التجسد والميلاد تمتا في آخر أيام هيرودس الملك (مت ٢: ١، لو ١: ٥، ٢٦). ونحن نعلم أن هيرودس الملك (هيرودس الكبير) مات حوالي سنة ٧٥٠ رومانية، أي بين سنتي ٦، ٤ ق.م. ويحتمل أنه مات بعد ميلاد المسيح بعدة شهور وقبل الفصح أي في حوالي شهري مارس أو أبريل وهذا واضح من كلام الملاك ليوسف في مصر.

«فلما مات هيرودس الملك إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً: «قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل، لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي» (مت ٢: ١٩ - ٢٠) وبما أن تاريخ موت هيرودس معروف لنا، وهو حوالي سنة ٤ ق. م. حسب التقويم الروماني فالذي نجهله هو تاريخ التجسد أو الميلاد، وهو لا يمكن أن يتعدى السنتين قبل موت هيرودس، وهذا واضح من قصة المجوس: «حينئذٍ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدًا. فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس» (مت ٢: ١٦).

على أن لوقا من جانبه يعطي لنا بعض التفصيلات التي تساعدنا كثيرًا على تحديد تاريخ الميلاد. ففي الأصحاح الثاني يقول: «وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يُكتتب كل المسكونة...» (لو ٢: ١ - ٦). لقد ظل المؤرخون مدة طويلة يرفضون هذه الآية وحجتهم في ذلك أن التاريخ الروماني لم يسجل هذا الاكتتاب أو الإحصاء الذي يتكلم عنه الإنجيل، وظنوا أن لوقا أخطأ خطأً تاريخيًا شنيعًا. ولكن علم الحفريات قدم لنا مؤخرًا جوابًا يؤيد قول لوقا، فإن الحفريات التي أجريت في بعض القرى والمدن والصحاري المصرية كشفت لنا عن بعض أوراق البردي التي تحتوي على وثائق تاريخية يذكر فيها أمر الإحصاء في بلاد مصر وبلاد الغال وسوريا وبناءً على ذلك يمكننا أن نقول بأن أمر الإحصاء نُفِّذ أيضًا في فلسطين. وكانت عملية الإحصاء كما تصفها لنا الأوراق البردية تجري كل أربعة عشر عامًا. ولقد بدأت عمليات الإحصاء هذه من سنة ٢٠ ق.م. إلى سنة ٢٧٠ م.[1] فإذا كان الإحصاء الأول تم في سنة ٢٠ فالإحصاء الثاني[2] تم إذًا في سنة ٦ ق.م. ويحتمل أن يكون في آخر السنة، وعلى ذلك يكون ميلاد المسيح بين سنتي ٦ و٤ ق.م. (قبل الميلاد). وهناك شاهد آخر في إنجيل لوقا يساعدنا على تحديد ميلاد المسيح، «وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر، إذ كان بيلاطس البنطي واليًا على اليهودية وهيرودس رئيس ربع... كانت كلمة الله على يوحنا ابن زكريا في البرية» (لو ٣: ١-٢)، ومن التاريخ الروماني نعلم أن طيباريوس قيصر كان ثاني أباطرة الرومان، وكان الإمبراطور الأول يدعى أغسطس ومات في يوم ١٩ أغسطس سنة ٧٦٧ أي سنة ١٤ م. ومع أن طيباريوس كان يحكم مع الإمبراطور أغسطس منذ سنة ١١ أو ١٢ م. إلا أنه لم يصبح إمبراطورًا إلا سنة ١٤ م. وبناءً على ذلك يمكننا أن نستنتج الآتي:

امتد حكم أغسطس قيصر إلى سنة ١١ أو ١٤ م. وهي بداية حكم طيباريوس الذي في السنة الخامسة عشرة من عهده ظهر يوحنا المعمدان، فإذا جمعنا ١١ سنة تقريبًا بعد الميلاد قبل بداية حكم طيباريوس + ١٥ سنة لغاية ظهور يوحنا

(١) راجع تفسير Lagrange لإنجيل لوقا ص ٦٥ - ٦٦ باللغة الفرنسية.

(٢) نقصد بالإحصاء الثاني: أي الإحصاء الذي تم في أيام حكم أغسطس قيصر ولكنه الإحصاء الأول بالنسبة لحكم كيرينيوس والي سوريا.

فالمجموع = ٢٦ سنة بعد الميلاد. ونحن نعلم أن يوحنا ويسوع وُلدا في نفس السنة، وأن يسوع بدأ خدمته العلنية في سن الثلاثين، «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة...» (لو ٣: ٢٣) فميلاد المسيح تم إذًا في حوالي السنة الرابعة أو الخامسة قبل الميلاد (هذا من الناحية التاريخية). ولكن السؤال الذي يعترضنا الآن هو. كيف وُلد يسوع؟

وهي مشكلة التجسد أو الميلاد العذراوي، وهي مشكلة حيوية أثارت نقاشًا حادًا وجدلاً طويلاً على مر العصور، ولذلك يحسن بنا أن نفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصًا به.

الفصل الثاني

الميلاد العذراوي

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع الخاص بميلاد يسوع يحسن بنا أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى عدة نقاط هامة:

١. إن المسيحي المؤمن الحقيقي عميق الإيمان لا يستمد إيمانه أو يثبته على ما يقوله العلماء أو المؤرخون عن يسوع، مع أن ما يقوله العلماء والمؤرخون هام وفي بعض الأحيان في غاية الأهمية، ولكنه يستمد إيمانه من شخص المسيح الصخرة الحقيقية، ولذلك فمرجع المسيحي الحقيقي ليس ما يقوله المؤرخون والعلماء عن يسوع، بل ما يقوله يسوع نفسه عن نفسه، وما تقوله الكتب المقدسة التي تشهد له.

٢. فالمؤمن الحقيقي يشكر الله من أجل النتائج الإيجابية والمؤيدة لبعض الحقائق، التي يتوصل إليها العلم والعلماء، ولكنه لا يخاف ولا يهتز إيمانه عندما تظهر بعض الآراء السلبية المضادة لبعض الحقائق الكتابية والمسيحية، وذلك لأنه يعلم أن الكتاب المقدس، كتاب الله، ليس كتابًا علميًا أو موسوعة علمية كتبها مجموعة من المتخصصين في مواد مختلفة، وكل همهم تجنب الأخطاء العلمية في مواد تخصصهم، في التاريخ، أو الجغرافيا، أو الطب أو الهندسة أو الميكانيكا أو التكنولوچيا... إلخ. بل هو كتاب الله والوحي المقدس، أو بالمعنى الأصح هو رسالة الله المحب للإنسان الخاطئ. فالكتاب إذًا هو خطاب أو رسالة قبل أن يكون كتابًا علميًا، وهدفه ليس شرح القواعد العلمية بطريقة صحيحة، بل توصيل الرسالة للإنسان. فالكتاب المقدس موحى به من الله (وهو ما يختلف عن التنزيل).

٣. من واجب المسيحي الذي يريد الدرس والتعمق، ليس فقط أن يعرف ويدرس آراء الذين يؤيدون أفكاره ومعتقداته الشخصية، بل أن يتعرف أيضًا على آراء المعارضين وما هي وجهة نظرهم. ولذلك فمن واجبنا أن ندرس آراء ومعتقدات الذين لا يقبلون عقيدة الحبل العذراوي.

٤. إن العصر الذي نعيش فيه الآن يتميز بسرعة الاتصال والمواصلات؛ فالسيارة والقطار والطائرة والتليفون والتلغراف والراديو والصاروخ والعقل الإلكتروني، كل هذه الوسائل ووسائل أخرى كثيرة سهلت على الإنسان مهمة الدرس والبحث والاطلاع، ليس فقط على ما يحدث وما يصل إليه العلماء محليًا بل عالميًا أيضًا. فمن المؤسف إذن عدم الاطلاع ودرس الآراء التي يطلع عليها في الخارج، العلماني البسيط وليس فقط دارسو اللاهوت. فعلى دارس ومعلم اللاهوت المحافظ أن يدرس

هذه الآراء، محافظة كانت أو متطرفة، وأن يحذر الشباب وغير الشباب من الأخطاء التي يدسها اللاهوتيون المتطرفون. وخصوصًا أنه ليس من السهل بل من المستحيل وغير المرغوب أن نضع أسوارًا على كنائسنا أو على كليات اللاهوت حتى لا يدخل فيها المتطرفون بآرائهم، لأنه حتى لو لم يستطع هؤلاء المتطرفون الدخول إلى كلياتنا فإننا ندخل كلياتهم ومجتمعاتهم ولنا اتصالات عديدة ومتنوعة معهم.

ولهذا فقد فكرنا أنه من الواجب بل من المفيد أن نتعرض ولو جزئيًا في دراستنا لهذا الموضوع الخاص بالتجسد، لبعض الأفكار والآراء التي ترفض هذه العقيدة، وعلى أي أساس يضرب هؤلاء عرض الحائط بالعقائد المتعلقة بالتجسد والميلاد العذراوي أو بعبارة أصح ما هي العقبات أو الصعوبات التي وقفت في وجه هذه الجماعة حتى ترفض هذه العقيدة؟ ثم ما هو الأساس الذي عليه يرتكز الذين لا يقبلون هذه العقيدة، عقيدة التجسد والحبل بدون أي اتصال أو علاقة جنسية بين مريم ويوسف أو أي شخص آخر؟

وعندما ندخل في دراسة هذا الموضوع (أي موضوع الميلاد العذراوي) يجب أن نعترف بعجزنا الكامل سواء في العلم أو التعبير، لأنه ليس من السهل، بل يكاد يكون مستحيلاً، إن لم يكن روح الله عاملاً، أن يتكلم الإنسان عن الله، لأن التكلم عن المسيح هو التكلم عن عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا. فلنخلع نعالنا إذن لأن الأرض التي سنسير عليها هي أرض مقدسة ولا يمكن أن نسير عليها إلا بروح الصلاة والإيمان والخشوع والتواضع، وعندئذٍ يعلن لنا الرب نفسه: «أهيه الذي أهيه».

الأسباب التي من أجلها رفض البعض الميلاد المعجزي أو الميلاد العذراوي

إن الذين يرفضون عقيدة الميلاد العذراوي أو الحبل بدون أي علاقة جنسية، ينتمون إلى جماعة المتحررين والبروتستانتية الحديثة (المودرن) وطوائف أخرى... والأسباب التي من أجلها يرفض هؤلاء عقيدة الميلاد العذراوي بدون أي علاقة جنسية هي:

أ. صعوبات علمية:

إن هذه الجماعة ترفض رفضًا باتًا كل ما هو خارق للطبيعة وكل ما لا يمكن تفسيره أو تحليله أو التأكد منه بطريقة علمية، وبما أن الميلاد العذراوي ظاهرة لا يمكن تحليلها أو التأكد منها بطريقة علمية فلا يمكن قبولها. إن غياب العامل الذكري هو استحالة بيولوچية لا يمكن بأي حال من الأحوال حلها، إلا عن طريق الإنجاب الصناعي، الأمر الذي لم يكن معروفًا في ذلك الوقت. وحتى في الإنجاب الصناعي فالعامل الذكري موجود، وعن طريقه يتم الإنجاب. وبرونر (BRUNNER) [1] يظن بأن الميلاد العذراوي ينفي عمل فالعامل الذكري، وبناء عليه فهو يقلل من ناسوت المسيح، فوجود الرجل في هذه العملية أمر هام جدًا. لهذا السبب البيولوچي والطبيعي رفض هؤلاء الميلاد العذراوي.

(1) Emile Brunner. Tonic 2. p. 392- 399.

ب. صعوبات كتابية:

إن الذين يرفضون الميلاد العذراوي لا يرفضونه لأنه ضد القواعد البيولوچية والطبيعية فحسب، ولكنهم يعتقدون أن الكتاب لم يشدد عليه كثيراً. ولقد قالوا إن مرقس ويوحنا لا يذكران شيئًا عن قصة الميلاد العذراوي. فمع أن يوحنا يتكلم عن الكلمة الذي كان من البدء والذي كان عند الله، إلا أنه لم يشرح لنا بوضوح أن هذا الكلمة جاء إلينا متجسدًا في بطن مريم بدون تدخل أي عامل ذكري، ويقول أضداد فكرة الحبل العذراوي المعجزي: «إنه ممكن أن تتم هذه العملية بطريقة طبيعية، باتحاد رجل وامرأة ويكون المولود هو ابن الله (اللوغوس)» هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن بولس الرسول في كل رسائله لا يتكلم عن هذا الموضوع بتاتًا إلا في عدد واحد، قد يكون في صالح أضداد هذه العقيدة أكثر مما هو ضدهم وهو: «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس» (غل ٤: ٤).

كذلك سفر أعمال الرسل وباقي الرسائل لا تتكلم عن قصة الميلاد العذراوي. فإذا استثنينا قصتي (مت ١: ١٨- ٢٥، لو ١: ٢٦- ٤٥). فالكتاب المقدس لا يتكلم عن ميلاد عذراوي في كل الأسفار الباقية.

ج. مشكلة شجرة النسب:

عندما ندرس العهد الجديد بتدقيق نلاحظ أن كتابه أكدوا بشدة أن يسوع هو ابن داود. فالمسيا الموعود به والذي يجب أن ينقذ الشعب من خطاياه وعبوديته يجب أن يكون من نسل داود. وهذا الأمر، أي نسب المسيح لداود مهم جدًا ليس فقط بالنسبة للعهد القديم، بل بالنسبة للعهد الجديد أيضًا. ففي المسيح ابن داود تتحقق للكنيسة المسيحية الوعود الروحية التي كان ينتظرها شعبه في القديم، كما يقول: «فبهت كل الجموع وقالوا ألعل هذا هو ابن داود؟» (مت ٢١: ٩، مر ١٠: ٤٧، ١٢: ٣٥، يو ٧: ٤٢، رو ١: ٣، ٢ تي ٢: ٨). فمن هذه الشواهد وشواهد أخرى كثيرة جدًا يتضح أن نسب المسيح لداود في غاية الأهمية، والاعتراض الذي يقدمه الذين يرفضون الميلاد العذراوي هو الآتي:

سلسلتا النسب في (متى ١: ٢- ١٦، لو ٣٣: ٢٣- ٣٨) تذكران شجرة نسب يوسف وليس شجرة نسب مريم. فحتى يصل متى إلى هدفه أي لكي يبين بأن المسيح هو من نسل داود، يعطي لنا سلسلة طويلة من الأسماء التي تنتهي بالقول: «ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح» (مت ١: ١٦). وأما لوقا فلكي يصل إلى نفس الهدف أي بأن يسوع هو ابن يوسف وابن داود فيقول: ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يظن ابن يوسف ابن هالي... بن داود... ابن آدم ابن الله» (لو ٣: ٢٣- ٣٨).

وبناء على ذلك فإن لم يكن يوسف هو الأب الشرعي ليسوع فلا يمكن أن يكون يسوع هو ابن داود. فإن الهدف الذي من أجله سجلت هاتان السلسلتان هو إثبات بنوية يسوع لداود، إن يسوع ابن يوسف ابن هالي: هو ابن داود. فإذا كان المسيح قد وُلد بطريقة معجزية دون أي اتصال جنسي بين مريم ويوسف فإن يسوع يفقد نسبته لداود، الأمر الذي يتمسك به عدد كبير من كتاب العهد الجديد. ولكي يدعم هؤلاء نظريتهم هذه: أن يسوع هو ابن يوسف، اقتبسوا بعض النصوص الكتابية

مثل: «هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين» (مت ٣: ٥٥، لو ٢: ٤٨). «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه ويقولون أليس هذا ابن يوسف» (لو ٤: ٢٢). «وقالوا أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه» (يو ٦: ٤٢). من هذه الآيات ومن سلسلتي النسب اللتين تشيران إلى آباء وأجداد يوسف وليس آباء وأجداد مريم، استنتج البعض ممن يرفضون الميلاد العذراوي، أن يسوع هو ابن يوسف وولد ولادة طبيعية.

د. صعوبة لغوية:

لقد ظن الذين يرفضون عقيدة الميلاد العذراوي أن هذه الفكرة بُنيت على مفهوم خاطئ وترجمة غير صحيحة للنص الكتابي القائل: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٤) ويقول الأحرار، بحق، بأن كلمة عذراء هنا في هذا النص (إش ٧: ١٤) ترجمة غير صحيحة مأخوذة من الترجمة السبعينية اليونانية التي ترجمت كلمة «عُلمه» العبرية الأصل والتي تعني سيدة شابة إلى كلمة «بارثينوس» (PARTHINOS) اليونانية والتي تعني عذراء فإن الاصطلاح العبري الصحيح لكلمة عذراء أي فتاة لم تعرف رجلاً، هو «بتولاه»، (مثل الاصطلاح العربي «بتول») وفي هذا الصدد يقول (THE INTERPRETER'S BIBLE) إن كلمة «بارثينوس» المستعملة في إشعياء (٧: ١٤) تعني عادة عذراء. والكلمة العبرية «عُلمه» تعني شابة. وقد استعمل مترجمو السبعينية في بعض الأحيان كلمة «بارثينوس» لكي يصفوا بها فتاة فقدت عذراويتها (تك ٣٤: ٢) والتعبير سيدة شابة هو أصح ترجمة لكلمة «عُلمه» العبرية... فمتى اقتبس النص في ١: ٢٣ من الترجمة اليونانية السبعينية وليس من الأصل العبري...[1].

بناءً على ذلك ظنت جماعة المودرن أن المحافظين قد أخطأوا عندما تمسكوا بنص إشعياء ٧: ١٤ وبنوا عليه (المحافظون) عقيدتهم في مشكلة الميلاد العذراوي إذ أن هذا النص ترجم بطريقة غير صحيحة في الترجمة السبعينية.

الرد على الاعتراضات الخاصة بالميلاد المعجزي:

رفض العصريون عقيدة الميلاد العذراوي للأسباب التي ذكرناها سابقًا وسنحاول أن نتناول هذه الصعوبات واحدة بعد الأخرى.

مما لا شك فيه أن عملية التناسل تتطلب ذكرًا وأنثى صالحَين للإنجاب، فمن الناحية البيولوچية والعلمية لا يمكن أن تتم عملية الإنجاب إن لم تتوفر هذه الأسباب. هذا من الناحية العلمية ولكن ماذا حدث بالنسبة ليسوع؟ سنجيب على هذه النقطة بعد الرد على الصعوبات الكتابية التي يتمسك بها الأحرار. فالاعتراض الثاني الذي يقدمه العصريون لكي ينفوا به الميلاد العذراوي هو أن الكتاب المقدس لم يشدد على الميلاد المعجزي.

إننا لا ننكر أن الفصول الخاصة بالميلاد العذراوي في الكتاب المقدس قليلة، وقليلة جدًا، وإننا لا ننكر أيضًا أن إنجيلي مرقس ويوحنا لم يذكرا موضوع الميلاد العذراوي، كما لا أثر له في سفر أعمال الرسل، وكذلك كل رسائل بولس، والرسائل الأخرى بجملتها لا تشير إليه لا من بعيد أو من قريب. لهذه الأسباب توجد مجموعة من اللاهوتيين العصريين والمتحررين

(1) Interpreter's Bible. The Gospel According to St. Matthew Page 255.

ترفض عقيدة الميلاد العذراوي، وعلى رأسهم هرنك وبولتمان وبرونمان وساباتيه وآخرون كثيرون. ولكن توجد أيضًا مجموعة أخرى تتمسك بهذه العقيدة وتدافع عنها بكل قوة ومعرفة ودراسة، وعلى رأس هذه المجموعة اللاهوتي السويسري كارل بارت (KARL BART) وآخرون.

وللرد على هذا الاعتراض بأن العهد الجديد لم يتكلم عن الميلاد المعجزي إلا في متى ولوقا، وبالتالي فإن هذا يقلل من قيمته وأهميته، نقول: إننا نتفق تمامًا مع العصريين بأن معجزة الميلاد العذراوي لا توجد إلا في متى ولوقا، ولكن هذا لا يقلل بأي حال من الأحوال من قيمة هذه الحقيقة الواقعية ولا من صلاحيتها، فإن هذه الحادثة - الميلاد العذراوي - سجلها الإنجيلان بطريقة واضحة وصريحة، ووضوح وصراحة هذين النصين تكفيان عن عدم تكرارهما في الفصول الكتابية الأخرى. وكما يقول كارل بارت[1]: «باستثناء حادثتي الآلام والقيامة، فإننا نتساءل فيما إذا كان من الضروري أن كل حادثة، مهما كانت أهميتها في حياة يسوع المسيح، تصبح عنصرًا هامًّا يجب أن يكرره الرسل والوعاظ في الكنيسة الأولى بطريقة واضحة ومنظمة في كل عظاتهم وكتاباتهم»[1]. وكارل بارت يعتقد أن هدف الأناجيل الثلاثة الأولى هو الرد على السؤال الآتي:

١. من هو يسوع الناصري؟

ولذلك فقد حاولت الأناجيل الثلاثة الأولى الرد على هذا السؤال وخاصةً متى ولوقا، بالتحدث عن الميلاد العذراوي. وهذا الأمر لم يشغل باقي كتَّاب العهد الجديد الذين كتبوا عن أشياء كثيرة أخرى لم يكتب عنها متى ولا لوقا. فإن كانت الكتب الأخرى في العهد الجديد لم تتكلم عن هذا الميلاد العذراوي بوضوح أو لم تتكلم عنه بتاتًا، فإن هذا الصمت لا ينفي بأي حال من الأحوال الشهادتين الواضحتين والصريحتين عن الميلاد العذراوي في متى ولوقا، فإن كان العهد الجديد يقدم لنا شهادتين واضحتين وصريحتين تؤيدان الميلاد العذراوي فإنه على عكس ذلك لا يقدم نصًا واحدًا ينفي هذه المعجزة، ولذلك فإن الميلاد العذراوي يعتبر جزءًا هامًّا من الإيمان المسيحي.

الرد على مشكلة شجرة النسب:

لقد قال العصريون، وعن حق، إن قائمتي النسب المذكورتين في متى ١: ٢- ١٦ ولوقا ٣: ٢٣- ٣٨ لا تؤديان في نهاية الأمر إلى مريم بل إلى يوسف فهما تذكران سلسلة نسب يوسف وليس سلسلة نسب مريم. وبناء على ذلك فإن لم يكن يسوع هو ابن يوسف، فلا تصيب إذًا هاتان الشجرتان الهدف الذي كتبتا من أجله وهو بيان أن يسوع الناصري من عائلة داود ومن النسل الملوكي، ولقد شدد على هذا الأمر عدد كبير من كتاب العهد الجديد.

---

(١) وُلد كارل بارت في ١٠ مايو ١٨٨٦ في مدينة بازل السويسرية، وكان والد كارل أستاذًا في كلية اللاهوت، وهو الطريق الذي سلكه فيما بعد كارل والبعض من أولاده أيضًا. ومع أنه من بازل فقد درس اللاهوت في مدينة برلين وفي عدة مدن ألمانية أخرى. وهناك عاملان هامان لعبا دورًا أساسيًا في حياته خلال دراساته في ألمانيا:

أ. ألمانيا المضطربة المنزعجة القلقة تحت شبح الحرب المخيف.

ب. أساتذته العصريون الذين درس على أيديهم أمثال هرنك (A. HARNACK) وهرمان (HARMANN) وغيرهما.

تعين راعيًا لكنيسة في جنيف ١٩٠٩، هي كنيسة سافونيل وبدأ بعد ذلك في تدريس اللاهوت النظامي في جامعات ألمانيا ١٩٢٢. وعندئذ بدأ في كتابة مجموعته اللاهوتية التي تزيد على أكثر من خمسة وعشرين مجلدًا عن اللاهوت النظامي أو العقائدي (DOGMATIQE) وأكثر من عشرين كتابًا آخر. تزعم بارت أثناء إقامته في ألمانيا حركة

وللرد على هذا الاعتراض يجدر بنا أن نلفت نظر القارئ إلى حقيقة هامة: وهي أن الكاتبين الوحيدين اللذين كتبا عن الميلاد العذراوي بطريقة واضحة وصريحة هما متى ولوقا وهما أيضًا الكاتبان الوحيدان اللذان سجلا لنا هاتين السلسلتين اللتين تؤديان في النهاية إلى يوسف وليس إلى مريم.

وهنا نسأل السؤال الآتي: كيف يمكن أن يرتكب متى ولوقا هذا الخطأ الظاهر؟

لقد أثار نفس المشكلة قديمًا أضداد المصلح الفرنسي «چون كالڤن» في چنيڤ، وكان رده على هؤلاء المعترضين هو: «إذا كان متى لا يعطي لنا جدولاً بأسماء آباء وأجداد مريم بل جدولاً بأسماء آباء وأجداد يوسف، فذلك لأنه كان يعالج مشكلة معروفة من الكبار والصغار وهي أن يوسف من نسل داود، ومريم هي أيضًا من نسل داود لأنهما من عائلة واحدة»[1].

ثم يتكلم عن شجرة النسب التي ذكرها لوقا فيقول: إن لوقا يبين بهذا النسب أن الخلاص الذي يقدمه المسيح هو خلاص شامل للكون كله، ولذلك يصعد بشجرة النسب إلى آدم وهو آب للخليقة كلها[2]. وإذا قبلنا رأي كالڤن، أي أن مريم ويوسف كانا من نفس العائلة وبذلك فإن شجرة نسب يوسف هي نفس شجرة نسب مريم، فإن المشكلة تحل، لأن يسوع ينتسب إلى عائلة داود عن طريق أمه مريم، وبذلك تتحقق به وفيه المواعيد (مت ١٢: ٢٣، ٢١: ٩، مز ١٠: ٤٧، ١٢: ٣٥، يو ٧: ٤٢، رو ١: ٢- ٣، ٢تي ٢: ٨).

ومع أن هذا الحل الذي قدمه كالڤن يبدو سليمًا إلا أنه لم ينجُ من الاعتراضات، والسؤال الأول: هل كانت مريم فعلاً من عائلة يوسف وكيف نثبت ذلك؟ وإن كانت مريم من نفس عائلة يوسف فلماذا لم يُشر متى أو لوقا إلى ذلك من قريب أو بعيد؟ وللإجابة على هذين السؤالين نقول: إن إنجيل متى ولوقا كتبا في فترة ما بين ٧٠ و ٨٥ م، وعلى ذلك فكان كل منهما يكتب حقائق معروفة للكبار وللصغار كما يقول كالڤن. والأمر واضح جدًا من طريقة كتابة القصتين، فإن متى ولوقا، بإعطائهما هاتين السلسلتين للكنيسة الأولى التي كان بعض أعضائها ما زالوا على قيد الحياة وربما كانوا يعرفون جيدًا نسبة القرابة التي تربط بين مريم ويوسف، الأمر الذي كان من السهل التحقق منه، يريدان أن يبينا أن يسوع الناصري ابن مريم هو أيضًا ابن داود، إذ أن مريم ويوسف من عائلة واحدة. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف إذن يشدد متى ولوقا على حقيقة

الكنيسة المعترفة التي وقفت وقفة مشرفة ضد هتلر والنازية. وهو الذي كتب مع الكنيسة المعترفة «الاعتراف الكنسي» (L'Eglise Congessante) الذي قدمه ضد النازية، وهو من القرارات الجريئة ضد هتلر والحكومة النازية. قام بارت أيضًا بحرب شعواء ضد الحركة اللاهوتية التحررية الحديثة أو العصرية التي تهدف في تعاليمها اللاهوتية إلى رفع الإنسان وتمجيده على حساب الله، فالإنسان هو كل شيء، ويسوع هو إنسان سام عظيم وكفى... فمع أن بارت الشاب سلك سبيل العصريين في بادئ الأمر إلا أنه غير اتجاهه بعد ذلك وترك العصريين لعصريتهم، وبدأ يعلم ويكتب معلنًا بأن يسوع الناصريّ ولد بطريقة معجزية من العذراء مريم، ثم عاش في الجليل، وصنع المعجزات، ثم صلب ومات ودفن وقام من بين الأموات في اليوم الثالث، الأمر الذي أنكره الكثيرون من العصريين. وللأسف الشديد أن كارل بارت غير معروف في العالم العربي. وكم نود أن كليات اللاهوت في الشرق، بروتستانتية أو غير بروتستانتية، تهتم بتدريس أفكار هذا الرجل العظيم واللاهوتي الدارس المتعمق. إن دراسة تعاليم كارل بارت لا تعني اقتباس بعض السطور أو صفحة من تعاليمه، بل إن دراسة أفكار بارت تحتاج إلى وقت طويل ودراسة عميقة ومعرفة كافية، فإنه من الصعب الحكم على ١٠٠٠٠ صفحة كتبها بارت بقراءة صفحة واحدة، وإن كان قد مات بارت في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٨ ولكنه يتكلم بعد.

K. Barth. Dogmatique tome Deuxieme p. 162.

(١) ص ٢٣٥ Jean Calvin. I., Institution Chrétienne. 2 Livre

(٢) ص ٢٣٥ Jean Calvin. I., Institution Chrétienne. 2 Livre

الميلاد العذراوي، وفي الوقت نفسه أن يوسف هو الأب الشرعي ليسوع؟

وأما بارت فيعتقد بأن يوسف قد أصبح أبًا ليسوع بالتبني ويقول إن الاصطلاح اليوناني (Eggenysen) «اجنسن» ولد يمكن أن يستخدم بمعنى آخر غير المعنى البيولوجي[1]، ومما لا شك فيه أن إنجيلي متى ولوقا لا يريدان بهاتين السلسلتين التشكيك في حقيقة نسب المسيح لداود بل العكس هو الصحيح. ثم إن القصتين ترويان لنا الميلاد المعجزي، وتتمسكان بالميلاد العذراوي ويقدمان لنا يوسف كأب ليسوع بالتبني.

مما تقدم يتضح أن يسوع الناصري ابن مريم كان هو أيضًا ابن يوسف أدبيًا سواء عن طريق نسبة القرابة العائلية التي تربط مريم بيوسف أو عن طريق التبني. ومن حسن الحظ أن الكاتبين متى ولوقا اللذين سجلا لنا قصة الميلاد العذراوي هما اللذان ذكرا سلسلتي الأنساب، فمن الواضح إذن أن المشكلة التي نثيرها الآن لم يفكرا فيها قط، وكانت غائبة تمامًا عن أنظارهما، وهذا يعني أنها كانت غير موجودة وكان الأمر واضحًا تمامًا عن أنظارهما، وهذا يعني أنها كانت غير موجودة وكان الأمر واضحًا تمامًا بالنسبة لهما. وكما يقول كارل بارت: «إن فكرة أن نسب المسيح لداود تتضمن إلغاء المعجزة، أو وجود المعجزة يتضمن إلغاء النسب إلى داود، كانت هذه الفكرة غائبة تمامًا عن ذهن متى». ولكي يوضح بارت فكرة تبني يوسف ليسوع، يظن أن الأمر قد أوحى ليوسف بأن يتحمل مسئولية الصبي «قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى أرض مصر» (مت ٢: ١٣).

هذا الأمر يعتبر وحيًا من قبل الله ليوسف، وعن طريق هذا الوحي الآمر بأن يأخذ يوسف على عاتقه مسئولية العناية بالطفل، أصبح أبًا له بالتبني. وبناءً على هذا الإعلان الخاص الذي أوحى به الله ليوسف، اندمج يسوع في سلسلة العائلة الداودية، وأصبح بهذا التبني ابنًا لداود[2]. أليس هذا ما يريد أن يقوله بولس: «عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد» (رو ١: ٢).

يوجد اختلاف بسيط بين المصلح الفرنسي چون كالڤن وبين اللاهوتي السويسري كارل بارت على مشكلة نسب المسيح لعائلة داود، إذ أن الأول يعتقد بأن مريم ويوسف من عائلة واحدة وعلى ذلك فإن سلسلة نسب يوسف هي نفسها سلسلة نسب مريم فيسوع إذن من عائلة داود، أما الثاني فظن أن يوسف أصبح أبًا ليسوع بالتبني وعن طريق وحي خاص من الله، وبموجب هذا الوحي الخاص يصبح يوسف أبًا ليسوع. بالرغم من هذا الاختلاف البسيط بينهما، فإنهما يؤمنان إيمانًا ثابتًا بعقيدة الميلاد العذراوي، وقد علم به كلاهما وبوضوح وصراحة.

ملاحظة أخيرة بالنسبة لشجرة النسب: إن متى ولوقا يسجلان لنا سلسلة شجرة نسب يوسف ولا يذكران بطريقة واضحة نسب مريم، وذلك لأن هذا الأمر كان أمرًا طبيعيًا إذ أن العهد القديم لا يعطي لنا في أشجار النسب إلا التسلسل الذكري،

(١) الطبعة الفرنسية ص ١٦٣

K. Barth. Dogmatique tome 2 E.

(٢) انظر نفس المجلد لبارت ص ١٦٣ - ١٦٤.

والنساء اللاتي يذكرن في سلسلتي (متى ولوقا) يذكرن لسبب أهمية القصص التي حدثت معهن وليس لأهميتهن بالنسبة لشجرة النسب.

الرد على الاعتراض الخاص بالصعوبات اللغوية:

قال الذين يؤيدون نظرية أن المسيح وُلد بطريقة طبيعية، إن عقيدة الميلاد العذراوي بنيت على مفهوم خاطئ وعلى ترجمة غير صحيحة للنص الكتابي القائل: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية. ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٤).

صحيح أن النص العبري القديم لإشعياء (٧: ١٤) لا يذكر كلمة عذراء «بارثينوس» ولكن «عُلمه» العبرية التي تعني سيدة شابة. صحيح أيضًا أن الذي ترجم «عُلمه» العبرية (سيدة شابة) إلى اليونانية بالكلمة «بارثينوس» هي الترجمة السبعينية، وهي ترجمة غير صحيحة لغويًا. وعلى هذا الأساس فقد اتبع كثيرون في الترجمات الحديثة النسخة العبرية وبدل أن يقولوا... ها العذراء تحبل وتلد ابنًا... يقولون «ها السيدة الشابة تحبل...» وحتى الترجمة المسكونية الحديثة التي قام بترجمتها الكاثوليك و البروتستانت، وظهرت في سنة ١٩٧٥ تقول هي أيضًا «ها السيدة LA JEUNNE FEMME الشابة»[١] وكما قيل في تفسير INTERPRETERS BIBLE إن أحسن ترجمة لكلمة «عُلمه» هي (سيدة شابة وليست عذراء) فإن العبرانيين يستعملون كلمة أخرى لكي يصفوا بها العذراء التي لم تعرف رجلاً وهي كلمة «بتولاه»، وهي نفس الاصطلاح أو الكلمة العربية «بتول». كل هذا صحيح، فهل بنى المتمسكون بالميلاد العذراوي عقيدتهم هذه على خطأ في الترجمة وبالتالي لا يوجد ميلاد عذراوي؟

إن الميلاد العذراوي حقيقة إلهية ثابتة ويتضح لنا ذلك من الآتي:

١. إن إشعياء ٧: ١٤ - كما يقول «BONNARD»[٢] «ليس هو مصدر قصة الميلاد ولكنه شرح لها». وهذا القول صحيح لأن متى لا يبحث عن مادة لكي يؤلف بها قصة غير واقية فيرجع إلى إشعياء لكي يثبت روايته ويدعمها بهذا النص (إش ٧: ١٤)، ولكن عندما وجد متى نفسه أمام هذه الحقيقة الواقعية (أي الميلاد العذراوي) حاول تفسير أو شرح هذه الظاهرة الحقيقية بنص من النبوات.

ومن المسلّم به أن متى كتب إنجيله إلى الكنيسة الأولى في فلسطين أي إلى كنيسة أغلبيتها من اليهود، واليهود لم ينتظروا في كل تاريخ انتظاراتهم المختلفة المتنوعة مسيا فائقًا للطبيعة بل كانوا يتوقعون ظهور المسيا وولادته كإنسان بطريقة طبيعية،

(١) Traduction Oecumeniue de la Bible A. T.

تنظر أيضًا الترجمة الإنجليزية Revised Standard Version

(٢) تفسير إنجيل متى باللغة الفرنسية ص ٢١.

Kommentar. Zum. N.T. Nach. Talmu und Midrasch Vol. I. 1922. P. 49. Bonnard.

ثم راجع كارل بارت مجلد ٢ ص ١٦٥.

فقوله «... لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس» (مت ١: ١٨) يعتبر جديدًا بل غريبًا جدًا على الفكر اليهودي. وبالرغم من غرابة هذا الأمر وبالرغم من أن الكنيسة الأولى التي كتب لها هذا الإنجيل كانت متأثرة تأثيرًا كبيرًا بالفكر اليهودي الذي خرجت منه، بالرغم من هذا كله يكتب متى قصة الميلاد العذراوي لأنها حقيقة متأكد من صحتها وحدوثها.

٢. هناك أمر آخر لا يجب إغفاله، صحيح أن «عُلمه» تعني سيدة شابة «وبارثينوس» تعني عذراء لم تعرف رجلاً، وهنا نتساءل: من يستطيع أن يثبت لنا أن كل سيدة شابة قد عرفت بالضرورة رجلاً؟ فمع أنه يمكن القول (مع التحفظ...) بأن العذراء هي الفتاة التي لم تعرف رجلاً بالمعنى الذي يقصده سفر التكوين (٤: ٢) «وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين»، فإنه لا يمكن القول بأن كل سيدة شابة هي من عرفت رجلاً.

٣. لقد اتفق المفسرون على أن كلمة «عُلمه» المستعملة في إشعياء (٧: ١٤) تعني سيدة شابة، وليست عذراء. على أن معظمهم بل الأغلبية الساحقة منهم اتفقوا على أن مفتاح هذه الجملة وهدفها هو كلمة آية: «ولكن يعطيكم السيد نفسه آية...». وكأني بإشعياء النبي يقول إن السيد سيعمل معجزة بينكم، سيصنع آية. والمعجزة هي أن سيدة شابة (عذراء) ستحبل وستلد ابنًا، أنه أمر غير طبيعي، ولكن السيد نفسه هو الذي سيعمل هذا العمل، هو نفسه مصدر هذه الآية، وما دام الله هو العامل وهو المصدر فهو الذي يملك هذا السلطان بأن يقول للشيء كن فيكون... «وقال الله ليكن نور فكان نور...» (تك ١: ٣).

بسبب هذه الصعوبات المذكورة سابقًا وصعوبات أخرى تفسيرية ولاهوتية، نادى بعض اللاهوتيين بالميلاد الطبيعي، فالبعض من هؤلاء اللاهوتيين أعلنوا بصراحة ووضوح عدم موافقتهم على هذه العقيدة، أما البعض الآخر فقد تبنى تقريبًا نفس الأفكار ونادى بها ولكن بطريق غير مباشر ومن بين هؤلاء الكاتب الإنجليزي المعاصر وليم باركلي. ويبدو لنا أنه من المهم أن نلقي نظرة على مفهومه بخصوص هذه المشكلة، خصوصًا أن باركلي أصبح مقروءًا ومعروفًا في مصر. ووليم باركلي لا يرفض بصراحة ووضوح الميلاد العذراوي ولكن في شرحه لمتى ولوقا يشعرنا بأنه يفضل الميلاد الطبيعي وهذا واضح في شرحه لمتى (١: ١٨ - ٢٠). فهو يعطي لنا فكرة عن المفهوم اليهودي للروح القدس، فاليهود يعتقدون بأن الروح هو الذي يعلم الناس الحق، وهو الذي يلهم الأنبياء بما يقولونه وهو الذي يكلمنا عن فمه، ويسوع هو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكلمنا عن الله. فقبل مجيئه كان وقت التخمين، إذ كان الناس يخمنون من هو الله، أما الآن فهو وقت التأكيد لأن يسوع عرفنا من هو الله... «من رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩). فالروح يعطي أيضًا الحياة ويسوع يعطي الحياة. ولكي تكون لدينا صورة متكاملة عن شرح باركلي لهذه المشكلة لنقرأ ما كتبه في شرحه لإنجيل لوقا فهو يعطي لنا الأسباب التي تؤيد الميلاد العذراوي والأسباب التي تدحضه. فهو يرى سببين يؤيدان الميلاد العذراوي:

١. إن متى (١: ١٦ - ٢٥) ولوقا (١: ٢٦ - ٤٥) يثبتان حرفيًا الميلاد العذراوي.

٢. بما أن المسيح شخص فريد يجب أن يكون دخوله للعالم فريدًا من نوعه.

أما الأسباب التي من أجلها لا يقبل الميلاد العذراوي فهي:

١. مشكلة النسب التي تؤدي إلى يوسف وليس إلى مريم.

٢. ذكر يوسف كأب ليسوع (لو ٢: ٤٨، متى ١٣: ٥٥، يو ٦: ٤٢).

٣. إن باقي العهد الجديد لا يذكر شيئًا عن الميلاد العذراوي. وبعد أن سرد باركلي المفهوم اليهودي للروح في إنجيل متى، وبعد أن عدد الأسباب التي تؤيد والأسباب التي ترفض الميلاد العذراوي، يجهر بالقول: فماذا ينتج لو لم نأخذ قصة الميلاد العذراوي بطريقة حرفية؟

يوجد قول شائع عند اليهود يقول: هناك ثلاثة عوامل تعمل معًا لولادة أي طفل، الأب، الأم، وروح الله. ولقد ظن اليهود بأنه لا يمكن أن يولد أي طفل بدون الروح، ويحتمل بأن قصص العهد الجديد التي تتكلم عن الميلاد العذراوي بطريقة شعرية، هدفها أن تعلمنا بأنه حتى ولو كان للمسيح أب بشري فإن الروح القدس كان يعمل في ميلاده بطريقة فريدة وخاصة. ويترك باركلي في النهاية كلاً منا يسلك الطريق الذي يفضله[١]. وهنا نلاحظ عدم وضوح موقف باركلي، في عدم اتخاذه قرار واضح وصريح بخصوص هذه العقيدة.

وهنا نرى الفرق بين موقف باركلي وموقف كارل بارت[٢]، فبارت يسأل هذا السؤال: هل الإيمان المسيحي يتطلب منا قبول الميلاد العذراوي؟ ويواصل بارت شرحه فيقول: قد يجوز أن يكون للإنسان إيمان صحيح دون الاعتقاد بالميلاد العذراوي. ولكن هذا الأمر يتوقف على الله و على مشيئته، فإذا أراد الرب أن يعلن ذاته لأحد وأن يعرفه بسر يسوع المسيح، فإن هذا الإنسان يملك الإيمان المسيحي الصحيح حتى ولو كان خارج الكنيسة المنظورة. ولكن هذا لا يعني أن للكنيسة الحرية أن تجعل من عقيدة الميلاد العذراوي تعليمًا يتفق مع أهواء الناس، ضعفاء أو أقوياء. فالكنيسة تدرك جيدًا معنى ما عملته عندما وضعت هذه العقيدة كحارس على عتبتها، فهي لا تسمح إذًا لأحد أن يدَّعي لنفسه هذا الحق وأن يعبر هذه العتبة على عجل دون أن يعرف بأنها محروسة، وأن الذي يَدَّعي لنفسه هذا الحق يخاطر بنفسه مخاطرة عظيمة. فواجبها إذًا أن تدعو المؤمن لقبول هذه العقيدة والإيمان بها[٣]...

وبهذا يحمِّل بارت الكنيسة مسئولية التعليم بهذه العقيدة، فهي الحارس الذي يجب أن يعلن باستمرار وبلا ملل عقيدة الميلاد العذراوي. والفرق شاسع أيضًا بين موقفه فيما يخص هذه العقيدة وموقف كنيسة كنتربري. فقد عين أساقفة كنتربري لجنة للبحث في بعض العقائد المسيحية، وكانت اللجنة تضم رجالاً مكرسين وقدمت هذه اللجنة في سنة ١٩٢٢ تقريرها الذي يحتوي على اتجاهين:

(١) راجع تفسير وليم باركلي إنجيل متى ١: ١٦ - ٢٥، لوقا ١: ٢٦ - ٤٥ (الطبعة الإنجليزية).

(٢) انظر كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه صفحة ١٦٨ - ١٦٩ (فرنسي).

(٣) انظر كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه صفحة ١٦٥ - ١٦٦ (النص الفرنسي).

١. إن كثيرين من أعضاء هذه اللجنة يرون في عبارة «الكلمة صار جسدًا» ارتباطًا بالميلاد العذراوي ويعترفون به...

٢. أما الآخرون فقد رأوا في التجسد عملية تاريخية قد حدثت بطريقة طبيعية. فلقد قيل هذان الاتجاهان من الكنيسة كما قدمتهما اللجنة(١).

ونلاحظ أن هذين الاتجاهين موجودان عند عدد كبير من المفسرين واللاهوتيين. ومع أنه ليس من حق الكنيسة ولا في سلطانها أن ترغم أحدًا على قبول أو رفض هذه العقيدة، وبارت نفسه لا يريد أن الكنيسة ترغم المؤمنين على قبولها أو رفضها، ولكن من واجبها أن تعلن عن هذه الحقيقة بوضوح. ولهذا السبب عينه فهو ينتقد اميل برونر (E. BRUNNER) ولا يتفق معه في كتاباته ضد الميلاد العذراوي. ولقد أصيب بخيبة الأمل التي سيطرت أيضًا على نفس بردياف BERDIAFF عندما بدأ في التهام كتب برونر بشغف واهتمام عظيمين، ولكن عندما وصل إلى الفصل الذي يتكلم الكاتب (برونر) عن عقيدته في مسألة الميلاد العذراوي أصبح كل شيء - فجأة - بالنسبة له بلا فائدة كما لو كان قد مسح كل ما قرأه سابقًا(٢).

والآن لنلقِ نظرة على مفهوم كارل بارت لمشكلة الميلاد العذراوي وسيساعدنا ذلك على حل الاعتراض الأول الذي يعترض به الذين يرفضون هذه العقيدة، وهو الاعتراض الذي تركناه معلقًا إلى الآن بدون جواب. إن جماعة المتحررين ترفض رفضًا باتًا كل ما هو خارق للطبيعة وكل ما لا يمكن تفسيره أو تحليله أو التأكد من صحته بطريقة علمية. وبما أن الميلاد العذراوي ظاهرة لا يمكن تحليلها أو التأكد منها بطريقة علمية فلا يمكن قبولها، لأن غياب العامل الذكري هو استحالة بيولوچية لا يمكن بأي حال من الأحوال حلها...

يجيب بارت على هذا الاعتراض فيقول: إن عملية التجسد أو الميلاد العذراوي حقيقة واقعية حدثت فعلاً في عالمنا وفي أرضنا بالطريقة التي يصفها لنا الإنجيليون. ويرفض بشدة قول القائلين بأن النصوص الخاصة بالميلاد العذراوي ما هي إلا أساطير خلفتها لنا الديانات البوذية والمصرية واليونانية، وديانات أخرى. ويعتقد بارت بأن الفصول الكتابية التي تتكلم عن الميلاد العذراوي تختلف كل الاختلاف عن هذه الأساطير القديمة، لأن مصدرها واتجاهها يختلفان اختلافًا تامًا عن هذه الأساطير. أما بخصوص إمكانية تحليل وقبول هذه العقيدة علميًا، فيقول: إن عقيدة الميلاد العذراوي مثلها مثل الوحي، وهذه كلها حقائق روحية وليست حقائق عقلية منطقية وعلمية في إمكاننا أن نشرحها شرحًا علميًا ومنطقيًا وعن طريق هذا الشرح العقلي والمنطقي والعلمي يمكننا أن نفهمها ونقبلها بأذهاننا، بل هذه حقائق روحية نقبلها بالإيمان فقط.

ولقد اتخذ بارت كأساس من الأسس التي بنى عليها عقيدة الميلاد العذراوي، الجملة الثانية من قانون الإيمان والتي تقول: «المولود من العذراء...» فهذا القول (المولود من عذراء) يعني أن ميلاد يسوع تم بطريقة تختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن ميلاد أي طفل آخر. إلا أنه ولد كما يولد أي طفل آخر، فقد كان طفلاً مثل كل طفل، ووُلد من جسد ولحم ودم أمه مريم العذراء.

(١) راجع تفسير Interpreter's Bible إنجيل لوقا صفحة ٣٩.

(٢) راجع كارل بارت نفس المجلد المذكور أعلاه ص ١٧٢.

وعلى هذا فقد كان إنسانًا بما تحمله كلمة إنسان من معنى، وكان ميلاده ميلادًا بشريًا صحيحًا، على أن هذا الميلاد البشري الصحيح تم بدون اجتماع جنسي سابق بين رجل وامرأة، وغياب الاتحاد الجنسي في هذا الميلاد الفريد من نوعه يميز ميلاد المسيح يسوع عن كل ميلاد آخر. فإن هذا الميلاد يعتبر سرًا من أسرار الله، كسرًا لقوانين الطبيعة، وبداية جديدة في البشرية[1]. وميلاده من عذراء يعني أيضًا إدخال أو إدماج يسوع المسيح الذي هو الله نفسه في الوجود البشري. فمع أن هذه المعجزة لا تقدم لنا برهانًا على ضرورة وجودها إلا أنها يجب أن تفهم وتقبل هكذا كما هي، لأنها آية تعلن لنا الله، ولذلك يجب أن يكون دخول هذا المعلن إلى عالمنا مختلفًا عن دخول الآخرين، يجب أن تكون له طريقة خاصة تفرده وتميزه عن كل الذين سبقوه. وهذه الطريقة الخاصة التي تفرده في دخوله إلى عالمنا هي أن المسيح المعلن يولد من عذراء بطريقة لا يمكن شرحها أو فهمها بطريقة علمية أو بيولوجية، لأن المولود من عذراء هو الله، الذي في ملء حريته ومحبته أصبح طفلاً رضيعًا، ولكنه ظل ما كان عليه قبل أن يوجد في بطن مريم العذراء، أي الله الذي مازالت نواميس الطبيعة خاضعة له وطوع أمره وليس العكس. وبهذا السلطان ولد المسيح من العذراء. والسؤال الذي يفرض نفسه فرضًا الآن هو السؤال الآتي:

لماذا وُلد المسيح بدون اجتماع جنسي؟ وهل وُلد يسوع بدون علاقة جنسية بين رجل وامرأة لأن الجنس خطية؟ وهل وُلد يسوع بهذه الطريقة المعجزية دون علاقة جنسية لكي يحرر من الخطية الأصلية؟

في عرف بارت أن الجنس في حد ذاته ليس خطية وأن ما يقوله مزمور (٥١: ٥) «..هانذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي» لا يعني بأي حال من الأحوال إدانة الجنس، فحتى العصور الوسطى الكاثوليكية التي كانت ترى في العذراوية قيمة كبيرة. و التي كانت تميل إلى نسب الخطية للجنس، لم تعلن قط بأن الجنس خطية. فإذا كان يسوع غير مدين للجنس في تكوينه البشري، فليس لأن الجنس خطية بسبب ما فيه من أشياء طبيعية، ولكن لأن الخطية أفسدته. فليس بسبب الجنس أصبح الإنسان خاطئًا منذ ولادته، ولكن لأن الإنسان منذ ولادته خاطئ ويعيش في العصيان والتمرد، وبذلك فالحياة الجنسية ليست خطية بل هي مرتبطة بالخطية[2].

وهنا نأتي للسؤال الذي سبق أن سألناه وهو: هل وُلد يسوع بطريقة معجزية لكي يحرر من الخطية الأصلية؟ إن عبارة «مولود من عذراء» تبين لنا أن يسوع، مع أنه مولود من عذراء، إلا أنه مولود مثلنا، وفي مثل أجسادنا، بل يمكن أن نقول في جسد حلت عليه لعنة الخطية لدرجة أن هذا الجسد نفسه جُعل خطية من أجلنا. فهو الذي في حياته العلمية لم يعرف خطية في موته النيابي خطية من أجلنا (رو ٨: ٣، ٢كو ٥: ٢١). وصحيح أن الإنسان عن طريق قانون التضامن والنيابة أصبح مسئولاً بتضامنه مع آدم عن غلطته (آدم) وبهذا التضامن أصبح الإنسان عبدًا «لا حرية له في الاختيار (SERVUM ARBITRIUM)» ولكن عبارة «مولود من عذراء» تعلن لنا شيئًا آخر جديدًا، فهي تعلن لنا وجود شخص مثلنا في جسد مثل جسدنا، تحت لعنة الخطية، لكنه لم يسلم نفسه للخطية لأنه الله. ولذلك فإن «يتمتع بحرية الاختيار» (SERVUM

(١) راجع كارل بارت نفس المجلد المذكور سابقًا ص ١٧٣.

(٢) راجع نفس المجلد من كارل بارت ص ١٧٧- ١٧٨ (النص الفرنسي).

(LIBERUM) حلت فيه محل «لا حرية له في الاختيار» (SERVUM ARBITRIUM).

وهناك اعتراض يقول: لو سلمنا بأن المسيح قد وُلد من عذراء وبطريقة معجزية، فإنه مرتبط ارتباطًا مباشرًا ووثيقًا بالبشرية الساقطة بسبب أمه مريم. وبارت يجيب بأن هذا الكلام صحيح وقانوني. لأن العذراوية لم تعفِ من الخطية، بل هي أيضًا مشتركة فيها، ولكن الأمر المهم جدًا وهو أنه لا يجب أن يغيب عن بالنا أن عبارة «مولود من عذراء» تعلن لنا بداية جديدة، فيها كُسرت قوانين الطبيعة، وبها أيضًا تغيرت طبيعة التضامن الذي أشرنا إليه سابقًا. فإن كان يسوع المسيح طاهرًا وبدون خطية فلا يرجع الفضل في ذلك إلى أنه وُلد بدون أب بشري، وأن غياب العامل الذكَري هو السبب الأساسي في خلوه من الخطية، بل إن السبب الأساسي والجوهري في عصمة السيد من الخطية هو أن «الكلمة صار جسدًا». فإن معجزة الميلاد العذراوي ما هي إلا المؤشر الذي يشير إلى أن حدثًا خارقًا للطبيعة وكاسرًا لقوانينها قد حدث. فالمعجزة ليست هي «الكسر»، وليست المعجزة هي الجوهر، بل هي علامة أو إشارة تشير إلى شيء أهم وأسمى وأعظم... ولكي يكون الأمر واضحًا في أذهاننا فلننظر إلى معجزة شفاء المفلوج (مرقس ٢: ١- ١١). فإن شفاء هذا المفلوج جسديًا كان بمثابة المؤشر الذي يدل على حقيقة أخرى أكثر عظمة وأهمية وهي غفران الخطايا.

ويشير بارت إلى أمر قد غاب عن أذهان المعلمين في الكنيسة القديمة وهو أن عبارة «مولود من عذراء» لا تعني أنه يوجد عامل فني ساعد[1] يسوع في الانتصار على الخطية، فإن الكتاب المقدس وقانون الإيمان يعرفنا أن الميلاد العذراوي ما هو إلا علامة تظهر لنا طهارة المسيح وليس السبب في طهارته وقداسته.

وجدير بالذكر أن أضداد كالفن أثاروا نفس المشكلة ولكن بطريقة أخرى. فلقد اعترض هؤلاء بالقول بأن يسوع كان طاهرًا لأنه ولد من أمه فقط وزرعها غير مدنس. والمصلح الفرنسي يرفض هذا الكلام بالقول: «نحن لا نقول بأن المسيح معصوم من كل عيب وعدوى أصيلة لأنه وُلد من أمه بدون اتحاد ذكر، ولكن لأنه قدس من الروح القدس»[2]. ومن هذا الجواب نلاحظ اتفاق بارت مع كالفن، فكلاهما يعتقد بأن قداسة يسوع لم تأتِ من الميلاد العذراوي أو من غياب الأب الجسدي، ولكن هذه القداسة نابعة من يسوع نفسه، من داخله. فمصدرها «الكلمة صار جسدًا». فلا يوجد إذًا عامل فني أو نقص طبيعي في تكوين يسوع، عن طريقهما كان يتجنب الخطية، فلا الظروف التي وُجد فيها ومر بها، ولا تكوينه الطبيعي فيما يختص بغياب الأب الجسدي، علمت على أن يكون يسوع بارًا وقديسًا، بل إن هذه الظروف وهذا التكوين البيولوجي ما كانت إلا براهين ومؤشرات أظهرت قداسته فميلاده العذراوي ما هو إلا المؤشر الدال والمعلن على أنه آدم الثاني.

وفي مجال الكلام عن العذراوية يتعرض بارت لمشكلة مريم: هل اختار الله مريم لكي تكون أم يسوع بسبب قداستها وعذراويتها؟ وهل يعتقد بأن الذي دفع الله لاختيار هذه السيدة لكي تكون أمًا ليسوع ولكي تحمل هذه المسئولية العظيمة، مسئولية أم عمانوئيل هو لأنها عذراء أو لأن العذراوية أو البتولية مقبولة لدى الله؟ إن الأساس الوحيد لاختيار هذه الفتاة

(١) راجع كارل بارت نفس المجلد المذكور سابقًا ص ١٧٧.

(2) Jean Calvin. Institution Chrétienne Livre II P. 236.

لهذه المهمة هو مجرد نعمة الله ومحبته وحريته. لهذا ولهذا فقط اختار الله هذه الفتاة العذراء لكي تكون أم يسوع. والتبتل هو أبعد من أن يكون سببًا في الحصول على نعمة الله. ويحذرنا بارت من التطرف الذي وصلت إليه الكنيسة الكاثوليكية في اعتبارها أن العذراء مريم كانت تمثل النافذة أو الباب المفتوح أمام الله، لأنها حُفظت من السقوط الذي سقطت فيه البشرية كلها. وبارت يعتقد بأنه لا يوجد في البشرية كلها باب أو نافذة استطاع الله عن طريقها الدخول إلى العالم فكل الطبيعة البشرية محكوم عليها بالهلاك بسبب الخطية لأنه كما يقول الكتاب: «الجميع زاغوا وفسدوا معًا، ليس من يعمل صلاحًا ليس ولا واحد...» (رو ٣: ١٢). ولا يمكن استثناء أحد من هذا الحكم إلا شخص يسوع. ومع أن مريم كانت تحت الحكم عينه، إلا أن الله، في فرط محبته، قد أنعم عليها، وكما يقول لها الملاك: «السلام عليكِ أيتها المنعَم عليها» (لو ١: ٢٨)، فإن هذا الاختيار بأن تكون أمًّا ليسوع، ما هو إلا نعمة، إنعام من الله عليها. فاختيار الله لها ليس مبنيًّا على قداستها وبرها الذاتي، أو لأنها كانت بدون خطية ولذلك استحقت هذا الشرف العظيم، بل سبب اختياره لها هو نعمته ومحبته. والعذراء مثلها مثل البشرية كلها. فالبشرية أمام الله بلا قوة وبلا إرادة وبدون أي سلطان خلاق، وكل ما تستطيع أن تقوم بعمله هو أن تقبل ما يقدم لها. هكذا كان موقف مريم، فاختيارها لم يكن إذن نتيجة قداستها، أو لاستعداد طبيعي فيها، أي لأنه حُبل بها بطريقة معجزية كما حُبل بالمسيح، وهو ما تسميه الكنيسة الكاثوليكية: «الحبل بلا دنس»[1]، بل كان اختيارها وقفًا على حرية الله وإرادته. ولا نريد بهذا أن نقلل بأي حال من الأحوال من مكانة مريم عند الله فهي التي يقول لها الملاك: «لأنكِ وجدتِ نعمة عند الله»، صحيح أن هذه النعمة التي وجدتها مريم عند الله ما هي إلا هبة من لدنه لها، ولكن هذه النعمة لا تنفي بأن مريم كانت العذراء الفاضلة القديسة، التي ستكون فيما بعد موضوع تطويب الأجيال كلها: «فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني» (لو ١: ٤٨). على أن اختيار الله لها لكي تكون أمًّا ليسوع لم يكن مؤسسًا على قداستها أو على طهارتها بل على محبة الله وحريته. وعندما يختار الله إنسانًا بناء على محبته، فإن هذا الاختيار أضمن وأقوى من أن يختار هذا الإنسان على أساس قداسته وفضائله وأعماله، التي هي ضعيفة وغير ثابتة، وعلى ذلك لا ضمان فيها أو بها. وأما عندما يختار الله الإنسان على أساس محبته لهذا الإنسان فستظل هذه المحبة إلى الأبد لأنها مؤسسة على الله وأمانته، وهو أمين وسيظل أمينًا إلى الأبد ولا يمكن أن ينكر أمانته.

ولنرجع الآن إلى مفهوم بارت فيما يختص بالميلاد العذراوي، فبعد شرح عبارة: «مولود من عذراء». يتناول الجزء الأول من قانون الإيمان القائل: «وحبل به من الروح القدس»، إن الروح القدس ليس مجرد صفة من صفات الله كتأثيره أو لطفه أو محبته ولكن هو الله نفسه لأن الله مثلث الأقانيم: آب وابن وروح قدس، هؤلاء الثالثة الأقانيم ما هم إلا إله واحد.

(١) إن عقيدة الحبل بلا دنس كما تعلمها الكنيسة الرومانية تعني بأنه ليس مريم وحدها التي حبلت بيسوع بطريقة معصومة من وصمة الخطية الأصلية، بل إن (مريم) أيضًا حبل بها بنفس الطريقة، ولقد أصبحت هذه العقيدة قاعدة من قواعد الإيمان الكاثوليكي بعد أن أصدر البابا بيوس التاسع في ٨ ديسمبر ١٨٥٤ منشوره الخاص بالعصمة البابوية. فهذا المنشور يقرر بأن مريم نجت من وصمة الخطية الأصلية عن طريق نعمة خاصة، فلقد ظن البابا بيوس أنه حيث إن مريم قد حبلت بيسوع بطريقة معجزية ولكونها أم يسوع ويسوع يعيش في أحشائها، يتغذى بما يتغذى به، فيجب أن تكون هي أيضًا معصومة من الخطية الأصلية ومن اللعنة التي لحقت بآدم وبكل نسله، وإلا لوصلت ليسوع عن طريق أمومتها، نفس اللعنة ونفس الوصمة. فلكي تكون طبيعة يسوع طاهرة وخالية من كل خطية أصلية كان لابد أن مريم تخلو هي أيضًا من الخطية الأصلية ويحبل بها بطريقة معصومة من هذه الخطية الأصلية التي لحقت بآدم وجنسه.

انظر الموسوعة الفرنسية المذكورة في قائمة الكتب - المجلد الخامس تحت عنوان: (Conception Immaculee)

فالأقنوم الثالث من الثالوث، أي الروح القدس حل على مريم العذراء، وبقوة الله صارت مريم حبلى. ويحذر بارت من التفكير في وجود توافق أو تشابه بين ميلاد المسيح العذراوي وبين الأساطير التي تتحدث عن مواليد عذراوية أخرى في التاريخ، لأن هذه الأخيرة ما هي إلا خيالات بشرية وأساطير منسوجة من خيوط العنكبوت التي لا يمكن أن يكتسي بها إنسان، ويؤكد بشدة أيضًا على أنه ليس من حقنا أسطرة (MYTHOLOGISEN) هذه القصة لأن موضوعها هو الله نفسه، وهو المصدر لصحتها. وما دام الله هو المصدر أو العامل فليس من حقنا أن نبحث عن بعض العوامل الطبيعية أو البيولوچية التي تؤيد هذه المعجزة، لأن هذا التدخل: التدخل الإلهي -حلول الروح- حمل مريم بقوته، أشياء لا يمكن أن نفهمها بعقولنا، بل علينا أن نقبلها بالإيمان الذي يمنحه لنا السيد. وأعتقد بأن بارت مصيب كل الصواب عندما يشدد على حقيقة أن الميلاد العذراوي وقيامة المسيح من الأموات، كل هذه المعجزات أشياء روحية، ولا يمكن أن نفهمها بعقولنا، لأن المتحررين لا يريدون التمسك إلا بما يمكن اختباره وتحليله والتأكد منه علميًا. وفي هذه العملية - عملية حلول الروح القدس على مريم العذراء وحبلها بقوته - أشياء لا يمكن اختبارها والتأكد منها علميًّا، مهما كانت دقة مخابر معاملنا، ومهما تقدم العلم في اكتشافاته العظيمة، لأن هذه الحقائق روحية ولا يمكن أن تفهم الروحيات إلا بروحه القدس.

ويحذرنا بارت من خطر آخر خاص بمفهوم حلول الروح القدس على مريم العذراء لكي تتم عملية التجسد.. «الروح القدس يحل عليكِ وقوة العلي تظللك..» (لو ١: ٣٥). إن النصوص الكتابية التي تتكلم عن الميلاد العذراوي في العهد الجديد، وعن التدخل الإلهي بخصوص هذا الموضوع، لا تشير من قريب أو بعيد عن زواج مقدس بين الله ومريم، فهذه الفكرة لا تستحق إلا أن تُرفض رفضًا كليًّا وجزئيًّا لأنها فكرة وثنية، فالله يعمل كخالق وليس كعشيق[٢]. والواضح كل الوضوح أن العهد الجديد والكنيسة لا يشيران، من قريب أو من بعيد، إلى أن علاقة الروح القدس بمريم كانت علاقة زواج على طريقة الأساطير القديمة، مثل الزواج المقدس... كذلك لا يوجد أي لاهوتي مسيحي جاد علم بأن الروح القدس هو أب ليسوع بحسب هذا المفهوم. فعبارة: «حبل به من الروح القدس» تعني بأن الله تدخل فعلًا، ولكنه تدخل بطريقته الخاصة كخالق، وليس بالطريقة البيولوچية، أي أن المسيح ولد بيولوچيًّا من الروح القدس. «حبل به من الروح القدس» تعني أيضًا بأن روح الله نفسه، وليس أي روح آخر، هو الذي عمل، وليس أي إنسان آخر، وبأي طريقة كانت، قام بهذا العمل.

مما سبق يتضح أن كارل بارت تمسك ودافع بشدة وإصرار عن عقيدة الميلاد العذراوي، فإنه بالرغم من أن النصوص الكتابية التي تتكلم عن الميلاد العذراوي قليلة جدًّا، وهي موضوع نقاش كثير، إلا أن الميلاد العذراوي أمر هام جدًّا، لدرجة أنه لا يمكن اعتباره أسطورة أو قبول شرح غير الشرح الذي يقدمه لنا إنجيلا متى ولوقا بخصوص هذا الأمر.

ففي حياة المسيح نجد أمرين هامين جدًّا وفي غاية الخطورة، وهما: الميلاد العذراوي في بدء حياته؛ فبهذا دخل المسيح إلى عالمنا بطريقة تختلف اختلافًا تامًّا، جزئيًّا، عن ميلاد أي إنسان آخر. فبميلاده العذراوي هذا أصبح عمانوئيل، الذي تفسيره الله معنا، حاضرًا في عالمنا، حاضرًا معنا بطريقة ملموسة محسوسة ومرئية. إن الكلمة صار فعلًا وعملًا جسدًا – صار الله جسدًا – يمكن لأيدينا أن تلمسه ولأعيننا أن تراه. أما الأمر الثاني الهام فهو القيامة وستكون لنا الفرصة أن نتكلم عنه في حينه.

فقط نقول هنا إن حادث القيامة الذي كلل في نهاية الأمر حياة المسيح، حادث يفوق أيضًا كل تفكير بشري، ولا يمكن تفسيره أو قبوله علميًا. وبالرغم من هذه الاستحالات العلمية فإن الكتاب المقدس يقدم لنا المسيح مولودًا من عذراء بطريقة غير طبيعية، كما يقدم لنا المسيح مقامًا من بين الأموات بطريقة لا يمكن شرحها أو فهمها بعقولنا البشرية. فهكذا بدأت حياة المسيح الأرضية بطريقة معجزية، وانتهت من الأرض أيضًا بالقيامة بطريقة معجزية، متخطية كل العوائق الطبيعية، لأنه رب الطبيعة وسيدها. ومع أنه يحترم قوانينها لأنه هو واضع هذه القوانين، إلا أنها خاضعة له ومنفذة لأوامره. فلا عجب إذن، إذا كنا نرى أن قوانين الطبيعة تكسر في هذين الحادثين - الميلاد العذراوي والقيامة - وعلى ذلك فليس من حقنا بأي حال من الأحوال اعتبار هذين الحادثين كأساطير (MYTHES) كما ظن رودلف بولتمان وآخرون. بل إن حقيقة الميلاد العذراوي التي تبدأ بها حياة المسيح، وحقيقة القيامة التي تختم بها أيضًا حياة المسيح، هما حقيقتان هامتان لا يمكن إنكارهما، ولا يمكن أيضًا قبولهما إلا بالإيمان. فأعن يا رب ضعف إيماننا.

الفصل الثالث

طفولة يسوع وشبابه

حاولنا في الفصول السابقة أن نبحث عن تاريخ لميلاد يسوع، وعرفنا بأنه ولد فيما بين سنة ٤ وسنة ٥ ق.م. وبعد ذلك تعرضنا لمشكلة الميلاد العذراوي ورأينا أن يسوع الناصري ابن مريم، هو يسوع المسيح ابن الله، «الكلمة صار جسدًا» ، وهذا الكلمة الذي صار جسدًا هو الله نفسه. إذ أنه «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد». وهذا يعني بأن الميلاد العذراوي هو ميلاد معجزي لا يدين بشيء، لا للجنس ولا للطبيعة. فقد كان الميلاد العذراوي خرقًا لقوانين الطبيعة لأن الطفل، الذي ولد في بيت لحم اليهودية في حوالي سنة ٤ ق.م. هو «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا». الله الذي يملأ بجلاله وعظمته السماوات والأرض، الله المعبود من الملائكة، يصبح إنسانًا لا بل طفلًا صغيرًا يولد في بيت لحم في مزود.

ومن هنا نريد أن نتقدم في بحثنا خطوة أخرى، والخطوة التي نريد أن نخطوها الآن تختص بطفولة وشباب يسوع الناصري. لقد رأينا فيما سبق أن ميلاد يسوع تم في نهاية حكم هيرودس الكبير، وأن متى ولوقا، بذكرهما أسماء الحكام، ساعدا المؤرخين كثيرًا على تحديد بعض التواريخ الهامة المختصة بميلاد وموت يسوع المسيح.

فلو لم يذكر كتاب العهد الجديد أسماء بعض الأباطرة والحكام، الذين كانوا يحكمون في ذلك العصر، لأصبح أمر تحديد تواريخ الميلاد والقيامة أمرًا عسيرًا. على أن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا لنا عن ميلاد يسوع وموته وقيامته، لا يتكلمون عن حياة يسوع كطفل وشاب. فحتى كتّاب الأناجيل الذين يسردون بعض القصص الخاصة بميلاده ومعجزاته وأعماله، يسدلون ستارًا، يكاد يكون كثيفًا لا نرى من خلفة إلا خيوطًا باهتة جدًّا، على طفولة وشباب يسوع. فالفصول الكتابية التي تتكلم عن هذه الفترة من حياته قليلة جدًّا لدرجه أنه من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن نرسم عن طريقها صورة متكاملة ولو نسبيًّا لطفولة وشباب يسوع.

إن الأناجيل لا تذكر لنا عن طفولة يسوع إلا حادثتين: أولًا – الذين جاءوا من المشرق ليسجدوا له. ويمكننا أن نقول بأن زيارة المجوس ليسوع يحتمل أن تكون قد تمت في السنة الأولى أو الثانية بعد ولادته حوالي سنة ٥ أو ٤ ق.م. أي قبل موت الملك هيرودس. «حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدًّا، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس» (مت ٢: ١٦).

أما الحادثة الثانية التي يتكلم فيها متى عن طفولة يسوع، فهو الحلم الذي أوحى فيه الرب ليوسف قائلًا: «قم خذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك... فقام وأخذ الصبي وأمه ليلًا وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس...» (مت ٢: ١٣-١٤).

غير هاتين الحادثتين، لا تذكر الأناجيل شيئًا عن طفولة يسوع.

وحتى في هاتين الحادثتين، فإن متى لا يتكلم عن الطفل يسوع بل يصف الجو الذي وُجد فيه هذا الطفل، وما يدور حوله، وما يحاك ضده، وما تدبره العناية الإلهية لخلاصه من مؤامرات هيرودس.

أما لوقا فقد كتب عن طفولة يسوع بطريقة مباشرة تلمس حياته نفسها، وليس كما فعل متى، الذي يصف الأحداث التي تدور حوله، دون أن يكلمنا عن الطفل يسوع نفسه. فإن الإصحاح الثاني من إنجيله يسجل لنا عدة حوادث: أولًا عن ميلاد يسوع (لو ٢: ٨ - ٢٠)، ثم يسجل لنا الإنجيل حادثة الختان التي تتم بحسب الناموس الموسوي في اليوم الثامن (لو ٢: ١، تك ١٧: ١٢). كما أن الإنجيل لا يهمل أيضًا عملية تطهير الأم التي تُعَد من الطقوس اليهودية الموسوية الهامة (لو ٢: ٢٢ – ٤٠). وبعد اتمام هذه النواميس يقول لوقا: «ولما أكملوا كل شيء حسب ناموس الرب رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة، وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئًا وكانت نعمة الله عليه» (لو ٢: ٣٩ – ٤٠).

وفي نفس الأصحاح يقص لنا لوقا قصة لم ترد في أي إنجيل آخر، وهو النافذة الوحيدة التي فتحت لنا في الأناجيل، والتي من خلالها يمكننا أن نلقي نظرة على شباب يسوع. فلوقا هو الوحيد الذي يسجل لنا قصة الشاب يسوع الذي صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم لكي يؤدي فريضة الفصح التي كان على كل شاب يهودي متدين تجاوز الثانية عشرة من عمره أن يؤديها. وفي نهاية هذه القصة يختم لوقا الأصحاح الثاني بهذا القول: «ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعًا لهما، وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها، وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢: ٥١ – ٥٢).

من هذه الأعداد التي سبق أن أشرنا إليها (لو ٢: ٤٠، ٥١، ٥٢) نلاحظ أن الطفل يسوع كان ينمو نموًا عاديًا متقويًا بالروح وممتلئًا حكمة، ونعمة الله كانت عليه. وفي سن الثانية عشرة يقدم لنا لوقا صورة عن تصرفات الشاب يسوع: في تلك السن يشعر الشاب بنزعة الاستقلال عن الأبوين وعدم الخضوع لهما، فيقول لوقا: وكان خاضعًا لهما. وكان الشاب يسوع «يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».

وكان الشاب يسوع «يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».

إن لوقا هو الوحيد الذي استطاع بهذه الأعداد القليلة جدًا أن يقدم لنا الشاب يسوع بهذه الصورة التي سيكون لنا فيما بعد مجال للحديث عنها.

خارجًا عن هذه الشواهد التي سبق أن أشرنا إليها، لا نجد في العهد الجديد أيه إشارة أو قصة تصف لنا حياة يسوع من

طفولته إلى أن بدأ ما نسميه الخدمة العلنية. صحيح أن اليهود قالوا عنه «أليس هذا ابن النجار؟» (مت ١٣: ٢٣)، وصحيح أيضًا أن كاتب رسالة العبرانيين أراد أن يؤكد بشدة على ناسوته فقال: «من ثم كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء» (عب ٢: ١٧، ١٨). إن هذه الأعداد المبعثرة والمتناثرة لا تسمح لنا بأن نؤلف قصة حياة يسوع منذ ولادته إلى أن بدأ خدمته، ولذلك فإن هذه الفترة أي من ولادته إلى أن بدأ التبشير، تعد فترة مجهولة وغير معروفة لدينا، ولولا وجود هذه الأعداد القليلة جدًّا التي ذكرناها، لأصبح العهد الجديد كله خاليًا تمامًا، جزئيًّا وكليًّا، من كل ما يخص طفولة يسوع وشبابه.

ولقد اندهش كثير من الكتاب لصمت العهد الجديد عن الإفضاء لنا بالمزيد عن حياة يسوع الداخلية والخارجية في هذه الفترة، وسأل البعض أسئلة كثيرة وعديدة عن طفولة يسوع، كيف كان يعمل ويتصرف ويحيا؟ هل كان يذهب إلى المدرسة ويتعلم كباقي الناصريين؟ وما هي تصرفاته كطفل وكتلميذ وكشاب ثم كرجل نجار، وما هي تصرفاته كعامل؟

إن العهد الجديد لا يعطي لنا جوابًا على هذه الأسئلة، وعلى أسئلة كثيرة أخرى يمكن أن تطرح. إن كتاب العهد الجديد لم يحاولوا أن يكتبوا لنا قصة مفصلة عن حياة يسوع وعن ولادته إلى بداية التبشير. وذلك يرجع إلى أن الرسل لم يكن همهم كتابة قصة عن حياة يسوع الأرضية، يصفون فيها كيف كان الطفل يسوع يأكل ويشرب وينمو وينام، ويلعب ويدرس ويتصرف مع رفقائه... إلخ، بل كان هدف كتاب العهد الجديد هو أن يشرحوا لنا أن يسوع الناصري الذي ولد من مريم العذراء هو يسوع المسيح، المسيا المنتظر، المخلص الذي يخلص العالم من خطاياه.

إن هدف الأناجيل والرسائل هو تبيان حقيقة روحية هامة: هي أن يسوع الناصري ابن مريم، هو المسيح، المسيا الذي تنبأت عنه الكتب المقدسة. ولهذا السبب لم يحاول كتاب العهد الجديد وصف حياة يسوع الداخلية والخارجية، هذه الأمور التي تهم عالم النفس والاجتماع والجنس... إلخ. ولكنها لا تشغل عند كتاب العهد الجديد إلا حيزًا صغيرًا جدًّا على الهامش. ولذلك لم يسجل لنا هؤلاء الكتاب عن حياة يسوع في فترة السنوات الثلاثين الأولى إلا أعدادًا قليلة جدًّا.

ولهذا السبب حاولت الكتب الأبوكريفية، أو بعبارة أصح الأناجيل المزيفة، أن تنسج من الخيال قصة بل قصصًا عن حياة يسوع. فمنذ القرن الثاني الميلادي إلى القرن الخامس ظهرت عدة أناجيل ورسائل مزيفة نسبوها إلى بعض التلاميذ والرسل. ولقد حاولوا أن يقصوا في هذه الرسائل والأناجيل بعض القصص والحوادث التي يدعي هؤلاء أنها حدثت مع المسيح ومع أمه ويوسف. ومن هذه الكتابات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر: إنجيل توما، إنجيل يعقوب، إنجيل المصريين، تاريخ يوسف النجار، الإنجيل العربي، وإنجيل بطرس... إلخ.

وكل هذه الأناجيل مزيفة، ونُسب معظمها إلى بعض الرسل والتلاميذ لكي يسهل توزيعها وانتشارها. ولقد حاول كتابها أن يصفوا حياة يسوع ومعجزاته، ليس فقط المعجزات التي سجلتها لنا الأناجيل الأربعة المعروفة والمعترف بها، بل معجزات أخرى كثيرة تلونت بالطابع الخرافي. وكان هدفهم من ذلك، ملء الفراغ الذي تركه العهد الجديد بصمته عن التكلم عن طفولة وشباب يسوع.

ولقد انتشرت هذه الأناجيل في كنيسة القرون الأولى بطريقة سريعة وعلى نطاق واسع. بل إن بعضًا من هذه القصص الخيالية الخرافية المذكورة في هذه الأناجيل أصبحت لتسلية المسافرين للأغراض التجارية والسياسية والحربية، فإن المسافرين على ظهور جمالهم وخيولهم وعرباتهم القديمة البطيئة السير، كانوا يقصون على بعضهم في أثناء هذه السفريات الطويلة، قصصًا مسلية يميل معظمها إلى الخيال الخصب المشوق، إلى ما هو خارق للطبيعة. ولقد جذبت هذه الأناجيل المزيفة الكثيرين، ليس فقط المسافرين في رحلات طويلة، بل الآخرين أيضًا؛ إذ أنها تحتوي على قصص مسلية، خصوصًا القصص التي تتكلم عن طفولة يسوع والمعجزات التي كان يقوم بعملها وهو بعد ولد صغير. وخلط البعض قصص هذه الأناجيل المزيفة مع قصص الأناجيل القانونية (الأناجيل المعترف بصحتها وقانونيتها وهي الأناجيل الأربعة الأولى) (متى ومرقس ولوقا ويوحنا)، ظنوا أن هذه الأناجيل والكتابات المدسوسة وسط الأناجيل وكتابات العهد الجديد القانونية، هي أيضًا جزء من العهد الجديد. وكان تفكيرهم: كيف لا تكون جزءًا من العهد الجديد. وهي تصف لنا طفولة يسوع الطفل، ثم تحكي أيضًا المعجزات والخوارق التي عملها هذا الطفل؟ فبعض هذه الأناجيل حاول أن يصف لنا طفولة يسوع وكيف كان يعمل ويتصرف في طفولته، فالمعجزات كانت تصحبه أينما حل، وتخرج من بين يديه أينما امتدتا. وتحكي لنا هذه الأناجيل أن يسوع عندما كان ولدًا صغيرًا كان يأخذ من الطين الذي يلهو فيه وبه رفقاؤه، ويصنع منه شكلًا لعصفور وينفخ في هذه القطعة التي صنعها من الطين فتصبح عصفورًا يطير. وكان في استطاعته أيضًا أن يخبر أصدقاءه بما أكلوا وشربوا دون أن يراهم يأكلون أو يشربون.

هذه القصص انتشرت وذاعت بين الناس، وظن البعض أنها جزء من الأناجيل. وفي حقيقة الأمر ما هي إلا قصص وردت في الأناجيل المزيفة [(١)] مثل إنجيل توما، والإنجيل العربي وإنجيل الطفولة، وإنجيل المصريين[(٢)].

من هذا يتضح لنا أن هذه الأناجيل كانت مقروءة ومعروفة في بعض الأوساط التي كانت تعيش فيها الكنيسة، ولقد حاول كتّاب هذه الأناجيل كما سبق القول أن يكتبوا قصة عن طفولة وحياة يسوع، الأمر الذي لم يعره كتاب العهد الجديد اهتمامًا خاصًا. لأن هدف العهد الجديد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، هو أن يقدم لنا يسوع الناصري ابن مريم كالمسيح وكالمسيا وكالسيد، يسوع الناصري هو الله نفسه. هذه هي رسالة العهد الجديد والموضوع الأساسي الذي تحدث عنه الإنجيليون وكتّاب الرسائل. أما ما يخص حياة يسوع الأرضية في طفولته وشبابه وعلاقته مع أطفال قريته وعصره، كل هذه اعتبرها الإنجيليون وكتاب العهد الجديد أمورًا ثانوية. بل إن معظمهم فضل الصمت المطلق فيما يختص بطفولة وشباب يسوع. لهذا السبب لا نجد شيئًا في العهد الجديد يكلمنا عن طفولته غير بعض الشواهد القليلة جدًا المذكورة سابقًا. ولهذا السبب كتب المبتدعون بعض الكتب التي تتكلم عن طفولة يسوع وشبابه ونسبوها إلى التلاميذ والرسل، حتى تستطيع عن طريق هذه العناوين والأسماء المزيفة، مثل إنجيل توما، وإنجيل المصريين، إنجيل بطرس ... إلخ، أن تدخل إلى الكنيسة فتُقرأ وتُدرس وتُقبل كأناجيل قانونية رسولية، ولكن الكنيسة علمت بأن هذه الأناجيل لا تمت بصلة للرسل إذ أن معظم تعاليمها تختلف مع روح أسفار

(1) Jesus Selons le Coran. H. Michand Cahier. Theologiques 46 Edition De Cachaux et Niestlé, Suisse. P. 30- 32. (ص 30- 32).

(٢) راجع كتاب الأب بولس إلياس اليسوعي: يسوع المسيح شخصيته وتعاليمه ص ٣٥- ٤٢.

العهد الجديد. فالتعاليم الغنوسية تسيطر على كثير من هذه الأناجيل، وكما هو معروف فإن التعاليم الغنوسية تنكر ناسوت المسيح، ولذلك فهي لا ترى في يسوع إنسانًا حقيقيًا بل هيئة إنسان يأكل ويشرب وينام، وليس إنسانًا حقيقيًا يجوع ويعطش ويحتاج إلى النوم، بل كان يأكل ويشرب وينام متظاهرًا تحت هيئة بشرية غير حقيقية ولقد شبَّهوا جسد يسوع بالنور أو شعاع الشمس، فإن النور وشعاع الشمس يمكن لهما أن يخترقا لوحًا من الزجاج دون أن يكسرا هذا اللوح. وهذا ما حدث (بحسب تفسيرهم) لمريم العذراء التي احتفظت بعذراويتها (بالمعنى الحرفي للكلمة)، وهذا ما حدث أيضًا ليسوع في حادثة موته. فالمسيح لا يمكن أن يموت لأنه غير قابل بأي حال من الأحوال للآلام.

وإنجيل بطرس (إنجيل مزيف) يصف لنا حادثة موت المسيح فيقول! «فجاءوا بلصين وصلبوا السيد بينهما، ولكن السيد كان صامتًا كإنسان لايشعر بأى ألم»[١]. فقد رفض الغنوسيون عقيدة الصليب؛ لأنها لا تتفق ولاهوت المسيح. ولكنهم يفسروا عقيدتهم هذه إزاء مشكلة صلب المسيح، يقتبس الكثيرون منهم قصة سمعان القيرواني، ليس كما يذكرها الإنجيليون (مت ٢٧: ٣٢؛ مر ١٥: ٢١؛ لو ٢٣: ٢٦)، فلوقا يقول: «ولما مضوا به أمسكوا سمعان رجلًا قيروانيًا كان آتيًا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع» (لو ٢٣: ٢٦)، بل يقتبس الغنوسيون الأناجيل المزيفة التي تجعل من سمعان القيرواني الشخص الذي أخذ مظهر يسوع الناصري وهيئته، ولذلك وضع اليهود أيديهم عليه وصلبوه بدلًا من المسيح لأنه شبه لهم بأنه المسيح[٢]. ويوحنا في أعماله[٣] يصف لنا الشخص المعلق على الصليب والذي قال: «لست أنا يسوع المعلق على الصليب»[٤]. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة بالقول: « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا [١٥٧] بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» (سورة النساء ١٥٧- ١٥٨).

على أية حال لا نريد أن ندخل في تفاصيل هذه المشكلة، بل نود فقط أن نقول إن هذه الأناجيل المزيفة كانت معروفة ومقروءة في بعض المجتمعات التي كانت تعيش فيها الكنيسة. ولكن البعض من الذين سمعوا قصص هذه الأناجيل المزيفة واطلعوا عليها لم يميزوا بينها وبين الكتب القانونية المعترف بها، ولذلك استندوا عليها كجزء صحيح من الإنجيل. وفي حقيقة الأمر فإن كل هذه الكتب والأناجيل، ما هي إلا كتب وأناجيل مزيفة أدخلها المبتدعون تحت أسماء التلاميذ والرسل، لكي يعيشوا تعليمًا أو عقيدة خاصة. ويعوزنا الوقت لو تكلمنا عن كل هذه الأناجيل والكتب بالتفصيل وعن محتوياتها، وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر ظهر إنجيل جديد من صنع هذين العصرين «يدعى إنجيل برنابا»[٥].

(١) راجع كتاب Jésus Selon le Coran ص ٨٦- ٠٧ (النص الفرنسي).

(٢) راجع كتاب Jésus Selon le Coran ص ٧٦- ٠٧ (النص الفرنسي).

(٣) كتاب مزيف منسوب ليوحنا.

(٤) راجع كتاب الأب بولس الياس اليسوعي ٦٣- ٢٤.

(٥) راجع كتاب Jesus Selon le Coran ص ٦٦- ٧٦ ثم راجع أيضًا كتاب M. Hayek Le Christ de L'Islame. Paris, 1959. (ص ٢٢٤- ٢٣٠) ثم كتاب الأب بولس إلياس اليسوعي ص ٦٣- ٢٤.

فإن كانت الأناجيل الأربعة وبقية كتب العهد لم تحاول أن تعطي لنا وصفًا تاريخيًا كاملًا أو حتى جزئيًا، عن طفولة يسوع وشبابه، فذلك لأن رسالة هذه الكتب كانت مركزة على إعلان حقيقة أن يسوع ابن مريم هو ابن الله. إن هذه الكتب أرادت أن تعرفنا كما سبق القول بأن يسوع الناصري هو نفسه يسوع المسيح ابن الله، ولذلك لم يحاول كتابها أن يبحثوا عن البيئة التي نشأ فيها يسوع ولا عما كان يعمل في طفولته وشبابه، بل كان همهم هو أن يعلنوا أن يسوع هو المسيح، غير باحثين عن معرفة يسوع حسب الجسد كما يقول الرسول بولس: «إذًا نحن من الآن لا نعرف أحدًا حسب الجسد، وإن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد، لكن الآن لا نعرفه بعد» (٢ كو ٥: ١٦).

وفي نهاية هذا الفصل نحب أن نلفت نظر القارئ إلى نقطتين:

١- ماسبق أن قلناه لا يعني بأي حال من الأحوال عدم البحث والتنقيب في التاريخ والعلوم المختلفة عما يقوله التاريخ والعلوم عن يسوع.

٢- إن ما قلناه أيضًا عن الأناجيل والكتب المزيفة لا يعني أنها لازمة وضرورية وموحى بها، لأنها تتكلم عن طفولة وحياة يسوع، وعن أشياء أخرى كثيرة لم تتكلم عنها الكتب القانونية، بل إن هذه الكتب، كتب مزيفة قد نُسِبت إلى بعض التلاميذ وإلى بعض الرسل، والتلاميذ أبرياء منها. إلا أن هذه الكتب بالرغم من الأخطاء الكثيرة التي تنتشر في معظم صفحاتها والتي تدل على أنها من صنع بشر، مفيدة لفهم التيارات المختلفة التي كانت تحاربها كنيسة المسيح.

هذه لمحة خاطفة سريعة عن حياة يسوع عندما كان طفلًا وشابًا، ولنتقدم الآن إلى بحث نقطة هامة أخرى في حياة يسوع على الأرض وهي فترة خدمته العلنية.

الفصل الرابع

يسوع ومعاصروه
(خدمة المسيح العلنية)

في الفصل السابق اتضح لنا أنه من الصعب، بل من المستحيل كتابة تاريخ عن طفولة وشباب يسوع، بما تعني كلمة تاريخ من معنى علمي، وذلك لأن الأناجيل القانونية الأربعة وأعمال الرسل، والرسائل كلها، قد أسدلت ستارًا كثيفًا جدًّا على مدة السنوات الثلاثين الأولى من حياته. فالمراجع الإنجيلية القليلة جدًّا التي تتكلم عن طفولته وشبابه هي عبارة عن ثقوب صغيرة وضيقة في ستارٍ، لا تسمح لنا أن نكتب قصة كاملة عن طفولة يسوع وشبابه لأن هذه الآيات القليلة جدًّا، أو الثقوب الضيقة جدًّا والتي ننظر من خلالها إلى حياة المسيح، لا تسمح لنا، لقلتها أو لضيقها، بأن نكوِّن صورةً كاملةً واضحةً عن المسيح كطفل وكشاب. ولهذا السبب فإننا نجهل الكثير عن يسوع، من طفولته إلى سن الثلاثين. فلما بلغ يسوع سن الثلاثين، أزيح جزئيًّا الستار الذي كان يخفي خلفه يسوع. ويعطي لنا الإنجيليون وكتَّاب الرسائل، عن الفترة الثانية من حياته، أي من سن الثلاثين إلى موته على الصليب، بعض التفصيلات التي يمكن أن نعتبرها كثيرة ووافرة بالنسبة لما كتبوه عن الفترة الأولى من حياته، إذ أننا نلاحظ هذا الصمت الكامل وكأنه صمت متفق عليه من كل كتاب العهد الجديد عن الفترة الأولى من حياة يسوع. أما في الفترة الثانية فالإنجيليون يقدمون لنا السيد، ليس كالشخص غير المعروف والذي يقضي اليوم كله في حانوت نجارته أو عمله اليومي، أيًّا كان هذا العمل، دون شهرة أو صيت، بل يقدمونه لنا كالشخص الذي ذاع صيته وطارت شهرته إلى أماكن بعيدة. ومتى يقول: «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب. فذاع خبره في جميع سورية... فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن» (مت ٤: ٢٣- ٢٥).

والفترة الثانية من حياة السيد أو خدمته العلنية تبدأ عندما بلغ الثلاثين من عمره كما يقول القديس لوقا: «ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة...» (لو ٣: ٢٣). ونلاحظ هنا اتفاق التاريخ العالمي مع ما سجله لنا الوحي المقدس عن سن المسيح عندما بدأ خدمته العلنية. والتاريخ يعلمنا بأن حكم الإمبراطور أغسطس أول أباطرة روما امتد إلى سنة ١١م. وبعد ذلك تولى الحكم بطريقة رسمية والإمبراطور طيباريوس الذي في السنة الخامسة عشرة من سلطنته ظهر كل من يوحنا

ويسوع (لو ٣: ١). ولكي نعرف سن المسيح بطريقة صحيحة بحسب التواريخ العالمية نقول: امتد حكم أغسطس إلى سنة ١١ م +١٥ سنة من حكم طيباريوس= ٢٦ سنة، وبما أن المسيح ولد سنة ٤ ق.م تقريبًا، فيكون سن المسيح عندما بدأ خدمته العلنية هو حوالي ٣٠ سنة كما يسجله لنا لوقا البشير.

وقبل أن يظهر يسوع، جاء الذي قيل عنه بإشعياء النبي القائل: «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب، أصنعوا سبله مستقيمة» (إش ٤٠: ٣؛ ٥٧: ١٤؛ ٦٢: ١٠ ؛ مت ٣: ٣؛ مر ١: ٢- ٥؛ لو ٣: ٤-٦ ؛ يو ١: ٢٣)، فإن مهمة يوحنا كانت إعداد الطريق أمام المسيا، ولذلك فقد قال هو نفسه عندما سأله عن شخصيته الفريسيون قائلين: «من أنت لنعطي جوابًا للذين أرسلونا؟ ماذا تقول عن نفسك؟» قال: «أنا صوت صارخ في البرية قوموا طريق الرب كما قال إشعياء النبي»... ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه، هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه» (يو ١: ٢٢- ٢٨). وفي هذا الإعلان الذي أعلن فيه يوحنا عن نفسه بأنه ليس هو المسيا المنتظر، وما هو إلا ذاك الذي يعد الطريق أمام المنتظر، يقدم لنا المسيا الذي انتظرته الأجيال: «وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩).

وهنا يتقابل صاحب الصوت الصارخ في صحراء اليهودية والمعلن عن قدوم المسيا القريب، مع المسيا نفسه. إن هذه اللحظة، لحظة مقابلة يوحنا للمسيا يسوع، تعد من أعظم وأمجد اللحظات في تاريخ البشرية.

ذلك لأنه فيها قد تقابل ذاك الذي كان يعلن مجيء الأعظم، والأعظم نفسه: يوحنا الذي يمثل أنبياء العهد القديم وخاتمهم، الذين تنبأوا وانتظروا أجيالاً طويلة مجيء المسيا ولم يروه، والمسيا نفسه. ففي لقاء يسوع ويوحنا يتقابل وجهًا لوجه الصوت الصارخ والموعود به، النبي والمتنبأ عنه: يوحنا ويسوع. وعندما تقابل آخر نبي من أنبياء العهد القديم وأعظمهم، كما يقول عنه يسوع نفسه: «لأني أقول لكم إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان...» (لو ٧: ٢٨). مع المسيا المنتظر والموعود به، لم يسع هذا النبي إلا أن يقول بسرور عظيم: «إذًا فرحي هذا قد كمل، ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣: ٢٩- ٣٠).

لقد حدثت هذه اللحظه التاريخية العظيمة بين رب الأنبياء يسوع، وأعظم الأنبياء وخاتمهم في العهد القديم يوحنا، في اليهودية. وكانت اليهودية كبقية بلاد فلسطين قد وقعت تحت الحكم الروماني وسيطرته سنة ٦٣ ق.م. التاريخ الذي فتح فيه بومبي هذه البلاد واستولى عليها. ولقد سبق أن رأينا أنه عند ميلاد السيد كان هيرودس ملكًا على اليهودية (مت ٢: ١)، وترك الملك هيرودس وصية للإمبراطور أغسطس بأن تقسم مملكته بعد موته على أولاده الثلاثة، وفعلاً نفذ الإمبراطور وصيته، فأعطى لأرخيلاوس اليهودية والسامرة كما أنه منح الجزء الثاني من المملكة وهو الجليل لهيرودس أنتيباس مع لقب رئيس ربع أما الجزء الثالث من المملكة، والذي كان تابعًا لسوريا، فقد أسنده إلى الابن الثالث، وهو فيليبس ابن كليوباترا.

وعندما بدأ المسيح في خدمته العلنية، كان باقيًا من أولاد هيرودس في مناصبهم كحكام، فيليبس كرئيس ربع على أيطورية وكورة تراخونيتس ثم هيرودس أنتيباس كرئيس ربع على الجليل (لو ٣: ١).

وعندما نرجع إلى تاريخ الأمة اليهودية نرى أن الفترة التي بدأ فيها يسوع التبشير، كانت فترة اضطراب وقلق وعدم استقرار من الناحية السياسية والدينية، فإذا رجعنا إلى الوراء نرى أنه بعد موت هيرودس الكبير (سنة ٤ ق. م) تعرضت البلاد لعدة ثورات وهيجان شعبي ضد السلطات الرومانية، وخاصة الثورة التي قام بها يهوذا الجليلي في سنة ٦ م. فبالرغم من أن تاسيت يقول إنه في أيام طيباريوس كان كل شيء هادئًا، فإننا نعتقد بأن هذا الهدوء لم يكن إلا نسبيًا. ومع أن هذه الثورة أُخمدت إلا أنها كانت الأم لثورات أخرى قامت بعدها أقوى منها وأشد فتكًا وخرابًا ودمارًا، لأن الثورات التي قام بها المتعصبون دينيًا ومعظمهم من الغيورين، قد أطاحت في نهاية الأمر بأورشليم في سنة ٧٠ م[1].

وفي الفترة التي بدأ المسيح تبشيره، كان الصراع بين الرومان، الدولة الحاكمة المستعمِرة، وبين اليهود، الدولة المحكومة المستعمَرة، صراعًا قويًا وحربًا شعواء لا هوادة فيها. ونتيجة لهذا الصراع المسلح العنيف بين السلطات الرومانية المستعمرة وبين الشعب المستعمر المغلوب على أمره، تجددت الأحلام المسيانية، ونشطت الأحزاب الدينية والسياسية القديمة والحديثة، فكلما كان يزداد الضغط والظلم الروماني على هذا الشعب كلما كان يزداد اشتياقه لظهور المسيا وتكثر أحلامه بمخلص لتخليصه من قبضة هذا الروماني العاتي الظالم. فاذا استثنينا شيعة الصدوقيين التي كانت تضم عددًا كبيراً جدًا من طبقة الكهنة الأرستقراطية، والتي كانت متعاونة مع المستعمر ومؤيدةً لسياسته التي ترعى مصالحهم إذا استثنينا هذا الحزب، يمكننا أن نقول بأن كل الأحزاب والشيع الأخرى كانت ضد الحكم الروماني، وكانت تنتظر بفارغ الصبر مخلصًا على مثال موسى ويشوع ودبورة وجدعون ويفتاح وشمشون وماتاتياس ويهوذا وناثان سمعان... إلخ، فإن حزب الفريسيين وحزب الغيورين بنوعيه معتدل ومتطرف، كانا ضد الرومان، وكانا ينتظران ظهور المسيا. كذلك جماعة الأسينيين التي كانت تعيش في منطقة قمران، كانت هي أيضًا تنتظر بدورها تغييراً في الحياة الدينية. فإن حركة الغيورين التي بدأت سنة ٦ م. على يد يهوذا الجليلي، عرفت في أيام المسيح نجاحًا عظيمًا، وقد اتخذت من الجليل مركزًا لنشاطها، وهو مسقط رأس يهوذا المؤسس لهذا الحزب. فمن الجليل كان يرسل المخربون والمدمرون إلى نواحي الجليل واليهودية والسامرة، لكي يقوموا بعمليات الهجوم والتدمير والقتل والتخريب. والعمليات التخريبية التي قام بها الغيورون كانت موجهة ضد الرومان الذين يحتلون البلاد وضد أعوان المستعمرين، خصوصًا الطبقة الأرستقراطية الكهنوتية التي تواطأت، بل ومدت يد المساعدة والتعاون للمستعمر الروماني الوثني. على أنه يجب التمييز كما سبقت الإشارة إلى ذلك بين الحزب الغيوري المتطرف والحزب الغيوري المعتدل.

فإن الأول (الحزب المتطرف) قد أباح لنفسه استعمال كل الوسائل من غدر وقتل وسرقة للوصول إلى هدفه المنشود وهو الوصول إلى طرد الرومان من البلاد والحصول على الاستقلال الكامل لتأسيس المملكة أو الأمة الثيوقراطية - أي التي يحكم فيها الله بحسب المكتوب. أما الحزب الثاني (الحزب المعتدل) فكان يعمل هو الآخر على تحرير البلاد وحكمها حكمًا ثيوقراطيًا، إلا أنه لم يتفق ولم يشترك مع الحزب الأول في استعمال كل الوسائل الإجرامية، وخاصةً ضد اليهود الذين كانوا يتعاونون مع المستعمر (عملاء الاستعمار)، وعلى هذه النقطة انقسم حزب الغيورين إلى قسمين: الحزب المتطرف والحزب المعتدل وهذا

(1) David M. Rhoads. Israel. In Revolution. 6- 74 C.E.A. Political History Based Writing of Josephus. Fortress Press p. 65.

الأخير كان قريبًا في بعض اتجاهاته السياسية من حزب الفريسيين.

وبما أن حزب الغيورين المتطرف استعمل في سياسته أسلوب القتل والغدر والهجوم ضد الرومان وأعوانهم، فإن المستعمر لم يقف مكتوف الأيدي إزاء هذه السياسة والذين يتزعمونها، ولذلك قام الرومان بقمع هذه الحركات بكل الوسائل الممكنة، ولم يترددوا في ضربها بقوة ووحشية أينما وجدت. ويوسيفوس فلافيوس، المؤرخ اليهودي، يتكلم كثيرًا عن الغيورين والصراع المستعر بين الغيورين والرومان، ومن الطبيعي أن يوسيفوس كان يلقي دائمًا المسئولية على الغيورين في عمليات الهجوم التي كان يقوم بها الرومان ضد هذا الحزب، لأنه كان من أعوان وأتباع المستعمر الروماني. ومع أن كتّاب العهد الجديد تحاشوا أن يتكلموا بإسهاب عن هذا الحزب، إلا أنهم تكلموا عنه بطريقة موجزة، وستكون لنا فيما بعد الفرصة للتحدث عن ذلك. ولكن المهم هو أن نعرف أن هذا الحزب كان يحارب ويصارع ليس بدافع وطني فقط بل بدافع ديني أيضًا، ولهذا فإن كثيرين من هذا الحزب قد ادعوا أنهم المسيا المنتظر، وبهذه الصفه حاربوا الرومان وغدروا ببعض اليهود العملاء للرومان. ولقد ظن هؤلاء المسايا الكذبة أن مجيء ملكوت الله متوقف على سيوفهم وخناجرهم ومكرهم، فأمعنوا في استعمالها باسم المسيا والملكوت، كما فعل يهوذا الجليلي وأتباعه (أع ٥: ٣٦؛ ٢١: ٣٨).

ولذلك فإن السلطة الرومانية كانت تضرب بيد من حديد وبلا رحمة كل الحركات الوطنية والحركات المسيانية التي كانت تعتبرها عدوها الأول. ومن هذا الموقف السياسي الذي اتخذته روما ضد الحركات المسيانية، سنفهم أيضًا فيما بعد لماذا لم يتكلم المسيح كثيرًا عن مسيانيته، بل وفي بعض الأحيان كان يمنع تلاميذه من أن يتكلموا عن ذلك (مر ١: ٢٤- ٢٥، ٣٤؛ ٣: ١١- ١٢؛ ٩: ٨) وهذه السياسة الرومانية تشرح لنا أيضًا موقف المؤرخ يوسيفوس فلافيوس (فيما بعد).

وكيف أنه لم يتكلم عن المسيح كثيرًا حتى لا تخلط السلطات الرومانية بعد سقوط أورشليم بينه وبين المسايا الذين ظهروا في تلك الفترة.

مما سبق يتضح لنا أمران هامان جدًا: الأمر الأول، هو أنه عندما بدأ المسيح في الخدمة كان معظم الشعب اليهودي ينتظر بفارغ الصبر ظهور المسيا. والأمر الثاني: أن السلطات الرومانية كانت تعتبر أن كل حركة مسيانية حركة معادية للسلطات الرومانية وللإمبراطورية كلها.

ولذلك استعمل الرومان كل الوسائل في محاربتها والقضاء عليها أينما وُجدت. فمن الأمر الأول، نلاحظ أن الشعب اليهودي كان مُعدًا ومهيًأ لمجيء المسيا، فالقصص الشعبية التي كانت تتكلم عن المسيا وأعماله، وكيف أنه سوف لا يخلص شعبه من الاستعمار والاستعباد الروماني فحسب، بل بقوة يهوه ستصبح الأمم الوثنية مستَعبَدة للشعب اليهودي ومتعبدة لإلهه، وأن هذا سيتم عند مجيء المسيا الذي سيقوم بعمل المعجزات فتحل المشكلات السياسية والاقتصادية والدينية. ونستطيع أن نلاحظ هذا المفهوم، الذي كان منتشرًا بين الشعب اليهودي ومسيطرًا عليه، في الحوار الذي دار بين السيد والشيطان في التجربة على الجبل.

فالأناجيل الثلاثة تسجل لنا هذه القصة التي تشرح لنا بطريقة دقيقة المفهوم الشعبي السائد في ذلك العصر بخصوص المسيا والانتظارات التي كان يحلم بها الحالمون من اليهود. فليس عن طريق الصدفة أن الأناجيل الثلاثة تسجل لنا قصة التجربة (مت ٤: ١- ١١؛ مر ١: ١٢- ١٣؛ لو ٤: ١- ١٣)، بل وتفرد لها المكان الأول بعد حادثة العماد في حياة المسيح. وطريقة الحوار التي دارت بين يسوع وبين الشيطان تصور لنا بدقة آمال اليهود وأحلامهم في المسيا الذي سيأتي ليحرر شعبه. والقصة كما سجلها لنا القديس لوقا تحتوي على ثلاث تجارب حاول بها إبليس أن يجرب يسوع، والتجربة الأولى هي «إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا» (لو ٤: ٣) كان يسوع ناصريًا آي من منطقة الجليل (لو ٤: ١٦)، وهي المنطقة التي ولدت فيها الحركة المسيانية، بل وكانت تعتبر مركزًا من المراكز المسيانية الهامة. فلابد أن يسوع في أيام شبابه وفي أثناء عمله اليومي في هذه المدينة كان يتناقش مع شعبها، فهو يعرف كإنسان انتظارات هذا الشعب في المسيا وأحلامهم، ولابد أنه سمع بأخبار الثورات التي قامت في الجليل وأماكن أخرى، فعندما قام يهوذا الجليلي بثورته ضد الرومان، وحث اليهود على عدم دفع الجزية، كان المسيح قد بلغ العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. ولقد اعتبر البعض يهوذا الجليلي أنه مسيا أو على الأقل المهيئ لطريق المسيا.

ومن الأعمال التي كان لابد أن يقوم بها المسيا المنتظر، حل المشاكل الاقتصادية؛ فهوذا السيد الذي عاش في زمن طفولته في منطقة معروفة بانتشار النشاط الغيوري فيها يوجد الآن في الصحراء وجهًا لوجه أمام هذه التجربة التي يجتاز فيها الشعب، المسيا المنتظر والمشكلة الاقتصادية. ومما لا شك فيه أنه كان يعرف بل كان متأكدًا من مسيانيته. إنه هو ابن الله، فماذا يعمل، كمسيا وكابن الله الوحيد، إزاء هذا المفهوم السائد بأن المسيا يستطيع أن يحل المشاكل الاقتصادية بمعجزة عند مجيئه. مما لاشك فيه أن السؤال كان هدفه أن يزعزع إيمان يسوع في أبيه: «إن كنت ابن الله...». ولكن عندما ندرس الظروف التي كان يمر بها الشعب اليهودي في ذلك العصر نلاحظ أن للسؤال هدفًا آخر، وهو الانتظارات اليهودية التي كان ينتظرها هذا الشعب من المسيا المنتظر. كان الشعب المغلوب على أمره ينتظر حلاً اقتصاديًا لشعبه ولو بطريقة معجزية. إن المسيا لا يقل بأي حال من الأحوال عن موسى الذي استطاع أن يحل مشاكل الشعب الاقتصادية والمادية في الصحراء، ألم يعطِ موسى، بقوة الله وتدخله، لهذا الشعب، طعامًا في الصحراء القفر؟ فقد أرسل لهم السلوى التي صعدت وغطت المحلة فأكل الشعب وشبع (خر ١٦: ١- ٣٦). ألم يعمل موسى معجزة إرواء هذا الشعب العطشان؟ (خر ١٧: ١- ٧). ألم يعمل موسى هذه المعجزات ومعجزات أخرى كثيرة حلت بعض مشاكل هذا الشعب من الناحية الاقتصادية المادية؟ (خر ١٥: ٢٢- ٢٧).

فالمسيا هو أعظم من موسى، وحلوله للمشكلة حلول صحيحة جذرية، وإنجيل يوحنا يذكر لنا حادثة، بعد أن أجرى المسيح معجزة الأرغفة الخمسة والسمكتين تعبر بطريقة واضحة ودقيقة عن الآمال التي كانت تجول في خواطر هذا الشعب بخصوص المسيا المنتظر: «فجمعوا وملأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر من خمسة أرغفة الشعير التي فضلت عن الآكلين، فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم، وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويخطفوه ليجعلوه ملكًا انصرف أيضًا إلى الجبل وحده» (يو ٦: ١٣- ١٥).

كان الشعب اليهودي في ثورة وغليان، وفي ثورته وغليانه كان يبحث عن المسيا ليحل لهم المشكلة المادية الاقتصادية. وهنا يتقدم المجرب من السيد قائلاً له: «إن كنت أنت فعلاً ذلك الذي يجب أن يحرر هذا الشعب ويخلصه، إن كنت أنت المسيا، فاثبت مسيانيتك بأن تحل لهم هذه المشكلة الاقتصادية، فهم في حاجة ماسة لحل هذه المشكلة، وظروفهم تشبه الظرف الذي تجتاز أنت فيه الآن، فإن كنت أنت المسيا، فقل لهذا الحجر الذي يشبه في شكله قطع الخبز بأن يصير خبزًا، وبذلك تعرف أن أباك السماوي معك ويسمع لك، وبذلك أيضًا تستطيع أن تخدم هذا الشعب وتحل مشاكله المادية والاقتصادية». والمسيح الذي يعرف خطورة هذا الحل المادي وخبث المجرب ويقول له: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من الله» (لو ٤: ٤).

أما التجربة الثانية، أو الانتظار الثاني الذي كان يتوقعه كثيرون من اليهود عند مجيء المسيا، فهو عمل المعجزات الخارقة للطبيعة، وهنا أريد أن أتبع النظام الذي اتبعه متى، فهو يسجل لنا التجربة الثانية بدلاً من الثالثة في إنجيل لوقا، فيقول: «ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل. وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل» (مت ٤: ٥- ٧).

إن المسايا الذين جاءوا قبل وفي أثناء وبعد زمن يسوع، كان معظمهم يدعي عمل ما يبهر العين وما يستولي على المشاعر، ألم يحاول ثوداس نفس المحاولة عندما خرج على رأس عدد كبير من اليهود واعدًا إياهم بأنه بكلمة واحدة من فمه شيشق نهر الأردن إلى شطرين؟[1]

ألم يحاول أيضًا الغيوري المصري الثائر نفس المحاولة عندما وعد الشعب بأن أسوار أورشليم الشامخة ستسقط سجودًا تحت أقدامهم، عندما يعطي أمره بذلك؟ وماذا أقول عن سمعان ماجوس الذي حاول أن يطير في الهواء، طارحًا نفسه من على الهيكل، فسقط ومات في أثناء التجربة؟ فإن كثيرين من المسايا الكذبة اتبعوا هذا الطريق الذي يستحوذ على ألباب الناس ومشاعرهم.

ويسوع كان يعرف قصصًا كثيرة مماثلة لهذه الحوادث، ويعرف المفهوم الذي كان سائدًا ومسيطرًا على عقول الناس، ولذلك يتقدم إليه المجرب قائلاً: «إن كنت أنت فعلاً هذا المسيا المنتظر، فألقِ الآن بنفسك من على جناح الهيكل». ففي جناح الهيكل كانت توجد زاوية تطل على وادي قدرون وارتفاعها أربعمائة وخمسون قدمًا عن الأرض، وكأني بالمجرب يقول له: «إذا كنت أنت ذلك المسيا المنتظر، فلماذا لا تنتهز هذه الفرصة؟ وبما أنه مكتوب يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك..» فلن يصيبك شيء من الضرر، بل عندما يراك الشعب نازلاً عليهم طائرًا سوف يهللون لك، وتصبح أنت المسيا المنتظر. فإن كنت المسيا الحقيقي، فلماذا لا تلقي بنفسك لكي يؤمن بك هذا الشعب، فأنت تختلف تمامًا عن سمعان ماجوس؟»

وكان جواب المسيح على هذه التجربة التي كان يريدها إبليس والشعب اليهودي: «... لا تجرب الرب إلهك»، فإن الشعب

(١) راجع تفسير انجيل متى لوليم باركلي ٤: ٥- ٧.

اليهودي كان ينتظر مسيا قويًّا يبهر العقل والعين بأعماله ومعجزاته، الأمر الذي تجنبه المسيح في كل حياته. فكم من المرات عمل فيها المعجزات الخارقة للطبيعة! نراه يقف أمام إنسان مفلوج مريض، فيقول له مغفورة لك خطاياك، قم واحمل سريرك واذهب إلى بيتك (مر ٢: ٥، ١١)، ثم أمام أعمى فيعطي له البصر، فيبصر (يو ٩: ٦- ٧)، وهكذا كان المسيح يعمل المعجزات بسخاء عظيم لمن كانوا فعلاً في حاجة لهذه المعجزات، ولكن كم من المرات رفض المسيح أن يعمل المعجزات للذين كانوا يريدون أن يجربوه، لأنهم لم يكونوا في حاجة لهذه المعجزات، بل أرادوا أن يعرفوا هل هذا الشخص، يسوع الناصري، هو المسيا المنتظر الذي يجب أن يضع إسرائيل رجاءه الاقتصادي والسياسي فيه؟

فكم من المرات سأله الكتبة والفريسيون هذا السؤال: «يا معلم نريد أن نرى منك آية، فأجاب وقال لهم جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية...» (مت ١٢: ٣٨؛ مت ١٦: ١؛ لو ١٢: ٢٩).

وكان جواب المسيح القاطع المانع على هذه الأسئلة التي سألها الشيطان واليهود لكي يروا قوته: «لا تجرب الرب إلهك».

أما التجربة الثالثة أو الانتظار الشعبي الذي كان يتوقعه اليهودي عند مجيء المسيا فهو أن هذا الشعب المضطهد المغلوب على أمره، لن ينال الاستقلال والحرية فقط بمجيء المسيا، بل سيتسلط بدوره على أمم وشعوب. ولقد رجع الكثيرون من اليهود إلى بعض الفصول الكتابية التي تتكلم عن سلطان المسيا الروحي وفسروها تفسيراً حرفيًّا ماديًّا، مثل مزمور ٧٢ «أمامه تجثوا أهل البرية وأعداؤه يلحسون التراب... ويسجد له كل الملوك، كل الأمم تتعبد له...» (مز ٧٢: ١- ٩؛ إش ٤٩: ٢٣؛ ٤٠: ١- ٢؛ ٥٥: ٥؛ ٦١: ١).

بهذا المفهوم الذي كان سائدًا في وسط الشعب في تلك الفترة عن المسيا وعن عمله وعن مجيئه، يتقدم المجرب بهذه التجربة للسيد وهي أن يعطي له ممالك العالم ومجدها على شرط أن يسجد له.

والتجربة في حقيقة الأمر مغرية جدًّا لمسيا غيوري (من حزب الغيورين)، فإن هدف الغيوري هو أن يحرر البلاد من المستعمر الأجنبي بأية وسيلة، حتى باستعمال القوة والعنف والذبح والقتل والكذب والخداع... كل هذا جائز في تحرير الوطن. وهنا يتقدم الشيطان للسيد عارضًا عليه عرضًا يختلف تمام الاختلاف عن طريق عمل المعجزات لحل بعض المشاكل الاقتصادية: «إن كنت ترفض أيضًا عمل بعض الخوارق للطبيعة، التي عن طريقها يمكنك أن تظهر مسيانيتك، بقي أمامك أمر واحد، به تصبح مسيا، بل وعن طريقه تحصل على المجد والعظمة والقدرة، هو السجود لي. فلكي تخضع هذه الممالك والسلطات تحت قدميك، يجب عليك أن تستعمل العنف والقوة والسيف والحرب وسفك الدماء، كما فعل الذين قاموا ويقومون وسيقومون باحثين عن المجد والعظمة والسلطان، إنه لا تحرير لهذه البلاد إن لم تستعمل السيف وكل وسائل الحرب الحديثة، عليك إذن أن تنضم لحزب الغيورين المتطرف، اجمع شملهم حولك وكون منهم جيشًا حربيًّا قويًّا».

والمسيح، الذي تربى في مدينة الناصرة، يعرف بلا شك مراكز التدريب التي كانت تدرب الشباب وغير الشباب في مدن الجليل لكي يستطيعوا في يوم ما أن يحرروا الأراضي المحتلة وأن يمتد سلطان هذا الشعب، ليسيطر على شعوب أخرى كثيرة.

وهنا يقترح المجرب على المسيح السجود له، أي طريق العنف والقتل والتخريب وإسالة الدماء للوصول الى المجد... وأي مجد!

إن معاصري يسوع كانوا يعرفون هذه الأفكار المنتشرة والمعروفة عن المسيا، المسيا الذي سيسحق الأعداء ويحرر البلاد، أما المسيا الحقيقي فينظر إلى هذه الوعود الكاذبة الغاشة، فلا يرى فيها إلا سُمًّا قاتلاً لكل من اتبعها وأُغوي بها، ولا ينخدع بها إلا ضعفاء النفوس الذين يبحثون عن المجد الأرضي بأية وسيلة، ولذلك فهو يقول للمجرب: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد». فلو أطاع المسيح الشيطان في هذه التجربة، وسلك طريق العنف والسيف لتحرير هذا الشعب من قبضة المستعمر الروماني، فكيف كان يمكنه في المستقبل أن يحرر العالم كله من قبضة العدو العام - أي إبليس - الذي يريد أن يسجد المسيح له. أي أن يصير عبدًا له يخضع لسلطته وينفذ أمره؟ إن إبليس كان يريد بتجربته الأخيرة هذه أن يسلك المسيح كما سلك في الماضي كل الذين يضعون المجد الذاتي والملك الأرضي والنجاح والعظمة... إلخ. في المكانة الأولى. فالذين يضعون المجد الذاتي والملك الأضي والنجاح، في المكانة الأولى لا يتورعون عن استعمال كل الوسائل الشريفة وغير الشريفة، والكريمة وغير الكريمة، للوصول الى المكانة المرموقة. فلو سجد المسيح لإبليس، أي لو أطاع التجربة باستعماله القوة والعنف، فكيف كان يمكنه فيما بعد أن يقول لبطرس: «... رد سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (مت ٢٦: ٥٢).

إن المسايا الكذبة ظهروا في هذه الحقبة من الزمان، أي قبل وفي أثناء وبعد ظهور يسوع، كان معظمهم إن لم تكن أغلبيتهم الساحقة من الذين استعملوا السيف لكي يحرروا به البلاد المستعمَرة. واستعمال السيف والقوة تجربة قديمة كقدم الإنسان. ففي كل عصر، وفي كل مكان يتقدم إبليس إلى الإنسان مجربًا إياه بنفس التجربة التي جرب بها السيد، وهي استعمال العنف «... اسجد لي... فأعطيك جميع ممالك العالم ومجدها...» أليست هذه هي التجربة التي تجرب بها الدول الصغيرة والضعيفة والفقيرة من الدول الكبيرة والقوية والغنية؟ ألا تقترح هذه الدول الكبيرة التي تملك أسلحة فتاكة وحديثة وقنابل ذرية ونووية وهيدروجينية وطائرات حربية أسرع من الصوت، على الدول الصغيرة الفقيرة بأن تمنحها على شكل قروض أو هبات، أدوات الموت هذه إذا سجدت لها؟ وبهذا الاقتراح السخي الغني «فأعطيك ممالك العالم ومجدها»، انقاد كثيرون من المسايا الكذبة في العالم الحاضر، وخروا وسجدوا تكبيراً عند أقدام هذه الدول الكبيرة الغنية القوية، فأصبحوا يأتمرون بأمرها ويخضعون لسلطانها. إن هذه التجربة التي تجرب الدول الفقيرة والصغيرة في وقتنا الحالي، أي الحصول على الأسلحة والطائرات والمعدات الحربية، جرب بها السيد كمسيا: «فأعطيك جميع ممالك العالم ومجدها».

فالمسيح على جبل التجربة كان في صراع عنيف مع الشيطان؛ لأن الأفكار المسيانية التي سبقت الإشارة إليها، والتي كانت منتشرة ومعروفة في ذلك الوقت، تقدم لنا المسيا كالشخص الذي سيحرر إسرائيل من الأزمات الاقتصادية والسياسية، ولهذا السبب نرى المسيح على جبل التجربة وجهًا لوجه أمام هذه الأفكار والمعتقدات والانتظارات اليهودية الخاصة بالمسيا. إن هذه التجارب الثلاث تعكس لنا بطريقة واضحة الانتظارات التي كان اليهود يتوقعون تحقيقها عند مجيء المسيا. ويسوع الناصري، المسيا الحقيقي، كان واعيًا كل الوعي بهذه المعتقدات والأفكار والانتظارات اليهودية، ولقد رفضها رفضًا باتًا كما هو واضح من إجابته على تجربة الشيطان.

وبما أننا رأينا التجربة التي واجهت المسيا على جبل التجربة قبل أن يبدأ خدمته العلنية، يحسن بنا أيضًا، لكي تكتمل الصورة في أذهاننا، أن نلقي نظرة سريعة على أول عظة ألقاها يسوع. والإنجيل يعرفنا بأن يسوع جاء بعد هذه الفترة التي قضاها على الجبل في التجربة إلى الناصرة حيث كان قد تربى (لو ٤: ١٦)، وهناك في المجمع ألقى عظته الأولى. والنص الكتابي الذي قرأه يسوع وعلق عليه، كان من (إش ٦١: ١- ٣). ومما لاشك فيه، أن هذا النص كُتِبَ لكي يحيي الرجاء في قلوب الباقية من المسبيين بعيدًا عن بلادهم، ولكي يبعث في قلوبهم المنكسرة والحزينة المتألمة، بسبب السبي المرير، الأمل الذي سيحققه المسيا بمجيئه. والمسيا الذي يتكلم عنه هو المسيا الحقيقي. وذلك الشخص الذي كان يقرأ في المجمع هذا الفصل المذكور (إش ٦١: ١- ٣) كان هو نفسه ذلك المسيا الحقيقي، والذي يختلف جزئيًا وكليًا عن المسايا الذين يتصورهم كثيرون من اليهود. فإن هذا المسيا يتميز بصفاته الفردية عن كل المسايا الكذبة الذين سبقوه، وعن كل المسايا الذين سيأتون بعده، مغتصبين لأنفسهم هذا الشرف.

وكيف لا ينفرد المسيا الحقيقي، يسوع، بهذا الامتياز! ولوقا يقدمه لنا قبل التجربة، وبالتحديد في لحظة العماد، كالشخص الذي نزل عليه الروح القدس بطريقة وحيدة وفريدة، والآب نفسه يشهد له بالقول: «أنت ابني الحبيب بك سررت» (لو ٣: ١٥- ٢٢). فهنا يؤكد لوقا نزول الروح القدس بطريقة مرئية وملموسة: «ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة». ثم يقتبس لوقا الفصل الذي يتكلم عن المسيا والذي يبدأ بهذه الكلمات: «روح الرب عليَّ»، فهذا الروح الذي نزل عليه بهيئة مرئية ملموسة، هو نفسه الروح الموعود به في إشعياء.

فرسالة المسيا الحقيقي هي رسالة بشارة للمساكين، رسالة شفاء لمنكسري القلوب، رسالة انطلاق وتحرير للمأسورين والمنسحقين، رسالة بصر للعمي. وملخص رسالة المسيا الحقيقي هو إعلان سنة الرب المقبولة، أي إعلان عهد جديد، عالم جديد. ويستعمل اليونانيون للتعبير عن هذه الحالة كلمة «أون» (عالم)، فإن العالم القديم مضى ويبدأ الآن عالم جديد. إن المسيا الحقيقي جاء وبمجيئه حل عالم جديد، فالإنسان يدخل الآن في عصر جديد، وهذا العصر هو سنة الرب المقبولة التي يبدأ بها عصر المسيا. وسنة الرب المقبولة التي يتكلم عنها سفر اللاويين، هي سنة الغفران والتحرير من الديون ومن العبودية (لا ٢٥: ٩- ٢٢). فبهذا العصر، أي سنة الرب المقبولة، ليس فقط الأشياء القديمة قد مضت وتلاشت، ولكن «هوذا الكل قد صار جديدًا». وكيف لا يصير الكل جديدًا وقد فتح المسيا أبوابًا جديدة بمجيئه، وبعض هذه الأبواب الجديدة التي فتحها المسيا الحقيقي هي: «أن الخلاص يقدم للجميع». صحيح أن المسيح في بداية رسالته وإرساله للتلاميذ إلى إسرائيل أعطى الأولوية لليهود، حيث قال لهم هذه الكلمات: «إلى طريق الأمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٠: ٥- ٦). إن متى الكاتب اليهودي يشدد كثيرًا على أهمية شعب الله، وهذا لا يعني إقصاء الشعوب الأخرى عن الخلاص، فإن الأمر الذي أعطاه السيد هنا لتلاميذه انما يبين الأولوية المعطاة لهذا الشعب، فإن المسيح أراد في بداية خدمته أن يهتم التلاميذ في تبشيرهم بشعب الله وذلك لعدة أسباب:

١- إن التلاميذ يهود، فمن السهل عليهم في بداية خدمتهم - لأن هذه الحملة التبشيرية التي أرسلوا فيها كانت الحملة الأولى - أن يبشروا يهودًا مثلهم.

٢- إن المسيح جاء أولاً إلى خاصته، لكي يمنح هذه الخاصة الخلاص ولكي تكون هي أيضًا بدورها مبشرة بهذا الخلاص للأمم، كما يقول لوقا: «نور إعلان للأمم ومجدًا لشعبك إسرائيل» (لو ٢: ٣٣). ولكن مجيئه إلى خاصته لا يعني أنه لم يأتِ إلا لخاصته، بل يريد متى أن يثقل المسئولية على هذا الشعب الذي منه جاء المسيح، وكأني به يقول: «المسيح جاء منكم وإليكم أولاً لكي تكونوا أنتم أيضًا السابقين في قبوله وقبول رسالته وإعلانها للأمم التي تحيط بكم».

ولكن للأسف الشديد، إن هذا الشعب الذي منه جاء المسيا لم يقبله. ويوحنا يقول: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه» (يو ١: ١١، ١٢).

فمجيء المسيا فتح الباب أمام الشعوب، وهذا واضح كل الوضوح من طريقة كتابة إنجيل لوقا، الإنجيل الذي يقدم لنا المسيا «المسيح» مخلصًا لكل الشعوب «ابن آدم» (لو ٣: ٣٨). والجدير بالذكر أن لوقا عندما يقتبس النص المذكور في إشعياء، يسقط بطريقة اختيارية وعمدًا جملة لها معنها، فنص إشعياء يقول: «لأنادي بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لإلهنا...» أما لوقا فيقول: «وأكرز بسنة الرب المقبولة!» لأن يوم الانتقام لإلهنا، كان في مفهوم اليهود هو اليوم الذي ينتقم فيه الرب من أعداء شعبه، وأعداء شعب إسرائيل هم أولاً الذين سبوا هذا الشعب، ثم كل الشعوب التي لا تقبل يهوه كإله. من هذه الشعوب سينتقم الله لشعبه، أي من الأمم، الأمر الذي يمكن تطبيقه على الرومان واليونان. ولهذا السبب يحذف لوقا هذه الجملة من النص المقتبس لكي لا يقفل الباب أمام الأمم، ومما يؤيد قولنا هذا، موقف اليهود من أول عظة ألقاها السيد في مجمعهم. فماذا كان موقفهم من هذا الشخص ومن عظته؟ «فامتلأ غضبًا جميع الذين في المجمع حين سمعوا هذا فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل» (لو ٤: ٢٨- ٢٩). والسؤال الذي يطرح نفسه أمام هذا الموقف الغريب هو لماذا هذا الشغب وهذه الثورة؟ ماذا قال المسيح في عظته الأولى حتى ثار شعب مدينته ومسقط رأسه ضده؟ إن ما أثار غضب هذا الشغب هو أن المسيح فتح الباب أمام الأمم. بل والأكثر من ذلك، أنه قد بين لهم أنه بينما كان إسرائيل كله يئن من الجوع والعطش بسبب إغلاق السماء ثلاث سنوات ونصف لغضب الله على هذا الشعب، أرسل الله نبيه إلى امرأه أجنبية بعيدة عن رعوية إسرائيل لكي تعوله وتقوته، وهذا يعني أنه في الوقت الذي كان غضب الله معلنًا على إسرائيل. قد فتح نعمته لأرملة صرفة صيداء لكي تكون مثلاً لنعمة الله المجانية المقدمة ليس فقط لإسرائيل بل للأمم أيضًا. ويواصل السيد عظته فيقتبس مثلاً آخر وهو مثل نعمان السرياني، ونعمان السرياني لم يكن أجنبيًا عن رعوية إسرائيل فحسب، بل كان من قادة الجيوش التي تهاجم إسرائيل (ألم يتخذ نفس الشعب نفس الموقف تجاه عظات عاموس ١: ١- ١٥؛ ٢: ١- ١٦).

وبهذين المثلين أراد المسيح أن يفتح الباب على مصراعيه أمام الأمم، ولهذا السبب حذف لوقا عمدًا من الاقتباس الذي سبقت الإشارة إليه عبارة: «بيوم انتقام لإلهنا»، كما أنه سجل لنا بتدقيق مثل أرملة صرفة صيداء (١مل ١٧: ٨- ١٦)، ومثل

نعمان السرياني (٢مل ٥: ١- ١٩) لكي يعرفنا أن سنة الرب المقبولة هي سنة جديدة وأن المسيا الحقيقي هو مسيا عالمي، رسالته موجَّهة إلى كل شعب وكل جنس وكل أمة وكل لسان. فمع أنه يهودي، وولد في بيت لحم اليهودية، لكنه لم يأتِ لليهود ولليهودية فقط بل جاء إلى العالم كله، وهو نفسه الذي يقول فيما بعد: «ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن آتي بتلك أيضًا فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة لراعٍ واحد» (يو ١٠: ١٦). ومن الغريب العجيب أن لوقا ويوحنا يسجلان لنا رد فعل متشابهًا بعد أن سمع الشعب هذا الإعلان بخصوص فتح الباب للأمم، فلوقا يعرفنا بأن الذين كانوا في المجمع أرادوا أن يطرحوه من حافة الجبل، ويوحنا يقول: «فتناول اليهود أيضًا حجارة ليرجموه» (يو ١٠: ٣١). وكيف لا يثور هؤلاء اليهود الذين كانوا يسمعونه، عندما يدركون أن يسوع يعلم بأن الله ينظر بعين الرضا إلى مثل هذه التعاليم في مجتمعهم الذي كانت تسيطر عليه القوت الرومانية؟ ألا تُعتَبَر هذه خيانة لإسرائيل وتعاونًا مع العدو؟ ولهذا فقد ثار اليهود عند سماعهم لأول عظة لمعلم الناصرة، وأرادوا أن يتخلصوا منه محاولين أكثر من مرة أن يقتلوه (مر ٨: ٥٩؛ ١٠: ٣١؛ لو ٤: ٢٨، ٢٩).

ومما لا شك فيه أنه توجد أسباب كثيرة أخرى عقائدية لم يتفق فيها يسوع واليهود، دفعت هؤلاء لمناصبته العداء والبحث عن طريقة لقتله والتخلص منه. فلا يمكننا القول بأن السبب الوحيد الذي دفع اليهود إلى مقاومة يسوع وصلبه في نهاية الأمر أنه لم يكن مسيا على مثال الغيورين، ولهذا السبب وحده ناصبه اليهود العداء. ولكن هذا السبب مهم جدًا ومن الأسباب التي دفعت كثيرين من اليهود أن يقفوا ضده، بل أن بعضهم ضم صوته مع رؤساء الكهنة عندما صرخوا قائلين: «اصلبه، اصلبه».

إن الأناجيل ركزت كثيراً على أن العداء الذي كان قائمًا بين يسوع واليهود يرجع سببه إلى أن السيد نادى بتحرير الإنسان من حرفية الناموس (لو ٦: ١- ١٦) والطقوس البالية القديمة التي هي من صنع الإنسان والتي أصبحت قيودًا ثقيلة عليه. والأناجيل تكلمنا عن الويلات التي صبها المسيح على رياء الكتبة والفريسيين (مت ٢٣: ١- ٣٧)، وتكلمنا أيضًا عن مقاومته لسياسة الصدوقيين ومعتقداتهم. ولكن هذه الأناجيل لا تذكر لنا إلا القليل جدًا، وبلا تفصيل، عن جماعة الغيورين، كما أن هذه الأناجيل لا تذكر لنا ولا كلمة واحدة عن جماعة قمران ولا عن معتقداتها وطريقة عبادتها ونظامها، ومع ذلك فإن هذه الجماعة كانت معروفة في ذلك الوقت. صحيح أن أعضاء هذه الجماعة لم يتعدوا الأربعة آلاف عضو في أيام المسيح، إلا أن أربعة آلاف عضو يمكن أن تكون جماعة لها تأثيرها وكيانها وقوتها ودستورها، الأمر الذي كنا نجهل الكثير عنه إلى سنة ١٩٤٧. فكل ما كنا نعرفه عن جماعة الأسينيين هي بعض الكتابات الموجزة جدًا التي كتبها فيلو الإسكندري (٥٤ م.) وفيلافيوس ويوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير (٣٧- ٩٥م) عن هذه الجماعة [1].

هذه هي المعلومات الضحلة التي كنا نملكها عن جماعة قمران من الناحية التاريخية، والتي لم يتكلم عنها الإنجيليون، لا

(١) لقد ظهرت جماعة الأسينيين في حوالي ما بين سنة ١٦٠ وسنة ١٣٠ ق. م ومؤسسها «معلم الحق»، ولقد حاول القيام بإصلاح أخلاقي اجتماعي عن طريق التمسك بالشريعة. ولقد حاولوا مع الفريسيين تحرير البلاد من قبضة المستعمر الهليني، ولكنهم فشلوا في تحقيق هذا الأمر. ولذلك فقد لجأوا إلى دير قمران وأسسوا هناك جماعة تنتظر في صلاة وصبر ظهور «معلم البر». كان الأسينيون يعيشون في جماعات صغيرة أو كبيرة في المدن والقرى، وكان كل شيء بينهم مشتركًا، كان يمكن للعضو في الجماعة أن يكون متزوجًا أو أن يظل بتولاً إن رغب في ذلك. كان أيضًا على العضو أن يظل عامين تحت الاختبار فإذا نجح بعدهما يسمح له بالاشتراك مع الآخرين في بعض الفرائض والشعائر الدينية. وبعد الامتحان والقسم كان يسمح له أن يتناول الطعام على المائدة مع الإخوة. تمسك الأسينيون كثيراً بحفظ السبت والطهارة الخارجية، الإيمان بالثواب والعقاب، ثم الامتناع عن تقديم الذبائح الدموية. (راجع كتاب الأب بولس إلياس اليسوعي ص ١٤٠- ١٤٥).

من قريب ولا من بعيد، كما لو كانت هذه الجماعة غير موجودة، إلى أن ضل خروف من قطيع الراعي الشاب محمد الديب، فأخذ في البحث عن هذا الخروف الضال، وفي بحثه عنه وجد فتحة في الجبل فبدأ يلهو بإلقاء بعض الأحجار فيها، ولكنه فوجئ بسماع صوت تكسر إناء في الداخل، فأسرع إلى داخل الكهف حيث وجد هناك هذه المخطوطات العظيمة. حوالي ٥٠٠ مخطوطة تضم عددًا كبيرا من أسفار العهد القديم. ويحتمل أن كتابة هذه المخطوطات يرجع تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد (فيما بين ١٦٠- ١٣٠ ق. م.) منذ هذا التاريخ أي سنة ١٩٤٧ والعلماء يحاولون دراسة هذه المخطوطات وتفسيرها. فكما أن الأناجيل لا تذكر لنا شيئًا عن هذه الجماعة اليهودية التي كانت معاصرة ليسوع، فإنها لا تذكر أيضًا إلا القليل جدًّا عن الغيورين، وهم جماعة أخرى سبق أن ألقينا نظرة سريعة على نشاطها ومعتقداتها الدينية واتجاهاتها السياسية. وجماعة الغيورين كانت معاصرة ليسوع ومنتشرة في بلاد كثيرة في فلسطين وخاصة في الجليل. ولكن الفرق واسع وشاسع بين هاتين الجماعتين، فإن جماعة قمران كانت تنتظر في صمت وصلاة وتأمل مجيء «معلم البر». أما جماعة الغيورين، خصوصًا الغيورين المتطرفين الذين كان هدفهم تحرير البلاد من المستعمر الروماني، فقد أباحوا لأنفسهم كل الوسائل المتاحة المشروعة وغير المشروعة من قتل وسرقة واغتيال في سبيل تحرير البلاد من يد الرومان. ولهذا السبب، كان هذا الحزب - حزب الغيورين المتطرف - في صراع مستمر ودائم مع السلطات الرومانية التي كانت تطاردهم وتريد القضاء عليهم نهائيًا، لأنها كانت تدرك جيدًا بأن هذا الحزب منبع الاضطرابات السياسية والدينية والاجتماعية. ومع أن حزب الغيورين المتطرف كان، على ما يبدو، في أهميته العددية أقل من حزب الفريسيين وأقل أيضًا من حزب الصدوقيين، إلا أنه استطاع أن يحتل مكانة هامة في الحياة اليومية للرومان واليهود الذين كانوا يتعاونون معهم، بسبب هجماتهم المسلحة المفاجئة، فردية كانت أم جماعية. وكانت القوات الرومانية دائمًا على أهبة الاستعداد لقمع وضرب الغيورين أينما وجدوا، فكم من المرات هجم الجيش الروماني على البيوت والأماكن التي لجأ إليها هؤلاء الغيورون بعد قيامهم بوثبات هجومية على الرومان.

وكم من المرات أيضًا صلب فيها الرومان أعدادًا كبيرة من الغيورين الثوار. وفلافيوس يوسيفوس المؤرخ اليهودي كتب بإفاضة عن هذا الموضوع [1].

من هذا يتضح أن حزب الغيورين لم يكن حزبًا مجهولاً غير معروف، بل على العكس كان هذا الحزب موضوع الأحاديث اليومية في أيام المسيح، ولكن بالرغم من شهرته، والثورات التي قام بها تحت اسم الدين ولأجل الدين اليهودي، نلاحظ صمت يسوع عن هذه الجماعة. ألم يوجه بعض النقد والويلات إلى جماعة الكتبة والفريسيين والصدوقيين ولكنه لم يتكلم عن الغيورين. ومع ذلك فقد قبل المسيح بعضًا من الغيورين كتلاميذ له. وهنا أمام صمت يسوع والإنجيليين على هذه الجماعة نتساءل: لماذا هذا الصمت؟ هل كان يسوع ضد هذا الحزب أم مؤيدًا له؟

(١) انظر كتاب S. G. Brandon بعنوان Jesus et le Zelotes ص ٢٤- ٤٧.

الفصل الخامس

يسوع والغيورون

قبل أن نبدأ البحث في السؤال الخاص بموقف يسوع إزاء الغيورين، نود أن نذكر القارئ الكريم بأن هذا الحزب كان يحتوي على حزبين أو أكثر كما سبق أن أشرنا. ويمكن تلخيص الكلام عنهم الآتي: (١) الحزب الشمالي (٢) الحزب الشمالى المتطرف جدًا (٣) الحزب الشمالي المعتدل، وهو الحزب الذي كان يتفق على طول الخط، من الناحية الدينية والعقائدية، مع جماعة الكتبة والفريسيين فيما يختص بالعقيدة الدينية والانتظارات المسيانية، إلا أنه لم يتفق مع المتطرفين في استعمالهم العنف والقوة وخاصة ضد اليهود الذين يتعاونون مع الرومان، ومع أن هذا الحزب المعتدل كان يساند ويدافع عن المتطرفين إلا أنه لم يشترك معهم في عملياتهم الهجومية.

أما الحزب الغيوري المتطرف أو حزب السيكر (SICAIRES) فهو حزب ديني وطني اتخذ كمثال له في نضاله وحربه ضد العدو الروماني، فينحاس (عد ٢٥: ٦- ١٣) وماتاتياس الكاهن المكابي (١مكا ٢: ١- ٧٠). وكان برنامجه يحتوي على عدة نقاط يمكن تلخيصها في الآتي:

(١) جلاء المستعمر جلاءً كاملاً وعاجلاً عن الأراضي المحتلة.

(٢) جعل الأمة اليهودية أمة ثيوقراطية (أي دولة، الحاكم فيها هو الله).

(٣) الإصلاح الديني إصلاحًا جذريًا بتغيير الأوضاع القائمة، وخاصة تغيير طبقة الكهنة الأرستقراطية المتعاونة مع المستعمر. وهنا يتفق الغيورون مع جماعة الأسينيين (جماعة قمران) التي انفصلت عن بقية اليهود ولم تقبل الاشتراك في الخدمات الدينية، التي كانت تقام في الهيكل، ولا في تقديم الذبائح، بل ومنعت تقديم الذبائح لأنها كانت تعتقد بأن الذين يقومون بممارسة هذه الفرائض غير أكفاء من الناحية الروحية والقانونية ولا ينتسبون إلى سبط الكهنوت الحقيقي، ولذلك فقد انعزلت جماعة قمران في ذلك الوادي منتظرة قلب الأوضاع الراهنة.

وحملة الحفريات التي قامت بها جماعة من العلماء الإسرائيليين في سنة ١٩٧٣ كشفت لنا عن أنه كانت توجد علاقة

وثيقة بين الغيورين والأسينيين. كما أن بعض العلماء يعتقدون بأنه كانت توجد أيضًا علاقة بين الغيورين والمسيحية في نشأتها الأولى[1]، وسنرجع إلى هذا الأمر في حينه. ولكن الذي يهمنا هو أن نبين أن حزب الغيورين حاول استعمال التوراة والسيف في آنٍ واحد لمحاربة اليهود الفاترين أو المسالمين ثم الرومان المستعمرين [2].

كانت هذه الأحزاب كلها: حزب الفريسيين وحزب الأسينيين وحزب الغيورين، معتدلين ومتطرفين، ينتظر تغييرًا دينيًا وسياسيًّا للمجتمع. وكانت هذه الأحزاب خصوصًا حزب الفريسيين وأحزاب الغيورين تنتظر مسيا، المسيا الذي سيخلص إسرائيلَ من هذا الذل والاستعمار. فالغيورون خصوصًا الغيورون المتطرفون كانوا ينتظرون المسيا، ولم يكونوا ينتظرونه وهم مكتوفو الأيدي، بل استعملوا قوتهم وخططهم السياسية والهجومية لكي يعجلوا بمجيئه.

من هذا يتضح لنا أن حزب الغيورين كان حزبًا معروفًا وله أهميته وثقله وتأثيره على الرومان وعلى اليهود أنفسهم، ليس فقط من الناحية السياسية بل أيضًا من الناحية الدينية، بل إن الذي دفع هذا الحزب إلى الوجود، كان الرغبة القوية في الدفاع عن الدين. ألم يكن المؤسس له هو يهوذا الجليلي الذي رفض أن يدفع الجزية للرومان وجال في طول البلاد وعرضها مناديًا بأن دفع الجزية للأجنبي المستعمر يعتبر كسرًا لناموس موسى، لأن الخضوع للأجنبي يعتبر خيانة ليهوه؟ فلكي تظل الأمة اليهودية خاضعة ومتعبدة ليهوه وحده صاحب السلطان المطلق على إسرائيل يجب ألا تدفع الجزية. وهكذا تبع هذا الحزب، منذ ولادته سنة ٦ م. إلى يوم القضاء عليه في خراب أورشليم سنة ٧٠ وفي ماسادا، سياسة عدم الخضوع للأمة الرومانية وعدم إطاعتها.

وعندما نتكلم عن الغيورين يعترضنا هذا السؤال: ما هو سبب صمت يسوع عن التكلم عن الغيورين بطريقة واضحة وصريحة كما تكلم عن الكتبة والفريسيين؟

إن الأناجيل الثلاثة الأولى تذكر لنا اسم سمعان الذي يلقبه متى ومرقس باسم سمعان القانوي (مت ١٠: ٤؛ مر ٣: ١٨) ولوقا يعطي له لقب سمعان الغيور «وسمعان الذي يدعى الغيور»، وأعمال الرسل الذي كتبه لوقا الإنجيلي يقول أيضًا «وسمعان الغيور» (لو ٦: ١٥؛ أع ١: ١٣). إن بعض المفسرين، وهم قلة قليلة جدًّا، يظن بأن كلمة غيور لا تعني بأنه كان من حزب الغيورين، بل هي صفة أضيفت إلى سمعان لكي تصف غيرته هو وحماسته لعمل الرب، كما يقول بولس الرسول واصفًا نفسه وغيرته للرب «وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي» (غل ١: ١٤) «وكنت غيورًا لله كما أنتم جميعكم اليوم» (أع ٢١: ٢٠؛ ٢٢: ٣). والذين يتمسكون بهذا الرأي يظنون أن حركة الغيورين الثورية لم تعرف في فلسطين إلا في سنة ٦٦ م.[3] وهذا الفكر غير صحيح من الناحية التاريخية لأن لقب غيور قد أُعطي ليهوذا الجليلي. صحيح أن الثورة الكبرى التي قام بها الغيورون اندلعت عام ٦٦ م، ولكن لم تكن هذه الثورة هي السبب في إطلاق اسم «غيور» على الثوار بل أن الغيورين، وهم أحفاد وأتباع يهوذا الجليلي الغيور، قد لقبوا بهذا اللقب

---

(١) راجع كتاب Le Judaism et le Christianism – M. Simon et A. Beniot. (ص ١١٢- ٥١٢).

(٢) Jesus et les Revolutionnaires de son Temp Oscar Cullmann 2. Mythe ; Guignebert. (ص ١٧١- ١٠٢).

(3) The Interpreter's Bible, Luke 6, 15.

من سنة ٦ م. ولذلك يرى الكثيرون من المفسرين أن سمعان الغيور الذي يذكره لوقا في إنجيله (٦: ١٥) كان فعلاً من حزب الغيورين، بل يحتمل، كما ظن هؤلاء المفسرون، أن سمعان الغيور الذي كان قبلاً عضوًا في هذا الحزب قد رأى في يسوع المسيا الروحي وفي الوقت نفسه المسيا السياسي الذي سيخلص إسرائيل من الاستعمار الأجنبي. وبما أن كثيرين من اليهود كانوا ينتظرون مجيء المسيا في ذلك الوقت، فقد ظن سمعان أنه وجد في يسوع المسيا الذي يبحث عنه. والذين ينادون بهذا الرأي، يعتقدون بأن سمعان لم يكن التلميذ الوحيد الغيور، بل رأوا في يهوذا غيورًا قد خابت آماله في سيده. على أية حال سنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد. والسؤال الذي يجب أن نطرحه الآن هو الآتي:

ما هو موقف الغيورين من يسوع؟

عند دراستنا لتاريخ الفكر المسيحي، نلاحظ أن البعض من الكتاب أعتقد بأن كثيرين من الغيورين رأوا في يسوع الناصري شخص المسيا السياسي المنتظر. والذين يتبعون هذه النظرية يرون في سمعان الغيور واحدًا من هذا الحزب. انضم إلى تلاميذ يسوع. كما أن هؤلاء رأوا أيضًا في يهوذا الإسخريوطي غيورًا من الحزب المتطرف. ولقد حاولوا أن يقدموا لنا صورة سوداء جدًّا ليهوذا، حتى يجعلوا هذه الصورة مطابقة لصورة غيور متطرف. ولكي يثبتوا نظريتهم هذه رجعوا كثيرًا إلى إنجيل يوحنا الذي يقدم لنا صورة أكثر سوادًا ليهوذا من الأناجيل الثلاثة الأولى، لأن يوحنا، في كل مرة تقريبًا يذكر اسم يهوذا، يذكره بتعليق سيء مشين. ونلاحظ هذا بعد عظة السيد في مجمع كفر ناحوم وكيف أن يسوع أشار إلى قوم لا يؤمنون بكلامه: «ولكن منكم قوم لا يؤمنون» ويفسر يوحنا قصد يسوع بالقول: «لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه... أجابهم يسوع أليس أني أنا اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطان»! قال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي. لأن هذا كان مزمعًا أن يسلمه وهو واحد من الاثني عشر» (يو ٦: ٦٤- ٧١). وعلى ما يبدو، كما يعتقد البعض، أن الشكوك في مسيانية يسوع الناصري، الذي حلم به كثيرون من اليهود خصوصًا الغيورين. بدأت تساور يهوذا الإسخريوطي بعد أن سمع في كفر ناحوم عظة السيد عن خبز الحياة الذي سيكون طعامًا للآخرين. فكيف يمكن أن يكون المسيا ذبيحة، ونحن نريد مسيا عسكريًّا قويًّا يحرر من العدو؟ وقد ازدادت شكوكه في مسيانية يسوع عندما سمعه يأمر بطرس بدفع الجزية للمستعمر (مت ١٧: ٢٤- ٢٧)، ومن هذا الوقت بدأ يهوذا يفكر في هجرة يسوع. ويوحنا يقول لنا عنه عند مناسبة العشاء: «فبعد اللقمة دخله الشيطان» (يو ١٣: ٢٧). فبالرغم من وجوده مع يسوع، ظل على ما كان عليه قبل مقابلته، فقد ظل ذلك الشخص السارق واللص، وتظهر هذه الروح في حادثة مريم عندما دهنت قدمي الرب بالطيب، «فقال واحد من تلاميذه وهو يهوذا سمعان الإسخريوطي المزمع أن يسلمه لماذا لم يبع هذا الطيب بثلاثمائة دينار ويعطي للفقراء. قال هذا ليس لأنه كان يبالي بالفقراء بل لأنه كان سارقًا وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يلقي فيه» (يو ١٢: ٥- ٦).

فعندما أدرك يهوذا أن يسوع ليس هو المسيا السياسي المنتظر بحسب المفهوم الغيوري، أي ذلك الذي يتزعم حزب الغيورين حاملاً سلاحه وقائدًا جيشه لتحرير البلاد من الاستعمار، بدأ يفكر في طريقة أخرى يحصل بها، على الأقل، على مبلغ من المال لمساعدة حزبه السياسي أو لنفسه. وكان يطمع في مبلغ كبير.

لذلك عندما عرف بأن الكهنة يتصيدون الفرص لكي يلقوا أيديهم على يسوع، ذهب هو نفسه وعرفهم بأنه على استعداد بأن يسلمه لهم. وقال لهم: «ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة...» (مت ٢٦: ١٤- ١٦). فبعد أن خابت آمال يهوذا في يسوع المسيا السياسي، أراد أن ينتهز هذه الفرصة عينها ليحصل على المال. ولكن عندما سمع بالمبلغ الذي اقترحه عليه رؤساء الكهنة، زادت خيبة أمله وأصبحت الصدمة عارمة وقوية، فإن الثلاثين من الفضة التي يقترحها رؤساء الكهنة كانت المبلغ الذي يدفعه اليهودي في شراء عبد بحسب ناموس موسى (خر ٢١: ٣٢). ولما وجد نفسه أمام الأمر الواقع، لم يستطع يهوذا إلا أن يسير في الطريق الذي اختاره هو بنفسه لنفسه، وأسلم سيده ليدهم (مر ١٤: ٤٣- ٤٦)، وبعد أن أسلم يسوع، شعر بخطيته وجرمه العظيمين، وبدل أن يمضي كما فعل بطرس باكيًا معترفًا بخطيته، ذهب وشنق نفسه (مت ٢٧: ٣- ٥؛ أع ١: ١٦- ١٩).

مما لاشك فيه أننا عندما نتأمل الصورة التي رسمها يوحنا ليهوذا، نجد ملامح كثيرة من هذه الصورة في كثيرين من الغيورين المتطرفين (يو ٦: ٦٤- ٧١؛ ١٢: ٥- ٨؛ ١٣: ١٠- ١١، ٢١- ٢٦، ٢٧- ٣٠؛ ١٨: ٣).

وعلى ما يظن، أن كثيرين من الغيورين قد رأوا في يسوع عند ظهوره، المسيا السياسي المنتظر، خصوصًا عندما سمعوا عظاته عن ملكوت الله، لأنهم نادوا هم أيضًا بملكوت الله، لأنهم نادوا هم أيضًا بملكوت الله، وكانوا يؤمنون بأن ملكوت الله قريب وقريب جدًّا. إلا أن الملكوت الذي نادى به الغيورون هو ملكوت ثيوقراطي لأمة إسرائيل، بينما الملكوت الذي علم به السيد هو ملكوت الله في قلوب الناس، في قلوب الذين يتجددون من كل أمة ومن كل شعب ومن كل لسان، لأن هذا الملكوت لا يعرف حدودًا ولا جنسًا.

ولقد ظن البعض بأن الذين جاءوا بعد حادثة كسر الخبز لإشباع الجموع ليختطفوا يسوع ويجعلوه ملكًا، لم يكونوا إلا جماعة من الغيورين: «وأما يسوع فإذا علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكًا انصرف أيضًا إلى الجبل وحده» (يو ٦: ١٥)، فإننا نشتم من أسلوب يوحنا هنا (في هذه الآية) رائحة الهجوم والخطف، وليس طريقة التفكير السليم والنقاش. فإن جماعة الغيورين كانت تنتظر المسيا السياسي، وعندما رأت يسوع الذي يعظ بملكوت الله القريب، ظنت أنه هو فعلاً ذلك المسيا السياسي، ولذلك أرادت أن تختطفه وتنصبه ملكًا على حزب الغيورين لكي يكون زعيمًا لهم فيجمع شملهم ويدعم صفوفهم. ولكن المسيا يسوع ينصرف وحده إلى الجبل، لأن ملكوته ليس من هذا العالم، ولا يريد هذا الملك الذي يتقاتل ويتحارب عليه الناس.

وهنا نطرح السؤال الذي سأله كثيرون من المؤرخين واللاهوتيين: لماذا صمتت الأناجيل عن التحدث عن الغيورين؟ وهل صمتت فعلاً الأناجيل عن ذكر الغيورين؟

وهذا ما سنحاول شرحه في الفصل التالي.

الفصل السادس

موقف يسوع من الغيورين

سبق أن رأينا في الصفحات السابقة شيئًا عن موقف الغيورين من يسوع، وما كانوا يأملون فيه وما يرجونه منه. فعندما ظهر يسوع الناصري وبدأ ينادي بملكوت الله العتيد، وأن ملكوت الله قريب جدًا على الأبواب، عندئذ ظن فيه الغيورون مسيا سياسيًا يخلص إسرائيل من الاستعمار الروماني القاسي، وخاصة أن رسالة قرب ملكوت الله، التي نادى بها السيد، تشبه إلى حد كبير بعض الشعارات التي تمسك بها الغيورون، ولهذا السبب عينه جاء بعضهم لكي يختطفوه وينصبوه ملكًا عليهم (يو ٦: ١٥). فيحتمل أن بعض الغيورين رأوا في المسيا غيورًا أو على الأقل قائدًا روحيًا سياسيًا يمكن كسبه لجانب الغيورين. والسؤال الذي يعترض بحثنا الآن هو الآتي: ما هو موقف يسوع من الغيورين؟ وهل تكلم المسيح عنهم، وأين وكيف؟

عندما نرجع إلى تاريخ الأمة اليهودية، في الفترة التي عاش فيها السيد على الأرض ثم الحقبة التي لحقتها بعد موته وقيامته إلى سنة ٧٣- ٧٤ م. نلاحظ ظاهرة هامة جدًا في تاريخ هذه الأمة، وهي النشاط الضخم الذي قام به الغيورون ضد القوات الرومانية. ولقد استعملت هذه الحركات الوطنية التحررية كل الوسائل الممكنة والإرهابية لطرد المستعمر وتحرير البلاد منه. فقاموا بعمليات هجوم وقتل وتخريب في معسكرات العدو الروماني وفي أملاك اليهود الذين كانوا يتواطأون معه. ولذلك فقد نشروا الذعر والخوف والاضطراب، ليس فقط في قلوب الرومان العدو الأول الذي يجب طرده وتطهير البلاد منه، بل وفي قلوب بعض اليهود أيضًا الذين تعاونوا مع المستعمر وخاصة البعض من طبقة الكهنوت الأرستقراطية. وحركة الغيورين الوطنية التحررية تشبه إلى حد كبير ـ مع أنه توجد أيضًا بعض الاختلافات الجوهرية ـ الحركات الفدائية في حركات المقاومة الوطنية. فحركات المقاومة الغيورية استعملت وسائل البطش والإرهاب والقتل... إلخ. في سبيل تحرير البلاد. ولهذا السبب كانت هذه الحركة موضوع أحاديث الناس ونقاشهم لأنها كانت تحاول جذب أنظار المواطنين وغير المواطنين إلى حقيقة وجودها، وإلى ضرورة إجلاء القوات المستعمرة عن البلاد التي يجب أن يحكمها أصحابها وليس الأجنبي. وكما سبقت الإشارة فإن جماعة الغيورين، بجميع أحزابها الفرعية، كانت تعمل على تحرير البلاد باسم الدين، وباسم يهوه، وهدفها الأسمى وغايتها العظمى الوصول إلى تكوين حكومة ثيوقراطية تحكم بحسب الناموس الموسوي.

ومع أن معظم قادة وأعضاء هذه الحركات كانوا يعيشون ويعملون في الخفاء خوفًا من أن تبطش القوات الرومانية بهم، إلا أن أعمالهم الهجومية والتخريبية كانت كنار على علم، لا يمكن إخفاؤها. فحركات التحرير الوطنية (أي الغيورون) كانت معروفة على الأقل بأعمالها التي اتخذت طابع الهجوم والعنف الشديد والتخريب والتدمير. ولقد تكلم المؤرخون عنهم، ومع أن البعض يظن أن طائفة أو حزب الغيورين لم يظهر إلا بعد سنة ٦٦، أي السنة التي اندلعت فيها الثورة اليهودية، وقد سبق أن رأينا خطأ هذه النظرية، وكيف أن حزب الغيورين المتطرف ظهر إلى حيز الوجود بظهور يهوذا الجليلي في سنة ٦ م. وبعد القضاء على هذا الزعيم الثوري تشتت أعضاء هذا الحزب في كل البلاد بسبب الضغط ومطاردة الرومان له، لأنهم أرادوا ملاشاة جماعة الغيورين من الوجود ملاشاة كلية وجزئية. ولذلك فقد اضطر الغيورون إلى أن يهربوا للجبال والمغاير والكهوف والصحاري والأماكن البعيدة عن القوات الرومانية حتى يستطيعوا مواصلة جهادهم في مقاومة الرومان. فإن الهجوم الروماني على حركة المقاومة الغيورية في سنة ٧ م. لم يقضِ عليها تمامًا. وبقيت لهم بقية استطاعت استئناف المقاومة ضد الرومان. وهذه البقية كبرت وعظم شأنها واتسع نشاطها، وفي أيام المسيح أصبحت حركة مقاومة عظيمة وضخمة، كان الرومان يحسبون لها ألف حساب.

إن الشيء الغريب العجيب، بل المدهش هو صمت الأناجيل الظاهري عن الغيورين. والغيورون كما سبق أن أشرنا كانوا يشكلون ليس فقط جماعة المقاومة ضد المستعمر الأجنبي، بل وكانوا يكوِّنون حزبًا دينيًّا ينادي بسيادة يهوه المطلقة وعدم الخضوع لأي سلطان آخر أو لأية قوة أخرى مهما عظمت وقويت. إن الغيرة الدينية لهذا الحزب الوطني التحرري (الغيورين) كانت تفوق كثيرًا غيرة الكثيرين من الفريسيين والكتبة، فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر ظهور ملكوت يهوه وانتشاره (طبعًا ظهور ملكوت يهوه بحسب مفهومهم الخاص لهذا الملكوت...).

ومن المحتمل أن الناس قد تكلموا كثيرًا في عهد المسيح عن الغيورين بسبب الأعمال الهجومية التي كانوا يقومون بها، أكثر مما تكلموا عن الفريسيين والكتبة. والأمر المدهش والغريب هو أن المؤرخين تكلموا عن هذه الجماعة، وأن معاصري السيد تكلموا عنها أيضًا، وأما المسيح والأناجيل فقد التزموا، بحسب الظاهر، الصمت عن التكلم عن هذا الحزب. ومع ذلك فإن المسيح والأناجيل لم يلتزموا الصمت بخصوص الأحزاب الأخرى الموجودة في اليهودية في ذلك الوقت مثل حزب الفريسيين، وحزب الصدوقيين، وحزب الهيرودسيين... إلخ.

ألم ينطق المسيح نفسه بالويلات على الكتبة والفريسيين، ثم حذر الجماهير من مكرهم وخبثهم؟ (مت ٢٣: ١٣- ٣٩؛ مر ١٢: ٤٠؛ لو ١١: ٣٨- ٥٢) «ولكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون...».

وهنا نطرح نفس السؤال الذي سألناه سابقًا: لماذا لم يتكلم المسيح عن هذه الطائفة، التي وإن كانت تقوم بأنشطة سياسية لتحرر البلاد، فهي أولاً وقبل كل شيء طائفة دينية، حزب ديني؟ ولماذا لا تتكلم الأناجيل عن مقابلة المسيح لبعض قادة هذا الحزب، مثل مقابلته لبعض معلمي الناموس، التي تكلم عنها الإنجيليون كثيرًا، مثل مقابلته لرئيس المجمع الذي أقام ابنته من الموت (لو ٨: ٤١) أو مقابلته السرية لنيقوديموس رئيس اليهود، أو نقاشه مع رئيس شاب (مت ١٩: ١٦- ٣٠).

فالمسيح والإنجيليون يتكلمون عن هذه الأحزاب، أي حزب الفريسيين، والصدوقيين، والهيرودسيين والكتبة بدون أي تردد. ومع ذلك فإن الأناجيل لا تذكر لنا ولا مرة واحدة أن غيورًا قام ليجربه، أو جاء إليه غيور لا في العلانية ولا في الخفاء... فلماذا إذن هذا الصمت؟ ولماذا لم يتكلم المسيح ولا الإنجيليون عن الغيورين بطريقة واضحة وصريحة كما تكلم عن الطوائف الأخرى الموجودة في فلسطين في ذلك الوقت؟

بعض المفسرين ظنوا أن المسيح والأناجيل لم يتكلموا عن هذه الطائفة، لأنها تظهر لم تظهر إلى حيز الوجود إلا بعد سنة ٦٦ م. ولكن الأبحاث الحديثة تعرفنا كما أشرنا إلى ذلك سابقًا بأن جماعة الغيورين ظهرت في سنة ٦ م. لا بل تجسدت في حركة غيوري العهد القديم.

فلماذا إذن لم تتكلم عنها الأناجيل ولماذا هذا الصمت؟

إن صمت الأناجيل عن طائفة أو حزب ديني أو سياسي ليس بالدليل القاطع على عدم وجوده. فالأناجيل لا تذكر كلمة واحدة عن جماعة قمران التي ظلت أخبارها مخفية عنا إلى سنة ١٩٤٧. ومع أن يوسيفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي العظيم وفيلو الإسكندري وبلينوس العجوز يعطون لنا فكرة محددة عن جماعة الأسينيين، إلا أن هذه الفكرة كانت محدودة وموجزة جدًّا. ومما لاشك فيه أن مخطوطات قمران ستفتح الباب أمام الباحثين لمعرفة الكثير عن هذه الجماعة التي كانت معاصرة للمسيح، ومع ذلك فالمسيح لم يتكلم عنها. والسبب الأساسي في صمت المسيح والإنجيليين عن الكلام عن جماعة الأسينين هو أن هذه الجماعة كانت تعيش في الخفاء والمسيح لم يتكلم عنها لكي لا يلفت الأنظار إليها [1]. فكل هذه الجماعات الأسينية: جماعة قمران، حزب الغيورين، خصوصًا هذه الجماعة الأخيرة، كانت تعيش بطريقة خفية وبعيدة عن الأنظار، بل كانت مطاردة ومراقبة من السلطات الرومانية المستعمرة للبلاد، على عكس أحزاب الفريسيين والكتبة، والصدوقيين والهيرودسين المعترف بهم من السلطات اليهودية والرومانية. ولهذا السبب فقد تكلم السيد عن هذه الطوائف دون أن يعرضها لأي مشكلة سياسية. ولكنه تجنب، في بعض الأحيان، الكلام عن بعض الطوائف والأحزاب الدينية السياسية التي كان يمكن أن تتعرض بسبب إشارته إليها بطريقة صريحة، إلى أخطار عظيمة من قبل الرومان.

وبالرغم من هذه الحقيقة فإن السيد تكلم مرات عديدة جدًّا عن الغيورين خصوصًا الحزب المتطرف، والذي يسمى حزب «السيكر» (SICAIRE)، ولكن لكي لا يعرض هذا الحزب لخطر الهجوم الروماني أو لبعض المتاعب والمشاكل السياسية الأخرى فقد استعمل في أحيان كثيرة، في الإشارة إلى جماعة الغيورين، ألغازًا وبعض الكلمات التي تحمل عدة معانٍ، ففي حقيقة الأمر، إن العهد الجديد يحتوي على شواهد كثيرة تشير إلى الغيورين والدليل الأول:

١- إن المسيح قبل في جماعته بعضًا من الغيورين كتلاميذ، فإن اسم يهوذا وأعماله وتصرفاته تدل، بطريقة تكاد تكون

(1) Constantin Daniel Esseniens, Zelotes Et Sicaires Et leur. Par Parony Mie dans le Nooveau Testament in Numene 1966. Pp. 88-115.

مؤكدة، على أنه كان من جماعة الغيورين، فأولاً اسمه الإسخريوطي، ولقد ظن البعض أن كلمة الإسخريوطي هي نسب لإسخريوط، أي يهوذا الذي هو من بلدة إسخريوط. وهذا التفسير غير صحيح. وأما التفسير المحتمل الذي يمكن استنتاجه بعد التحليل اللغوي لهذا الاسم: «إسخريوط» فهو أن كلمة «سيكر» أو «سيكري» التي تعني في اليونانية سكين أو خنجر أو حامل السكين أو الخنجر، تشبه إلى حد كبير كلمة إسخريوط، لا بل يبدو أن كلمة إسخريوط أو إسخريوطي مشتقة منها. وعلى هذا يمكن القول بأن عبارة يهوذا الإسخريوطي لا تعني نسبة يهوذا إلى بلدة إسخريوط بل تدل على نسبته لجماعة حاملي الخناجر أو السكاكين [1] أي أنه كان عضوًا في حزب الغيورين المتطرف الذي كان يستعمل السيف والقسوة والعنف لتحرير البلاد.

٢- إن تصرفات وحياة يهوذا ونهايته تدل كلها على أنه كان عضوًا في هذه الجماعة، ويحتمل أنه عندما أدرك تمام الإدراك وفهم كل الفهم أن يسوع ليس هو المسيا السياسي الذي سيقود جيوش الغيورين لتحرير البلاد، بل وظن أن المسيح يتعاون مع المستعمر في قبوله دفع الجزية التي يرفضها كل غيور (مت ١٧: ٢٤- ٢٧؛ يو ١٣: ٢٧)، عندئذ دخل الشيطان في قلبه، فسلم سيده إلى أيدي الأعداء (يو ١٣: ٢٧؛ مت ٢٦: ١٤- ١٦، ٤٧- ٥٠).

هناك شواهد أخرى يحتمل أنها تشير إلى أن بعض تلاميذ المسيح كانوا أيضًا غيورين، فإن قائمة أسماء التلاميذ (مت ١٠: ٢- ٤) لا تحتوي على يهوذا الإسخريوطي فقط بل تحتوي على اسم سمعان القانوي أيضًا (سمعان غير سمعان بطرس) فمن هو سمعان القانوي؟ (مت ١٠: ٤؛ مر ٣: ١٨) يقولان «سمعان القانوي»، أما لوقا فيقول: «سمعان الذي يدعى الغيور» (لو ٦: ١٥)، وكاتب سفر الأعمال (لوقا) عندما يذكر جدولاً بأسماء التلاميذ يقول أيضًا: «سمعان الغيور» (أع ١: ١٣). وفي حقيقة الأمر إننا عندما نرجع إلى أصل الاصطلاح الذي استعمله كل من متى ومرقس:

«القانوي» - فهو لا يعني أنه كان من «قانا» والكتابة الصحيحة لهذه الكلمة الأرامية هي «سمعان الكاناني أو الكانوني» وليس «سمعان القانوي»، ومعنى هذا الاصطلاح في اللغة الأرامية «غيور»، كما ترجمها لوقا في (٦: ١٥؛ أع ١: ١٣). ومن المحتمل بأن متى ومرقس قد حاولا نسخ الكلمة الأرامية كما هي من اللغة الأصلية وهي (QANE) حتى لا يعرضا التلميذ سمعان لبعض المشاكل والمضايقات السياسية، كما أنهما لا يريدان تذكير شريكهما في الخدمة بانتسابه القديم لجماعة الغيورين، وأما لوقا فحرص على الأمانة العلمية فذكر لنا الاسم مترجمًا ترجمة صحيحة [2].

مما سبق يتضح لنا أن السيد قد قبل بعض الغيورين كتلاميذ له. ومن هنا ننتقل إلى سؤال مهم وهو السؤال الذي طرحناه سابقًا: لماذا لم يتكلم المسيح بطريقة واضحة وصريحة عن الغيورين؟ لقد سبق أن قلنا بأن السيد كان مضطرًا إلى أن لا يتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن الغيورين لكي لا يعرضهم لبعض المشاكل والمضايقات السياسية. وبالرغم من ذلك، فإن السيد

(1) Constantin Daniel Esseniens, Zelotes Et Sicaires Et leur par parony Mie dans le Nooveau Testament in Numene 1966, pp. 88 - 115.

(٢) انظر الترجمة المسكونية للكتاب المقدس باللغة الفرنسية وتفسيره لإنجيل متى ١٠: ٤ ثم ١٧: ٢٤- ٢٧، لو ٦: ١٥، مرقس ٣: ١٩.

قد تكلم في مناسبات عديدة عن الغيورين بل وجه إلى بعضهم تعنيفًا قويًّا شديدًا لا يقل في صرامته عن الويلات التي وجهها إلى الفريسيين والكتبة.

إن السيد تكلم في مناسبات كثيرة عن حزب الغيورين؟ ولكن بما أن هذا الحزب لم يكن معترفًا به ومقبولاً لدى السلطات الرومانية الحاكمة، مثل حزب الفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين، كان المسيح مضطرًّا أن يتكلم عنه بطريقة غير مباشرة باستعمال الألغاز أو الكلمات ذات المعاني الكثيرة.

ولنتقدم الآن لكي نرى أين ومتى تكلم السيد عن الغيورين، فمثلاً في كلامه للجماهير يقول: «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا، أقصبة تحركها الريح...؟» (مت ١١: ٧- ٩). ماذا يقصد المسيح بهذا الكلام... «قصبة تحركها الريح»؟ إن القصب لا ينمو في الصحراء لأنه يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه وبصفة مستمرة، والقصب (ليس قصب السكر الموجود في مصر) ينمو ويكبر على جانبي الأردن وليس في الصحراء، وعادة لا يوجد قصب في الصحراء، ولكن بالرجوع إلى الظروف السياسية التي كانت تحيط بهذه البلاد - اليهودية - وبتحليل هذا الاصطلاح الذي استعمله السيد في مخاطبته للجماهير يتضح لنا معنى هذه الآية. فمن ناحية الظروف السياسية كان الغيورون الذين يشكلون هيئة المقاومة ضد المستعمر يستعملون كل وسائل العنف والغدر والقتل ضد الرومان. ولذلك فقد طاردتهم هذه السلطات أينما وجدوا، فاضطروا إلى الهروب للصحاري والبراري والجبال، فاتخذوا منها مسكنًا وملجأ لهم للاختفاء بعيدًا عن الجنود الرومان الذين كانوا يتعقبون آثارهم. هذا من الناحية السياسية، وأما من الناحية اللغوية فإن الاصطلاح الذي استعمله السيد «قصبة» وباللغة العبرية (QANE) من الكلمات التي تسمى HOMOPHONE أو PARONYME أو HOMONYMES أي أن الكلمة الواحدة تنطق نطقًا واحدًا ولكنها تحمل عدة معانٍ، كأسلوب التورية في اللغة العربية. فمثلاً عندما نقول: «أكلت الخبز بالجبن»، فإن هذه الجملة أو بعبارة أصح كلمة «جبن» تحمل المعنى القريب وهو الجبن نتاج اللبن، وأما المعنى البعيد فهو الذل أو العار... إلخ. فإن نفس الكلمة «جبن» تحمل عدة معانٍ، والاصطلاح الذي استعمله السيد هو (QANE) «كان» «قصبة» تحمل عدة معانٍ مثل كلمة جبن، فإن «كان» (QANE) تعني قصبة ثم تعني أيضًا «غيورًا» وتلفظ بنفس الطريقة، فالاختلاف ليس في اللفظ بل في المعاني التي تكمن تحت هذا اللفظ. فالمعنى الظاهر لكلمة «كان» هو «قصبة» تحركها الرياح، وأما المعنى الخفي والمقصود، فهو «غيور». وكما سبقت الإشارة فإن الغيورين كانوا يسكنون الصحاري لأنهم كانوا مطاردين من الرومان. وهنا يجب البحث عن المعنى الذي أراده المسيح بهذه الآية: «ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا، أقصبة تحركها الريح».

وكأني بالسيد يقول للجماهير التي خرجت لتسمع يوحنا المعمدان ماذا خرجتم لتنظروا في البرية؟ أخرجتم لتنظروا «كانا» شخصا غيورًا قد اتخذ من الصحراء مسكنًا له ومجالاً لعملياته الإجرامية من قتل وذبح واغتيال؟ كلا، فإن هذا النبي يوحنا الذي كان يسكن في الصحراء يختلف اختلافًا كليًّا وجزئيًّا عن كل الغيورين (QANES). فإن كان المسيح لا يشير هنا بكلمة «قصبة» (التي تعني في العبرية غيور) إلى الغيورين، والمقارنة بينهم وبين يوحنا، لما أصبح لهذه الآية معنى أو مغزى. والمسيح يواصل كلامه ذاكرًا طرفي النزاع، أي السلطة الحاكمة من ناحية والغيورين الذين كانوا يقاومون هذه السلطة من

ناحية أخرى، فيقول: «لكن ماذا خرجتم لتنظروا إنسانًا لابسًا ثيابًا ناعمة؟ هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم في بيوت الملوك...».

فمن الواضح البين أن المسيح استعمل إذن هذا الاصطلاح «كان» الذي يحمل معنيين لكي يشير به إلى جماعة الغيورين. وهذه الآية التي استعملها المسيح بهذا الأسلوب ليست يتيمة فريدة في الكتاب. فلقد استخدم المسيح مرة أخرى الكلمات ذات المعنين (PARONYMES) للإشارة إلى الغيورين في حديثه مع نثنائيل: «ورأى يسوع نثنائيل مقبلاً إليه فقال عنه هوذا إسرائيلي حقًا لا غش فيه. قال له نثنائيل من أين تعرفني؟ أجاب يسوع وقال له: قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك. أجاب نثنائيل وقال له: يا معلم أنت ابن الله. أنت ملك إسرائيل...» (يو ١: ٤٧- ٥١).

عندما نقرأ بطريقة سطحية الكلمات التي وجهها السيد لنثنائيل قائلاً: «هوذا إسرائيلي حقًا لاغش فيه... قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك». نشعر بأن هذه الكلمات غامضة، بل لا تستحق هذا الاعتراف العظيم الذي يشبه إلى حد كبير اعتراف بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (مت ٦: ١٦) فما هي المعجزة أو الغرابة في أن السيد رأى نثنائيل تحت التينة، حتى أنه (نثنائيل) يندهش ويستغرب استغرابًا عظيمًا فيقول: «أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل»؟

إن المسيح يبدأ حديثه مع هذا الرجل الوطني المتحمس بالقول: «هوذا إسرائيلي حقًا لاغش فيه». ويندهش نثنائيل لهذا الإعلان، لأنه لم يتقابل قبل ذلك مع المسيح ولم تتح له الفرصة بأن يتناقش معه لكي يعرفه بأفكاره واتجاهاته السياسية. ولذلك يسأل نثنائيل السيد قائلاً له من أين تعرف أني رجل وطني ومتحمس لوطنيتي؟ وهنا يستعمل المسيح كلمة ذات معنيين لكي يعلن بها لهذا الرجل الوطني المتحمس، بل لهذا الغيور بأنه يعرف عنه أكثر مما يظن. فقال له: «قبل أن دعاك فيلبس وأنت تحت التينة رأيتك»، وهنا يستعمل المسيح نفس الأسلوب الذي استعمله في مخاطبته للجماهير بخصوص يوحنا وغيوري الصحراء، أي أنه يختار كلمة تحمل معنيين، فكلمة «تين» باللغة الأرامية التي يتكلمها المسيح «سوكو» (SUKO) وباليونانية «سيكا أو سيكة» SIKA أو SIKAH . فالمعنى القريب لهذه الكلمة هو «تين»، ولكن المعنى البعيد أو المعنى الثاني هو «سكين» أو خنجر أو حامل الخنجر.

وكأني بالمسيح يقول لهذا الرجل الغيور: يا نثنائيل أنا أعرفك قبل أن يدعوك فيلبس عندما كنت تحت «التينة»، أي عندما كنت تحت «السيكو»، يعني عندما كنت في خدمة جيش السيكر الإرهابي. وهنا يستعمل المسيح كلمة مغطاة ذات معنيين لكي يعلن لنثنائيل أنه ينتمي إلى جيش السيكر جيش الإرهابيين. فإن انتساب نثنائيل إلى حزب السيكر كان خفيًا وسريًا، ولكن المسيح استطاع أن يعلنه له بطريقة غير مباشرة، لهذا السبب اندهش نثنائيل ووجد نفسه في حضرة شخص خارق للطبيعة، ولذلك قال للمسيح: «يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل». لأنه استطاع أن يعرف ما هو خفي وما هو سري.

وكما أن المسيح وجه توبيخًا مكشوفًا وانذارًا واضحًا وصريحًا للأحزاب المعترف بها من السلطات القائمة وقتئذ مثل الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين، فهكذا فعل أيضًا مع حزب الغيورين المتطرف جدًا، حزب «السيكر أو السيكرين»،

أي حزب الإرهابين الذي كان يحمل أعضاؤه خنجرًا أو سكينًا للهجوم على الرومان وأعوان الرومان، ولقد وجه إليهم ويلاته وتوبيخاته بطريقة خفية وغير مكشوفة. وهذا واضح في مثل التينة التي لم تعطِ ثمرًا (لو ١٣: ٦- ٩)، فالمسيح يوجه إنذاره إلى هذا الحزب (التينة غير المثمرة) أي حاملي الخناجر، مبينًا لهم بهذا المثل أن الله في لطفه ينتظر سنة بعد سنة توبة هذه الجماعة ورجوعها عن القتل والغدر وإسالة الدماء، لأن الله يريد أن تثمر هذه الشجرة أثمارًا تليق بالتوبة. وهنا أيضًا يستعمل المسيح كلمة «تين» التي تعني تين أو سكين أو خنجر لكي يوبخ بها أولئك الذين سلكوا في هذا الطريق.

والمسيح الذي حذر وأنذر الأحزاب المعترف بها من الهيئات الحاكمة وأنزل بهم الويلات علنًا وبطريقة واضحة ومباشرة (مت ٢١: ٣٣- ٤٤؛ ٢٣: ١٣- ٣٩؛ لو ١٢: ١- ٢)، استعمل نفس الطريقة مع حزب الغيورين المتطرفين حاملي الخناجر أو السكاكين، بطريقة غير مباشرة أو عن طريق كلمة تحمل معنين HOMONYME، ولقد ظن العارفون باللغة الأرامية والذين يؤيدون هذه النظرية، أن كلمات السيد في (مت ٢١: ١٨- ٢٠؛ مر ١١: ١٢- ١٤) موجهة إلى جماعة الغيورين وليس لشجرة التين الطبيعية، وخاصة هذه الكلمات: «فنظر شجرة تين... فأجاب يسوع وقال لها لا يأكل أحد منك ثمرًا بعد إلى الأبد. وكان تلاميذه يسمعون» (مر ١١: ١٣- ١٤).

فكما سبق أن أشرنا بأن كلمة «تين» من الكلمات التي تحمل في اللغة الأرامية معنيين، المعنى القريب المعروف والظاهر هو ثمرة «التين» التي تؤكل، والمعنى البعيد الذي قصده السيد وهو خنجر أو سكين أو حامل الخناجر. وبناء على ذلك فلقد ظن كثيرون من العلماء أن هذه الفصول (مت ٢١: ١٨- ٢٠؛ مر ١١: ١٢- ١٤) تحتوي على إنذار للغيورين بوجه عام، وليهوذا، الذي يحتمل أنه كان عضوًا عاملاً في هذه الجماعة، بوجه خاص. ولقد سبق أن عرفنا أن يهوذا كان من حزب الغيورين، الحزب المتطرف. ولهذا السبب فإن الرب يوجه له هذا الإنذار كعضو في هذه الجماعة الإرهابية (سيكر، حاملي الخناجر)، فإن اللعنة التي نطق بها السيد كانت موجهة للغيورين بوجه عام وليهوذا الإسخريوطي بوجه خاص، وليست للتينة. والجدير بالذكر أن مرقس يضيف إلى هذه القصة المذكورة في متى، جملة تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع، فهو يقول: «لأنه لم يكن وقت التين» (مر ١١: ١٣). والمسيح ليس بالشخص المتغطرس المتجبر الذي يطلب تينًا من شجرة التين في الوقت الذي لا يثمر فيه التين. وكل ما في الأمر هو أن السيد انتهز هذه الفرصة لكي يستخدم كلمة التين التي تعني «تينًا أو حاملي الخناجر» لكي ينذر جماعة الغيورين ويهوذا، الذي أعطى له السيد فرصًا عديدة للتوبة وللرجوع، ولكنه لم ينتهز هذه الفرص الثمينة، ولهذا السبب عينه فإن المسيح يستعمل نفس الطريقة المغطاة مستخدمًا كلمة تينة - سيكر أو سيكو - لكي ينذر بها يهوذا وكل الغيورين (مت ٢١: ١٨- ٢٠؛ ٢٦: ٢٤؛ مر ١١: ١٢- ١٤؛ ١٤: ٢١؛ لو ٢٢: ٢٢). فهل سمعوا صوته وقبلوا دعوته للتوبة؟!

ويوجد نص آخر يشير إلى الغيورين وهو (لو ٢٣: ٥، ١٤).

وحقيقة الأمر أن هذين النصين يشيران إلى يسوع كغيور، فلا يفوتنا أن السيد قد قدم للمحاكمة وحكم عليه كواحد من الثوار، أو كواحد من الغيورين. فإن اليهود قدموه إلى الحاكم الروماني كمتهم بإثارة الشعب، لأنهم كانوا يعلمون تمامًا ما هو موقف الحكام الرومان من الغيورين، ولذلك كانوا يشددون قائلين: «إنه يهيج الشعب...» (٢٣: ٥)، «قد قدمتم إليّ هذا

الإنسان كمن يفسد الشعب» (٢٣: ١٤). والعادة التي اتبعها الرومان في حكمهم على أحد هؤلاء الثوار الغيورين، أنهم كانوا يضعون قصبة في يده، وكانت القصبة كما سبق أن أشرنا تعني «الغيور». وكان إثبات هذه التهمة، أي تهمة انتساب أي شخص إلى حزب الغيورين المتطرف، كافيًا لأن يحكم عليه بالموت. فمع أن بيلاطس كان مقتنعًا ببراءة يسوع من كل التهم التي ألصقها اليهودية، فإن الجند ظنوه واحدًا من هؤلاء الثوار الذين يحاكمون كل يوم بتهمة إثارة الشغب وادعاءاتهم المسيانية. ولذلك فقد وضعوا في يمينه «قصبة» لكي يدلوا بها على نوع الجريمة التي يحاكم من أجلها، أي أنه «غيور»، «وضفروا إكليلاً من الشوك ووضعوه على رأسه وقصبة في يمينه وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين السلام يا ملك اليهود» (مت ٢٧: ٢٩). من هذا يتضح أن الجند عاملوا يسوع كما لو كان غيورًا، ولهذا السبب فقد صلب أيضًا بين اثنين من اللصوص (QANAS) [١].

من النصوص التي سبق أن أشرنا إليها يمكننا أن نستنتج أن السيد تكلم عن هذه الجماعة (جماعة الغيورين)، التي كان لها نشاطها السياسي والديني، وإن كان المسيح قد تكلم عنها بهذه الطريقة غير المباشرة، فذلك يرجع إلى حقيقة أنها كانت تعيش في الخفاء بعيدًا عن أعين السلطات الرومانية.

فإن كانت هذه النصوص التي أشرنا إليها سابقًا، تدل على وجود هذا الحزب الغيوري فما هو موقف يسوع منه؟ هل كان مؤيدًا لهذا الحزب أم معارضًا؟ هل كان المسيح في صراع مستمر مع هذا الحزب كما كان في صراع مستمر مع حزب الكتبة والفريسيين والصدوقيين... إلخ؟ ما هو موقفه منهم؟

لقد حاول كولمان (O. CULLMANN) أن يقدم لنا تلخيصًا لما سجلته الأناجيل عن موقف يسوع من الغيورين فيقول: إن الأناجيل تحتوي على نوعين من الشهادة بخصوص هذه المشكلة، فإذا حاولنا جمع كل الشواهد الكتابية التي تتكلم عن موقف يسوع الإيجابي من الغيورين لرأينا فيه غيوريًا. ولكن لو حاولنا جمع الشواهد التي تتكلم عن موقف يسوع السلبي إزاء الغيورين لوجدنا أنه لا يتفق وتعاليمهم. وإن علم التفسير وأبسط قواعده لا تسمح لنا بأي حال من الأحوال الاستناد على بعض الآيات التي تؤيد وجهة نظر معينة دون الأخذ في الاعتبار للآيات الأخرى التي تؤيد وجهة النظر المعارضة، وليس من حقنا فصل هذه الآيات عن قرينتها [٢].

ويواصل كولمان (O. CULLMANN) شرحه بالقول: مثلاً الذين يرون في يسوع مسيا سياسيًا غيورًا، يرجعون إلى عظاته الخاصة بملكوت الله، وكيف أنه علم كما علم الغيورون بأن ملكوت الله على الأبواب وقريب جدًا، وأنه مرسل من قبل الآب لكي يتمم رسالة إلهية قد كلف بها من قبل الله. وهذا أيضًا ما كان يعلمه الغيورون، وهو بأن المسيا سيأتي حاملاً رسالة دينية وسياسية. فهنا نرى أن يسوع يؤيد موقف الغيورين، بل أكثر من ذلك، ألم يعلم المسيح بطريقة واضحة وصريحة بأنه ضد هيرودس معطيًا له لقب ثعلب: «فقال لهم امضوا وقولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أكمل...» (لو ١٣: ٣١- ٣٥)، وهيرودس كان يمثل السلطة الرومانية الحاكمة التي يقاومها الغيورون بكل ما أوتوا من قوة ووسيلة.

(١) للتوسع في دراسة هذا الموضوع ارجع إلى المصدر المذكور سابقًا وهو C. Daniel Numene. Vol. 13 Fasc. Z. August 1966 p 80- 10

(٢) راجع كتاب كولمان (الطبعة الفرنسية) Oscar Culimann Jesus Et Les Revilutionnaires p. 10- 20.

إن هذا التصريح يعتبر إذًا ضد هيرودس وضد السلطات الرومانية التي تسيطر على البلاد، وبناءً عليه يمكن القول بأن المسيح كان مؤيدًا ومساندًا للغيورين، بل كانت له ميول واتجاهات وتصرفات غيورية. والذين يظنون بأن المسيح كانت تسيطر عليه نفس الميول التي كانت تسيطر على الغيورين، يقتبسون هذه الكلمات: «فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفًا» (لو ٢٢: ٣٦). إن السَيف أو الخنجر أو الـ «SICAIRE» كان له الفعل القوي والعملي في نشاط الغيورين. من هذه الآية استنبط الذين يظنون أن المسيح كان غيوريًّا، بل وكان مسيا سياسيًّا، إنه في تلك اللحظة الحاسمة طلب من تلاميذه أن يتسلحوا وأن يدافعوا حتى يحصلوا على النصر ضد العدو. فإن كان دخوله إلى أورشليم لتطهير الهيكل، وهتاف الذين كانوا يهتفون له، لم يؤدِّ إلى النتيجة المطلوبة أي تمليكه ملكًا، فإنه يحاول الآن من جديد أن يسلح تلاميذه لكي يصل إلى هدفه، أي الهجوم على الرومان وتحرير الأمة اليهودية فتصبح أمة ثيوقراطية.

من هذه الآيات السابقة الذكر، ظن البعض أن موقف المسيح كان إيجابيًّا بالنسبة للغيورين، بل كان هو نفسه غيورًا. وهذا بلا شك هو الخطر الداهم في علم التفسير، عندما يتخذ الإنسان بعض الآيات منفردة ومنعزلة ويسلخها من قرينتها لكي يدعم بها نظريته وفكره، لأنه ما أكثر الآيات التي يمكن أن نحمِّلها ما لا تحمله وأن نقوِّلها ما لا تقوله، عندما نفصلها عن قرينتها، وعندما لا ندرس الظروف والأماكن التي قيلت لأجلها وفيها. على سبيل المثال، الظرف الذي قيلت فيه الآية التالية: «فَقَالَ لَهُمْ: لكِنِ الآنَ، مَنْ لَهُ كِيسٌ فَلْيَأْخُذْهُ وَمِزْوَدٌ كَذلِكَ. وَمَنْ لَيْسَ لَهُ فَلْيَبِعْ ثَوْبَهُ وَيَشْتَرِ سَيْفًا». لكي نشرح هذه الآية يجب معرفة الظروف التي قيلت فيها ولأجلها. فعندما قال الرب هذه الآية كان لا يفصل بينه وبين الموت إلا خطوة واحدة قصيرة، يوم واحد. ولذلك فهو ينظر إلى التلاميذ الذين سيكونون، بعد أن يتركهم بالجسد، كغنم في وسط ذئاب خاطفة (مت ١٠: ١٦). وكأني به يقول لهم: يا أولادي أنا معكم زمانًا قليلًا بعد (يو ١٣: ٣٣) فأنا الآن أهتم بأموركم وأحل مشاكلكم وأدافع عنكم عندما يحاجكم اليهود في معتقداتهم. ولكن حضوري الجسدي هذا معكم ما هو إلا لوقت قصير ومحدود، وبعد قليل لا ترونني (يو ١٦: ١٩). صحيح أني سوف لا أترككم يتامى إني آتي إليكم (يو ١٤: ١٨) سأرسل لكم الروح المعزي من عند الآب ولكن غدًا ستشعرون بالوحدة عندما أرتفع عنكم. ستتجمع عليكم قوات الظلام، ستدخلون في حرب فاستعدوا الآن لكي تحملوا المشعل والمسئولية التي ألقيت الآن على أكتافكم. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا في اليوم الشرير (أف ٦: ١٣- ٢٠).

المسيح لا يحض تلاميذه هنا على حمل السيف والحرب لتخليصه من أعدائه وإنقاذه من الموت؛ إذ أنه يقول في الآية التالية للآية التي تكلم عن حل السيف: «لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتِمَّ فِيَّ أَيْضًا هذَا الْمَكْتُوبُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ. لأَنَّ مَا هُوَ مِنْ جِهَتِي لَهُ انْقِضَاءٌ» (لو ٢٢: ٣٧). فالأمانة في التفسير ليست هي البحث عن الآيات والنصوص التي نظن أنها تؤيد رأينا وعقيدتنا، أو بالمعنى الأصح والأدق، التي نريدها أن تؤيد رأينا وعقيدتنا، بل الأمانة في التفسير تتطلب أن نأتي إلى النص الكتابي لكي نتعلم منه ما يريد أن يعلمه لنا فهو إذًا الذي يعلمنا العقيدة ومنه العقيدة ولدت وبه تتغذى وتكبر وليس العكس.

ففي مشكلة موقف يسوع من الغيورين، لو أخذنا هذه الآيات السالفة الذكر منفصلة عن الظروف التي قيلت فيها

ولأجلها فإنها توحي للقارئ كما لو كان يسوع واحدًا من الغيورين أو على الأقل كان يتبنى موقفًا إيجابيًا إزاءهم. فإن كانت الأمانة في التفسير تتطلب دراسة الظروف التي فيها ولأجلها قيل النص، فإنها تتطلب شيئًا آخر لا يقل أهمية عن الأول، وهو الأخذ في الاعتبار النصوص الأخرى التي تتكلم عن نفس الموضوع، ومن هنا نرجع مرة ثانية إلى كولمان O.CULLMANN الذي يتابع شرحه بخصوص مشكلة موقف يسوع من الغيورين، فيقول بالرجوع إلى تعاليم المسيح نلاحظ أنه شدد كثيرًا على عدم الهجوم وعلى عدم استعمال السيف. ألم يقل لتلميذه بطرس: "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!" (مت ٢٦: ٥٢). وكيف يمكن أن نوفق بين هذا الفكر وبين تعاليم السيد في التطويبات التي تحث ليس فقط على محبة الأصدقاء بل الأعداء أيضًا (مت ٥: ٣٨- ٤٤)، فإنه بحياته ومثاله أعطى لنا وصية جديدة، وصية المحبة (يو ١٣: ٣٤- ٣٥، ١٥: ١٢- ١٧، ١يو ٢: ٧- ١٠). والنصوص التي تتكلم عن تعاليم المسيح المختصة بالمحبة والتضحية كثيرة جدًا في الأناجيل، ولكن المهم في كل هذا ليس فقط هذه الفصول التي تتكلم عن تعليم المسيح بخصوص المحبة والتضحية ومقاومته للعنف بل حياة المسيح نفسه ومثاله؛ فقد أحب الإنسان محبة ليس لها مثيل، والرسول يقول: «ولكن الله بين محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٨؛ ١يو ١٣: ١٠- ٢٠؛ ٤: ٧- ١٢؛ يو ٣: ١٦).

مما لا شك فيه أن تعاليم يسوع وحياته لا تسمح لنا بأي حال من الأحوال بأن نقول بأنه كان غيورًا أو مشجعًا لحركة الغيورين المتطرفة التي كانت تستعمل العنف والقوة للوصول إلى أهدافها الدينية والسياسية وكيف يمكن للمسيح أن يكون غيورًا، يشترك أو على الأقل يشجع عملياتهم الهجومية لسفك الدماء وتيتيم الأطفال وترمل النساء، وهو الذي يقول عن نفسه «وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» (يو ١٠: ١٠) ويقول عنه الكتاب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦). «لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأتِ ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (يو ١٠: ٤٥)؟

فإن الذين يدافعون عن فكرة أن يسوع كان غيورًا، أو على الأقل اتخذ موقفًا إيجابيًا منهم، يتمسكون بفكرة أن سمعان أحد تلاميذ المسيح كان غيورًا ويدعى سمعان الغيور (لو ٦: ١٥). كذلك أيضًا يهوذا الإسخريوطي، فمع أنه يلقب باسم غيور ولكن تصرفاته وسلوكه ونهايته تدل على غيوريته. وأما بخصوص سمعان الغيور ويهوذا الإسخريوطي فيحتمل أنهما كانا من حزب الغيورين كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهذا لا يغير شيئًا في موقف يسوع من ناحية هذا الحزب، فالمسيح في محبته قدم الدعوة للجميع دون النظر إلى الأحزاب السياسية والطوائف العقائدية، وكل الذين قبلوا دعوته هذه التي تتضمن إنكار الذات وحمل الصليب واتباعه أينما يذهب صاروا تلاميذًا له (مت ١٦: ٢٤- ٢٦) ولهذا السبب عينه، فإن جماعة التلاميذ لا تشمل سمعان الغيور ويهوذا الإسخريوطي فحسب، بل تشمل أيضًا عشارًا يدعى متى (مت ٩: ٩؛ لو ٥: ٢٧)، فإن كان الغيور المتطرف يمثل في تلك الحقبة من الزمان ما نسميه نحن الآن باليساري المتطرف، فإن العشار كان يمثل الطبقة اليمينية والحاكمة، مما يعني قبول السلطة الحاكمة القائمة. ومن هذا يتضح لنا أن اختيار السيد لتلاميذه لم يكن وقفًا على انتسابهم إلى حزب سياسي معين أو طائفة عقائدية معينة، بل كان وقفًا على مدى استجابة كل شخص بطريقة واعية وحرة لهذه الدعوة المقدمة له. وإن الدعوة التي قدمها المسيح لتلاميذه وللجميع تحتوي، ليس فقط على إنكار الذات وحمل الصليب واتباعه أينما يذهب، بل

كانت تحتوي أيضًا على أن يصبح الإنسان خليقة جديدة، أو بتعبير آخر أن يولد من فوق (يو ٣: ٣)، أي أن تتم عملية التجديد في الداخل أولاً، في داخل الإنسان، وعندئذ تظهر ثمار هذا التجديد في الخارج، في عمل وتصرفات وحياة الإنسان المولود من فوق.

وهنا نرى أن المسيح لم يرد قلب الأوضاع القائمة رأسًا على عقب كما حاول الغيورون المتطرفون قلبها وملاشاتها تمامًا من الوجود، بل كانت رغبة قلبه أن هذه الأوضاع القائمة تتغير وتصلح، فالمسيح لم يرد إذًا القضاء على العبادة كما ظن الغيورون بتفسيرهم لقوله في مرقس (١٣: ٢؛ ١٤: ٥٨)، بل أن يولد الإنسان من فوق. وعندئذ، وعندئذ فقط يستطيع أن يحقق العدل الاجتماعي الذي نادى به الغيورون وعلم به المسيح (لو ٦: ٢٤؛ ١٦: ١٩؛ ١٢: ٧، ١٦). إن هدف المسيح هو أن يصبح قلب الإنسان خاليًا من الأنانية ومن الكره ومن الكذب ومن الظلم بكل أنواعه، وهذا لا يتم بالسيف ولا بالقانون ولكن بتغير علاقة الإنسان بالله، وعندئذ تتغير علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فيستطيع بنعمته أن ينفذ أمره القائل: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك» (لو ١٠: ٢٧).

هذه هي الأوضاع التي كان يريد السيد تغييرها، تغيير القلب والحياة [1] وليس الانتماء إلى حزب سياسي أو خلق حزب سياسي جديد. وهذا هو موقف المسيح من الغيورين وموقف الغيورين منه كما بدا لكثيرين من الباحثين.

ومما لا شك فيه أن الذين يريدون البحث لتوضيح موقف يسوع إزاء الغيورين أو موقف الغيورين بالنسبة ليسوع، سيجدون صعوبات كثيرة لا تحصى ولا تعد، وذلك يرجع إلى صمت الأناجيل الظاهر عن هذا الموضوع، على العكس تمامًا فيما يخص علاقة يسوع وموقفه من جماعة الكتبة والفريسيين والصدوقيين الذين ناصبوه العداء وقاموا ضده بحرب شعواء منذ بداية رسالته، فلقد هب البعض من هذه الطوائف اليهودية يحاربون يسوع ورسالته، وحاولوا في مرات كثيرة أن يمدوا له شراكًا شائكة لاصطياده في حبالها. وكانت هذه الشراك التي نصبها له هؤلاء القوم خبيثة كل الخبث وخطيرة كل الخطر، طمعت بالسم الذي ظنوا نتيجته الموت المحتم مهما كانت براعة الجواب وقوة المنطق والحجة. وتسجل لنا الأناجيل عددًا كبيرًا من هذه الشراك، ومنها ذلك الشرك الديني السياسي. ففي الأسبوع الأخير من حياة السيد أرسل الفريسيون تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: «يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا...» (مت ٢٢: ١٥- ٢٢؛ مر١٢: ١٣- ١٧؛ لو٢٠: ٢٠- ٢٥).

إن القارئ المدقق يلاحظ خطورة السؤال والموقف، فلقد جاء الفريسيون مع الهيرودسيين لكي ينصبوا له الشبكة. ومن الغريب والعجيب أن نرى الفريسيين جنبًا إلى جنب مع الهيرودسيين لكي يحيكوا معًا مؤامرتهم السوداء ضد المسيح. ودارس التاريخ اليهودي يعرف أن الفريسيين انفصلوا عن بقية الشعب اليهودي عندما اندمج هذا الشعب في الأمور السياسية العالمية ونصب رؤساء للكهنة أشخاصًا لم يكن لهم الحق في الارتقاء إلى هذه الرتبة، ولذلك انفصلوا عن بقية الشعب وأعطوا لأنفسهم اسم «حاسيديم» أي الأتقياء. وهنا نرى هؤلاء الإخوة الذين يدعون التقوى، يدبرون ضد يسوع، مؤامرة مع فريق آخر من الشعب كان يعتبر عدوًا لهم وهم الهيرودسيون، ولكن هذين الفريقين وجدا في يسوع عدوًا مشتركًا يجب الاتحاد

(١) لمعرفة رأي OSCAR CULLMANN الرجاء الرجوع الى كتابة المذكور سابقا ص ١- ٦٠.

ضده. ولقد جاء الفريقان إلى يسوع بسؤال في غاية الخطورة من الناحية السياسية وهو: أيجوز لنا أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» ولكي نعرف خطورة هذا السؤال الذي يشبه السيف ذا الحدين، يجب أن نتذكر موقف الغيورين من دفع الجزية، وكيف أن يهوذا الجليلي الذي قام بثورة سنة ٦ م. قام بها لأنه لم يرد أن يدفع الجزية للدولة المحتلة، وأصبح - من هذا التاريخ - دفع الجزية أمرًا مهينًا للغاية في أعين اليهود الأتقياء وأمرًا مرفوضًا لا نقاش فيه بالنسبه للغيورين الذين كانوا يقومون بتحصيلها، ويقتلونهم معًا لأن دفع الجزية إلى خزينة أخرى غير خزينة الهيكل يعتبر كسرًا لناموس يهوه.

وكما سبق أن عرفنا، أن الغيورين أخذوا كمثال لهم في نضالهم وحروبهم فينحاس وماتاتياس اللذين استعملا السيف عندما غارا غيرة للرب. وعلى ذلك كان الغيورون المتطرفون دائمًا على استعداد لقتل، ليس فقط من يعلم أو ينادي بدفع الجزية، بل إن الشخص الذي يدفع الجزية كان معرضًا لضياع حياته إذا تقابل مع غيور متطرف متعصب. فالخطر إذن لم يكن كامنًا في سخط اليهود وغضبهم على المسيح إذا أجاب إجابة مرضية للسلطات الحاكمة، بل كانت خطورة السؤال كامنة في رد الفعل الذي سيقوم به الغيورون ضد المسيح. ومن هو الغيور المتطرف الذي يسمع بأن يسوع يعلم بأن تعطي الجزية لقيصر ويتركه يعيش يومًا واحدًا بعد هذا التصريح؟ فالمؤامرة التي دبرها الفريسيون مع الهيرودسيين بسؤالهم هذا السؤال ليسوع لم تكن لإثارة اليهود عامة ضد المسيح فحسب، بل دفع الغيورين لاغتياله إذا كان جوابه يحرض على دفع الجزية للرومان. وأما إذا كان جواب السيد على هذا السؤال بالنفي (أي أنه يمنع دفع الجزية للرومان) فالخطر الذي كان يحدق بيسوع هو أن تتهمه السلطات الرومانية بأنه ليس فقط غيورًا ثائرًا، بل هو ضد قيصر نفسه وضد السلطات الرومانية بتحريضه للشعب على عدم دفع الجزية. وتهمته بتحريض وحث الشعب على عدم دفع الجزية هي تهمة كبيرة وخطيرة عقابها الموت. لقد كانت المؤامرة، مؤامرة «محبوكة» حبكة جيدة، ولذلك فقد أتوا بشهود معينين أي الهيرودسيين الذين يسهرون على سلامة الدولة الرومانية ومصالحها ونجاحها، ثم الفريسيين الذين يسهرون على سلامة الدين اليهودي وسلطان يهوه. وكان كل من الفريقين يتوقع أن المسيح لابد وأن يسقط في هذا الشرك على أي حال سواء من ناحية أو من الأخرى.

هذا المثل يوضح لنا جانبًا واحدًا من الصراع الذي عاشه يسوع مع الفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين، وموقف يسوع من هذه الطوائف معروف جيدًا، كما أن موقف هذه الطوائف إزاء يسوع معروف أيضًا في الأناجيل، فلقد سجل لنا الإنجيليون أسئلة الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين التي كانت تحتوي على شراك لكي يصطادوا بها يسوع لمحاكمته، كما أنها سجلت لنا أيضًا ردود يسوع على هذه الشراك المنصوبة، وصب الويلات على هذه الطوائف. فلا داعي إذن بأن نطيل الوقوف عند هذه النقطة الواضحة والمعروفة في الأناجيل. ولكن قبل أن نتقدم لنبحث نقطة أخرى، نحب أن نلفت نظر القارئ إلى أمر يستحق أن نقف عنده ولو قليلاً، وهو أن الكنيسة الأولى بالغت في عداء ومقاومة الفريسيين ليسوع. فمما لاشك فيه أن الفريسيين والكتبة قاوموا السيد ووقفوا وقفة العداء من تعاليمه، ولكننا لا يمكن أن نعمم هذا الموقف السلبي الذي تبناه الكثيرون من الكتبة والفريسين على الجميع. فإن كان إنجيل متى ومرقس يقدمان لنا صورة سوداء عن موقف هذا الحزب من يسوع، فإن لوقا ويوحنا يقدمان في بعض الأحيان صورة أخرى عن بعض الكتبة والفريسين الذين أظهروا في بعض الأحيان روح التعاطف بل المحبة ليسوع. فلوقا هو الوحيد الذي يكلمنا عن دعوة الفريسيين ليسوع لتناول

الطعام على مائدتهم (لو ٧: ٣٦؛ ١١: ٣٧؛ ١٤: ١) ولوقا أيضًا هو الوحيد الذي يسجل لنا بعض الكلمات التي تدل على محبة بعض الفريسيين ليسوع وحرصهم على نجاته من الموت: «في ذلك اليوم تقدم بعض الفريسين قائلين له اخرج واذهب من ههنا لأن هيرودس يريد أن يقتلك..» (لو ١٣: ٣١) [١]. وهنا نلاحظ تأثير بولس على لوقا، فإن بولس بالرغم من تجديده وقبوله المسيح، ظل يفخر بنسبته للفريسين (أع ٢٣: ٦؛ ٢٦: ٥؛ في ٣: ٥). ويوحنا يسجل لنا قصة نيقوديموس الذي جاء إلى السيد ليلاً وتحدث معه طويلاً، ولم تكن هذه المقابلة مع الرب المقابلة الوحيدة لهذا الرجل، بل نفس الإنجيل يعرفنا بأنه جاء مع يوسف الرامي لأخذ جسد يسوع (يو ٣: ١- ١٣؛ ٧: ٥٠؛ ١٩: ٣٨- ٤٢). من هذا يتضح بأن بعضًا من الفريسين كانوا يميلون إلى يسوع ويؤيدونه بالرغم من مقاومة الكثيرين منهم لتعاليمه.

وإن كنا نرى من هذه الصورة أن البعض والبعض القليل من الكتبة والفريسيين كانوا ينظرون إلى يسوع وجماعة التلاميذ بعين العطف بل حاولوا مساعدة يسوع، فإن الأغلبية الساحقة من الكتبة والفريسيين كانوا يقاومون السيد كل المقاومة. وذلك يرجع إلى حقيقة أن هذه الطائفة كانت تنتظر هي الأخرى مثل الغيورين مسيا سياسيًّا، ويسوع الناصري لم يستطع أن يحقق لهم أحلامهم وأمانيهم المسيانية. وبما أن جماعة الفريسيين كانت تعتبر الجماعة الكتابية للكتب المقدسة، فقد حاول البعض تقديم المسيا في صورة مشوقة جذابة لليهودي الذي كان يرى الجنود الرومان منتشرين في طول البلاد وعرضها، يحتلون السلطة الوثنية النجسة المحتلة للبلاد المقدسة، ولذلك فقد قدمه بعضهم تحت الصور الآتية:

١- **المحرر**، فهو المحرر لهذا الشعب اليهودي المظلوم المسحوق المضروب، فالمسيا سوف يحرر لا شعبه فقط من الاحتلال الأجنبي كما تنبأ به الأنبياء، بل إنه سيسحق أعداء إسرائيل تحت أقدامهم ويملكهم عليهم فيصبح إسرائيل هو السيد المتسلط على العالم (مز ٢: ٤- ١٢؛ ٢٠: ٦- ٨؛ ٢١: ٨- ١٣؛ ٤٥: ٤- ٥؛ ٧٢: ٩- ١٩، ١٠١، ١١٠؛ إش ١١: ٣- ٥؛ زك ٩: ٩؛ إش ٣٢: ١- ٥؛ صف ٣: ١٧- ٢٠؛ إر ٢٣: ٥؛ ٣٠: ٩- ١١؛ ٢٨: ٢٤؛ خر ٢١: ٢٧؛ ٣٧: ٢٤، ٢٥؛ إش ٦٣: ٦؛ ١٥: ١٤؛ ٢: ٢- ٣؛ ٤٥: ٢٠- ٢٣؛ ٤٩: ٦؛ ٥١: ٥؛ ٥٥: ٥).

وقد رأى كثيرون من الكتبة والفريسيين الذين كانوا معاصرين للسيد، في الفصول المذكورة سابقًا، إشارات إلى المسيا الذي سيحرر الشعب من الاحتلال بعد أن يسحق أعداءه ويحطم قواهم، بل إن إسرائيل نفسه سيصبح سيدًا ومتسلطًا على الشعوب، هذا ما سيتم في عصر المسيا. بل إنهم رأوا فيه ليس فقط المحرر من المحتل والذي سيقود شعبه ليسيطر بدوره على الشعوب والأمم، بل رأوا فيه أيضًا المسيا الذي في عهده يتحقق وعد الرخاء والرفاهية.

٢- **مسيا الرخاء والرفاهية:** اعتقد بعض الفريسيين بأن المسيا سيحقق وعد يهوه الذي وعد به شعبه في القديم، الوعد الذي يتضمن عصر الرفاهية والعز (خر ٣: ٨، ١٧؛ ١٣: ٥؛ ٢٣: ٣؛ لا ٢٠: ٢٤؛ عد ١٣: ٢٧؛ ١٤: ٨؛ ١٦: ١٤؛ تث ٢٦: ٩، ١٥؛ ٢٧: ٣؛ يش ٥: ٦؛ إر ١١: ٥؛ ٣٢: ٢٢؛ حز ٢٠: ٦، ١٥).

---

(١) بخصوص موقف بعض الفريسيين من يسوع راجع الترجمة المسكونية وملاحظاتها باللغة الفرنسية لإنجيل لوقا (٧: ٣٦، ١١: ٣٧، ١٣: ٣١، ١٢: ١).

فعندما يأتي المسيا الذي تنبأ عنه الأنبياء، ستعطي الأرض كل قوتها (أي تفيض لبنًا وعسلاً)، وستكون السماء سخية في أمطارها، والطبيعة غنية في إنتاجها لدرجة أنه: «يكون في ذلك اليوم أن الإنسان يربي عجلة بقر وشاتين. ويكون أنه من كثرة صنعها اللبن يأكل زبدًا، فإن كل من أبقي في الأرض يأكل زبدًا وعسلاً» (إش ٧: ٢١- ٢٢) بل أكثر من ذلك، فعند مجيء المسيا «سيجلس كل واحد تحت كرمته وتحت تينته، ولا يكون من يرعب...» (مي ٤: ١- ٥). فالأشجار والكروم ستنتج في عصر المسيا كميات لا يمكن للعقل أن يتخيلها. ولقد تركت تعاليم بعض الفريسيين الذين كانوا يحلمون بعصر مسياني ذهبي تأثيرًا عميقًا في الكنيسة الأولى بخصوص المجيء الثاني للمسيح، إذ أن البعض من أعضاء الكنيسة المسيحية الأولى كان ينتظر بفارغ الصبر رجوع السيد السريع إلى الأرض، وبرجوعه يسود الرخاء والرفاهية والعز. وبما أنهم كانوا ينتظرون هذا الرجوع بطريقة سريعة ومباشرة، فقد امتنع البعض منهم عن العمل مما اضطر الرسول بولس معه أن يكتب لهم موبخًا على بطالتهم وحاثًا إياهم على العمل (٢تس ٢: ١- ٢؛ ٣: ١٠- ١٧).

ولقد انتشرت في الكنيسة الأولى بعض التعاليم الأبوكريفية الموروثة عن الأحلام المسيانية اليهودية، ومنها أن السيد نفسه علم قائلاً: «ستأتي أيام تنتج فيها الكرمة عشرة آلاف فرع، وكل فرع يحمل عشرة آلاف غصن، وكل غصن يحمل عشرة آلاف عنقود من العنب، وكل عنقود به عشرة آلاف حبة، وكل حبة عنب تعطي (METRETES 25)[1] خمسة وعشرين رزفا».

٣- مسيا السلام: إن الأحلام المسيانية التي انتشرت قبل وأثناء مجيء السيد إلى الأرض، في الأوساط اليهودية وفي بعض الأوساط المسيحية في الكنيسة الأولى، كانت أحلامًا حلوة لذيذة. لأنها لم تبعث في قلوب اليهود المستعمرين المضطهدين الرجاء في تحرير بلادهم واسترجاع سيادتهم عليها فحسب، بل إن إسرائيل نفسه سيكون مسيطرًا وسيدًا على العالم في العصر المسياني الذي سيعم فيه السلام، ليس الجنس البشري فحسب، بل أيضًا الطبيعة كلها ستتخلص من طبائعها وغرائزها الوحشية. فالإنسان المولع بالحروب وصناعة الأسلحة لكي يقتل ويهلك ويفني أخاه الإنسان، سيحول معداته الحربية إلى أدوات زراعية وصناعية نافعة لبناء المجتمع في عصر المسيا: عصر السلام التام.

وإشعياء يقول: «ويكون في آخر الأيام... فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككًا ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفًا، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد» (إش ٢: ١- ٤؛ مز ٤٦: ٨- ١١؛ ٧٢: ٦- ٧؛ مي ٤: ١- ٥) لأن المسيا المنتظر يُدعى «رئيس السلام»، ففي عصره لا يسمح بأن تندلع الحروب وتسفك الدماء (إش ٩: ٥؛ أف ٢: ١٧؛ كو ١: ١٥). وهذا السلام الذي كانوا يحلمون به، لن يكون قاصرًا على الجنس البشري فقط بل سيكون سلامًا عامًّا يسود ويسيطر على الطبيعة كلها.

فالذئب لا يهجم فيما بعد على الخروف بل «يسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والشبل والمسمن معًا وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معًا والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان...» (إش ١١: ٦- ١٠؛ ٦٥: ٢٥).

(١) Metretes = اناء تكال به السوائل ويسع حوالي ٤٠ لترًا من السوائل. اقتبس عن H. Causse ص ٢٣٤ (راجع قائمة الكتب).

لقد فسر بعض الفريسيين هذه النبوات الروحية تفسيراً حرفيًّا، فانتظروا مسيا سياسيًّا يعطي لهم كل هذه الامتيازات المادية، كما فسر ويفسر أيضًا الكثيرون الآن هذه الأقوال وأقوالاً أخرى من الكتاب المقدس (رؤ ٢٠: ٥- ٧) تفسيراً حرفيًّا ماديًّا. وبناء على هذا التفسير الحرفي المادي، تمسك البعض بفكرة أن المسيح سيأتي وسيملك ألف سنة بطريقة حرفية حقيقية.

إن حقيقة مجيء المسيح الثاني إلى الأرض أمر لاشك فيه، لأن الكتاب المقدس يكلمنا عنه بوضوح وفي أماكن مختلفة، أما موضوع ملكه الألفي على الأرض، فإن الآيات القليلة التي سجلها الكتاب بخصوصه لا تسمح لنا بأن نصل إلى هذا الاستنتاج. وهذا يوضح لنا خطورة التفسير الحرفي الذي اتبعه الفريسيون في تفسير العهد القديم وبعض تقاليد الآباء. وبما أنهم تشبعوا بهذه الفكرة، فكرة أن المسيا الحقيقي له السلطان أن يمنح فعلاً السلام الحقيقي والروحي، لم يقبلوه لأنهم نظروا إليه من خلال عقائدهم الشخصية، فلم يروا فيه اللون الذي كانوا يبحثون عنه - أي التحرير من المستعمر والسيادة على الشعوب الأخرى، والرخاء والرفاهية، ولذلك فقد ضموا صوتهم إلى الأصوات الأخرى مع الصدوقيين والهيرودسيين قائلين: «اصلبه، اصلبه...»

لدراسة هذا الموضوع الخاص بالغيوريين والحركات السياسية، الرجاء الرجوع إلى المراجع التي ذكرناها في الصفحات (٧٥- ٧٦).

الفصل السابع

مفهوم التلاميذ عن يسوع

بعد دراستنا لشخصية المسيح، رأينا ماذا كانت عقيدة الغيورين وعقيدة الفريسيين في شخص يسوع، وماذا كان موقف يسوع من هذه الطوائف المعاصرة له، والآن يجب أن نسأل هذا السؤال: ماذا كانت عقيدة التلاميذ في المسيح؟ هل كان للتلاميذ نفس الآمال والأحلام والانتظارات الروحية والسياسية التي كانت تملأ عقول اليهود المعاصرين ليسوع؟ أم أن التلاميذ فهموا من أول الأمر أن يسوع الناصري هو المسيا المنتظر، المسيا الذي سيخلص الشعب من خطاياه، أي أن رسالته روحية وليست سياسية؟ أو بعبارة أصح: هل فهم التلاميذ من أول مقابلة لهم مع يسوع أو في أثناء المدة التي عاشها معهم، بأنه «المسيح»... لم يأتِ ليُخدم بل ليَخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين؟ (مر ١٠: ٤٥) ماذا رأى التلاميذ في يسوع؟

عندما ندرس الفصول الكتابية التي تكلمنا عن عقيدة التلاميذ في يسوع، نلاحظ أنهم في بادئ الأمر، وأثناء الفترة التي قضاها السيد معهم على الأرض، بل وبعد موت المسيح وقبل صعوده إلى السماء، لم يختلفوا كثيرًا في معتقداتهم وآرائهم عن معتقدات وآراء الكثيرين من اليهود معاصريهم. وذلك لأن هؤلاء التلاميذ كانوا يهودًا، شاركوا اليهود في كثير من الأحيان في آمالهم وأحلامهم ومعتقداتهم. وكم من المرات سأل التلاميذ المسيح أسئلة تدل على أن المفاهيم اللاهوتية اليهودية، بل والمفاهيم الشعبية كانت تسيطر عليهم كما كانت تسيطر أيضًا على بقية اليهود: «فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟» (يو ٩: ٢).

وعندما يقول أندراوس لسمعان أخيه: «وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح» (يو ١: ٤١)، فإنه لا يقصد بهذه العبارة إلا ما كان يقصده اليهودي المتدين الذي كان ينتظر مجيء المسيا الذي سيخلص ويحرر إسرائيل من العبودية الأجنبية ثم ينعش الحياة الروحية.

مما لاشك فيه أننا لا يمكن أن ننسى الإعلان العظيم الذي نطق به بطرس في قيصرية فيلبس عندما سأل السيد قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟ فأجاب بطرس وقال: أنت هو المسيح ابن الله الحي..» (مت ١٦: ١٣- ٢٠). إن هذا الإعلان العظيم السامي يعد أساسًا متينًا للكنيسة، ولكننا لا ننسى أيضًا أن هذا الإعلان الذي نطق به بطرس لم يكن نتيجة لتفكيره

الشخصي، بل هو إعلان الآب لبطرس: «طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات...» (مت ١٦: ١٧). إن هذا الاعتراف أو قانون الإيمان الذي نطق به بطرس هنا لم يكن إلا وحيًا خاصًا من الله الآب لبطرس. إن بطرس الذي نطق بهذا الإعلان العظيم كان هو أيضًا كبقية التلاميذ تسيطر عليه نفس الأفكار ونفس المعتقدات التي كانت تسيطر على كثيرين من اليهود. بل وفي كثير من الأحيان استحوذت الأحلام والأماني المسيانية على التلاميذ، الأحلام والأماني المسيانية التي كان يحلم بها ويشتاق إليها كثيرون من اليهود. ولكي تكون هذه الفكرة واضحة في أذهاننا لنرجع إلى هذا الإعلان الذي نطق به بطرس كما سجله لنا القديس مرقس، إن هذا الإعلان كان إعلانًا سماويًا من قبل الآب، الآب نفسه هو الذي أعلن لبطرس هذه الحقيقة. والفرق شاسع واسع بين هذا الإعلان الموحى به من الآب لبطرس وبين عقيدة وإيمان بطرس الشخصي في يسوع الناصري. فإن إيمان بطرس الشخصي في يسوع كان شبيهًا بمعتقدات كثيرين من اليهود في عصره الذين كانوا يؤمنون بأن المسيا سيأتي، لا لكي يتألم ويموت بل لكي يخلص شعبه من الذل ويمجدهم. ولقد قال الدكتور فهيم عزيز عن حق: «فالتلاميذ لم يكونوا مستعدين أن يتقبلوا هذا الإعلان.

إنهم كانوا ينتظرون ابن الإنسان صاحب السلطان، أما عبد الرب الذي يموت، فلم يحلموا به»[1]. ولهذا السبب عينه فإن بطرس الذي يعترف بأن يسوع هو المسيح ابن الله الحي، هو نفسه الذي ينتهر المسيح بشدة عندما يتكلم عن آلامه وموته. وعندما نقرأ هذا الفصل (مر ٨: ٢٧- ٣٨) بشيء من التدقيق نلاحظ تحولاً عظيمًا وعجيبًا في تعليم السيد، فيسوع يصل إلى قيصرية فيلبس حيث تم تشييد أربعة عشر مذبحًا للآلهة المختلفة، وهنا يسأل السيد سؤاله العظيم: «من يقول الناس إني أنا؟... هل أشبه واحدًا من هذه الآلهة التي نصبت تماثيلها في هذه المدينة؟» وكان جواب بطرس الذي أوحاه إليه الآب: «أنت المسيح ابن الله الحي». فبعد هذا الاعلان الذي أعلنه الآب لبطرس، نلاحظ هذا التحول الغريب العجيب في تعليم المسيح، فقبل هذا الإعلان لم يتكلم المسيح كثيرًا عن آلامه وموته. وأما الآن، أي بعد هذا الاعلان، فإن السيد بدأ يتكلم بوضوح وصراحة عن موته. ومتى يقول: «من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرًا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل وفي اليوم الثالث يقوم...» (مت ١٦: ٢١) «من ذلك الوقت»، أي من الوقت الذي فيه أعلن الآب على فم بطرس هذه الحقيقة العظيمة، حقيقة أن يسوع هو ابن الله الحي، بدأ يسوع يعلن لهم طريقًا آخر وهو أن هذا الإعلان الذي نطق به بطرس إعلان صحيح، وأنه فعلاً ابن الله الحي، ولأنه فعلاً ابن الله الحي، سيقبل أن يتألم ويموت بدلاً من شعبه. والسيد له المجد كان يرى الخطر الكامن والتجربة القاسية وراء هذا الاعتراف. فلقد عرف أن التلاميذ، وعلى رأسهم بطرس نفسه الذي نطق بهذا الإعلان، سوف يفسرون هذا الإعلان تفسيرًا جسديًا ماديًا مثلما فعل الفريسيون، ولهذا السبب عينه بدأ من هذا الوقت يظهر لهم أنه ينبغي أن يتألم ويموت. وهنا يعلن يسوع بدوره أيضًا إعلانًا هامًا لا يقل أهمية عن إعلان الآب لبطرس، وإعلان المسيح هذا يتضمن أنه لابد أن يتألم ويموت. وكأني بهذا الإعلان يقطع عليهم الطريق الذي يوصلهم إلى مسيا سياسي. وهنا نلاحظ رد فعل بطرس، الشخص الذي أعلن من لحظات فقط بأن يسوع هو المسيح: «فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره» (مر ٨: ٣٢). وهناك سببان دفعا بطرس لانتهار المسيح:

---

(١) راجع كتاب ملكوت الله للدكتور فهيم عزيز ص ١٧٤ (صدر عن دار الثقافة المسيحية) سنة ١٩٧٠.

١- مع أن بطرس هو الذي نطق بهذه الحقيقة العظيمة التي أوحى له بها الآب إلا أنه لم يفهمها في بادئ الأمر إلا بطريقة جسدية مادية، أي أنه ابن الله الحي الذي يمكن أن يخلص إسرائيل من الاستعمار ويرد له حريته.

٢- إن الذي دفع بطرس لانتهار المسيح هو أن يسوع تكلم علانية عن موته: «وقال القول علانية» (مر ٨: ٣٢)، وكأني ببطرس يقول للمسيح منتهرًا إياه: «يا يسوع ألا تعلم أنك تعثر الشعب، بل أنك تحطم آمالهم عندما تقول هذا الكلام أمام الجميع الذين ينتظرون أنك تخلصهم وترد لهم الملك وترجع لهم السلطان والسيادة على بلادهم؟» ومرقس يواصل قصته بالقول: «فالتفت وأبصر تلاميذه فانتهر بطرس قائلاً: اذهب عني يا شيطان» (مر ٨: ٣٣). والتلاميذ كلهم كانوا يشاركون بطرس في هذا اللوم الموجه للسيد لأنهم كانوا يشاركونه نفس الآمال والأحلام. ولهذا السبب يوجه السيد هذه الكلمات القاسية على مسمع ومشهد منهم، وهي نفس الكلمات التي وجهها للشيطان الذي جاء إليه مجربًا على الجبل. فإن التجربة التي جرب بها الشيطان السيد هي بأن يكون مسيا سياسيًا، ولقد رفض يسوع هذا الطريق، ولكن الشيطان لم يفشل، فبالرغم من أنه حاول تجربة السيد بثلاث تجارب، إلا أنه بعد آخر تجربة يقول القديس لوقا: «ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقة إلى حين» (لو ٤: ١٣). فإن إبليس لم يترك السيد بعد التجربة على الجبل إلا إلى حين. وهنا نراه الآن وقد رجع إليه في شخص بطرس، وسيرجع إليه فيما بعد في ظروف مختلفة متنوعة وفي أشخاص كثيرين.

والجدير بالذكر أن سؤال المسيح: «من تقول الجموع إني أنا؟ وإعلان الآب لبطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، هذا السؤال وهذا الإعلان قد حدثا بين التلاميذ والمسيح، ولم تسمع الجموع السؤال والجواب. فلوقا يسجل لنا هذا الأمر بالقول: «وفيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه، فسألهم قائلاً من تقول...» (لو ٩: ١٨). وهذا الأمر يلفت أنظارنا إلى حقيقة في غاية الأهمية، وهي أن يسوع كان يحاول جاهدًا أن يخفي نفسه كمسيا عن الجماهير، لذلك عندما كان يلاحظ وجود بعض الثغرات التي من خلالها كان يمكن للجماهير أن تراه كمسيا، كان يسرع لإغلاقها، ولهذا السبب فقد سأل المسيح تلاميذه على انفراد حتى لا تسمع الجماهير إجابة بطرس بأنه ابن الله، ولهذا السبب أيضًا يعلن المسيح ليس على انفراد لتلاميذه فقط بل للجميع: «وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني...» (لو ٩: ٢٣- ٢٧). وكأن السيد يريد بهذا التصريح أن يحول أنظار تلاميذه أولاً، وأنظار الجماهير ثانيًا إلى حقيقة هامة: وهي أنه ليس هو المسيا الذي نسجه خيال وأحلام اليهود، أي المسيا السياسي، وأن الطريق الذي يريد لشعبه أن يسلك فيه، طريق وعر صعب، يختلف تمام الاختلاف عن كل الطرق التي نادى بها المسايا الكذبة الذين جاءوا قبله. فإن المسايا الكذبة الذين جاءوا قبله وعدوا الشعب بالاستقلال والحرية، وإرجاع الملك لإسرائيل، وأما يسوع فمن أول الطريق يعلن للذين يريدون أن يتبعوه بأن الطريق الذي سيسيرون فيه طريق ضيق وكرب (مت ٧: ١٤) بل وطريق حمل الصليب وإنكار الذات، بل وأكثر من ذلك أنه طريق الموت. إن هذا الإعلان الذي أعلنه يسوع علانية للتلاميذ وللجماهير أيضًا كان سبب عثرة ليس فقط للجماهير بل للتلاميذ أيضًا. لأن الجماهير كانت تتوقع ظهور المسيا قريبًا. وأما التلاميذ فقد رأوا فيه المسيا الذي حلموا به، أي المسيا الذي سيحطم قوة العدو ويرجع السلطان لأمة إسرائيل، وليس المسيا الذي يتكلم عن ضعفه وصلبه (يو ١٢: ٣٤). ولهذا السبب أيضًا ينتهر بطرس يسوع عندما يتكلم عن ضعفه وعن موته، لأن التلاميذ في أحيان كثيرة كانوا ينظرون إلى يسوع كالمسيا الذي توقعته الجماهير، وبمجيئه سيأتي ملكوت

الله، وفي هذا الملكوت سيحتلون مراكز القيادة والعظمة، لدرجة أنه في بعض الأحيان كانوا يتشاجرون عندما كانوا يثيرون مشكلة القيادة والعظمة واحتلال المركز الأول في ملكوت الله: «وكانت بينهم أيضًا مشاجرة من منهم يظن أنه يكون أكبر...» (لو ٢٢: ٢٤؛ ٩: ٤٦- ٤٨؛ مر ٩: ٣٣- ٣٧). ألم تطلب أيضًا أم يعقوب ويوحنا من السيد بأن يكون أبناؤها في صدارة مكان العظمة في ملكوته؟ «قل أن يجلس ابناي هذان واحد عن يمينك والآخر عن اليسار في ملكوتك...» (مت ٢٠: ٢٠ - ٢٨).

وهذا الأمر واضح جلي في النقاش الذي دار بين تلميذي عمواس وبين السيد نفسه، عندما قالا له: «ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل...» (لو ٢٤: ١٣ - ٢٧). فلقد كانت آمال الرسل في يسوع تشبه إلى حد كبير آمال اليهود في المسيا السياسي. ولهذا فعندما مات يسوع على الصليب ولم يصل إلى تحقيق هذه الآمال التي كان يحلم بها اليهود (لو ٢٤: ٢١) خابت آمالهم وتحطمت نفسيتهم لدرجة أن أشجعهم قال: «أنا ذاهب لأتصيد، قالوا له نذهب نحن أيضًا معك...» (يو ٢١: ٣ - ٦). ومن هذا يتضح كيف أن بعض التلاميذ قرروا الرجوع إلى بعض الحِرَف القديمة مثل الصيد، بعد أن تحطمت آمالهم على خشبة صليب الجلجثة (لو ٢٤: ٢١؛ ١: ٦٨- ٦٩). ومن العجيب أن هذا المفهوم الخاص بمسيانية المسيح وإرجاعه الملك لإسرائيل، كان متسلطًا ومسيطرًا على التلاميذ بعد موته وقيامته، ويمكننا أن نستنتج ذلك من سؤالهم الذي طرحوه على يسوع بعد قيامته وقبل صعوده: «أما هم المجتمعون فسألوه قائلين: يارب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟» (أع ١: ٦).

مما سبق يتضح لنا مفهوم التلاميذ الخاص عن يسوع كان يشبه إلى حد كبير مفهوم كثيرين من اليهود معاصريهم. والسؤال الذي يجب أن نسأله الآن هو: «هل تمسَّك التلاميذ بهذا المفهوم وعلموا به على طول الخط؟»

للإجابة على هذا السؤال يجب أن نلاحظ ثلاث مراحل في حياة التلاميذ والرسل:

المرحلة الأولى: هي التي فيها تقابلوا وعاشوا وتناقشوا مع الرب أثناء وجوده على الأرض.

المرحلة الثانية: هي الفترة التي نسميها فترة التيتم، أي فترة الخمسين يومًا التي قضاها التلاميذ من بعد قيامة المسيح إلى حلول الروح القدس.

المرحلة الثالثة: هي فترة الامتلاء والإعلان، فترة القوة.

لقد سبق أن رأينا مفهوم التلاميذ في المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية، مرحلة التيتم، فهي الفترة التي استطاع خلالها التلاميذ أن يفكروا ويتأملوا جديًا في كلمات يسوع وعظاته وتعاليمه التي نطق بها والتي سمعوها. لقد كانت الفترة ما بين صلبه وحلول الروح القدس، فترة صلاة. وتأمل وتفكير في العلية. إنها فترة الاجترار. ففي هذه الفترة التي شعروا فيها بأنهم أيتام فعلاً بعد صعود المسيح وقبل حلول الروح القدس، استطاعوا أن يفكروا بتعمق في شخصية يسوع الناصري. وتختم هذه الفترة بالحادثة العظيمة المجيدة - أي بإتمام الوعد الذي وعد به السيد تلاميذه، بأنه لن يتركهم يتامى (يو ١٤: ١٨) بل سيرسل لهم روح الحق، الروح الذي يسكن فيهم، ويبكت العالم أيضًا على خطية وعلى بر وعلى دينونة (يو ١٦: ٨)، فهو الذي سيعلمهم الحق وكل الحق (يو ١٥: ٢٦، ٢٧؛ يو ١٦: ٥ - ١١).

فعندما حل الروح القدس على الرسل يوم الخمسين، غير ونظف عقول الرسل من المفاهيم العتيقة الخاصة بالمسيا الأرضي. هذه المفاهيم التي كانت تسيطر على عقول اليهود وعلى عقول الرسل، تغيرت تمامًا، كليًّا وجزئيًّا، عندما حل الروح القدس عليهم: «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معًا بنفس واحدة... وامتلأ الجميع من الروح القدس...» (أع ٢: ١- ٤). ولم يحدث هذا التغيير الشامل إلا بعد حلول الروح القدس.

ومن الغريب المدهش أن هذا التغيير لم يشمل فقط الناحية التعليمية، أي أن مفهوم الرسل الخاص بالسيد ليس هو الذي تغير فحسب، بل أن سلوك التلاميذ نفسه قد تغير أيضًا. فبعد حلول الروح القدس عليهم بدأوا في المرحلة الثالثة، مرحلة الامتلاء والإعلان، أو مرحلة القوة والنشاط العملي. والتغيير الذي حدث في تعاليمهم عن المسيح وفي مفهومهم، له مظاهر واضحة، فهم لا يعلمون بعد بمسيا سياسي سيخلص إسرائيل من الاستعمار، بل بمسيا حقيقي سيخلص الشعب من خطاياه وأحماله الثقيلة: «فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحًا» (أع ٢: ٣٦، في ٢: ١١، أف ١: ٢١) «هذا رفعه الله بيمينه رئيسًا ومخلصًا ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا، ونحن شهود له بهذه الأمور والروح القدس أيضًا الذي أعطاه الله للذين يطيعونه» (أع ٥: ٣٠- ٣٢). ما أعظم هذا التغيير الذي حدث في حياة الرسل بعد حلول الروح القدس! فقبل أن يحل الروح القدس عليهم نسمع أشجعهم يقول مرتعبًا أمام جارية وهو «يلعن ويحلف أني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه» (مر ١٤: ٦٦- ٧٢) بل إن التلاميذ كلهم تركوه وهربوا (مر ١٤: ٤٨- ٥٢). وبعد موته بحثوا لأنفسهم عن مكان آمن يختبئون خلف أبوابه التي كانوا يغلقونها بإحكام لسبب الخوف من اليهود (يو ٢٠: ١٩)، أما بعد حلول الروح القدس فقد تحول ضعفهم إلى قوة، وجبنهم إلى شجاعة وخوفهم إلى ثبات، وشكوكهم إلى إيمان عميق وشهادة لامعة، فبطرس الذي أنكر سيده أمام جارية، يعلن أمام الرؤساء والشيوخ بأن يسوع الذي صلبوه هو رب ومسيح (أع ٤: ١٠- ١٢؛ ٥: ٣٠- ٣٢). فليس هو المسيا الذي ابتدعه الخيال اليهودي، بل هو ابن الله الحي مخلص العالم. هو حجر الأساس الذي يجب أن يوضع عليه كل أساس (أع ٤: ١٠- ١٢؛ رو ٩: ٣٣؛ أف ٤: ١؛ ١بط ٢: ٥- ١٠؛ لو ٢٠: ١٧).

مما سبق يظهر واضحًا أن مفهوم التلاميذ تغير تغييرًا كليًّا وجزئيًّا، بعد حلول الروح القدس. وستكون لنا الفرصة بأن نرجع إلى هذا الموضوع عندما نتكلم عن مفهوم الرسل لشخص المسيح يسوع وماذا رأوا فيه.

الفصل الثامن

مفهوم يسوع عن نفسه

عندما جاء المسيح مع تلاميذه إلى قيصرية فيلبس سألهم السؤال الآتي: «من يقول الناس إني أنا؟ فأجابوا يوحنا المعمدان وآخرون إيليا... فأجاب بطرس وقال له: أنت المسيح» (مر ٨: ٢٧- ٢٩).

في الصفحات السابقة حاولنا أن نبين أن هذا السؤال الذي طرحه السيد على تلاميذه على انفراد في قيصرية فيلبس، كان مطروحًا أيضًا على الجماهير بطريقة غير مباشرة، لأنها عندما وجدت وجهًا لوجه أمام المسيح، حاولت هي أيضا بدورها أن تجيب على هذا السؤال. ولقد سبق أن رأينا جواب الغيورين وموقفهم من يسوع، فإن هؤلاء رأوا في المسيح في بادئ الأمر المسيا السياسي الذي سيحرر الأرض المحتلة، الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ (مت ٣: ١٢). ثم رأينا جواب الكتبة والفريسيين والصدوقيين والهيرودسيين على سؤال يسوع السابق. وبما أننا ندرس تاريخ الفكر المسيحي وتطوره أو بالمعنى الأصح، تاريخ العقيدة المسيحية بخصوص شخص الرب يسوع المسيح، وبما أننا وصلنا أيضًا إلى هذه الحقبة من الزمان، أي الوقت الذي ظهر فيه السيد على الأرض، وبعد أن عرفنا شيئًا عن التيارات السياسية والدينية التي كانت تسيطر على المجتمع حينذاك وما هي الطوائف الدينية والسياسية المنتشرة في فلسطين في تلك الفترة وما هو جوابها على سؤال يسوع الناصري في قيصرية فيلبس، وبعد أن درسنا أيضًا مفهوم التلاميذ أنفسهم عن المسيا، نجد من الضروري أن نردد السؤال الذي أثاره كثيرون من اللاهوتيين: «ما هو مفهوم يسوع الناصري عن المسيا؟» وهذا السؤال يقودنا إلى عدة أسئلة أخرى:

(أ) هل كان يسوع يشارك اليهود في المفهوم العام والمنتشر عن المسيا؟

(ب) هل كان يسوع يعرف أنه هو نفسه المسيا؟

(ج) ومتى أدرك هذا الأمر، أي هل توجد لحظة معينة استطاع فيها أن يتأكد من حقيقة مسيانيته؟

(د) وهل حاول أن يعلن مسيانيته للشعب أم أن يخفيها عنه ولماذا؟

هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى يثيرها الذين يدرسون حياة وتعاليم المسيح.

ويمكننا أن نلخص هذه الأسئلة في هذا السؤال: «ماذا يقول يسوع الناصري عن المسيح، المسيا؟»

ولكن قبل أن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة وخصوصًا السؤال الأخير، يحسن بنا أن نلقي نظرة ولو سريعة على التيارات اللاهوتية المختلفة وموقفها من شخصية يسوع الناصري. أو بعبارة أخرى، ما هو جواب التيارات اللاهوتية على هذا السؤال: «من يقول الناس إني أنا؟»

إن هذا السؤال احتل المكانة الأولى في حياة الكنيسة وتعاليمها على مر العصور، ولذلك فقد ظلت تردده على الذين انتموا إليها. ولكن أجوبة هؤلاء تنوعت واختلفت باختلاف وتنوع التيارات اللاهوتية التي انضموا إليها وساروا في مجراها. ولكي نتحاشى الدخول في التفصيلات الصغيرة والبسيطة، يمكننا أن نلخص الاتجاهات اللاهوتية المختصة بمسيانية يسوع في ثلاثة اتجاهات لاهوتية:

١ – العصريون المتطرفون:

في الفصل الذي تكلمنا فيه عن حركة النقد التاريخي، رأينا موقف بعض اللاهوتيين المتطرفين الذين يظنون بأن يسوع كان يهوديًا وظل يهوديًا، ولم يفكر في أن يخلق ديانة جديدة، وكل ما كان يسعى إليه هو الحصول على تحرير فلسطين من الاستعمار الروماني. ولقد حاول جاهدًا أن يفهم الشعب بأنه ابن الله، أي المسيا، ولكن خطته فشلت، بل أودت به إلى الموت (رأي ريمارس (REIMARUS) ولقد سلك هذا الطريق أيضًا رينان الذي قدم لنا يسوع كالشاب الحلو الحالم الذي كان يجول في قرى الجليل وهو باسم للحياة، وقد خلق منه أتباعه صانع المعجزات، أي المسيا، الأمر الذي قاده في نهاية المطاف إلى الموت). ثم جاءت طائفة، بل طوائف أخرى حاولت الإجابة على سؤال يسوع: «من يقول الناس إني أنا» فقالوا: إن يسوع يعتبر مصلحًا اجتماعيًا عظيمًا، بل حكيمًا ومعلمًا قديرًا، يفوق كل المعلمين والحكماء الذين سبقوه (رأي GOTTOL POULUS).

ويقول بولتمان في كتابه (يسوع JESUS) ص ٣٣ - ٣٦: «إن يسوع لم يعتبر نفسه المسيا...». إلا أنه يتساءل في كتاب آخر[1] قائلاً «هل كان يسوع يعلم بأنه هو المسيا؟» ثم يواصل بولتمان شرحه بالقول: «يمكننا أن نقبل عقيدة الكنيسة الأولى المختصة بمسيانية يسوع إذا كان يسوع نفسه دعا إلى ذلك وعلم به، أو على الأقل أعلن مسيانيته لتلاميذه». ولكن هل هذه الحجة صحيحة؟ لأنه يحتمل أن مفهوم التلاميذ لمسيانية يسوع يشبه مفهومهم لقيامته. وبولتمان يظن أن كلاً من اعتراف بطرس: «أنت المسيح»، وحادثة التجلي والعماد والتجربة في الصحراء ما هي إلا قصص فيها نوع من الخرافة[2]. ولكي نوضح النص السابق الذي يتكلم فيه بولتمان عن عدم التأكد مما إذا كان يسوع قد علم بمسيانيته أم لا، نقتبس نصًا آخر لنفس الكاتب: «إنه ليس في استطاعتنا أن نعرف سمات يسوع وحياته وشخصيته... إذ أنه لا يمكن أن نثبت صحة أي كلمة من

(١) نرجو ملاحظة أن بولتمان يستعمل هنا كلمة Legende وليس كلمة Mythe ص ٦٢ بنفس الكتاب Theology of the N.T. V.I.P

(٢) راجع كتاب بولتمان R. B. Bultmann.. Jesus. ٣٣- ٦٣.

كلامه. وكل ما يمكن لنا أن نقوله عن حياة يسوع وعن شخصيته هو ألا نقول شيئًا... وذلك يرجع إلى عدم التأكد مما إذا كانت هذه الأقوال هي فعلاً أقوال المسيح أم هي إضافات من الكنيسة الأولى».

والذين درسوا حركة النقد التاريخي يعرفون أن كثيرين من العصريين يقولون بأن الأناجيل الأربعة التي بين أيدينا الآن، تحتوي على إضافات كثيرة أضافها الرسل من عندياتهم، ونسبوها للمسيح ولا يوجد لها أصل حقيقي في أقوال يسوع. وقد أضاف الرسل أنفسهم هذه الأشياء من معجزات وأحداث وقصص... إلخ. لكي يشرحوا بها وعن طريقها عقيدة الكنيسة الأولى في المسيا وسلطانه المطلق. فالعصري (المودرن) عندما يقرأ فصلاً من الفصول الإنجيلية، يسأل هذا السؤال: «هل هذا الفصل هو فعلاً وحقيقة أقوال المسيح التي نطق بها في حياته على الأرض، أم هو فصل من صنع الكنيسة الأولى التي أرادت أن تعبر به عن إيمانها وعقيدتها في المسيا؟» لذلك ظن كثيرون من العصريين، كما يشير إلى ذلك الأسقف برنار بارثمان، بأن يسوع لم يعتبر نفسه المسيا بل أن التلاميذ هم الذين أعطوه هذا القلب بعد موته وقيامته من بين الأموات، الأمر الذي كان يرفضه بشدة أثناء حياته على الأرض[1].

مما سبق يتضح لنا أن العصريين يرفضون حقيقة أن يسوع كان يعتبر نفسه مسيا، وذلك لعدم التأكد مما إذا كانت هذه النصوص الخاصة بمسيانيته، هي نصوص قد نطق بها فعلاً السيد أم نسبت إليه من الكنيسة الأولى.

٢- الوسطيون:

أما الاتجاه اللاهوتي الثاني فيمكننا أن نسميه موقف الوسطيين.

فما هو جواب الوسطيين على سؤال يسوع السابق: «من يقول الناس إني أنا؟»

إن الوسطيين يقدمون لنا يسوع كإنسان كامل في تكوينه البيولوجي والنفسي، كان ينمو نموًا طبيعيًا بعد ميلاده الطبيعي. ولوقا يقول: «كان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس» (لو ٢: ٥٢). وهناك شواهد كثيرة تدل على ناسوت المسيح مثل (لو ١٠: ٢١؛ يو ١٢: ٢٧؛ مر ١٤: ٣٤؛ عب ٢: ١٧، ١٨؛ عب ٥: ٧). ويعترف هذا الفريق من اللاهوتيين بأن يسوع قد قام بأعمال عظيمة وسامية جدًا، وقد عاش في حياته حياة البر والقداسة، بل حياة الطاعة الكاملة لله. وبهذه الروح، روح الطاعة الكاملة والخضوع المطلق لله ذهب المسيح ليس فقط إلى أورشليم ثم إلى الصليب، بل قبل بشجاعة منقطعة النظير الموت، ولهذا السبب قد رفعه الله إلى منصبه كإله. ويقتبس الوسطيون (في ٢: ٥- ١١). ومما لا شك فيه أن الوسطيين يرتكبون خطأ شنيعًا في تعليمهم بأن يسوع رفع إلى درجة إله، وستكون لنا الفرصة لنتحدث عن ذلك عندما نتكلم عن طبيعتي المسيح.

أما بخصوص مسيانيته، فهم يقولون بأن يسوع كان يشعر بدعوة داخلية تدفعه للعمل. ولقد رافقه هذا الشعور وهو صبي صغير في الثانية عشرة من عمره. ألم يقل لمريم ويوسف في عيد الفصح عندما صعدوا إلى أورشليم: «لماذا كنتما تطلبانني

(1) MGR. Barthmann Precis de Theogie Dogmatique. Pp. 352- 354.

ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو ٢: ٤٩). ويقول المتمسكون بهذه النظرية بأن هذا الشعور كان ينمو ويزداد عند يسوع كل يوم إلى أن جاءه الصوت الذي أعلن له هذا الأمر في حادثة العماد، فإن هذا الصوت الذي جاء من السماء كان غرضه أن يؤكد ليسوع أنه ابنها الحبيب: «أنت ابني الحبيب» (لو ٣: ٢١). ففي هذه اللحظة أعلن الله ليسوع أنه هو الشخص الذي سيقوم بتأدية الرسالة الخطيرة والسامية التي يشعر بعظمتها في داخله. فإن الصوت الذي كان يتكلم داخل يسوع هو البرهان المرسل من الله لكي يقنعه بصلاحيته وحقيقة هذا الشعور بأنه ابن الله، المسيا. وحلول الروح القدس على هيئة حمامة (أي بصورة منظورة) كان برهانًا محسوسًا منظورًا وعمليًا لكي يبرهن بطريقة واضحة على مسيانيته، ليس فقط له بل وللذين كانوا ينظرون الروح نازلاً عليه في هيئة حمامة. وهنا في حادثة العماد، يتحقق يسوع من الأمر الذي لم يكن متأكدًا منه من قبل وهو مسيانيته وبنويته لله. فبحسب هذه النظرية، فإن يسوع تأكد بطريقة واضحة من رسالته التي سيقوم بها كمسيا وكابن لله، بعد العماد فقط.

٣- المحافظون:

ولقد أجاب المحافظون بدورهم على هذا السؤال: «من يقول للناس إني أنا؟» باقتباس اعتراف بطرس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦: ١٦) إن جماعة المحافظين تعتقد أن يسوع الناصري ابن مريم هو أيضًا المسيح ابن الله. وهذا يعني بالنسبة لهم أن يسوع لم يكن بطلاً أو عالمًا أو مصلحًا اجتماعيًا، أو معلمًا عظيمًا فاق كل أقطاب عصره، بل هو أعظم من ذلك بكثير. ويمكننا أن نقول إن يسوع كان معلمًا عظيمًا، مصلحًا اجتماعيًا... إلخ. ولكن لا يمكننا أن نقول إن يسوع قد ارتفع إلى درجة العظمة والألوهية لأنه كان رجلاً عظيمًا حكيمًا عالمًا، مطيعًا لله، كما يعتقد الوسطيون. بل إذا كان يسوع حكيمًا ومعلمًا ممتازًا ومصلحًا اجتماعيًا... فذلك يرجع إلى حقيقة أنه كان أولاً وقبل كل شيء الله الذي ظهر في الجسد: «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد» (١تي ٣: ١٦). عمانوئيل «الذي تفسيره الله معنا» حل بمجده ولاهوته في أرضنا، لأنه فيه «يحل كل ملء اللاهوت جسديًا» لأن «الكلمة صار جسدًا» (كو ٢: ٩؛ يو ١: ١٤- ١٦). وهنا يظهر الاختلاف الشاسع بين فكرة العصريين والمحافظين، فالعصريون يظنون أن يسوع كان إنسانًا عظيمًا ساميًا ومصلحًا اجتماعيًا، أما المحافظون فيؤمنون بأن يسوع المسيح هو الله الذي حل في الجسد. كذلك أيضًا يظهر الفرق العظيم بين ما يعتقده الوسطيون وما يؤمن به المحافظون. فالوسطيون يظنون أن يسوع ارتفع إلى درجة الألوهية، بينما يؤمن المحافظون بأن الله نفسه حل بملء لاهوته في الإنسان يسوع الناصري، كما يعلم الكتاب المقدس، الدستور الوحيد للإيمان والأعمال.

ومع أن التيارات اللاهوتية الثلاثة الذي ذكرناها سابقًا تمثل بصفة عامة الاتجاهات اللاهوتية المختلفة الموجودة حاليًا في العالم، إلا أن كل تيار من هذه التيارات اللاهوتية يضم تحته أيضًا تيارات أخرى فرعية، ويعوزنا الوقت لو دخلنا في تفصيلاتها الدقيقة. وفي هذه المذاهب اللاهوتية الثلاثة، رأينا كيف أجاب ويجاوب كل مذهب لاهوتي على سؤال يسوع الناصري في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا؟»

ومما لا شك فيه أن كل مذهب من هذه المذاهب اللاهوتية المختلفة حاول بقدر الإمكان الرجوع إلى المكتوب لكي

يؤيد نظريته. فالعصريون أنفسهم، الذين يظنون بأن التلاميذ نسبوا أقوالاً كثيرة إلى يسوع، قد رجعوا هم أيضًا إلى الكتاب لكي يؤيدوا فكرتهم. وعلى أية حال إن مشكلة النصوص التي نطق بها السيد والنصوص التي نسبت إليه مشكلة معقدة شائكة، حتى أن علماءهم لا يستطيعون أن يبتوا بكيفية صحيحة وأكيدة في الفصول التي نطق بها السيد، والفصول التي لم ينطق بها. ومن هذا يتضح أن العلماء العصريين غير متأكدين هم أيضًا من صحة حكمهم هذا. وهنا يتساءل بيبنبرج (C. PIEPENBRING) قائلاً: «هل يجب أن نقبل ما يقوله مرقس (٨: ٢٧- ٣٠) والفصول الأخرى الإنجيلية التي تعلمنا بأن يسوع كان يعتقد في مسيانيته، أو نقبل النقد الحديث الذي يقدم لنا حلاً آخر، وهو أن كل التصريحات الخاصة بمسيانية يسوع قد نسبت إليه عن طريق الكنيسة الأولى؟»[1] ثم يحث الكاتب على بحث هذه المشكلة مع التمسك حاليًا بما هو لدينا.

بعد هذه المقدمة السريعة عما يقوله الناس عن يسوع، لنرجع إلى سؤالنا الرئيسي وهو «هل كان يعرف يسوع الناصري أنه المسيا؟»

إن هذا السؤال في صيغته هذه، يخفي لنا تيارًا عصريًا أو وسطيًا، وفي حقيقة الأمر أن كثيرين من العصريين والوسطيين يطرحون هذا السؤال بهذه الصورة، ولذلك فمن الضروري قبل أن نتقدم في بحث هذا السؤال يجب أن نغير صيغته فنقول: «كيف يمكننا أن نعرف أن يسوع الناصري هو المسيا؟ ثم ماذا يقول يسوع الناصري عن يسوع المسيا؟» وإذا كنا قد غيرنا صيغة هذا السؤال الذي يسأله العصريون والوسطيون، فذاك لأنه لا ينطبق إلا على إنسان يبحث عن شخصيته، فالإنسان طوال حياته يبحث وينقب لكي يعرف نفسه على حقيقتها، ولكي يعرف أيضًا بعض الشخصيات التي تحيط به وتتعامل معه، أما يسوع فلا ينطبق عليه هذا القول لأنه كان يعرف نفسه جيدًا، يعرف من أين أتى وإلى أين يذهب كما يقول هو نفسه للفريسيين: «...وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب» (يو ٨: ١٤).

ولكي يكون الأمر واضحًا في أذهاننا يجب أن نميز بين يسوع المسيا الحقيقي والمسيا الذي كان ينتظره اليهود، فإن المسيا الذي كان ينتظره اليهود هو مسيا سياسي ديني يخلص الشعب من الاستعمار الروماني ويصبح قائدًا سياسيًا على رأس دولة ثيوقراطية مستقلة. الأمر الذي رفضه يسوع رفضًا باتًا في كل حياته وتصرفاته (يو ٦: ١٥).

ومن هذا يظهر أن يسوع لم يشارك معاصريه في مفهومهم للمسيا، فإن هؤلاء كانوا ينتظرون مسيا يحطم أعداء شعب الله ويسحقهم سحقًا، كما أنه لم يشارك معاصريه أيضًا في تخيلاتهم المسيانية بخصوص سلطان شعب الله على الأمم واتساع ملك داود... إلخ [2].

وهنا نرى الفرق الشاسع بين مفهوم الشعب اليهودي وانتظاراته الخاصة بالمسيا، ومفهوم المسيح يسوع نفسه عن المسيا، أي عن نفسه. ولا يليق بنا أن نسأل فيما إذا كان يسوع الناصري يعرف أم لا بأنه المسيا، وذلك لأن العهد الجديد يقدم لنا شهادات وشواهد عديدة تثبت حقيقة هذا الأمر.

(1) C. Pieperbring. Jesus Historique.

(٢) انظر كتاب بولتمان بعنوان Jésus ص ١٩- ٢٦ الطبعة الفرنسية

المسيا:

من هذه الشهادات التي تعترف بمسيانية يسوع، قول أندراوس: «قد وجدنا مسيا الذي تفسيره المسيح. فجاء به إلى يسوع، فنظر إليه يسوع وقال أنت سمعان بن يونا، أنت تدعى «صفا الذي تفسيره بطرس» (يو ١: ٤٢). «أنت هو الآتي أم ننتظر آخر» (مت ١١: ٣). «فأجاب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦: ١٦). هذه الاعترافات والتساؤلات توضح لنا حقيقة هامة جدًا، فبغض النظر عن مفهوم السائل فيما يخص المسيا، فإن النقط الهامة والأساسية التي يجب أن نبني عليها عقيدتنا المسيحية هي جواب المسيح على السائل. ولقد أجاب السيد بطريقة إيجابية على هذه الأسئلة وأسئلة أخرى في أماكن أخرى بخصوص شخصيته ومسيانيته. فعندما جاء بطرس مع أخيه أندراوس إلى السيد لم يوبخه ولم ينتهره يسوع على اعترافه هذا، مما يدل على أنه قبل هذا اللقب حتى وإن كان أندراوس في هذا الوقت لم يكن يفهم بالضبط الأبعاد الشاملة لهذا اللقب. وفي إجابته على التلميذين المرسلين من قبل يوحنا، شرح لهما بطريقة واضحة وصريحة دون أن يذكر كلمة مسيا، بأنه هو فعلاً ذلك المسيا. بل أكثر من ذلك، فإن يسوع طوب بطرس عندما اعترف بوحي من الآب بمسيانيته وقال له: «طوبى لك يا سمعان بن يونا...». فإن دلت هذه الكلمات الموجهة إلى بطرس على شيء فإنها تدل على مسرة قلب يسوع بهذا الاعتراف العظيم وقبوله له. فالمسيح لم يقبل فقط هذا اللقب. بل قبله بسرور عظيم. وإن كنا نلاحظ في دراستنا للكتاب المقدس بأن السيد منع التلاميذ والجماهير والشياطين من أن يتكلموا عن مسيانيته علانية، فهذا لا يعني أنه رفض لقب المسيا.

وبما أننا ندرس موضوع مسيانية يسوع، يحسن بنا أن نرجع إلى ثلاثة فصول تعتبر من الفصول الهامة جدًا بخصوص هذه المشكلة (مت ٢٦: ٥٩- ٦٨؛ مر ١٤: ٥٣- ٦٥؛ لو ٢٢: ٦٦- ٧٠). ويمكننا أن نضيف إلى هذه الفصول (مر ١٥: ٢- ١٥). والذي يهمنا من هذه النصوص من المذكورة أعلاه هو سؤال رئيس الكهنة وجواب يسوع عليه. وهذا هو السؤال الذي طرحه قيافا على يسوع: «أأنت المسيح ابن المبارك» (مر ٤: ١: ٦١).

إن هذا السؤال سؤال خبيث شيطاني، يحمل في طياته شركًا لا مفر منه سواء أكانت إجابة يسوع عليه بالإيجاب أو بالنفي، وهو يذكرنا بالسؤال الذي قدمه له الهيرودسيون والفريسيون، عندما سألوه قائلين: «أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» (مت ٢٢: ١٧). وهنا يمد رئيس الكهنة نفس الشرك الذي مده الهيرودسيون والفريسيون للإيقاع بيسوع: «أأنت المسيح ابن الله المبارك؟»

ولقد ذكر الإنجيليون الثلاثة (مت ٢٦: ٦٣؛ مر ١٤: ٦١؛ لو ٢٢: ٦٧) كلمة المسيح أي المسيا. ففي هذه الكلمة (المسيح أو المسيا) يخفي رئيس الكهنة سمه القاتل، فلو أجاب المسيح بنعم، لأصبح متهمًا أمام السلطات الرومانية بأنه مثير شغب يسعى لتأسيس مملكة يهودية لا تخضع لسلطان قيصر، وهذا ما كان يرمي إليه قيافا من سؤاله فإذا ثبتت هذه التهمة على يسوع، لتولى الرومان محاكمته وصلبه. ويحتل عندئذ رئيس الكهنة نفس المكانة التي احتلها بيلاطس عندما أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً: «إني بريء من دم هذا البار» (مت ٢٧: ٤). ثم لو أجاب المسيح بالنفي أي بأنه ليس المسيا فإنه بهذا

الجواب يخيب آمال اليهود الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إعلانًا من هذا القبيل. وبهذا الاعتراف يصبح يسوع في أعين الشعب مسيا كاذبًا لا أمل فيه ولا رجاء منه في أن يخلص الشعب من الاستعمار، بل لأصبح عثرة للجماهير، يجب التخلص منه والقضاء عليه. هذا هو الهدف الذي كان رئيس الكهنة يريد إصابته بسؤاله هذا السؤال.

ولقد رأى بعض المفسرين في النص الذي يسجله لنا متى نوعًا من الغموض والإبهام وعدم الوضوح في إجابه يسوع لرئيس الكهنة فسؤال رئيس الكهنة ليسوع هو: «هل أنت المسيح ابن الله، قال له يسوع أنت قلت» (مت ٢٦: ٦٣- ٦٤).

ويقول العارفون باللغة الأرامية، أن جواب المسيح يحتمل الإيجاب والنفي. فكأن المسيح يجاوب رئيس الكهنة على هذا السؤال بالقول: أنت الذي تقول إني المسيح، ولست أنا الذي يقول ذلك. ومن هذا يتضح كما يعتقد هؤلاء المفسرون أن جواب المسيح كان جوابًا ملتبسًا.

ولكن عندما نرجع إلى النص الذي سجله لنا القديس مرقس نرى أن إجابة المسيح واضحة صريحة لا تحتمل أي نوع من اللبس أو الغموض: «فقال يسوع أنا هو» (مر ١٤: ٦٢). فهذا الجواب واضح كل الوضوح، ففي هذه الساعات الأخيرة يعلن يسوع لليهود بأنه هو المسيح «المسيا» ولكن لكي يميز نفسه عن المسايا السياسيين الذين يدعون بأنهم سيحررون إسرائيل من الاستعمار الروماني، يقول: «وسوف تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة وآتيًا في سحاب السماء»، فإنه هو المسيا الذي جاء من فوق والذي سيصعد أيضًا إلى فوق، وكما يقول في حديثه إلى نيقوديموس: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو ٣: ١٣). وكأني بالمسيح يجاوب رئيس الكهنة على سؤاله المسموم الذي يريد به أن يلقى المسيح حتفه، سواء على أيدي أمته أو على أيدي الرومان: «أنا هو المسيا»، ولكني أختلف كل الاختلاف عن المسايا الكذبة الذين انتحلوا لأنفسهم هذا اللقب، لأني جئت من فوق وسأذهب أيضًا إلى فوق، فإن الذين اغتصبوا لأنفسهم هذا اللقب، ما هم إلا سراق ولصوص: «جميع الذين أتو قبلي هم سراق ولصوص» في هذا الاتجاه.

يجب فهم نص يوحنا (١٠: ٨)، كما يجب أيضًا فهم مرقس (١٤: ٦٢) لأن يسوع يريد بهذا القول أن يعلن لرئيس الكهنة وللسلطات الرومانية بأنه فعلاً المسيا، إلا أن إرساليته ومسيانيته تختلفان كل الاختلاف عن المسيانيات السابقة، فإنه جاء لا لكي يسرق ويخطف ويحمل سيفًا ويقتل كل من يخالفه في الرأي والعقيدة كما كان يفعل الغيورون، بل على النقيض من ذلك: «لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأتِ ليُخدَم بل ليخدِم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين» (مر ١٠: ٤٥) «وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل» (يو ١٠: ١٠). فبهذا القول أراد يسوع أن يبين لرئيس الكهنة أنه فعلاً المسيا، ولكنه ليس المسيا السياسي الذي يريد أن يسلمه مقيدًا ليد الرومان. ولهذا السبب عينه تندهش كل الاندهاش من موقف بيلاطس وإعلانه الصريح بالقول: «إني لا أجد علة في هذا الإنسان» (لو ٢٣: ٤).

ولقد كان من واجب بيلاطس كحاكم روماني أن يسهر على مصالح روما وإخماد الثورات والضرب بشدة على كل الادعاءات المسيانية. وبالرغم من ذلك نراه يقف مكتوف الأيدي، بل ويعلن براءة يسوع، فهل كان بيلاطس يرى في يسوع

شيئًا آخر، لم يستطع رؤساء الكهنة أو الكهنة أن يدركوه؟ هل فهم بيلاطس بأن هذا الشخص، يسوع الناصرى، يختلف اختلافًا كليًّا وجزئيًا عن كل المسايا الذين ادعوا ذلك؟ هل فهم بأن يسوع هو المسيا، هو الشخص البار كما حلمت به زوجته. «إياك وذاك البار لأني تألمت اليوم كثيراً في حلم من أجله» (مت ٢٧: ١٩). إن موقف بيلاطس، الرجل الذي كان مكلفًا من قبل السلطات الرومانية بقمع كل ثورة أو مظاهرة أو ادعاءات مسيانية، يدفعنا لطرح الأسئلة التي سبق أن طرحناها. إننا لا نعرف بالضبط لماذا تبنى بيلاطس هذا الموقف؟ ولكننا نعرف بأنه لو كان متأكدًا من أن يسوع كان مسيا سياسيًّا على نمط المسايا السابقين لما أمكن له أن يعلن براءته علانية.

على أية حال، إن يسوع أعلن بصراحة ووضوح أنه هو المسيا، ولكنه مسيا يختلف اختلافًا جزئيًّا وكليًّا عن المسيا الذي انتظره الكثيرون من اليهود، وخاصة الغيورون. والألقاب أو الأسماء التي أعطاها يسوع لنفسه أو التي لقبه بها الشعب، تدل أيضًا على مسيانيته. ومن هذه الألقاب:

ابن الإنسان (لقد ذكرت في الأناجيل الثلاثة الأولى ٦٩ مرة ثم ذكرت ١٢ مرة في الإنجيل الرابع).

ابن الله ـ ابن داود ـ النبي ـ المسيح ـ الكاهن ـ الملك ـ السيد ـ العبد حمل الله... إلخ.

ونحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل وشرح كل لقب من هذه الألقاب، ولكننا نود أن نقول: إن هذه الألقاب والصفات التي نعت بها السيد في العهد الجديد، ليست هي التي جعلت من يسوع الناصري ابن مريم ربًّا ومسيحًا، بل العكس فإن يسوع الناصري، ابن مريم، هو أولاً وقبل كل شيء، وقبل أن يكون ابن مريم ، كان ربًّا وسيدًا، الله الذي ظهر في الجسد. ولهذا السبب عينه فإن هذه الألقاب والصفات التي لقب بها السيد تستمد قوتها وسلطانها من الشخص الذي نسبت إليه، «اللوجوس» أو «المسيح».

ونلاحظ أن الأمر هنا يختلف تمامًا عما يحدث عادة في الحياة العملية، فإن الحاكم يستمد قوته وسلطانه من الدرجة أو المركز أو الوظيفة التي أسندت إليه، والأمير يمنح سلطانًا أعظم بعد أن يصبح أميرًا، والملك يزداد نفوذه وسلطانه بعد أن يصبح ملكًا، كذلك الإمبراطور يتسع سلطانه أكثر ويعظم مجده، ويكبر نفوذه عندما يجلس على عرش الإمبراطورية. كل هؤلاء يستمدون سلطانهم ونفوذهم وقوتهم من الدرجة أو اللقب الذي يحصلون عليه، لكن في حالة يسوع فإن هذه الألقاب: «ابن الانسان»، «ابن داود»، «ابن الله»، «الملك الكاهن»، «السيد»، «العبد»... إلخ. تمجدت، بل حصلت على شرف عظيم عندما نسبت إلى يسوع. فبانتسابها إليه أصبح لهذه الألقاب والصفات معنى خاص وممتاز.

فلم تكن هذه الألقاب بأي حال من الأحوال هي السبب في مجد وسمو ورفعة يسوع الناصري، والتي عن طريقها وبها أصبح ما هو عليه الآن.

فقبل أن يعطي لنفسه بعضًا من هذه الألقاب، وقبل أن يمنحه الآخرون ألقابًا أخرى، كما أولاً وقبل كل شيء هو «الله الذي ظهر في الجسد»، وأمام هذا الأمر العظيم السامي تتصاغر كل الألقاب مهما كان شأنها وعظمتها وشرفها ونفوذها.

من هذا يتضح جليًّا أن يسوع الناصري كان يعرف جيدًا أنه هو المسيا. ومع أننا قلنا سابقًا بأن هذه الصيغة لا تتفق وتعليم الكتاب المقدس ولكننا نستعملها لكي نبين للعصريين أن يسوع كان واعيًا ومدركًا تمامًا لمسيانيته. فيسوع كان يعرف ذلك تمام المعرفة وكان هذا الإدراك ينمو ويكبر فيه كلما كبر ونما. ألم يرد يسوع على مريم ويوسف اللذين كانا يبحثان عنه في أورشليم: «فقال لهما لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي» (لو ٢: ٤٩).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو:

لماذا لم يؤكد يسوع بشدة مسيانيته، بل في كثير من الأحيان منع تلاميذه والجمهور وكذلك الشياطين من أن تعلن ذلك؟

وعندما ندرس الأناجيل بالتدقيق نلاحظ أن يسوع أمر تلاميذه والجماهير وحتى الشياطين ألا تظهره. وهذا لا يعني أنه رفض لقب المسيا لأنه لم يكن المسيا الحقيقي، بل لأنه أصر على أن يكون أمر مسيانيته خفيًّا. «آه مالنا ولك يا يسوع الناصري، أتيت لتهلكنا، أنا أعرفك من أنت قدوس الله. فانتهره يسوع قائلاً: اخرس واخرج منه... فشفى كثيرين كانوا مرضى بأمراض مختلفة وأخرج شياطين كثيرة ولم يدع الشياطين يتكلمون لأنهم عرفوه» (مر ١: ٢٥، ٣٤؛ ٣: ١١، ١٢، ٤٣- ٤٥؛ ٥: ٤٣؛ ٧: ٣٦؛ ٨: ٣٠). «وكانت شياطين أيضًا تخرج من كثيرين وهي تصرخ وتقول أنت المسيح ابن الله فانتهرهم ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح» (لو ٤: ٤١؛ مت ٨: ٤؛ ٩: ٣٠؛ ١٢: ١٦؛ ١٦: ٢٠؛ مر ٩: ٩- ١٠؛ لو ٩: ٣٦) وهنا نسأل لماذا كان يسوع في أحيان كثيرة، بل في معظمها، يحاول بلا تردد، بل في إصرار وعزم، أن يسكت الأصوات التي كانت تنادي بمسيانيته، وأن يخرس الشياطن الذين كانوا يريدون أن يظهروه؟ ألم يقل لبيلاطس في يوم محاكمته عندما سأله هذا السؤال: «أفأنت اذًا ملك...» فأجاب: «لهذا قد ولدت أنا ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع صوتي» (يو ١٨: ٣٧). فإذا كان يسوع قد جاء لهذا الغرض، أي لكي يكون المسيا، الملك المنتظر، لماذا كان يحاول إذن في فترة خدمته العلنية أن يخفي حقيقته عن التلاميذ في بعض الأحيان وعن الجماهير في معظمها؟ ألم يقبل اعتراف بطرس بسرور ورضى؟ الاعتراف الذي جاء بوحي من الآب والخاص بمسيانيته: «أنت هو المسيح ابن الله الحي». ألم يقل له مشجعًا ومهنئًا على هذا الإعلان العظيم: «طوبى لك يا سمعان بن يونا إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك لكن أبي الذي في السماوات» (مت ١٦: ١٧).

من الواضح الجلي أن يسوع لم يرفض لقب المسيا، فهو لهذا قد جاء ولهذا ولد. ولكن إذا كنا نرى يسوع يرفض في أحيان كثيرة بل في معظمها المظاهرات والإعلانات والهتافات التي تهدف إلى إعلان مسيانيته، فذلك يرجع إلى بعض الحقائق الهامة. وأولى هذه الحقائق هي:

١ – التمييز:

فعندما تبنى يسوع هذا الموقف – أي موقف السرية والخفاء – أراد بذلك أن يميز نفسه عن كل الذين ادعوا لأنفسهم هذا الشرف.

فكل الذين سبقوه في هذا المضمار، أي الذين نادوا بمسيانتهم والذين وعدوا الشعب بتحريره من الاستعمار الأجنبي الذي

كان جاثمًا على صدر الأمة اليهودية، لم يكونوا إلا سراقًا ولصوصًا (يو ١٠: ٧- ٨). ولذلك فقد أراد يسوع أن يميز الشعب بينه (المسيا الحقيقي) وبين كل الحركات والأحزاب السياسية وخاصة الحركات المسيانية المنتشرة في ذلك الوقت، والتي منها خرج عدد لا بأس به، يدعي بأنه المسيا المنتظر. والمسيا الذي كان ينتظره الشعب في ذلك الوقت يختلف كل الاختلاف عن شخص الرب يسوع وعن مفهومه للمسيا الحقيقي، المسيا المخلص للشعب من خطاياه.

فالشعب اليهودي المستعمَر كان ينتظر مسيا سياسيًا وعسكريًا يستطيع بسيفه وقوته أن يخلص الشعب من براثن الرومان، ويقود الأمة اليهودية كلها لا إلى الاستقلال الوطني والحكم الذاتي فحسب، بل إلى نصر عظيم شامل، أي أن الأمم التي كانت تستعبد وتحكم وتسيطر على الأمة اليهودية، تصبح هي بدورها وبفضل المسيا مُستَعبدة لأمة إسرائيل، إن كثيرين من اليهود كانوا ينتظرون مسيا من هذا النوع، مسيا سياسيًا وعسكريًا. وهذا الاعتقاد لم يسيطر على اليهودي العامي فقط، بل سيطر أيضًا على كثيرين من علماء اليهود، بل سيطر أيضًا على كثيرين من التلاميذ. ولهذا السبب كان سؤال رئيس الكهنة ليسوع: «أأنت المسيح ابن المبارك؟» شركًا أراد به أن يخيب آمال اليهود الذين وضعوا آمالهم فيه كمسيا ومحرر لهذه الأمة. وهذا ما أراد يسوع أن يتجنبه، فمع أن يسوع كان واعيًا ومدركًا تمام الوعي والإدراك بمسيانيته ورسالته الخطيرة، إلا أنه كان يحاول جاهدًا أن يخفي هذا الأمر عن الجماهير وعن التلاميذ في بعض الأحيان، لأنه كان يدرك ويعرف الفرق الشاسع والهوة العميقة بين شخصيه (المسيا الحقيقي) وبين مفهوم الجماهير للمسيا المنتظر. وإننا نرى هذا الأمر واضحًا كل الوضوح في الحوار الذي بين يسوع وبطرس بعد أن اعترف هذا الأخير بمسيانية يسوع (مت ١٦: ١٣- ٢٨؛ مر ٨: ٢٧- ٣٨؛ لو ١٩: ١٨- ٢٧).

إن الدارس المدقق لهذه الفصول المذكورة أعلاه، يلاحظ تحولاً جوهريًا وظاهرًا في تعليم يسوع، فقبل هذا الاعتراف لم يتكلم يسوع بطريقة واضحة وصريحة عن آلامه وصلبه وموته. ولكن بعد أن اعترف بطرس بوحي من الآب بأن يسوع هو المسيح «المسيا»، يأمر تلاميذه بأن لا يكلموا أحدًا عن مسيانيته، «حينئذٍ أوصى تلاميذه أن لا يقولوا لأحد إنه يسوع الناصري» (مت ١٦: ٢٠) فيسوع يأمر تلاميذه بإخفاء هذا الأمر.

«من ذلك الوقت ابتدأ يسوع يظهر لتلاميذه، أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرًا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل، وفي اليوم الثالث يقوم. فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلاً حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا. فالتفت وقال لبطرس اذهب عني يا شيطان. أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦: ٢١- ٢٣).

فبعد أن أعلن بطرس هذا الإعلان: أي أن يسوع هو المسيح «المسيا». «من ذلك الوقت..» أي من تلك اللحظة التي فيها أوحى الآب لبطرس هذا الوحي الخاص بمسيانية يسوع، وبعد أن قبل يسوع برضى وسرور هذا الاعتراف مطوبًا بطرس من أجله، بدأ يسوع يظهر لتلاميذه أنه ينبغي أن يذهب إلى أورشليم، لا لكي يكون ملكًا بل لكي يتألم ويموت. هذا التعليم يعد جديدًا على التلاميذ، فيسوع قد عمل المعجزات أمام أعينهم، شفى المرضى وحمل رسالة تعزية وتشجيع للمتألمين والحزانى، بشر بالإنجيل، ولكنه لم يتكلم قبل ذلك بطريقة واضحة وصريحة عن آلامه وصلبه وموته.

ولقد اندهش، بل غضب التلاميذ كلهم لهذا التعليم الجديد، وعلى رأسهم بطرس نفسه الذي اعترف بمسيانية يسوع، ولذلك فقد «أخذه إليه وابتدأ ينتهره قائلاً حاشاك يا رب، لا يكون لك هذا».

إن بطرس يترجم هنا بسلوكه هذا، المفهوم العام والمنتشر في تلك الفترة، الخاص بالمسيا. فلقد رأي التلاميذ، كما رأى كثيرون من اليهود، في المسيح، المسيا الذي سيخلص إسرائيل من الاستعمالر الروماني (لو ٢٤: ٢١؛ يو ٦: ١٥). أما يسوع - المسيا الحقيقي - فكان يحاول بصبر وطول أناة أن يعلن لهم هذه الحقيقة بطريقة صحيحة ومختلفة عن المفهوم الشعبي الخاص بالمسيا. وعندما أوحى الآب لبطرس هذه الحقيقة، حقيقة مسيانية يسوع، «من ذلك الوقت...» بدأ يسوع يعلن لتلاميذه أمر آلامه وصلبه وموته. ولقد كان هذا الأمر غريبًا كل الغرابة على التلاميذ لأنهم كانوا لا ينتظرون موت المسيح بل انتصاره وملكه، فكم من المرات حلم بعض التلاميذ بأن يحتل أحدهم الكرسي الذي على يمينه وأن يحتل الآخر الكرسي الذي على يساره في ملكوته العتيد (مت ٢٠: ٢١). ألم يتشاجر أيضًا التلاميذ فيما بينهم لكي يعرفوا من هو الأكبر؟ (لو ٢٢: ٢٤- ٣٠). لأجل هذه الأسباب أراد المسيح أن يحول أنظار التلاميذ بل الجماهير أيضًا، بعد اعتراف بطرس، إلى حقيقة سامية عظيمة غابت عن أذهان التلاميذ والجماهير وهي أنه فعلاً المسيا، ولكنه مسيا يختلف الاختلاف كله عن كل الذين سبقوه من المسايا الكذبة، إنه يتميز عن هؤلاء جميعًا بأنه هو الذي سيتألم بدل الشعب، بل أكثر من ذلك إنه سيموت. وإنجيل مرقس يوضح لنا هذه الحقيقة بالقول: «ودعا الجمع مع تلاميذه وقال لهم من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني...» (مر ٨: ٣١- ٣٨).

إن اعتراف بطرس بمسيانية المسيح، يبدو أنه كان في حيز ضيق وإطار محدود وهو دائرة التلاميذ، ولكن إعلان يسوع عن موته كان علانية، «ودعا الجمع مع تلاميذه». وهذا الأمر أي إعلان يسوع عن آلامه وصلبه وموته، بطريقة جهارية أمام الجمهور، أثار غضب بطرس، «فأخذه إليه وابتدأ ينتهره» أي أن بطرس أخذ المسيح على انفراد وبدأ ينتهره على هذا الإعلان الذي لا يتفق مع المسيانية ومع مستقبله الشخصي ومستقبل ملكوت الله. وكأني به يقول للمسيح: «يا سيد إن كلامك هذا عثرة عظيمة جدًا في نظر اليهود، لأن هذا الشعب المستعمَر المذل لا يريد ملكًا ضعيفًا يحمل صليبه ويدعو الجمهور لقبول الصليب وحمله، بل يريد مخلصًا سياسيًا وعسكريًا ودينيًا.

وينظر المسيح إلى بطرس ويرى كل الأحلام المسيانية وأمجادها التي كانت تجول بخاطره (بطرس) وعندئذ يقول: «اذهب عني يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مر ٨: ٣٣)، فالمسيح بدوره ينتهر بطرس واصفًا إياه بشيطان، لأنه لا يهتم بما لله ولكن بما للناس.

وماذا يعني المسيح بهذه الجملة؟ ما هو عدم الاهتمام بما لله والاهتمام بما للناس؟ لقد عرف المسيح أن بطرس، حتى بعد اعترافه بمسيانيته، كان يشارك معاصريه في أفكارهم ومفهومهم الخاص بالمسيا، أي أن المسيح أو المسيا يجب أن يكون قويًا جبارًا محاربًا محنكًا يناضل لتحرير البلاد من الاستعمار، لكي ترجع السلطة والسيادة إلى إسرائيل (إرجاع الملك إلى إسرائيل)، (أع ١: ٤- ٦). وهذا يعني أن أفكاره وأفكار الشعب الخاصة بالمسيا لا تهتم بما لله ولكن بما للناس، لأن كل هم إسرائيل كان

منصبًّا في ذلك الوقت ليس فقط على تحرير بلادهم من العدو المستعمر الروماني، بل أيضًا على اتساع ملك إسرائيل وسيطرته على الأمم المحيطة به. هذه هي الطموحات والآمال والأحلام التي كانت تسيطر على الشعب اليهودي في ذلك الوقت. إنها أحلام مادية جسدية وسياسية، أحلام أنانية لا تبحث إلا عن الفائدة الشخصية: تحطيم وإزالة أعداء إسرائيل، ثم البحث عن مجد وعظمة واتساع ملك إسرائيل. والمسيح يرى بعينيه الثاقبتين، في موقف اليهود عامة وموقف بطرس خاصة نفس التجربة التي حاول المجرب أن يوقع فيها السيد عندما أراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعها... والمسيح ينظر إلى بطرس ويرى فيه نفس المجرب الذي جربه في الصحراء بتجربة العظمة والغنى والجاه والسلطان، وهنا نرى بطرس يقوم بنفس الدور الذي قام به مجرب الصحراء، فلقد جاء هذا المجرب بعد تجربة الصحراء إلى السيد لكي يجربه بطرق مختلفة عديدة، ألم يقل لوقا في نهاية قصة التجربة: «ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين». فلم يكن فراق الشيطان للمسيح إلا إلى حين. وهنا نراه وقد عاد إليه بأساليب مختلفة لكي يمد له شراكًا جديدة. لهذا السبب رفض السيد اقتراح الشيطان (مت ٤: ١٠) واقتراح بطرس والأمة اليهودية كلها (مر ٨: ٣٣) بقوله لكليهما: «اذهب عني يا شيطان». فالغرض الأساسي والمهم من الطريقة التي اتبعها يسوع في إخفاء حقيقته ومسيانيته، في بعض الأحيان وفي أغلبها، عن الشعب يرجع إلى حقيقة أن المسيح أراد أن يميز نفسه أو بعبارة أصح أن يعزل نفسه عن المسايا الكذبة، حتى لا يخلط الجمهور بينه - المسيا الحقيقي - وبين المسايا الكذبة الكثيرين الذين ظهروا على مر العصور، والذين كانوا معاصرين أيضًا له، أراد يسوع أن يخفي نفسه وأن يظل غير معروف إلى أن يأتي الوقت بعد قيامته من بين الأموات، حيث يتعين «ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات، يسوع المسيح ربنا...» (رو ١: ٣، ٤).

٢- لقد أخفى يسوع مسيانيته لكي يتجنب ثورة الجماهير والاضطرابات السياسية:

فإن كان السبب الأول الذي دفع يسوع لإخفاء مسيانيته عن الجماهير كما يبدو لنا هو أنه كان يخشى أن يخلط الشعب بين المسيا الحقيقي والذين يدعون المسيانية، فإن هناك سببًا مهمًا آخر، وهو أن السيد كان يخشى قيام ثورة بين اليهود ضد الرومان. فإننا نتفق تمامًا مع الزميل المحبوب والدارس العالم المنقب الدكتور القس فهيم عزيز في قوله: «إن يسوع طلب من تلاميذه ومن غيرهم أن لا يظهروه لوجود الفرق والهوة السحيقة بين ما كان يعتقده اليهود عن المسيا وبين ما يعلمه هو...».

هذا صحيح، لأن مفهوم اليهود الخاص عن المسيا يختلف اختلافًا كليًا وجزئيًا عن حقيقة يسوع الناصري. إذ أن آمال اليهود وانتظاراتهم كانت مشدودة نحو مسيا سياسي وطني يحرر إسرائيل من الاستعمار محطمًا قوى القوي. أما يسوع فقد جاء لا لكي يحطم ويكسر ويهدم، بل لكي يحرر من عبودية الخطية، ولكي يبني ملكوتًا جديدًا يسود فيه السلام والبر الروحي والعدل الاجتماعي أيضًا. هذا هو المسيا الحقيقي.

والفرق بين هذا المسيا وبين الأنبياء والرسل واسع، شاسع. فإن الأنبياء والرسل كانوا يعلمون ويتصرفون بطريقة وساطية، وكانوا يطلبون بصلاة ودموع أن تستجاب صلواتهم وتضرعاتهم لأن العمل الذي كانوا يقومون به عمل مرسلي، أي أن يهوه نفسه قد وشحهم بقوه من لدنه، ولذلك فإن القوات والمعجزات التي كانوا يقومون بعملها وإجرائها، كانوا يقومون بها باسم

يهوه وبقوته، وليس باسمهم أو بقوتهم أو بسلطانهم «... كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي» (أع ٣: ١٢). والفرق بين المسيا الحقيقي والذين سبقوه والذين جاءوا بعده أيضًا، هو أن هؤلاء كانوا يطلبون من الله أن يمنحهم القوة والنعمة والسلطان لعمل المعجزات، أما يسوع، فمع أنه كان يصلي قبل أن يقوم بعمل المعجزات والآيات التي كان يقوم بعملها، إلا أنه كان يقوم بهذه الأعمال من المعجزات، شفاء المرضى وإقامة الموتى، بقوة داخلية نابعة منه، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يقول للطفلة التي لفظت أنفاسها الأخيرة: «يا صبية قومي» (لو ٨: ٥٤) ثم للعازر: «لعازر هلم خارجًا» (يو ١١: ٤٣).

والدكتور فهيم لا يتفق مع الرأي القائل، بأن المسيح كان يخشى ثورة الجماهير، ونحن نأسف لعدم اتفاقنا مع الزميل المحبوب في هذه النقطة والتي سنرجع إليها فيما بعد [1]، على أننا نكتفي هنا بالقول بأن المسيا قد قام بأعمال المسيا لأنه كان فعلاً المسيا، وكان مدركًا كل الإدراك لهذه الحقيقة الهامة. فإن كان يسوع قد قام بأعمال مسيانية، فذلك لأنه أولاً وقبل أن يقوم بهذه الأعمال، كان المسيا، صحيح أن العمل مهم ومهم جدًا لإظهار مسيانية يسوع، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن هذا الشخص يسوع، كان يعمل هذه الأعمال (من المعجزات الخارقة للطبيعة وعمل القوات) لأنه كان المسيا ولأنه لهذا قد ولد، ولهذا قد جاء إلى العالم.

وكما سبق القول إن الأنبياء والرسل كانوا يعملون هذه المعجزات بطريقة وساطية، أما يسوع فكان يعملها بسلطان منه، فقد كانت معجزاته وتصرفاته وأعماله بسلطان داخلي نابع منه، وليس عن طريق هبة خاصة أو نعمة قد منحت له. ولهذا فقد اندهشت الجماهير من طريقة تعليمه قائلة: «ما هو هذا التعليم الجديد، لأنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه» (مر ١: ٢٧). فقد كان يسوع هو المسيا لأنه لهذا قد جاء ولهذا قد ولد.

ولذلك فقد قام بهذه الأعمال المسيانية، وهو الوحيد الذي استطاع أن يقول: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل... وأما أنا فأقول لكم...»، وهنا يوضح يسوع سلطانه، بأنه سلطان نابع من الداخل، أنه مساو تمامًا لذلك الذي قال لا تقتل... فإن سلطان يسوع سابق لأعماله وكما يقول المثل الفرنسي: «ليس الأعمال الصالحة هي التي تصنع قديسين، بل إن القديسين يعملون الأعمال الصالحة». فليست الأعمال التي قام بها يسوع هي التي جعلته مسيا، بل لأن يسوع، قبل أن يقوم بهذه الأعمال، كان المسيا الذي تنبأ عنه الأنبياء والذي هو في حضن الآب، ولذلك فقد عمل هذه الأعمال المسيانية.

ولنرجع الآن إلى النقطة التي تركناها معلقة سابقًا، وهي أن يسوع كان يخفي مسيانيته لكي يتنجب ثورات الجماهير والاضطرابات السياسية. لقد سبق أن أشرنا إلى أن يسوع حاول أن يخفي مسيانيته لكي لا تخلط الجماهير بينه هو المسيا الحقيقي والمسايا الآخرين، ولكن يسوع أخفى مسيانيته عن الجماهير لسبب آخر، لتجنب الاضطرابات السياسية التي كان يمكن أن تحدث نتيجة لهذا الخلط وعدم التمييز بين المسيا الحقيقي والمسايا الكذبة.

لقد سبق أن أشرنا أكثر من مرة في الفصول السابقة إلى الصراع العنيف والدامي الذي شنته الحركات اليهودية وخاصةً

---

(١) انظر كتاب الدكتور فهيم عزيز - ملكوت الله ص ١٦٨.

المسيانية ضد القوات الرومانية المستعمرة، ولقد رأينا أيضًا كيف ردت القوات الرومانية على الهجمات التي قام بها بعض اليهود ضدهم. فقد قام يهوذا الجليلي بثورة دامية عام ٦ م بسبب الإحصاء الذي قامت به روما والتي كانت تنوي من ورائه فرض ضرائب على اليهود. ولقد رأى يهوذا الجليلي مع جماعة من أصحابه أن قبول هذه الضرائب ودفعها لأمة وثنية مثل روما، إهانة عظمى وخيانة شنيعة في حق يهوه. ولذلك فقد نظم حملات توعية ومقاومة ضد الرومان وضد عملية الإحصاء، وحاولت روما إخماد هذه الثورة بالعنف والقتل والتشريد. وبذلك اتسعت الفجوة وازداد الخلاف حتى وصل أشده بين اليهود والرومان، خصوصًا الذين كانوا يتزعمون أو ينتمون إلى حركات وطنية تحريرية استقلالية. ولا يمكننا أن نقول بأن اليهودية كلها ثارت ضد الرومان، بل إن الذي حدث هو ما يحدث عادةً كما نلاحظ في تواريخ الاستعمار، أي أن جماعة من الوطنيين تنضم إلى المستعمر وتتعاون معه لحساب مصالحها الشخصية، وقد انضمت إلى القوات المستعمرة الرومانية، بعض الطبقات الغنية التي كان لها تأثيرها مثل جماعة الكهنة الأرستقراطية. على عكس ذلك فقد ازدادت الحركات التحررية الاستقلالية الوطنية التي كانت تهدف إلى تحرير البلاد بطرد المحتل الروماني وقلب النظام الراهن في الهيكل. ومن هذه المنظمات التحريرية منظمة أو جماعة الغيورين. وجماعة الغيورين هذه تنقسم إلى حزبين كما سبقت الإشارة إلى ذلك: حزب الغيورين المعتدلين والحزب المتطرف (SICARII) (SICAIRES) وهذا الحزب الأخير كان في صراع وحرب مستمرة، ليس فقط مع الرومان المستعمرين بل أيضًا مع أي يهودي يمد يد المساعدة والتعاون إلى الاستعمار، ولقد استعمل هذا الحزب كل وسائل العنف من سرقة ونهب وقتل، للوصول إلى الغاية المنشودة وهي تحرير البلاد من الاستعمار.

ولقد قام هذا الحزب بالحملات الهجومية والقتل ضد الرومان وأعوانهم باسم يهوه، وكان أتباع هذه الحركة ينتظرون ظهور المسيا، وأنه ربما يظهر المسيا المنتظر والمحرر في وسطهم. وبهذه الغيرة ـ أي الغيرة المسيانية ـ حاربوا وناضلوا ضد الرومان وأعوانهم. وأما الرومان فلم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء هذه الحركات المسيانية، بل تتبعوها أينما وجدت، وحاربوها بكل قوتهم وجيوشهم. ولقد ظهرت في أيام المسيح عدة حركات مسيانية قامت كالعادة ضد الرومان. وازدادت هذه الحركات المسيانية في العدد والقوة في أيام السيد وبعده وخصوصًا في سنة ٦٦، السنة التي اندلعت فيها الثورة المفتوحة والاضطرابات العامة الموجهة ضد الرومان واستمرت إلى سنة ٧٠ عندما قضي على أورشليم بسقوطها وحرثها بمحراث.

ودارس التاريخ اليهودي يلاحظ كم كان لهذه الحركات المسيانية الغيورية من تأثير على الرومان، لأنها كانت منظمات فدائية، تهجم على العدو الروماني ببسالة وشجاعة. ومعظم هذه المنظمات كانت تقوم بهذه الأعمال الهجومية التخريبية باسم يهوه. ولأنها حركات مسيانية، فإنها كانت تحلم ليس فقط بالاستقلال والتحرير بل بالسيطرة أيضًا. ولهذا السبب كانت السلطات الرومانية يقظة واعية مفتوحة العينين على كل حركة مسيانية. فعند ظهور أي شخص أو أي منظمة أو حركة من هذا النوع، لم تتأخر عن الضرب بشدة، والقضاء على هذا الشخص أو هذه المنظمة أو الحركة؛ لأنها كانت تعلم الخطر الداهم الذي يمثله هذا الحزب على سلامة روما واستمرارها في المنطقة.

ولقد سجل لنا يوسيفوس المؤرخ اليهودي الكثير من الحوادث التي جرت في هذه الحقبة من الزمن خصوصًا الأحداث التي

دارت بين الحركات المسيانية والسلطات الرومانية، وكيف أن هيرودس قد حاول أن يخمدها بل أن يسحقها نهائيًا عندما أمر بأشد العقوبات وأقساها على الشباب الذين تجرأوا وأنزلوا النسر الروماني من على مقدمة الهيكل وسحقوه. ولقد كان هذا التدخل المسلح سببًا في إثارة سلسلة طويلة من الاشتباكات المسلحة بين القوات الوطنية والقوات الرومانية ثم يقص لنا قصة الجماعة المسيانية التي قامت في أيام أرخيلاوس (ARCHELAUS) والتي حاولت هي بدورها أن تنتقم لدماء الذين حكم عليهم بالموت لثورتهم ضد الطبقة الحاكمة، ولكن لم يكتب لهذه الحركة أي نوع من النجاح. وجاء بعد ذلك يهوذا الجليلي وسيمون (سمعان) ثم الغيورون.

وفي ذلك العصر المضطرب سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا، ظهر على جانب الأردن نبي يدعى يوحنا المعمدان وقد تبعه الكثيرون وكانوا يطلبون الاعتماد بمعموديته. ومع أن يوحنا المعمدان لم يصطبغ بالصبغة السياسية التي اصطبغ بها الكثيرون من أتباع الحركات المسيانية السابقة الذكر، إلا أن كثيرين من اليهود والسلطات الرومانية اعتبروه واحدًا من هؤلاء القادة المسيانيين «وقام هيرودس بإعدامه كواحد من هؤلاء الثوار العديدين الذين قاموا ضد الحكم الروماني».[١]

وهنا نرى الخطر العظيم، بل الموت المؤكد الذي كان يتهدد كل من يدَّعي بأنه مسيا. والآن يمكننا أن نفهم لماذا كان يسوع يحاول دائمًا أن يخفي مسيانيته. فيسوع لم يحاول أن يخفي مسيانيته خوفًا من العذاب أو الموت، بل كان يخفي مسيانيته لأنه لم يكن هو المسيا الثوري المثير للشغب والفوضى في وسط الشعب. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يعرف جيدًا أن كلامه عن مسيانيته سيجد تربة جيدة صالحة ومهيأة، ليس لقبول المسيا المخلص من الخطايا، بل للترحيب والهتاف للمسيا الحربي الذي سيطرد المستعمر الروماني من البلاد. ألم يحاول هذا الشعب أن يختطفه لكي يجعله ملكًا؟ (يو ٦: ١٥). فلو نادى المسيح علانية بمسيانيته لفهم الجمهور كلامه هذا على أنه المسيا السياسي المحرر لإسرائيل والمعادي لروما، أي أنه يصبح في أعينهم محررًا سياسيًا وحربيًا على مثال ماتاتياس وأبنائه ويهوذا الجليلي وآخرين.

كان هذا الأمر لابد وأن يدفع الرومان إلى إخماد هذه الثورة، كما فعلت بلا تردد مع ثورات شعبية عديدة في فلسطين. ولأجل هذا تحاشى السيد بكل وسيلة، الاحتكاك بهذه القوات الحاكمة أو الاصطدام بها، ليس لأنه كان يخشى قوتها وبأسها وبطشها، بل لأنه كان لايريد أولاً وقبل كل شيء، أن تخلط القوات الرومانية أو أن يخلط أيضًا الشعب اليهودي بينه ـ المسيا الحقيقي ـ وبين المسايا الكذبة. كما كان لا يريد بأي حال من الأحوال أن تكون مسيانيته وإعلانها سببًا في إثارة الثورات وإسالة الدماء.

وكم من المرات حاول اليهود المضادين ليسوع الإيقاع به في يد الرومان وتقديمه لهم كمسيا على نمط يهوذا الجليلي الذي قام بثورته ضد الرومان حاثًا اليهود على عدم دفع الجزية لقيصر. ألم يتقدم إليه في يوم من الأيام الفريسيون والهيرودسيون وسألوه هذا السؤال: «يامعلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل

(١) هذه النصوص مقتبسة من كتاب R. Bultmann. Jésus Mythologie Et Démythologisation ص ٣٦- ٤٧.

لنا ماذا تظن. أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربونني يا مراؤون... أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مت ٢٢: ١٥- ٢٢). لقد سبق أن شرحنا هذا الفصل في صفحات سابقة، ولكننا نريد أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى تصرف يسوع إزاء هذا السؤال الخطير.

فالشرك الذي نصبه هؤلاء لاصطياد يسوع مكشوف معروف، ولكنه كسيف ذي حدين، ومن المقدمة نشتم رائحة الكذب والخبث والمكر والدهاء، وأن الهدف منه هو دفع يسوع إلى أن يجاوب بالنفي. فقولهم له: «يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس»، أي إنك تستطيع أن تقول الحق حتى ولو كان هذا الحق ضد السلطات الرومانية نفسها. لأنك تعلم الحق، فأنت ابن اله الذي لا يخشى ولا يخاف السلطات الأرضية الزمنية مهما كانت قوتها وعظمتها. ومع أن الذين سألوا هذا السؤال ـ أي الهيرودسيون والفريسيون ـ كانوا لا ينتظرون من الإجابة إلا نتيجتها وآثارها على يسوع، فإن الغيورين كانوا يتوقعون إجابة واضحة صريحة وثورية، أي بالنفي. أما الهيرودسيون والفريسيون، فقد خططوا بسؤالهم هذا لتسليم يسوع إلى الموت. فلو أجاب يسوع على هذا السؤال بأنه لا يجب دفع الجزية لقيصر، لاعتبرته السلطات الرومانية زعيمًا من زعماء حزب الغيورين الذين كانت تطاردهم الجيوش الرومانية وتقاتلهم أينما وجدوا. ولو أجاب المسيح بأنه يجب دفع الجزية لقيصر، لطارده الغيورون وقتلوه. هذه هي النتيجة التي كان يسعى الهيرودسيون والفريسيون للوصول إليها. أما يسوع فكان يرى خطرًا أهم وأشمل: فإن إجابته بالنفي أو بالإيجاب كانت لابد وأن تثير اشتباكات حربية بين الغيورين وبين الرومان. إن السؤال شرك سياسي خبيث.

ولوقا يقول: «فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربوننى؟ أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله...» وبهذه الإجابة استطاع يسوع أن يتجنب الثورات الشعبية التي كان يمكن أن تنتج من إجابة أخرى... ولقد ظن الذين سألوا هذا السؤال بأن إجابة يسوع ستكون بالنفي، أي عدم دفع الجزية لقيصر، لأنهم ظنوا بأنه سيدعي بأنه المسيا.

حاول يسوع هنا أيضًا أن يخفي مسيانيته للأسباب السابقة الذكر، أولاً: لأنه ليس هو المسيا الذي نسجته المخيلة اليهودية والغيورية.

وثانيًا: ليس هو المسيا الذي يسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية والدينية، بل هو المسيا الذي يمنح السلام للنفوس المضطربة سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا.

وقبل أن نترك هذه المشكلة نود أن نلفت نظر القارئ إلى نقطة هامة في إجابة السيد على هذا السؤال المسموم، فإنه بهذه الإجابة: «أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» أراد السيد أن يوضح علاقة الإنسان بالدولة التي ينتمي إليها، فإن كان المؤمن ليس من العالم إلا أنه يعيش في العالم. والمسيح في صلاته الوداعية يقول: «لست أسأل أن تاخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير» (يو ١٧: ١٥- ١٦). فالمؤمن بعد قبوله المسيح يصبح مواطنًا سماويًا وتابعًا لملكوت الله. وهذه العضوية الجديدة تتطلب بأن يسلك الإنسان بحسب الدعوة التي دعي بها، أي بتدقيق وأمانة، مالكًا في حياة البر والقداسة،

القداسة التي بدونها لا يرى إنسان الله. ولكن هذه الحالة الجديدة، أي انتسابه إلى الملكوت الجديد، ملكوت الله، لا تتطلب منه بأي حال من الأحوال أن يترك العالم الذي يعيش فيه، ولا أن يثور ضد السلطات الحاكمة القائمة ما دامت لا تعترض طريقه ولا تمنعه عن عبادة الله. «أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». يعني أن المسيح يريد من المؤمن، الذي يعيش في العالم والذي يُجبَر على أن يعيش في العالم لكي يكون نورًا للعالم، أن يؤدي واجبه نحو الوطن كأي مواطن صالح يسعى دائمًا لتقدم وطنه، والقيام بالتزاماته المادية والأدبية وأن يكون خاضعًا لقادته ورؤسائه (رو ١٣: ١- ٢). فمع أن المسيحي مواطن سماوي «لأن ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣: ١٤؛ في ٣: ٢٠) فهو مازال مواطنًا أرضيًا أيضًا، يعيش في العالم ويتعامل معه. ولهذا يجب أن يخضع لقوانينه وأحكامه وقادته الذين من واجبهم أن يحكموا الشعوب بعدل وحكمه. فواجب المؤمن المسيحي إزاء الحكام في المجتمع، هو الخضوع والطاعة للحكام، الذين يحكمون البلاد بالعدل والاستقامة. أما إذا ابتعد الحاكم عن قوانين العدل ولجأ إلى للغطرسة والظلم وعدم المساواة بين المواطنين، فعلى المسيحي المؤمن في هذه الحالة الالتجاء إلى الله بالصلاة والصوم، لأن الله في محبته وحكمته، يستطيع أن يرشد المؤمن في هذه الظروف حتى يكون مواطنًا عاملاً نشيطًا يسعى لبنيان وتقدم الوطن. فالمسيح لا يريد أن يكون المؤمن سلبيًا بل إيجابيًا. والإيجابية تتطلب الحركة والعمل والاشتراك في المشاريع السماوية والوطنية. فلا خوف إذًا من الاشتراك في مشاريع الوطن الذي نعيش فيه، ولكن الخوف هو أن يصبح المؤمن مواطنًا أرضيًا فقط. إن المؤمن ملزم بأن يعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله... أي أنه ملزم أن يعيش في هذا العالم ولكنه كنور للعالم. ويعطينا القدير الحكمة والشجاعة لكي لا ننعزل عن هذا العالم. ونعيش في الصحاري، بل لنعيش في هذا العالم لكي نؤدي له الرسالة التي وضعها السيد علينا، لأنه عندما جاء إلى عالمنا لم يكن منعزلاً عن الناس، في صحاري وقفار بعيدًا عن العالم وما فيه، بل عاش وسط الناس، صار مثلنا تمامًا مجربًا في كل شيء ما عدا الخطية.

مراجع هامة

١. الدكتور القس فهيم عزيز- ملكوت الله- صدر عن دار الثقافة المسيحية.

2. R. Bultmann: **Jesus. Mythologie et demythologisation.** Ed. du Seuil.

3. R. Bultmann: **Theology of the N. T.** Volume 1. & Vol. 2.

4. W. Bousset: **Jesus Tr. by Hanet P.** Trevelyan, 1906.

5. R. Bultmann: **Jesus and the Word, Tr. by Louise p.** Smith and Erminie Huntress. 1934.

6. F. C. Burkitt: **Jesus Christ,** 1932.

7. Maurice Goguel: **The Live of Jesus.** Tr. by Olive Wyon 1933.

8. A. C. Headlam: **Jesus Christ in History and Faith** 1929.

9. A. Schweitzer: **The Quest of the historical Jesus** 1910.

10. G. Bornkamm: **Oui est Jesus de Nazareth?** Ed. du Seuil.

11. **Rend Marle Bultmann et P, interpretation du N. T. Aubies Ed.** Montagne.

12. MGR. Barthmann: **Precis de Theologie Dogmatique.**

13. O'cuimann: **Christologie du N. T. Neuchatel,** 1958 (surtout p. 97- 117).

14. O'Culmann: **Dieu Et Cesar.**

15. Taylor: **The Names of Jesus** 1958.

16. A Causse: **L'Evolution de L'Esperance Messianique dans Le Chrestianisme Primitive.**

17. C. Piepenbring: **Jesus Historique.**

18. O.Cullmann: **Jesus Et Les Revolutionnaires de Soa Temps** (dela chaux& Niestle).

19. Emile Brunner: **Dogmatique Tome 2** pp. 305- 424.

20. Karl Bart: **Dogmatique Premier Vol. La Doctrine de La Parole de Diuv: Prolegmene a la Dogmatique.** Tome Deuxieme. Ed. Labor Et Fides. Geneva).

الفصل التاسع

الفصح والعشاء الرباني

في هذا الفصل الذي سنتحدث فيه عن آلام المسيح وصلبه وموته ثم قيامته، ستعترضنا أسئلة كثيرة مختلفة ومتنوعة. والسؤال الأول الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن القول بأن المسيح تألم ومات كما يتألم ويموت أي إنسان آخر، وهو الله الذي ظهر في الجسد؟ وهل الله يشعر بالآلام ويموت؟ والسؤال الثاني هو: لماذا هذه الآلام؟ ما هو موقف العصريين من آلام وموت المسيح؟ هل موت المسيح كان ضروريًا، وهل جاء لكي يموت؟ وأمام مشكلة القيامة فقد تساءل أيضًا اللاهوتيون وغير اللاهوتيين. فالأسئلة لا يمكن حصرها أو عدها، ولذلك فسنكتفي ببعض الأسئلة ليس على سبيل الحصر بل على سبيل المثال فقط.

هل الإيمان بقيامة المسيح المصلوب عرف طريقه إلى أذهان وأفكار التلاميذ قبل أن تحدث حادثة القيامة، أم أن القيامة حدثت قبل أن يعرف الإيمان بقيامة المسيح طريقه إلى أذهان التلاميذ وعقولهم؟ هل قيامة المسيح حادث تاريخي حقيقي كأي حقيقة تاريخية أخرى قد حدثت في زمان ومكان معينين؟

هل الأناجيل والرسائل التي تتكلم عن قيامة المسيح من بين الأموات، تتكلم عن قصة حقيقية واقعية أم تتحدث عن قصة خرافية أو أسطورة؟

وقبل أن نحاول الإجابة على هذه الأسئلة أو على بعضها، وقبل أن ندخل إلى بستان جثسيماني حيث صارع المسيح صراعًا عنيفًا فتحول عرقه إلى دم، وقبل أن نتحدث عن مثوله أمام قيافا فبيلاطس، فهيرودس فبيلاطس مرة أخرى، وقبل أن يخوض المسيح في التيارات الجارفة، وقبل أن يقاسي الآلام المبرحة العنيفة، قبل هذا كله نود أن نلبي رغبة له قد رغبها هو نفسه عندما قال لتلاميذه معبرًا عن هذه الرغبة التي كان يريد أن ينفذها قبل موته: «وقال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم» (لو ٢٢: ١٥).

أود إذن أن نقف ولو قليلاً أمام حادثة الفصح التي أصبح فيها المسيح الكاهن المقدم للذبيحة، وفي نفس الوقت كان

هو الذبيحة نفسها. بهذه «الشهوة» أراد المسيح أن يدشن فصحًا جديدًا يختلف اختلافًا كليًا عن الفصح الذي أمر به يهوه شعبه في مصر (خر ١٢: ١- ٥١)، والذي كان اليهود وما يزالون يحتفلون بممارسته. وفي نهاية حياة السيد على لأرض أمر اثنين من تلاميذه بإعداد ما يلزم لعمل الفصح (لو٢٢: ١- ١٣) وعلى ما يظهر فإن السيد قد سبق واتفق مع واحد من أصدقائه أو أتباعه، قد يكون نيقوديموس أو يوسف الرامي أو يوحنا مرقس بأن يدعوهم عنده لممارسة فريضة الفصح. وينطلق بطرس ويوحنا إلى المدينة وعند اقترابهما منها يجدان رجلاً يحمل جرة، وعلى مابيدو كان خادم صاحب البيت الذي سيجري فيه السيد الفصح، ويقودهما الخادم إليه، وعندئذ يصعد صاحب البيت معهما ويريهما علية كبيرة مفروشة، وهناك أعدا الفصح. وإن كنا نلاحظ في هذه القصة نوعًا من السرية، والتكتم في حديث الرب عن الرجل المضيف وعن مكان الضيافة، فذلك يرجع إلى أن السيد كان يريد أن يظل الأمر خفيًا غير معروف حتى لا يتمكن اليهود أن يلقوا عليه الأيادي قبل أن تأتي ساعته وقبل أن يتمم هذه الشهوة التي اشتهاها، ألا وهي أن يأكل هذا الفصح الأخير مع تلاميذه قبل آلامه وموته.

وعند التحدث عن العشاء الأخير تعترض سبيلنا مشكلة تاريخية خاصة، هي سنة موت المسيح ويوم هذا العشاء الأخير. وعلى ما يعتقد فإن يسوع قد مات في سنة ٢٨ م. ولقد سبق أن رأينا أن يسوع ولد حوالي سنة ٥ أو ٤ ق. م. فتكون المدة التي قضاها الرب يسوع على أرضنا هي حوالي ٣٢ أو ٣٣ سنة.

أما المشكلة الثانية التي نواجهها في بحثنا لهذا الموضوع فهي: هل العشاء الأخير أوالعشاء الوداعي يعتبر فصحًا؟ أي هل عندما تناول السيد هذا العشاء الأخير مع تلاميذه، كان يعتبر أن هذا الطعام الذي يتناوله في هذا الوقت بالذات هو احتفال بعيد الفصح؟ وما معنى قوله: «وقال لهم شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم» (لو ٢٢: ١٥)؟

وقبل الخوض في بحث هذه المشكلة يحسن بنا أن نلقي نظرة سريعة على هذا العيد اليهودي. فعيد الفصح عيد عظيم عند اليهود، فيه يتذكرون ذلك اليوم الذي فيه أنقذهم الرب ليس فقط من ضربة الملاك المهلك الذي ضرب كل ذكر من أبكار المصرين (خر ١٣: ١- ٥١)، بل أنقذهم أيضًا من العبودية وحررهم تحريرًا كاملاً. ولقد كان أمر الرب في تلك الليلة التاريخية التذكارية، بأن كل عائلة إسرائيلية تريد النجاة من ضربة المهلك، يجب أن تنحر خروفًا وتأكل لحمه مشويًا على أعشاب مرة بعد أن تضع من دمه علامة على البيوت. ولقد عيد الإسرائيليون أول عيد فصح في أرض مصر. ومن هذا التاريخ أصبح عيد الفصح عيدًا دينيًا يحتفل به الإسرئيليون.

كيف كان يحتفل اليهود (ويحتفلون حتى الآن) بعيد الفصح؟ إن كل يهودي كان يقوم في آخر يوم ١٣ وأول يوم ١٤ نيسان بتنظيف منزله من كل خبز مخمر بخميرة (تث ١٦: ٤) وبعد عملية تطهير البيت من الخبز المخمر، تأتي عملية أخرى، وهي القيام بذبح خروف الفصح، ولكن هذه العملية لا تتم إلا قبل غروب شمس يوم ١٤ (تث ١٦: ٦). فهاتان العمليتان (عزل الخبز العادي المخمر وذبح الخروف)، كانتا تتمان في يوم ١٤ نيسان، ثم تتبع هاتين الفريضتين فريضة أخرى وهي أكل الفصح. ولكن هذه العملية لا تبدأ إلا في اليوم الخامس عشر من نيسان، يعني في مساء يوم ذبح الخروف، فالخروف كان يذبح عادة يوم ١٤ قبل غروب الشمس فيما بين الساعة الثالثة والساعة السادسة، ويؤكل خروف الفصح في نفس المساء عند

ظهور القمر الذي يعلن بداية اليوم الخامس من الشهر[1]. وفي الليلة التي كان يأكل فيها اليهود خروف الفصح يبدأ عيد الفطير، الذي يستمر سبعة أيام (خر١٢: ١٤- ٢٠) والذي في خلاله لا يأكل اليهود إلا فطيراً لأن الخمير قد عزل من بيوتهم في نهاية اليوم الثالث عشر وبداية اليوم الرابع عشر. ولهذا السبب سمِّي بعيد الفطير.

كيف كان يُعيَّد بعيد الفصح؟

يمكننا أن نسمي هذا العيد بعيد العائلة أو الخدمة التعبدية العائلية، لأن العائلة كلها كانت تجتمع لكي تحتفل بهذه المناسبة التاريخية العظيمة، التي فيها يذكرون عمل الرب معهم وكيف أخرجهم بذراع قوية ويد ممدودة من أرض مصر، أرض العبودية والذل والهوان. والذي كان يرأس الخدمة التعبدية في ذلك اليوم ليس الكاهن بل رب العائلة. فيجلس على المائدة ويحيط به أفراد عائلته وأمامه على هذه المائدة خروف مشوي على أعشاب مُرة وفطير. فيبدأ رب العائلة بصلاة فيها يشكر الله على إحساناته وبركاته، وبعدها يأخذ كأسًا من الخمر. ويجيزها على الحاضرين، وعندئذ يشرح للعائلة تاريخ العيد وما يرمز إليه. وبعد أن ينتهي من شرح رمز العيد، يرنموا معًا مزموري ١١٣، ١١٤. وبعد الترنيم يوزع عليهم الأعشاب المرة لكي يذكرهم بالأيام القاسية المرة التي كانوا فيها عبيدًا في أرض مصر، وعندما ينتهي من توزيع الأعشاب المرة يقدم لهم الكأس الثانية، وهنا يبدأ في الأكل من خروف الفصح، ثم يتناول فطيرتين ويغمس نصف إحداهما في عصير الفواكه ويأكل، وهكذا يفعل كل أفراد العائلة. بعد ذلك يشربون الكأس الثالثة التي تسمى كأس البركة، وتتلو هذه الكأس، كأس أخرى رابعة بعدها تسبح العائلة بترنيم المزامير ١١٥- ١١٨. هذا هو النظام الذي كانت تقوم به العائلة اليهودية في احتفالها بعيد الفصح.

بعد أن رأينا ما هو الفصح اليهودي وكيف كان يمارس، نطرح الآن من جديد السؤال الذي سبق أن سألناه، وهو: هل عندما تناول السيد طعام العشاء الأخير مع تلاميذه كان يعتبر أن هذا الذي يقوم في ذلك الوقت بالذات هو احتفال بعيد الفصح اليهودي؟ لقد حاول كثيرون من المؤرخين واللاهوتيين الإجابة على هذا السؤل ولكنهم وجدوا كثيرًا من الصعوبات. ومنها:

١. إن الأناجيل الأربعة متفقة كلها على أن يوم موت المسيح كان يوم الجمعة (مت ٢٧: ٦٢؛ مر ١٥: ٤٢؛ لو ٢٣: ٥٤؛ ١٩: ٣١ ، ٤٢). ولكن هذه الأناجيل تختلف في تحديد اليوم الذي احتفل فيه المسيح بعيد الفصح.

فمتى يستعمل عباره غامضة وغير واضحة وغير محددة لليوم: «وفي أول أيام الفطير تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين له أين تريد أن نعد لك لتأكل الفصح» (مت ٢٦: ١٧). أما مرقس ولوقا فيحددان بدقة اليوم الذي قام فيه السيد بالاشتراك في هذا العشاء الأخير وهو يوم الفصح. «وفي اليوم الأول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح» (مر ١٤: ١٢). ولوقا يقول: «وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح» (لو٢٢: ٧).

(١) في الحساب اليهودي ينتهي اليوم في الساعة السادسة مساء. فمثلاً يوم ١٣ نيسان يستمر إلى الساعة السادسة بعد الظهر، ومن بعد السادسة مساء يبدأ يوم ١٤ نيسان.

ولكي تكون المشكلة واضحة في أذهاننا نسأل هذا السؤال: هل المسيح تناول مع تلاميذه العشاء الأخير يوم الخميس أم يوم الجمعة؟

مما لا شك فيه أن السيد لم يتناول هذا الطعام الأخير يوم الجمعة لأنه كان معلقًا على الصليب. فالعشاء تم يوم الخميس، كما هو واضح من الاقتباسات السابقة الذكر. فبالرجوع إلى النصوص الكتابية في الأناجيل نلاحظ بأن السيد أرسل يوم ١٣ نيسان اثنين من تلاميذه (بطرس ويوحنا) إلى أحد أصدقائه الذي عنده كان يريد أن يتناول العشاء الأخير، لأن الاستعدادات للفصح تبدأ من أول اليوم الرابع عشر وخروف الفصح لا يذبح إلا في نهاية يوم ١٤ نيسان. فالمسيح وصل إلى بيت صديقه مع تلاميذه لتناول هذا العشاء الأخير في مساء يوم ١٤ نيسان.

وهنا نسأل هل كان المسيح يعتبر هذا العشاء الوداعي فصحًا؟

إن مرقس ولوقا يشددان على أن هذا العشاء الذي قام به المسيح مع تلاميذه هو الفصح (مر ١٤: ١٢؛ لو ٢٢: ٧، ١٥). وهنا تبدأ المشكلة، فكيف يمكن أن يعتبر العشاء الوداعي فصحًا والفصح لم يكن قد بدأ من الناحية القانونية؟ فإن الفصح الذي عمله السيد يسبق الفصح اليهودي بأربع وعشرين ساعة. وربما يسأل سائل: لماذا لا يكون اليوم الذي عمل فيه المسيح كان فعلاً هو اليوم الرسمي للفصح. إذ أن مرقس يقول: «وفي اليوم الأول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه أين تريد أن نمضي ونعد لتأكل الفصح» (مر ١٤: ١٢)، «وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح» (لو ٢٢: ٧). إن هذه المحادثة دارت بين المسيح وتلاميذه في نهاية يوم ١٣ نيسان، وجلس المسيح على المائدة في بداية يوم ١٤ نيسان، وبداية يوم ١٤ نيسان يعتبر الاستعداد للفصح. وهذا ما يوضحه إنجيل يوحنا بقوله عن يوم الفصح: «وكان استعداد الفصح ونحو الساعه السادسة. فقال لليهود هوذا ملككم» (يو ١٩: ١٤؛ ١٨: ٢٨؛ ١٩: ٣١، ٤٢).

وهنا نجد أنفسنا بين مجموعتين من الشهادات الإنجيلية. المجموعة الأولى هي شهادات ما نسميه (بتوافق الأناجيل) أو على الأقل شهادة مرقس ولوقا اللذين يشددان على أن العشاء الذي قام به السيد في تلك العشية كان فصحًا. ثم شهادة يوحنا الذي يسجل لنا أن اليهود لم يكونوا بعد قد أكلوا خروف الفصح عند صلب المسيح (يو ١٨: ٢٨؛ ١٩: ١٤، ٣١، ٤٢).

فإن كان اليهود لم يكونوا بعد قد أكلوا الفصح يوم الخميس ١٤ نيسان في المساء، وهذا ما قد سجله لنا بطريقة واضحة وصريحة إنجيل يوحنا، وما تشير إليه الأناجيل الثلاثة الأخرى، السبب الذي من أجله سيضطر اليهود أيضًا إلى تعجل الأمور للقبض على يسوع ومحاكمته قبل حلول عيد الفصح وقبل أن تشل الحركة القضائية. هذا يعني بأن الفصح الذي عمله يسوع غير قانوني لأنه يسبق ميعاد الفصح الرسمي بيوم كامل. ولهذا السبب فإن معظم المفسرين والمؤرخين متفقون على وجود هذا اليوم الكامل بين ما يقوله كتاب الأناجيل الثلاثة الأولى وبين ما يقوله يوحنا. ولقد حاول كثيرون إيجاد حل لهذه المشكلة. ومن الدراسة التي قام بها كل من (بيلربيك وشودسن BILLERBECK & CHWDSON) تبين أنه عندما كان يوم ١٥ نيسان (أي يوم أكل الفصح) يقع يوم سبت، أو عند وجود اختلاف جدي في تقدير اليوم الذي بدأ به الشهر، ففي هذه

الحالة كان الفريسيون والصدوقيون لا يعيدون عيد الفصح في يوم واحد، بل كان كل فريق من هذين الفريقين يعيد عيد الفصح في اليوم الذي يظن أنه هو اليوم الصحيح، ويحتمل أن الفريسيين والصدوقيين اختلفوا في ذلك العام على تحديد يوم الاحتفال بعيد الفصح مما اضطر الفريسيين للاحتفال به مثلاً يوم الخميس. وهنا يحتفل المسيح بهذا الفصح الفريسي، وفي الغد احتفل الصدوقيون بنفس العيد الذي يتكلم عنه يوحنا.[١]

والمفسر العالم الكاثوليكي لاجرانج (LAGRANGE) يقول إن المشكلة واضحة؛ فيوحنا يعرفنا بأن يوم موت المسيح (أي يوم الجمعة) كان يوم الاستعداد للفصح، واليهود لم يكونوا قد أكلوا الفصح بعد (يو ٢٨: ١٨؛ ١٩: ١٤، ٣١، ٤٢). وبينما كتاب الأناجيل الثلاثة يقولون بأن المسيح كان قد أكل الفصح في عشية موته، فإذا اتخذنا إنجيل يوحنا كأساس للرجوع إليه في هذا الموضوع، وهذا ما يجب عمله، لا يوجد أمامنا إلا حل من اثنين:

١- إما أن (توافق الأناجيل) أي الأناجيل الثلاثة الأولى لا تعلم بأن يسوع أكل الفصح، الأمر الذي لا يمكن إنكاره.

٢- إما أن يسوع عمل فصحًا مسبقًا.

وهنا يتساءل الأب لاجرانج، لماذا إذن تشدد هذه الأناجيل الثلاثة على أن اليوم الذي عمل فيه المسيح الفصح كان فعلاً يوم الفصح أي اليوم القانوني، وبالرغم من أن الأمر واضح بأن اليوم الذي قام فيه المسيح بهذا العمل لم يكن يوم الفصح، وبالتالي فالفصح الذي عمله المسيح لم يكن فصحًا قانونيًا، والإنجيليون الثلاثة يعتبرونه يوم الفصح؟

ويضيف الأب لاجرانج قائلاً: يجب أن نعترف بجهلنا، لعدم معرفة السبب الذي من أجله اعتبر توافق الأناجيل أن اليوم الذي فيه عمل المسيح الفصح، كان فعلاً يومًا قانونيًا لعمل الفصح... ثم يشير إلى مشكلة مهمة وهي تحديد اليوم، فلوقا يقول: «وجاء يوم الفطير...» فلوقا كتب لغير اليهود، فعندما يقول: «وجاء يوم الفطير»، هل جاء يوم الفطير بحسب التوقيت اليهودي أم بحسب التوقيت اليوناني - الروماني الذي يختلف عن التوقيت الأول؟ فبحسب التوقيت اليهودي كان غروب شمس ١٣ نيسان هو بداية يوم ١٤ نيسان أي الفصح، ولكن بحسب التوقيت اليوناني الروماني لا يمكن بأن نعتبر غروب شمس يوم ١٣ نيسان هو يوم الفصح[٢].

وبما أننا في معرض الحديث عما يظنه بعض اللاهوتيين والباحثين عن هذا الموضوع، يليق بنا أن نذكر رأي الآنسة جوبرت (A. JAUBERT) التي قامت بدراسة بعض المستندات والوثائق التي اكتشفت في خرائب قمران (سنة ١٩٤٧) والتي تقدم لنا حلاً آخر لهذه المشكلة. فمن دراستها لهذه الوثائق، تظن أنه من المحتمل أن يسوع وتلاميذه كانوا يتبعون التقويم الأسيني (ESSENIENS) حسب هذا التقويم كانت السنة تحتوي على ٥٢ أسبوعًا، وكانت الأعياد تقع اضطراريًا في نفس اليوم من الشهر ونفس اليوم من الأسبوع. ولقد نظم هذا التقويم على أن يقع عيد الفصح دائمًا يوم أربعاء. وبناء على ذلك فالمسيح

(١) انظر الكتاب Mawrice Goguel. La Vie de Jésus ص ٤١٧ - ٤٢٢.

(2) Evangile Selon St. Luc. Par Le P.M.J. Lagrange. Livrairie Locoffre P. 538 - 544.

تناول العشاء الأخير مع تلاميذه في مساء يوم الأربعاء، ثم صلب عشية الفصح الرسمى اليهودي الذي كان يقع في هذه السنة يوم السبت (أي الجمعة بعد الظهر). وفي هذه الفترة أي من يوم الأربعاء مساء إلى يوم الجمعة صباحًا دارت الأحداث المؤلمة: خيانة يهوذا والقبض على السيد في جثسيماني، والمثول أمام حنان، قيافا، بيلاطس، هيرودس، ثم بيلاطس[1] ثم الصلب في نهاية المطاف.

هذه هي بعض الآراء التي أثيرت والاقتراحات التي قدمت كحلول لهذه المشكلة التي مازالت إلى الآن مفتوحة للنقاش والبحث. ويبدو لنا أن الذين ناقشوا ودرسوا هذه المشكلة من الناحية التاريخية والفنية والقانونية، من حق ومن واجب كل باحث مدقق، أن يتساءل عن صحة اليوم الذي تم فيه الفصح وعن قانونيته، وعن توافقه التقويمي... إلخ. ولكنهم أهملوا نقطة هامة جدًا، وهي التحدث عن الذبيح نفسه: خروف الفصح. أي عن يسوع. ومما لا شك فيه أن السيد نفسه قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل...» (مت ٥: ١٧ -٢٠؛ ٣: ١٥؛ رو ٣: ٣١). وهنا نسأل ما هو دور المكمل؟ إن الدور الذي قام به المسيح كمكمل يعتبر دورًا عظيمًا جدًا لا يمكن مقارنته بالدور الذي قام به الأنبياء الذين كمل أحدهم الآخر. بل إن الدور الذي قام به يسوع، وإن كان يعتبر دورًا مكملاً، فإنه دور أساسي ولازم وحتمي. والأهمية الكبرى والعظمى لا تنتج فقط من حقيقة أن هذا الدور، دور المكمل، هو دور عظيم وهام، بل تنتج أيضًا من حقيقة أن الشخص الذي سيقوم بتنفيذ هذا الأمر هو أهم وأعظم من كل الأنبياء الذين سبقوه. فهو ليس واحدًا من الأنبياء والمحافظين على الناموس، بل هو نفسه رب الأنبياء. ولهذا السبب عينه فهو الوحيد في كل تاريخ اليهودية الذي استطاع أن يقول، وأن يقول عن حق وجدارة: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل... لا تزنِ... وأما أنا فأقول لكم...» وبهذه «الأنا» يضع المسيح، له المجد، نفسه ليس في مقام السابقين «قيل للقدماء» أي قال موسى بوحي من الله للقدماء بل في مقام أعظم: وأما أنا الذي له السلطان المعادل لسلطان الذي أوحى لموسى فأقول لكم...

ولقد برهن المسيح على أنه كان يتمتع بسلطان سامٍ وعظيم مثل سلطان الله نفسه عندما قال: «... إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضًا» (لو ٦: ٥؛ مر ٢: ٢٨). ومن هذا يتضح بأن دور - بل سلطان «المكمل» (أي يسوع) لا ينحصر في الخضوع لبعض القوانين البالية الجامدة، بل أن يتخطاها، لأن ابن الإنسان هو رب السبت أيضًا ويستطيع أن يقول: «وأما أنا فأقول لكم...» بهذا السلطان عينه يستطيع المسيح أن يأمر تلاميذه بأن يعدوا له الفصح مسبقًا قبل أن يحل قانونًا يوم تقديم الخروف لأنه هو رب الفصح أيضًا. بل هو نفسه الخروف الذي قدم نفسه عن كثيرين. فمن المفيد ومن المهم أن نبحث من الناحية التاريخية عن متى وكيف تم فصح المسيح الأخير ولكن الأفيد والأهم هو البحث عن من هو المسيح الذي قام بهذا الفصح الأخير الذي صنع يوم صلبه خلاصًا أبديًا لكل الذين يقبلونه سيدًا ومخلصًا.

---

(١) انظر بخصوص هذه النظرية Bonnard إنجيل متى ص ٣٧٥ (A Haubert. La date de la Céne. 1961.) ولدراسة هذا الموضوع انظر (الطبعة الفرنسية) من Dictionnaire Biblique P. 852.

العشاء الرباني:

يحتمل أن يسوع اتبع في أثناء العشاء الرباني نفس نظام العبادة (RITE) الذي كان يتبعه رب العائلة اليهودية عندما كان يقوم بنفسه بخدمة العبادة الفصحية، ولهذا السبب نجد بعض العبارات والكلمات التي كانت تستعمل في الخدمة التذكارية لذبيحة الفصح مثل، كأس، بارك، خبز... إلخ. ولقد ظن بعض اللاهوتيين أن الخبز الذي استعمله المسيح في العشاء هو الخبز العادي (ARTON)، وليس الفطير الذي كان لا يؤكل إلا في اليوم الخامس عشر من نسيان[1].

على أية حال وسواء أكان خبزًا عاديًّا (ARTON) أم فطيرًا (AZYME) ذلك الخبز الذي تناوله السيد مع تلاميذه، فأهم من هذا كله هو أن يسوع في آخر حياته على أرضنا قال لتلاميذه: «... شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم» (لو ٢٢: ١٥). وبهذا الفصح أراد المسيح قبل أن يترك عالمنا أن يرسم لنا فصحًا جديدًا، لأنه عندما قام بهذا العشاء الأخير مع تلاميذه أراد أن يعبر لنا عن هذه الرغبة الشديدة: «شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح»، بتأسيسه فصحًا جديدًا يصبح فيه هو الكاهن (رب العائلة) المقدِّم لهذا الذبيح والخروف نفسه، فهو المقدِّم والمقدَّم في نفس الوقت. وكما يقول الرسول: «لأن فصحنا أيضًا المسيح قد ذبح لأجلنا» (١كو ٥: ٧). وبهذه العملية، أي عملية الذبح على الصليب، استطاع المسيح بدمه أن يقطع عهدًا جديدًا مع الناس والله، إذ أنه دخل إلى الآب بدم صليبه لكي يكفر عن العالم وعن خطايا العالم (عب ٩: ١٢ -٢٧).

إن العهد الجديد الذي قطعه السيد مع العالم بموته على الصليب يختلف اختلافًا كبيرًا عن العهد القديم، فإن هذا الأخير كان يحتوي على طقوس وفرائض كلها ناقصة ومعمول بها لوقت معين (عب ٩: ١، ١٠)، أما المسيح «فليس بدم تيوس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًّا...» (عب ٩: ١٢، ١٤). ففي تلك الليلة يظهر المسيح رغبة قوية في القيام بعمل هذا العهد الجديد، فهو الشخص الذي جاء لا لكي يلغي الناموس بل ليكمله. وهنا نرى الكمال الذي يصل إلى قمته عندما يقدم نفسه كخروف بلا عيب وبلا دنس. إنه حمل الله الذي رآه يوحنا فقال: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩). أليس لهذا السبب أراد يوحنا أن يكتب مشددًا على أن يوم الفصح كان يوم الجمعة الذي رفع فيه المسيح على الصليب، ففي الساعة التي كان يذبح فيها عادة الخروف وهي بين الساعة الثالثة والساعة الخامسة بعد الظهر من يوم ١٤ نيسان، ففي ذلك الوقت أي من الساعة الثالثة كان المسيح معلقًا على الصليب «وكانت الساعة الثاثة فصلبوه» (مر ١٥: ٢٥).

فإن كنا قد لاحظنا في دراستنا لمشكلة يوم صلب المسيح والعشاء الرباني أن الأناجيل الثلاثة الأولى حاولت أن تبين أن السيد قام بفريضة العشاء الرباني أثناء عيد الفصح، بينما حاول يوحنا توفيق حادثة موت المسيح على الصليب مع تقديم خروف الفصح، فإن يوحنا يريد أن يبرز هذه الحقيقة السامية العظيمة وهي أن المسيح المرموز إليه بهذا الحمل الذي كان يقدمه الإسرائيليون كل عام، قد أصبح هو نفسه ذلك الحمل؛ فالحقيقة قد حل محل الرموز، ولهذا السبب فقد أشار يوحنا

(١) انظر كتاب Piepenbring. Jésus Historique. ص ١٥١ - ١٥٨.

في إنجيله إلى أن المسيح مات يوم الفصح ١٤ نيسان، أي اليوم الذي كان يقدم فيه خروف الفصح. ومع أن يوحنا يتكلم عن «العشاء» لكنه لا يعطي له نفس الصبغة الطقسية والأهمية الفصحية التقليدية التي وصفه بها الإنجيليون الثلاثة (يو ١٣: ١ - ١١). ففي هذا العشاء لا يتكلم عن خبز أو عن كأس كما فعل كتاب الأناجيل الثلاثة، وربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن يسوع تكلم عن الخبز الحي النازل من السماء عندما قال لهم: «... الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو ٦: ٤١ - ٥٩).

فالبرغم من سمو كلمات المسيح وعمقها في كل من الفصلين المذكورين (٦: ٤١ - ٧١؛ ١٣: ١ - ١١). فإنهما لا يشيران بطريقة واضحة وصريحة إلى ممارسة طقسية ورسمية لفريضة العشاء الرباني، على عكس ما نلاحظه في الأناجيل الثلاثة الأولى عندما تتكلم عن العشاء الرباني فإنها تصبغة بصبغة طقسية فريضية، فهناك الخبز والكأس وكأس البركة.

ومن هذه الفصول نستنتج أن المسيح أسس فعلاً تلك العشية، في أثناء هذا العشاء الوداعي فريضة العشاء الرباني، فإن الإنجيليون الثلاثة (متى، مرقس، لوقا) قد ذكروا أن هذا العشاء تم في يوم ١٤ نيسان أي في يوم الفصح، فإنهم أرادوا بذلك بأن يحل العشاء الرباني محل الفصح، لأنه الفصح الجديد، لعمل عهد جديد مع المفديين، كما يقول هو نفسه: «لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (مت ٢٦: ٢٨).

الإفخارستيا أو العشاء الرباني:

وبما أننا نتكلم عن العشاء الأخير الذي نسميه نحن الإنجيليون بالعشاء الرباني والذي يسميه الإخوة الكاثوليك بالإفخارستيا، يحسن بنا أن نلقي نظرة سريعة على عقائد بعض الطوائف الرئيسية في الإفخارستيا أي العشاء الرباني.

والغرض من تعرضنا لهذه المشكلة الحساسة، هو أولاً وقبل كل شيء، أن الكتاب يذكرها ويتكلم عنها. وثانيها لا نهدف من ذلك بأي حال من الأحوال إلى تجريح الإخوة الذين لا يشتركون معنا في نفس الفكر والعقيدة. وثالثًا هي فرصة ذهبية فيها نستطيع بروح الصلاة والإيمان، ثم بروح التفهم الذكي المعقول وغير المتعصب أن نناقش المكتوب، الأمور التي كنا نخشى قبلاً مناقشتها والتحدث فيها.

فإن الشخص الذي تشبع بالروح المسكونية الحقيقية لا يسعى إلى كيف يمكنه أن يقنع الآخرين بمذهبه وأفكاره ومعتقداته، بل عليه أن يحاول جاهدًا أن يفهم أولاً مذهب وأفكار ومعتقدات الآخرين، وعندما تحاول المذاهب كلها مخلصة أن تفهم معتقدات بعضها بعضًا، وتضعها أمام المكتوب بنفس الروح، تاركة لروح الله لأنه روح الحق، فعندئذ، وعندئذ فقط نستطيع أن نقول: «يارب ماذا تريد أن أفعل؟» (أع ٩: ٦) «قد أقنعتني يارب فاقتنعت» (إر ٢٠: ٧).

وبما أن هذا الموضوع واسع وشائك، ويعوزنا الوقت إذا أردنا الدخول في تفصيلاته الدقيقة، فسنكتفي بالإشارة إلى بعض المعتقدات الرئيسية فقط.

مفهوم الكنيسة الكاثولوكية:

إن الكنيسة الكاثولوكية، وتشاركها في نفس العقيدة - مع اختلاف بسيط - الكنيسة الأرثوذكسية، تؤمنان بأن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد المسيح الحقيقي وإلى دمه الحقيقي، بعد أن ينطق الكاهن بالعبارات الخاصة بالاستحالة. فإن الخبز والخمر اللذين كانا خبزًا وخمرًا قبل الصلاة التي تدعى الصلاة الجوهرية، تحولا بطريقة معجزية وسرية إلى جسد المسيح (دمه ولحمه) وهذه العملية تسمى بعملية الاستحالة (TRANSSUBSTANTIATION). وهذا الاصطلاح يمكن ترجمته إلى العربية بالآتي: «استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم يسوع المسيح». وبتحليل هذا الاصطلاح تحليلاً لغويًا يمكننا أن نقول إن مادة الخبز والخمر تحولتا جزئيًا وكليًا إلى جسد يسوع. فمع أن الخبز والخمر يظلان حسب الظاهر خبزًا وخمرًا ولا يفقدان أي شيء من خواصهما الطبيعية، لا في الطعم ولا في اللون، إلا أنهما استحالا بطريقة سرية معجزية إلى دم ولحم يسوع المسيح. فالاستحالة التي حدثت هنا هي استحالة كلية، فإن عقيدة الاستحالة (TRANSSUBSTANTIATION) لا تعني أن يسوع حاضر بطريقة ما في هذا الخبز وهذا الخمر، ولا تعني أيضًا أن يسوع حاضر بطريقة حقيقية واضحة وفعلية فقط في الخبز والخمر، بل إن هذا الخبز وهذا الخمر قد تحولا فعليًا وحرفيًا إلى جسد المسيح. فجسد المسيح كله حل محل هذا الخبز وهذا الخمر. فبعد أن ينطق الكاهن بالكلمات الجوهرية، لا يُعد الخبز خبزًا ولا الخمر خمرًا، بل إن هاتين المادتين أصبحتا فعلاً وعملاً جسد المسيح يسوع ودمه. فالشخص المشترك يتناول أو بالمعنى الأصح يأكل بطريقة فعلية وحقيقية جسد المسيح في شكل الخبز والخمر. هذا هو المفهوم الكاثوليكي لعقيدة «الإفخارستيا».

المفهوم اللوثري:

يقول لوثر: «بما أنه لا توجد نصوص كتابية تقول بأن الخبز ليس جسد المسيح، يجب علينا إذن قبول كلام السيد بطريقة بسيطة كما نطق به، فلا يجب إذن تغيير هذا الكلام بل قبول حقيقة أن الخبز هو جسد المسيح». ويواصل كلامه فيقول: «إنني واثق تمامًا بأن الله لا يكذب وبما أن كلمته تعرفنا بأن جسد ودم يسوع موجودان في هذا السر[1]. فيجب تصديقها». وفي معاهدة سنة ١٥٢٧ يقول لوثر: «إن كلمات السيد: «هذا هو جسدي» كلمات صحيحة لأنها تبرهن على أن يسوع يريد أن يثبت بطريقة واضحة وصريحة عندما قدم الخبز، أنه أعطى جسده للأكل. وعلى هذا الأساس فنحن نؤمن ونعترف بأننا نأكل ونشرب بطريقة حقيقية وحرفية جسد المسيح في أثناء تناول العشاء الرباني».

من هذه الاقتباسات السابقة ومن نصوص كثيرة أخرى كتبها لوثر في هذا الموضوع نرى بطريقة لا تدع مجالاً للشك، بأن المصلح الراهب الأغسطيني الألماني كان يؤمن إيمانًا ثابتًا بحضور جسد المسيح الحقيقي في الخبز والخمر، وهذا الحلول أو حضور المسيح في الخبز والخمر ليس حضورًا روحيًا كما سنرى فيما بعد في عقيدة كالفن، بل هو حضور حقيقي وفعلي.

والسؤال الذي يتسلل إلى ذهن القارىء هو: ما هو الفرق إذن بين عقيدة لوثر وعقيدة الكنيسة الكاثوليكية إذا كان

(١) انظر كتاب Suss بعنوان La Coomunion au Corps du Christ ص ١٤٨- ١٥١.

الاثنان يؤمنان بحضور المسيح الحقيقي في الخبز والخمر؟ بالرغم من التشابه الكبير بين العقيدتين، لكنه يوجد اختلاف وهو أن لوثر رفض رفضًا باتًا استعمال الاصطلاح الكاثوليكي الاستحالة (La Transsubstantiation) واستعمال بعض الاصطلاحات الأخرى مثل «الوجود المزدوج» (CONSUBSTANTIATION، IMPANATION) فهذه الاصطلاحات لا تعني استحالة الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح، بل حضور يسوع المسيح بطريقة حرفية وصحيحة في هذا الخبز وهذا الخمر.

فحلول المسيح في الخمر وفي الخبز لا يلغي وجودهما، كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية، بل هو حضور مزدوج. ويمكننا أن نشرح فكرة لوثر والإفخارستيا بالرجوع إلى عقيدة التجسد مع بعض الاختلاف. فالله قد حل في جسد الإنسان يسوع، فالله الحال بملء لاهوته في جسد يسوع، لم يلاشِ أحدهما الآخر، بل كان الله الإنسان يسوع، الاثنين معًا، وكل منهما احتفظ بمميزاته اللاهوتية والبشرية.

وهذا ما يحدث في سر الإفخارستيا، فإن الخبز يظل خبزًا والخمر يظل خمرًا، ولكن في هذا الخبز وهذا الخمر يحل يسوع بجسده كاملاً. فالذي يفرق عقيدة لوثر عن عقيدة الكنيسة الكاثوليكية هو أن لوثر يؤمن بالوجود المزدوج، بينما الكنيسة الكاثوليكية تؤمن بأن حلول يسوع في الخمر والخبز بعد صلاة التقديس. يزيل العناصر المادية. ويحل جسد المسيح كله محل هذه العناصر. وهذا ما نلاحظه في قرارات مجمع «ترنت»: عندما قال المسيح فادينا بأن ما يقدمه في شكل الخبز كان فعلاً جسده الحقيقي. فعند تقديس العناصر الإفخارستية تفصل مادتي الخبز والخمر عن خواصهما المحسوسة ويحل محلهما جسد المسيح. فبعد التقديس لم يعد عنصرا الخبز والخمر خبزًا وخمرًا لكنهما يصبحان جسد ودم المسيح تحت مظهر الخبز والخمر (راجع كتابSUSS ص ١٨٦- ١٩٠ - النص الفرنسي).

لقد حاول لوثر أن يتخلص من عقيدة الاستحالة، فقبل عقيدة الحلول أو الوجود المزدوج، لأنه كان يؤمن فعلاً بالحضور الحرفي للمسيح في الإفخارستيا. وقبل أن نترك لوثر نلخص عقيدته في الآتي:

١- إن عقيدة الوجود المزدوج اللوثرية هي تخفيف لعقيدة الاستحالة الكاثوليكية.

٢- وجود العناصر المادية بدون تغيير.

٣- حلول المسيح فعليًا في هاتين المادتين.

مفهوم كالفن:

لقد حاول كالفن أن يقوم بدور الموفق العقائدي بين لوثر وزوينكلي، فهو يعتقد بأن المسيح يحضر فعلاً في العشاء الرباني ولكن حضوره حضور روحي، ولقد شدد كثيرًا على حضور المسيح الروحي في العشاء الرباني، ثم شدد أيضًا على عملية الروح القدس، فالروح القدس هو الذي يعمل في الإنسان المشترك لكي يقنعه بأن المسيح موجود فعلاً ولكن بطريقة روحية، غير ملموسة أو محسوسة، في العشاء الرباني. فوجود السيد في هذا العشاء حقيقية روحية لا يمكن إنكارها، فالخبز الذي نكسره

والخمر الذي نشربه عند الاشتراك في المائدة، هما علامة ملموسة محسوسة يشيران إلى وجود يسوع بالروح. وهما يمثلان أيضًا جسد المسيح المكسور ودمه الذي سال. أي أن المسيح يقدم نفسه كالطعام الحقيقي الحي الذي يجب أن نأكله بطريقة روحية. فالأكل من جسد المسيح والشرب من دمه لا يعنيان الأكل والشرب بطريقة ملموسة ومادية وجسدية، بل المسيح يصبح الطعام الروحي. هذا ما يعنيه بقوله: «لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق...» (يو ٦: ٥٥ -٥٩). وهنا ينتحي كالفن ناحية التفسير المجازي وليس التفسير الحرفي لكلمة الله، وفي حقيقة الأمر لا توجد أية علاقة بين جسدة الحقيقي وبين العشاء الرباني، ففي العشاء الرباني يجب أن نتذكر موت وقيامة السيد، ولكن لا نأكل في أثناء العشاء الرباني جسد السيد إلا بطريقة روحية رمزية. ولقد شدد كالفن كثيراً على حقيقة وجود المسيح بطريقة روحية في العشاء الرباني، وبهذا أراد أن يتجنب الخطأ الذي وقع فيه لوثر وهو اعتقاده بأن المسيح يحضر فعلاً بطريقة حقيقية في الخبز والخمر. ثم أراد أيضًا أن يتجنب مسلك زوينكلي الذي بدا له خطيراً. ولذلك فقد تبنى هذا الطريق الوسط. ومما لا شك فيه أن كالفن قد انتقد بشدة عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وتمسكها الشديد بحرفية بعض النصوص الكتابية ثم تهاونها في بعض نصوص أخرى كان يجب عليها أن تتمسك بها بأكثر شدة وأن تسهر على تطبيقها بأكثر أمانة[1].

مفهوم زوينكلي:

إن زوينكلي يرفض رفضًا كليًا وجزئيًا مفهوم الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك مفهوم لوثر وكالفن بخصوص حضور المسيح في العشاء الرباني، سواء بطريقة حقيقية أو روحية. إن ممارسة العشاء الرباني تعني بالنسبة للمصلح السويسري، ذكرى لموت ولقيامة المسيح. فإن زوينكلي وأتباعه، مثل كارلوستاد بيتر وأكولامياد، لايرون في العشاء الرباني إلا مجرد ذكرى، فإن الخبز المكسور والخمر المصبوب يذكّران بموت الرب الذي قدم نفسه لأجلنا. وفي كل مرة يجتمع الإخوة لممارسة هذه الفريضة يتذكرون هذه الحادثة التاريخية العظيمة وينادون بها.

هذه هي المذاهب الأربعة الرئيسية وعقائدها فيما يختص بموضوع العشاء الرباني. ولقد حاول أتباع كل مذهب من هذه المذاهب أن يجدوا نصوصًا كتابية تؤيد قولهم ومذهبهم، وفعلاً وجد كل مذهب من هذه المذاهب بعض الآيات التي إذا نظرنا إليها منفردة ومنفصلة عن قرينتها، لأيدت الغرض الذي من أجله اقتُبست. ولهذا السبب يجب الرجوع إلى الكتاب بجملته وليس إلى آية منفردة هنا وإلى آية منفردة هناك. ولقد ذكر العشاء الرباني في الفصول الآتية: (مت ٢٦: ٢٦، ٢٩؛ مر ١٤: ٢٢-٢٥ ؛ لو ٢٢: ١٥-٢٠؛ ١ كو ١١: ٢٣- ٢٦ كما يجب دراسة يوحنا ٦: ٣٢-٧١).

إن أقدم فصل من هذه الفصول المذكورة أعلاه قد كتب في حوالي سنة ٥٥ م. (رسالة كورونثوس الأولى) وأحدثها كتب حوالي سنة ١٠٠ م. (إنجيل يوحنا). فمعظم هذه الفصول تعبر إذن عن عقيدة الكنيسة الأولى في موضوع فريضة العشاء الرباني، ونقول إن معظم هذه الفصول، وليس كلها ، لأن يوحنا ٦ لا يتفق أسلوبه وطريقة ممارسة الفصح في الأناجيل الثلاثة الأولى. ولقد سبق أن رأينا في دراستنا لعيد الفصح، أن الأناجيل الثلاثة الأولى توفق يوم تأسيس العشاء الرباني مع هذا العيد، وهنا نسأل هذا السؤال:

(١) لدراسة هذا الموضوع راجع كتاب Jean Calvin L'Institution Chrétienne. Livre 4. ص ٣٤٧ - ٤٠٢ ثم Suss كتاب وكتاب Max. Thurain.

هل أراد كتاب هذه الأناجيل الثلاثة التوفيق بين عيد الفصح وبين العشاء الرباني حتى يحل العشاء الرباني محل عيد الفصح؟

تتفق معظم الطوائف المسيحية وأقدمها، على أن العشاء الرباني حل محل الفصح، كما أن العماد حل محل الختان. إننا نتفق أيضًا مع هذه الأغلبية من الطوائف في هذا الأمر، واتفاقنا معها لا يرجع سببه إلى أغلبيتها وأقدميتها، لأن التاريخ يعلمنا غير ذلك، ولكن إن كنا نتفق معها في هذا الأمر، فلأننا نعتقد بأنها على حق في هذا الأمر. فكما يبدو لنا أن محاولة كتاب الأناجيل الثلاثة لتوفيق الفصح اليهودي مع العشاء الرباني كانت تهدف إلى الوصول إلى هذه النتيجة: وهي أن المسيح الذي حل محل خروف الفصح أسس لنا ليلة العشاء الرباني فصحًا جديدًا، قطع عهدًا جديدًا مع شعب جديد.

وهنا ينتهز هذه الفرصة الإخوة الذين يؤمنون سواء بالاستحالة أو بالحلول المزدوج، فيقولون إذا كان العشاء الرباني حل فعلاً محل الفصح، فالمسيح يقدم نفسه في كل مرة نقيم فيها فريضة العشاء الرباني لأن «المسيح هو فصحنا الذي ذبح لأجلنا» (١ كو ٥: ٧)، أو على الأقل بما أن الإفخارستيا حلت محل خروف الفصح، وبما أن يسوع نفسه قال: «خذوا كلوا هذا هو جسدي... اشربوا منها كلكم...» (مت ٢٦: ٢٦ - ٢٨)، فإن الاستحالة أو على الأقل الحضور المزدوج في الإفخارستيا أمر يجب قبوله والإيمان به.

ويقتبس الذين يؤمنون بالاستحالة والحضور المزدوج بعض الفصول التي تبدو للقارىء لأول وهلة بأنها تؤيد هذا الرأي، وخاصة أقوال يوحنا التي لا تمت بأية صلة في حقيقة الأمر إلى العشاء الرباني؛ إذ أن هذه الأقوال التي سجلها يوحنا هي عبارة عن عظة ألقاها السيد على الجماهير لكي يبين فيها الفرق بين المن الذي أكله الإسرائيليون في الصحراء وماتوا، وبين الخبز الحي، شخصه الكريم: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو ٦: ٥١). إن يوحنا يسجل لنا عبارات كثيرة من هذا النوع: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية... لأن جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق...» (يو ٦: ٣٢ - ٧١). على هذه العبارات التي تدل في ظاهرها على أن المسيح يتكلم عن الاستحالة أو الحلول المزدوج، بنى الكثيرون عقيدتهم في موضوع العشاء الرباني.

هنا نريد أن نلفت نظر القارىء إلى أمر هام، وهو أن المسيح لم ينطق بهذه الأقوال التي اقتبسناها من يوحنا، أثناء العشاء الرباني، بل كما سبق أن أشرنا، أن السيد تكلم بهذه الكلمات في مسامع الجماهير كعظة، وليس لممارسة فريضة العشاء، ومن الغريب والعجيب أن يوحنا لا يذكر شيئًا، لا من قريب ولا من بعيد، عن جسد الرب المكسور أو دمه الذي سال على الصليب، عند تناول الطعام الذي يمكننا أن نعتبره عشاء وداعيًا (يو ١٣: ١ - ١١). فلو كان المسيح يريد أن يعلمنا بأن جسده ودمه سيتحولان أو يحلان في الخبز والخمر، لكان لا بد له أن يشير إلى هذا الأمر عند تناول العشاء الذي يتكلم عنه القديس يوحنا في (١٣: ١ - ١١)، والذي يشير فيه أيضًا إلى أن ساعته قد جاءت لينتقل إلى الآب. ولكن كل أقوال المسيح الواردة في الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا والتي يستخدمها المؤيدون لنظريتي الاستحالة والحلول المزدوج، قد نطق بها قبل عيد الفصح بمدة لا بأس بها.

ولقد كان الغرض من هذه الأقوال هو إظهار الفرق الشاسع بين الخبز الذي أعطاه الله لإسرائيل والخبز الحي أي يسوع

نفسه. وإنجيل يوحنا يمتاز بالاستعارات والتشبيهات، فكم من الصفات والألقاب التي أعطاها المسيح لنفسه والتي لقبه بها الآخرون، فيوحنا قد أشار إليه بالقول: «هوذا حمل الله» (يو ١: ٢٩، ٣٩). وكانت الرؤيا يقول: «مستحق هو الخروف المذبوح» (رؤ ٥: ١٢). ولقد قال السيد عن نفسه: «أنا هو خبز الحياة» (يو ٦: ٣٥، ٤٨)، «أنا هو الباب» (يو ١٠:٩) ؛ «أنا هو الطريق» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو الراعي الصالح» (يو ١٠: ١١) ، «أنا هو نور العالم» (يو ٨: ١٢) ؛ «أنا هو الحق» (يو ١٤: ٦)، «أنا هو الكرمة» (يو ١٥: ١)...إلخ. فهل يمكننا القول بأن السيد قد تحول إلى هذه المواد التي وصف نفسه بها؟ هل يمكننا القول بأن السيد بعد أن قال: «أنا هو الطريق»، أصبح فعلاً طريقًا ماديًا ملموسًا محسوسًا، أو أصبح بابًا، أو كرمة، أو قطعة من الخبز؟!

فكلنا نتفق على أن هذه الأسماء ما هي إلا صفات وصف السيد بها نفسه، ولم يتحول، بأي حال من الأحوال، إلى أي مادة من هذه المواد التي تشير إليها هذه الصفات. فلماذا إذن نحاول أن نطبق هذه الصفات التي نطق بها السيد في الإصحاح السادس، والتي لا تمت بأية صلة إلى الإفخارستيا، بطريقة حرفية؟ فالكلام الذي نطق به يسوع هو كلام مجازي إذن وليس كلامًا حرفيًا. وكأني بالمسيح يخشى من المادية والحرفية القاتلين، فيقول في نفس الإصحاح السادس: «الروح هو الذي يحيي وأما الجسد فلا يفيد شيئًا والكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو ٦: ٦٣) والمسيح نطق بهذه الكلمات أي بأن كلامه «روح وحياة» عندما أدرك أن اليهود فهموا عظته هذه عن الخبز الحي بطريقة حرفية مادية، ولذلك قالوا له: «ياسيد أعطنا في كل حين هذا الخبز» (يو ٦: ٣٤). وهذا هو نفس ماحدث مع السامرية عند بئر يعقوب التي فهمت كلام المسيح عن الماء الحي بطريقة حرفية مادية، فقالت له المرأة: «ياسيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي» (يو ٤: ١٥). والأمر لا يحتاج إلى توضيح أكثر أو شرح أطول، إذ أن يوحنا معروف بأنه يستعمل في كتاباته كثيراً من المجازات والتشبيهات، فلا يمكننا قبول كل أقوال المسيح بطريقة حرفية: «لأن الحرف يقتل ولكن الروح يحي» (٢ كو ٣: ٦).

فإن كان يوحنا يحب الاستعارة والتشبيه، واستعمل هذا الأسلوب في الكتابة عن شخص المسيح، ولا يمكننا أن نفسره تفسيراً حرفيًا، فما هو موقفنا من أقوال الأناجيل الأخرى والرسالة الأولى لأهل كورنثوس؟ ألم يقل السيد: «خذوا كلوا هذا جسدي... اشربوا منها كلكم...» (مت ٢٦: ٢٦، ٢٧)، «خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم» (١ كو ١١: ٢٤).

لقد سبق القول بأن كثيرين يميلون إلى فكرة أن العشاء الرباني حل محل الفصح، ويحتمل صحة هذا الفرض، ولكن في أثناء العشاء الرباني كان المسيح يشير إلى جسده الذي سيكسر، صحيح أن الصيغة المستعملة في الكتاب هي صيغة الماضي، وأما في حقيقة الأمر فهي تشير إلى المستقبل، «الغد» الذي فيه سيكسر جسد المسيح. وسواء أكان يظن أن المسيح قد قام بالعشاء الرباني قبل صلبه بيومين، أو في الليلة التي أسلم فيها (١ كو ١١: ٢٣)، فهذا يدل على أن السيد بعد أن قال لتلاميذه: «خذوا كلوا هذا هو جسدي» بقي معهم حيًا وخرج إلى بستان جثسيماني، الأمر الذي لا يتفق مع عقيدة الاستحالة، الذي يقول بأن الخبز والخمر يتحولان بطريقة سرية ومعجزية إلى جسد ودم المسيح.

فماذا يريد إذن المسيح بهذه الكلمات: «خذوا كلوا هذا هو جسدى»؟ إن المسيح لا يريد بهذا القول أن يعطي جسده حرفيًا للأكل ودمه حرفيًا للشرب، بل أراد أن يعبر عن الموت الذي سيجتازه بعد ساعات قليلة، إذ أن ساعته قد جاءت وكان

لابد له أن يبذل نفسه ليس فقط عن خاصته الذين أحبهم، بل عن العالم كله، وبنظرة ولو سطحية دون الدخول في التفصيلات التفسيرية نلاحظ أن الرسول بولس يعتبر أن كسر الخبز هو شركة جسد المسيح (١كو١٠: ١٦)، ويقول الراحل المحبوب الدكتور إبراهيم سعيد: «فضلاً عن هذا، فإن بولس الرسول يؤكد أن الخبز بعد حلول البركة عليه، لم يزل بعد خبزًا» ، «الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح»؟ فإذا قد اعتبره الرسول «شركة» جسد المسيح لا «جسد» المسيح بالذات»[١]. وحتى في اللحظات الأخيرة من هذا العشاء التذكاري، يتكلم المسيح عن «الخمر» الذي أمامهم في الكأس، على أن الخمر مازال خمرًا والخبز مازال خبزًا حتى بعد صلاة السيد نفسه.

وهنا نريد أن نلفت نظر القارىء الكريم إلى نقطة هامة: لقد قام السيد بإجراء معجزات عظيمة وخارقة للعادة، وهذه المعجزات التي أجراها الرب من شفاء الأمراض المستعصية، إقامة الموتى، تهدئة العواصف... إلخ، لم تكن معظم هذه المعجزات ضد العقل البشري، بل كانت تفوق إدراك البشر. فعلى سبيل المثال، لو قامت لجنة طبية بالكشف على الرجل الذي فتح المسيح عينيه قبل أن تجرى له هذه المعجزة لقررت بأنه أعمى، ثم لو قامت نفس اللجنة بالكشف على هذا الرجل بعد الشفاء، لقررت بأنه يبصر (نفس المثل يمكن أن يطبق على إقامة لعازر ومعجزات أخرى). هنا تقف اللجنة الطبية عاجزة عن أن تعطى تفسيرًا علميًا لهذه الحادثة، ولكنها تستطيع في نفس الوقت أن تقرر علميًا بأن الرجل الذي كان أعمى، أصبح يبصر: أمر يفوق إدراك العقل ولكنه ليس ضد الحقيقة أو ضد العقل، لأن الرجل الذي كان أعمى شفي فعلاً. فالواقع هو برهان على حقيقة المعجزة. وهذا ما لا نراه في سر الإفخارستيا فالخمر يظل خمرًا، والخبز بعد صلاة التقديس، وكل الحواس من بصر ولمس وشم وذوق تشهد كلها بعدم وجود أي تغيير.

ولكن إن كان لا يوجد تغيير جوهرى في الخبز والخمر اللذين نتناولهما في العشاء الرباني، فإننا نشترك مع المسيح نفسه الذي قدم نفسه كذبيحة حية مرضية أمام الله، لكي نصير بفضل هذه الذبيحة الكاملة والخالية من كل خمير، قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة، فنحن أي شعب الله كله كهنة: «لأنه جعلنا ملوكًا وكهنة لله أبيه...» (رؤ ١: ٦ ؛ ١ بط ٢: ٩)، يجب علينا أن نشترك في هذه الفريضة بروح التعبد والخشوع، لأن المسيح كاهننا الأعظم، يشترك معنا وحاضر بطريقة روحية وغير منظورة أو ملموسة. فكل من يقترب من هذه المائدة باستخفاف واستهتار أو بعدم الاحترام اللائق بحضور المسيح، فإن ذلك الشخص «يأكل ويشرب دينونة لنفسه».

الرسول بولس يقول: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء». وإني أعتبر هذه الكلمات جوهرية وفي غاية الأهمية، ففي الوقت الذي تتعرض فيه المسيحية في العالم كله لهجمات قاسية عنيفة، هجمات من الداخل، تيارات لاهوتية وسياسية في داخل الكنيسة نفسها، وتيارات إلحادية مادية من الخارج، في هذا الوقت تحتاج كنيسة المسيح إلى أن تخبر بموت وقيامة الرب إلى أن يجيء. هذه هي رسالة الكنيسة اليوم، أن تنادي بالخبر السار، تنادي بإنجيل المسيح، فلنناد كلنا إذن بهذا الخبر العظيم: يسوع مخلص العالم. ولنترك التعصب الذي يؤدي إلى الهدم والانقسام.

(١) انظر شرح بشارة لوقا للدكتور القس إبراهيم سعيد ص ٥٤٦.

الفصل العاشر

موت المسيح وقيامته

حاولنا أن نشرح في الصفحات السابقة قضية العشاء الرباني وارتباطها بالفصح. وكيف أن إنجيل يوحنا يشدد على أن حمل الله الذي جاء لكي يرفع خطية العالم صلب يوم الجمعة. وعندما نتكلم عن صلب المسيح لا يمكننا أن نهمل الناحية التاريخية، خصوصًا أن الأناجيل الأربعة التي تسجل لنا حادثة محاكمة وموت السيد، تذكر لنا أسماء بعض الشخصيات الرومانية واليهودية التي سجلها التاريخ الروماني واليهودي. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن بخصوص موضوع موت المسيح هو: هل توجد أدلة تاريخية موثوق فيها تتكلم عن موت المسيح؟ هل بيلاطس البنطي الحاكم الروماني الذي على يده صُلب المسيح، قدم تقريرًا رسميًّا إلى الإمبراطور يشرح فيه قضية محاكمة يسوع والسبب الذي من أجله حكم عليه بالموت؟

إن الأناجيل الأربعة تذكر لنا مؤامرة القبض ومحاكمة يسوع وموته (مت ٤٧:٢٦؛ ٦٦:٢٧؛ مر ١:١٤ - ١٥؛ لو ٣٩:٢٢؛ ٤٩:٢٣؛ يو ١:١٨ - ١٩، ٤٢). كما أنها تذكر أيضًا أسماء رؤساء الكهنة اليهود والحاكم الروماني (أو الحاكمين الرومانيين: بيلاطس وهيرودس)، الذين اشتركوا في محاكمة السيد. ولكن الوثائق التاريخية، غير الإنجيلية، التي تتكلم عن يسوع وموته قليلة جدًا. والأمر الذي أدهش المؤرخين كثيرًا، بل يعتبر حجة وعثرة بالنسبة لهم، أن الأناجيل تسجل لنا بوضوح قصة القبض على يسوع ومحاكمته وموته، وأن الذين قاموا بالحكم في هذه القضية هم اليهود والرومان، رؤساء الكهنه الذين كانوا يمثلون السلطة الدينية اليهودية، وبيلاطس البنطي الذي كان يمثل السلطة الحاكمة الرومانية المستعمرة لتلك البلاد في ذلك الوقت. وبالرغم من ذلك فإن السجلات الرومانية المعروفة حاليًا لا تذكر لنا شيئًا عن محاكمة يسوع ولا عن موته؟ وهنا يتساءل بعض المؤرخين واللاهوتيين: كيف يمكن أن يصدر بيلاطس البنطي حكمه بإعدام شخص في أمة خاضعة لسلطة روما دون أن يرسل تقريرًا مفصلاً أو حتى موجزًا عن هذه القضية. خصوصًا أن رؤساء الكهنة والكتبة قدموه إلى الحاكم الروماني كمفسد للأمة، وكإنسان ثائر ضد روما والسلطة الحاكمة. «وابتدأوا يشتكون علية قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك... فكانوا يشددون قائلين إنه يهيج الشعب...» (لو ١:٢٣ - ٧).

فالتهمة التي أراد اليهود إلصاقها بالسيد، هي تهمة سياسية وخطيرة جدًا، فلم يتهموه أمام بيلاطس بأنه نبي كذاب أو

مجدف، أو هرطوقي؛ لأن كل هذه الأوصاف التي يمكن لليهود أن يصفوا بها هرطقة يسوع، لا قيمة لها في عيني بيلاطس الحاكم الروماني. فإن مهمته ليست حفظ الدين. اليهودي معصومًا من الغلط والهرطقة، بل السهر على سلامة المصالح الرومانية، والضرب بشدة على رأس كل من يقاوم سلطان قيصر. وبما أن اليهود يعرفون ذلك جيدًا، فلقد اتهموا السيد بأنه يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر، بل أنه يدعي بأنه مسيح ملك، أي مقاوم لسلطان قيصر ويريد أن يحرر إسرائيل. فكان من المنتظر إذن أن يعير بيلاطس الأمر اهتمامًا أكثر وأعظم، وكان من الواجب أن يكتب إلى قيصر تقريرًا مفصلاً يشرح فيه كيف استطاع أن يصلب الشخص الذي ادعى لنفسه سلطان المسيا. ولكننا لا نجد في السجلات الرومانية أي أثر لهذه القضية، أي قضية محاكمة السيد أمام بيلاطس.

لماذا إذن هذا الصمت الذي يكاد يكون كاملاً بخصوص قضية محاكمة يسوع؟ في حقيقة الأمر إن الصمت لم يكن كاملاً. فإن تلمود اليهود يقص علينا رواية، وإن كانت لا تتفق ورواية الأناجيل لأنها تهدف إلى تبرير موقف اليهود من يسوع، إلا أنها تسجل لنا شيئًا عن قضية محاكمة يسوع. وتقول قصة التلمود: «لقد علق يسوع الناصري على خشبة في عشية عيد الفصح، فعلى مدى أربعين يومًا كان يتقدمه منادٍ صارخًا: لقد استعمل السحر وأغوى إسرائيل بالعصيان، فهو إذن مستحق الرجم. فإن كان يوجد من يدافع عنه لكي يبرر موقفه فليدافع، ولكن لم يوجد من يدافع عنه أو من يبرره. ولذلك قضي عليه في عشية الفصح». فإن كان هدف هذه الشهادة التي سجلها التلمود هو تبرير اليهود في صلب المسيح، فإنها تقدم وثيقة حية قوية عن أن يسوع صُلب فعلاً، وأن اليهود هم صالبوه.

وأما فيما يخص قلة الوثائق الرومانية والصمت الذي التزمه المؤرخ اليهودي المعروف يوسيفوس فلافيوس بخصوص حياة وموت المسيح، فقد سبق أن أشرنا إلى هذا الموضوع[1]، فمع أن يوسيفوس كان شحيحًا جدًا في المعلومات التي أعطاها لنا عن يسوع، إلا أن بعض المؤرخين الوثنيين سجلوا شهادات واضحة وصريحة عن يسوع، فإن «تاسيت» الذي سجل حادثة حريق روما[2] يقول إن المسيحيين لقبوا بهذا الاسم بسبب نسبتهم إلى المسيح الذي في عهد طيباريوس، حكم عليه بالموت بيلاطس البنطي...

كذلك شهادة «بلينوس» الشاب وشهادة «طاليس» السامري، هؤلاء الكتاب يتكلمون عن موت المسيح. ولكن مازال السؤال الخاص بمحاكمة يسوع مطروحًا: لماذا لا يوجد أي تقرير في السجلات الرومانية عن موت المسيح، وقد حكمت عليه محكمة رومانية؟

وهنا نشير إلى ما سبق أن قلناه بخصوص هذا الموضوع وهو إن كنا لا نجد حتى الآن أي أثر لاسم يسوع في التقارير

(١) انظر هذا الكتاب من ص ١٤٤ - ١٥١.

(٢) لقد ظن البعض خطأ بأن نيرون قام بحرق روما لكي يلصق هذه التهمة بالمسيحيين، وحقيقة الأمر هي أن الإمبراطور نيرون أراد التخلص من الأحياء القذرة، وبناء مدينة جديدة تليق بالإمبراطور الروماني، فأمر بإشعال النيران في بعض أحيائها. ويظن بأن البعض قد شاهده وهو ينظر إلى النار المشتعلة التي تسبب عنها موت وتشريد وخراب المدينة وتدميرها، وكان يضحك ضحكات هستيرية عالية، فلكي يخلص نفسه من هذه الجريمة اتهم المسيحيين بحرق روما.

الرسمية المرفوعة إلى روما، فإن ذلك يرجع إلى عدة حقائق:

١- كان بيلاطس شخصًا قاسيًا متغطرسًا ذا سوابق مع روما ومع الشعب اليهودي، ومن هذه السوابق أنه حكم بقتل كثيرين دون محاكمة رسمية ودون كتابة أي تقرير عنهم لروما، ولقد ذكر هذا أغريباس في أحد تقاريره ضد بيلاطس.

٢- كما أنه يحتمل أيضًا أن بيلاطس لم يرسل تقريرًا مفصلاً أو موجزًا إلى روما بخصوص قضية يسوع لأن يسوع لم يكن ممن يتمتعون بالجنسية الرومانية، فلا داعي إذن لإرسال تقرير إلى روما عن هذه الحالة التي تختص بشخص يهودي.

٣- كما يحتمل أيضًا أن بيلاطس اعتبر محاكمة يسوع قضية محلية لا تخص إلا البوليس المحلي، فلا داعي لإبلاغ روما بهذه القضية.

٤- وهناك احتمال آخر، لقد كان اليهود وبيلاطس في صراع مستمر وعدم انسجام. فعندما قدم اليهود يسوع، ظن بيلاطس أنهم يمدون له شركًا يوقعوا به أمام الإمبراطور، ولذلك فقد حاول بيلاطس بكل الوسائل الممكنة أن يتجنب الحكم على يسوع لأنه كان يخشى أن يدبر اليهود له مؤامرة بهذه القضية. ولهذا السبب فقد طلب بيلاطس من اليهود أن يحكموا على يسوع بحسب ناموسهم: «فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم، فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا» (يو ١٨:٣١، ٣٢). ولهذا السبب أيضًا طلب بيلاطس ماء وغسل يديه أمام الجميع لكي يعلن أنه بريء من دم هذا الإنسان (متى ٢٧:٢٤).

أراد بيلاطس بعملية غسل يديه أمام الجميع وإعلانه براءة يسوع أن يتجنب المؤامرة التي كان يظن أن اليهود يحيكونها له ليرفعوا شكوى ضده لدى الإمبراطور. وبما أن اليهود لم يقدموا فعلاً شكوى ضده لدى الإمبراطور بخصوص هذه القضية، فإن بيلاطس لم يكتب لروما عنها، وهكذا ظل الأمر غير معروف لدى روما ولم يسجل في سجلاتها القانونية.

لقد فرضت كل هذه الاحتمالات لعدم وجود وثائق رسمية في السجلات الرومانية التي تتكلم عن هذه القضية، ولكن ربما المستقبل القريب يطالعنا بمفاجآت طيبة، لأن علماء الحفريات ينبشون الآثار لكي يستخرجوا من بطون الأرض جددًا وعتقًا. فإن الاكتشافات الحديثة التي وصل إليها علماء الآثار، حلت لنا مشاكل كثيرة كانت صعبة ومعقدة، مثل مخطوطات وادي قمران التي ظلت أسيرة سجينة في كهف إلى أن حررها عن طريق الصدفة، الراعي محمد الديب وسلمها للعلماء لفك رموزها.

فإن كانت السجلات الرومانية المعروفة لدينا حتى الآن تجهل قضية محاكمة يسوع، إلا أن الأناجيل الأربعة بلا استثناء تسجل لنا بأمانة هذه القضية (مت ٢٦:٤٧؛ ٢٧:٦٦؛ مر ١٤:١ – ١٥، ٤٧؛ لو ٢٢:٣٩؛ ٢٣: ٤٩؛ يو ١٨:١ -١٩، ٤٢) وتذكر لنا أسماء الذين اشتركوا في محاكمة يسوع، ويجوز للأسباب التي سبق ذكرها أن هذه القضية لم تسجل في سجلات الإمبراطورية، أو يجوز أيضًا أن السجل الخاص بهذه القضية فقد، وربما سيكتشف فيما بعد فتكون مفاجأة للتاريخ وللعلماء.

وقبل أن ننهي الكلام عن محاكمة يسوع، نود أن نقف ولو قليلاً عند هذه القضية، إن الشيء الأول الذي يلفت النظر،

هو سرعة البت فيها، وتبعًا لما ذكر في الأناجيل لم تستمر محاكمة يسوع أكثر من ٢٤ ساعة من وقت القبض عليه إلى أن رفع على الصليب. وأمام هذه السرعة تساءل الكثيرون قائلين: كيف يمكن أن تتم هذه العملية بهذه السرعة؟ وكيف يمكن قضائيًا وعمليًا أن يقوم يسوع بعمل العشاء الرباني في العلية والذهاب إلى جبل الزيتون، والصلاة ثلاث مرات، ثم حضور يهوذا مع الجند للقبض عليه، ثم إحضاره إلى رئيس الكهنة حنان واستجوابه، ثم إحضاره إلى رئيس الكهنة قيافا، واستجوابه، ثم إحضاره أمام بيلاطس وبيلاطس يرسله إلى هيرودس، وهيرودس يرجعه إلى بيلاطس. وهذا الأخير يقدمه إلى الشعب مقترحًا عليهم اسم باراباس، وأخيراً يسلمه للصلب فيُصلب.

كل هذه الأحداث، بما تتضمنه من مناقشات وأسئلة ومداولات قضائية وغير قضائية تمت في أربع وعشرين ساعة. والمشكلة التي تعترض سبيلنا في هذه القضية هي: هل يمكننا من الناحية القضائية والناحية العملية تنفيذ هذه الأحداث الكثيرة في مدة أربع وعشرين ساعة؟

ولقد اقترحت عدة حلول منها:

١- لقد سبق أن أشرنا فيما سبق بخصوص الفصح إلى نظرية الآنسة جوبرت، التي تعرفنا بوجود تقويم أسيني والذي بحسبه كان يوم الفصح يقع دائمًا يوم أربعاء، وبناء على هذا التقويم، فالمسيح يكون قد تناول العشاء الأخير مع تلاميذه في مساء يوم الأربعاء، ثم صلب عشية الفصح الرسمي اليهودي الذي كان يقع في تلك السنة في يوم السبت (أي يوم الجمعة بعد الظهر) وفي هذه الفترة من يوم الأربعاء مساء إلى يوم الجمعة صباحًا دارت أحداث الآلام والصلب، فالآنسة جوبرت تعتقد أن هذه الأحداث قد حدثت في مدة تزيد على اليوم، وتلخصها كالآتي:

في ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء: تم القبض على يسوع والذهاب به إلى رئيس الكهنة حنان (مر ٥٣:١٤؛ لو ٥٤:٢٢؛ يو ١٣:١٨) ثم أسئلة رئيس الكهنة ليسوع (يو ١٩:١٨ -٢٣) ثم إرساله إلى قيافا (يو ٢٤:١٨).

يوم الأربعاء: الجلسة العظمى لمحاكمة السيد (مر ٥٥:١٤ -٦٤).

يوم الخميس: جلسة مشاورة ومؤامرة (مت ١:٢٧؛ مر ١:١٥).

ثم إحضار يسوع أمام بيلاطس، وبيلاطس يرسله إلى هيرودس (٦:٢٣ -١٢).

يوم الجمعة صباحًا: يمثل مرة ثانية أمام بيلاطس (لو١٣:٢٣) ثم الحكم عليه وصلبه. هذا هو البرنامج الذي تقترحة الآنسة جوبرت بخصوص المحاكمة.

على أن الذين يتمسكون بفكرة أن كل هذه الحوادث تمت فعلاً كما ترويها الأناجيل في مدة أربع وعشرين ساعة، يعتقدون بأن البت السريع في هذه القضية كان ضروريًا ولازمًا لعدة أسباب:

١- التمسك بالنص الكتابي الذي يفهم منه أن هذه الأحداث حدثت في أربع وعشرين ساعة.

٢- كان يجب الحكم على يسوع بسرعة قبل حلول العيد لتجنب كل شغب وهيجان من ناحية الشعب.

٣- خوف رؤساء الكهنة من أن تظن السلطات الرومانية أن يسوع هو واحد من المسايا الذين يظهرون ويؤيدهم عدد كبير من اليهود، فتجنبًا لهجمات الرومان وضرباتهم القاتلة، فضلوا الإسرع بتسليم يسوع لأيدي الرومان لكي يبرهنوا على أنهم لا يؤيدونه ولا يشاركونه أفكاره الثورية. ألم يعطِ قيافا هذه المشورة بالقول: «إنه خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب»؟ ألم يقرر أيضًا رؤساء الكهنة في مجمع لهم بعد أن أقام يسوع لعازر، بأن يسلموا يسوع للموت عملاً بمشورة قيافا: «إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا...» (يو ١١:٤٥ -٥١). وليت هذه الآية الأخيرة تكون واضحة في أذهاننا: «فيأتي الرومان ويأخذون موضعنا وأمتنا».

وحقيقة الأمر، أن الرومان كانوا محتلين للأمة اليهودية والموضع، فلماذا يقول اليهود في المجمع هذه العبارة؟

إن اليهود كما سبق القول كانوا يخشون أن يشك الرومان في أن الأمة اليهودية ورؤساءها يؤيدون يسوع وحركته كما حدث في الحركات المسيانية التي جاءت قبله والتي ضربها الرومان بشدة. وكأني بهم يقولون: قبل أن يصل الأمر إلى آذان الرومان، وقبل أن يأتي هؤلاء لتخريب أمتنا وشعبنا وموضعنا هذا لكي يخمدوا حركة يسوع وأتباعه، كما فعلوا بالحركات المسيانية السابقة، لنسلمه إلى أيديهم، فإنه «خير أن يموت إنسان واحد عن الشعب». ولقد أسلموه فعلاً إلى أيدي الرومان، الأمر الهام في تسليم يسوع والحكم عليه بالموت، لا يتمثل في أن هذه القضية قد استمرت يومًا أو يومين أو أن الأمور سارت فيها قانونية أو غير قانونية، بل الأمر الأهم من ذلك كله، هو أن يسوع المسيح قبل الموت ليس فقط لأجل الإنسان بل بدلاً من الإنسان. أي أن ذلك القدوس البار الخالي من كل خطية وعيب، وهو الوحيد الذي استطاع أن يتحدى اليهود بالقول: «من منكم يبكتني على خطية» (يو ٨:٤٦).صار هو نفسه، كما يقول الرسول، خطيةً لأجلنا: «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه» (٢كو ٥:٢١).

فعملية النيابة التي قام بها المسيح لم تكن عملية تمثيلية، كما يقوم الممثل بلعب دور على المسرح، فلا يحدث في حقيقة الأمر قاتل ولا مقتول ولكنه قبل فعلاً وحقًا أن يموت لأجلنا وبدلاً عنا، والغرض من هذا الموت هو أن يأخذ يسوع مكاننا كخطاة أمام الآب؛ أي أن يصبح هو نفسه، الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا. فعلى الصليب أخذ المسيح مركز الإنسان الخاطىء المتمرد والمجرم والعاصي والمبتعد عن الله، وبالتالي الإنسان المرفوض من الله. وعندما احتل المسيح مكان هذا الإنسان الخاطىء المرفوض، وشرب الكأس إلى نهايتها وذاق مرارتها وعلقمها، «صرخ بصوت عظيم قائلاً: إيلي إيلي لما شبقتني، أي إلهي إلهي لماذا تركتني» (مت ٢٧:٤٦). والمسيح عندما قام بعملية النيابة هذه، لم يقم بها كشخص يريد أن يفعل الخير لأجلنا أو يحسن إلينا بصنيعه، بل قام بها لأنه أراد أن يأخذ مكاننا، أي مكان البؤس والحزن والسجن والرفض والقضاء والموت. ولهذا الغرض عينه صار الله إنسانًا لكي يوجد في نفس الظروف التي نوجد فيها. لقد جُرِّب، تألم، بكى، عرف العطش والجوع والفراق: «لأنه في ما هو قد تألم مجرَّبًا يقدر أن يعين المجرَّبين» (عب ٢:١٨). فإلهنا ليس بالإله البعيد عنا الساكن في سماوات لا يُدنى منها، بل هو الإنسان يسوع المسيح الذي يعرف ظروفنا، يعرف تجاربنا مهما كان نوعها، لأنه في أيام جسده جُرِّب هو نفسه

بكل هذه التجارب: «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية» (عب ٤:١٥). هو نفسه الذي يقول عنه كاتب رسالة العبرانيين: «الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع وطلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه، مع كونه ابنًا تعلم الطاعة مما تألم به» (عب ٥:٧ - ٨؛ لو ٢٢:٣٥ -٤٦). فالمسيح مع كونه «الله الذي ظهر في الجسد» فهو إنسان كامل بكل ما تحمل كلمة إنسان من معنى، وهذا الأمر الذي يعزي قلوب المؤمنين ويطمئنهم، ذلك أن المسيح يسير معهم في تجاربهم وآلامهم وأحزانهم واضطراباتهم وخوفهم وانزعاجهم أمام مشاكل الحياة، لأنه هو نفسه مر في هذه المراحل كإنسان، بل إنه تحمل الموت وقبله طوعًا لأجل البشرية كلها.

والذي قام بهذه العملية النيابية، هو الله نفسه متجسدًا في الإنسان يسوع المسيح، هذا هو الأمر الذي يعطى لهذه العملية أهميتها وعظمتها. ويقارن كارل بارت آلام المسيح بالآلام التي تحملها عدد كبير من الشهداء في تاريخ البشرية، ويرى أن الأناجيل لا تقول بأن آلام السيد كانت فريدة ووحيدة من نوعها، فكم من شهداء تألموا بطريقة أكثر وحشية مما تألم السيد. وقد ذاقوا العذاب لفترة أطول من الفترة التي ذاق فيها الرب الآلام، إذ أن كل ما حدث له حدث في يوم واحد، فإن كثيرين من هؤلاء الشهداء والأبطال أقبلوا على الموت بسرور وشجاعة، وموتهم غير أيضًا أشياء كثيرة في مجتمعهم. ولكن الذي يجعل آلام المسيح مختلفة عن آلام هؤلاء جميعهم، ليس نوع الآلام التي اجتازوا فيها ولا حتى طريقتها، ولكن الذي يميز آلام السيد عن كل الآلام التي أذاقها البشر بعضهم لبعض، هو الشخص المتألم نفسه، والغرض من هذه الآلام. فالشخص الذي قاسى هذه الآلام هو المسيح، الله الأزلي في شخص ابنه يسوع المسيح، أراد أن يكون إنسانًا وبذلك تحمل هذه الآلام. وكارل بارت يؤمن بأن هذه الآلام التي قاساها السيد لم تحدث له عن طريق الصدفة، بل أن هذه الآلام كانت معروفة في علم الله السابق، والمسيح لم يكن واعيًا ومدركًا فحسب أن هذه الأحداث المريرة القاسية ستحدث له، بل أنه قبلها أيضًا برضى وسرور[1].

والسؤال الذي نسأله الآن هو الآتي: لماذا هذه الآلام؟ إن الغرض من الآلام التي اجتازها السيد هو المصالحة. «أي أن الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم وواضعًا فينا كلمة المصالحة» (٢كو ٥:١٩).هذا هو السبب الذي من أجله صار الله إنسانًا وتألم، إنه أراد أن يضع يده في يد الإنسان الخاطىء. فعلى الصليب علق المسيح كخروف الفصح، حمل الله الذي يرفع خطية العالم. وبهذه الذبيحة وبهذا الموت استطاع المسيح أن يصالح الله القدوس العادل مع الإنسان الشرير الخاطىء. لأن الإنسان كان في عداوة مستحكمة مع الله. فبالسقوط أعلن الإنسان حربًا شعواء ضد الله وضد وصاياه، ولكن الله في محبته التي لا تقاس، جاء إلى الإنسان في شخص يسوع المسيح، ومد يده طالبًا المصالحة. لأن الله منذ الأزل وقبل تأسيس العالم، قد أحب الإنسان وأحبه إلى المنتهى. وبما أننا في مجال الكلام عن المصالحة والسقوط والخطية يحسن بنا أن نلقي نظرة على ما يعتقده بارت بخصوص هذه العقيدة، فلقد ظل معلمو اللاهوت التقليديون يتبعون في دراساتهم العقائدية وبطريقة منظمة، البدء بمعالجة عقيدة مشكلة السقوط والخطية ثم عقيدة المصالحة.

ولقد اتبع التقليديون هذا النظام لأنهم اعتقدوا بأن الخطية هي السبب الأساسي الذي اضطر الله معه إلى القيام بعمل

---

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٧ ص ٢٥٠- ٢٦٠ النص الفرنسي Dogmatique.

المصالحة، أو بتعبير آخر، لقد ظن التقليديون (بروتستانت، وكاثوليك وطوائف أخرى) أن دخول الخطية إلى العالم هو السبب الأساسي الذي دفع الله لعمل المصالحة ولموت المسيح أيضًا. وأما بارت فيعتقد بأن الخطية ودخولها إلى العالم لم تكن السبب الأساسي والجوهري في المصالحة ولا في موت المسيح على الصليب، ولكن الذي دفع الله إلى أن يبذل ابنه الوحيد لكي يموت ويحتمل هذه الآلام، هو المحبة التي عن طريقها قطع الله عهدًا مع الإنسان، لأنه محبة أبدية قد أحبه: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به» (يو ٣:١٦). فالخطية إذن لم تكن السبب الأساسي في المصالحة، ولكنها كانت فرصة عن طريقها أظهر الله محبته. والله لم يكن مجبرًا أو ملزمًا أو مضطرًا، بسبب الخطية، التي هي ناحية سلبية ومن عمل الشيطان، بأن يقوم بالمصالحة مع الإنسان، لكن ما دفع الله لكي يتخذ هذه الخطوة الإيجابية، وأن يمد يده لكي يصالح الإنسان، ليس الخطية ولا حتى الخطية الخاطئة جدًا، بل هي محبة الله التي لا يمكن قياسها. صحيح أن الخطية هي كسر العهد وتعدي الوصايا، ولكن ما دفع الله لعمل المصالحة ليس هو أن الإنسان كسر الوصايا فحسب، بل إن الله أحب ويحب الإنسان وقطع معه عهدًا، ولأجله كانت هذه المحبة، وبسببها نراه الآن معلقًا على الصليب لكي يتمم هذا العهد الذي كسرته الخطية والإنسان، فعندما قال يسوع على الصليب: «قد أكمل»، أراد بذلك أن يقول: إنه قد أكمل تجديد العهد الذي قطعه الله مع الإنسان والذي كسره هذا الأخير[1].

فرسالة الكنيسة اليوم هي رسالة محبة الله وإعلان هذه المحبة، وليس غضب الله. وما أحوج العالم الحالي إلى هذه الرسالة، رسالة المحبة المضحية الباذلة التي لا تطلب ما لنفسها بل ما للآخرين!

هل قيامة المسيح حقيقية أم أسطورة؟

إن قيامة المسيح من بين الأموات مشكلة من المشاكل اللاهوتية التي أثارت عبر التاريخ جدلاً حارًا ومناقشات طويلة مختلفة ومتنوعة، وأسئلة لا حصر لها. ومن الأسئلة التي طرحها اللاهوتيون وغير اللاهوتيين، بخصوص قيامة السيد من بين الأموات: هل قيامة المسيح من بين الأموات هي حقيقة واقعية أم أسطورة؟ هل يسوع الناصري، ابن مريم الذي صلب على يد بيلاطس البنطي ومات على الصليب، قام حقيقة من بين الأموات؟ وهل يمكننا أن نعتبر حادثة القيامة حادثة وقعت فعلاً كحادثة موته على الصليب؟ وهل يسوع الناصري قام بجسده البشري؟

كما أن كتاب الأناجيل الأربعة كتبوا لنا بشيء من التفصيل عن موت يسوع، فإنهم سجلوا لنا أيضًا حادثة القيامة (مت ٢٨:١ - ٢٠) (مر ١٦:١ - ٨؛ لو ٢٤:١ - ١١؛ يو ٢٠: ١ - ١٨)، وإن كانوا في تسجيلهم لهذه الحادثة قد كتبوا بأسلوب قد يظهر للبعض أن فيه شيئًا من عدم الانسجام والتوافق، فإن الأمر الأساسي هو أن كل كاتب من هؤلاء الكتاب الأربعة يروى قصة القيامة كما فهمها. ولا نريد أن نناقش هنا التفصيلات الدقيقة والكثيرة الخاصة بقصة القيامة كما سجلها لنا الإنجيليون، ولكن لنبحث هذا الموضوع كحادثة: أعني هل هذه الحادثة حدثت فعلاً في زمان ومكان معينين في عالمنا هذا؟

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٧ من ص١٦٥ - ١٨٠ Dogmatique.

لقد تكلم كثيرون من اللاهوتيين عن هذه الحادثة كثيراً، وعندما نتكلم عن اللاهوتيين وما كتبوه عن قيامة المسيح، لا يمكننا أن نجهل موقف كارل بارت الذي يقدم لنا مفهوم العهد الجديد بخصوص هذه الحادثة، فهو يعتقد بأن العهد الجديد يروي لنا قصتين في غاية الأهمية، حدثت القصة الثانية منها عقب الأولى مباشرة، وعلى وجه التحديد في اليوم الثالث، وهي قصة القيامة. والذين يقصون لنا هذه الرواية هم شهود عيان قد رأوا وسمعوا ولمسوا المسيح المقام (١يو ١:١ - ٤)، فالذين يروون لنا هذه القصة هم الرسل أنفسهم، ويقصونها كقصة حقيقية حدثت فعلاً في زمان معين وفي مكان معين أيضًا[١].

وهنا يظهر الخلاف الأساسي بين كارل بارت وبولتمان، فإن بولتمان أراد أن يجعل من القيامة أسطورة. وهذا ما يعترض عليه كارل بارت بشدة قائلاً: إن بولتمان جعل من حادثة القيامة أسطورة مفسرًا إياها كميلاد الإيمان في يسوع المقام، إيمان يرجع أصله إلى الوعظ. وبولتمان لا يريد أن يعتبر هذه الحادثة وحوادث الأربعين يومًا التالية لها من الحقائق التاريخية إذ أنها لا تخضع للتاريخ، أي لا يمكن إثباتها تاريخيًا.

وكيف يمكن اثباتها تاريخيًا؟ إن القيامة شيء حدث في إيمان التلاميذ، ولكن بارت يرفض بشدة هذه الفكرة شارحًا أن إيمان التلاميذ في يسوع المقام ولد من عدم الإيمان. فليس إيمان التلاميذ في يسوع المقام هو الذي جعل التلاميذ يعلنون هذه الحقيقة وينادون بها، بل العكس هو الصحيح، أي أن يسوع الذي قام من بين الأموات هو السبب في ميلاد الإيمان في قلوب التلاميذ الذين كانوا لا يؤمنون بقيامته. فشخص المسيح الذي قام من بين الأموات هو موضوع إيمانهم وسببه. إن الإيمان بقيامة يسوع لم يعرف طريقه إلى قلوب التلاميذ إلا بعد أن قام فعلاً من بين الأموات وجاء إليهم فلمسوه وأكلوا معه وسمعته آذانهم ورأته عيونهم، وتأكدوا من أنهم لا يرون خيالاً بل لحمًا ودمًا، يسوع الناصري الذي صُلب، وعندئذٍ آمنوا بقيامته ونادوا بهذه الحقيقة لأنهم رأوه حيًّا» (١يو ١:١). إن بولتمان يعتبر أن ميلاد الإيمان في قلوب التلاميذ بقيامته، يعتبر قيامة[٢].

وأما بارت فإنه يؤكد أن يسوع المسيح الذي صُلب هو نفسه الذي قام، وقيامته هذه كانت السبب في ميلاد الإيمان في قلوب التلاميذ. ويواصل بارت شرحه لهذه المشكلة بالقول: فعلى المستوى النقدي يتساءل البعض: ماذا رأى التلاميذ بعد القيامة؟ إنهم لم يروا إلا قبرًا فارغًا، ثم رأوا أيضًا المنديل الذي كان على رأسه وليس موضوعًا مع الأكفان بل ملفوفًا في موضع وحده. هذا ما رآه التلاميذ، وفي هذه الحالة يمكننا أن نقول بأنه سرق. ثم أن بولس يقول: «وأنه ظهر لصفا ثم للاثني عشر. وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لأكثر من خمسمئة أخ أكثرهم باقٍ إلى الآن، ولكن بعضهم قد رقدوا» (١كو ١٥:٥، ٦). وعلى نفس المستوى النقدي أيضًا يمكننا أن نتسأءل: إن بولس لا يقول كيف أو متى حدثت هذه الحادثة بالضبط وماذا رأوا. بولس يقول: «وأنه ظهر» فهل رأوا رؤية أم خيال...؟ وهنا يقول بارت إنه صحيح أن بطرس لم يرَ إلا قبرًا فارغًا والسيد لم يكن هناك. ولكن بكل تأكيد لم يكن هذا كل ما رآوه. فإن كان القبر فارغًا، فقد رأوا بعد ذلك المسيح الذي قام من الأموات. ثم أن بولس في (١كو ١٥:٤ - ٥) يتكلم عن يسوع الذي مات ودفن وقام. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقدم لنا بولس الشهود الذين

(١) راجع كارل بارت مجلد ١٢ من ص ١٢٠ - ١٢٧ (النص الفرنسي) Dogmatique.

(٢) راجع كارل بارت المجلد ١٢ من ص ١٢٠ - ٣٠٢ وخاصة ١٢٠- ١٤٢ (النص الفرنسي).

رأوه بعد القيامة. فهؤلاء الشهود لم يروا خيالاً أو شبه إنسان أو إنسانًا يشبه يسوع، لكن الرسول يحدد أن الشخص الذي رأوه هو يسوع المسيح الذي صلب ومات ودفن. هذا ما قد رآه التلاميذ وما أرادوا أيضًا أن يبشروا به. فإذا كان المسيح لم يقم من بين الأموات فالرسل إذا شهود زور (١كو ١٥:٤)، لأن المسيح لم يقم من بين الأموات وهم يقولون بأنه قام. كلا، فإن المسيح قد قام من بين الأموات. إن القصة التي يقصها علينا الرسل هي قصة حقيقية، إذ أنهم شهود حقيقيون. إنهم شهود قد عاينوا موته وقيامته، وهذه القيامة قد حدثت فعلاً وحرفيًا، وليست أسطورة خيالية يرويها الرسل لكي يشرحوا عن طريقها إيمانهم في عقيدة القيامة بالمسيح. فعلى العكس في ذلك، إن المسيح الذي قام من بين الأموات هو أساس ومصدر هذا الإيمان. فلأنهم رأوه عيانًا ولمسوه بأيديهم وتكلموا معه وجهًا لوجه، ولد الإيمان في قلوبهم. فإن الإيمان بحقيقة قيامة المسيح لم يولد في قلوب التلاميذ بل لم يفكروا فيه من قبل، إلا بعد أن قام المسيح فعلاً، كاسرًا شوكة الموت المخيفة. فبعد القيامة جاء إلى تلاميذه حيًا، وأكل وشرب معهم وأكلوا وشربوا معه. لقد تقابل بعد القيامة الطرفان وجهًا لوجه: التلاميذ الأحياء الذين كانوا يسيرون نحو الموت مع ذاك الذي قام من بين الأموات والموجود أيضًا منذ الأزل وهو الحي. هنا فقط يولد الإيمان في قلوب التلاميذ لأنه يأتي إليهم في شكوكهم وعدم إيمانهم، بصورة ملموسة محسوسة ومنظورة حتى يستطيع أن يلمسه ويراه من يقول: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير وأضع إصبعي في أثر المسامير وأضع يدي في جنبه لا أؤمن» (يو ٢٠:٢٥؛ ٢١:٢ - ٥). والمسيح الذي قام من بين الأموات يظهر نفسه لهم ويطلب منهم أن يلمسوه بأيديهم: «انظروا يدي ورجلي، إني أنا هو. جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي» (لو ٢٤:٣٩). وهنا يتغير كل شيء بالنسبة للتلاميذ لأنه من هذه المقابلة الحقيقية والفعلية، مقابلة المسيح الذي قام من الموت مع التلاميذ، ولد الإيمان في قلوب التلاميذ بل أصبحت هذه الحقيقة من الحقائق الأساسية والراسخة والتي من أجلها كان الرسل على استعداد، ليس فقط للاضطهاد والعذاب، بل حتى للموت. إن قصة القيامة بعيدة كل البعد عن الأساطير ولها اتجاه آخر يختلف كل الاختلاف عن الأحاديث والقصص الخرافية والأساطير. وذلك لأن هذه الحادثة خاصة بيسوع المسيح.

وبارت لا ينكر أنه ليس من السهل، بل أنه من الخطورة أن نضع هذه الحادثة على المستوى التاريخي، بل ليس من السهل أيضًا أن نضعها على نفس الدرجة أو المكانة التي تحتلها حادثة الصلب، لأن هذه يمكن إثباتها تاريخيًا وفهمها أيضًا، وأما القيامة فهي تختلف نوعًا عن حادثة الصلب. وبارت لا يعني بهذا القول أن يهدم ما سبق أن قاله عن القيامة، بل ما يريد أن يقوله هو أنه ليس من السهل أن نثبت حادثة القيامة تاريخيًا، ولكننا نؤمن بأنها حدثت فعلاً وحرفيًا في التاريخ. ومما لا شك فيه أن حادثة القيامة حدثت في التاريخ كما حدثت عمليتا الصلب والموت تمامًا. ولكن من الناحية التاريخية فنحن نقف هنا على أرض أخرى تختلف عما حدث في القيامة.

إن القيامة من الناحية التاريخية، تختلف نوعًا عن حادثة الصلب والموت، لأن الذي ينقص حادثة القيامة من الناحية التاريخية، هو عدم ذكرها في التاريخ من ناحية، ومن ناحية أخرى أن شهود هذه الحادثة شهود منحازون. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن هذه الحادثة لم تحدث، لأنه كما سبق القول إن إيماننا بالمسيح لا يتوقف على ما يقوله الناس والتاريخ عن يسوع وقيامته، بل ما يقوله يسوع نفسه والتلاميذ وشهود العيان.

ومن هنا يأتي إليك السؤال الثاني الذي سبق أن سألناه: وهو إذا كان المسيح قام فعلاً، هل قام بالجسد؟

ولنرجع إلى بارت الذي يصرح بطريقة حاسمة وواضحة بأن يسوع الناصري الذي ولد من مريم العذراء، قام بجسده، ولقد كتب يقول: «لقد حدث تغيير بعد القيامة ولكن هذا التغيير لم يكن انفصال أو نزع أو طيران الروح بعيدًا عن الجسد، بل على العكس في ذلك، فقد قام المسيح جسدًا وروحًا، وهكذا جلس عن يمين الله، وهكذا أيضًا سيأتي من هناك[1]». وبارت يشدد كثيرًا على هذه الحقيقة أي أن المسيح قام روحًا وجسدًا. فإذا لم يكن المسيح قد قام بالجسد... بهيئة منظورة ومسموعة وملموسة كما مات، فإن عظاتنا وإيماننا كمسيحيين فارغان وباطلان، ونحن ما زلنا في خطايانا[2]. وبهذا القول يقفل بارت الباب أمام الذين يعتبرون أن قيامة المسيح خرافة أو أسطورة لأنه لا يمكن قبول حقيقة أن المسيح هو الله دون أن نقبل فكرة قيامته من بين الأموات، فهو الذي مات بجسده وقام بجسده وجلس عن يمين الآب ولذلك فهو حي.

إن الله الذي له السلطان المطلق هو الذي أقام يسوع من بين الأموات، لقد تدخل الله بطريقة مباشرة لكي يقيم ابنه من بين الأموات. وناسوت المسيح ليس له أي دخل في هذه العملية (غل ١:١؛ رو ٦:٤؛ أف ١: ٢٠) فإن إعطاء الوجود أو الحياة إلى الإنسان بعد الموت لا يتوقف على الإنسان ومقدرته، ولا على ما يرغب فيه، ولا على ما يعمله، ولكنه يتوقف كليًا وجزئيًا على الله. لأن كلمة موت أو يموت تعني عدم الوجود، عدم الرغبة، وعدم العمل... إلخ. هنا، وهنا فقط يظهر التدخل الإلهي. الله يهب الحياة للمائت، وهذا الشيء مستحيل أن يعمله الإنسان ولكنه ممكن لله فقط (عب ١١:١٩؛ ٢كو ١:٩؛ رو ٤:١٧). وهنا تختلف أيضًا حادثة موت المسيح عن حادثة قيامته. إذ أن موت السيد على الصليب كنائب عنا، كان إرادة الله المحتومة، ولكن هذا الموت من حكم وجلد وصلب... إلخ، قام بتنفيذه البشر[3]. وهنا نرى الأيدي البشرية عاملة ومساهمة في حادثة الصلب. وأما حادثة القيامة فنرى الله وحده المنفذ والعامل. فهو يعمل كالسيد المطلق، وهو يقوم بنفس الدور الذي قام به في بدء الخليقة، إنه الخالق والمعطي الحياة. ولهذا السبب يظن بارت بأنه لا يمكن أن ننسب هذه الحادثة إلى سجلات الحوادث التاريخية، أو نعطيها الطابع التاريخي الذي نعطيه للحوادث التي سجلت في التاريخ وأصبحت وثائق تاريخية، كما هو الحال في حادثة صلب وموت المسيح، فمع أن موته قد نفذ بلا جدال بناءً على إرادة الله، ولكن كان للإنسان دور قام به، وهنا نجد المستندات التاريخية... لتدخل الإنسان في العملية، وأما قيامة المسيح من بين الأموات، فالذي قام بكل العملية هو الله الذي أقامه من بين الأموات بدون أية مشاركة من جانب البشر، وهنا نقص المستند التاريخي، ولكن هذا لا يعني بأية حال كما سبق القول، أن هذه الحادثة لم تحدث في الزمان والمكان كما يظن البعض[4]، فإن كانت هذه الحقيقة تفوق إدراكنا فهذا لا ينفي حدوثها. لأن ما يفوق إدراكنا في هذا الأمر هو العمل أو التدخل الالهي. فعملية قيامة المسيح من بين الأموات

(١) انظر كارل بارت مجلد ١٢ ص ٤ ومجلد ١٧ ص ٣٧٢.

(٢) انظر كارل بارت ص ٣٧٠ - ٣٧٥ Dogmatique المجلد ١٧ (النص الفرنسي).

(٣) انظر كارل بارت مجلد ١٧ ص ٣١٦ - ٣١٩ النص الفرنسي.

(٤) انظر كارل بارت مجلد ١٢ ص ١٣٠.

تعنى أن الله تدخل بنفسه. وكلمة قيامة في مفهوم بولس موازية لكلمة «الإلهي»، إنها تفسير الكلمة «الله» وما دام «الله» هو العامل، هو المتدخل، فكل شيء مستطاع سواء أكان الميلاد العذراوي الذي هو علامة حلول الله في عالمنا، أو كان القيامة من بين الأموات التي تعتبر تدخُل الله في إقامة يسوع المسيح من بين الأموات.

وبارت يفرد لهذه الحادثة مكانة خاصة ومرموقة في تعاليمه، لأنه عن طريق هذه الحادثة قد ثبت أن يسوع هو المسيا، ابن الله. لأنه في أثناء إقامة الرب على الأرض بيننا كان لاهوته محتجبًا في الناسوت وأصبح ابن الله في خلال هذه المدة، غير معروف كابن الله إلا من الآب، ولكن بالقيامة وعن طريقها ينزاح الحجاب، فنرى لاهوته ومجده ويصبح معروفًا ومعترفًا به كابن الله. فحتى التلاميذ الذين كانوا يشاركونه الحياة لم يستطيعوا أن يدركوا هذا الأمر العظيم إلا بعد القيامة (رو ١:٤). وبهذه الحادثة أيضًا وعن طريقها أعلن المسيح بطريقة ظاهرة ما كان عليه من قبل أي السيد KUNIOS ولا أقول أصبح المسيح «السيد» KUNIOS، لأنه كان ومازال «السيد» KUNIOS حتى في أيام تجسده التي صار في خلالها خادمًا وعاش بين الناس كإنسان وذلك لأنه أخلى نفسه من كل مظهر إلهي. فإن الذين عرفوه قبل قيامته، عرفوه معرفة تختلف تمامًا عن معرفتهم له بعد قيامته من بين الأموات، وحادثة تلميذي عمواس تعطي لنا صورة واضحة شفافة لهذه الحالة (لو ١٣:٢٤ - ٤٣)، فالمسيح يقترب من التلميذين ويبدأ في التكلم معهما، وبعد وقت من الحديث يعرفانه ويقول الكتاب: «فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما». إنهما عرفاه بأنه هو يسوع نفسه الذي كان معهم قبل القيامة، ولكن في هذه المرة عرفاه بطريقة أخرى. صحيح أنه هو يسوع نفسه الذي كان معهم، والذي مات ودفن، ولكنهم يرونه في هذه المرة بصورة أخرى وفي هيئة مختلفة. إنهم يرونه الآن كالسيد، كالمسيا الذي يختلف الاختلاف كله عن عقيدتهم وعن عقيدة اليهود المسيانية، كما قالا له: «ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل» (لو ٢١:٢٤). لقد رأوا فيه بعد القيامة ما لم يروه فيه قبل قيامته من بين الأموات، إذ أنهم رأوا فيه قبل القيامة مسيا على نمط مسايا اليهود.

بالقيامة تغيرت المفاهيم تغيرًا كليًا وجزئيًا، فالتلاميذ سوف لا يتشاجرون، فيما بعد بسبب من سيكون الأول أو الثاني، أو من سيكون على يمينه أو يساره في ملكوته العتيد، ولكنهم يحملون الآن المشعل وينطلقون إلى العالم حاملين هذا الخبر السار السعيد بأن المسيح بالحقيقة قام وسيقيمنا أيضًا معه.

ويرى بارت في حادثة القيامة من بين الأموات جواب الله الايجابي أو «النعم» التي نطق بها الله لصالحنا أو لأجلنا. فالمسيح على الصليب أخذ مكان الإنسان الخاطىء، وبالتالى فقد تحمل هذه الآلام ومنها غضب الله عليه، فقد كان جواب الله ليسوع المعلق على الصليب هو جواب نفي: أي «لا»، أو بمعنى أصح لقد حول الله وجهه عن هذا البديل حتى يجرع الكأس إلى نهايتها، ولذلك فقد صرخ قائلاً: «إيلي إيلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لماذا تركتني؟» (مت ٤٦:٢٧). إن هذه الصرخة تعلن لنا الحقيقة المرة المظلمة، وهي غضب الله الذي انصب على يسوع كممثل للبشرية الخاطئة المحكوم عليها بالموت. فإن الله الآب حول وجهه عن ابنه، وفي هذه اللحظة يقول: «لا» SON NON ولذلك يسلمه للموت حتى ينتصر الموت عليه هذا الانتصار، أي أن انتصار الموت على المسيح أصبح انتصارًا على البشرية كلها. لقد مات المسيح بهذا الحكم، عندما نطق الله

SON NON جوابه بالنفي[1].

ولكن شكرًا لله لأن القصة لا تنتهي هنا «بلا» النفي والقضاء على المسيح، بل إن الله الذي قال «لا» ليسوع، وبهذا أسلمه إلى الموت، لقد أقامه من بين الأموات، لقد خلصه من الموت. وفي إقامته للمسيح قد أقام معه البشرية كلها. لقد مات لأجل خطايانا، ولقد دفن هذه الخطايا في القبر، وعندما قام من قبرة منتصرًا على الموت ترك هناك خطايانا في قبره معلنًا أننا لسنا بعد خطاة بل أبرارًا فيه وبه (رو ٤: ٢٠؛ ٢كو ١٥:٥). إن قيامة المسيح كانت هي التاج الذي توجت به كل الأعمال التي قام بها المسيح، فبالقيامة أراد الله أن يخلق خليقة جديدة، إذ أن الأشياء العتيقة لم تمضِ فحسب، بل أصبحت أيضًا جديدة. فإن الله بإقامته للمسيح يريد أن يقيم عالمًا جديدًا عالمًا تغفر فيه الخطايا ويسيطر عليه السلام، وتنتشر فيه المحبة الحقيقية[2]. وكما أن الله قد قال «نعم» ليسوع وأعلن جهارًا سيادته على الكون KUNIOS (في ٢:٥ - ١١)، لأن المسيح كان الشخص الذي أطاع الآب طاعة كاملة حتى الموت، موت الصليب والعَار، فهو أيضًا يريد أن نطيعه كما أطاعه المسيح وأن نكرس نفوسنا وحياتنا لشخصه الكريم، لأنه قد أقامنا معه وبذلك يريدنا أن نسلك معه في جدة الحياة. إن قيامة المسيح من بين الأموات لا تعني انتصاره هو فقط على الموت بل انتصارنا نحن أيضًا عليه، فلقد كسر شوكته وصولته، قائلاً له: «أين شوكتك ياموت أين غلبتكِ يا هاوية...» (١كو ٥٥:١٥).

وقبل أن نختم هذا الفصل عن قيامة المسيح من بين الأموات نود أن نشير إلى نقطة قد ذكرها «ألثالوس» ALTHAUS لاهوتي آخر تكلم عن (قيامة المسيح). لا نريد أن نبحث هنا في كل ما قاله اللاهوتيون في هذا الموضوع وإلا لأصبح مستحيلاً لكثرة ما قيل وكتب فيه.

إن ألثاوس (A. ALTHAUS) يدافع عن هذه الحقيقة فيقول: إن خبر قيامة المسيح من بين الأموات قد انتشر بعد القيامة مباشرة، فلو كان هناك أدنى تزوير في هذا الخبر لافتضح الأمر سريعًا، إذ أن هذا الخبر قد انتشر في نفس المكان الذي فيه يمكن التحقُّق منه بطريقة عملية. على أن هيرش (E. HIRSCH) يعترض على هذه الحجة بقوله إن فتح القبور والتحقق من الجثة أمر غير سهل بل محرم، الأمر الذي فات ألثاوس (A. ALTHAUS) في بحثه لهذه النقطة[3]. فإن اعتراض هيرش، وإن كان من الناحية الدينية اليهودية صحيحًا، وهو عدم استخراج الجثث للتأكد منها، إلا أنه في هذه الحالة بالذات لا وزن له. فإن اليهود الذين عملوا كل ما في وسعهم وما في سلطانهم، مستخدمين الكذب والمكر والخيانة والغش لكي يصلوا إلى مآربهم من صلب المسيح وإزاحته من على المسرح، كانوا على تمام الاستعداد أيضًا لأن يذهبوا إلى القبر ويستخرجوا جثة يسوع للتحقق منها، حتى لو كان هذا الأمر محرمًا، فأي حرمة قد راعوها في صلب المسيح؟ وأي قانون قد طبق في محاكمته؟ لقد كان أمر التحقق من قبر المسيح أمرًا سهلاً، وخاصة أن يسوع لم يوضع في مقبرة عامة حيث كانت تدفن جثث المجرمين، بل أن جسده قد وضع في قبر جديد. «...وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط» (لو ٥٣:٢٣)

---

(١) انظر كارل بارت مجلد ١٧ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ النص الفرنسي.

(٢) انظر كارل بارت مجلد ١٧ ص ٣٣٣- ٣٦٩ النص الفرنسي.

(٣) W. Pannenberg. Esquisse d'une Christologie les Editions du Cerf. النص الفرنسي ص ١١٧.

فاعتراض هيرش إذن لا محل له وألثاوس على حق في هذا الأمر، وكما سبق القول إننا لا نريد مناقشة كل ما قيل في هذا الموضوع، فقد نود أن نقول إن السيد نفسه قد تنبأ قبل موته بقيامته محددًا اليوم الثالث لهذه القيامة (مت ١٢: ٤٠؛ ١٩:٢٠؛ ٦٣:٢٣؛ مر ٣١:٨؛ ٣٠:٩؛ ٣٤:١٠؛ ٩:١٥؛ لو ٣٢:١٣؛ ٣٣:١٨؛ يو ١٩:١١؛ ١٦:١٦ - ٢٢). ثم حقيقة أخرى يجب عدم إغفالها هي القبر الفارغ، فإن هذا الأمر لا يذكره التلاميذ وبعض النساء فقط (مت ٥:٢٨ - ٨؛ مر ١:١٦ - ٨؛ لو ١:٢٤ - ٩؛ يو ١:٢٠-٢)؛ بل يظهر أيضًا في محاولة اليهود إخفاء قيامة يسوع (مت ١١:٢٨-١٥)، وهناك دليل آخر على قيامته من بين الأموات وظهوره.

وهناك نوعان من الظهورات:

١ - ظهورات في أورشليم.

٢ - ظهورات في الجليل (مت ٨:٢٨-١١؛ ١٦:٢٨-٢٠) ويذكر مرقس حادثة الظهور ثلاث أو أربع مرات إذا حسبنا الصعود (مر ٩:١٦-١١؛ ١٢:١٦؛ ١٤:١٦؛ ١٩:١٦)، ولوقا يذكرها أربع مرات (لو ٣٤:٢٤؛ ١٣:٢٤-٢٥، ٣٦- ٤٢، ٤٤-٥١)، ويوحنا أربع مرات (يو ١١:٢٠-١٨، ١٩-٢٣، ٢٤-٢٩)، وبولس يشدد عليها في (١كو ١٥:١٥).

إن هذه الشواهد الكتابية السابقة وشواهد أخرى تتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن قيامة الرب يسوع من بين الأموات. وبلا شك أن حقيقة قيامة المسيح من بين الأموات أمر يفوق إدراكنا، ولا نستطيع أن نفهمه بعقولنا البشرية المحدودة، ولكن يجب قبوله بالإيمان. وكما يقول إميل برونر: «أما حقيقة قيامته من بين الأموات فلم يدركها أو لم يعاينها إلا المؤمنون. إن حادثة القيامة ليست حادثة تاريخية بالمعنى الذي تحمله كلمة تاريخ، لأن ما هو تاريخي يجب أن يكون معروفًا من الجميع، أما حادثة القيامة فهي من طبيعة أخرى، فهي ليست بتاريخية إلا للمؤمن لأنها تفوق التاريخ.

فبالرغم من الاعتراف العظيم: «أنت المسيح»، ظل الرسل أنفسهم جاهلين لهذه الحقيقة إلى أن غير المسيح المقام هذا المفهوم بقيامته»(١).

إن هذه الحقائق الروحية لا يمكن قبولها إلا بالإيمان، فإن الله العظيم الذي جاء إلى أرضنا ودخل تاريخ عالمنا بطريقة معجزية، بميلاده من عذراء، ثم خرج من بطن القبر ظافرًا منتصرًا على الموت وعلى الهاوية، يستطيع أن يعطينا الإيمان الذي ينير العقل والذهن وعندئذ نقول مع توما: «ربي وإلهي» (يو ٢٨:٢٠).

ونزل إلى الجحيم

بما أننا في معرض الكلام عن الأيام الأخيرة التي قضاها الرب يسوع المسيح بالجسد على أرضنا، وبما أننا قد سبق أن تكلمنا عن صلبه وموته، ثم عن قيامته من بين الأموات وكيف أنه قام ظافرًا منتصرًا، يحسن بنا قبل أن ننتقل إلى الجزء الثالث من هذا الكتاب، أن نلقي نظرة سريعة جدًا على عقيدة نزول المسيح إلى الجحيم. ففي الصفحات السابقة رأينا السيد الذي

(1) E. Brunner. La doctrine Chretienne de la Redemption Dogmatique tome 2 p. 362- 367.

أسلم إلى الموت ثم قام في اليوم الثالث من بين الأموات كاسرًا شوكة الموت وغلبة الهاوية، فالقيامة حدثت في صباح يوم الأحد فجرًا، ولكن صعود السيد وجلوسه عن يمين الآب لم يتم فورًا بعد موته على الصليب. بل وجد فترة من الزمان تفصل بين حادثة الموت وبين حادثة الصعود وتقدر بحوالي أربعين يومًا. ولوقا يقول في كتاب الأعمال: «...إلى اليوم ارتفع فيه بعد ما أوصى بالروح القدس الرسل الذين اختارهم، الذين أراهم أيضًا نفسه حيًّا ببراهين كثيرة بعد ما تألم وهو يظهر لهم أربعين يوما ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله» (أع ١:٢، ٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه أمام هذا النص وأمام نصوص أخرى متشابهة هو: أين ذهب المسيح بعد الموت والقيامة... وإذا كان لوقا يسجل لنا أنه توجد فترة أربعين يومًا تفصل بين موته وصعوده إلى الآب، فماذا كان يعمل المسيح في هذه الفترة.

قبل أن ندخل في دراسة هذا الموضوع، يحسن بنا أن نلفت نظر القارىء إلى نقطة هامة، هي بعض التعبيرات الكتابية التي تظهر وكأنها لا تتفق وعلم الفلك والفضاء الحديثين، فإن معظم التعبيرات الكتابية تقدم لنا الكون كما لو كان مكونًا من عدة طبقات. ولقد اعتقدت الشعوب القديمة بصفة عامة والشعب اليهودي بصفة خاصة، بأن الكون يتكون من عدة طبقات، السماء من فوق والأرض تحت السماء، وما تحت الأرض، أو الشيول Sche'ol أي السماء والأرض والجحيم. كان هذا المفهوم منتشرًا بين شعوب كثيرة وخاصة بين شعب إسرائيل (تك ٢٢:١٧؛ ١٣:٣٠-٢٧؛ أي ١٢:٢٢؛ مز ٤:٢؛ ١٠:١٨؛ ١٩:١٠٣؛ ٣:١٠٤؛ ١٤٤: ٥؛ ٢كو ٢:١٢-٤؛ أف ٢:١-١٣؛ ٨:٤-١؛ في ٥:٢-١١؛ ١تي ١٦:٣).

من هذه الشواهد وشواهد أخرى كثيرة يتضح لنا أن الذين كتبوا، بإرشاد الله ووحيه، الكتاب المقدس بعهديه، كانوا يشاركون معاصريهم في المفهوم الخاص بالفلك والفضاء. ومما لا ريب فيه أن هذا الأمر لا يعتبر بأي حال من الأحوال نقصًا أو عيبًا في الوحي المقدس، بل إننا نعتبر أن هذه التعبيرات التي لا تتفق وعلم الفضاء الحديث، تعبيرات في غاية القوة لأن هدف الرسالة التي كان ينطق بها الله على فم الأنبياء والرسل، هي التوبة والرجوع إلى الله بقلب منكسر وروح منسحق، ولكي يرجع الإنسان إلى الله تائبًا نادمًا على خطيته مجددًا عهده معه، يجب أن تكون الرسالة الموجهة إليه رسالة مفهومة. ولهذا السبب عينه كانت كلمة الله التي نطق بها قديسوه في كل هذه العصور، كلمات تتفق مع كثير من المفاهيم الفلكية والكونية القديمة التي كانت منتشرة ومعروفة، ومفهومة بهذه الصورة. فلو تكلم الله في أنبيائه ورسله مستعملاً تعبيرات علمية دقيقة، فمن كان يمكن للإنسان أن يفهم هذه الاصطلاحات والتعبيرات التي كانت مجهولة وغير معروفة بالمرة في تلك العصور، التي كان فيها الناس يعتقدون بأن الأرض مسطحة وفاصلة بين السماء من فوق حيث عرش الله وبين الهاوية من تحت حيث يوجد الشيول. فالله استعمل إذن في توصيل رسالة الخلاص، المفاهيم السائدة المنتشرة، لكي يفهم الناس هذه الرسالة، وهنا نرى ليس ضعف كلمة الله كما يظن البعض لأنها لا تتفق والعلم الحديث، بل قوة هذه الكلمة وعمقها لأن الله استعمل الأسلوب الذي يفهمة الإنسان لكي يوصل عن طريقة رسالته. وواجبنا نحن الذين نعيش الآن في القرن العشرين هو البحث عن هذه المفاهيم المختلفة التي كانت منتشرة بين الشعوب الكثيرة، لا لكي نثبت أو نقول بأن الكتاب المقدس ملآن بالأغلاط العلمية، بل لكي نعرف نحن الذين توفرت لدينا الآن كثير من المعلومات الفلكية والكونية التي كانت مجهولة وغير معروفة

تمامًا لهذه الشعوب، بأن القصد من هذه التعبيرات هو توصيل الرسالة إليهم بالأسلوب الذي يفهمونه. فالحصيلة العلمية التي نتمتع بها الآن والتي تشرح لنا المفاهيم القديمة عن الكون تساعدنا على فهم لماذا استعملت هذه التعبيرات التي لا تتفق والعلم الحديث، إذ أن هذا الأخير أصبح الآن ملمًّا بكثير من المعلومات والمفاهيم التي كانت سائدة ومنتشرة في العالم القديم. إننا لا نجهل أن الذين يحاولون توفيق الاصطلاحات الكتابية مع العلم الحديث في هذه المشكلة، يرجعون إلى بعض الآيات التي تتكلم عن كروية الأرض مثل قول إشعياء: «الجالس على كرة الأرض وسكانها...» (إش ٤٠:٢٢؛ أي ٢٢:١٤؛ ٢٦:٧)، فمع أن إشعياء يتكلم عن كروية الأرض، فهو في حقيقة الأمر لا يصف بهذه الآية(٤٠:٢٢) الأرض الكروية المعروفة لنا، بل يصف الفضاء الذي يغطي الأرض، فهو يرى كما نرى الآن بالعين المجردة ما نسميه «قبة السماء». على هذه القبة الكروية، يرى إشعياء الله جالسًا، فما يريد إشعياء أن يقوله هو أن الله لا يجلس على الأرض بل على قبة الأرض، أي على الفضاء أي الفضاء الذي يغطي كل الأرض المسطحة.

والذي نريد أن نقوله هنا هو أنه لا يوجد تناقض بين العلم والدين، إذا رجعنا إلى مفاهيم الشعوب والأمم التي وجهت إليهم رسالة الكتاب في تلك العصور. فإن هذه الشعوب لم يكن ممكنًا لها أن تفهم رسالة الكتاب لو أنه كتب بلغة علمية حديثة تفوق إدراكهم وعلمهم. فالكتاب المقدس ليس بكتاب علمي بل هو كتاب روحي همه الأول هو توصيل رسالة محبة الله إلى الإنسان بالطريقة التي يفهمها الإنسان حتى ولو كانت هذه الطريقة التي يستعملها خاطئة بحسب مفهوم العلم الحديث.

لهذا السبب استعمل كتَّاب الكتاب المقدس الأسلوب الذي كان «يتماشى» وعقلية الذين كتب لهم الكتاب.

فعندما يحاول كتّاب الكتاب المقدس أن يصفوا لنا عملية صعود المسيح إلى الآب كما لو كانت عملية صعود إلى العلاء، أو عملية نزوله إلى طبقات الأرض السفلى كما لو كانت عملية نزول إلى قاع الأرض أو ما تحت الأرض، فهذا الوصف يتفق تمامًا ومفهوم الكون في ذلك الوقت.

ولنرجع الآن إلى السؤال الذي تركناه معلقًا وهو السؤال الخاص بنزول المسيح إلى طبقات الأرض السفلى، فكما أشرنا سابقًا بأن المسيح لم ينطلق إلى الآب بعد الموت مباشرة، بل انقضى على ذلك حوالي أربعين يومًا. فماذا كان يعمل السيد خلال هذه الفترة؟ هل كان مع الآب؟ أو مع الملائكة أو مع الذين رقدوا سابقًا؟ ؟ أين كانت روح المسيح خلال الفترة التي كان فيها الجسد موضوعًا في القبر؟

وعندما حاول اللاهوتيون الإجابة على هذه الأسئلة الشائكة انقسموا إلى فريقين:

الفريق الأول: يعتقد هذا الفريق من اللاهوتيين بأن روح المسيح بعد انفصالها عن الجسد وتركه في القبر، ذهبت إلى الجحيم لتبشير المسجونين فيه[1]. والذين يتمسكون بهذه العقيدة يرجعون إلى عدة فصول كتابية وإلى بعض أقوال الآباء لكي

(١) انظر قاموس Dict. de théologie Catholique Time 4e Premier Parie (تحت مقام ونزل إلى الجحيم).

يؤيدوا نظريتهم هذه، فلقد ظن هؤلاء بأن الفصول الكتابية الآتية: «وأما أنه صعد فما هو إلا إنه نزل أيضًا أولاً إلى أقسام الأرض السفلى...» (أف ٤:٨-١٠؛ رو ١٠:٦؛ أع ٢:٢٤-٣١؛ مت ١٢:٣١، ٣٢ ؛ ١بط ٣:١٨، ١٩)، «فإنه لأجل هذا بشر الموتى لكي يدانوا حسب الناس بالجسد ولكن ليحيوا حسب الله بالروح» (١بط ٤:٦) تشير إلى نزول المسيح إلى الجحيم.

على هذه الشواهد السابق ذكرها أعلاه، يبني كثيرون من اللاهوتيين عقيدة نزول المسيح إلى الهاوية أو إلى الشيول أو الجحيم، فلقد ظن بعض هؤلاء اللاهوتيين بأن روح المسيح بعد انفصالها عن الجسد، ذهبت إلى الهاوية، المكان الذي فيه حُفظت أنفس الذين رقدوا في الإيمان، لكي تعلن لهم الخبر العظيم بقيامة المسيح من بين الأموات. وأما البعض الآخر من نفس الفريق فيؤمن بأن روح المسيح ذهبت إلى الجحيم لكي تبشر، ليس فقط الأبرار الذين رقدوا في الإيمان، بل ذهبت إلى الجحيم نفسه، إلى الذين تفصلهم عن الأبرار هوة عظيمة لا يمكن عبورها (لو ١٦:٢٦) ففي تلك الفترة التي كان جسد يسوع موضوعًا في قبر جديد، وفي الفترة التي تلتها، كانت روح المسيح تقوم بعملية التبشير في الهاوية أو في الجحيم.

ولقد وجد هؤلاء اللاهوتيون في أقوال بعض الآباء سندًا يؤيد عقيدتهم هذه. فقد كتب عن نزول المسيح إلى الجحيم كل من هرمس الراعي ويوستينيوس وترتليانوس وإيريناوس. فإن يوستينيوس وترتليانوس وإيريناوس اعتقدوا بأن المسيح قد وعظ أثناء إقامته في الهاوية، ولكن لم يستفد من عظاته في الجحيم إلا آباء العهد القديم فقط الذين كانوا ينتظرون تحقيق المواعيد النبوية. وأما معلمو الإسكندرية فقد ظنوا بأن تبشير المسيح في الهاوية أو في الجحيم كان موجهًا إلى كل الأموات يهودًا كانوا أم أممًا. ولقد ذهب كل من هرمس وإكليمندوس الإسكندري إلى أبعد من ذلك، فلقد نادى كلٌّ منهما بأن الرسل أنفسهم قد بشروا بعد موتهم وأثناء إقامتهم في الشيول Sche'ol برسالة الخلاص، وعمدوا كل الذين قبلوا الخلاص وأحضروهم معهم إلى السماء[٢٤].

ومع أن موقف الكنيسة الإنجيلية يختلف عن موقف الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، إلا أن أحد أساتذة علم العقائد في الكنيسة الإنجيلية الفرنسية وهو فرانسوا بونيفاس FRANCOIS BONIFAS قد نادى في القرن التاسع عشر بهذه العقيدة، أي نزول المسيح إلى الجحيم، وهو يرجع في تأييد هذه العقيدة كما رجع الكثيرون، إلى الفصول الكتابية التي ذكرناها سابقًا، كما إلى أقوال الآباء وقوانين الإيمان، وخاصة أن قوانين الإيمان التي يرجع تاريخها إلى القرن الرابع تذكر نزول المسيح إلى الجحيم. ولقد نادى بونيفاس في تعليمه بنفس العقيدة التي نادى بها هرمس وإكليمندس، وذهب إلى أبعد منهما، فإن هرمس وإكليمندس قد علما بأن الرسل قد بشروا بالمسيح أثناء إقامتهم في الشيول وعمدوا الذين قبلوا رسالة الخلاص وأحضروهم معهم إلى السماء، أما فرانسوا بونيفاس فقد علم في القرن التاسع عشر بأن المؤمنين الذين يرقدون الآن في المسيح سيواصلون عملهم التبشيري في العالم الآخر، لكي يوصلوا رسالة الخلاص إلى كل الذين لم يسمعوا بهذه الرسالة، وأن بوق الله الأخير لن يبوق إلا بعد أن تصل رسالة الخلاص إلى كل مخلوق حيًا كان أو ميتًا. فإن الذين لم تتح لهم الفرصة لسماع إنجيل المسيح، ستتاح لهم الفرصة بعد الموت. ويقول الكاتب بأن هذه الفرصة التبشيرية ستتاح فقط للذين لم يسمعوا قط عن

(1) Francois Bonifas. Histoire des dogmes. Tome 1. pp. 351- 360.

المسيح، أما الذين سمعوا به وغلظوا قلوبهم وسدوا آذانهم فلن تجدد لهم هذه الفرصة في العالم الآخر. ويقتبس الكاتب نفس الآية التي كان يقتبسها بعض اللاهوتيين الكاثوليك، لتأييد عقيدة المطهر: «... وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له في هذا العالم ولا في العالم الآتي» (مت ١٢:٣١، ٣٢).

ويقول بونيفاس، بأن المطهر في عرف الكنيسة الكاثوليكية هو المكان الذي يجتاز فيه المؤمنون الذين لم يستطيعوا أن يطهروا حياتهم وأن يحتفظوا بملابسهم بيضاء نظيفة في أثناء حياتهم على الأرض إذ لا بد لهم أن يجتازوا في مطهر لكي يكفروا عن الزلات والخطايا التي ارتكبوها. وهو يرفض هذه العقيدة رفضًا كليًا وجزئيًا، ولكنه يؤمن بأن الله سيقدم فرصة أخرى في العالم الآخر حتى يوصل رسالة الخلاص إلى كل الذين لم تُتح لهم فرصة سماع إنجيل المسيح على الأرض في أثناء حياتهم، لأن مسرة قلب الله الآب هي خلاص كل البشر، «الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون» (١ تي ٢:٤).

ولكن كيف يقبل الناس شخص الرب يسوع المسيح كسيد وفادٍ إن لم يسمعوا بشارة الإنجيل؟ وكما يقول الرسول بولس: «فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به. وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به؟ وكيف يسمعون بلا كارز؟» (رو ١٠: ١٤ - ١٦).

وبما أنه لا خلاص بعيدًا عن المسيح بحسب قول الرسول: «وليس بأحد غيره الخلاص، لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطي بين الناس به ينبغي أن نخلص» (أع ٤:١٢؛ ١يو ٥:١٢)، فلا بد إذن أن تصل رسالة الخلاص هذه إلى كل الناس في حياتهم هنا على الأرض أو في الحياة الأخرى للذين لم يسمعوا عن المسيح في حياتهم الأرضية. وإلا فكيف يحاكم الله العادل القدوس الناس الذين لم يسمعوا بهذه البشرى العظيمة؟

يعتقد فرانسوا بونيفاس بأن محبة الله وعدله يدفعانه إلى إيجاد طريقة محبة وعادلة لكي يعلن بها رسالة الخلاص للأموات الذين لم يسمعوا بهذه الرسالة. ويقول فكما ذهب المسيح قديمًا وبشر الأرواح التي كانت في السجن، فإنه يستعمل الآن قديسيه الذين يرقدون لنشر رسالة الخلاص بين الراقدين، فإن فرصة وقت الرقاد أو الموت هي وقت عمل وتبشير أيضًا بالنسبة للمؤمن، ولذلك فالمسيح نفسه ذهب بعد موته مباشرة إلى هذه النفوس المسجونة لكي يعلن لها رسالة الخلاص (١بط ٣:١٨-١٩)ويقول إنه يمكن شرح هذه الآية بطريقتين:

١- بأن العظات التي كانت تلقى في أيام نوح كانت مصحوبة بروح المسيح، أي أن المسيح نفسه كان هو الذي يتكلم في الذين يتكلمون.

٢- أو أن المسيح نفسه هو الذي وعظ الأموات، أي بعد موته. وهو يؤيد هذا القول الأخير[1].

إن تبشير الموتى بعد الموت نظرية مغرية ولذيذة ولكنها تحتاج إلى درس أعمق. وكما يبدو لنا أن الأمر الذي فات فرانسوا بونيفاس هو أن الذين ستوجه إليهم رسالة الخلاص لا يحتاجون بعد إلى براهين ووعظ وإقناع لأن كل شيء سيكون مكشوفًا

(١) راجع كتاب F. Bonifas ص ٣٥١- ٣٦٠.

واضحًا أمامهم، لا بل أن هؤلاء أنفسهم يودون أن يرسلوا رسلاً إلى أقاربهم وأصحابهم على الأرض لكي يتوبوا ويرجعوا. ألم يكن هذا هو الطلب الذي طلبه الغني عندما قال: «أسألك إذًا يا أبتِ أن ترسله إلى بيت أبي... حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضًا إلى موضع العذاب هذا...» (لو ١٦:٢٧-٣١).

وأمر آخر قد فات بونيفاس، وهو أنه حاول كما يحاول الكثيرون هنا أن يرى الله مقيدًا سجينًا بقيود ونواميس نفرضها نحن على أنفسنا وعلى الله نفسه. إننا نريد أن نقيس الله بمقاييسنا ونراه بعيوننا الأرضية. إن الله أكبر وأعظم من أن نراه أو نعرف مواصفاته أو مدى قدرته وحكمته: «يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء! لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيرًا...» (رو ١١:٣٣).

الفريق الثاني: أما الفريق الثاني من اللاهوتيين فإنه يسلك في طريق آخر غير الطريق الذي سلك فيه الفريق الأول، وبناء على ذلك فهو يفسر الآيات التي يستند إليها الفريق الأول تفسيرًا آخر، فهو يرى في كلمة الجحيم بالجمع أو كلمة الشيول (SCHEOL) ليس الجحيم بحسب مفهوم العهد الجديد (مت ١٢:٨؛ ١٣:٤٢، ٥٠؛ ٢٢:١٣؛ رؤ ٢٠:١٥). بل إن كلمة شيول تعني في العهد القديم المكان الذي كانت تذهب إليه الأرواح بعد الموت كما يقول أيوب: «لأني أعلم أنك إلى الموت تعيدني وإلى ميعاد كل حي» (أي ٣٠:٢٣، تك ٣٧:٣٥؛ ٣٠:٣،١٠؛ إش ٣٨:١٧). فالعهد القديم وصف القبر بالهاوية، بالحفرة، بالبئر، بالجب...إلخ. والفكر الذي كان يسيطر على اليهود في ذلك العصر هو أن كل الأموات يذهبون إلى الشيول. ولكن في أثناء كتابة العهد الجديد كانت تنتشر فكرة أخرى هي أن الأبرار فقط هم الذين يذهبون إلى الفردوس.

فالمسيح بعد موته ذهب إذًا إلى الفردوس مثل كل الأبرار. فمن الواضح أن الشيول لا تعني الجحيم بل مكان الانتظار أو القبر حيث ترقد الأجساد، وجسد يسوع بقي في هذا المكان من يوم الجمعة مساء إلى يوم الأحد فجرًا. لقد أنزل جسد المسيح إلى الهاوية إلى القبر وهذا ما يعنية الرسول عندما يقول: «وأما أنه صعد فما هو إلا إنه نزل أيضًا إلى أقسام الأرض السفلى»، أي أنه نزل إلى القبر ودفن فعلاً وأن موته كان موتًا حقيقيًا.

ولقد أشار كالفن في كتاباته إلى نزول المسيح إلى الجحيم، وهو يعتقد بأن الآلام التي قاساها السيد في صلبه وموته توازي الجحيم في شدتها. قد مات موتًا حقيقيًا. أما بخصوص قوانين الإيمان التي تتكلم بطريقة واضحة وصريحة عن نزول المسيح إلى الجحيم، فهذه حقيقة لا تُنكر.

ولكن هذه الجملة: «ونزل إلى الجحيم» لم تظهر في هذه القوانين الا في القرن الرابع أو الخامس[1] فإن الكنيسة في تلك العصور الأولى أضافت هذه الجملة (ونزل إلى الجحيم) إلى قوانين الإيمان لكي تعبر بها عن حقيقة موت المسيح، وأنه نزل فعلاً إلى المكان الذي كان ينزل إلية الأموات، لكي تصور بها درجة الاتضاع الذي قبل المسيح أن يتحمله من أجلنا.

(١) انظر كتاب Jean Calvin. L'institution Chrétienne Livre Second pp. 266 - 274.
انظر كتاب علم اللاهوت النظامي - دار الثقافة. القاهرة.

إن الذين يتمسكون بنظرية نزول المسيح إلى الجحيم يقولون إن الهدف من نزوله هو أن يخلص الذين ماتوا قبل صلبه، ولكن الكتاب المقدس يعرفنا بأن الذين ماتوا (في الإيمان) قبل صلب المسيح انتقلوا إلى النعيم كما هو واضح من قصة ألعازر والغني ثم من قصة التجلي(لو ١٦:١٩؛ مر ٢:٩-٨).

فما هو إذًا قصد الرسول بطرس عندما يتكلم عن ذهاب المسيح إلى السجن وتبشيره للأرواح هناك؟ (١بط ١٨:٣-١٩) «..مماتًا في الجسد ولكن محيى في الروح، الذي فيه أيضًا ذهب فكرز للأرواح التي في السجن إذ عصت قديمًا حين كانت أناة الله تنتظر مرة في أيام نوح...» يعتقد البعض أن مفتاح الآية هو في عبارة (محيى في الروح، الذي فيه أيضًا ذهب فكرز للأرواح التي في الجسد...) أي أن الروح، روح المسيح، كان يعظ ويوبخ ويعمل في أيام نوح بينما كان نوح يبني الفلك علامة ظاهرة ملموسة على غضب الله من ناحية، وعلى خلاصه أيضًا من ناحية أخرى.

إن معاصري نوح كانوا يعيشون في سجن الخطية والعصيان والتمرد (تك ٦: ٥- ٨)، ولهذا السبب فقد أراد الله أن يعاقبهم عقابًا شديدًا صارمًا بالطوفان. ولكن قبل أن تنفجر ينابيع الأرض وتهطل أمطار السماء، أمر الله نوحًا بأن يبني الفلك. ولقد كان الفلك والفترة التي بني فيها علامتين تعبران عن محبة وأناة الله كما عن غضبه وعقابه. في هذه الفترة، التي كان يبنى فيها الفلك، كان روح المسيح يعمل في نوح وبنيه، لكي يعظ ويوصل عن طريقهم وبواسطتهم كلمة النجاة والخلاص للنفوس التي كانت سجينة في سجن الخطايا والذنوب. فإن المسيح أزلي الوجود، الموجود قبل الدهور، كان هو الواعظ (محيى في الروح الذي فيه ذهب فكرز للأرواح التي في السجن) للذين فضلوا الشر على الخير، والخطية على البر، وبذلك أصبحوا مسجونين وعبيدًا لهذا الشر والخطية. ولذلك فقد ذهب إليهم المسيح بروحه قبل التجسد ووعظهم لكي يعطي لهم فرصة أخيرة قبل بدء الطوفان. والذين يتمسكون بهذا الرأي يرجعون إلى بطرس نفسه الذي يقول: «ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوح ثامنًا كارزًا للبر إذ جلب طوفانًا على عالم الفجار» (٢ بط ٢: ٥)، فقد كان روح المسيح يعمل في نوح وهو يبني الفلك، العلامة الظاهرة الملموسة لمحبة الله وغضبه، لكي يعظ النفوس التي تحيط به والتي كانت سجينة للخطية [١].

ووليم باركلي يقدم لنا في شرحه لهذه الأعداد (١بط ٣: ١٨- ٢٠) عدة نظريات يستحسن الرجوع إليها لضيق المجال عن مناقشتها هنا. ولكنه في شرحه للنظريات العديدة يقول:

١- إن نزول المسيح إلى الهاوية يعني بأن المسيح قد مات فعلاً وحقيقة، وقد مر في هذا الممر المخيف.

٢- إن قيامة المسيح تعني أيضًا نصرته الحقيقية.

٣- إن نزوله إلى الهاوية وتبشيره هناك يعني بأن بشارة الإنجيل ستصل إلى كل بقاع الكون [٢].

وقبل أن نترك هذا الموضوع نود أن نذكر القارىء أن بعض المفسرين قد ظنوا بأن الشخص الذي بشر في أيام نوح ليس

(١) انظر كتاب علم اللاهوت النظامي ص ٩٠٧.

(٢) انظر W.Barelay. The Letters of James and Peter Ch. 3, 18 - 20.

هو المسيح بل هو أخنوخ. ولقد بنى هؤلاء المفسرون نظريتهم هذه على الأهمية الكبرى التي يحتلها أخنوخ في تعاليم اليهود. وكتاب أخنوخ أصدق شاهد على ذلك. ولقد ترجم موفات (١بط ١٩:٣) بالعبارات الآتية: «مماتًا (المسيح) في الجسد ولكن محيى في الروح، وبالروح ذهب أيضًا أخنوخ فكرز للأرواح التي في السجن إذ عصمت قديمًا...» [(١)].

فلقد أدخل موفات كلمة أخنوخ في هذا النص لكي يدلل بها على أن الذي كان يقوم بعملية الكرازة ليس المسيح بل هو أخنوخ. ولكي نفهم هذه المشكلة، يجب علينا أن نرجع إلى المصدر لنرى كيف وُلدت هذه الفكرة. فالتقليد اليهودي يعرفنا بأن أبناء الله المذكورين في تكوين (٦:١ -٤) هم نوع من الملائكة الساقطين الذين عاقبهم الله بطردهم من الجنة ثم ألقى بهم في السجن إلى يوم القضاء (٢بط ٤:٢؛ يه ٦:١)، ونفس التقليد يعرفنا بأن أخنوخ ذهب إلى الجحيم لكي يعلن لهذه الأرواح قضاء الله عليهم[(٢)].

وبناءً على هذا التقليد، فإن الذي ذهب إلى الجحيم ليعلن حكم القضاء على الأرواح التي عصت وتمردت قديمًا ليس هو المسيح ولكنه أخنوخ. على أية حال إن هذا الفصل وبعض الفصول الأخرى الخاصة بهذا الموضوع مثل (١بط ٦:٤) من الفصول الصعبة جدًا. وصعوبتها كامنة في حقيقة أنها قليلة جدًّا وقصيرة جدًا ولا تعطي لنا أية تفاصيل مطولة تسمح لنا بأن نلم بالموضوع إلمامًا كافيًا لشرحه بطريقة واضحة.

(١) راجع ترجمة موفات لهذا الفصل ثم وليم باركلي ١ بط ٣: ١٩.

(٢) انظر كتاب Jeau- Claude Marcot Les Epitres de Pierre Ch. 3& 4. Labor Efides ص ٤٤٩، ٤٥٠ انظر كتاب أخنوخ الفصل السادس.

الجزء الثالث

عقيدة الكنيسة والهرطقات في القرنين الأول والثاني

الفصل الأول

إيمان الرسل

حاولنا أن نشرح في الجزء الأول من هذا الكتاب فكرة المسيا، وكيف أن هذه الفكرة وُلدت وتطورت في اليهودية على مر العصور، وكيف أن اليهود في كل حقبة من حِقَب تاريخهم كانوا ينتظرون مسيا، منقذًا ومخلِّصًا، وبناءً على ذلك، فقد رأوا في أحيانٍ كثيرة، في البعض من قادتهم أمثال موسى، يشوع، دبورة - المنقذين والمخلِّصين من يد الأعداء - نوعًا من المسيا المنتَظر، ولقد وجدت فكرة المسيح المخلِّص والمنقذ من يد العدو تربةً صالحةً في أيام السبيين الأول والثاني، ثم في أيام الاضطهاد الذي شنَّه الملك أنطيخوس أبيفانس الرابع ضد اليهود وضد الناموس. على أن هذه العقيدة - أي ظهور مسيا محارب يدافع عن الشعب اليهودي المضطَهد المستَعمَر، ويسحق أعداءه ويدوسهم تحت قدميه - انتشرت على نطاق واسع في القرن الأول، أي أثناء وجود السيد الرب على الأرض.

التمسُّك بهذه العقيدة هو الذي دفع الكثيرين من اليهود للانضمام إلى الأحزاب السياسية الدينية التي كانت تحارب الرومان للحصول على الاستقلال السياسي الذي يؤدي بهم إلى تأسيس دولة ثيوقراطية.

عندما جاء المسيح إلى الأرض كانت معظم هذه الأحزاب الدينية والسياسية التي سبق أن تكلمنا عنها، تنتظر المسيا، ولكنه المسيا المحارب المقاتل الذي يحرِّر شعب اليهود من الاستعمار. جاء المسيح إلى خاصته التي كانت تنتظر ظهوره ولكن خاصته لم تعرفه، فحتى تلاميذه أقرب الناس إليه، الذين أكلوا وشربوا معه لم يستطيعوا في بادئ الأمر التمييز بينه وبين المسيا السياسي الذي كان ينتظره اليهود. وهنا نلاحظ الأمر الغريب العجيب وهو أن الأمة التي كانت تنتظر المسيا بفارغ الصبر، عندما جاءهم المسيا يتمشَّى في شوارعهم ويتحدث إليهم ويأكل ويشرب معهم، لم يدركوا أنه المسيا الحقيقي، وذلك لأنهم - بعقيدتهم في مسيا حربي عسكري - قد وضعوا غشاوة على أعينهم، فلم يعرفوه. ألم يحدث نفس هذا الأمر مع اثنين من تلاميذه، فقد سار معهما حوالي ١٢ كيلو مترًا (ستين غلوة) أي حوالي ساعتين من الزمن يتحدث إليهما عن المكتوب، ولكن: «أُمسكت أعينهما عن معرفته» (لو ٢٤: ١٣- ٤٣). فكم من المرات يقترب فيها السيد منا ويمشي معنا في الطريق، وتعجز أعيننا عن معرفته. إن السيد في أمانته التي لا تُحد ولا تُقاس، يأتي إلى شعبه على مر العصور بطرق مختلفة متنوِّعة، ويمشي معهم في الطريق. إن ما يقوِّي إيمان المؤمن هو أن السيد يأتي إليه في الظروف المظلمة المخيفة والمرعبة، ويمشي معه حتى وإن كان هذا المؤمن لا يشعر في بداية الأمر بوجوده، فإنه يسير معه في هذا الطريق الصعب الوعر، إلى أن تنفتح عيناه، وعندئذ، وعندئذٍ

فقط، يدرك حقيقة هامة جدًا غابت عن فكره؛ فقبل القيامة كانت عقيدة التلاميذ تتلخص في هذا الإعتراف الذي نطق به تلميذا عمواس: «ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل». وكلمة «يفدي» هنا لا تعني ما نفهمه نحن حاليًا: أي فداء الخاطئ من خطاياه، بل تعني أن يخلِّص أو ينقذ أو يحرِّر. وكأني بهما يقولان لقد وضعنا في المسيح آمالنا، ولكي نفهم هذه المشكلة، يجب علينا أن نرجع إلى المصدر لنرى كيف وُلدت فكرة «مع هذا كله، اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك» (لو ٢٤: ٢١)، أي لا رجاء من هذه الناحية. ولكن بعد هذه المقابلة لا يغيِّر المسيح مفهوم تلمذي عمواس فقط، بل أيضًا مفهوم كل التلاميذ. وهنا يدركون هذه الحقيقة الهامة التي كُلِّفوا بإعلانها ونشرها ليس فقط بين الشعب اليهودي، بل بين الأمم أيضًا. ولهذا السبب كانت كلمات الرب لتلاميذه في إحدى المرات الأخيرة التي تقابل فيها معهم هي: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ١٩، ٢٠).

سنحاول بنعمة الله في هذا الجزء من الكتاب أن نشرح عقيدة الكنيسة في شخص ربنا يسوع المسيح من القرن الأول إلى الرابع؛ فالمسيح الذي تنبأ عنه سمعان الشيخ بهذه الكلمات: «هذا (يسوع) قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تُقاوم» (لو ٢: ٣٤) ظل وسيظل تلك العلامة التي تُقاوم.

وفي دراستنا لهذه الحقبة من الزمان سنركز جهودنا على توضيح كيف ومتى وُلدت المعتقدات المختلفة المتنوِّعة الخاصة بشخصية المسيح يسوع، وهذا ما يُدعى في علم اللاهوت بالكريستولوجية (CHRISTOLOGIE).(١) فلقد ظهرت خلال هذه الفترة تعاليم مختلفة متنوِّعة كانت نتيجة حتمية لعقيدتين هامتين ومتناقضتين وهما:

١ – العقيدة الأولى:

عقيدة الذين يرون في شخص يسوع إنسانًا فقط ابن مريم ويوسف، ولقد رفعه الله بسبب تقواه إلى درجة الكرامة، وهذه الجماعة تُسمَّى الإبيونيين (EBIONISTES).

٢ – العقيدة الثانية:

فقد علَّمت بأن المسيح لم يتجسَّد بصورة حقيقية؛ إذ أن جسده الذي كان يظهر به أمام الناس، لم يكن إلا خيالاً لأن الجسد مادة، وكل مادة رديئة.

على أية حال ستكون لنا الفرصة فيما بعد لدراسة هاتين العقيدتين اللتين كانتا بمثابة الأم لكل العقائد والتعاليم والهرطقات التي انتشرت في الكنيسة شرقًا وغربًا؛ فمن هاتين العقيدتين خرجت تعاليم ماركيون من تعاليم الانتحالية MODALISME والتبنِّي ADOPTIONISME وتعاليم بولس السميساطي وأريوس وبولوناريوس ونسطور وأتيخوس. ولقد كانت هذه التعاليم وتعاليم أخرى كثيرة بمثابة السكاكين الحادة والسيوف القاطعة التي جرَّحت جسد الرب يسوع المسيح ومزَّقته خالقةً

---

(١) هي التعاليم الخاصة بالمسيح. (Christologie)

منه بدعًا وطوائف وأحزابًا وشيعًا وكنائس. هذا الجسد - أي الكنيسة التي من أجلها صلى السيد في أيامه الأخيرة على الأرض قائلًا: «ليكونوا واحدًا كما أننا واحد» (يو ١٧: ٢٣) - أصبح كنيسةً ممزقةً منقسمةً يهاجم بعضها بعضًا بسبب هذه التعاليم التي سنحاول شرحها في هذا البحث.

عقيدة الرسل والكنيسة الأولى في المسيح يسوع

ومع أننا لن نقف كثيرًا عند هذه النقطة الخاصة بتعاليم الرسل والكنيسة الأولى فيما يختص بشخص ربنا يسوع المسيح؛ لأن هذا الموضوع يحتاج في معالجته إلى كتاب آخر، إلا أنه من الضروري أن نلقي نظرةً عاجلةً سريعةً على مفهوم الرسل والكنيسة الأولى. والسؤال الذي يطرح نفسه من أول وهلة عندما نتعرَّض لدراسة هذا الموضوع هو: ما هي عقيدة الرسل والكنيسة الأولى في شخص يسوع المسيح؟

هل كان الرسل يؤمنون بمسيانية المسيح بالمعنى الذي فهمه كثير من اليهود والتلاميذ قبل قيامته من الأموات؟ أي هل كان الرسل يؤمنون بمسيانية يسوع وإرساليته لخلاص الشعب اليهودي من قبضة الرومان واسترداد القوة وتأسيس دولة ثيوقراطية تحكم بالناموس؟

لقد رأينا في الجزء الثاني أن التلاميذ كانوا يشاركون معاصريهم في كثير من الأحلام والأماني المسيانية، بل إن هذه الأماني والأحلام المسيانية التي كانت تسيطر على كثير من اليهود في تلك الفترة، كانت قد تأصَّلت وتعمَّقت في قلوب وأذهان التلاميذ لدرجة أنهم حتى في لقائهم الأخير مع السيد يسألونه هذا السؤال الذي إن دل على شيء فإنما يدل على تمسُّكهم بفكرة رد المُلك لإسرائيل واقتناعهم العميق بها: «أما هم المجتمعون فسألوه قائلين: يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك لإسرائيل؟» (أع ١: ٦).

ولكن الذي غيَّر مفهوم التلاميذ في هذا الموضوع هو الروح القدس نفسه الذي وعد به يسوع لكي يكون معلِّمًا ومرشدًا لتلاميذه بعد انفصاله عنهم (مت ١٠: ١٩، ٢٠؛ يو ١٤: ١٦، ٢٦، ١٥: ٦، ١٦: ١٣ - ١٧). ومما لا شك فيه أن قيامة المسيح من الأموات ومقابلته للتلاميذ حيًّا آكلًا وشاربًا معهم، ملموسًا ومحسوسًا منظورًا منهم؛ أي أن حواسهم كلها أدركت قيامته من الأموات، كانت برهانًا قويًّا لا يُرد وحجة ناطقة لا تُرفض على سلطان المسيح المطلق حتى الموت. إن هذه الحادثة العظيمة، حادثة القيامة من الموت، غيَّرت الكثير والكثير جدًّا من مفهوم التلاميذ الذين رأوا بعيونهم يسوع مُحاكمًا ومضروبًا ومُهانًا ثم مصلوبًا ومُماتًا على الصليب وموضوعًا في قبر جديد. وهم أنفسهم أيضًا الذين رأوا نفس المسيح مُقامًا من بين الأموات. لقد كانت هذه الحادثة صدمة كهربائية عنيفة؛ إذ أنها حقيقة تفوق كل الإدراك والتفكير البشريين، ولأن هذه الحقيقة كانت صاعقة هزَّت معتقدات التلاميذ وأفكارهم، فقد طلب السيد منهم بعد أن سألوه هذا السؤال في اللحظة الأخيرة قبل صعوده: «هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟» بأن يمكثوا في أورشليم إلى أن ينالوا قوة من العلاء.

ويرى المسيح أتباعه بعد حادثة الموت والقيامة في حالة اضطراب وانزعاج ممزوجَين بالفرح والغبطة، بل والانتصار، وعندئذٍ يقول لهم: «لا تتركوا أورشليم». وكأني به يوحي لهم بأن يذهبوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها. «هؤلاء كلهم كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة مع النساء ومريم أم يسوع ومع إخوته» (أع ١: ١٢ - ١٤).

لقد مكث أتباع يسوع في هذه العلية عشرة أيام؛ أي من يوم الصعود إلى يوم حلول الروح القدس. ومما لا شك فيه أن الرسل والذين مكثوا معهم في العلية كانوا يقضون أوقاتًا طويلة في الصلاة والتأمل، التأمل فيما نطق وعلَّم به السيد أثناء حياته. وفي نهاية هذه الفترة، فترة الخلوة والصلاة والتأمل العميق في العلية، حل الروح القدس على هؤلاء الرجال والنساء. وهنا، وهنا فقط، يحدث التغيير الكلي والجذري في حياة الرسل ومعتقداتهم وسلوكهم؛ فالروح القدس قد ملأهم بالإيمان والشجاعة.

ملأهم بالشجاعة:

وهنا نلاحظ الفرق الشاسع الذي لا يُقاس في سلوك بطرس أمام جارية عندما أنكر سيده قبل امتلائه بالروح القدس (مت ٢٦: ٢٩ - ٥٧)، وموقفه بعد امتلائه بالروح؛ فهو لا يكتفي بإلقاء عظة أمام الشعب، بل يعظ الرؤساء أيضًا مقدمًا شهادة لامعة عن حياة المسيح سيده: «ولكن أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل. ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات، ونحن شهود لذلك» (أع ٣: ١٤ - ١٦) «لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا» (أع ٤: ١٩ - ٢٢).

وهنا نلاحظ ليس فقط شجاعة بطرس في إعلانه هذا الأمر، بل أيضًا تغيير مفهومه الخاص بالمسيح. وهذا واضح من خطابه الذي ألقاه على الآلاف المؤلَّفة يوم الخمسين، وخاصةً هذه الكلمات: «فليعلم يقينًا جميع بيت إسرائيل أن الله جعل يسوع هذا، الذي صلبتموه أنتم، ربًّا ومسيحًا» (أع ٢: ١٤ - ٣٦). إن الإعلان الذي نطق به بطرس قبل هذا الاختبار - أي اختبار القيامة وحلول الروح القدس - كان بوحي من الآب دون أن يدرك بطرس معناه العميق (مت ١٦: ١٧) ولهذا السبب عينه، فإن بطرس نفسه بدأ ينتهر السيد عندما سمعه يتكلم عن آلامه وصلبه وموته، ولذلك قال الرب لبطرس بعد هذا الاعتراف العظيم الذي جاء من الله والذي فهمه بطرس بطريقة جسدية مادية خاطئة بحسب المفهوم الإسرائيلي لابن الله: «اذهب عني يا شيطان» (مت ١٦: ١٣ - ٢٨).

ولكن الآن، وبعد أن حل الروح القدس الذي وعد به السيد وأنه سيعلِّمهم كل شيء، ينطق بطرس بإرشاد الروح القدس بهذا الإعلان العظيم: إن يسوع هو رب ومسيح. ولم يستطِع بطرس أن ينطق بإعلان كهذا عن فهم وإدراك إلا بإرشاد الروح القدس وقيادته، وكما يقول الرسول بولس: «وليس أحد يقدر أن يقول: «يسوع رب» إلا بالروح القدس» (١ كو ١٢: ٣).

وهنا نلاحظ التغيير الشامل الكلي في عقيدة الرسل بخصوص المسيح، ولقد حدث هذا التغيير بفضل عمل الروح القدس الذي وعد به السيد المسيح تلاميذه، فبعد القيامة، وبعد فرصة التأمل والصلاة في العلية، وبعد الامتلاء بالروح القدس، نرى هذا التغيير الجذري في مفهوم الرسل لشخص يسوع؛ فالمسيح المُقام من الأموات لم يصبح بعد المسيا المنتظر بحسب المفهوم اليهودي والذي سينقذ الشعب الإسرائيلي ويخلِّصه من ذل الاستعمار والاستعباد لكي يؤسس دولة ثيوقراطية، بل إن يسوع الناصري أصبح الآن في عيونهم بعد القيامة وحلول الروح القدس ربًّا ومسيحًا مخلِّصًا وفاديًا، فهو ملك، بل ملك الملوك، ومُلكه بلا انقضاء وسلطانه بلا حدود، ولكن هذا المُلك هو مُلك روحي، فلا داعٍ إذًا لأن يتصارع الرسل ويتخاصموا على من هو الذي

سيكون الأول في ملكوت الله، أو من الذي سيكون عن يمينه أو عن يساره، فبعد أن قابل الرسل الرب المُقام من الأموات، وبعد أن قضوا عشرة أيام في العلية، وبعد أن امتلأوا بالروح القدس تغيَّرت نظرتهم وعقيدتهم في شخص يسوع؛ فهم الآن على استعداد للانطلاق والتبشير ليس بيسوع كما فهموه في بادئ الأمر وكما فهمه كثيرون، بل التبشير بيسوع المخلِّص من الخطايا. هذا ما أقره الرسل واعترفوا به أن يسوع الناصري هو المسيح، هو ابن الله الحي. وهذا الأمر واضح كل الوضوح في العهد الجديد بصفة عامة وفي رسائل بولس الرسول بصفة خاصة.

المسيح في رسائل بولس:

إن بولس الرسول هو أول من دوَّن رسائله. وعلى ما يُظن أن أول رسالة كُتبت حوالي سنة ٥٢ م وهي رسالة كورنثوس، وآخر رسالة كُتبت في حوالي سنة ٦٦ أو ٦٧ م.

وهذه الرسائل تحتوي على تعاليم عامة ولكن معظمها يقدم لنا بعض العقائد عن المسيح. والدارس المدقِّق يجد في رسائل بولس ما يمكننا أن نسميه بقوانين الإيمان، ونقصد بعبارة «قوانين الإيمان» الجُمل أو العبارات التي يُظن أن الرسول حاول بها أن يلخِّص بها الإيمان المسيحي. ولقد استعملت الكنيسة الأولى هذه العبارات والجُمل عند قبولها الذين كانوا ينضمون إلى المسيحية ويطلبون العماد. والرسول بولس ترك لنا عددًا كبيراً من صيغ الإيمان، منها: «وليس أحد يقدر أن يقول: «يسوع رب» إلا بالروح القدس» (١كو ١٢: ٣)، «لكن لنا إله واحد: الآب الذي منه جميع الأشياء، ونحن له. ورب واحد: يسوع المسيح، الذي به جميع الأشياء، ونحن به» (١كو ٨: ٦)، «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم. آمين» (٢كو ١٣: ١٤) «لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت» (رو ١٠: ٩ - ١١). ويمكننا أن نضيف إلى هذه القوانين التي وضعها بولس، قانون الإيمان الذي يذكره سفر الأعمال: «فأجاب وقال أنا أومن أن يسوع المسيح هو ابن الله» (أع ٨: ٣٧؛ ٨: ١٦؛ ٢كو ١: ٢؛ في ٢: ١١).

لقد نطق الرسول بولس بهذه العبارات وعبارات أخرى لكي يلخِّص بها محتوى الإيمان المسيحي، واستعملت الكنيسة الأولى هذه العبارات كقوانين للإيمان، وكان على كل طالب للعماد والانضمام للكنيسة، أن يردِّد هذه الآيات كاعترافٍ منه بأن يسوع الناصري هو المسيح الرب.

ورسائل الرسول بولس تحتوي على مجموعةٍ أخرى من التعاليم المختصة بالمسيح، فهو يعتقد أن المسيح هو:

١- **صورة الله:** «الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة» (كو ١: ١٥ - ٢٠) وما أكبر الفرق بين المسيح صورة الله النقية الطاهرة الذي أطاع الآب حتى الموت موت الصليب والعار، وآدم الذي خُلق على صورة الله، فشوه هذه الصورة بعصيانه وابتعاده (١كو ١٥: ٤٩؛ ٢كو ٤: ٤؛ رو ٥: ١٢ - ٢١).

٢- **سابق الوجود:** شدَّد الرسول بولس على حقيقة أن المسيح أزلي الوجود، فإن ظهور يسوع الناصري في فلسطين لم يكن هو بداية وجود المسيح، بل هو موجود قبل كل موجود، وكل ما في الكون وُجد به وله: «فإنه فيه خُلق الكل ما في السماوات

وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى» (كو ١: ١٥ - ١٩؛ ١كو ٨: ٦؛ أف ١: ٩، ١٠؛ في ٢: ٥ - ١١). وهنا يتفق الرسول بولس مع إنجيل يوحنا عندما يقول: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله» (يو ١: ١ - ٥). وكاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول: «كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثًا لكل شيء الذي به أيضًا عمل العالمين» (عب ١: ٢ - ٤).

٣- السيد (KUPIOS = KYRIOS): إن استعمال هذا اللقب قديم جدًّا، فقد استعمله الهللينستيون ليصفوا به شخصية الإله أو لوصف الإله المتسلِّط. وكذلك استعمله اليهود الناطقون باليونانية لكي يترجموا اسم الله. كما أن الرسل استخدموا نفس الاصطلاح عندما كانوا يتكلمون عن يسوع المسيح، لكي يصفوا به سيادة الرب يسوع على الكون كله (١كو ١٢: ٣؛ رو ١٠: ٩؛ ١كو ٨: ٦؛ ٢كو ١٣: ١٣؛ ١تي ٦: ١٥).

وعلى ما يُظن، فإن الرسول بولس عندما أعطى لقب «سيد» (KYRIOS) للمسيح كانت صورة الإمبراطور الروماني «السيد» على الإمبراطورية المترامية الأطراف حاضرة في ذهنه؛ فلقد عبد الرومان أباطرتهم كآلهة وأعطوا لهم لقب «سيد» والرسول بولس يستخدم هذا الاصطلاح «سيد» للمسيح.

على أنه يميِّز سيادة المسيح عن كل سيادةٍ أخرى مهما سَمَت وارتفعت: «لأنه ملك الملوك ورب الأرباب» (١تي ٦: ١٥). فعندما كان أعضاء الكنيسة الأولى ينطقون بكلمة «السيد» (KYRIOS) كانوا يقصدون بها إعلان سيادة المسيح على كل السيادات الأخرى، أي على سيادة الأباطرة أنفسهم. ولهذا السبب نشأ الاضطهاد القاسي المؤلم ضد المسيحيين الذين رفضوا تقديم العبادة للأباطرة؛ إذ أن قياصرة الرومان لم يستطيعوا التمييز بين العبادة التي كان على كل مسيحي أن يقدمها لسيده وربه يسوع المسيح وحده، والاحترام الذي كان يكنُّه كل مسيحي للحكام، فإن المسيحي كان يرى في لقب «السيد» (KYRIOS) السيادة التي يجب أن تُمنح للمسيح، وللمسيح وحده، لأنه هو «السيد» الذي يسيطر على الكون كله. فإن كان لقب «السيد» قد استُعمل في الكنيسة المسيحية الأولى لكي يفرِّق ويميِّز بين سيادة المسيح التي يجب أن تكون فوق كل السيادات الأخرى، فإنه استُعمِل أيضًا للدلالة على لاهوت المسيح. ولهذا فإن بولس يستخدم هذا الاصطلاح لكي يعبِّر به عن عقيدته في المسيح بأنه الله الذي ظهر في الجسد: «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد» (١تي ٣: ١٦). وفي رسالته إلى أهل فيلبي، يقدم لنا لحنًا جميلًا وتعليمًا في غاية العمق عن المسيح الذي هو نفسه صورة الله: «أخلى نفسه آخذًا صورة عبد. لذلك رفعه الله أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كل اسم» (في ٢: ٥ - ١١). يصف الرسول في هذه الأعداد حالتيّ المسيح قبل التجسُّد وبعده، فالمسيح موجود قبل عملية التجسُّد؛ فقبل أن يكون يسوع الناصري كان هو الله، «في البدء كان الكلمة» أي أن وجود المسيح، وجود «اللوجوس» الكلمة (LOGOS) كان سابقًا لوجود يسوع الناصري، ففي هذا الأخير قد حل ملء اللاهوت وليس العكس، كما يظن البعض بأن يسوع الناصري قد ارتفع عن طريق تقواه إلى درجة الكرامة والعظمة فأصبح إلهًا، فإن كان الرسول بولس يقول: «أعطاه اسمًا فوق كل اسم»، فإن هذا لا يعني بأن الله رفع المسيح معطيًا إياه اسمًا لم يكن له من قبل أو رفعه إلى درجة لم يكن قد وصل إليها سابقًا، بل في إعطائه هذا الاسم يعيده إلى الدرجة التي كان عليها قبل ذلك. أو بعبارة أصح، إن الله يعلن جهارًا أو علانيةً أن يسوع الناصري هو نفسه «اللوجوس»، أي الله الذي كان مخفيًا

في الجسد وغير معروف من الناس، وأصبح الآن معروفًا ومعترفًا به كالسيد الذي يجب أن تسجد له كل ركبة وأن يعترف كل لسان بسيادته المطلقة الكونية.

والرسول بولس أعطى للمسيح ألقابًا أخرى في رسائله، غير التي ذكرناها سابقًا مثل صورة الله، والسابق الوجود و«السيد». فيعطي له أيضًا لقب «ابن الله» (رو ١٥: ٦؛ أف ١: ٣؛ ٢كو ١: ٣؛ غل ٤: ٤) والفرق شاسع كبير في انتساب المسيح كابن الله ونسبتنا نحن لله كآب، فإن كل الذين قبلوا المسيح كمخلِّص وفاد، مُنحوا بنعمته أن يصيروا أولادًا لله، أي أن الله يتعامل معهم كما يتعامل مع أولاده ويحبهم كما يحب أولاده. على أن هذا التغيير ودرجة البنوية التي مُنحت لهم لا تجعلهم مشاركين لله في الجوهر. أما بنوية المسيح لله فتختلف الاختلاف كله عن هذا، فإن المسيح هو ابن الله بالطبيعة، فهو شريك له في الطبيعة والجوهر.

ولقد أعطى بولس الرسول ألقابًا أخرى للمسيح، مثل آدم الأخير والإنسان الثاني (١كو ١٥: ٤٥؛ رو ٥: ١٢ - ٢١) «الذي صار من نسل داود» (رو ١: ١) المخلِّص، الفادي... إلخ.

والرسالة للعبرانيين تعطي للسيد ألقابًا أخرى؛ فهي تقدم لنا المسيح الجالس عن يمين أبيه وكالوارث لكل شيء وهو أيضًا: «بهاء مجده ورسم جوهره وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب ١: ١- ٤)، «والذي به أيضًا عمل العالمين» (عب ١: ٢) ولقد شدَّد كاتب هذه الرسالة كثيرًا على أن المسيح هو رئيس كهنة (عب ٢: ١٧، ٥: ٥ - ١٠، ٦: ٢٠، ٧: ٢١، ٨: ١).

ومع أن الكاتب يقدم لنا المسيح كالجالس عن يمين الآب وكصورة الله الكاملة، وبهاء مجد الآب ورسم جوهره، فإنه يقدمه لنا أيضًا إنسانًا متألمًا ومجرَّبًا كأي إنسان يتألم ويتجرَّب «من ثم ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيمًا لأنه في ما هو قد تألم مجرَّبًا يقدر أن يعين المجرَّبين» (عب ٢: ٧ - ١٨). «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية» (عب ٤: ١٥)، «الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع وطلبات وتضرعات للقادر أن يخلِّصه من الموت، وسُمع له من أجل تقواه، مع كونه ابنًا تعلَّم الطاعة مما تألم به» (عب ٥: ٧ - ٨).

هذه الآيات تعطي لنا صورةً واضحةً عن ناسوت المسيح، الناسوت الذي وُلد من مريم العذراء وعاش في فلسطين وأكل وشرب ونام واستيقظ وتألم وجاع وعطش. «مجرَّب في كل شيء مثلنا بلا خطية»، إن عبارة «مجرَّب في كل شيء مثلنا»، تعني أن يسوع في حياته الأرضية كان معرَّضًا مثلنا لكل التجارب مهما كان نوعها وشكلها. وكلمة بلا خطية لا تشير إلى غياب التجربة، بل إلى النصرة التي حصل يسوع عليها بالرغم من كل التجارب التي كانت تحيط به وتهجم عليه في كل لحظة من لحظات حياته. لقد كان يسوع الناصري موضوعًا للتجارب كأي إنسان آخر لأنه كان في تكوينه الطبيعي البيولوجي كأي إنسان آخر، وفي تكوينه البيولوجي لم ينقصه شيء ما يجعل يسوع بلا خطية، أو بعبارة أخرى: إن الطبيعة البشرية التي أخذها يسوع لم تكن طبيعة مختلفة عن كل الطبائع البشرية، ومجرَّدة من بعض الغرائز والميول التي يتمتع بها كل إنسان والتي تدفع الإنسان إلى ارتكاب الخطية والابتعاد عن الله، وأنه لهذا السبب كان المسيح بلا خطية، لغياب الدوافع للخطية، بل إن الطبيعة البشرية التي أخذها المسيح هي نفس طبيعة كل إنسان، وهي طبيعة آدم ليس قبل السقوط بل بعده، وهنا يظهر الفرق الشاسع بين آدم الأول وآدم الأخير (رو ٥: ١٢ - ٣١).

فالأول سقط بالرغم من الامتيازات العديدة التي كان يتمتع بها، أما آدم الأخير (المسيح) فقد انتصر على كل أنواع التجارب بالرغم من وجود طبيعة آدم بعد السقوط فيه. فإن كان المسيح يقول: «من منكم يبكتني على خطية» (يو ٨: ٤٦)، وكاتب الرسالة إلى العبرانيين يقول: «بلا خطية» فإن عصمة يسوع من الخطية لا ترجع إلى غياب العوامل التي كانت تدفعه إلى ارتكابها أو إلى نقص في تكوينه البيولوجي، فلم يكن مجرَّبًا بها لسبب هذا النقص الطبيعي، بل على العكس كان مكونًا تكوينًا طبيعيًا كاملًا. ولهذا فإن النواميس الطبيعية أو الغرائز الطبيعية كانت موجودة فيه كما هي موجودة في أي إنسان آخر، فإن نصرته على الخطية لا ترجع إذًا إلى عامل عضوي أو نقص طبيعي، بل إلى حقيقة أن الذي كان في هذا الجسد والذي كان يسيطر عليه ويقوده هو «اللوجوس» الله نفسه، ولا يمكن لله أن يخطئ لأنه لا يمكن أن يكون الله ضد نفسه. فالمسيح، قد جاء «في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد» (رو ٨: ٣) أي أنه هجم على الخطية وهزمها في معقلها. فلو جاء المسيح في جسد يختلف عن أجسادنا وفي طبيعة تختلف عن طبيعتنا لأصبح غريبًا عن جنسنا، ولكنه على العكس من ذلك كان مجرَّبًا في كل شيء مثلنا. والاختلاف بينه وبيننا هو أنه بالرغم من اشتراكه معنا في نفس الطبيعة، لم يسلك نفس الطريق الذي نسلكه، فقد عمل في أيام جسده ما نفشل نحن في عمله يوميًا، كما أنه لم يعمل قط ما نقوم نحن يوميًّا بعمله.

المسيح في مفهوم يوحنا:

من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن نقف في بحثنا هذا عند كل نقطة لدراستها دراسةً وافيةً عميقةً؛ لأن الموضوع واسع ومتشعِّب، ولذلك سنكتفي هنا كما فعلنا في دراستنا لمفهوم بولس لشخص المسيح، ببعض النقاط الهامة التي توضح لنا مفهوم يوحنا للمسيح، «اللوجوس».

يتفق يوحنا وبولس في تعاليمهما عن المسيح، إلا أن الأول يركِّز على شخص المسيح بينما الثاني يركِّز على عمله، وما قام به من أجلنا؛ فالسؤال الذي يريد بولس معالجته في رسائله هو «ماذا عمل المسيح؟» وأما يوحنا فقد حاول في إنجيله ورسائله أن يجاوب على سؤال «من هو المسيح؟»

وللإجابة على هذا السؤال: من هو المسيح؟ يبدأ يوحنا إنجيله بالقول: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» (يو ١: ١ - ٥). بهذه المقدمة الدسمة العميقة يبيِّن يوحنا أن الكلمة أو اللوجوس كائن أزلي لا بداية لبدايته، بل هو بداية كل بداية. والبداية التي ليست لها بداية هي معادلة لوجود الله؛ لأنه هو نفسه الله. بهذه الكلمة يدحض الرسول يوحنا كل الهرطقات التي ظهرت فيما بعد والتي سنتكلم عنها في حينها، وهي الهرطقات التي علَّمت أن المسيح كائن بشري له بداية وله نهاية، أو الهرطقات التي تقول إنه كان يوجد وقت ما لم يكن «اللوجوس» موجودًا فيه.

ويستعمل يوحنا الاصطلاح «الكلمة» أو «اللوجوس». وهذا الاصطلاح الذي يُذكر لأول مرة في العهد الجديد سيتردد بلا ملل في المجامع المسيحية، وسيملأ فيما بعد صفحات كتب العقائد المسيحية. إن الاصطلاح «لوجوس» في المفهوم اليهودي يحمل في طياته معنى أعمق مما تحمله الكلمة في لفظها البسيط، «فاللوجوس» بالنسبة لليهود هو القوة الخلاقة (تك ١: ٣ - ٦): «قال الله ليكن نور فكان نور» (مز ٣٣: ٦، ١٠٧: ٢٠) كما أن هذا «الكلمة» هو أيضًا حكمة الله (أم ٨: ٢٢ - ٣٧).

أول من استخدم هذا الاصطلاح «لوجوس» (LOGOS) هو هيراقليطوس. ومن الغريب كما يقول وليم باركلي، أن هيراقليطوس اليوناني الذي استخدم هذا الاصطلاح في القرن السادس قبل الميلاد (٥٦٠ ق.م)، ويوحنا الرسول الذي استخدمه أيضًا، عاش كلاهما في مدينة أفسس. ولقد أسس هيراقليطوس فلسفته على المبدأ القائل بأن كل شيء يتغير (لا يمكن الاستحمام مرتين في نهرٍ جارٍ) والذي ينظِّم هذا الكون المتغيِّر ويسيطر عليه ويوجِّه حركاته وسيره هو عقل الله، ولا تقع حادثة في هذا الكون على الصعيد الفردي أو الصعيد الكوني دون أن يكون «اللوجوس» هو العامل في إحداث هذه الحادثة، فهو الذي يؤهل الإنسان أيضًا لعمل الخير وتجنُّب الشر، والذي يساعد الإنسان على فهم الحقيقة.

ولقد درس فيلو اليهودي الإسكندري هذا الاصطلاح في عُرف كلٍّ من اليهود واليونان، وهو يعتقد بأن «اللوجوس» هو أقدم شيء في العالم إذ أنه الإله الذي به خلق العالم، بل هو فكر الله الذي عن طريقه يحكم الله هذا العالم. وقد قال: إن الله هو ربَّان هذا الكون وبيده «اللوجوس» كالدفة، الذي عن طريقه يحرِّك كل هذا الكون ويديره. فاللوجوس هو الذي يدفع الإنسان على التفكير والقوة والعمل، هو الذي يساعد الإنسان على الفهم والإدراك، هو الوسيط بين الله والعالم، هو الكاهن الذي يسمح للنفوس بأن تجلس أمام الله.[١] ولقد اعتقد الرواقيون بأن الكلمة «لوجوس» هو قوة الله الخلاقة الذي يقود ويسيطر على الكون كله ويحفظ نظامه.

وعلى ما يظهر أن يوحنا كان يعرف هذه الأفكار المنتشرة في عصره وفي مدينة أفسس، وربما لهذا السبب، يستعمل يوحنا اصطلاحًا معروفًا ومنتشرًا في ذلك الوقت وهو «اللوجوس» لكي يشرح به تجسُّد ابن الله. فلم يكن معقولاً ولا مفهومًا أن يقدم الرسل المسيح لليونان كالمسيا المنتظر، لأن كلمة المسيا كانت غير معروفة عند اليونان.

وكأني بيوحنا يخاطب معاصريه وخاصة اليونانيين بالقول: أيها القوم إن فلاسفتكم يبحثون في دراساتهم وفلسفتهم عن «اللوجوس» لكي يعرفوا من هو وأين يوجد وماذا يعمل؟ وها أنا آتٍ إليكم لأكلمكم عن اللوجوس الحقيقي، لأني أعرفه، بل تقابلت معه شخصيًا وأريد أن أقدمه لكم (أع ١٧: ٢٢ - ٣١). إن اللوجوس الذي يعلِّم فلاسفتكم بأنه بعيد كل البُعد عن البشر ويختلف عنهم الاختلاف كله، قد جاء إلى أرضنا وسكن بيننا، بل صار إنسانًا مثلنا: «والكلمة صار جسدًا». وهنا فإن كان يوحنا قد أدخل فكرة جديدة على المفهوم اليوناني باستعماله كلمة «لوجوس» لكي يطبِّقها على المسيح، فإنه أراد أيضًا معالجة هرطقة كانت تهدِّد العقيدة المسيحية وهي الهرطقة الغنوسية التي تنادي بأن المادة رديئة وأما الروح فهو صاف صالح ونقي. وبما أن العالم مادي والله صالح، فلا يمكن أن يخلق العالم إلا إله آخر رديء وهو عدو الله الصالح.

فلقد رفض الغنوسيون حقيقة تجسُّد المسيح، ولهذا السبب عينه شدَّد الرسول يوحنا، ليس في إنجيله فحسب بل في رسائله أيضًا، على أن المسيح صار جسدًا يُلمس ويُنظر، بل إن كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان (يو ١: ٣)، فإن الذي خلق هذا العالم ليس إلهًا رديئًا بل الله نفسه، بل أكثر من ذلك أن اللوجوس، عقل الله، صار جسدًا، صار إنسانًا. وعلى أية حال ستكون لنا الفرصة للتكلم عن جماعة الغنوسيين في حينه.

---

(١) انظر تفسير إنجيل يوحنا لوليم باركلي، الإصحاح الأول من ١٤-٢٠

وإن كان يوحنا قدم لنا المسيح كاللوجوس، كعقل الله العامل والمحرِّك والمنظِّم للكون، فإنه يشدِّد كثيرًا على الوحدة القائمة بين الآب والابن. فمع أن الابن غير الآب إلا أنه في الآب والآب فيه، وكل ما للآب هو له، ومن رأى يسوع فقد رأى الآب (يو ١٤: ٨ - ١٤، ١٠: ٣٨، ١٢: ٤٩، ١٤: ٢٠ - ٢١، ١٧: ٢٠ - ٢٤). في هذه الفصول، شدَّد يوحنا كثيرًا على الوحدة التي تربط الآب بالابن، وهذه الوحدة تختلف عن كل الوحدات التي نعرفها. إنها تختلف عن الوحدة التي تربط الأمم المتحالفة معًا، وتختلف عن الوحدة التي تربط أفراد العائلة، بل تختلف أيضًا عن وحدة الأب بالابن أو الأم بالابنة أو الابن في نفس العائلة، لأن وحدة الله الآب بالله الابن أقوى وأعمق وأمتن من كل هذه الوحدات؛ إذ أن هذه الوحدة قوية وعميقة لدرجة أنه هو والآب واحد ومن رآه فقد رأى الآب تمامًا. إن وحدة الآب والابن ليست وحدة أدبية بل جوهرية، لأن الابن هو جوهر الآب.

ولقد أعطى الرسول يوحنا ألقابًا عديدة أيضًا للابن؛ فهو نور العالم، فالذي قال في العهد القديم «ليكن نور» (تك ١: ٣) عندما جاء ملء الزمان أرسل ابنه كنور حقيقي لكي ينير العالم (غل ٤: ٤؛ يو ١: ٩، ١٠، ٨: ١٢، ٩: ٥، ١٢: ٤٦؛ ١يو ١: ٧).

ثم دعاه أيضًا «بالحياة»، فهو الحياة وواهب الحياة. ثم «حَمَل الله» الذي يحمل خطايا العالم «والباب»، «والراعي الصالح»، «والطريق»، «والحياة والحق»، «والقيامة»، «والكرمة»... إلخ.

كثيرون من اللاهوتيين لقَّبوا يوحنا «بيوحنا اللاهوتي» بحق، لأنه تكلم كثيرًا عن لاهوت المسيح، غير أنه لم يهمل ناسوته قط في كلامه عن اللاهوت، بل يمكننا أن نقول إن الذي دفع الرسول أن يكتب إنجيله ورسائله، هو الخطر الذي كان يتهدَّد عقيدة ناسوت المسيح. فإن كان قد كتب إنجيله لكي يقدم «اللوجوس» أو «اللوغوس» إلى العالم اليوناني الذي كان يجهل اللوجوس الحقيقي، فإن الغرض الأساسي لكتاباته سواء الإنجيل أو الرسائل، هو معالجة بعض الهرطقات التي بدأت تظهر في ذلك الوقت. ومنها بدعة الغنوسية (GNOSE) أي «العارفين» التي نادت بأن ظهور المسيح على الأرض في الجسد لم يكن ظهورًا حقيقيًا، والجسد الذي كان يبدو للناس جسدًا، لم يكن إلا خيالًا، إذ أنه من المستحيل أن «اللوجوس» يأخذ جسدًا ماديًا مثل أجسادنا المادية لأن المادة شر، وكيف أن اللوجوس يلتصق بما هو شر؟ إنه أطهر من أن يلتصق بالمادة الخاطئة النجسة، ولذلك فعندما ظهر على الأرض في مظهر الإنسان، لم يكن هذا الظهور حقيقةً واقعيةً، فظهوره في هذه الحالة يشبه ظهور الملاك في هيئة إنسان، وفي حقيقة الأمر ليس هو بإنسان بل هو ملاك في صورة إنسان.

ولا يمكننا أن نتعرَّض لكل معتقدات الغنوسيين ونظرياتهم الطويلة المعقَّدة بخصوص المعرفة وأنها السبيل الوحيد للخلاص، ثم نظرية الخير والشر، وإله الخير وإله الشر. ولكن لكي نفهم الهرطقة التي كان يحاربها القديس يوحنا علينا أن نتذكَّر شيئًا عن تعاليمهم.

الغنوسية GENOSE:

ما هو رأي الغنوسيين في المسيح؟ قبل أن نبدأ في شرح عقيدة الغنوسيين وماذا رأوا في المسيح، يجدر بنا أن نعرف من هم الغنوسيون؟

إن كلمة «غنوس» أو الغنوسية هي كلمة يونانية وتعني المعرفة أو العلم الخاص بالأمور الروحية أو الإلهية. ومن الصعب تعريف وتحديد وشرح كل نظريات هذه الجماعة التي انتشرت في كل حوض البحر الأبيض المتوسط ودُعيت بأسماء عديدة مختلفة نسبةً للذين تزعموا قيادتهم مثل سيمون (أع ٨: ٩ - ٢٤) وسرنت فالنتيوس وبليدينوس وتراتس وكائينيوس وأوفينوس... إلخ. والمصادر التي كتبت عن هذه الشيعة كثيرة مثل يوستينوس وإيريناوس وهيبوليتوس وأبيفانوس. وبما أننا نتكلم عن المصادر التي تتحدث عن الغنوسية، فلا يمكننا أن نهمل الاكتشاف العظيم لمكتبة ضخمة زاخرة بكتب الغنوسية. ولقد حدث هذا الاكتشاف عام ١٩٤٥ في نجع حمادي (في جمهورية مصر العربية). وتحتوي هذه المكتبة الغنوسية على ٥١ مخطوطًا، ولقد تُرجم حتى الآن أكثر من ٦ مخطوطات من هذه المكتبة، ومنها إنجيل الحقيقة، وإنجيل توما، والقيامة، وإنجيل فيلبس، وبعض المكاتيب الأخرى التي لا تحمل عناوين.

ومع أن الغنوسية تشمل عدة مذاهب إلا أنها تشترك في شيء واحد وهو المعرفة، وهذه المعرفة تأتي عن طريق الإلهام؛ فبهذه المعرفة نستطيع الوصول إلى إدراك وفهم من نحن وما هو مصدرنا وأصلنا وما هي الغاية التي نسعى إليها؟ وبهذه المعرفة أيضًا نستطيع الوصول إلى الخلاص من الأشياء الحسية التي تربطنا بالمادة؛ فالمعرفة تحل في تعاليم الغنوسيين محل الإيمان في تعاليم الرسول بولس، فإن الإنسان لا يخلص عن طريق الإيمان الذي يمنحه الله للإنسان في المسيح، بل عن طريق المعرفة، المعرفة التي تنير وترشد إلى الطريق الحقيقي، فلا خلاص عن طريق الإيمان، ولا عن طريق الأعمال، بل عن طريق المعرفة والبحث والتعميق. ويدَّعي الغنوسي بأنه يملك الحقيقة والمعرفة الكاملتَين وفي إمكانه أن يسلمها لتلاميذه.

والغنوسية هي خليط من الأفكار الفلسفية الدينية الهللينستية، والازدواجية الفارسية، واليهودية والمسيحية. ولقد حاولت الغنوسية بمزيجها الغريب المتنوِّع، شرح أصل ومصير الروح التي كانت في البداية في عالم سماوي منير، ولكنها سقطت فجأة من هذا العالم المنير إلى الأرض حيث أصبحت سجينة الجسد الحساس. ولقد تأثر الإله الأعظم تأثرًا كبيرًا لسقوط الروح إلى عالم المادة وسجن الشرارات الإلهية فيه. ولذلك فقد أرسل المخلِّص لكي يخلِّصها من هذا السجن واتخذ هذا المخلِّص مظهر إنسان، لأن الإله لا يمكنه أن يتحد بالمادة المرئية، واستطاع بهذه الطريقة أن يعلن للعارفين (للغنوسيين) أصلهم، أي أنهم من عالم سماوي، وعندما أتم هذه المهمة صعد بالقرب من الآب، وبذلك فقد فتح الباب أمام الشرارات المنيرة التي ستصعد هي بدورها أيضًا إلى المخلِّص عندما تتخلَّص من السجن الجسدي.

ويعتبر كلٌّ من سيمون وبنط (M. SIMON ثم A. BENOTT) بأن الغنوسية المسيحية بدأت في القرن الثاني. وأبو الغنوسيين هو سيمون الساحر الهرطوقي الأول كما يسميه الكاتبان، وأرض الغنوسية الخصبة هي مصر[1].

(1) M. Simon et A. Benoit, Le Judaism et le Christianisme Antique: Presse Univeritaires de France. 108 Boul.. St. Germain Paris VI.

والكاتبان يذكران قائمة من الكتب لعلاج مشكلة الغنوسية، فعلى الدارس الذي يريد التوسُّع في دراسة الموضوع أن يرجع لهذه القائمة فلا داعٍ لتكرارها هنا.

وأما بونيفاس (BONIFAS) فيظن بأن عقيدة الغنوسيين انتشرت وسط الشعب اليهودي المسبي في بابل. إذ أن البعض من الذين كانوا مسبيين في بابل، اندمجوا وسط الشعب البابلي وتعوَّدوا بعوائدهم ودرسوا تعاليمهم ومعتقداتهم وتأثروا بها وخاصة التعاليم المختصة بأصل العالم وتكوينه من أصل الشر والخير. والنظريات الغنوسية التي تصف لنا خلق الكون، ثم إله الخير وإله الشر، بل الآلهة المتعددة، نظريات كثيرة لا تُحصى. ولقد كان هناك أنصار وأتباع لهذه الشيعة بين الوثنيين وبين من يدَّعون أنهم مسيحيون أو يهود.

ونقتبس هنا على سبيل المثال لا الحصر سرنت (CERINTHE) اليهودي الغنوسي، ومع أن المعلومات التي وصلت إلينا عن حياته وعن شخصيته غير أكيدة مائة في المائة، فإنها تحتوي على الكثير من الحق، وعلى ما يُظن أن سرنت عاش في آسيا الصغرى في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني المسيحي. ويذكر القديس إيريناوس (IRENEE) في القرن الثاني (حوالي سنة ١٤٠ م) بأن سرنت كان يقطن نفس المدينة التي يقيم فيها القديس يوحنا الرسول. ويقال إن القديس يوحنا ذهب للاستحمام في يوم من الأيام في أحد الحمَّامات العامة، وعندما عرف بأن سرنت موجود في داخل الحمامات رفض الدخول خوفًا من أن أساسات الحمامات تتزعزع وتسقط على رأس المستحمين للانتقام الإلهي من شره[1].

تعاليم سرنت:

كان يُعتقد بأن الله وحده مطلق، وكماله يفوق كل وصف، ومن الناحية الأخرى يرى من الناحية الأخرى المادة غير المنظَّمة والتي تشبه الخواء والخراب، وكانت تفصل بين الله والمادة هوة عظيمة. ولقد كان من المستحيل أن يتصل الله بهذه المادة دون أن يخفض نفسه، ولكن بما أنه هو الخالق لهذا العالم، فقد أخرج من ذاته سلسلةً من الكائنات الروحية التي تنقص عنه قليلًا في الكمال، لكي تكون وسيطة بينه وبين المادة، وهذه الكائنات هم الملائكة. ولقد كان إله اليهود (DEMIURGE) نصف إله، وهو آخر هذه الكائنات غير الكاملة والأقصى بُعدًا عن الله، وهو الذي قام بعملية تنظيم العالم وهو أيضًا الذي خلق الإنسان. ولقد أعطى الإله اليهودي ناموسه غير الكامل للإنسان. وبما أن هذا الناموس الذي أمر به كان غير كامل، فقد وعد الإنسان بمسيا، على أن هذا المسيا لم يكن هو أيضًا كاملًا، ولأجل ذلك فقد أرسل الله السامي، إلى العالم واحدًا من الملائكة الأوائل الذين خرجوا منه أولًا. ولقد اتحد هذا الملاك بيسوع في لحظة العماد، ولقد أوحى الملاك ليسوع بسر الآب الذي خرج منه، كما أعطى له أيضًا الناموس الكامل والمعرفة الحقيقية حتى يعلنها للناس لكي يخلصوا بها. هذه هي نظرية سرنت.

وتوجد نظريات أخرى كثيرة وعديدة تشرح مذهب الغنوسيين وعقيدتهم. والذي يهمنا في هذا البحث هو النظريات التي تتكلم عن الازدواجية، أي وجود إله الخير وإله الشر، وأن المادة شر؛ فلقد علَّم بعض الغنوسيين بوجود مملكتين أو سلطتين أبديتين:

(1) Francois Bonifas, Tome 1, pp. 76-82.

١- مملكة النور:

والتي يحكمها ويسيطر عليها الإله السامي غير المعروف. ولقد خرجت من هذا الإله قوات متنوِّعة الدرجات، وآخر إله خرج من الإله العظيم هو إله اليهود.

٢- مملكة الظلام أو مملكة المادة:

ويحكم هذه المملكة ويسيطر عليها إبليس[١] وتعاونه في الحكم جماعة من الشياطين متنوِّعة الدرجات أيضًا.

ومن هذه النظريات السابقة الذكر يتضح بأن كثيرين من الغنوسيين قد علَّموا أولًا: الازدواجية أي وجود إله الشر وإله الخير. ثانيًا: علَّموا بأن المادة شر؛ فالاتصال بالمادة وبما هو مادي شر. وإله الخير الإله السامي بعيد كل البُعد عن المادة الشريرة.

ولقد دخل إلى الكنيسة المسيحية عند نشأتها جماعة من الغنوسيين الذين حاولوا أن يوفِّقوا بين فلسفتهم وعقيدتهم في المادة التي كانوا يعتبرونها شرًّا ومن صنع إله الشر، وبين لاهوت المسيح (المسيا) الذي ظهر على الأرض. وكانت المشكلة التي تعترض سبيل الذين أرادوا أن يتمسَّكوا بالتعاليم الغنوسية صعوبة قبول فكرة أن المسيح أخذ جسدًا كأجسادنا؛ فإن اتحاده بالجسد واتحاده بالمادة شر وخطية. وسنرى فيما بعد أن فالنتينوس (VALENTIN) علَّم أن المسيح لم يأخذ جسدًا بشريًّا ماديًّا كأجسادنا، لأن المادة خطية. لدرجة أنه علَّم بأن خروج المسيح من رحم مريم العذراء لم يفض عذراويتها، لأن مرور المسيح من رحمها كان كاختراق النور للمواد الشفافة أو المياه للثوب... إلخ.

كانت هذه التعاليم الغنوسية التي تعلِّم بأن المادة شر ولا يمكن للأرواح الطاهرة النقية الصافية أن تسكن فيها، منتشرةً ومعروفة ليس فقط في كنيسة أفسس حيث كان الرسول يوحنا مقيمًا، بل في آسيا الصغرى وأماكن أخرى.

ولهذا السبب فقد حاولنا أن نذكِّر القارئ ببعض تعاليم هذه الطائفة. التي عندما أطلع القديس يوحنا على عقيدتها وتعاليمها هب مهاجمًا هذه العقيدة وهذه التعاليم التي انتشرت في مدن كثيرة وخاصة في مدينته أفسس. والقديس إيريناوس (وُلد حوالي سنة ١٤٠ م) يعرِّفنا بأن إنجيل يوحنا موجَّه بطريقة مباشرة إلى كتابات سرنت اليهودي الإسكندري[٢] وعلى أية حال فإننا لا نعرف بالضبط ما إذا كان إنجيل يوحنا موجهًا لسرنت مباشرة أم لا، ولكننا نعلم جيدًا، من أسلوب الإنجيل والرسائل التي كتبها يوحنا، أنها كانت تهدف إلى مهاجمة العقيدة الغنوسية. والقارئ المدقق لكتابات يوحنا يلاحظ، بلا جهد كبير، أن الرسول شدَّد كثيرًا على حقيقة أن يسوع المسيح قد جاء إلى عالمنا في جسد. ولقد قال (A. GRILLMEIER) «إنه لا يوجد في العهد الجديد أي كتاب آخر يذكر بتكرار لا يعرف الكلل حقيقة هذا الكائن السابق الوجود وطبيعته البشرية».[٣]

---

(١)انظر المرجع السابق، المجلد الأول، ص ص ٧٦-٩٩ (النص الفرنسي).

(2) A. Grillmeier, Le Christ dans la Tradition Chrétienne de L'Age Apostolique A. Chalcédoine (451). p. 51.

(3) A. Grillmeier, Ibide., p.53 .

فالرسول يوحنا يبدأ إنجيله بهذه العبارة المعروفة: «في البدء كان الكلمة (LOGOS) والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» (يو ١: ١). فبهذه العبارة يريد الرسول أن يؤكد حقيقة غالية على قلبه، وهي أن «اللوجوس» الكلمة كان من قبل كل بدء وسابقًا لكل وجود، بل إن كل ما وُجِد، به قد وُجِد. وينتقل يوحنا من هذه النقطة الهامة وهي وجود الابن أو وجود اللوجوس السابق لكل وجود، إلى نقطة هامة جدًا: هي نقطة الهجوم على الغنوسيين، فيقول: «والكلمة صار جسدًا وحل بيننا ورأينا مجده مجدًا كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمةً وحقًا». ففي الأعداد (١ - ٥) يتكلم يوحنا عن وجود اللوجوس السابق لكل الأشياء، وأما في هذا العدد (١: ١٤) فهو يعلن حقيقة أخرى، وهي كالسهم القاتل الموجَّه إلى قلب العقيدة الغنوسية لقتلها والقضاء عليها، وخاصة عندما يقول: «والكلمة صار جسدًا». والرسول يستعمل هنا كلمتي (LOGOS) «الكلمة»، ثم كلمة (SARX).

وهذه الأخيرة (SARX) أي (جسد) هي التي عبَّر بها الغنوسيون عن المادة؛ فالجسد هو المادة، وبالتالي فهو شيء رديء. لهذا السبب لم يقبل الغنوسيون الذين انضموا إلى المسيحية عقيدة أن (SARX = LOGOS) أي عقيدة أن «الكلمة صار جسدًا». وكيف يمكن أن اللوجوس يتحد بجسد، بمادة شريرة؟ ولذلك فهم يعتقدون بأن الجسد الذي أخذه المسيح لم يكن جسدًا حقيقيًا ماديًا كأجسادنا، بل مظهر جسد أي هيئة جسد. «صائرًا في شبه الناس» (في ٢: ٧).

ولدحض هذا التعليم الغنوسي، قام الرسول يوحنا بكتابة الإنجيل والرسائل التي تشرح لنا أن يسوع المسيح لم يأخذ جسدًا بل «صار جسدًا». وعبارة صار جسدًا أقوى بكثير من عبارة أخذ جسدًا. لأن عملية التجسُّد لم تكن عملية لبس ثوب على آخر، بل هي عملية اتحاد كلي وجزئي دون أن تطغي أو أن تلاشي طبيعة الواحد طبيعة الآخر. فالمسيح صار جسدًا، صار فعلا وحقًا إنسانًا. وهذا يعني بأن المادة الجسد SARX الذي رفضه الغنوسيون واعتبروه شرًا، صار جزءًا من السيد «والكلمة صار جسدًا». ولكي يشدِّد الرسول على حقيقة ناسوت المسيح رافضًا عقيدة الغنوسيين كتب يقول: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة...» (يو ١: ١ - ٤). ويكرِّر الرسول يوحنا هنا مرة ومرات حقيقة أزلية المسيح. ثم يؤكد أن هذا المسيح الأزلي هو نفسه الذي تجسَّد، ولم يكن جسده خيالًا أو شبحًا أو طيفًا. بل حقيقة مؤكدة، لا يعرف الشك طريقه إليها، إذ أن يده ويد التلاميذ الآخرين لمست هذا الجسد، وعيونهم رأته. ولذلك فهو يقول: «بهذا تعرفون روح الله... وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح...» (١يو ٤: ٢ - ٧). والرسول يشدِّد كثيرًا على حقيقة جسد المسيح في وصفه لقصة القيامة ومقابلة التلاميذ له حتى بعد الموت: «ولما قال هذا أراهم يديه وجنبه... ثم قال لتوما هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي وهات يدك وضعها في جنبي...» (يو ٢٠: ٢٠، ٢٧)، وهنا ينفي الرسول تعاليم الغنوسيين التي ادَّعت بأن المسيح ظهر في جسد غير حقيقي. فهذه النصوص ونصوص كتابية أخرى تعرِّفنا بدون أي التباس أن المسيح صار جسدًا وسكن بيننا كواحد منا، كان يفرح ويحزن، يجوع ويعطش، يبكي ويتألم لأنه قد صار فعلا وحقًا جسدًا (يو ١١: ٣٥، ١٢: ٢٧، ٢٣: ٢٧).

ولكي يشرح هذه الحقيقة، أي أن المسيح صار فعلا جسدًا، كتب الرسول يوحنا إنجيله ثم رسائله معلنًا أن الذي كان في البدء، تنازل وجاء إلى أرضنا وصار شريكًا للبشر في بشريتهم. وهنا يضم يوحنا صوته مع بولس القائل: «عظيم هو سر التقوى

الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦).

فإن كان الرسول قد كتب إنجيله ورسائله لمعالجة مشكلة الغنوسية التي بدأت تنتشر في كنائس آسيا، إلا أن هذه الهرطقة لم تكن الهرطقة الوحيدة التي ظهرت في كنيسة العصر الأول، بل ظهرت تعاليم أخرى كثيرة في الكنيسة الأولى تخالف تعاليم الرسل. والرسول أشار إلى هذه التعاليم التي كانت تهدد سلامة الإيمان المسيحي، ولقد سمَّى الذين ينادون بهذه التعاليم: «أضداد المسيح» أو «المسحاء الكذبة» (١ يو ٢: ١٨ - ٢٢، ٤: ٣؛ ٢يو ٧) ثم «أنبياء كذبة» (١يو ٤: ١) «الكذابون»، ثم الذين رفضوا الإيمان بمسيانية المسيح وأنه ابن الله (١يو ٢: ٢٢، ٤: ١٥؛ ٢يو ٧). كما أن الرسول يوبِّخ الذين رفضوا عقيدة التجسُّد (١يو ٤: ٣؛ ٢ يو ٧) فقد حاول هؤلاء القوم فصل يسوع التاريخي ويسوع ابن الله، وأنكروا أن الله جاء فعلًا في الجسد (٤: ٣، ٥: ٦).

ولقد انتشرت في الكنائس ضلالات أخرى حذَّر يوحنا من الوقوع فيها، ولقد أشار الرسول إلى هذه الضلالات عندما كتب سفر الرؤيا (كُتب فيما بين سنتي ٨٥ - ٩٥ م) فقد انتشرت في كنيسة أفسس أعمال النقولاويين (رؤ ٢: ١ - ٧). كما انتشرت في كنيسة سميرنا تعاليم الذين كانوا يدَّعون أنهم يهود وليسوا يهودًا (رؤ ٢: ٨ - ١١)، أما كنيسة برغامس فقد تمسُّك بعض أعضائها بتعاليم بلعام وتعاليم النقولاويين (رؤ ٢: ١٢ - ١٧).

هذه عيِّنة من التعاليم المتنوِّعة المختلفة التي بدأت تجد طريقها إلى الكنيسة الأولى، والتي كانت تهدِّد نقاوة التعليم الرسولي الصحيح. لقد كانت هذه التعاليم المخالفة لتعاليم المسيح والرسل كالديدان الصغيرة التي تختفي في باطن الأرض وتتغذَّى بجذور النباتات المثمرة فتقضي عليها تمامًا. وسترى فيما بعد كيف أن هذه البدع والهرطقات ولَّدت أيضًا بدعًا وهرطقات أخرى أكثر خطرًا وأشد شرًّا منها.

إن الذي دفع القديس يوحنا إلى أن يكتب إنجيله ورسائله هو ظهور بعض الهرطقات التي بدأت تشق طريقها إلى الكنيسة المسيحية المبتدئة. فكما سنرى فيما بعد أن الكنيسة كانت مهدَّدة من الناحية العقائدية بخطرين داهمين: الخطر اليهودي والخطر الوثني. والرسول يوحنا الذي عاش إلى ما يقرب من نهاية القرن الأول استطاع أن يرى ظهور بعض هذه الهرطقات وأن يقوِّمها بشدة وثبات؛ فقد كتب الإنجيل ورسائله لكي يشرح بطريقة واضحة وصريحة أن يسوع الإنسان الناصري هو ابن الله، هو اللوجوس الأبدي «الكلمة صار جسدًا». فإن كان الرسول يوحنا قد شدَّد كثيرًا على أن «اللوجوس» صار جسدًا وأصبح كواحد منا، وبهذا التشديد والتأكيد يريد أن ينفي عقيدة الغنوسيين، فإنه لا يهمل أيضًا أن يحذِّر ويعلِّم ضد عقيدة أخرى هي عقيدة الإبيونيين. فهو يكتب ضد هؤلاء بالقول: «من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح» (١يو ٢: ٢٢). إن جماعة من المتمسِّكين بالناموس والتقاليد والعادات قد خرجت من كنيسة أورشليم تنادي في الكنائس المسيحية بالعودة إلى الناموس: «وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلِّمون الإخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا» (أع ١٥: ١) يعتقد البعض أن الذين كانوا ينادون بهذه المبادئ هم جماعة الإبيونيين «EBIONISTES»، أو على الأقل هم الذين ظهرت منهم جماعة الأبيونيين فيما بعد. ولقد تضاربت الآراء في هذه الجماعة. فالبعض قال إن

هذا المذهب لا يُدعى بهذا الاسم «EBIONISTES» لأن مؤسِّسه يُسمَّى إبيون، ولكن حقيقة الأمر أن كلمة إبيون تعني في العبرية «فقير» وجمعها إبيونيم أي «فقراء». وهنا نتساءل: ما هو نوع فقرهم؟ هل هو فقر مادي أم علمي؟ يقول (جريلمير GRILLMEIER) ربما دُعيت هذه الجماعة بهذا الاسم «فقراء» لضحالة ذكائهم وبساطة أفكارهم وسذاجتهم فيما يختص بعقيدتهم في شخص المسيح. وللأسف الشديد لا نملك من كتاباتهم إلا بعض المقتطفات البسيطة القليلة والتي تدعى «إنجيل الإبيونيين».(1) والإبيونيون يؤمنون أن يسوع هو مختار الله، بل إنه هو النبي الحقيقي، لكنهم يرفضون ميلاده العذراوي ويقولون إنه ابن مريم ويوسف. كما يرفضون أيضًا وجود المسيح السابق قبل التجسُّد. وبناءً على ذلك فهو لم يُولَد من الروح القدس ولا من الله، بل خُلق كما خُلقت الملائكة ورؤساء الملائكة، ولكنه أعظم منهم جميعًا في الدرجة. فهم يعترفون إذًا بناسوت المسيح، ولكنهم ينكرون لاهوته. ولذلك فقد رأى بعض المفسِّرين أن يوحنا كان يشير إلى هذه الجماعة عندما كتب هذه الكلمات: «من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح» (1يو ٢: ٢٢).

فلقد ذكر الإبيونيون أن يسوع هو المسيح؛ أي أنهم قالوا إن الإنسان يسوع ابن مريم ما هو إلا يسوع ابن مريم ويوسف وليس يسوع المسيح، المسيح اللوجوس الإله. ولهذا السبب عينه يكتب الرسول يوحنا محذِّرًا من تعاليم هذه الجماعة التي ظهرت في عصره.

وهنا نلاحظ أن الرسول نفسه الذي يتكلم عن المسيح سابق الوجود، الكلمة، الذي هو ملء اللاهوت، وصورة الله، هو نفسه الذي يعلِّم بأن المسيح هذا صار جسدًا وحل بيننا وأن يسوع الناصري ابن مريم الذي عاش في فلسطين هو المسيح «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» (يو ١: ١).

---

(1) انظر المرجع السابق، Grillmeier ص ص ١١٣- ١١٦. انظر أيضًا قائمة الكتب التي تتكلم عن هذه الجماعة في نفس الكتاب ص ص ١١٣- ١٢٠.

الفصل الثاني

كنيسة القرنين الأول والثاني

تمهيد:

في الفصل السابق رأينا بعض الدوافع التي دفعت الرسول يوحنا لكتابة إنجيله ورسائله، وهو ظهور جماعة الغنوسيين، ثم انتشار تعاليمهم في الكنائس، كذلك ظهور جماعة الإبيونيين وبعض المذاهب الأخرى التي يشير إليها الرسول في سفر الرؤيا (رؤ ٢: ١ - ٢٨). إن هذه التعاليم، قد ظهر بعضها في عصر الرسل، والبعض الآخر ظهر في عصر الرسول يوحنا الذي عاش إلى نهاية القرن الأول، ولذلك فقد استطاع أن يكتب ضد هذه التعاليم ويدافع عن الإيمان القويم معترفًا بأن يسوع المسيح هو ابن الله «الكلمة صار جسدًا».

على أن عصر الرسل قد انتهى بانتقال آخر رسول إلى المجد، وأطل القرن الثاني على الكنيسة بسحابة أخرى من الشهود الذين سيحملون المشعل كما حمله الرسل بشجاعة وإيمان.

وسحابة الشهود (عب ١٢: ١) التي حلَّت محل الرسل، وهي جماعة الآباء الذين عاشوا في القرون الأولى، ولقد حاول هؤلاء الآباء، ليس فقط الدفاع عن الإيمان الصحيح الذي تسلَّموه من الرسل بل عملوا أيضًا على انتشاره في العالم. وكما رأينا في الفصول السابقة عقيدة الأجيال المختلفة المتنوِّعة على مر العصور في شخص المسيا، ثم في شخص ربنا يسوع المسيح، سنحاول أيضًا بنعمة الله أن نتبع نفس النظام التاريخي العقائدي الذي نهجنا على منواله، أي أن نذكر التواريخ والأماكن التي حدثت خلالها وفيها الأحداث. فلقد سبق أن رأينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب ماذا اعتقد أو رأى الناس في المسيا أو في يسوع المسيح على مر العصور؟ ثم من هو يسوع المسيح؟ وسنواصل هنا البحث في نفس الأسئلة: ما هي عقيدة آباء كنيسة العصور الأولى من المسيحية؟ وما هي تعاليمهم وعقيدتهم في شخص يسوع المسيح؟ وما هي الهرطقات التي ظهرت في أيامهم وكيف حاربوها مدافعين عن الإيمان السليم؟ وللإجابة على هذه الأسئلة، سنحاول دراستها من الناحية التاريخية والعقائدية. ونقصد بذلك أننا سنبدأ هذا البحث بتناول بعض الشخصيات من الآباء مبتدئين من أول القرن الثاني إلى الرابع، وسنتعرَّض في هذا البحث لما قاله بعض الآباء في هذه الحقبة من الزمان عن شخص يسوع المسيح، وما هي الهرطقات التي ظهرت.

وبما أن الغَرَض من هذا الكتاب هو توضيح وشرح المفاهيم المختلفة على مر العصور عن شخص ربنا يسوع المسيح، فقد رأينا أنه من المفيد بل من الضروري أن نعطي فكرة تاريخية عن أصل ومكان وتاريخ بعض الشخصيات التي سنتعرَّض لتحليل

تعاليمها، سواء كانت شخصيات الآباء أو بعض الهراطقة التي ظهرت فقط، بل لكي نعرف أيضًا متى وكيف وأين وُلدت، ومن هم الآباء الذين هبّوا لمحاربة التعاليم الضالة وعلّموا التعاليم الصحيحة السليمة.

فبعد أن رحل الرسل من عالمنا هذا إلى عالم المجد، تولّت جماعة من الآباء المؤمنين قيادة الكنيسة والسهر عليها، ويُطلق على هذه الفترة التي جاءت بعد العصر الرسولي، (POSTE APOSTOLIQUE)، وهي الفترة التي سنتحدث عنها وعن رجالها الذين بنعمة الله ومساعدته استطاعوا أن يحملوا بشجاعة منقطعة النظير مشعل الإيمان الذي تسلّموه من الرسل لكي يسلّموه بدورهم إلى الأجيال التالية. ولقد تحمّل هؤلاء القديسون في سبيل توصيل الرسالة الرسولية التي تسلّموها من الرسل أنفسهم، لا التعب والمشقة فقط، بل أيضًا الاضطهاد والاستشهاد الذي راح ضحيته عددٌ كبير من آباء الكنيسة الأولى الذين لم يحسبوا نفوسهم غالية عندهم في سبيل إعلان شخص ربنا يسوع المسيح للعالم الذي كانوا يعيشون فيه.

ولذلك، فنحن الذين نعيش في القرن العشرين الوارثون لهذا التراث المقدس العظيم، ننظر إلى هؤلاء الآباء الرسوليين (LES PERES APOSTOLIQUES) إلى سحابة الشهود، بكثيرٍ من الاحترام والتعظيم لأنهم حافظوا - أو على الأقل حاولوا المحافظة - على الإيمان الصحيح لتوصيله للأجيال اللاحقة. وهذه الأجيال التالية لعصر ما بعد الرسل، مَدينةٌ لهم ويجب أن تعترف بدَيْنها لآباء تلك الفترة، وكتاباتهم تراثٌ عظيمٌ وثمينٌ تملكه الكنيسة كلها. فأغناطيوس الأنطاكي وبوليكاربوس ويستينيوس وتاتانوس وإيريناوس وكبريانوس وأثناسيوس العظيم وأغسطينوس، كل هؤلاء القديسين وآخرون معهم الذين حاربوا وحوشًا كاسرة ودافعوا عن الإيمان ونادوا ببشارة الإنجيل هم مِلك للكنيسة كلها، والكنيسة كلها مَدينةٌ لهم وتعترف بفضلهم وجهادهم. وعندما أقول الكنيسة كلها أقصد الكنيسة على اختلاف طوائفها ومذاهبها: كاثوليكية وأرثوذكسية وبروتستانتية – فإن هذه الطوائف كلها تحني الرأس احترامًا وتقديرًا لما قام به هؤلاء الآباء الأبطال، ونشر بشارة الخبر السار والدفاع عنها. وبناءً عليه، فما تركه هؤلاء الآباء هو مِلكٌ وتراثٌ للكنيسة كلها وليس لكنيسة واحدة فقط وهي فخورة به. فمع أن تعاليمهم ومعتقداتهم لم تصل إلى نقاوة وسلامة تعاليم الرسل، إلا أنهم حاولوا، بقدر الإمكان وعلى قدر ما قد أُعطي لكلٍّ منهم من النعمة والموهبة أن يحتفظوا للأجيال التالية بتعاليم رأوا أنها أقرب ما تكون من عقيدة وتعاليم الرسل.

وفي بحثنا هذا لن نتعرّض لمعتقدات كل الآباء أو في كل المواضيع ولا حتى لكل معتقدات الآباء فيما يخص (الكريستولوجي CHRISTOLOGIE) أي التعاليم والمعتقدات الخاصة بالمسيح. ولكن سنحاول عرض وتحليل بعض تعاليم الآباء وتعاليم الهراطقة الكرستولوجية التي تعرَّضت لها الكنيسة في تلك الفترة. فلا يغيب عن بالنا أن موضوع بحثنا هو يسوع المسيح على مر العصور، وهنا نكرِّر نفس السؤال الذي سألناه مرارًا وتكرارًا: ما هو مفهوم الآباء وكنيسة العصور الأولى عن شخص ربنا يسوع المسيح؟

عندما انتهى العصر الرسولي بانتقال جميع الرسل إلى المجد، وجدت الكنيسة الناشئة نفسها أمام مسئولية ضخمة، ومهمة عظيمة وشاقة، وهي إعلان يسوع المسيح كسيد ومخلِّص ليس لليهود فقط بل للأمم أيضًا. ولم تكن مهمة إعلان يسوع المسيح أو التبشير به كسيد ومخلِّص ورب للعالم، بالأمر الهيِّن السهل؛ إذ أن التربة التي أُلقيت عليها بذور المسيحية كانت تربة ملآنة

بأعشاب ونباتات أخرى. فلقد بشَّر الرسل والذين حملوا المشعل بعدهم بيسوع المسيح المخلِّص، بشَّروا بهذا الخبر وسط اليهود الذين كانوا يؤمنون بوجود الإله الواحد السامي العظيم، المرتفع الذي ترتعب وتهتز الجبال من حضوره، ولا يوجد إله غيره لا في السماء ولا على الأرض. فعندما بدأت الكنيسة الأولى إعلان إلوهية يسوع المسيح، اعتبرت اليهودية هذا الأمر تجديفًا عظيمًا على يهوه لأنه لا يوجد إله غيره. وذلك لأن هؤلاء اليهود ظنوا بأن الكنيسة الأولى جعلت من يسوع الناصري إلهًا معادلًا ليهوه. ولم يفهموا أن الكنيسة الأولى وخاصةً الرسل لم يحاولوا أن يرفعوا الإنسان يسوع المسيح إلى درجة الإلوهية، بل إنهم نادوا وأعلنوا أن يهوه نفسه، الله بعظمته وسموه، قد ظهر في الجسد: «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد».

هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى، لم يكن أمر التبشير بيسوع المسيح للأمم أمرًا سهلًا؛ إذ أن الخطر كان عظيمًا وداهمًا أيضًا: والخطورة هنا لم تكن كامنة في أن الأمم يرفضون إلوهية المسيح كما فعل اليهود، بل إن العكس هو الصحيح، فإن كثيرين من هؤلاء الأمم كانوا معتادين على عبادة عدة آلهة (أع ١٤: ٨ - ٢٨). فالخطر الداهم الذي كان يتهدَّد التعاليم الكرستولوجية (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) هو أن هؤلاء الأمم يعتبرون شخص المسيح كواحد من هذه الآلهة التي لا تُحصَى ولا تُعد في دياناتهم الكثيرة.

ولهذا لم تكن مهمة آباء الكنيسة الأولى سهلةً؛ فلقد قابلوا صعوبات لا حصر لها، وخاصةً الآباء الذين لُقِّبوا بالآباء (المدافعين APOLOGISTES) لأنهم عندما كانوا يعلنون بأن يسوع المسيح هو مخلِّص العالم، كانوا يحاربون عدة جهات في وقتٍ واحدٍ؛ فقد كان عليهم أن يبشِّروا العالَمين اليهودي والوثني ليقبلا المسيح المخلِّص. وبعد أن يقبل هؤلاء سيادة يسوع، كان من اللازم تنظيف عقول اليهود من الأفكار اليهودية المسيانية بحسب الجسد، وتقديم يسوع المسيح كالمسيا الروحي والمخلِّص للعالم. ثم تنظيف عقول الأمم الملآنة بالخرافات الوثنية، وتعليمهم أن يسوع المسيح ليس واحدًا من هذه المجموعات الإلهية التي يعبدونها ويعرفونها.(١) وبالاختصار كان على (المدافعين APOLOGISTES) شرح عقيدة التوحيد، أو وحدة الله التي يؤمن بها اليهود، ثم شرح الكرستولوجي بطريقة تختلف عن مفهوم الوثنيين لآلهتهم. ولقد كان هؤلاء المدافعون معرَّضين في كل لحظة للسقوط في الأخطاء العقائدية نظرًا لتعقُّد المشكلة.(٢) ولذلك فقد حاول بعض الآباء المدافعين المحافظة على (عقيدة التوحيد MONOTHEISME) كأساسٍ جوهري، فاضطروا إلى أن يبحثوا عن حلول أخرى لمشكلة الكرستولوجي. كما أنه من الضروري أيضًا أن تُشرَح المسيحية للوثنيين بطريقة واضحة ومعقولة في مفهومها الكرستولوجي. كانت النقطة التي يجب التأكيد عليها وإيضاحها هي أن المسيح كان في حضن الله، بالقرب من الله، كان الله نفسه، ومع ذلك هو يختلف أيضًا عن الله، وإلا لسقطت الكنيسة في المذهب اليهودي التوحيدي الذي خرجت منه، أو سقطت في إحدى الديانات المنتشرة في ذلك الوقت.(٣)

---

(1)E. Haag. **Histoire des dogmes chre'tiene**

(2) A. Harnack. **History of Dogms**. Vol. 2 pp. 1-38. Vol. 3

(3) Marc lods 1-14. pp. 32-37.

ماذا رأى معلِّمو القرنين الأول والثاني في المسيح يسوع؟

سنحاول أن نشرح في هذا الفصل مفهوم بعض الآباء للمشكلة الكرستولوجية، وسنتبع في هذا البحث نظامًا تاريخيًا وعقائديًا بقدر الإمكان؛ أي أننا سنتناول بالتحليل والشرح الموجز بعض الأفكار لبعض الآباء بحسب ظهورهم في التاريخ، والهرطقات التي ظهرت في عهدهم.

١ -أغناطيوس الأنطاكي (IGNAOE D'ANTIOCHE):

إن مدينة أنطاكية مدينة عظيمة، ولقد أخرجت رجالًا عظامًا؛ ففي هذه المدينة دُعي التلاميذ مسيحيين لأول مرة في التاريخ: «ودُعي التلاميذ «مسيحيين» في أنطاكية أولًا» (أع ١١: ٢٦)، فلقد جاء إليها عددٌ كبيرٌ من المسيحيين. ويقول هارنك المؤرخ العقائدي الشهير في أحد كتبه عن تاريخ العقائد ما يمكن تلخيصه في الآتي:

منذ أن ظهرت المسيحية تعرَّضت لعدة تيارات عقائدية يمكن تلخيصها في اتجاهين: الاتجاه الأول هو الذي يرى في يسوع الإنسان الذي اختاره الله وأسكن فيه روحه، وبعد أن انتصر هذا الإنسان يسوع على التجارب ثبَّته الله بقوة وجعله سيدًا وربًّا. هذا هو تعليم أتباع مذهب التبنّي أو (المسيح المتبنَّى CHRISTOLOGIE ADOPTIENNE) وأما الاتجاه الثاني فيُدعَى (المسيح الروحي CHRISTOLOGIE PNEUMATIQUE OUDULIGIS) وهذا الفريق يرى في يسوع روحًا سماويًا، أسمى وأرفع روح بعد الله، ولقد لبس يسوع جسدًا، ثم رجع إلى السماء بعد أن أكمل عمله على الأرض.

تعرَّضت الكنيسة منذ نشأتها لهذين النوعين من العقائد:

١-الإنسان الذي أصبح إلهًا.

٢-الكائن الإلهي الذ ظهر في صورة بشر.[١]

هذه هي المشاكل الكرستولوجية التي تعرَّضت لها الكنيسة منذ نشأتها، والتي كان على آباء الكنيسة وقادتها أن يشرحوها بدقة ووضوح.

ولنتقدم الآن خطوة أخرى لكي نرى بعض هذه المشاكل وموقف بعض الآباء منها:

قام اليهود أولاً باضطهاد الكنيسة بطريقة عنيفة (أع ١١: ٩)، ولم يبدأ الرومان في اضطهاد المسيحيين إلا بعد ذلك الوقت بكثير؛ إذ أن الإمبراطورية الرومانية تسامحت وتساهلت مع ديانات شعوب البلاد التي كانت تسيطر عليها، ولذلك تركت لليهود حريتهم الدينية في العبادة. ولأن حكّام البلاد لم يستطيعوا في بداية الأمر التفريق بين المسيحية واليهودية، فقد اعتبروها شيعة أو مذهبًا من الشيع اليهودية، ولذلك فقد تركوا لها نفس الحرية التي كان يتمتع بها اليهود. ولكن عندما انفصلت المسيحية عن اليهودية، وأصبحت ديانةً مستقلةً عن اليهودية، بدأت السلطات الرومانية في اضطهادها اضطهادًا

---

(1) A. Harnack, **Précis de l'histoire**. pp. 1-12.

عنيفًا، لا للدفاع عن الديانة اليهودية، بل لأن الرومان فهموا المسيحية فهمًا خاطئًا؛ فلقد انتشرت الشائعات بأن هذه الديانة ضد الإمبراطور لأنها لا تتعبَّد له. ثم انتشرت شائعات أخرى تقول بأن جماعة المسيحيين يقدمون في عبادتهم أطفالًا كمحرقة لإلههم. وذلك لأنهم لم يفهموا جيدًا فكرة فريضة العشاء الربَّاني «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦). أما التهمة العظمى التي وُجِّهت إلى المسيحيين فهي أنهم يتعبَّدون لإله يدعى يسوع؛ أي أنهم يخضعون لسلطة أخرى، لسيد (KYRIOS) آخر غير الإمبراطور. ولهذه الأسباب قام الرومان باضطهاد المسيحيين الذين كانوا قد انتشروا في طول الإمبراطورية وعرضها؛ فمن ضمن الكنائس النامية الناجحة في ذلك الوقت والتي مرَّت بهذه الفترة العصيبة، فترة الاضطهاد، كانت كنيسة أنطاكية. ويظن بعض المؤرخين بأن بطرس الرسول هو الذي أسس كنيسة أنطاكية.[1] ولقد قَبل أغناطيوس الإيمان على يديه. وقبل أن ندخل في تعاليم أغناطيوس اللاهوتية وعقيدته في شخص الرب يسوع يحسن بنا أن نتعرَّف عليه.

أغناطيوس الأنطاكي:

وُلد القديس أغناطيوس في سنة ٣٥ م، ويُحتمل أنه من أصل سوري يوناني. وقد قبل الإيمان على يد الرسل مباشرةً في أثناء إقامة بعضهم في أنطاكية. ويقول الدكتور أسد رستم بأنه قد اتخذ لنفسه لقب «ثيوفوروس» أي حامل الإله تيمُّنًا وتبرُّكًا. ويعتبر أغناطيوس ثاني أساقفة كنيسة أنطاكية[2] التي نُصِّب فيها عام ٦٩ أو ٧٠ م. كان هذا الأسقف غيورًا ممتلئًا بروح الله، فكان يعمل بنشاط وعزم لانتشار ملكوت الله. ولم تُخِف هذا البطل سُحُب الاضطهادات أو ترعبه، والتي بدأت تظلم الجو وتحجب نور الشمس في ذلك الوقت.

شنَّ الإمبراطور تراجانوس اضطهادًا ضد المسيحيين، فاستجوب حاكم سوريا أغناطيوس عن إيمانه بالمسيح، فلم ينكر سيده بل اعترف به جهارًا أمام الجميع وأمام الحاكم الروماني الذي أوثقه بالأغلال وسلَّمه لعشرة من قيادات الحراس ثم أرسله إلى روما للمحاكمة هناك. وفي طريقه إلى روما أراد أن ينهج على منوال بولس الرسول (أع ٢٠: ١٧ - ٣٨) فكان يدعو بعض الخدام والإخوة في البلاد التي كان يمر بها، لكي يعزِّيهم ويقوِّي إيمانهم. فلقد تقابل أغناطيوس أثناء هذه الرحلة مع الأسقف الشاب بوليكاربوس أسقف مدينة سميرنا، كما أنه استطاع أن يكتب عددًا من الرسائل ويرسلها إلى بعض الكنائس في آسيا الصغرى واليونان ومقدونية.[3] وعندما علمت بعض الكنائس بمروره بها خرجت لاستقباله أعظم الاستقبال. وكانت هذه الرسائل التي أرسلها أغناطيوس إلى الكنائس تفيض بالمحبة والإخلاص لسيده ثم لشعب الله.

وعندما وصل إلى روما وجد عددًا كبيرًا من المسيحيين في انتظاره، وكانت طلبته الأولى لهم ألا يحاولوا إعاقة مقابلته مع السيد الرب بأية وساطة لدى الحكام، فإن غايته العظمى هي أن يكون شهيدًا وشاهدًا لسيده.

وفي عام ١٠٧ في احتفال صاخب مازح، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية تحتفل بنصر الإمبراطور تراجانوس على أعدائه،

(١)انظر J. Quasten, ص ٣٢

(2) Ibide.,

(3) انظرJohannes Quasten. **Trduction. La Porte Initiation aux Peres de l'Eglise,** pp. 75-77 .

ألقي عدد كبير من الأسرى والمجرمين، من بينهم القديس العظيم أغناطيوس، للوحوش الضارية المفترسة. ويُقال إن الإخوة في روما جمعوا عظامه وأرسلوها إلى أنطاكية فدُفنت هناك.

مؤلفات القديس أغناطيوس:

لم يبقَ لنا من كتاباته إلا الرسائل السبع التي كتبها إلى: كنيسة أفسس، ثم رسالة إلى كنيسة مغنيزيا والرسالة إلى كنيسة فيلادلفيا، والرسالة إلى كنيسة سميرنا ثم الرسالة إلى كنيسة ترالس، ثم كتب رسالة إلى أسقف كنيسة سميرنا بوليكاربوس الذي استقبله أثناء مروره بسميرنا استقبالاً حافلاً مشرِّفًا. وأخيراً رسالته إلى روما. وأهم هذه الرسائل هي رسالته إلى كنيسة روما. ولقد حث أعضاء الكنائس في هذه الرسائل التي استعمل فيها أسلوب القديس بولس، على الطاعة والخضوع للقادة الروحيين. ثم طلب من كنيسة روما وأعضائها ألا يقوموا بأي مجهود للسعي لدى الحكام لإنقاذه من الموت. فعندما تغرب شمسه هنا ستشرق في عالم آخر حيث تبدأ الحياة الحقيقية التي لا نهاية لها. وكذلك كتب يقول: «أهلا بأسنان الوحوش المفترسة التي ستصنع مني خبزًا شهيًا للمسيح» (رسالته لأهل رومية ١: ٢، ٢: ١، ٥: ١).

تعاليم أغناطيوس الكرستولوجية، أو ما هي عقيدته في المسيح يسوع؟

عندما نقرأ رسائل القديس أغناطيوس نشعر كما لو كنا ندرس رسائل بولس أو يوحنا، فهو يقدم لنا شخص المسيح كما قدمه أيضًا بولس. إن «الله ظهر في الجسد»، ظهر في هيئة إنسان. والرسائل السبع التي سبقت الإشارة إليها تحتوي على تعاليمه الخاصة بالله والخاصة بالمسيح.(١)

ففي رسالته إلى أهل ترالس، يعرِّفنا بأن موت المسيح وقيامته هما من الحقائق التي حدثت فعلًا وحقيقة، وأنهما يؤديان إلى الخلاص. وفي نفس الرسالة يقول: إن المسيح قد صار فعلًا إنسانًا. وهنا يتمسَّك أسقف أنطاكية بالعقيدة الرسولية الغالية على قلب يوحنا الرسول. فكما سبق القول إن الغنوسية كانت منتشرة في ذلك الوقت، وقد هاجمهما يوحنا الرسول في إنجيله ورسائله. وهنا يقوم أسقف أنطاكية بمهاجمة نفس العقيدة بالتشديد على حقيقة أن المسيح صار إنسانًا (الرسالة إلى ترالس ٩. والرسالة إلى سميرنا ١: ١) وإن كان يشدِّد على ناسوت المسيح موضحًا أن الكلمة صار جسدًا وحل بيننا، فهو لا يهمل بأي حال من الأحوال أن يسوع هذا هو الله، ولم يتردد أسقف أنطاكية في أن يعطي لقب «الله» للمسيح، فإن كان يوحنا قد ذكر أن المسيح هو الله ثلاث مرات، فإن أغناطيوس أعطى هذا اللقب «الله» للمسيح عدة مرات وفي أحيان كثيرة، وبهذا فهو يحارب رافضًا عقيدة الإبيونيين التي لا تعترف بلاهوت المسيح، كما يرفض أيضًا عقيدة الغنوسيين التي ترفض ناسوت المسيح.

(١) للتوسع في هذا الموضوع ارجع إلى:

(١) A. Grillmeier ص ص١٢٧-١٣٠

(٢) J. Lebcert ص ص ٥٧-٥٩

(٣)J. Quasten ص ص ٧٥-٥٩

(٤) د. رستم، الجزء الأول من ص ص ٤٩- ٥٨

(٥) مجلة Le Christianisme 5. 12. 1977 No. 46.

ولقد استطاع معلِّم أنطاكية العظيم أن يتكلم عن ناسوت المسيح ولاهوته دون أن يمزجهما مزجًا كليًّا أو أن يفصلهما فصلًا تامًّا الواحد عن الآخر؛ فمع أن عقيدة الطبيعتين لم تكن قد ظهرت بعد بالطريقة التي ستظهر بها في الفترة التالية، إلا أننا نشعر أن تعاليم أغناطيوس كانت في نفس الاتجاه الذي انتهجته الكنيسة في القرنين الثالث والرابع. ومن الأمور الواضحة في تعاليمه، عقيدته عن الجسد «الساركس»، وعن الكلمة «اللوجوس» الذي اتحد بالساركس: «الكلمة صار جسدًا»، فهذا الاتحاد الذي تم في المسيح بين اللوجوس والساركس، بين الكلمة والجسد كان واضحًا في تصرفات المسيح؛ فهو كان يتعب ويأكل ويشرب لأنه كان إنسانًا، وكان يعمل المعجزات لأنه الله. كان يوجد توافق واتحاد بين اللوجوس والساركس، وهذا ما سيدعى فيما بعد (LA COMMUNICATION DES IDIOMES) ويعني أن اللاهوت والناسوت كانا متحدَين وعلى صلة مستمرة الواحد مع الآخر، وأنه يوجد اتحاد وانسجام لا انفصال (رسالته إلى سميرنا ٤: ٢) وخاصةً (رسالته إلى أفسس ١: ٨، ٧: ٢ ورسالته إلى بوليكاربوس ٣: ٢). ويقول أغناطيوس، لكي يشرح المصدر الإلهي البشري في المسيح، بأنه أصبح مخلوقًا بالتجسُّد وغير مخلوق باللاهوت. فإن الجسد الذي وُلد من مريم العذراء يربط يسوع بالبشرية، ولكن الكلمة الذي صار جسدًا أي اللوجوس، هو من الله، بل الله نفسه، وهو الذي يربط المسيح بالله (رسالته إلى أهل مغنيزيا ١: ٢؛ سميرنا ٣: ١؛ فيلادلفيا ٢: ٢) كل هذه الفصول تشدِّد بطريقة واضحة وصريحة على اتحاد الكلمة «اللوجوس» بالساركس أي بالجسد، وكان الاثنان يعملان في اتحاد وانسجام وتوافق.

يرى أغناطيوس ناحيةً أخرى في المسيح؛ فهو الحياة الجديدة لأنه يعطي المؤمن حياة جديدة، فهو يلاشي الحياة القديمة ويخلق في الإنسان عالمًا جديدًا (رسالته لأفسس ٤: ٤، ١٩: ٣).

ولقد شدَّد أغناطيوس أيضًا على عمل المسيح الخلاصي؛ فهو يعلن أن قصد الله الأساسي هو خلاص البشر، ولذلك فقد أرسل أولاً أنبياءه إلى اليهودية، ولقد تمت كل هذه الانتظارات في المسيح (رسالته إلى مغنيزيا ٩: ١، ٢). إن أغناطيوس مثل بولس يعتبر أن المؤمن هو هيكل الله الساكن فيه (١كو ٣: ١٦، ١٧، ٦: ١٩). ولذلك فقد أعطى لنفسه لقب ثيوفيلس (THEOPHILE) «حامل الله»، ويرى أيضًا في المسيح الطبيب الوحيد الذي يشفي الإنسان من أمراضه الروحية.

هذه الرسائل السبع التي كتبها القديس أغناطيوس تُعَد من الكنوز العظيمة؛ لأنها تعطي لنا فكرةً عن تمسُّك الكنيسة المسيحية في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني بالتعاليم الرسولية [1]، وكيف أن خدامًا أمناء له ولكلمته استطاعوا أن يقاوموا كل انحراف في التعليم وأن يتمسَّكوا بالحق الإلهي العظيم لكي يسلِّموه للأجيال التالية صحيحًا نقيًّا، فلقد مات أغناطيوس شهيدًا ولكنه لا يزال يتكلم.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع ارجع الى (١) A. Grillmeier ص ١٢٧-١٣٠، (٢) J. Lebcert ص ٥٧-٥٩ (٣)J.Quasten ص ٧٥-٧٧.

د. رستم الجزء الأول ص ص ٤٩-٥٨ مجلة Le Christianisme ٥. ١٢. ١٩٧٧ No. ٤٦.

الفصل الثالث

إكليمندس الروماني

إننا نجهل أين ومتى وُلد القديس إكليمندس الروماني، فلا نعرف شيئًا عن طفولته ولا شبابه ولا البيئة التي نشأ فيها.

ومع أن الجزء الأول من حياته غير معروف لنا، إلا أن الجزء الثاني كان حافلًا بالنشاط والعمل في حقل المسيح. فلقد نُصِّب إكليمندس الروماني أسقفًا على روما في أيام حكم دوميتيانوس (DOMITIEN) ويعرِّفنا إيريناوس الذي قام بعمل أقدم قائمة لأساقفة روما، بأن إكليمندس هو ثالث خلف للقديس بطرس الرسول (انظر إيريناوس ٣ ,٣ ,٣ .ADV. HAER). ولكن ما نأسف له هو أن إيريناوس لم يقل لنا شيئًا عن متى بدأ ولا متى أنهى خدمته الأسقفية. أما المؤرخ الكنسي أسابيوس (EUSEBE) فهو يحدد لنا بداية ونهاية خدمة إكليمندس الأسقفية؛ فهو يعتقد أنه ثالث أسقف لروما بعد القديس بطرس، وقد جلس على كرسي الأسقفية الرومانية في السنة الثانية عشرة لحكم دوميتيانوس إلى السنة الثالثة لحكم تراجانوس. وهذا يعني أن إكليمندس كان أسقفًا لروما من سنة ٩٢ إلى سنة ١٠١ م.[١] ثم إن ترتليانوس يعرِّفنا بأن الذي رسمه أسقفًا لروما هو القديس بطرس نفسه، وأبيفانوس يؤكد حقيقة الأمر.[٢] ويتمسَّك أسقف ليون (إيريناوس) بأن إكليمندس عاش في عصر الرسولين بولس وبطرس وأنه كان يعرفهما جيدًا. ويؤيد هذا الرأي كلٌّ من اللاهوتي الإسكندري أوريجانوس وأسابيوس (EUSEBE) بل يعتقدان بأنه كان شريكًا للرسول بولس في الخدمة، وأنه هو نفسه الشخص الذي يتكلم عنه الرسول بقوله: «نعم أسألك أنت أيضًا يا شريكي المخلص ساعد هاتين اللتين جاهدتا معي في الإنجيل مع إكليمندس أيضًا وباقي العاملين معي الذين أسماؤهم في سفر الحياة» (في ٤: ٣).[٣] فالرسول يذكر عددًا من الذين كانوا يتعاونون معه في الخدمة، ويظن بأن إكليمندس المذكور هنا هو نفس الشخص الذي صار أسقفًا لروما في سنة ٩٢. على أن هذا الرأي يحتاج إلى برهان تاريخي. ويعتقد دين كاسيوس (DION CASSIUS) أن إكليمندس هو القنصل تيطس فلافيوس من عائلة الإمبراطور وقد حكم عليه بالإعدام عام ٩٥ أو ٩٦ لاعتناقه المسيحية.[٤]

---

(1) Eusébe. **Hist. Eccl**. 3. 15. 34.

(٢)انظر J. Quasten.p. 32

(٣)المرجع السابق.

(٤)المرجع السابق.

كتابات إكليمندس:

كتب القديس إكليمندس رسالةً إلى أهل كورنثوس، وهذه الرسالة تُعتَبَر في غاية الأهمية خصوصًا لأنه قد ثبت بطريقة لا تعرف الشك صحتها ونسبتها إلى إكليمندس. فإذا استثنينا كتب العهد الجديد، فإن رسالة إكليمندس إلى أهل كورنثوس تُعتَبَر من أقدم الكتابات المسيحية التي تعطي لنا صورة عن معتقدات وحياة الكنيسة بعد انتقال الرسل. فعلى ما يظهر أن النزاع والانشقاقات التي بدأت في كنيسة كورنثوس في عهد الرسول بولس (١ كو ٣: ١ - ٢٣) ما كانت إلا بذورًا أعطت ثمارها الرديئة والكثيرة في هذه الكنيسة في أيام إكليمندس حتى إن كثيرين من أعضاء هذه الكنيسة تمرَّدوا على رعايتها وطردوا البعض منها. ولذلك تدخَّل إكليمندس محاولاً أن يهدئ من شدة العاصفة التي كادت تقوِّض ظهر الكنيسة في كورنثوس والتي أصبحت عثرة لغير المؤمنين. ويحتمل بأن إكليمندس قد تدخل لحل المشكلة المحلية في الكنيسة الكورنثية بعد أن طلبت منه هذه الكنيسة التدخل لحل مشكلتها.

وتحتوي رسالة إكليمندس إلى أهل كورنثوس، على مقدمة ثم جزئين رئيسيين. والمقدمة تصف حالة كنيسة كورنثوس المزدهرة النامية سابقًا، والمنقسمة الممزَّقة حاليًا. ثم يتعرَّض الكاتب في جزئي الرسالة لمعالجة مشاكل كنسية ولاهوتية وتعليمية كثيرة، فهي تتكلم عن إقامة بطرس الرسول في روما وزيارة بولس لأسبانيا واستشهاد الرسولين كما أنها تتكلم عن الاضطهادات التي شنَّها نيرون على المسيحيين.

تاريخ كتابة الرسالة:

إن الرسالة تذكر اضطهاد نيرون لكنيسة روما (٤: ٥)، وبعد وصفه لهذه المحنة التي مرَّت بها كنيسة المسيح في روما في أيام نيرون، يذكر إكليمندس أن الكنيسة الحالية تمر بمحنة قاسية. وربما يشير الكاتب إلى الاضطهادات التي شنَّها دوميتيانوس عام ٩٥ أو ٩٦. وبناءً على ذلك فإنه من المحتمل أن الرسالة كُتبت بين سنتي ٩٦، ١٠٠ م.

ولا شك في أن كاتب هذه الرسالة هو إكليمندس بالرغم من أنه لا يذكر اسمه فيها. وعنوان هذه الرسالة هو «كنيسة الله في روما»، أو «كنيسة الله المقيمة في روما».

ويستعمل الكاتب صيغة الجمع للمتكلم، ولقد أجمع آباء القرون الأولى على أن الكاتب هو أسقف روما إكليمندس.[1] وحاليًا توجد هذه الرسالة في المتحف البريطاني.

وبما أن هذه الرسالة لم تقابل اعتراضًا يُذكر، في حقيقة نسبتها إلى إكليمندس الروماني، فقد قام البعض في القرن الثالث بكتابة رسائل أخرى ونسبوها إلى نفس الشخص (إكليمندس) حتى تستطيع أن تشق طريقها بسهولة إلى الكنائس المسيحية، ومنها:

---

(1) Eusèbe **Hist. Eccl.** 4, 23, H, 3, 16.

١ - رسالة إكليمندس الثانية إلى أهل كورنثوس:

وهي رسالة لا تمت بأية صلة إلى إكليمندس لأن محتوياتها وأسلوبها وعباراتها برهان كافٍ لإبعادها عن أسقف روما.

٢ - خطابان موجهان إلى غير المتزوجين:

وفي هذين الخطابين يبيِّن الكاتب مزايا وفوائد العزوبية. وتوجد كتابات أخرى نُسبت إلى أسقف روما، على أن آباء الكنيسة لم يعترفوا إلا بالرسالة الأولى.

تعاليم القديس إكليمندس:

عندما يتكلم القديس إيريناوس عن تعاليم أسقف روما إكليمندس، يعرفه بأنه احتفظ لنا بنقاوة وسلامة تعاليم الرسل.

والرسالة تظهر اطلاع القديس إكليمندس ومعرفته الواسعة بالعهد القديم؛ فهو يشرح لنا قصد الله لخلاص العالم الذي نفَّذه في شخص ابنه يسوع المسيح ويعمل الروح القدس معطيًا هذه المهمة للرسل (رسالته إلى أهل رومية ٤٢: ١ - ٣).

وعندما نقرأ رسالة القديس إكليمندس يسيطر علينا نفس الشعور الذي نشعر به عندما نطلع على رسائل أسقف أنطاكية في وصفه لاتضاع وارتفاع المسيح في التجسُّد والموت والقيامة؛ فأسقف روما يتتبع أثر خطوات بولس عندما يتكلم عن شخص المسيح، فهو يقدمه لنا كما وصفه الرسول بولس بالقول: «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح، أنه من أجلكم افتقر وهو غني، لكي تستغنوا أنتم بفقره» (٢كو ٨: ٩، في ٢: ٥ - ١١). فلقد جاء المسيح فقيرًا لا يملك شيئًا مع أنه الغني، بل هو ذاك الذي أخضع نفسه واتضع اتضاعًا عظيمًا لدرجة أنه صار في هيئة عبد (في ٢: ٥ - ١١) فمع أنه كان يمكن له أن يظهر في هيئة العظمة والتجبُّر، لكنه اختار طريق التواضع وإنكار الذات (رسالته ١٦: ٢). ومع أنه يقدم لنا المسيح كذاك الذي اتضع اتضاعًا كاملًا كليًّا، فإنه يصفه أيضًا «بالسيد»، فإن لقب «سيد» هو اللقب اللائق والمناسب للمسيح مثل «الله» و«معلِّم» و«رب».

وأسقف روما يؤمن بأن الابن موجود مع الآب ولقد أُرسل إلى العالم كرئيس كهنة.

ومن هذا نلاحظ أن أسقف كنيسة روما تمسَّك بتعاليم بولس الرسول فيما يختص بشخص الرب يسوع؛ فلقد رأى فيه إنسانًا وإلهًا، وفي نفس الوقت فهو الذي كان غنيًّا وافتقر من أجلنا، وهو المعادل لله، اتضع وأخذ صورة عبد.

إن دراسة كتابات القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية وكتابات القديس إكليمندس أسقف روما بخصوص التعاليم الكرستولوجية (التعاليم المختصة بشخص المسيح) في غاية الأهمية لأنهما تعتبران القنطرة المباشرة التي تربط الرسل بكنيسة القرون التالية. إذ أنه من المحتمل جدًّا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أنهما كانا فعلًا على اتصال مباشر وشاهديّ عيان لبعض الرسل. ولهذا السبب تحتل كتاباتهما في تاريخ العقائد المسيحية مكانة مرموقة هامة.[1]

(1) Bard. RSR. 12 (1922) 73-85.

ولدراسة هذا الموضوع بتعمق راجع المراجع الآتية: L. Sanders,**L'Hellenism de St Cle'ment de Rome Et la Poulinism Louvain**, 1943, pp. 19-33.

وتوجد قائمة كتب في كتاب J. Quasten يجب الاطلاع عليها:

F. Louvel, **Les Ecrit des Péres Apostolique.**

الفصل الرابع

بوليكاربوس (ST. POLYCRPE)

عندما نتكلم عن الأشخاص الذين يحتمل أنهم فازوا بالمقابلة الشخصية مع الرسل أو كانوا شهود عيان لهم، لا يمكننا أن نهمل ذكر القديس بوليكاربوس أسقف مدينة سميرنا.

وُلد بوليكاربوس عام ٩٦ في مدينة سميرنا ولا نعرف شيئًا عن شبابه أو الجو العائلي الذي نشأ فيه، وهل تربى ونشأ في عائلة مسيحية أم وثنية.

على أنه توجد بعض الوثائق التي تكاد تكون مؤكدة بأن القديس بوليكاربوس تعرَّف على بعض الرسل أو على الأقل، كان تلميذًا لأحدهم وهو القديس يوحنا الرسول الشيخ. ويقال إنه كان يجلس عند أقدام الرسول يوحنا عندما كان يعلِّم أو يعظ لكي يلتقط الدرر التي كانت تتساقط من فمه.

ويقول أسابيوس إن الرسل أنفسهم هم الذين عيَّنوه أسقفًا على مدينة سميرنا، ولهذا السبب كان يتمتع باحترام الكثيرين من الخدام ويحتل المكانة المرموقة بينهم.[١] ولقد كان أسقفًا لهذه المدينة عندما مر بها القديس أغناطيوس في طريقة إلى الاستشهاد، وسلَّم له رسالته المشهورة، وطارت سمعته الحسنة ومعرفته العميقة إلى روما وسمع بها البابا أنيست (ANICET) أسقف روما. ولذلك فقد دعاه للذهاب إلى هناك عام ١٥٥م للنظر في بعض المسائل الكنسية خصوصًا مشكلة تحديد تاريخ القيامة. ومع أن هذه المقابلة لم تحقق الهدف المقصود وهو الوصول إلى اتفاق لتحديد يوم ثابت لعيد القيامة، فقد ظلت روابط المحبة المسيحية القوية تربط بين قلبيهما.

عاد القديس بوليكاربوس إلى مدينة سميرنا بعد رحلته إلى روما، وكانت مدينة سميرنا تمر في ذلك الوقت بفترة اضطهاد مرير عنيف. ويبدو أن الاضطهاد الذي تنبأ به يوحنا الرسول في سفر الرؤيا في خطابه الموجَّه إلى كنيسة سميرنا كان قد بدأ يتحقق فعلًا؛ فلقد كتب الرسول إلى هذه الكنيسة يقول: «هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضًا منكم في السجن لكي تجرَّبوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام» (رؤ ٢: ١٠)، فلقد حل جزء من أيام الاضطهاد العشرة هذه عندما قام الحاكم استاتيوس كوادراتوس STATIUS QUADRATUS باضطهاد الكنيسة فأمر بإحضار راعي كنيسة سميرنا الشيخ الوقور بوليكاربوس.

---

(١) انظر ارينياس:

Eusébe, **Hist. Eccl**. 5, 20.5.11 Adv. Haer. 3.3.4 (ص ٩٠-٩٢) الجزء الأول - طبعة فرنسية.Irenée Adv Haer.

وعندما رأى الحاكم هذا الشيخ الجليل الوقور، يبدو أن الشفقة عرفت طريقها إلى قلبه وأراد أن ينقذه من الموت فقال له: «أقسِم لي بأن تلعن المسيح وأنا أطلق سراحك الآن». فأجاب القديس بلا تردد وبشجاعة منقطعة النظير بهذه الكلمات التي سجلها له التاريخ، وهي أيضًا فخر الكنيسة، كشهادة حية له قائلًا: «منذ ستة وثمانين عامًا وأنا له وأخدمه ولم يُسِئ إليَّ أبدًا ولا بإساءة واحدة، فكيف يمكن إذا أن أجدِّف على ملكي ومخلِّصي؟»

ثم تحول إلى الجلادين الذين كانوا يعدُّون العدة لتسميره على الخشبة التي كانت معدَّة لحرقه. وقال: «اتركوني هكذا، فإن الذي يعطيني القوة لكي احتمل النيران، هو نفسه الذي سيعطيني القوة لكي أظل في مكاني بلا حركة دون أن أسمَّر بمساميركم».[1]

وهكذا قَبل الرجل الشيخ العظيم الموت في ٢٢ فبراير ١٥٦م مستشهدًا لأجل ذاك الذي من أجله ومن أجلنا أيضًا مات ونحن بعد خطاة.

تعاليم بوليكاربوس:

كتب بوليكاربوس رسالة إلى أهل فيلبي، وتحتوي هذه الرسالة على بعض تعاليم بوليكاربوس. والقديس إيريناوس يقول إن بوليكاربوس أرسل عدة رسائل إلى الكنائس المحيطة بسميرنا وإلى زملائه الخدام في المنطقة. وللأسف الشديد لم يبقَ لنا من هذه الرسائل إلا رسالته إلى أهل فيلبي.[2] ويعتقد هاريسون (P.N. HARRISON) أن رسالة بوليكاربوس إلى أهل فيلبي في شكلها الحالي تحتوي على رسالتين مكتوبتين في حقبتين مختلفتين من الزمن؛ فالرسالة الأولى لا تحتوي إلا على الفصلين الثالث عشر والرابع عشر مع مذكرة تفسيرية، ثم رسائل القديس أغناطيوس التي طلبتها منه كنيسة فيلبي، وبعد عشرين سنة من إرسال الرسالة الأولى (الفصلين الثالث عشر والرابع عشر) أرسل بوليكاربوس بقية رسالته من الفصل الأول إلى الثاني عشر. ويُحتمل أن هذه الرسالة كانت مكتوبة على ورق البردي.

وقد حاول بوليكاربوس معالجة عدة مواضيع في هذه الرسالة، منها: النظام أو الترتيب الكنسي، الصدَقَة، ثم علاقة الكنيسة بالدولة. ولكن الذي يهمنا في بحثنا هذا هو مفهومه عن شخص المسيح أي تعاليمه الكرستولوجية. إن بوليكاربوس اتبع آثار خطوات معلِّمه القديس يوحنا، فلقد سبق أن رأينا أن يوحنا الرسول كتب إنجيله ورسائله مدافعًا عن لاهوت وعن ناسوت المسيح. وبوليكاربوس الذي تشبَّع بأفكار يوحنا يواصل الجهاد ضد الغنوسيين وضد الإبيونيين. فهو يكتب قائلا: «من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء في الجسد فهو ضد المسيح، ومن لا يعترف بالصليب فهو من الشيطان، وكل من يحول أقوال الرب إلى رغباته الشخصية، وكل من ينكر القيامة والدينونة فهو بكر إبليس» (رسالته إلى أهل فيلبي ٧: ١). ونلاحظ هنا أن الجزء الأول من هذا الاقتباس قريب جدًا من قول الرسول يوحنا حيث يقول: «وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله» (١يو ٤: ٣). ولا شك أن بوليكاربوس يواصل نفس المعركة التي شنَّها يوحنا الرسول ضد الذين ينكرون

(١)انظر J. Quasten إن تاريخ موت القديس بوليكاربوس من النقاط غير المتفق عليها، إذ أن البعض يظن بأنه استشهد في سنة ١٧١ والبعض الآخر في سنة ١٧٧.

(٢)انظر اسابيوس. Eusébe, Hist. Eccl. ٥,٢٠,٨: ٣,٣٦,١٣-١٥

ناسوته. خاصةً أن هذه البِدَع انتشرت انتشارًا كبيرًا في طول البلاد وعرضها في ذلك الوقت. وكما أن الرسول يوحنا قد عرف المعلِّم الكاذب سرنت، وقد كتب رسائله ضد تعاليمه، فإن البعض يعتقد أن بوليكاربوس تقابل هو أيضًا مع هرطوقي آخر في عصره لا يقل خطورة عن سرنت وهو ماركيون MARCION. ويقول إيريناوس إنه عندما تقابل الاثنان معًا، سأل ماركيون بوليكاربوس قائلا: «أتعرفني؟»، فأجاب بوليكاربوس بالقول: «بلا شك. وكيف يمكن أن أجهل فكر الشيطان».[1]

في عهد بوليكاربوس، بدأت التعاليم المختلفة المتنوِّعة المختصة بشخص المسيح يسوع تهز الكنيسة وتهدِّد سلامة عقيدتها وإيمانها في المسيح. ولكن الذي وعد تلاميذه بأنه سيكون في كنيسته وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، هو أمين وأمانته لا تتوقف على عدم أمانتنا لأنه أمين وسيظل أمينًا إلى الأبد، يقوي كنيسته في ضعفها ويسندها في سقوطها لأنه محبة أبدية قد أحبها. ولذلك جاء هو نفسه لتأسيسها، وحمل الرسل مسئولية بنيانها والتعليم فيها، كما عمل ويعمل بروحه في القديسين وفي المؤمنين لكي يواصلوا تبليغ الرسالة إلى الذين لم تصل إليهم.

لقد كان بوليكاربوس من سحابة الشهود الذين قدموا شهادة حيَّة وقوية ولامعة لسيدهم وربهم.

(١)انظر المرجع السابق.Irenée Adv., Hear ٣, ٣, ٤

الفصل الخامس

إيريناوس (SAINT IRENÉE)

لم يستطع المؤرخون أن يحددوا بالضبط تاريخ ميلاد أسقف ليون (LYON)، ولذلك فقد ظنوا أنه وُلد فيما بين ١٣٠ و١٥٠ م. ولكن الأمر الذي لا يعتريه الشك هو أن إيريناوس قد عرف القديس بوليكاربوس شخصيًا في مدينة سميرنا التي هي مسقط رأسه. ولذلك فإن إيريناوس يعتبر حلقة هامة جدًا في السلسلة حيث لا يفصل بينه وبين الرسل إلا حلقة واحدة منها أو جيل واحد هو القديس بوليكاربوس. فقد كان إيريناوس شاهد عيان لبوليكاربوس. وهذا الأخير كان تلميذًا للقديس يوحنا تلميذ المسيح. وإيريناوس نفسه هو الذي عرَّفنا بأنه كان من الذين يسمعون عظات القديس بوليكاربوس في مدينة سميرنا؛ فهو يقص هذا في خطاب كان قد أرسله إلى صديق يدعى فلورنيس (FLORINUS) شارحًا لصديقه كيف كان يتمتع متلذّذًا في أيام شبابه بسماع عظات القديس بوليكاربوس؛ إذ أن هذا الأخير (بوليكاربوس) كان يروي على سامعيه القصص الحلوة العذبة التي يصف فيها علاقته بالقديس يوحنا والتلاميذ الآخرين الذين قد رأوا السيد، وكيف كان يتذكّر كلماتهم والأشياء التي كان يسمعها منهم بخصوص السيد ومعجزاته وتعاليمه.

ومع أن إيريناوس يصف شبابه في هذا الخطاب لصديقه، فهو لا يتكلم عن طفولته أو عائلته. ولذلك فإننا نجهل تمامًا ما إذا كان قد تربَّى في عائلة مسيحية أم وثنية، ولكننا نعرف أنه أصبح أسقفًا لمدينة ليون عام ١٧٧ م. كما أننا نجهل كيف ومتى أصبح إيريناوس مسيحيًا؟ هل تجدَّد على يد بوليكاربوس أم على يد شخص آخر؟ ونجهل أيضًا الأسباب التي دفعته للهجرة إلى ليون. ولقد أرسلته كنيسة (ليون) إلى روما، وعند عودته خلف أسقف المدينة بوتن (POTHIN) الذي استُشهد في الاضطهادات التي قام بها الوثنيون ضد الكنيسة.

عندما جلس إيريناوس على كرسي أسقفية ليون كرَّس جزءًا كبيرًا من جهوده ووقته للكرازة وتبشير بلاد الغال (فرنسا حاليًا) إذ كان يعرف لغتهم معرفة جيدة. ثم كرَّس جزءًا آخر من وقته للدرس والكتابة شارحًا ومبينًا الإيمان المسيحي الصحيح ومدافعًا ضد الغنوسيين وهرطقاتهم.

كان إيريناوس رجل المصالحة، ولقد ظهر فيه هذه الروح عندما أراد أسقف روما فيكتور أن يقطع علاقاته مع كنائس آسيا التي كانت لا تتفق وعادات روما وطقسها فيما يختص بالاحتفال بعيد القيامة، فقد تدخَّل إيريناوس حالًا لتوطيد العلاقات وعدم قطع الشركة لسبب بعض الاختلافات التي لا تمس نقاطًا حيوية أو جوهرية في الإيمان (راجع أسابيوس ٥، ٢٤: ١٧).

إننا نجهل تاريخ موته الذي قد يكون بين عامي ١٩٠ و٢٠٢م أثناء الاضطهادات التي شنَّها سيبتيموس سفريوس (SEPTIME - SEVERE)، فأسابيوس المؤرخ الكنسي لا يذكر شيئًا عن موته. إلا أن جريجوازمنتور GREGOIRE DE LA (TOURS) يقول إنه مات شهيدًا (انظر ١٧ :١ HISORIA FRANCORUM).

كتاباته:

كتب القديس إيريناوس كتبًا كثيرة جدًّا خصوصًا المصنَّفات التي كتبها ضد جماعة الغنوسيين. ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه الكتب إلا كتابان. ولقد كتب إيريناوس مؤلفات بلغته وهي اليونانية. ولكن هذين الكتابين كُتبا باللاتينية. ويعالج إيريناوس في كتابه الأول (من هذين الكتابين) مشكلة الغنوسية، ويتعرَّض لها من الناحية التاريخية والعقائدية. أما الكتاب الثاني ويدعى «شرح تعليم الرسل» فيحاول أن يشرح فيه محتويات الإيمان المسيحي الصحيح. فهو يتكلم عن قضية الثالوث وسقوط الإنسان والتجسُّد والفداء ثم يقدم لنا يسوع كابن داود.

ولقد احتفظ لنا ببعض المقتطفات من كتاباته كلٌّ من هيبوليتوس وأسابيوس وأبيفانوس.

تعاليم إيريناوس الكرستولوجية:

لكي نفهم تعاليم القديس إيريناوس اللاهوتية المختصة بشخص المسيح، يجب علينا أن نذكر الأحداث التاريخية العقائدية. فلقد سبق أن أشرنا إلى انتشار الغنوسية في بلاد كثيرة، كما عرفنا أيضًا أن الرسول يوحنا كتب إنجيله ورسائله ضد تعاليم الغنوسيين وضد بعض التعاليم الأخرى غير الصحيحة. وعندما ظهر القديس بوليكاربوس تلميذ يوحنا اتبع أيضًا آثار معلِّمه في محاربة هذه البدعة التي كانت منتشرة في بلاد عديدة وخاصة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، وعلى ما يبدو أن تعاليم الغنوسيين وصلت إلى ليون، المنطقة التي جاء ليبشِّر فيها السميرني، ولذلك فقد قام إيريناوس بالهجوم على هذه التعاليم التي حاربها سابقوه. فمعظم ما كتبه في «الهرطقات المختلفة» (ADVERSUS, HAERESES) كان ضد تعاليم هذه الجماعات، إذ أنه حل ناقدًا كل هذه التعاليم؛ لأن كثيرين من الغنوسيين كانوا يرون في المسيح واحدًا من الآلهة المتعدِّدة التي خرجت من الإله الأعظم السامي. وكان هدف مجيء المسيح إلى الأرض هو أن ينقذ الإنسان الذي كان سجينًا وعبدًا للمادة، فإن رسالة اللوجوس هي أن يعلِّم ويرشد الإنسان الساقط إلى المعرفة الحقيقية، وعن طريق هذه المعرفة يخلص.

لم يقبل إيريناوس هذا التعليم عن المسيح، ولكنه قبل أن يبدأ في شرح مفهومه عقيدة اللوجوس، يحتج بشدة ضد اللاهوتيين الذين يقدمون شروحات مطوَّلة ومفصَّلة عن أصل ومنبع ابن الله ومصدره ووجوده، كما لو كانوا حاضرين في يوم ميلاده. ثم يقول إن هذه الأشياء لا يمكن وصفها لأنها تفوق كل وصف، والإنسان لا يمكنه أن يفهمها أو يشرحها ولا أحد يعرف سر ميلاد ابن الله إلا الآب والابن (راجع كتاب ٢٨ :١١ ADV. HAE.).

ولكن بالرغم من هذا الملاحظة التي ينتقد بها الذين حاولوا تقديم شروحات طويلة ومفصَّلة عن سر التجسُّد، فإنه هو نفسه يدخل في هذه التفاصيل مقدِّمًا لنا مفهومه عن المسيح. فما هي عقيدته في المسيح؟

لقد ركز إيريناوس في تعاليمه على ما يدعى (Soteriologie) أي كل ما يختص بقضية الخلاص، فإن كنا نرى اللاهوتي اليوناني يؤكد بشدة على مشكلة الخلاص الذي تم في شخص المسيح يسوع، فذلك لأن عددًا من الغنوسيين كانوا يعلِّمون بأن المسيح واحد من العوالم (EONS) أو الآلهة التي خرجت من الإله الأسمى ونزل لكي يخلِّص الإنسان أو بالمعنى الأصح لكي يحرِّر الشرارات الإلهية السجينة في الإنسان. والخلاص بحسب مفهوم هؤلاء الغنوسيين ليس هو عودة العالم الأرضي المنظور والإنسان الساقط روحًا وجسدًا، إلى الله، بل هو رجوع الشرارات أو الذرَّات الإلهية التي سقطت من فوق، إلى اللاهوت. وهذه العودة لا تتم إلا عن طريق «الغنوس» أي المعرفة وهي التي تعطي الخلاص، والمسيح هو الذي يساعد الإنسان على الوصول إلى هذه المعرفة. هذا هو الخلاص الذي نادى به الغنوسيون.

وإيريناوس وعظ بأن المسيح جاء فعلًا للخلاص، ولكن هذا المسيح الذي يتكلم عنه الغنوسيون ليس هو نفس مسيح الإنجيل، بل هو واحد من الآلهة الكثيرة، أما مسيح الإنجيل فهو مسيح واحد فريد وقد جاء لفداء الإنسان. فإن كان الغنوسيون يتكلمون عن مسيح جاء من فوق ولا يمكن له أن يلتصق بالمادة لأنها شر وخطية، فإن مسيح الإنجيل صار جسدًا. ويقول: «إن لم يكن المسيح إنسانًا حقًّا وإلهًا حقًّا لأصبح خلاصنا مستحيلًا». وعندما جاء المسيح إلى عالمنا لخلاصنا أخذ جسدًا حقيقيًّا كأجسادنا لأن الرسول يقول: «الكلمة صار جسدًا». وهنا يظهر إيريناوس رفضه لعقيدة الدوسيتيين (الذين يؤمنون بأن المسيح كان إلهًا فقط). ويؤكد أسقف ليون بشدة على حقيقة أنه كان من الضروري بل من اللازم لإتمام عملية الفداء والتجسُّد، وجود مخلِّص، وأن يكون هذا المخلِّص مشتركًا في اللاهوت ومشتركًا أيضًا في الجنس البشري. كان لابد وأن يكون إلهًا وإنسانًا في نفس الوقت، حتى يستطيع أن يصالح الإنسان والله. فقد كان المسيح إذًا هو الوسيط المؤهَّل للقيام بهذه العملية، عملية الوساطة بين الله الذي لا يمكن أن يُدنى منه، وبين الإنسان الخاطئ (راجع .J. LIEBAERT, p. 67).

والذي يدرس كتابات القديس إيريناوس يلاحظ أنه شدَّد كثيرًا على أعمال المسيح وخاصةً أعماله الفدائية. فإن أسقف ليون قد أعطى الأولوية في كتاباته للبحث عن أعمال المسيح الفدائية والخلاصية، دون أن يهمل إهمالًا كاملًا الأسئلة المختصة بأصل وجوهر المسيح (راجع كتاب ADV. HEA. 3, 166).

ونلاحظ هنا أن القديس إيريناوس لا يتبع النهج الذي اتبعه الرسول يوحنا بل يسلك الطريق الذي سلكه بولس الرسول؛ إذ أن يوحنا تكلم عن الذي كان من البدء الذي في حضن الآب، جوهر الآب، وأما الرسول بولس فقد ركَّز بالحري على عمل المسيح الذي مات من أجلنا الذي قدم نفسه كذبيحة حية مرضية: آدم الأخير.

والمقارنة التي قام بعملها إيريناوس بين آدم الأول وآدم الأخير تُعتَبَر من أهم المواضيع اللاهوتية الكرستولوجية التي كتب فيها. وكرجل كتابي رجع إلى المكتوب لكي يشرح الفرق بينه وبين الوثنيين. ولقد اتخذ أساسًا لبحثه (رو ٥: ١٢ - ٢١؛ ١كو ١٥: ٢١ - ٢٢؛ ٤٥ - ٤٩).

(١) وهو يرى في آدم الأول أنه إنسان مأخوذ من أرض بكر والمسيح أيضًا وُلد من بكر عذراء.

(٢) إن سقوط آدم الأول تسبَّب عن عصيان امرأة عذراء وهي حواء، كذلك مجيء المخلِّص إلى العالم عن طريق امرأة

عذراء من جنس آدم وحواء وهي مريم.

(٣) إن الوسيلة المُستَعمَلة لسقوط آدم كانت ثمرة شجرة، والمسيح قام بإصلاح هذا السقوط بواسطة الصليب الذي صُنِع من أخشاب الشجرة أيضًا.

(٤) لم يستطِع آدم الأول أن يقاوم رغبة الأكل من الشجرة الممنوعة، أما المسيح فقد قاوم الشيطان الذي جرَّبه بتجربة مشابهة على الجبل (تجربة الخبز).

(٥) لقد سقط آدم الأول بسهولة في فخ الشيطان الذي أغواه بأن يكون معادلًا لله، بينما انتصر ابن الإنسان على هذه التجربة، غير محاول لا بالقوة ولا بالمكر أن يثبت معادلته لله (في ٢: ٦ - ١١).

لقد حاول إيريناوس، بهذه العناصر الكتابية وخاصة المقتَبَسة من رسائل بولس، أن يبيِّن الفرق بين آدم الأول وآدم الأخير - أي المسيح - فهو يرى في شخص المسيح صورة الله الكاملة. فمع أن آدم قد خُلق أيضًا على صورة الله، لكن آدم الأخير هو صورة الله الحقيقية. ولقد قام المسيح، آدم الأخير، خير قيام بالدور الذي كان على آدم الأول أن يقوم به. ولقد نجح آدم الأخير على طول الخط فيما قد سقط فيه آدم الأول.

ولكن بالرغم من هذه المقارنة التي يجريها إيريناوس بين آدم الأول وآدم الأخير، والتي تبين لنا بأنه تتبَّع تعاليم الرسول بولس، فإنه يوجد اختلاف بين مفهوم بولس ومفهوم إيريناوس لمشكلة الخطية والفداء. ولقد كتب الأستاذ لودز (LODS)[1] بخصوص هذا الموضوع يقول: «يوجد اختلاف هام بين مفهوم بولس ومفهوم إيريناوس، يرجع أصله إلى مفهوم بولس للخطية، ثم الفداء، فبولس يرى أن المسيح لم يصلح غلطة آدم فقط. بل عمل ما لم يستطِع آدم أن يقوم بعمله بسبب طبيعته الجسدية وبسبب خطورة عصيانه، فهناك انفصال وفرق عظيم بين آدم ويسوع. فالفداء ليس رجوعًا إلى الوراء، إلى خليقة مجدَّدة، ولكن الفداء هو خليقة جديدة لتأسيس ملكوت الله. ولهذا السبب فالمسيح هو السابق المتفوِّق على آدم».

أما إيريناوس فيعتقد بأن الخطية هي غلطة أدبية، وأن آدم تصرف عن جهله، فغلطة آدم نتجت إذن عن جهل وعدم نضوج، فكان من الضروري أن يقوِّم هذا الجهل وتُصلح هذه الغلطة. وهنا تبدأ عملية آدم الأخير، أي إصلاح ما أفسده آدم الأول. هذا هو الفرق بين مفهوم إيريناوس ومفهوم بولس. (راجع ٢ - ١ ,٢١ ,٥ ,٤., ٢٢ - ١٠ .٢١ ,٣ ,ADV. HEAR).

ويلخِّص لنا لودز (LODS) عملية الخلاص التي قام بها السيد المسيح بحسب مفهوم إيريناوس في النقاط الثلاث الآتية: إن اتحاد الله في المسيح كان لأجل فدائنا...

(١) لأنه لو كان ذاك الذي انتصر على عدو الإنسان ليس بإنسان، لأصبح انتصاره بلا قيمة.

(٢) ولو لم يكن الله نفسه هو المانح لهذا الخلاص لأصبح هذا الخلاص مهدَّدًا وغير مضمون.

---

(١) Marchods,pp ٩٢.-٩٥.

(٣) ولو لم تتم عملية مصالحة الإنسان مع الله لظل الإنسان مائتًا.[١]

ولهذا كان من الضروري أن يكون الوسيط هو المسيح لأنه يستطيع عن طريق ارتباطه بالله أن يمثِّل الإنسان، وعن طريق ارتباطه بالإنسان يستطيع أن يمثل الله. وبهذا يستطيع أيضًا أن يجري عمل المصالحة وأن يرجع السلام والصداقة بين الاثنين. فهو الذي يستطيع أن يقود الإنسان إلى الله ثم يعرِّف الإنسان بالله.

وهنا نرى المسيح المتجسِّد في طبيعته الإلهية والبشرية يقوم بعملية الفداء والمصالحة؛ فالإله المتجسِّد هو الذي يجذب البشرية إلى الآب لكي تعرفه، وفي نفس الوقت فابن الله الذي في حضن الآب، هو الذي يعلن الله للبشرية. ولقد كتب يقول: «فيه (في المسيح) نزل الله إلى الإنسان، وهو أيضًا (المسيح) رفع الإنسان إلى الله».[٢]

وبعملية الفداء هذه نفَّذ الله قصده بالنسبة للإنسان، فالبشرية التي سقطت وأخطأت في آدم الأول، تجدَّدت الآن في آدم الأخير؛ فالمسيح هو الذي أعطى لهذه البشرية الساقطة والمبتعدة، خلاصها وهو الذي صالحها مع الله (راجع IRENÉE ADV. HAER. 3. 18, 1, 5, 14, 2.).

مما سبق يتضح جليًا أن أعمال المسيح الفدائية قد احتلت المكانة الأولى في تعاليم القديس السميرني. ولكن هذا لا يعني أنه لم يتكلم عن شخصية المسيح وجوهره. صحيح أن قديسنا اهتم كثيرًا بشرح أعمال المسيح ولكنه لا يهمل قط التكلم عن المسيح، عن جوهره وأبديته ومساواته للآب، إذ أنه من جوهر الآب، ثم عن ناسوته، وأنه إنسان كامل.

وبخصوص عقيدته في علاقة الآب بالابن أو عملية الانبثاق - أي ولادة الآب للابن - فهو يعترف بأن هذا الأمر سر عظيم ولا يستطيع أن يشرحه، ويجب قبول هذا السر بالإيمان (ADV. Haer 2.28.6) ومع ذلك فقد حاول أن يشرح ما يؤمن به فيقول: «إن الله الكائن وهو الذي ظهر عن طريق الابن الذي هو في الآب والذي فيه الآب (ADV. HAER 2, 6, 3.)». إن هذه الجملة تعبِّر عن تمسك أسقف ليون بوحدة الآب بالابن وهي وحدة ليست أدبية بل جوهرية، فإن اللوجوس كان في الله والله كان فيه. «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة لله» (يو ١: ١).

وهذه الوحدة الموجودة بين الآب والابن هي وحدة أبدية، أو بمعنى آخر إن وجود الابن موازٍ لوجود الآب؛ فالمسيح أزلي الوجود (ADV. HAER. ٤، ٢٠). وهنا يختلف إيريناوس عن بعض المعلِّمين في الشرق الذين علَّموا بأن وجود الابن لم يكن أبديًا. ولقد كانت له الشجاعة أن يعلن هذه الحقيقة التي لم يستطِع أن يعلنها القديس يوستينوس، إذ أننا نجد نوعًا من التذبذب في شرحه لأبدية الابن. فمع أنه يتكلم عنه كالعامل مع الله في الخليقة والذي وُجد قبل الخليقة، إلا أنه لا يقول صراحةً بوجود الابن الأبدي أو بالوجود الموازي لوجود الآب. أما إيريناوس فقد علَّم بوضوح لا يعتريه الشك، بأبدية الابن ووحدته مع الآب.

وبما أن معظم كتاباته كانت تهدف لمحاربة الغنوسية وتنفيذ عقيدتهم، فإنه لم يهمل أن يتكلم عن جسد يسوع، فإن

(١) انظر Lods.,pp. 92- 5 Adv. Macr. 3.18.7

(٢) انظر إيريناوس Adv. Haer. 3, 2, 6, 7, 1. 2

اتحاد المسيح بالجسد هو أولاً وقبل كل شيء اتحاد حقيقي وفعلي، وليس كما يقول الغنوسيون إن المسيح كان خيالاً. فعندما يقارن إيريناوس آدم الأول بآدم الأخير. يقول: «إن المسيح آدم الأخير كان لحماً ودماً من دمنا، كان إنساناً بكل ما تحمله الكلمة من معنى (ADV. HSER. ٥, ١٤, ٢,) فعندما تجسَّد ابن الله صار فعلاً إنساناً. كان يتألم ويفرح ويعطش ويشرب ويجوع ويأكل. وليس كما يظن بعض الغنوسيين بأن لا الآلام ولا الجوع ولا العطش ولا أية قوة أخرى طبيعية لها سلطان على المسيح، لأنه كان مجرداً من الطبيعة البشرية الخاضعة لقوى الطبيعة وتأثيرها. بل على العكس، فالمسيح «اللوجوس» صار مثلنا لكي يصيِّرنا مثله (IRENEE ADV. HEAR. ١٩, ٣) ولكن في صيرورته مثلنا لم يفقد لاهوته بل ظل هو هو نفسه المسيح الواحد». إن هذه العبارة الأخيرة ستصير عبارةً مشهورةً ومعروفةً في مجمع خلقدونية إذ أنها ستُسجَّل في قرارات هذا المجمع حوالي سبع مرات.[1] يلوم البعض القديس إيريناوس لأنه تكلم كثيراً عن الجسد واللوجوس في المسيح كما لو كان لا يوجد أي شيء آخر غيرهما.[2] ومما لا شك فيه أنه شدَّد كثيراً على وجود اللوجوس والجسد في المسيح، وذلك لأنه كان مضطراً في دفاعه ضد الغنوسيين إلى أن يشدِّد مراراً وتكراراً على هذه الحقيقة. لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال بأن معلِّم ليون ينكر وجود روح المسيح. فهو يذكر بطريقة واضحة أن للمسيح روحاً بشرية كأرواحنا (راجع إيريناوس ADV. HEAR ٣, ٢٢, ١).

رفض القديس إيريناوس كل عقيدة تؤدي إلى الفصل أو التقسيم في الله أو اللوجوس؛ فهو يرى الوحدة الكاملة والجوهرية بين الله الآب والله الابن، بين اللوجوس والجسد. ومع ذلك فإنه اضطر مراراً كثيرة إلى أن ينسب ما هو للجسد وما هو للطبيعة الإلهية للطبيعة الإلهية؛ وذلك لأن الكتاب المقدس نفسه استعمل هذا الأسلوب في التحدث عن المسيح، فإن الله الذي سكن في الجسد لم يلاشِ ما في الجسد الذي سكن فيه من صفات مختصة به. كذلك الجسد الذي كان الله فيه ساكناً لم يلاشِ هذا اللاهوت؛ فهناك أفعال وتصرفات في شخص المسيح لا يمكن أن ننسبها للجسد، كما توجد صفات وأعمال في المسيح لا يمكن نسبتها لله (راجع إيريناوس ADV. HEAR. 3, 9, 3, 12; 5, 17, 3, 21).

فمع أن إيريناوس لم يكن لاهوتيّاً خلاقاً أو مجدِّداً لأفكار جديدة، إلا أنه كان الرجل الذي استطاع أن يتمسَّك بالإيمان الصحيح الذي استلمه من الرسل. ولقد حاول في كتاباته وحياته الرعوية أن ينادي بهذا الحق الثمين وهو أن يسوع المسيح آدم الأخير قد جاء لكي ينقذ ويخلِّص ما قد هلك. لقد جاء المسيح في جسد الخطية لكي يهزم الخطية في الجسد ويحرِّر الإنسان تحريراً كاملاً من الخطية وعبوديتها. إنه جاء لخلاص البشرية كلها.

(1) A. Grillmeier,p. 146.

(2) Ibide.,p.148.

مراجع هامة

1. W. Volker. THLZ 72, 1947 (170173-).

2. A. Benoit St. Irénée. Paris 1960.

3. A. Houssiau. La Christologie de Saint Irénée. Louvain. 1955.

4. E.C. Blackman. Marcoin and his Influence. London. 1949.

5. J. Daniélou. Saint Irénée et Les Origines de la Theolgie de L›histoire.

6. D›nuger. Christ›s Role in the Universe According to S. Trenaeus. Franciscan Studies 26 (1945) 3 – 10. pp.114 – 137.

7. F. R. M. Hitchcock, Irenaeus of Lugdunum. A Study of his Teaching. Cambridge, 1914.

8. A. d›Ales. La Doctrine de la Recapitulation en St. Irénée. R. SR6 (1916) pp. 185 – 211.

9. L. Cristiani. St. Irénée, Évêque de Lyon, Paris 1927.

10. A. Verriéle. Le Plan de salut d›apres St. Irénée. RSR. 14 (1934) pp.493 – 524.

11. Eugene de Faye. Gnostiques et Gnosticisme. Etude Critiques de documents du Gnosticisme Chretien aux 11 et 111 Siecle. Bible ecole Hautes etudes Paris 2e Paris.

12. Irénée. Adversus. Haereses.

راجع ما كتبه القديس إيريناوس نفسه

الفصل السادس

يوستينوس الشهيد (SAINT JUSTIN LE MARTYR)

سنبدأ في هذا الفصل سلسلةً جديدةً من سحابة الشهود الذين كرَّسوا حياتهم وعملهم ومعرفتهم لذاك الذي قدم حياته بسخاء من أجلنا. إن هذه السلسلة من سحابة الشهود الذين سندرس حياتهم ومفهومهم لشخص المسيح يسوع لم يتمتعوا بمقابلة الرسل والتلمذة عند أقدامهم كما كان الحال مع القديس أغناطيوس، وإكليمندس الروماني، وبوليكاربوس وبابياس الهيرابولسي. ولكن هؤلاء الأشخاص قد تقابلوا مع السيد بطرق مختلفة متنوِّعة، فغيَّر حياتهم، وعندئذٍ كرسوها له.

ومن بين هؤلاء الأشخاص الذين يجب على كل دارس لعلم العقائد المسيحية أن يدرس حياتهم وأفكارهم اللاهوتية، نذكر القديس الشهيد يوستينوس.

القديس الشهيد يوستينوس SAINT JUSTIN LE MARTYR

يُعتَبَر يوستينوس من الرجال العظام الذين استخدموا أقلامهم السيَّالة ومعرفتهم الواسعة الفيَّاضة في الدفاع عن المسيحية التي اضطهدها كثيرون من الرومان ونبذها كثيرون من اليهود.

وُلد يوستينوس حوالي سنة ١٠٠ أو ١٠٥م في نابلس، وهي شكيم القديمة في فلسطين، من أبوين وثنيين من أصل يوناني. فلقد تربَّى وشب في الديانة الوثنية، على أن يوستينوس كان منذ صباه شغوفًا بالقراءة والاطلاع، مولعًا بالبحث وطلب المعرفة أينما وُجدت، ولذلك فقد بحث عن هذه المعرفة عند الرواقيين كما يقول لنا هو نفسه بأنه التحق بمدرسة رواقية،[١] ثم درس فلسفة الأكاديميين والفيثاغوريين، ولكن كل هذه الدراسات العلمية والفلسفية لم تستطِع أن تروي نفسه المتعطشة وقلبه الملتهب، كما أنها لم تستطِع أن تقنع عقله بأي حال من الأحوال الذي كان يفكر ويبحث. فإن الرواقية لم تستطِع أن تشرح له بطريقة مقنعة (ذات الله) كذلك الأفلاطونية التي كان يتمسَّك بها، لم تستطع هي أيضًا أن تجيب على كل استفهاماته العديدة. وهكذا كان يوستينوس يسبح في بحر من الفلسفة والعلم والآراء المتناقضة المختلفة دون الوصول إلى المعرفة الحقيقة.

وفي يوم من الأيام بينما كان يروِّح عن نفسه متنزهًا على شاطئ البحر، تقابل مع رجل شيخ، شرح له أن الفلسفة الأفلاطونية لا يمكنها أن تشبع قلب الإنسان ولا أن تروي نفسه المتعطشة، وأشار عليه بأن يدرس كتابات الأنبياء فهي وحدها

---

(١) انظر يوستينوس Dialog, 2- 8

التي تعلن لنا الحقيقة. ويقول يوستينوس إن الرجل قال له أشياء كثيرة أخرى، وبعد ذلك تركه وانطلق ولم يَره من بعد ذلك، ويواصل روايته قائلًا: ولكن بعد رحيله شعرت فجأة بنار تلتهم روحي ورغبة لا تُقاوم لدراسة الأنبياء وحياة أصدقاء المسيح، وفي دراستي لهذه الكتب وجدت أنها هي الفلسفة الحقيقية والصحيحة، وتمنيت من كل قلبي أن الجميع يعرفون ما عرفت.(١) ولقد قبل يوستينوس المسيح مخلّصًا وفاديًا لحياته وطلب العماد في حوالي الثلاثين من عمره. وإن كان البحث والقراءة ومقابلة هذا الشيخ قد لعبت دورًا هامًا جدًا في تغيير الشاب الوثني، فإنه يعترف أن شجاعة المسيحيين وإقدامهم على الموت بلا تردد، كانا سببًا من الأسباب الهامة التي دفعته إلى التفكر والتأمل في حياة هؤلاء ثم قبوله للمسيح.(٢)

بعد أن حصل يوستينوس على التجديد الذي يحتمل أنه قد حدث في مدينة أفسس، كرّس حياته للدفاع عن المسيحية، إلا أنه لم يترك الثوب الذي كان يرتديه عادةً فلاسفة اليونان. وبدأ يطوف البلاد كمعلّم متجوِّل إلى أن وصل إلى روما حيث فتح هناك مدرسة في عهد أنطونيوس التقي (ANTONIN LE PIEUX) (١٣٨ - ١٦١). وكان من بين تلاميذه تاتيانوس (TATIEN) الذي صار فيما بعد من المدافعين عن المسيحية.

ويحتفظ التاريخ لنا بقصة محاكمة القديس يوستينوس مع ستة أشخاص آخرين، وتستشهد هذه القصة بما سجلته المحكمة التي تكلفت بالنظر في هذه القضية. فالقضية تعرِّفنا بأن يوستينوس قد زُج به في السجن مع ستة آخرين من المسيحيين بأمر حاكم روما «جانيوس راستيكوس» (Q JUNIUS RUSTICUS) في عهد الإمبراطور مرقس أوريليوس MARC (AURELE) الفيلسوف الرواقي، وهذا هو نص الحكم الذي نطق به الحاكم: «إن القانون ينص على أن كل من لا يقدم ذبائح للآلهة، وأن كل من لا يخضع لأوامر الإمبراطور، يُضرب بالعصي وتُقطع رأسه». وبناءً على ذلك فقد نفِّذ حكم الإعدام في يوستينوس ورفقائه الستة في سنة ١٦٥ في روما.

كتاباته:

إن أسابيوس (EUSEBE) المؤرخ الكنسي المعروف يقول إن يوستينوس قد ترك عدة مؤلفات في غاية الأهمية،(٣) ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا من هذه المؤلفات الكثيرة إلا ثلاثة كتب كُتِبت في مجلد واحد وهي:

(١) دفاعان عن المسيحية ضد الوثنية.

(٢) حواره مع تريفون (TRYPHON) اليهودي.

---

(١) انظر يوستينوس Dialog. 8.

(٢) انظر يوستينوس Dialog. 2, 12, 13.

(٣) Eusèbe, **Hist. Eccl.** 4: 18. راجع بخصوص هذا الموضوع (دفاعه ٢: ٤) ثم الكتب المذكورة أدناه:

Apol. 2: 4.

W. F. Blunt, **The Apologies of Justin Martyn,**

B. L. Gildersleeve, **Apologies of Justin**, Hartyn.

Pautigny, **Les Apologies.**

١- الدفاع الأول: وجَّه القديس يوستينوس دفاعه الأول عن المسيحية إلى الإمبراطور أنطونيوس بيوس فيما بين سنتي ١٤٩، ١٦٠؛ ففي المقدمة لهذا الدفاع (الفصل ١ - ٣) يلتمس يوستينوس أن يحكم الإمبراطور بنفسه في قضايا المسيحيين؛ لأن الذين يقومون بالنظر في قضاياهم في المحاكم، لا يراعون العدل في الحكم، وفي الجزء الثاني من الدفاع (الفصل ٤ - ١٢) يلوم موقف الحكومة الرسمي إزاء المسيحيين، ثم يشرح أن كلمة مسيحي تشبه تمامًا كلمة فيلسوف، فهي لا تحمل في طياتها إدانة أو براءة، فلا يجب إذًا عقاب المسيحي لأنه مسيحي؛ فإن كانوا قد رفضوا السجود أو عبادة الآلهة الأخرى، فذلك لأنهم يخشون إلههم. كما أن عقيدتهم وإيمانهم يدفعانهم إلى عمل الخير، ولذلك فهم أفضل العناصر كمواطنين صالحين. والجزء الثالث (من الفصل ١٣ - ١٧) يحتوي على دفاع عظيم عن المسيحية والعبادة والأساس التاريخي لها.

٢- الدفاع الثاني: ويبدأ شهيدنا هذا الجزء بحادثة حدثت في روما، وهي أن حاكم روما أوربيكوس قد أمر بقطع رؤوس ثلاثة من المسيحيين، والجريمة التي دفعت الحاكم لإصدار هذا الحكم على المسيحيين الثلاثة هي أنهم مسيحيون. ويطلب يوستينوس من الرأي العام الروماني بأن يكون حَكَمًا في هذا الأمر ثم يحتج بشدة ضد تعسُّف الحكام وموقفهم من المسيحيين.

٣- المكتوب الثالث: هو الحوار الذي دار بينه وبين تريفون اليهودي وهو أقدم وثيقة حوار بين يوستينوس وتريفون في أفسس في يومين متتاليين (انظر أسابيوس: تاريخ الكنيسة ٤، ١٨، ٦). ويبدأ الشهيد في هذا الحوار بمقدمة (الفصل ٢ - ٨) يشرح فيها بالتفصيل الدراسات التي درسها ثم اهتدائه للمسيحية. وفي الفصول من ٩ إلى ٤٧ يقدم عقيدة المسيحي في العهد القديم موضحًا أن المسيحية هي الناموس الجديد والأزلي للبشرية جميعًا. والجزء الثاني من ٤٨ إلى ١٠٨ يحتوي على بعض البراهين التي حاول بها القديس تبرير عبادة المسيح كإله. والجزء الثالث من ١٠٩ - ١٤٢ يعرِّفنا فيه بأن كل الأمم التي تقبل المسيح وتؤمن به وتتبع ناموسه تحتل مكان إسرائيل فهي إسرائيل الجديد.

ولا يمكننا الجزم بأن هذا النص المسجَّل في الحوار بين يوستينوس وتريفون قد سُجِّل جملة جملة، ولكن هذا لا يعني أن هذا الحوار لم يحدث، بل قد حدث فعلًا، وتكلم عنه أسابيوس في كتاباته كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولقد كتب يوستينوس بعض المؤلفات الأخرى الكثيرة ولم يتبقَّ لنا منها إلا بعض العناوين التي ذكرها الكتاب اللاحقون في كتاباتهم، مثل كتاباته ضد ماركيون التي ذكرها إيريناوس (أسابيوس تاريخ الكنيسة ٤، ٨، ١١)، ثم خطابه ضد اليونان (أسابيوس ٥، ٤، ١٨، ٣، ٤)، وتعاليمه عن الروح (أسابيوس ٤، ١٨، ٩).

من هذا الحوار ومن كتاباته الدفاعية يمكننا أن نصل إلى النقطة المهمة والأساسية في بحثنا: ما هي عقيدة يوستينوس في شخص المسيح؟

ما هي تعاليم يوستينوس المختصة بالمسيح، ما هو مفهومه (الكرستولوجي)؟

لقد تكلم القديس في كتاباته عن الله، ثم عمل مقارنة بين مريم وحواء، وكتب أيضًا عن الملائكة والشياطين وعن الخطية الأصلية وعن العماد والعشاء الربَّاني ومواضيع أخرى. ولكن الذي يهمنا هنا هو مفهومه لشخص المسيح يسوع.

اللوجوس (اللوغوس):

إن اللوجوس في عُرف القديس يوستينوس هو القنطرة التي أُلقيت على الهاوية الفاصلة بين الله والإنسان، فدور هذه القنطرة أو اللوجوس هو الوساطة بين الله والإنسان.

فالله لا يتصل بالعالم إلا عن طريق اللوجوس، فهو الوسيط الذي عن طريقه يعلن الله ذاته ثم يقود النفوس إلى الرب.

ولقد حاول يوستينوس أن يشرح أصل اللوجوس، فهو يعتقد بأنه كان ساكنًا في الله كقوة، وهذه القوة انبثقت أو خرجت من الله قبل الخلقية. ولقد قام (اللوجوس) بعملية الخلق. ولكي يوضح عملية انبثاق اللوجوس من الآب استعمل بعض التشبيهات والصور.

إن انبثاق الابن من الآب لا يعني أن اللوجوس جرَّد الآب من لاهوته، أو نزعه عنه، فإن الإنسان يفكر في الكلمة التي ينطق بها قبل أن يخرج لفظ الكلمة من المتكلم. فالكلمة الملفوظة لا تجرِّد الإنسان الذي نطق بها من جوهره كإنسان أو تقلِّل أو تنقص كيانه ووجوده الجسماني. لأن انبثاق الابن يشبه أيضًا توليد النار من النار وهذه العملية لا تنقص من كمية أو قوة النار الوالدة ولا تجرِّدها من قوتها وكيانها (راجع حواره ٦١، ٢، ١٢٨، ٤).

وعندما يقوم الإنسان بعملٍ ما فلا ينقص هذا من تكوينه أو جوهره (بهذه الصورة: لفظ الكلمة من لافظها، توليد النار من نار، القيام بعمل). عبَّر يوستينوس عن انبثاق الابن من الآب بأنه انبثاق داخلي في الله ذاته. ويتفق أيضًا وقول الرسول يوحنا: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ٣) فلأن اللوجوس الذي انبثق من الآب قبل خلق العالم هو نفسه الذي خلق العالم (راجع الدفاع الثاني ١: ٢، حوار ٦١: ١)، والذي كان أيضًا مع الله قبل أن يخلق هذا العالم، ولقد لفظه - أخرجه - الله من ذاته خارجًا عنه لكي يقوم بعملية الخليقة والعناية (حوار ٦٢: ٤) ففي عرف قديسنا أن اللوجوس الابن هو العامل في الخلق. ولكي يؤيد فكرته هذه يقتبس (١كو ٨: ٦؛ كو ١: ٦) (انظر الدفاع الثاني ١: ٢، حوار ٦١: ٣ - ٥، ٦٢: ٤، ١٢٩: ٣). ثم يشير يوستينوس إلى استعمال الجمع في (تك ١: ٢٦، ٣: ٢٢) «نعمل الإنسان على صورتنا وكشبهنا» فالله يشرك اللوجوس في عملية الخليقة.

ومع أن الشهيد يعتقد أن اللوجوس انبثق من الله، ولكنه يؤمن أنه يتمتع بوجوده الذاتي والمتميز بالطبيعة عن الله السامي. ويعتقد البعض بأن يوستينوس كان يحارب بتمهل لكن بثبات ووضوح، بعض المسيحيين الذين كانوا يتمسكون بفكرة أغناطيوس التي ترفض فصل أي شيء عن لاهوت الآب. فهم يقولون إن قوة الله اللوجوس لا يمكن أن تُقطع ولا تُفصل عن الآب، فإنه لا يمكن قطع أو فصل نور الشمس على الأرض من الشمس التي في السماء. ففي استطاعة الله أن يبثق قوته عندما يريد وأن يحضرها مرة ثانية فيه عندما يشاء ذلك، ويجيب يوستينوس قائلًا إن اللوجوس متميز عن الآب ليس فقط في الاسم بل في العدد أيضًا (حوار ١٢٨: ٣، ٤). ولقد ظن بعض اللاهوتيين أن يوستينوس قد أضعف أبدية اللوجوس بحواره (رقم ٦٢: ٤).

وعندما تعرَّض القديس يوستينوس لشرح علاقة الآب بالابن لم يستطع أن يتجنَّب السقوط في مشكلة التابعية أو الخضوع (SUBORINATIANISME) أي تبعية الابن للآب أو خضوع الابن للآب لأن الآب أعظم وأسمى منه، فقد كتب يقول: «إن اللوجوس أصبح ابنًا إلهيًّا، ولكنه خاضع للآب (حوار ٦١). وستكون لنا الفرصة للتكلُّم عن هذه العقيدة عندما نتعرَّض لشرح أفكار أوريجانوس اللاهوتية في هذا الموضوع.

من أهم المواضيع اللاهوتية التي عالجها يوستينوس موضوع اللوجوس. وفي شرحه لهذه العقيدة يرى بعض الروابط التي تربط المسيحية بالوثنية. فلقد علَّم بأن اللوجوس لم يظهر بطريقة واضحة وشفافة إلا في المسيح وحده، ومع ذلك فإن بذوره (اللوجوس) قد انتشرت في البشرية جميعها. ولقد وُجدت هذه البذور، بذور اللوجوس في كل كائن بشري.

وبناءً على ذلك فإن اللوجوس قد أرشد وقاد ليس فقط أنبياء العهد القديم بل حتى فلاسفة الوثنيين. فكل الذين سلكوا بحسب إرشاد اللوجوس الإلهي الذي كان يعمل فيهم، هم في الحقيقة مسيحيون، فهل يمكننا أن نعتبر المفكرين الذين سلكوا بإرشاد هذا اللوجوس أمثال هيراقيلطوس والفيلسوف الرواقي ميزونيوس (دفاعه ١: ٤٦) ملحدين؟ فإن كل المبادئ الحسنة والقوانين العادلة التي علَّم بها وسنَّها الفلاسفة، كان المصدر والمرشد إليها هو اللوجوس. ومما لا شك فيه أن هذه التعاليم وهذه المبادئ التي أوحيت إلى هؤلاء الفلاسفة ناقصة وغير كاملة، لأن معرفتهم عن اللوجوس كانت جزئية وناقصة وغير كاملة. والمسيحي وحده هو الذي يملك هذه المعرفة الكاملة التي تأتي بطريقة مباشرة من اللوجوس الذي أظهر نفسه لهم (دفاعه ٢: ١٣، ٢: ١٠، دفاعه ١: ٤٤) فلا معرفة كاملة إذًا ولا إدراك تام للمبادئ السامية إلا في المسيح، ويلخِّص أدولف هرنك عقيدة يوستينوس الكرستولوجية في هذا القول: إن المسيح هو اللوجوس والناموس.[1]

ومع أن يوستينوس يُعتَبَر من لاهوتيي القرن الثاني العظام، ومن الرجال الأتقياء المتعمقين في الدرس والبحث والمعرفة، ومن الذين أيضًا بدرسهم وتعمقهم استطاعوا أن يدافعوا بكتاباتهم وعظاتهم وحياتهم عن الحق الإلهي، إلا أن بعض تعاليمه تعرَّضت للنقد؛ لأنه بالرغم من دراساته العميقة ومعرفته الواسعة للكتاب المقدس، فإن التعاليم الأفلاطونية تركت تأثيرًا عميقًا عليه لم يكن من السهل محوه. بل إن الدارس المدقِّق لكتاباته الدفاعية والحوار يشتَمُّ في بعض الأحيان رائحة وثنية في تعليمه عن اللوجوس وطريقة الانبثاق، فإن خروج اللوجوس من الآب يشبه إلى حد ما خروج اللوجوس (بعض الأرواح) من الإله العظيم في المفهوم الوثني الغنوسي، كما أن يوستينوس يعتقد بأن الابن أدنى من الآب، وأن الروح القدس أقل من الابن، فقد كتب يقول: «إن الله اللوجوس هو إله وسيد أقل من الله الخالق الكون، وعندما يتكلم عن الثالوث يضع الله السامي في المرتبة الأولى والمسيح في المرتبة الثانية والروح القدس في المرتبة الثالثة» (دفاع ١: ١٣، ٣: ٤).

مما لا شك فيه أن الدراسات الفلسفية الكثيرة التي درسها القديس يوستينوس قبل تجديده، تركت في تعاليمه بعض الآثار الوثنية، على أن هذا لا يقلل من عظمة الرجل الذي عاش ومات لأجل المسيح.

(1) A. Grillmeier, p. 131.

الفصل السابع

تاتيانوس TATIEN

قبل أن نختم هذه الحقبة في تاريخ العقائد المسيحية ونبدأ حقبةً أخرى، يحسن بنا أن نذكر بعض الأسماء التي لعب أصحابها دورًا هامًّا في تاريخ العقيدة المسيحية والدفاع عنها؛ فلقد سبق أن رأينا تاريخ حياة وتعاليم كلٍّ من أغناطيوس الأنطاكي وإكليمندس الروماني وبوليكاربوس وإيريناوس ثم يوستينوس، وكيف قَبِل هؤلاء المسيح كمخلِّصٍ وسيدٍ لحياتهم. ثم عرفنا أيضًا أفكارهم وتعاليمهم بخصوص المسيح. ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء للتذكير فقط ودون الدخول في التفصيلات الدقيقة الخاصة بتاريخ حياتهم وعقائدهم كلاً من تاتيانوس السوري وثيوفيلوس الأنطاكي وميليتون الساردسي، إذ أن هؤلاء المعلِّمين وآخرين أيضًا قد عاشوا وعلَّموا في القرن الثاني.

١ - تاتيانوس السوري (TATIEN. LE SYRIEN)

وُلد تاتيانوس في سنة ١١٠ في سوريا من عائلة وثنية، ولقد كان شغوفًا بالعلم جادًّا في البحث عنه. ولهذا الغرض فقد ترك بدوره سوريا واتجه إلى بلاد اليونان لكي يدرس أفكارهم وفلسفتهم، وبعد أن أقام في اليونان فترة من الزمان، انطلق إلى روما لكي يستقي من علمهم ويروي نفسه المتعطشة من فلسفتهم ودياناتهم. ولكنه بعد أن درس هذه الديانات والفلسفات خاب ظنه ولم يستطِع أن يحصل على السلام الذي كان يناشده ويبحث عنه لكي يروي به نفسه. وفي روما تقابل مع القديس يوستينوس فتتلمذ على يديه، ولقد وصل النور إلى تاتيانوس عن طريق الدراسة والبحث العميق والصلاة، وكان في فترة البحث والدراسة يتردد على المدرسة التي كان يدرس فيها القديس يوستينوس.

وبالرغم من أن تاتيانوس هو تلميذ القديس يوستينوس ويُحتمل كثيرًا أنه قد تجدَّد على يديه، إلا أننا نجد فرقًا كبيرًا بين الاثنين، ليس فقط في التعليم والعقيدة بل في الذوق والمبادئ. إن يوستينوس كان يبحث دائمًا عن الحقيقة ليس فقط في الكتب المقدسة بل أيضًا في كتابات المفكرين الآخرين. أما تلميذه السوري فقد ضرب عرض الحائط بكل العلوم والفلسفات الأخرى غير المسيحية، فإنه يرفض رفضًا باتًّا كل الفلسفات اليونانية. لقد أظهر يوستينوس في دفاعه عن المسيحية احترامًا عظيمًا وتقديرًا كبيرًا للفلسفات غير المسيحية، بينما كان تاتيانوس ضد كل ما يمت بصلة للحضارة اليونانية وفنها وعلمها واللغة نفسها.

ولقد أسس تاتيانوس مذهب جماعة المتنعين، فلقد امتنعوا عن الزواج لاعتباره زنى في نظرهم، وامتنعوا عن أكل اللحوم

بأي شكل كان، وامتنعوا عن شرب الخمر حتى في العشاء الربّاني ولذلك استعملوا الماء بدلًا من النبيذ للأفخارستيا.[1]

كتاباته:

لم يبقَ لنا من كتاباته إلا كتابان:

الكتاب الأول:

يدعى «محاضرة لليونان» (LES DISCOURS AUX GRECS) ولا نعلم بالضبط تاريخ كتابة هذا الكتاب، ويحتمل أنه كُتب خارج روما بعد موت يوستينوس ولا نعلم فيما إذا كان كتبه قبل تجديده أم بعده، لقد ظن بعض العلماء أن هذا الكتاب لا يهدف إلى الدفاع عن المسيحية ولا إلى تبرير موقف الكاتب لتجديده، بل إنه يحث فيه الجماهير على الالتحاق بمدرسته. وفيه يعطي صورة سوداء للفلسفة والدين وتصرفات اليونان وسلوكهم التي يعتبرها الكاتب بلا معنى وغير أخلاقية وبلا قيمة.

والكتاب يحتوي على أربعة أجزاء يحتوي كل جزء على عدة فصول. ويتكلم عن الكون في المفهوم المسيحي، عن اللوجوس وعلاقته بالآب، خلق الإنسان والقيامة والدينونة الأخيرة، خلق الملائكة، ثم يتكلم عن الحرية وسقوط الملائكة، خطية آدم وحواء، الملائكة الأشرار والشياطين.[2]

الكتاب الثاني:

يدعى الدياطسرون (LE DIATESSARON) ويمكن أن نسميه «ما تحتويه الأربعة». أما بقية ما كتبه تاتيانوس فقد ضاع. ولقد ذكر الكاتب في دفاعه ثلاثة كتب من هذه الكتب الضائعة، كما أن بعض الكتاب ذكروا بعضًا من فصول كتب أخرى قد ضاعت أيضًا.

استعار تاتيانوس بعض الأفكار التي علّم بها معلّمه يوستينوس مثل اللوجوس الذي يشبه الكلمة التي تشرح الفكرة، والنار الخارجة من نار، اللوجوس هو العامل في الخليقة، أي الذي خلق به العالم. ولكن بالرغم من أن اللاهوتي السوري قد استعمل بعض العبارات التي استعملها اللاهوتي الفلسطيني، إلا أن تاتيانوس قد شط في تعليمه إلى أبعد من معلّمه، فقد آمن مثل يوستينوس بأن اللوجوس كان عاملًا في الخليقة، «فهو العمل الأول للآب» أو العمل البكر للآب. إن هذه الجملة غامضة وتهدف في معناها إلى أن اللوجوس وُلد قبل الأزمنة وليس قبل كل الأزمنة، وهذا يعني أنه أول كل المخلوقات، وفي هذا الفصل يعطي تاتيانوس تاريخ اللوجوس في مرحلتين:

في المرحلة الأولى كان اللوجوس مختفيًا في الله؛ فقبل الخليقة كان لا يمكن تمييزه عن الله.

(١) لمعرفة كيف كان تاتيانوس يبحث عن الحق في الديانات الأخرى ولم يجده، راجع د. أسد رستم ص ٧٢ الجزء الأول.

I. Quaston, pp. 249- 250

(2) Quaston,pp. 51- 54.

وفي المرحلة الثانية يبدأ بالخليقة عندما يخرج اللوجوس عاملاً، وبعبوره في هذه المرحلة يصبح من الآب، وهنا يبدأ عمله في تنظيم المادة المختلطة في العالم.

لقد سبق أن أشرنا إلى عدم وضوح يوستينوس بخصوص عقيدته في أزلية اللوجوس، فلم يتكلم بوضوح عن أزليته، بل ترك هذا الأمر غامضًا، أما تاتيانوس فمع أنه يتكلم عن هذا الموضوع بكلمات غامضة وغير واضحة مائة في المائة، إلا أنه يستشف من عباراته الغامضة بأن اللوجوس وُلد قبل الأزمنة وليس قبل كل الأزمنة. أو بعبارة أخرى يمكننا أن نفسر فكر تاتيانوس بأن اللوجوس كان غير موجود في زمن ما، في زمن بعيد جدًا في الأزل.

وهنا نلاحظ ظهور التربة التي ستنمو فيها، فيما بعد، أنواع كثيرة من الهرطقات المختصة بشخص المسيح وعدم أزليته.

مراجع هامة

1-A Puech, Recherches sur le Discours aux Grecs de Tatien, Paris 1903. 107-158.

2-J. Le Blanc, Le logos de Tatien, Athenagose et Theophile: Annales de Philosophie Chretienne 149. (1905) 634-639.

3-R. M. Grant, Patristica. Vc3 (1949) 225-229, idem, the Date of Tatian's Oration: HTHR. 46. (1953) 99-101. The Heresy of Tatian JTSTN. S. 5 (1954) 62-68.

4-J. R. Harris, The Diatessaron of Tatian. A Preliminary Study, London 1890.

5-M. Maher. Recent Evidence for the four Gospels: Being the Diatessaron of Tatian (circa 160)... Edinburgh 1894.

انظر Quasten فهو يعطي قائمة طويلة ومفيدة بخصوص هذا الموضوع.

الفصل الثامن

أثيناغوراس وثيوفيلوس

عندما نتكلم عن المدافعين (Apologistes) الذين اعتنقوا المسيحية ودافعوا عنها بكتاباتهم وحياتهم في نهاية القرن الثاني، لا يمكن أن ننسى شخصيات أخرى كثيرة غير التي تعرَّفنا عليها في الصفحات السابقة، وكيف يمكننا أن ننسى أثيناغوراس الأثيني (Athenagone D'athenes) الذي كان معاصرًا لتاتيانوس. والذي كان يُعتَبَر من أصحاب الأقلام السيَّالة والأسلوب السلس الرقيق. وكان أثيناغوراس قريبًا في تفكيره وأسلوبه ومعتقداته من يوستينوس، بعيدًا في هذه أيضًا من تاتيانوس، فهو أبلغ المسيحيين المدافعين الأولين.

كان يحب الفلسفة والشعر، وكتاباته مليئة بالاقتباسات الشعرية والفلسفية. وكل ما نأسف له هو أننا لا نعرف له إلا القليل عن حياته، ولقد كتب أثيناغوراس ما يُدعَى بـ (التماس لأجل المسيحيين). (La Supplique Au Suget Des Chresstiens) ولقد وجَّه هذا الالتماس إلى الإمبراطورين مرقس أوريليس (الأب) وليسيوساوريليوس سنة ١٧٦ (الابن). ويحتوي هذا الكتاب على عدة أجزاء:

المقدمة (من الفصل ١-٣) وفيها يشرح الكاتب هدف رسالته، وهو أن المسيحيين يُضطهدون ويُعذبون بطريقة غير إنسانية وغير عادلة. ويلتمس أن تُفحص قضايا المسيحيين بدقة وعدل. ويجب ألا يكونوا فيما بعد ضحية للواشين بهم. وفي الفصل ٤-٣٦ حاول الكاتب أن ينفي التهم الثلاث التي أراد بها الوثنيون تشويه المسيحية وهي:

(١) الزندقة أو الكفر. (٢) أكل لحوم البشر. (٣) عقدة أوديب.

وفي الفصل ٣٦ يعالج الكاتب مشكلة القيامة، ويهمنا أن نعرف أن الكاتب يتكلم عن الإنسان المكوَّن من روح وجسد وموت هذين العنصرين اللذين سوف يتحدان في القيامة.

ولقد تكلم أثيناغوراس في كتابه عن: (١) وحدة الله (كتابه الالتماس الفصل ٨)، (٢) الروح القدس (التماس ١٠)، (٣) الثالوث (الالتماس ١٠)، (٤) الملائكة (الالتماس ١٠)، (٥) الوحي (التماس ٧)، (٦) العزوبية (التماس ٣٣)، (٧) الزواج (التماس ٣٣)، (٨) الزواج لا يمكن فصله أو إزالته حتى بالموت (التماس ٣٣).

ما هو مفهوم أثيناغوراس الكرستولوجي؟

إن الكاتب اليوناني يتبع إلى حدٍّ ما أفكار القديس يوستينوس فيما يختص بالدور الذي قام به اللوجوس في الخليقة. ويقتبس كسابقيه (أم ٨: ٢٢-٢٩) لكي يثبت أن اللوجوس كان يعمل هو أيضًا خالقًا أثناء الخليقة.

ويعتقد الأستاذ لودز (Lods) بأن الفصل العاشر من كتاب أثيناغوراس يحتوي على تيارين مزدوجين:

١- إن استخدام الحكمة، الابن المذكور (أم ٨: ٢٢) كمنجز لأعماله في الخليقة.

٢- عندما ندرس هذا الفصل (Sup.10) الذي يتكلم عن الحكمة أو الابن نشعر كما لو كان أثيناغوراس يتكلم عن صفة من صفات الله الآب، فإن الله السامي كان من الأبد عاقلًا، ذكيًا، قويًا. فالابن هو ذكاء الآب، حكمة الآب (راجع Sup.10.12.24) فقد ظهر كالطاقة العاملة أو الفكرة الخالقة، فكان أثيناغوراس يرى في اللوجوس ليس شخصًا بل صفة من صفات الله.[1]

أما بونيفاس فيعتقد أن أثيناغوراس حاول بتعليمه أن يزيل الحاجز الذي أقامه أتباع يوستينوس بتعليمه أن اللوجوس هو فكرة إلهية وأبدية، الكلمة في وقت الخليقة ولأجلها. فإن أثيناغوراس يعتقد بأن الحكمة الذي يفهم، والإرادة، هو أيضًا الطاقة التي تنفِّذ (Sup. 10) وأن خلق العالم ما هو إلا نتيجة هذا الفكر وهذا النشاط الإلهي. ولقد ظل اللوجوس بعد الخليقة ما كان عليه قبلها، أي أنه الفكر والنشاط والطاقة الإلهية الذي يحكم العالم ويرشد البشر.

ولا شك أن هذه النظرية تعرض شخصية اللوجوس للاختلاط بل للتلاشي في الله، وهي انزلاق نحو السبلينية[2] التي سنتكلم عنها فيما بعد.

وبما أننا نتكلم عن عقيدة بعض المدافعين وإيمانهم في شخص المسيح في القرن الثاني، فلا يمكننا أن ننسى:

ثيوفيلوس الأنطاكي:

لا نعرف الكثير عن حياته ولا عن تجديده، غير إن أسابيوس المؤرخ الكنسي الذي بدأ في كتابة تاريخ الكنيسة في بداية القرن الرابع، يعرِّفنا أن ثيوفيلوس كان الأسقف السادس لكنيسة أنطاكية (Eusèbe. Hist . Eccl. 4.20) ومن كتابات الأسقف الأنطاكي، نعرف أنه وُلد بالقرب من الفرات من والدين وثنيين.[3] وكانت ثقافته يونانية وثنية، وبعد الدراسة الطويلة بالكتب المقدسة والتأمل العميق، تجدَّد. ولقد نُصِّب أسقفًا على مدينة أنطاكية في عهد مرقس أورليوس، في النصف الأخير من القرن الثاني.

ويحتمل أن ثيوفيلوس توفي في ١٧ مارس ١٨٠م.

---

(1) Bonifas.pp. 287- 288.

(2) Lods.p. 36.

(3) Quaston.p. 267.

كتاباته:

لم تصلنا من كتابات ساردس أسقف كرسي أنطاكية إلا ثلاثة كتب هي التي تُسمَّى (ضد أوتوليكوم) (AD AUTOLYCUM) ويُحتمل أن هذه الكتب قد كُتبت بعد سنة ١٨٠. إذ أن الكتاب الثالث يحتوي على تاريخ العالم وينتهي بموت الإمبراطور مرقس أوروليوس الذي مات في ١٧ مارس ١٨٠ كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ويدافع الأسقف عن المسيحية وإيمانها في ثلاثة كتب، كتبها ردًّا على اعتراضات صديقه الوثني أوتوليكوس (AUTOLYCUS).

وفي الكتاب الأول يتكلم الكاتب عن جوهر الله الذي لا نراه إلا بعين الروح. كما أنه يتكلم في نفس الكتاب عن الوثنية، ثم يشرح الفرق بين الإكرام الذي نقدمه للإمبراطور والعبادة التي نقدمها لله (كتابه الأول ١: ٢) ثم يتكلم عن القيامة (١: ١٤). وفي كتابه الثاني يتكلم ثيوفيلوس عن تعاليم الأنبياء الذين تنبأوا بوحي من الروح القدس وعن غباوة الديانة الوثنية وشعرائها. أما الكتاب الثالث فهو يقدم لنا سمو وارتفاع الديانة المسيحية على الديانات الأخرى من الناحيتين الأدبية والأخلاقية.

ولقد كتب أسقف انطاكية كتبًا أخرى ضاعت. ويذكر أسابيوس من هذه الكتب المفقودة:

كتابًا ضد هرطقة هرموجون (Hermogne)، وكتابًا ضد هرطقة ماركيون (Marcion) وعدة كتب تعليمية وشرح إنجيل يوحنا والأمثال (انظر أسابيوس ٤: ٢٤) كل هذه المؤلفات ضاعت ولم يبقَ منها إلا الكتب الثلاثة التي أشرنا إليها.

تعاليم ثيوفيلوس الخاصة بشخص المسيح:

جدير بالذكر أن أول شخص استعمل كلمة الثالوث (TRIAS) في تاريخ العقيدة المسيحية هو أسقف أنطاكية. ولقد استعمل هذا الاصطلاح في صيغة غريبة [1] هي (ثالوث الله)، كما أنه يرى في الأيام الثلاثة السابقة لخلق الشمس إشارة إلى الثالوث.

أما بخصوص تعاليمه الكرستولوجية، فان كاستين (Quasten) يعتقد أن ثيوفيلوس هو أول كاتب ومُدافع من الكُتّاب المسيحيين الذي ميَّز بين اللوجوس في الداخل (Logos Interieur Ou Gammenent) اللوجوس في الخارج أو منطوقًا (Logosemis Ou Profere) [2] وعندما نرجع إلى كتابات ثيوفيلوس فإننا نجده يحاول أن يشرح أن اللوجوس أو الكلمة كان في الله، في حضن الله، وهذا ما يسميه بالكلمة في الداخل أي أن اللوجوس (الكلمة) كان في الله، في داخل الله ولكن عندما نطق الله هذه الكلمة، هذا اللوجوس، خارجًا عنه فهو الكلمة المنطوق أو الخارج من الله (انظر كتابه ٢: ١٠)[3] وثيوفيلوس يعتقد أن هذا اللوجوس المنطوق هو ذاك الذي كان يتحدث مع آدم في الجنة، وهو أيضًا الذي كان يتشاور مع الله (انظر كتاب ٢: ٢٢).

---

(1) Lods,p. 36.

(٢)انظر المراجع المشار إليها هنا G. Bardy, **Introd. Athenagore**, Sc.p, 56.

(3) G. Bardy,(Introd. **Athenagore** Sc., 1943 pp. 52- 6.

وهنا نتساءل: ألا تحمل هذه النظرية ونظرية الكلمة في داخل الله والكلمة منطوقًا خارج الله خطرًا يهدد أبدية اللوجوس؟

إن ثيوفيلوس اتبع في بقية تعاليمه نفس الخط الذي اتبعه المؤلفون الآخرون أمثال يوستينوس وأثيناغوراس، عندما يتكلم عن طبيعة اللوجوس، فهو يقتبس (أمثال ٨: ٢٧-٢٩) لكي يثبت الحكمة أو الابن وُلد للاشتراك في عمل الخليقة.

كما يُلاحظ في تعاليم ثيوفيلوس الخاصة بالمسيح نوعًا من التبعية أو الثانوية (عقيدة أن الابن أقل من الآب أو تابع له). ومع ذلك فقد علَّم بأن عملية الكلمة المنطوق أو اللوجوس لم يفرغ نفسه أو يخلي نفسه من اللاهوت عندما صار كلمة منطوقًا خارجًا عن الله (كتاب ٢: ٢٢).[1]

(١) Théophile (Introd. G. Bardy, ١٩٤٨, pp. ٤٠- ٤٣.

الفصل التاسع

ميلتون الساردسي

وبما أننا في مجرى الحديث عن المدافعين الذين دافعوا بأقلامهم وحياتهم عن المسيحية وعن إيمانهم بالمسيح، فلا يمكننا أن نغفل ميلتون الساردسي (MELITON DE SARDES).

كان ميلتون أسقفًا لكنيسة ساردس التي ذُكرت في سفر الرؤيا: «واكتب إلى ملاك الكنيسة التي في ساردس» (رؤ ٣: ١). ولقد كان واحدًا من الأساقفة المدافعين في القرن الثاني. وهذا واضح من الخطاب الذي كتبه أسقف أفسس بوليكاربوس إلى البابا فيكتور (حوالي ١٨٩- ١٩٩م) واصفًا فيه نجوم آسيا اللامعة والأبطال العظام في الإيمان الذين رقدوا في الرب منتظرين القيامة، ومنهم ميلتون الأعزب الذي كان يحيا كليًّا وجزئيًّا في الروح وللرب (راجع EUSEBE HIST.. ECCL.. 5. 24. 5)

خارجًا عن هذه الشهادة التي سجلها لنا المؤرخ الكنسي أوسابيوس، لا نجد أية وثائق تاريخية تتحدث عن هذا الرجل وعن حياته. وإن كنا لا نعرف إلا القليل والقليل جدًا عن حياته، إلا أنه يبدو أن أسقف ساردس قد كتب كثيرًا، وللأسف الشديد ضاع معظم ما كتبه ميلتون، ولكن لحسن الحظ، قد اقتبس من كتاباته بعض الكُتّاب المتأخرين.

في عام ١٧٠ قدم دفاعًا عن المسيحيين إلى الإمبراطور مرقس أورليوس، ولم يتبقَّ لنا من هذا الدفاع إلا بعض الاقتباسات التي اقتبسها أوسابيوس، والخاصة بالعلاقة التي يجب أن تكون بين الكنيسة والدولة. فهو يعتبر من أوائل المدافعين المسيحيين الذين نادوا بضرورة التعاون والترابط بين الكنيسة والإمبراطورية (EUSEBE. HIST. ECCL. 4. 26. 7-8).

ولقد اكتشف بونر (C. BONNER) عظة لميلتون[1] ألقاها الواعظ بمناسبة أسبوع الآلام. والكلمات الأولى في هذه العظة، توحي لنا بأنها أُلقيت بعد قراءة فصل من العهد القديم، فهي عبارة عن تفسير قصة خروج الإسرائيليين من مصر. ويقارن الواعظ عملية ذبح خروف الفصح الذي نحره الإسرائيليون ووضعوا دمه على بيوتهم، بموت حمل الله الذي رفع خطية العالم، فالمسيح بموته أعطى الخلاص للمسيحيين كما أن موت خروف الفصح كان علامة على نجاة الإسرائيليين من الغضب والهلاك. ومع أن العظة مركَّزة على عمل المسيح الفدائي والخلاص (SOTERIOLOGIE) إلا أن الواعظ يتكلم أيضًا عن الصفات

(١) لقد ظن بعض العلماء أن هذه العظة لا تمت بصلة الى ميلتون. ب. نوتن (P.Nautin) لا يتفق مع بونر (Bonner) على صحة نسب هذه العظة كما أن بترسون (E. Peterson) يرجع تاريخ تأليفها إلى القرن الثالث. وتوجد بعض الاقتباسات من هذه العظة في السريانية والقبطية (راجع Quasten, pp. ٢٧٤, ٢٧٥).

الأخرى في السيد. فإن فكرة لاهوت المسيح ووجوده السابق لكل وجود تسيطر على تعاليم ميلتون، وفي توكيده الشديد على لاهوت وأزلية المسيح، لا ينسى ناسوته فهو يعترف بأنه وُلد من عذراء وصار إنسانًا حقيقيًا مثل كل إنسان. والاقتباس الآتي يبين لنا مفهومه المختص بالمسيح: «لأنه وُلد كابن وسلك كحَمَل وذبح كشاة ودُفن كإنسان وقام من الأموات كإله فهو إله وإنسان بالطبيعة. فهو آب لأنه قد ولد وهو ابن لأنه مولود، وهو كشاة لأنه ذُبح وتألم ودُفن لأنه إنسان، وقام لأنه الله. هذا هو يسوع المسيح الذي له المجد في كل العصور» هذا النص يبيِّن عقيدة ميلتون في المسيح بأنه إله وإنسان ولكن البعض اتهم كاتب هذا النص بالمودالزم (MODALISME)[1]، فإن الكاتب يتكلم عن نفس الشخص في هذا الفصل كما لو كان هو نفسه الآب والابن، ثم الشاة التي ذُبحت. ولكن الدارس لكل العظة والاقتباسات الأخرى التي اقتبسها بعض الكتَّاب من النصوص التي ضاعت يتضح له بأن ميلتون يميِّز بين الآب وبين الابن.[2] ولقد أعطى كاتب هذه العظة الألقاب الآتية للمسيح: الابن، المسيح، السيد، الله، ثم مرة واحدة «اللوجوس»، ثم إنسان، الحمل، شاة.

ولكن يشرح إيمانه في أزلية المسيح ووجوده قبل كل الأشياء كتب يقول: هو (المسيح) بكر الله، وُلد قبل بزوغ نجمة الصبح فهو الذي أمر بأن يشرق النور وأن يطلع النهار، وهو الذي فصل الظلام عن النور، وهو الذي علق الأرض واضعًا أساساتها الأولى. وهو الذي نظم العالم.[3]

وكما سبق القول إن ميلتون يرى في المسيح المخلِّص الذي يخلِّص شعبه من خطاياهم وينقذهم من عبودية الشيطان ويحررهم من سلطة الخطية وسلطانها، كما فعل يهوه بشعب إسرائيل، فقد أنقذهم من أرض العبودية وحرَّرهم من سلطان فرعون، وكما أن علامة الدم على بيوت الإسرائيليين كانت دليلًا على نجاتهم، فإن أرواحنا قد خُتمت بعلامة الدم، علامة لخلاصنا، والمسيح فصحنا الجديد هو الذي قدم نفسه لكي يفدي شعبه ويخلِّصهم من خطاياهم.[4]

ولقد رفض ميلتون في عظته تعاليم الغنوسيين كما رفضها الآباء المدافعون، فهو يؤكد بأن المسيح صار فعلًا إنسانًا آخذًا جسدًا حقيقيًا، فهو يقول: «فهو (المسيح) الذي صار جسدًا في «بطن» العذراء والذي لم تُكسر عظامه على الخشبة» (QUASTEN 276).

ولقد أكد بشدة على ناسوت المسيح ولاهوته. ومع أن كلمة ناسوت أو طبيعة في هذه الحقبة من الزمن كانت لا تحمل نفس المعنى الذي سوف تحمله في القرون الثالث والرابع والخامس، إلا أنها ترددت كثيرًا في عظة ميلتون. ولذلك فإن هذه العظة تعتبر بالنسبة لمن يدرس تاريخ الفكر المسيحي في غاية الأهمية إذ ثبتت صحة نسبها إلى ميلتون في نهاية القرن الثاني.

---

(١) سندرس هذه المشكلة في الفصول القادمة (الآب ظهر في العهد القديم كآب وهو نفسه الذي ظهر في يسوع المسيح كابن وهو الذي ظهر كروح قدس، لا يوجد إذًا ثلاثة أقانيم بل ثلاثة طرق مختلفة للظهور).

(2) J. Liebaert.pp. 63- 65.

(3) Quasten.p. 276.

(4) Quasten.p. 277.

كتاباته الأخرى:

بخلاف هذه العظة التي اكتشفت حديثًا والتي يتكلم فيها عن المسيح وعن الخطية ثم الروح، والكنيسة، والدولة، فقد كتب بعض الكتب الدفاعية التي ضاعت، ثم كتب ١، ٢ - عن الفصح (كُتبا حوالي سنة ١٦٦-١٦٧). ٣- كتاب عن حياة المسيحية والأنبياء. ٤- عن الكنيسة. ٥- يوم الرب. ٦- إيمان الإنسان. ٧- الخليقة. ٨- طاعة الإيمان. ٩- الحواس. ١٠- الروح والجسد. ١١- كرم الضيافة. ١٢- المعمودية. ١٣- الحقيقة. ١٤- الإيمان وميلاد المسيح. ١٥- النبوة. ١٦- المفتاح. ١٧- الشيطان. ١٨- رؤية القديس يوحنا. ١٩- الله المتجسِّد. ٢٠- تجسُّد المسيح. ٢١- ستة كتب عن الناموس والأنبياء. ولقد احتفظ أسابيوس بمقدمة هذا المجلد (EUSEBE HIST. ECCL. 4, 26, 13-14).

مراجع هامة

١. انظر كتاب Quasten فهو يعطي قائمة ببعض المراجع المهمة.

2. C. Bonner, The Homily on the Passion. by Melito Bishop of Sardes, London, Philadelphia 1940.

3. M. Testuz. Melton de Sardes. Homelie sur La Paue.

4. H. Chadwick, A Latine Epitome of Melito's Homily on the Pascha. JTHS NS2 (1960) 7682-.

5. P. Nautin. Le Dossier d'Hippolyte et de Meliton dans les florileges dogmatique et les Historiens Moderns: Patristica I Paris. 1953, 5356-.

٦. انظر كتاب Grillmeier وهو يعطي أيضًا بعض المراجع الهامة عن ميلتون. ص ص ١٣٦- ١٤٠.

الجزء الرابع

آباء الكنيسة

والهراطقة في القرن الثالث

الفصل الأول

الغنوسية والماركيونية

رأينا في الصفحات السابقة جماعة المدافعين الذين حاولوا أن يدافعوا عن الإيمان المسيحي بأقلامهم وحياتهم. ورأينا أيضًا بعض معتقدات هؤلاء الآباء والقادة في شخص المسيح؛ إذ أن كلًّا منهم حاول أن يشرح مفهومه وعقيدته في شخص يسوع المسيح، لجماعة اليهود أولاً ثم لجماعة الوثنيين ثانيًا. وكما سبق أن قلنا إن الكنيسة منذ نشأتها كانت مهدَّدة بخطرين عظيمين: الخطر الأول: اليهود الذين كانوا يرفضون كل عقيدة توحي من الداخل أو الخارج بعدم وحدة الله، ولقد ظهرت المسيحية في بادئ الأمر لليهود غير المتعمِّقين، كبدعة عن وحدة الله؛ إذ أنها تعطي لقب «الله» للمسيح. أما الخطر الثاني الذي كان يتهدَّد المسيحية وعقيدتها في شخص المسيح فهو اعتبار الوثنيين لشخص المسيح كإلهٍ ضمن الآلهة الكثيرة العديدة، وبذلك يصبح المسيح بالنسبة لهؤلاء الوثنيين ليس الله السامي العظيم والمحب الذي نزل إلينا وأصبح واحدًا منا، بل إلهًا أو واحدًا من الإلهة.

ولهذا السبب، هب الآباء الرسوليون يدافعون بشدة عن لاهوت وناسوت المسيح، فكتب بعضهم لليهود لشرح علاقة المسيح بالعهد القديم وكيف أن النبوات كانت تشير وتتنبأ عن المسيح الذي جاء وحمل خطايانا وأثقالنا. والبعض الآخر كتب للأمميين والفلاسفة مبينًا لهم أن اللوجوس الحقيقي الذي يدير هذا الكون ويسيطر عليه هو شخص المسيح يسوع الذي صار جسدًا وحل بيننا ورأيناه ولمسناه.

وعندما شُنَّت الاضطهادات المريرة ضد المسيحيين، قام بعض المدافعين بتقديم الالتماسات بل الاحتجاجات ضد الحكام الذين كانوا يضطهدون المسيحيين ليس لأية جريمة ارتكبوها، غير كونهم مسيحيين.

كانت الكنيسة في القرنين الأول والثاني تشبه سفينةً صغيرةً في محيط كبير هائج مضطرب، تلطم أمواجه العالية القوية بشدة ولا رحمة هذه السفينة الصغيرة، وكانت أشد هذه الأمواج خطرًا وعنفًا على حياة الكنيسة وعقيدتها، هي أمواج التعاليم الضالة التي بدأت منذ القرن الأول تهدد الكنيسة بلطمات عنيفة وقوية.

ونحاول الآن أن نسرد بعض هذه التعاليم الضالة التي تعرَّضت لها الكنيسة في القرنين الأولين:

١ – الغنوسية:

في الحديث عن مفهوم الرسول يوحنا لعقيدة اللوجوس، تكلَّمنا عن جماعة الغنوسيين وكيف أنهم رفضوا عقيدة مجيء المسيح في جسدٍ بشري لأن الجسد مادةٌ وكل ما هو مادة هو شر (انظر الفصل الثالث من الجزء الثاني من هذا الكتاب)،

ولذلك لا نريد أن نكرر ما سبق أن قلناه بخصوص جماعة الغنوسيين. ولكن الذي يضطرنا للرجوع إلى الحديث عن الغنوسيين، هو استمرار وجودهم وقوة نفوذهم وانتشار تعاليمهم ليس فقط في العالم، بل في الكنيسة نفسها، وأصبحت تعاليمهم خطرًا ليس على العالم بل على الكنيسة؛ إذ أن بعضًا من أعضاء الكنيسة المسيحية قبلوا التعاليم الغنوسية ونادوا بها، وكانت التربة في الكنيسة مهيَّأةً تمامًا لنمو هذه العقيدة فيها؛ لأن معظم أعضاء الكنيسة المسيحية الأولى سواء من اليونان أو الرومان، كانوا مثقفين بالثقافة اليونانية ومتأثرين بها، وأي يوناني مثقف بالثقافة اليونانية كان لا يقبل فكرة أن الله خلق المادة. فالمادة هي سجن للروح، ولا اتصال لله بالمادة. والفيلسوف اليوناني سلس (CELSE) يظن أنه لا يمكن أن يتصل الله بالمادة ويأمرها كما يعتقد المسيحيون واليهود (C. CEB. 6 – 60, 61). فالمادة كانت تُعتَبَر شرًّا. ولهذا السبب، رفض كثيرون من الوثنيين الغنوسيين عقيدة أن الله السامي العظيم خلق هذا العالم وأن المسيح أخذ جسدًا.

وضد هذه التيارات الوثنية، أعلنت الكنيسة بوضوح وصراحة إيمانها في الله الخالق، الذي خلق كل شيء بما في ذلك المادة نفسها، فبولس الرسول يقول: «لأنه وإن وُجد ما يُسمى آلهة سواء كان في السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون. لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به» (١كو ٨: ٥ - ٦).

وهنا يشدِّد الرسول بولس على حقيقة أن كل الأشياء آتية من الله؛ أي أنه الخالق للكون وما فيه، وكل ما خُلِق قد خُلِق بيسوع المسيح ابنه.

ولقد حاولت الكنيسة في العصور الأولى أن تنادي وتعلِّم بهذه الحقيقة[١]، بل شدَّدت في تعاليمها، وفي قوانين الإيمان فيما بعد على أمرين مهمين: هما أن الله خالق السماوات والأرض وأن يسوع المسيح ابنه وُلِد من العذراء، وصار إنسانًا حقيقيًا.

وإن كانت الكنيسة قد شدَّدت على هذين الأمرين؛ أي أن الله هو نفسه الذي خلق العالم المادي وأن يسوع المسيح صار فعلاً جسدًا، فذلك لأن الغنوسية كانت منتشرة في الأوساط الوثنية، وبدخول الوثنيين في الكنيسة عند قبولهم للمسيحية، حاولوا أن يحتفظوا هم أيضًا بأفكارهم ومعتقداتهم الوثنية، كما رغب اليهود الدخلاء إلى المسيحية في الاحتفاظ بالتقاليد والعادات والنواميس اليهودية بعد تجديدهم وقبولهم المعمودية (أع ١٥: ١).

وكان الخطر داهمًا وعظيمًا عندما أراد بعض الوثنيين الذين قبلوا المسيحية الاحتفاظ بأفكارهم وعقائدهم الوثنية في الكنيسة. ومن المعروف أن بعض المدارس الغنوسية كانت تعلِّم بوجود نوعين من الإلوهية: ١- النوع الأول هو الإله السامي أو العظيم، وهذا الإله السامي أو العظيم يرأس سلسلةً كثيرة الحلقات من الآلهة أو الرياسات أو «العوالم» (EONS). وكل هؤلاء الإلهة المتميزين الواحد عن الآخر في الدرجة والسلطان، قد انبثقوا سواء من الإله الأعظم أو خرجوا الواحد من الآخر. وكل هذه الكائنات الإلهية سواء كانت منفردة منعزلة، الواحد عن الآخر أو كانت أزواجًا فإنها كوَّنت كلها معًا ما يُدعى (LE,)

(١) الكنيسة الأولى والآباء الرسوليون نادوا بهذا الأمر وشدَّدوا عليه (انظر المراجع الآتية):

Clém. 19. 2; 20. 11; 59. 9; 60- 1.; Hormas. Mand 7. 1 Did 10; 3; Justin 1 Apol. 16. 3. 10; Act. Justin 2.56 Irenneé Ad V. Haer 1.10. 1; 111. 1. 24. Test. De Praesé 13. 2; 365.

(PLEROME CELEST) أي المجموعة الإلهية أو الملك الإلهي، أو الطقم الإلهي. ولقد حدث خلل في هذا الطقم الإلهي لسقوط أحد هذه الكائنات الإلهية، ولكن الكائن الإلهي الذي سقط سيُرَد إلى رتبته وطهارته الأصلية عندما تتم عملية الفداء.

٢- يوجد نوع ثان من الألوهية، وهو ضد المجموعة الإلهية السماوية السابقة، وهو يشبه النوع الأول من ناحية النظام والتكوين، ولكنه يختلف عنه من ناحية النوع؛ لأن الذي يرأس هذه المجموعة هو إله شرير، الإله الذي خلق المادة، نصف الإله، وقد ساعد هذا الإله وتعاون معه الآلهة الأشرار والمخرِّبون. والصراع بين إله الشر وأعوانه، وإله الخير وأعوانه، صراعٌ مستمر وعنيف.[1]

١- بازليدوس:

من الغنوسيين المعروفين في القرن الثاني نذكر الغنوسي السوري بازليدوس (BASILIDE) الذي بدأ تعليمه في حوالي سنة ١٣٠م. وقضى معظم حياته تقريبًا في مصر (بالإسكندرية)، ونظريته عن الله وعن المادة طويلة ومعقَّدة ولكن الذي يهمنا من نظريته هو الجزء الخاص بالمسيح؛ فهو يعتبر المسيح كواحد من المجموعات الإلهية الكونية وهو من الأرواح السامية.[2]

٢- فالنتينوس:

ويوجد شخص آخر يُعتبر من ألمع الشخصيات الغنوسية في عصره، وهو فالنتينوس (VALENTIN) لا نكاد نعرف شيئًا عن حياته ولا شخصيته، وكل ما يقوله أبيفانوس عنه، هو إنه ربما كان مصريًّا، درس الفلسفة في الإسكندرية على يد بازليدوس السوري، وذهب إلى روما في أيام أنطونيوس بيوس (حوالي ١٣٨- ١٦١م) وقام بالتدريس في روما ثم قبرص. ويدَّعي فالنتينوس أنه استلم تعاليمه من اثنين من تلاميذ الرسول بولس[3] ونظريته طويلة جدًّا ومعقَّدة. ويعوزنا الوقت لو دخلنا في تفصيلاتها الدقيقة، فهو يؤمن بوجود إله سامٍ جدًّا، وبوجود آلهة كثيرين آخرين. كما أنه يؤمن أيضًا بوجود نصف الإله أو إله اليهود الذي لا يعرف الإله العظيم.

ولقد علَّم فالنتينوس بأن المسيح السماوي اتحد بالمسيا النفسي الذي وعد به نصف الإله أو إله اليهود، وعندئذ جاء المسيح السماوي في هيئة إنسان بشري، وعلَّم الناس الروحيين وأعلن لهم عن الإله الحقيقي وعن كيفية الاتحاد به.

كما علَّم فالنتينوس والفالنتينون بعده أن المسيح السماوي لم يتخذ جسدًا حقيقيًّا بشريًّا، بل هيئة إنسان. كما أنهم علَّموا أيضًا بأن المعرفة (الغنوس) هي الأساس في الحصول على الخلاص، أي الخلاص من المادة وسيطرتها وقوتها. فالمسيح هو الذي يعلن للإنسان ما هي المعرفة التي عن طريقها يمكنه أن يصل إلى مصدره الإلهي الذي سقط منه.

وبما أننا في معرض الحديث عن الهرطقات التي ظهرت في بداية القرن الثاني والتي هددت الكنيسة وعقيدتها في شخص المسيح، يجدر بنا أن نذكر أيضًا شخصًا آخر لا يقل خطورة عن بازليدوس وفالنتينوس وهو:

---

(1) Lods, pp. 53- 55.

(٢) انظر Bonifas, 78-102 (الطبعة الفرنسية) فهو يذكر عدة نظريات غنوسية.

(٣) انظر Haag, pp.120-124.

٣- ماركيون:

وُلد ماركيون في حوالي سنة ١٢٠ في مدينة سينوب التي تقع على شاطئ البحر الأسود. والذي يميز هذا الشاب عن بعض الهراطقة الذين تكلمنا عنهم سابقًا - بل ما يميزه حتى عن بعض المدافعين - أنه نشأ وتربَّى في جو مسيحي تقي؛ فقد كان أبوه أسقفًا بمدينة سينوب. وبالرغم من أنه نشأ في هذه البيئة المسيحية المدققة، فقد انحرف من الناحية العقائدية وعلَّم تعاليمًا لا تتفق والكتب المقدسة.

وُلد ماركيون وتلقى تعليمه في مدينة سينوب وبقي فيها إلى أن أصبح شابًا يافعًا، ولقد وصفه الذين تكلموا عن حياته التي لا نعرف عنها إلا القليل، بأن ماركيون كان شابًّا ذكيًا، بل آية في الذكاء. ولم يدفع به الذكاء إلى الكبرياء والابتعاد عن حياة التقشف بل كان رجل صلاة وتقشف وتأمل وتقوى[1]، وكانت عائلته تحتل مركزًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا مرموقًا. وماركيون نفسه كان تاجرًا ناجحًا جدًّا وقد استطاع بذكائه واجتهاده وأمانته تكوين ثروة طائلة من عمله؛ فقد كان يملك عددًا كبيرًا من المراكب التي كان يؤجرها لنقل السلع.

ويبدو أن أسقف سينوب (أبا ماركيون) وماركيون لم يكونا على وفاق. بل إن الخلاف كان واسعًا وخطيرًا بين الأب وابنه لدرجة أن الأسقف حرم ابنه من الاشتراك في كنيسته. وعلى أثر هذا النزاع العقائدي العائلي ترك ماركيون بيت أبيه متجهًا إلى روما فوصل إليها في حوالي سنة ١٤٠ في أيام حكم أنطونيوس بيوس (ANTONIN LE PIEUX). وحال وصوله إلى هذه المدينة انضم إلى كنيسة فيها، بل وأظهر غيرةً وحماسةً في التعليم والعمل. ولكن مجلس هذه الكنيسة المحلية لاحظ عدم أرثوذكسية تعاليمه وانحراف عقيدته فيما يختص بالكرستولوجي (التعاليم الخاصة بشخص المسيح) وفي تعاليم أخرى. ولذلك فقد طلبت الكنيسة في روما من الشاب المتحمس للتعليم والتبشير بأن يقدم إقرار إيمان عما يعتقده وما يؤمن به. وكانت النتيجة أن ماركيون قد قُطِع (حُرِم) من عضوية هذه الكنيسة في يوليو ١٤٤.

ويُظن أن ماركيون كان يتردَّد على مدرسة سردون (CERDON) الغنوسي في روما؛ فقد كانت التعاليم الغنوسية منتشرة ومعروفة ليس فقط في آسيا ولكن في روما أيضًا. وقبل أن نعرض معتقدات ماركيون نريد أن نلفت نظر القارئ إلى نقطة هامة، وهي أن كثيرين من اللاهوتيين ومؤرخي تاريخ العقائد المسيحية، يعتقدون أن ماركيون كان غنوسيًا، غير أننا نشك كثيرًا في غنوسيته. فمع أن تعاليمه تبتعد كثيرًا عن تعاليم الكتاب المقدس، إلا أنها تختلف أيضًا عن تعاليم الغنوسيين (انظر كتاب لودز LODS ص ٥٥-٨٥) فكما يقول (LODS) «أنه كان في بداية الأمر مسيحيًا بل مفسِّرًا للكتاب المقدس».

الذي شغل بال ماركيون ليس مشكلة الخير والشر في العالم، وأصل الشر فيه، كما فعل الغنوسيون الذين تخيَّلوا وتصوروا عوالم كثيرة متعددة وآلهة متنوّعين، إله الخير والشر... لكي يجدوا حلاً لمشكلة وجود الشر في العالم، بل الذي شغل باله هو الفرق القائم بين إله إسرائيل وإله يسوع المسيح. وسنرجع إلى هذه النقطة فيما بعد.

بعد أن أصدرت الكنيسة حرمانها للشاب ماركيون، لم يقف هذا الأخير مكتوف اليدين إزاء هذا القرار، بل استعمل معرفته

(١) انظر قائمة الكتب التي سنذكرها في آخر هذا الفصل عن ماركيون وتعاليمه وعن بعض المعلمين المضلين الآخرين.

الكتابية ودراسته وحماسته. وبما أنه كان غنيًا ماديًا فقد استخدم أيضًا ماله في نشر تعاليمه. وكان يختلف عن الغنوسيين في العقيدة بخصوص الازدواجية (إله خير وإله شر)، وكان يختلف عنهم أيضًا في طريقة نشر تعاليمه وتأسيس طائفته، فـ... المعلِّمين الضالين السابقين (أمثال بازليدوس وفالنتينوس وكاربوكراتس وساتيرينوس وآخرين) لم يؤسسوا إلا مدارس لكي تعلم معتقداتهم وتعاليمهم. أما ماركيون، فبعد انفصاله عن كنيسة روما، أسس كنيسته الخاصة ووضع لها دستورًا هرميًا يبد... بالأساقفة كرأس، ثم يليهم في هذا النظام الهرمي، الكهنة ويأتي في نهاية الهرم للشمامسة.

ولقد اتبع أتباع ماركيون في طريقة عبادتهم ليتيرجية[١] تشبه إلى حد كبير الليتيرجية الكاثوليكية، ولذلك فقد انضم إليهم عدد كبير جدًا أكثر من أي مذهب غنوسي آخر. فالقديس يوستينوس يقول لنا إنه بعد مرور عشر سنوات على حرمان ماركيون انتشرت كنيسته في أنحاء العالم واستمرت حتى القرن الخامس الذي شهد عددًا لا بأس به من الكنائس الماركيونية في الشرق وخاصة في سوريا، بل إن بعضًا من هذه الكنائس ظل قائمًا إلى بداية العصور الوسطى.[٢]

فما هي إذًا تعاليم ماركيون التي استطاعت أن توقع الكثيرين في شراكها؟

لقد خلت تعاليم ماركيون من الازدواجية التي تكلم عنها فلاسفة اليونان والهراطقة؛ أي وجود الإله العظيم السامي الذي منه خرجت سلسلة طويلة من الآلهة أو العوالم، ثم الإله الشرير الذي خرجت منه أيضًا سلسلة أخرى من الآلهة والعوالم الشريرة. وهاتان المجموعتان من الآلهة تحارب الواحدة الأخرى.

ومع أن تعاليم ماركيون خلت من هذه الازدواجية (إله صالح ضد إله شرير)، إلا أنها نادت بنوع آخر من الازدواجية؛ فلقد علَّم ماركيون بوجود إلهين: ١- الإله العظيم السامي أو الإله المحب، وهذا الإله غير معروف من العالم ومُخفَى عن عينيه، لأنه لا صلة له بالعالم وليس هو الخالق له. ٢- أما الإله الثاني: فليس مساويًا لهذا الإله بل أقل منه درجة، ولا يُعتَبَر شريرًا كما نرى في نظام الغنوسية الازدواجية، بل هو إله عادل، ولكنه سريع الغضب ومنتقم، يحارب ويسفك دماء أعدائه بلا رحمة ولا شفقة. هذا الإله المنتقم هو الذي قام بعملية الخليقة، وبعد خلق هذا العالم اختار منه شعبًا لكي يكون شاهدًا له، وهو الشعب اليهودي الذي أعطى له الناموس. ولقد عاقب بصرامة وشدة الذين تعدوا على هذا الناموس وترك بقية الشعوب الأخرى فريسةً للمادة والوثنية. هذا الإله هو إله اليهود والذي لا يعرف، بل يجهل تمامًا، وجود الإله السامي العظيم المحب.

وهنا يختلف ماركيون عن الغنوسيين الذين يؤمنون بوجود قوة صالحة (إله الخير) وقوة شريرة (إله الشر)، فإن ماركيون يعتقد بوجود الإلهين: إله اليهود العادل والمنتقم الجبار ثم الإله المحب السامي العظيم. ولقد ظل هذا الأخير مخفيًا وغير معروف من الناس إلى السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور طيباريوس عندما ظهر المسيح في بلاد اليهودية في هيئة بشرية، وبدأ يعلن للبشر السر العظيم عن الإله المحب الذي يجهله البشر والإله اليهودي؛ إذ أنه من المستحيل على الناموس الذي أعطاه الإله اليهودي أو الطبيعة أن يعلنا الإله السامي المحب؛ لأن معرفته تفوق إدراكهما، ولأنه ليس هو الصانع لهما. فالمسيح وحده هو الجدير بأن يعلن هذا الإله المحب. ولقد تمت هذه العملية - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - في السنة الخامسة عشرة

(١) الليتيرجية: هي نظام العبادة في الكنائس الطقسية الكاثوليكية والأرثوذكسية مثل القداس والألحان، والمزامير، وقراءة فصول معينة. والكنائس المصلحة تستعمل نفس الاصطلاح لتشير به إلى الخدمة في الكنيسة من الصلاة وترنيم وقراءة فصول كتابية ووعظ.

(٢) انظر Quasten.305-310 (م ٣١ تاريخ الفكر المسيحي).

من حكم طيباريوس أثناء حكم بيلاطس البنطي. ويقول كاستن (QUASTEN) إن ماركيون يعتقد بأن المسيح ليس هو المسيا الذي تنبأ عنه العهد القديم، وليس هو ذاك الذي وُلد من العذراء مريم، فإن المسيح لم يعرف في حقيقة الأمر، ميلادًا، ولا نموًّا، ولا حتى المظهر لهذه الأحداث. إن المسيح الحقيقي هو ذاك الذي ظهر بطريقة فجائية في عهد طيباريوس الإمبراطور، ومن هذه اللحظة، فقد أصبح المسيح في هيئة بشرية واحتفظ بهذه الهيئة البشرية بحسب الظاهر إلى موته على الصليب.

أما بونيفاس فيظن أن ماركيون كان يعتقد بأن الله السامي المحب والذي يفوق في الدرجة إله اليهود، قد ظهر هو نفسه في يسوع المسيا الذي أرسله إله اليهود فنزل الإله السامي المحب بنفسه على يسوع في وقت العماد، وهذه العملية يمكن أن تسمَّى عملية التجسُّد، وهي تختلف عن التجسُّد الذي فهمته الكنيسة في النقاط الآتية:

(١) إن ماركيون فهم أن عملية التجسُّد تمت وقت العماد وليس وقت العمل.

(٢) وهذا التجسُّد ما هو إلا مظهر؛ لأن ماركيون لا يؤمن باتصال ما هو إلهي بما هو مادي (وهنا يظهر أثر الغنوسيين). إلا أن ماركيون لم يكن غنوسيًّا على الأرجح.

(٣) يعتقد ماركيون أيضًا بأن الذي تجسَّد في يسوع المسيح هو الله نفسه وليس ابنه الكلمة الأبدية.

ولقد كان الهدف من التجسُّد هو أن يحرِّر البشر من ناموس الإله الأدنى مرتبة، إله اليهود، ولكي يقودهم إلى الخلاص. ولهذا السبب فقد غضب إله اليهود وأثار اليهود ضد يسوع فقبضوا عليه، ثم حكموا عليه بالموت، وبعد الموت، ذهب المسيح مباشرةً إلى الهادس لإعلان الإنجيل للوثنيين وإلى الإله اليهودي، وبعد أن قام بهذه المهمة التبشيرية صعد مباشرةً إلى السماء دون قيامة على الأرض. وفي اليوم الأخير سيحكم على إله اليهود وسيطرحه في الهادس.[١]

من الواضح أن ماركيون يعلِّم بوجود إلهين، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، الإله الطيب المحب السامي العظيم، والذي لا علاقة له بالعالم أو بالمادة، ثم الإله العادل سريع الغضب والانتقام وهو أقل درجة من الإله المحب. والذي أعلن لنا وجود الإله المحب هو المسيح؛ فالإله المحب أظهر نفسه في يسوع المسيح. ولقد فصل ماركيون فصلاً كاملاً بين الإله السامي المحب وبين إله اليهود الأدنى، فإله اليهود هو الذي خلق العالم وأعطى الناموس. ولذلك فقد رفض ماركيون رفضًا كليًّا وجزئيًّا ليس الناموس فقط بل كل العهد القديم، لأنه اعتبره كتاب ذلك الإله الذي يحب الانتقام وليس كتاب الإله المحب السامي. فالعهد القديم كله بلا قيمة بالنسبة له.

أما موقفه من العهد الجديد، فلم يتمسَّك إلا بعشر رسائل من رسائل بولس الرسول، وحذف كل الكتابات الأخرى الموجودة في العهد الجديد إلا إنجيل لوقا بعد أن حذف منه أيضًا نصوصًا كثيرة جدًا. وحتى الرسائل البولسية التي احتفظ بها أو اعترف بصحتها لم تنجُ من الحذف. فقد حذف من هذه الرسائل نصوصًا كثيرة، كما أنه حذف أيضًا من إنجيل لوقا كل النصوص التي تشير إلى الآب المحب كخالق أو أن الإله الخالق هو أبو ربنا يسوع المسيح، لأنه يؤمن بأن آب ربنا يسوع المسيح ليس هو الله الخالق، أي إله اليهود، بل هو الآب المحب العظيم الذي لا علاقة له بإله اليهود. ولذلك فقد حذف كل النبوات التي اقتبسها الرسول بولس من العهد القديم وكل النصوص التي تشير إلى بنوية المسيح لله الخالق أو صانع

(١) Bonifas, pp. 99-102 انظر الطبعة الفرنسية

السماوات والأرض.

ويعتقد ماركيون بأن اليهود المسيحيين زوَّروا الأناجيل وأدخلوا عليها عناصر كثيرة من معتقداتهم الشخصية. ولهذا الغرض فلقد دعا المسيح الرسول بولس لكي يعطي الإنجيل الصحيح ويشرح الإيمان الحقيقي، لأنه هو الشخص الوحيد الذي فهم الحقيقة ونادى بها.

ولكن عظات بولس ظلت هي أيضًا غامضة وغير مفهومة من الشعب إلى أن جاء ماركيون لشرحها وتوضيحها. ولقد منحته كنيسته في روما الحق في وضع قائمة بالكتب القانونية.[١] ووضع على رأس هذه القائمة سفر غلاطية الذي اعتبره أساسًا للإيمان، إذ أن الرسول يرفض فيه انحرافات بطرس وميوله التهودية ورجوعه إلى الطقوس والناموس.

فالتلاميذ كانوا يهودًا وتأثروا بالأفكار والمعتقدات اليهودية التي لا قيمة لها.

ولهذا السبب فقد علَّم تلاميذه بأن تعاليمه الشخصية التي يلقيها عليهم جديرة بالثقة أكثر من تعاليم الرسل أنفسهم الذين تأثروا باليهودية بل ظلوا في قرارة نفوسهم يهودًا متمسِّكين بالعقيدة اليهودية. ولقد رأى المعلِّم الضال في لوقا ٥: ٣٦ تفسيرًا لمذهبه، وهو أن الإنجيل خبر جديد، وأما العهد القديم فهو لا قيمة له، ويجب طرحه خارجًا وعدم التمُسك أو العمل به، كذلك فقد رأى في لوقا ٦: ٤٣ أن الشجرة الجيدة التي تعطي أثمارًا جيدة هي أبو ربنا يسوع المسيح؛ أي الآب المحب الطيب الصالح، أما الشجرة التي تعطي أثمارًا رديئة فهي إله موسى. ولذلك فقد بالغ كثيرًا في استعماله لرسالة بولس لأهل غلاطية، لدرجة أنه تصور كما لو كان إله موسى، أي الإله العادل، إله الناموس، هو ضد المسيح والنعمة.

ولذلك فقد قام ابن أسقف سينوب بحرب شعواء ضد الناموس والعهد القديم وضد إله العهد القديم ومن هنا جاءت الخطورة؛ لأن ماركيون علَّم بوجود إلهين: الإله المحب والإله العادل. ولهذا السبب انقسمت الكنيسة في روما وتبع ماركيون عددٌ لا بأس به. وعندما انفصل ماركيون وأتباعه عن كنيسة روما، علَّم هو نفسه بأنه لا خلاص خارج عن كنيسته وعن تعاليمه (انظر كتاب كاستن ص ٣٠٧). ويعتقد البعض بأن ماركيون قد رجع عن تعاليمه الضالة قبل موته، ولكنه توفي قبل أن ينفذ هذا القرار بطريقة عملية.[٢] ولكننا لا نعتقد أن ماركيون قد رجع عن تعاليمه الضالة لعدم وجود المراجع التي تتكلم عن ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن النجاح الذي لاقاه هذا المذهب في القرن الثاني لا يوحي بهذه التوبة.

مما سبق أن قلناه عن ماركيون وعقيدته وإيمانه في شخص المسيح، يتضح الخطر الكبير الذي كان يهدِّد الكنيسة لا من الخارج فقط بل من الداخل أيضًا. فإن ماركيون كان في بادئ الأمر عضوًا في الكنيسة وابن أسقف، ولكنه انحرف بعيدًا عن الإيمان الصحيح وأسس كنيسة تعتقد بمعتقداته وتضل بضلاله.

ولهذا السبب فقد قام المدافعون المعاصرون له بالدفاع عن الإيمان القويم مفسِّرين الحق الإلهي بأمانة واستقامة. ويعتقد البعض أن القديس بوليكاربوس تلميذ الرسول يوحنا تقابل مع ماركيون، بل يعتقد البعض الآخر بأن زيارة بوليكاربوس لروما سنة ١٥٥ كانت سببًا في رجوع الكثيرين من وراء ماركيون.[٣]

---

(١) انظر Harnack, Precis de l'Histoin, pp. 27-30

(٢) انظر د. أسد رستم، الجزء الأول، ص ٦٥.

(٣) المرجع السابق.

ويرجع الفضل في معرفتنا لبعض عقائد ماركيون إلى المدافعين الذين سجلوا لنا في دفاعهم عقيدته، أمثال القديس إيريناوس وترتليانوس لأن كل ما كتبه ماركيون نفسه قد ضاع ولم يبقَ لنا شيء منه. وكل ما نعرفه عن تعاليمه هو ما دوَّنه لنا المدافعون في دفاعهم عن العقيدة الصحيحة. فلقد ضاع الكتاب الوحيد الذي كتبه ماركيون والذي أشار إليه بعض المدافعين في دفاعهم ويُدعَى المتناقضات (LES ANTTTHESES) كما ضاع أيضًا الخطاب الذي كتب فيه إقرار إيمانه الذي طلبته منه كنيسة روما. ولكن بالرغم من أن كل كتابات ماركيون قد ضاعت ولم يبقَ منها شيء، إلا أن المدافعين اقتبسوا اقتباسات عديدة من كتاباته سمحت لنا بأن نعرف عقيدة ماركيون، ومن هذه الاقتباسات استطعنا أن نعرف أن الكتاب المقدس الذي اعترف به ماركيون كان لا يحتوي إلا على اثني عشر سفرًا: ١٠ من رسائل بولس الرسول وإنجيل لوقا ثم كتابه الذي يُدعَى المتناقضات (LES ANTTTHESES)

وأمام هذه الهرطقة لم تقف الكنيسة صامتةً، بل هبت مدافعةً عن الإيمان الصحيح الذي تسلمته من الرسل والذي أرادت أن تسلمه أيضًا للأجيال القادمة صحيحًا نقيًّا لا عيب ولا غش فيه. ولقد أصدرت كنيسة روما حكمها ضد ماركيون وكنيسته. وهنا نرى لأول مرة – تقريبًا - في تاريخ الكنيسة المسيحية هذا النوع من الانشقاق في الكنيسة الذي أدى إلى انفصال بعض الأعضاء عنها بل إلى خروجهم عليها ومحاربتهم لها ولعقائدها. نعم لم تكن هذه المرة هي الأولى التي نرى فيها انشقاقًا في الكنيسة، فحتى في أيام الرسل كان الانشقاق والنزاع يسممان جو الكنيسة في كورنثوس (١ كو ٣: ١ - ٢٣)، ولكن للمرة الأولى تقريبًا نرى شخصًا يتزعم جماعة من الكنيسة ثم يثور على تعاليم الكنيسة وعقائدها. ولذلك يمكننا أن نسمي ماركيون لوثر الزائف.

ولقد أصدرت الكنيسة حكمها ضد هذا المعلِّم المضل، لأنها رأت الخطر الداهم في تعاليمه. فإن كان العلماء قد انقسموا حاليًا فيما إذا كان يمكن وصف ماركيون بالغنوسية أم لا، إلا أنهم اتفقوا جميعًا على أن تعاليمه كانت تبتعد كل البُعد عن روح الكتاب المقدس. وكيف لا تبتعد تعاليم ماركيون عن الكتاب المقدس، وهو قد حاول أن يمحو الكتاب المقدس خصوصًا العهد القديم ومعظم أسفار العهد الجديد؟ كما أن تعاليم ماركيون التي كانت تختلف بعض الشيء عن تعاليم الغنوسيين، اشتملت أيضًا على كثير من المعتقدات والأفكار الغنوسية التي كانت تشكل خطرًا عظيمًا على الكنيسة. وكيف لا تشكِّل تعاليم ماركيون خطرًا على العقيدة المسيحية وهو يؤمن بوجود إلهين لا يعرف أدناهما أسماهما؟!

على أن ماركيون قد قدم خدمة جليلة للكنيسة، فبخروجه عليها وعلى تعاليمها خصوصًا عندما رفض قبول العهد القديم، وعدم استعماله لأسفار العهد الجديد التي كانت منتشرة في الكنائس ولكنها لم تكن محددة، قد فتح عيني الكنيسة على أمر خطير عظيم، وهو جمع وتحديد أسفار العهد الجديد التي كانت متداولة ومقروءة في الكنائس، ولكنها لم تكن قد جُمعت بعد في كتاب واحد بالشكل الذي هي عليه الآن. كما أنه فتح عيني الكنيسة والمدافعين أيضًا على أن الهجوم ضد الكنيسة وضد شخصية المسيح لا يأتي من الخارج فقط أي من اليهود والوثنيين، بل إن التعاليم الضالة يمكنها أن تنمو وتكبر في الكنيسة وتجد فيها تربة صالحة.

إن انشقاق كنيسة ماركيون وخروجها على كنيسة روما لم يكونا إلا بداية لسلسلة طويلة من الانشقاقات والانقسامات

التي ستمزِّق جسد المسيح، الكنيسة، على مر العصور، بلا رحمة ولا شفقة، ولكن شكرًا لله لأن الواعد كان أمينًا لقوله: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت ١٦: ١٨).

مراجع هامة

توجد في هذا الكتاب قائمة بعدة كتب عن نفس الموضوع.

1- Quasten, Initiation aux Peres de l'eglise pp. 305 - 310.

2- V. Ermoni, Marcion dans la Literature Amenieme Rocher, I (1896) p. 461.

3- A. Harnack, Marcion. Das Evangelium von Frenden Gott (TU45) Leiqrzig 1921.

4- E. Bosshardt, Easai sur L'originalité, et la Propité, de Tertullien dans son Traité Contre Marcion, Lausanne, 1921.

5- A., D'Ales Marcion, La Réforme Chretienne an 11 e Siecle RSR 13 (1922) pp. 137- 168.

6- Couchond, Jo Marcion's Gospel One of the Synoptics? HY (1936) pp. 263-377.

7- A Loisy, Marcion's Gospel: A Beply: HY (1936) pp. 378-387.

8- W. F. Howard, The Anti-Marcionite Prologue to the Gospels: Exp. T 47 (1936) pp. 534 - 538.

9- J. Knox, Marcion and the New Testament, Chicago, 1942.

10- F. C. Backman, Marcion and His Influence, London, 1948.

11- J. Liebaert, Histoire des Dogmes, pp. 45 - 47.

12- R. S. Willson, Marcion. A Study of a Second-Century Heretic, London 1933. G. Bardy, Marcion. D. B. Supp. V., 1957 Col. 882 - 77.

13- M. Lods. Op. cit. pp. 55 - 58.

14- Justin, I Apol. 61. 3, 10. Irenee Adv. Haer, 1, 3.6, 1., 3,-16.5, 20.1.

15- Irénée, Adv. Haer. 4, 9.1, 2, 3, 25.3.

١٦ - راجع كتاب د. أسد رستم، الجزء الأول، ص ٦٣- ٦٥.

17- A. Harnack, Precis de L'histoire. Traduit par Eugene Choisg, Paris Librairie Fishpacher. 33 Rue de Sein 1893. pp. 27-31.

الفصل الثاني

البنويون (LES ADOPTIANISTES)

البنويون هم الذين يعلِّمون بأن يسوع لم يكن ابن الله بالطبيعة بل بالتبنّي. فمع أنهم ينادون بالميلاد العذراوي، إلا أنهم رفضوا أزلية المسيح كما أنهم اعتقدوا بأن يسوع كان وظل إنسانًا عاديًّا، مع استثناء حادثة الميلاد العذراوي، إلى أن جاء يوم العماد حيث نزل عليه الروح القدس؛ أي أن المسيح نزل على الإنسان يسوع ووشّحه بقوةٍ علويةٍ لعمل المعجزات.

ومن الذين علَّموا بهذا التعليم ونادوا به رجل شرقي يدعى ثيودوتيوس (THEODOTE). جاء إلى روما في نهاية القرن الثاني (١٨٩- ١٩٩) في أيام الأسقف فيكتور أسقف روما. وكل ما نعرفه عن ثيودوتيوس الدباغ الشيخ البيزنطي، أنه كان شرقيًّا ومثقفًا ثقافة عظيمة ويجيد اللغة اليونانية. والمصادر التاريخية التي تتكلم عنه هي:

EUSEBE HEV. 28 ثم HIPPOLYTE, PHILOS. 7.35-36 (THEO DORET) ولا ننسى (EPIPHANE. PAN. 59) ويذكره أيضًا (HAER FABUL 2.5-6).

ومن الواضح من الناحية التاريخية أن ثيودوتيوس جاء إلى روما بعد ماركيون (١٤٠م) ولذلك فقد وجد تربةً مهيَّأةً لإلقاء بذور الهرطقات في كنيسة روما. إننا نجهل أن الفرق كبير وعظيم بين تعاليم ماركيون الرافضة للعهد القديم ولكل حركة تهودية، وبين تعاليم ثيودوتيوس الذي حاول التمسُّك بالعهدين القديم والجديد، والرجوع إليهما لإثبات عقيدته منهما، ثم تمسُّكه باليهودية.

فقد رجع كثيرًا إلى كلٍّ من العهدين، وبنوع خاص إلى مزمور ٢: ٧ لكي يثبت عقيدته «...قال لي أنت ابني أنا اليوم ولدتك» ثم قول الرسول بولس: «...لذلك رفعه الله أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كل اسم» (في ٢: ٥- ١١؛ لو١: ٣٥؛ ٣: ٢١، ٢٢؛ تث ١٨: ١٥؛ إر ١٧: ٩؛ إش ٥٣: ٢؛ مت ١٢: ٣١؛ يو ٨: ٤٠؛ أع ٢: ٢٢؛ ١تي ٢: ٥).[1]

فما هو اعتقاد ثيودوتيوس في شخص المسيح؟

لقد كان الشيخ الشرقي يعلِّم في روما بأن يسوع لم يكن بالطبيعة ابنًا لله بل قد تبنّاه، وهذا يعني أن يسوع ابن مريم الذي وُلد بطريقة معجزية في الناصرة، بدأ وجوده كما يبدأ أي إنسان آخر وجوده من لحظة الميلاد. إلا أن الإنسان يسوع يختلف عن كل إنسان آخر بحادثين مهمين. الحادث الأول هو: الميلاد العذراوي، أما الحادث الثاني: هو لحظة عماد يسوع.

---

(١) انظر A. Harnack, Precis de L'histoire, pp.111-112

فثيودوتيوس يعتقد أنه في تلك اللحظة، وفي تلك اللحظة فقط، أصبح يسوع ابن الله بالتبنّي. فعندما «نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلاً أنت ابني الحبيب بك سررت» (لو ٣: ٢٢) أصبح يسوع من هذه اللحظة ابنًا بالتبنّي، وليس بالطبيعة. ولهذا فقد سمّي ثيودوتيوس وأتباعه بالبنويين (LES ADOPTIANISTES)؛ فعند العماد أعلن الله بطريقة رسمية وعلنية أن هذا الإنسان يسوع هو ابنه، ولقد تبنّاه من هذه اللحظة لكي يكون ابنًا له. وفي هذه اللحظة أيضًا، أي في لحظة التبنّي نزل الروح القدس على يسوع أو نزل المسيح على يسوع فأصبح يسوع المسيح ابن الله بالتبنّي.

ومن هذه اللحظة أيضًا أدرك يسوع الناصري بأنه ابن الله بالتبنّي. ولقد قام يسوع بعمل المعجزات لأنه امتلأ بقوة علوية أهّلته لإجراء هذه المعجزات. وكان يسوع مثاليًا في حياته وتصرفاته مطيعًا لله في كل شيء، إلا أنه لم يكن ابنًا لله بالطبيعة، أي يشارك الله في طبيعته الإلهية، بل ابنًا بالتبنّي. ويعتقد ثيودوتيوس أن الروح القدس حلّ على يسوع في ميلاده بطريقةٍ خفيةٍ، ولكن حادثة العماد كانت عبارة عن الإعلان الظاهري الرسمي الذي شهد به الله بأن يسوع الناصري هو ابنه. فبحلول الروح القدس بطريقة خفية وقت ميلاده وبحلول الروح القدس بطريقة علنية (أو نزول المسيح) عليه وشهادة الآب له، أصبح يسوع ابن الله بالتبنّي. لأن كاتب المزامير يقول: «... أنت ابني أنا اليوم ولدتك». وبهذه الطريقة - أي بالتبنّي - رفع الله يسوع إلى أعلى الدرجات كما يقول كاتب الرسالة إلى الفيلبيين: «... لذلك رفعه الله أيضًا وأعطاه اسمًا فوق كل اسم...».

ولقد تمت عملية الرفعة هذه عندما أقام الله من الأموات بقوته وعظمته ابنه الذي تبنّاه، فبالقيامة توج الله يسوع ابنه بكل مجد وعظمة ومنحه اسمًا يفوق كل الأسماء وسلطانًا لا يتعداه سلطان. على أن كل ما وصل إليه يسوع من سلطان ومجد وعظمة وصل إليه بفضل ذاك الذي منحه هذا السلطان وهذا المجد وهذه العظمة.

فلقد اعتقد ثيودوتيوس بأن يسوع بدأ كإنسان، ثم أن الله هو الذي تبنّاه ورفعه إلى هذه الدرجة مانحًا له اسمًا فوق كل اسم. وهنا نلاحظ في هذا التعليم نوعًا من الغنوسية؛ فكما سبق القول فإن الغنوسيين علّموا بأن المسيح السماوي جاء في شبه إنسان. فإن كان ثيودوتيوس قد علّم بأن يسوع كان فعلاً إنسانًا، وإنسانًا حقيقيًا، فإنه علّم أيضًا بأن الروح القدس أو المسيح نزل عليه عند العماد؛ ففي تعليمه نجد مزيجًا من الدوسيتية[1] والإبيونية. ولقد اتهمه أبيفانوس بأنه دسوتي[2]، ومع أن الاتهام فيه شيء من المبالغة إلا أنه لا يخلو من الحقيقة.

ومع أن أسقف روما فيكتور قد حكم بضلالة هذا التعليم وإدانة معلّمه، فإن هذا الحكم لم يستطع أن يوقف سريان التيار وانتشاره في روما وخارجها. بل إن تلاميذه وأتباعه قد أخذوا على عاتقهم مواصلة الجهاد في نشر تعليمه ومذهبه، ومن تلاميذه يذكر لنا التاريخ ثيودوتيوس آخر، ثم ناتاليوس الذي أصبح أسقفًا لكنيسةٍ في روما عام ٢٠٠م (EUS. HEV. 28. 12) ثم أرتيمون الذي احتفظ أسابيوس بخطابه (EUS. HEV. 28).

ومع أن ثيودوتيوس بدأ المناداة بمذهب البنوية في نهاية القرن الثاني، فإن تعاليمه هذه لم تكن إلا ثمرة للبذور التي أُلقيت

(١) الدوسيتية كلمة يونانية تعني يظهر أو يتراءى، وتعني هنا بأن المسيح ظهر في هيئة جسد وليس في جسد حقيقي يُلمس ويُحس.

(٢) انظر A. Grillmeier, p. 115.

في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني. ولكي يكون هذا الأمر واضحًا في أذهاننا نقول إنه منذ أن سأل يسوع في قيصرية فيلبس قائلاً: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» أصبح هذا السؤال يتردد على أفواه الكثيرين على مر العصور وفي كل مكان. بل إن شخصية المسيح نفسه أصبحت حجر عثرة لسقوط وقيام الكثيرين، كما تنبأ بذلك سمعان الشيخ: «... إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم» (لو ٢: ٣٤). فمنذ أن ظهر المسيح على أرضنا والناس يتساءلون قائلين: من هو؟ ومع أن الآب قد أعطى الجواب لبطرس عندما قال: «أنت المسيح ابن الله الحي» (مت ١٦: ١٦)، فإن البعض من الناس انقسموا في الإجابة على هذا السؤال. ويرجع سبب انقسامهم إلى الثقافة التي تثقفوا بها والبيئة التي نشأوا فيها والأديان التي اعتقدوا بها وعاشوا فيها.(1)

فعندما حاول هؤلاء الناس أن يجيبوا على السؤال: «من هو يسوع المسيح؟» انقسموا في إجابتهم. وكما سبقت الإشارة فإن الكنيسة نشأت أولاً في بيئة يهودية وكان التلاميذ أنفسهم يهودًا؛ فعندما بشَّروا بيسوع المسيح وسط الأمم كإله، كانت الخطورة هي أن تقبل الأمم المسيح المخلِّص كأحد الآلهة الكثيرة المنتشرة والمعروفة عندهم، وأن يصبح المسيح بالنسبة للأمم واحدًا من العوالم الإلهية التي نادت بها الغنوسية. وهنا خطورة الغنوسية أو الدوسيتية (أو الدوسوتية).

أما الخطر الثاني الذي كان يهدد العقيدة المسيحية، فهو تمسُّك بعض اليهود الذين قبلوا الإيمان المسيحي، بالناموس. فإن هؤلاء اليهود المتنصرين حاولوا هم أيضًا بدورهم الإجابة على هذا السؤال: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» فالجماعة الأولى التي قبلت تعاليم الرسل، ضمت صوتها مع بطرس بالقول: «أنت هو المسيح ابن الله الحي». ولكن ظهرت جماعات أخرى عديدة في الكنيسة المسيحية نفسها، لم تقبل هذا الاعتراف، وعلى الخصوص أقوال الرسول بولس التي تشير إلى لاهوت المسيح ووجوده السابق لكل وجود، «اللوجس»، الكلمة الأبدي، الذي به كل شيء كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فإن هذه الجماعات قبلت المسيحية ودخلت فيها ولكنها أرادت أن تحتفظ بناموس موسى، بل إنها وجدت في أقوال المسيح نفسه سندًا يؤيد زعمهم هذا، أي التمسُّك بناموس موسى ألم يقل السيد: «... لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل...» (مت ٥: ١٧، ١٨)؟ فمنذ البداية ظهرت هذه الجماعات في داخل الكنيسة نفسها وأرادت المحافظة على الناموس والتقليد والصيام والعادات التي كان يتبعها اليهود. ومن هذه الجماعات:

١- جماعة الإخوة «الضعفاء» الذين يتكلم عنهم الرسول بولس (١كو ٨: ٩).

٢- الإخوة الكذبة الذين يذكرهم نفس الرسول في الرسالة إلى أهل غلاطية (غل ٢: ٤) والذين كانوا يتمسَّكون بالختان كأمر ضروري للخلاص.

٣- المعلِّمون الكذبة الذين ظهروا في كولوسي وأفسس (أف ٤: ١٤).

٤- الناصريون، ومع أن هذه الجماعة الأخيرة قد تمسَّكت بلاهوت المسيح، والميلاد العذراوي، وعمل المسيح الفدائي، إلا أنهم تمسَّكوا أيضًا وبشدة بالناموس الموسوي والتعاليم الربانية والوطنية، فقد كانوا ينتظرون تأسيس مملكة يهودية إسرائيلية.

---

(1) A. Harnack. History of Dogma Vol. 3. pp. 20- 32.

٥- ثم جماعة الإبيونيين(١) وهم يشبهون إلى حدٍّ كبير الإخوة الكذبة الذين ذكرهم الرسول بولس (غل ٢: ٤)، ولقد ظهرت هذه الجماعة بعد سنة ٧٠م؛ أي بعد سقوط أورشليم. وتضاربت الآراء على تسميتهم بهذا الاسم كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، فإن ترتليانوس يعتقد أن اسمهم مُشتَق من اسم المؤسس لطائفتهم وهو إبيون، وهذا الأمر محل شك كبير؛ لأن يوستينوس وإيريناوس وأوريجانوس لا يذكرون شيئًا عن هذه الشخصية.

أما بخصوص عقيدة هذه الجماعة، فقد تمسَّكوا بالختان والناموس والتقاليد لخلاص الأمم، واعتبروا يسوع كالمسيا ولكنه في نفس الوقت إنسان، ومجرد إنسان عادي وُلد ولادةً طبيعيةً من مريم ويوسف. ولقد حصل على نعمة خاصة أثناء العماد. ولا يرون في أعمال المسيح إلا أعمالاً تعليمية كاملة ومكمِّلة لأعمال موسى. كما يؤمنون بمجيء المسيح الثاني بل ينتظرونه بفارغ الصبر لكي يمحو بهذا المجيء الثاني عثرة الصليب المخجلة. وهم لا يقبلون بولس كرسول حقيقي.

شدَّدت هذه الجماعة كثيرًا على ناسوت المسيح وأنكرت لاهوته، وكانت لا ترى في يسوع إلا مجرد إنسان. وعندما ندرس بالتدقيق عقيدتهم في يسوع، نلاحظ تمسُّكهم باليهودية بل بالمسيانية المنتصرة على العدو؛ فإن انتظارهم للمجيء الثاني للمسيح لم يكن انتظار الكنيسة الهائمة المنتظرة لمقابلة عريسها المحبوب، بل انتظار المسيا الذي بمجيئه الثاني سيزيل لطخة العار التي تركها الصليب على وجوه هؤلاء الذين ينتظرون مجيء ملكوت الله بقوة.

ومع أنهم كانوا يرون في المسيح مجرد إنسان إلا أنه كان إنسانًا عظيمًا، فهو مختار الله بل هو النبي الحقيقي. وبما أنهم أنكروا الميلاد العذراوي، فقد حذفوا من كتابهم الإصحاحين الأولين من إنجيل متى، وأنكروا أيضًا أن المسيح سابق الوجود أو أنه ابن الله بالطبيعة. ويعلِّمون بأن المسيح لم يولد من الله بل إنه خُلق كأحد رؤساء الملائكة، وهو يملك ليس على الملائكة فقط بل على كل الخلائق لأنه هو ذاك الذي له كل السلطان، ويؤمنون أيضًا بأن لحظة العماد كانت حاسمة بالنسبة ليسوع، لأنه في هذه اللحظة رفعه الله فوق الخليقة.(٢)

إن هذه الآراء كانت منتشرة ومعروفة في وسط اليهود المنتصرين. والذي يقرأ رؤية راعي هرماس (LE PASTEURE D' HERMAS) يستطيع أن يدرك بدون عناء التأثير اليهودي الذي يسيطر على الكاتب في تفسيره لمفهوم ابن الله والروح القدس.(٣)

فإن راعي هرماس يعتقد بأن الروح الذي أسكنه الله في جسد يسوع لا يعتبر شخصًا إلهيًا ولكن قوة إلهية.

من هذا يتضح أن مذهب البنويين الذي نادى به ثيودوتيوس في نهاية القرن الثاني لم يكن جديدًا على الكنيسة، بل كان كالزوان الذي ينمو مع النباتات الصالحة في نفس الحقل. ومما لا شك فيه أن هذا الزوان الذي زرعته يد العدو في الحقل، سيظل هكذا موجودًا فيه ويكبر مع النباتات الأخرى. وصلاتنا ليس بأن السيد يرسل منجله فيجتث هذه النباتات الرديئة، بل أن يرسل روحه القدس لكي يبكت على خطية وعلى بر وعلى دينونة، وعندئذٍ تتغير القلوب فيخرج من الآكل أُكلًا ومن الجافي حلاوة.(٤)

---

(١) انظر Bonifas,pp.68-71

(٢) انظر A. Grillmeier, pp.112-124

(3) A. Grillmeier, p.115.

(٤) ولدراسة هذا الموضوع بتوسع راجع كتاب A. Grillmeier فهو يعطي قائمة ممتازة لبعض الكتب التي تعالج هذه المشكلة ص ١١٢ ١٢٤. كذلك كتاب Lods الذي

اللالوغوسيون (ALOGES)

وبما أننا نتكلم عن البنويين الذين لا يعترفون بأزلية يسوع ولا مشاركته لله في الطبيعة الإلهية، يجدر بنا أن نذكر طائفةً أخرى اتفقت من الناحية العقائدية مع البنويين، وهي جماعة اللالوغوسيين (ALOGES) وهذا الإصلاح (ALOGES أو ALOGIS) يعني الأذكياء وفي نفس الوقت يعني المنافسين لعقيدة «اللوغوس» أي الذين لا يعترفون أو لا يقبلون عقيدة «اللوجس». وكان يرأس هذه الجماعة كاهن روماني يدعى غايوس (GAIUS) ظل على قيد الحياة إلى سنة ٢٠٠م.[١] ولقد قام غايوس بحرب شعواء ضد جماعة المونتانيين (LES MONTANISTES).[٢]

نادى غايوس وجماعته بكثير من المبادئ التي تبنَّاها البنويون وهي أن يسوع وُلد ميلادًا عذراويًّا، ولكنه لم يكن ابن الله بالطبيعة بل أصبح ابنًا لله عن طريق التبنِّي في وقت العماد. ويُدعون باللالوغوسيين لأنهم رفضوا عقيدة «اللوغوس»، ولهذا السبب لم يقبلوا إنجيل يوحنا ولا سفر الرؤيا. ولقد ظنوا بأن سرنت اليهودي نسب هذين الكتابين إلى الرسول يوحنا. وبرفضهم لهذين الكتابين وخاصة إنجيل يوحنا فقد رفضوا لاهوت المسيح؛ إذ أنهم لا يعترفون إلا بناسوته، وناسوته فقط. ولقد شدَّدوا كثيرًا على ناسوت المسيح، وبناءً على ذلك فإن هذه الجماعة لا تعترف بأن المسيح كان موجودًا منذ الأزل مع الله، بل إن بداية وجوده هي ميلاده.

إننا نجهل الكثير عن هذه الجماعة وعن مدى نجاح أو فشل تعاليمهم، فلا نعرف بالضبط متى توقفت هذه الحركة عن العمل ومن الذي استطاع أن يوقفهم ويخرجهم من آسيا. فالمصادر التي تتكلم عنهم لا تعطي لنا تفصيلات واضحة. ولقد ذكرهم كلٌّ من:

1. EPIPHANE (PAN 51)
2. EUSEBE. HE 2, 25. 6-7, 3, 28. 1- 2 : 4, 20-3
3. HIPPOLYTE, KEPHALAIA KATA GAIOU.

يعطى قائمة أخرى تستحق الدراسة ص ٣٧- ٤١.

(1) Lods, p. 39.

(2) A. Harnack, History of Dogma, vol. 3, pp. 14- 19.

الفصل الثالث

إكليمندس الإسكندري

بعد أن رأينا في الصفحات السابقة بعض المعلِّمين الذين ضلوا الطريق في تعاليمهم الخاصة بشخص المسيح يسوع، أمثال الغنوسيين وبازليدوس وفالنيتيوس وساتيرنيوس وماركيون والبنويين ثم اللالوغوسيين نواصل الآن رحلتنا العقائدية بسلسلة أخرى من المعلِّمين الذين قاموا بدور هام عظيم في تاريخ الفكر المسيحي القديم ولنبدأ هذه السلسلة بـ:

إكليمندس الإسكندري: (CLEMENT D'ALEXANDRIE)

هو تيطس فلافيوس إكليمندس الإسكندري. وُلد على ما يُحتمل، في أثينا (بلاد اليونان) من أبوين وثنيين في سنة ١٥٠م، ونجهل تاريخ قبوله للمسيحية، كما نجهل أيضًا تفاصيل الدوافع التي دفعت به لاتخاذ هذا القرار، أي قرار قبوله للمسيحية. لقد أنهى تعليمه الثانوي في أثينا. كان منذ طفولته محبًّا للعلم شغوفًا به مولعًا بالبحث عنه أينما وُجد ومهما كلَّف. ولهذا السبب فقد ترك وطنه الأول أثينا وجال يبحث عن العلم في كل من جنوب إيطاليا وسوريا ثم فلسطين. وكان الغرض من هذه الرحلة هو مقابلة أشهر المعلِّمين وتحصيل العلوم كيفما استطاع أن يحصل عليها. وهو نفسه الذي سجل لنا هذا الأمر في كتابه (STROM. 1, 1, 2). على أن هذه الرحلة التي بدأ بها من أثينا لم تنتهِ في فلسطين بل في الإسكندرية، هذه المدينة العظيمة التي كانت تعتبر في ذلك الوقت كمركز علم وملتقى لحضارات مختلفة متنوِّعة. فبسبب موقعها الجغرافي أصبحت الإسكندرية أثينا الثانية، لأنها ربطت القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت. ولهذه الأسباب أصبحت الإسكندرية جامعة يلتقي فيها المعلِّمون والطلبة، ولذلك كثرت فيها المدارس الفلسفية والدينية. فعندما كان المرء يدخل هذه المدينة كان يشعر كما قال بونيفاس: «بأن كل الديانات وكل الفلسفات الماضية وكل التعاليم الكاذبة وكل التعاليم الصحيحة وكأنها على موعد في هذه المدينة، إذ أن كل المدارس كانت ممثَّلة فيها».(1)

هذه المدينة كانت تُعتَبَر مدينةً جامعيةً، مع الفارق الكبير بينها وبين مدننا الجامعية الحالية لأن معلِّمي هذه الجامعة (الإسكندرية) كانوا مقيمين فيها وعلى استعداد بصفة مستمرة أن يتقابلوا مع طالبي العلم والنقاش معهم، جاء إكليمندس إلى مدينة العلم باحثًا عن العلم والحق ليحصده من حقول الإسكندرية ويلتقطه من أفواه معلِّميها. وكطالب للعلم والمعرفة التحق بالمدرسة اللاهوتية التي كانت تدعى «مدرسة التعليم المسيحي» التي قام بتأسيسها وإدارتها باتنيوس (PATENE).

---

(1) Bonifas, pp. 139, 140.

وعلى ما يُظن، قَبِل إكليمندس المسيحية على يدي باتنيوس، وبعد عماده أصبح الذراع الأيمن لمدير هذه المدرسة والمساعد الجديد بأن يحتل هذا المنصب. فإن باتنيوس ترك إدارة هذه المدرسة لتلميذه النابغة إكليمندس، وذهب لنشر الإنجيل(1) في خارج مصر.

تولى إكليمندس إدارة المدرسة اللاهوتية بعد رحيل أستاذه باتنيوس، ويظن البعض أن إكليمندس خلف باتنيوس في حوالي سنة ١٩٠، على أن البعض الآخر يظن أنه لم يصبح المسئول عن هذه المدرسة إلا في حوالي سنة ٢٠٠م. (انظر QUASTEN ص ١٢). ولقد اضطر إلى أن يترك مصر بسبب الاضطهادات القاسية المُرَّة التي اجتاز فيها مسيحيو مصر تحت حكم سبتيميوس سفريوس (SEPTIME, SEVERE). ويقول كاستن إنه لجأ إلى أورشليم عند إلكسندر تلميذه والذي احتل فيما بعد كرسي أسقفية أورشليم، ومات في سنة ٢١٥ دون أن يرى مصر مرة أخرى (انظر QUASTEN ص ١٢). على أن بونيفاس يقول إن إكليمندس اضطر إلى أن يهجر مصر لسبب الاضطهادات ولكنه رجع إليها واستأنف تعليمه فيها إلى أن مات في أرضها في سنة ٢١٧ (انظر بونيفاس ص ١٣٩- ١٤٠).

كتابات إكليمندس:

كان إكليمندس من الشخصيات اللامعة، ومن الكُتَّاب الذين تركوا لنا كنوزًا عظيمة، تبدو أهميتها في نقل الأفكار اللاهوتية والتعاليم التي علَّم بها والتي انتشرت في تلك الحقبة من الزمان. وإن كنا لا نقبل كل ما علَّم به هذا المعلِّم، فإن تعاليمه تبين لنا نوعًا من العقائد والأفكار التي نادى بها البعض وانتشرت في الكنيسة في القرنين الثاني والثالث.

ومع أن إكليمندس كان كاتبًا مشهورًا ومفكرًا عميقًا عظيمًا، إلا أنه يحتاج إلى التنظيم والترتيب في الكتابة، فلم يعرف أن ينظم ولا أن يرتب أفكاره بطريقة منطقية، وهذا ما توحي به الكتب العديدة التي تركها. ولقد ملأت هذه الكتب الفراغ الذي نجهله عن حياته، فمن بين سطورها نستطيع أن نتصوره رجلاً واسع الاطلاع وكثير المعرفة. وكتاباته العديدة التي سنذكر البعض منها، تظهر كفاءة هذا الرجل العلمية. فقد كان ملمًّا بعلوم الفلسفة والشعر والأثريات والأساطير والآداب. فستجد في مؤلفاته ١٥٠٠ اقتباس من العهد القديم، و٢٠٠٠ اقتباس من العهد الجديد و٣٦٠ اقتباسًا من بعض كتب العلماء والفلاسفة.(2)

والدارس لتاريخ العقائد يلاحظ بلا عناء التشابه الكبير بين الشهيد يوستينوس والمعلِّم إكليمندس في أشياء كثيرة، وبنوع خاص موقفهما من العلوم والفلسفات الوثنية، فإن كان يوستينوس يؤمن بوجود بذور اللوجوس في تعاليم وفلسفات اليونان، فإن معلِّم الإسكندرية يذهب في هذا المجال مذهبًا أبعد من ذلك. فلقد قارن فلسفة اليونان بالعهد القديم نفسه عندما كانت تعد البشرية لمجيء المسيح. على أنه نبَّر بشدة بأنه بالرغم من أهمية الفلسفة، إلا أنها لا تستطيع بأي حال من الأحوال أن تحل محل الوحي الإلهي. إن الفلسفة لا يمكنها إلا أن تعد الطريق أمام الإيمان (انظر كتابه STROM 1, 5, 28 ,STROM ٢, ٢, ٨, ٤).

---

(١) كان باتنيوس (Panténe) وثنيًا رواقيًا قبل المسيحية، وهو الذي أسس مدرسة الإسكندرية اللاهوتية عام ١٧٩م، وقام بالتعليم فيها عدة سنوات، ولقد قابل تعليمه نجاحًا كبيرًا. ثم ترك إدارة المدرسة لتلميذه إكليمندس وذهب إلى العربية لنشر الإنجيل فيها، بل وصل في رحلته التبشيرية هذه إلى الشرق الأقصى. وبعد ذلك رجع إلى الإسكندرية حيث مات فيها. نجهل الكثير عن حياته وكتبه. على أننا نعرف بأن كلًّا من إكليمندس وأوريجانوس كانا من تلاميذه (انظر كتاب بونيفاس ص ١٣٩).

(2)Quasten, p. 13.

ويعتقد إكليمندس أنه لا تناقض بين العلم والدين، بل إن الأول هو خادم أمين ومساعد عظيم له أهمية لا تُقدَّر، على شرط معرفة استخدامه استخدامًا حسنًا؛ فإن المسيحية هي تاج ومجد كل الحقائق التي تكتشفها كل المذاهب الفلسفية المختلفة (انظر المجلد الثاني ١٤ QUASTEN.). ولذلك فقد حاول إكليمندس أن يعالج في كتاباته ليس المشاكل اللاهوتية والدينية فقط، بل تعرَّض أيضًا لبعض المشاكل الاجتماعية والفلسفية التي كان يواجهها المجتمع المعاصر. فإن الكنيسة يجب ألا تغلق عينها عن هذه المشاكل، ولذلك فقد استحق عن جدارة لقب «رائد العلوم المسيحية» (انظر كتاب QUASTEN المجلد الثاني ص ١٣)، فهو صاحب المبادرة في دفع الكنيسة إلى دراسة العلوم غير المسيحية واستخدامها (انظر BONIFAS ص ١٤٠).

ولقد ترك لنا معلِّم الإسكندرية مجموعةً ضخمة من الكتب اللاهوتية العقائدية والتفسيرية والدفاعية، والكتب الأدبية أيضًا، التي بقي بعضها إلى الآن وضاع البعض الآخر، ومن أهم هذه الكتب:

(١) «حث لليونان» (L'EXHORTATION AUX GRECS):

يحاول الكاتب أن يحث اليونان على التجديد وقبول اللوجوس الحقيقي الذي تنبأ عنه الأنبياء والذي ظهر في شخص المسيح. ثم يناشدهم أن يتركوا عبادة الأوثان وقبول التعاليم الحقيقية التي تنادي بها المسيحية (انظر كتابه PROTREPTIQUE 11, 117, 3-4)، فإن هذا الكتاب يمكن اعتباره كتابًا دفاعيًّا عن المسيحية.

(٢) «المهذب أو المعلِّم» (LE PEDAGOGUE)، ويحتوي هذا الكتاب على ثلاثة مجلدات، وهو عبارة عن تكملة لكتابه السابق «حث لليونان»، وفيه يقدم بعض النصائح للذين قبلوا الإيمان المسيحي، ويشرح بالتفصيل أن «اللوجوس» هو المعلِّم الذي يرشد الذين تجدَّدوا إلى الطريق السليم الصحيح الذي يجب أن يسلكوا فيه. فإن الدور الذي يقوم به اللوجوس هو دور روحي وليس ثقافيًّا، فهو يؤهل النفس لحياة روحية سامية وفاضلة (راجع كتابه PAED. 1, 1, 14) وهو معلِّم الأطفال، الأطفال الذين قبلوا المعمودية وتجددوا (PAED 1, 6, 26. 1) ومما لا شك فيه أن هذه الجملة الأخيرة «قبلوا المعمودية وتجددوا» توحي للبعض كما لو كان التجديد أو الفداء هما نتيجة لقبول الإنسان للمعمودية، أو كما لو كانت المعمودية هي السبب في هذا التجديد والفداء. وفي الواقع فإن الأمر يختلف عن ذلك تمامًا، فإن إكليمندس كان يخاطب وثنيين، وذلك فإن ما يريد أن يقوله في العبارة السابقة، هو أن عملية التجديد أو قبول الإيمان المسيحي كانت تسبق أي عملية أخرى. فعندما كان الإنسان غير المسيحي يتجدَّد ويدرك عملية الفداء التي تمت في المسيح، فعندئذ، وعندئذ فقط كان يعمَّد. والعماد كان علامة ظاهرية واعترافًا جهاريًّا أمام الجميع على الإيمان الخفي الذي عن طريقه قَبِل الإنسان المسيح كمخلِّص وفادٍ.

(٣) «الطرازة أو الحياكة» LES STROMATES ON TAPISSIERIES وتحتوي هذه السلسلة على ثمانية كتب. ويتعرَّض الكاتب في هذه المجموعة لمعالجة أمور كثيرة ودراسة مواضيع مختلفة متنوِّعة، كالعلاقة بين الديانة المسيحية والديانات والمذاهب الفلسفية الأخرى. وهو يدافع عن الفلسفات اليونانية، ويعتقد أن العناية الإلهية قد منحت هؤلاء الفلاسفة هذه الفلسفات، كما منح الله العهد القديم لليهود. على أن هذه الفلسفات لا تعادل، بلا شك الوحي المقدس ولا

تحل محله. (راجع STROM 1, 5, 26; 2, 2, 8, 4).

(٤) كتابان عبارة عن اقتباسات من كتب الغنوسيين والتعليق عليها (انظر QUASTEN 23).

(٥) عظة عنوانها: «من هو الغني الذي سيخلص؟» (مر ١٠: ١٧ - ٣١).

مؤلفاته المفقودة:

أهم ما فُقد من مؤلفات إكليمندس هو تفسيره للكتاب المقدس بعهديه وعنوان هذا التفسير الذي يحتوي على ثمانية مجلدات هو «مسوَّدة» (HYPOTYPSES-CRQUIS). ولقد أشار إلى هذا التفسير أوسابيوس (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 6, 14, 1)، كما أن أوسابيوس يذكر أيضًا أن إكليمندس كتب كتابًا عن الفصح (EUSEBE HIST. ECCL. 6, 13, 9).

ونفس المؤرخ (أوسابيوس) يتكلم عن كتاب آخر يُدعَى «حث للمعتمدين حديثًا»، ثم يذكر محاضرتين لإكليمندس عن الصوم والنميمة.

بعد أن عرفنا بعض الأشياء عن المعلِّم الإسكندري ومؤلفاته، حان الوقت لطرح السؤال الذي هو صلب بحثنا وهدفه، وهو ما هي تعاليمه الكرستولوجية (التعاليم المختصة بالمسيح)؟

كان إكليمندس معاصرًا للقديس إيريناوس، وهذا الأخير كتب الكثير ضد الغنوسيين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. فإن كان إيريناوس قد حارب الغنوسيين في عقيدتهم التي كانت منتشرة، فلا بد أن اللاهوتي المصري قد تعرَّض لهذه المشكلة. وكيف لا تعترض مشكلة الغنوسية هذا الرجل وهي قد نمت وترعرعت في الإسكندرية لأنها وجدت لها تربةً طيبةً صالحةً في هذه المدينة؟! لقد حارب إكليمندس الغنوسية كما حاربها إيريناوس، وكان يعرف أيضًا خطر الهللينستية الذي يهدد المسيحية كما كان يعرفه أيضًا إيريناوس. على أن القديس اليوناني (إيريناوس) كان رجل الكتاب والتقليد، أما إكليمندس فكان رجل الكتاب والعلوم والفلسفة.

ولهذا السبب، فإن هجوم اللاهوتي المصري ضد الغنوسية يختلف عن هجوم اللاهوتي اليوناني؛ فإكليمندس كان يعرف خطر الغنوسية المزيفة على المسيحية وعلَّم ضدها. كما أنه هاجم أيضًا، كباقي المدافعين في عصره، الهراطقة والهرطقة الغنوسية، إلا أنه ميَّز ما يسميه الغنوسية المزيفة والغنوسية الحقيقية. لقد علَّم أتباع الغنوسية (المعرفة) الهرطوقية بعدم إمكان التوفيق بين العلم والإيمان، أما إكليمندس، فعلى العكس من ذلك، فقد اعتقد بأن المؤمن الحقيقي ما هو إلا ثمرة انسجام الإيمان والمعرفة، فالإيمان (PISTIS) هو بداية الفلسفة أو المعرفة (GNOSIS) (انظر٤، ٢; STROM: ١، ٢٠، ١٠٠ ١٥) ومع أنه يعطي أهمية كبرى للمعرفة (الغنوسية) إلا أنه يعطي الأولوية للإيمان. ولقد شدَّد كثيرًا على أن الفلسفة والعلم هما خادمان للإيمان ويساعدان على اكتشاف الكنوز المخفية في الكتاب.

إن المحاولة التي قام بها إكليمندس في التوفيق بين ما يسميه الغنوسية الحقيقية والإيمان، سبَّبت له بعض المشاكل العقائدية؛ إذ أنه تطرَّف في بعض الأحيان في تعاليمه عن الغنوسية. ومما لا شك فيه أن العلوم والفلسفات الوثنية الكثيرة التي درسها والبيئة التي نشأ فيها تركت فيه أثرًا عميقًا لم يكن من السهل محوه محوًا تامًّا. والدارس لكتابات اللاهوتي المصري يلاحظ بعضًا من هذا التأثر الغنوسي في تعاليمه.

تعاليمه الكرستولوجية:

ومع أن إكليمندس يتمسَّك بالأفكار التي علَّم بها القديس يوستينوس بخصوص اللوجوس، فإنه نادى بأفكار أخرى غير التي علَّم بها يوستينوس؛ ففي شرحه لعقيدة «اللوجوس» ينهج نفس المنهج الذي سلكه يوستينوس؛ أي يبدأ بظهورات اللوجوس في العهد القديم. فإن الظهورات التي يكلمنا عنها العهد القديم، كانت ظهورات اللوجوس، وكانت كل هذه الظهورات تُعِد للظهور الأعظم، أي التجسُّد.

ففي خلال فترة العهد القديم كان اللوجوس يُظهِر نفسه بطرق مختلفة متنوِّعة، «ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة مولودًا تحت الناموس» (غل ٤: ٤). على أن هذا الظهور الأخير أي التجسُّد يختلف تمامًا عن الظهورات السابقة، فهو شيء جديد من نوعه فكما أن الله قد اختار شعبًا جديدًا، وعهدًا جديدًا فإنه يظهر هذه المرة لشعبه بطريقة جديدة. (انظر PAED. 1, 59, 1).

ويعتقد اللاهوتي الإسكندري بأن اللوجوس الذي ظهر بطرق عديدة في العهد القديم، والذي ظهر في نهاية الزمان في يسوع المسيح، هو نفسه الذي كان يرشد الفلاسفة بنفس الطريقة التي كان يرشد بها أنبياء العهد القديم تقريبًا (انظر .STROM 1, 5, 28; 5, 12, 81, 4-82, 4).

واللوجوس لا يبدأ بهذه الظهورات التي يتكلم عنها العهد القديم، بل هو الذي خلق هذا العالم، كل ما يوجد في الكون به وله قد وُجِد، وهو أيضًا الذي مع الآب والروح القدس يكوِّن الثالوث الإلهي، وهو الذي عن طريقه أيضًا نستطيع أن نعرف الآب (انظر نفس الشاهد أعلاه)، فلا الظهورات إذًا ولا عملية التجسُّد كانت بداية وجود اللوجوس، إذ أنه كان موجودًا مع الآب قبل أن توجد كل هذه الكائنات. وعملية التجسُّد التي قام بها اللوجوس لم تنقص شيئًا من عظمته وسموه، العظمة والسمو اللذين يتصف بهما الآب. بهذه النقطة استطاع معلِّم الإسكندرية أن يخطو خطوةً للأمام ويسجل تقدمًا على الذين سبقوه من المدافعين أمثال يوستينوس وغيره، الذين بالغوا كثيرًا في وصف عظمة الآب وارتفاعه، مما ترتب عنه التقليل من سمو اللوجوس، فإن دخول اللوجوس في التاريخ أصبح مركزًا للتاريخ ومكملاً لظهورات العهد القديم. ومجيئه أيضًا إلى العالم هو إظهار محبة الآب للعالم (انظر PAED., 1, 8, 2 ; PROTR. 116, 1).

ومن هذا نلاحظ أن إكليمندس يعترف بنوع من المساواة في العظمة بين الآب والابن.

ويرى معلِّم الإسكندرية في اللوجوس شمسًا جديدة تشرق بنورها على العالم؛ فهو الذي بنوره استطاع أن يعلن لنا الآب بطريقةٍ واضحةٍ ومضيئة؛ لأنه نور العلم، وبنوره نستطيع أن نرى الآب (انظر PROTR 113, 2). فبعملية التجسُّد أصبح الابن منظورًا في حيِّز الأشياء التي نراها وندركها بحواسنا (انظر STROM. V, 39, 2; 16, 5).

فهو يتمسَّك بكلمات الرسول يوحنا: «والكلمة صار جسدًا» (يو ١: ١٤). وهذا الكلمة هو نفسه الذي وُلِد من الآب قبل كل الدهور، «لوجوس» واحد مولود من الآب، وبهذا ينفي إكليمندس الادعاءات الغنوسية التي كانت تعلِّم بوجود عدة «عوالم» أو مسايا أو مسحاء (انظر EXC. (THEOD. 7, 4; 8, 1، فهو أيضًا صورة الآب (انظر كتابه STROM 5, 34, 1)، ولم يصبح صورة الآب بفضل التجسُّد وبسببه، بل منذ الأزل وقبل كل بداية كان صورة الله الغير المنظور (انظر كتابه STROM 5, 38, 7).

فاللوجوس، الذي هو صورة الله، هو أيضًا سيد هذا الكون والمشرع للبشرية، كما أنه المخلِّص للجنس البشري والمعطي الحياة الجديدة، وهذه الحياة تبدأ بالإيمان وتنمو في العلم والتأمل، وتصل في نهاية المطاف، عن طريق المحبة، إلى الخلود والتأله (انظر كتاب PROTREPT 11, 88, 114).

إن الدارس لكتاب معلِّم الإسكندرية يمكنه أن يلاحظ بلا جهد، أنه شدَّد كثيرًا على لاهوت المسيح، ولذلك فقد اتهمه البعض بأنه دسوتي (DOCETE)[1]. ومما لا شك فيه أن الذي دفع البعض إلى اتهامه بالدسوتية هو النصوص العديدة التي نجدها في كتاباته، والتي يشتَم منها رائحة الدسوتية. وخاصة الأفكار التي أخذها عن الغنوسية الفالنتينية؛ فلقد سبق أن أشرنا إلى أن فالنتينوس قد علَّم بأن المسيح ظهر في شبه جسد وليس في جسد حقيقي، لدرجة أن مرور الجنين يسوع من رحم أمه، لم يفض عذراويتها، فكان مروره كمرور شعاع الشمس عبر الزجاج. ونادى معلِّم الإسكندرية بأفكار تشبه إلى حدٍّ كبير هذه الأفكار الغنوسية؛ فنجد في تعاليمه بعض الأفكار الغريبة، مثلاً: أن المسيح لم يكن محتاجًا لعملية هضم الطعام ولا لعملية التبرُّز (انظر كتابه STROM 3, 59, 7, 3).

وهناك نص آخر يدل على التأثير العميق الذي تركته الغنوسية في تعاليمه؛ ففي شرحه ليوحنا: «الذي كان من البدء الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة» (١يو ١: ١) يشير إلى بعض التقاليد التي تقول بأن الرسول يوحنا قد غمس يده في جسد المسيح ولم تقابل يده أية مقاومة إلا قوة اللاهوت (انظر ص٩٢و٩٣ J.LIEBAERT).

ولقد تركت الرواقية أيضًا بدورها تأثيرًا لا يُستهان به على تعاليمه. ونلاحظ هذا في مفهومه لمشكلة آلام المسيح. هل كان المسيح يتألم ويجوع ويعطش كبقية البشر؟ فهو يظن أن المسيح كان فوق كل هذه المؤثرات الحسية. فلم يكن للعطش أو الجوع أو للآلام أي سلطان عليه؛ لأن القوة الإلهية قد حلت فيه محل هذه الدوافع، واللاهوت سيطر عليه بطريقة كلية لدرجة أن هذه المشاعر والعواطف والتأثيرات الحسية لم يعد لها أي سلطان عليه (انظر كتابه STROM; 6, 9, 71, 3, 6, 49. STROM. 6, 135, 1 - 4).

ويتعرَّض المعلِّم المصري لمشكلة لاهوتية أخرى، وهي الدور الذي يقوم به اللوجوس في الجسد، من الذي يحكم ويسيطر ويدير ويوجه هذا الجسد، أهو اللوجوس أم الجسد؟ إنه يعتقد بأن اللوجوس الذي سكن في هذا الجسد هو الذي يسيطر عليه، ويوجهه ويديره حيثما شاء؛ لأن قوة الروح ما يسميه بالإنسان الداخلي أو اللوجوس هو الذي يسيطر على الإنسان الخارجي. فإن اللوجوس يتدخل في الجسد لتغيره وإدارته والسيطرة عليه (راجع كتابه STROM 6, 135, 1 - 4; 3, 1, 2; 59, 3).

من هذه النصوص التي أشرنا إليها ومن نصوص أخرى في كتابات إكليمندس، استنتج البعض بأنه دسوتي ومما لا شك فيه أن هذه النصوص تدل فعلاً على روح دسوتية إذا أخذناها منفردة منعزلة عن الفصول الأخرى التي تتكلم عن ناسوت المسيح.

---

(١) الدسوتي: هو الشخص الذي يؤمن بلاهوت المسيح وينكر حقيقة ناسوته؛ فبعض الغنوسيين أنكروا ناسوت المسيح عندما علَّموا بأن المسيح كان في هيئة إنسان ولم يكن إنسانًا حقيقيًّا.

فإن الدسوتي الحقيقي لا يؤمن بحقيقة جسد المسيح ولا يتكلم عن وجوده. أما معلِّم الإسكندرية فبالرغم من تشديده على لاهوت المسيح فإنه لم يهمل الكلام عن ناسوته فهو يؤمن بأن اللوجوس المتجسِّد هو الله وإنسان، الذي منحنا الحياة (انظر كتابه PROTRET 11, 88, 114). بل إن إكليمندس قد علَّم بأن اللوجوس، الذي هو سابق لكل وجود، هو هو نفسه الذي سكن في شخص يسوع المسيح التاريخي، وهو نفسه أيضًا الذي حل في الجسد وارتبط به (راجع كتابه STROM 5, 105, 4; 5, 38, 6).

فإكليمندس لم ينكر إذًا حقيقة جسد المسيح كما فعل الغنوسيون، بل أشار إلى هذا الجسد الحقيقي في كتاباته العديدة. فليس من السهل القول بأن إكليمندس كان دسوتيًا، ولكنه حاول أن يوفِّق بين التعاليم الغنوسية الوثنية وبين الغنوسية المسيحية، وفي المحاولة قد شدَّد كثيرًا على اللاهوت معطيًا له الأولوية العظمى. ولهذا السبب عندما كان يتعرَّض في تفسيره أو تعليمه لشرح عقيدة حلول «اللوجوس» في الجسد، فإنه كان يبالغ في أبرز ملامح اللاهوت في الصورة التي كان يرسمها عن التجسُّد لدرجة أن القارئ لا يرى في أحيان كثيرة إلا اللاهوت الذي غمس فيه يوحنا يده والذي لا يخضع للجوع أو للعطش أو للآلام، وتتلاشى صورة يسوع الناصري الإنسان الذي كان يعطش ويجوع ويتألم.

ومما لا شك فيه أن إكليمندس المسيحي المتجدِّد في الإسكندرية كان يحتفظ في داخله بجزء من إكليمندس الفيلسوف اليوناني الذي درس الفلسفات اليونانية الوثنية بمذاهبها المختلفة المتنوِّعة، وبالرغم من ذلك لا يمكننا أن نعمِّم هذا المبدأ على كل ما كتبه هذا الرجل المثقَّف المطلع ليس فقط على الفلسفات الوثنية، بل على الكتب المقدسة، ويكفينا أن نلقي نظرة على ما كتبه لكي نعرف كفاءة الرجل العلمية والكتابية في شتى المواضيع. فلقد كتب كتبًا عن الكنيسة ومكانها وما هي (انظر PAED 1, 6, 3; 42, 12, 89, 16, 7.STROM 1. 1, 15; 7.1, 76; 7; ; 76.)

وعن الدرجات في الكنيسة (STROM 6, 13, 107) ثم كتب عن العماد (انظر STROM 3. 12, 87) ثم كتابه «من هو الغني الذي سيخلص؟» (١ ;٢٣) وكتب أيضًا عن الأفخارستيا. ما هو سر الأفخارستيا بالنسبة له، هل هو تقديم الذبائح، أو الحضور في الاجتماعات الدينية أو تناول العشاء الرباني أو هو انسحاق القلب وتقديمه للرب كذبيحة حية مرضية لله؟ يبدو أن معلِّم الإسكندرية فضَّل هذا الرأي الأخير (انظر STROM 7, 3, 14 – 15; 7, 6, 32; PAED 1, 6, 42, 3 – 43, 2). ولقد كتب أيضًا يعالج موضوع الخطية والتوبة (انظر STROM, 2, 13, 56 – 57, 4; 2, 13. 58 – 59; PAED 1, 8, 67).

ثم كتب عن الزواج والعزوبية (انظر STROM 3, 12, 82; 712, 10, PAED 1,4).

مراجع هامة

1. J. Quasten, Initiation aux Peres de l'Eglise, 2e vol. (Les Editions du Cerf).

من صفحة ١٢ - ٤٩ يعطي الكاتب قائمة ضخمة جدًّا بمراجع في غاية الأهمية.

2. A. Grillmeier, Le Christ dans La Tradition Chretienne, De L,âge apostolique a Chalcedoine (451) (Les Editions du cerf).

توجد أيضًا قائمة بكتب تختص بهذا الموضوع من صفحة ١٨٧ - ١٩٢.

3. J. Diebaert, Histoire des Dogmes: L'incarnationdes Origines au Concile de Chalecedoine (Les Editons du cerf).

قائمة الكتب في صفحة ٩٢ - ٩٣.

4. F. R. M. Hitchcock, Clements of Alexandria, London 1899.

5. J. Patrick, Clements of Alexandria, 1914.

6. R. B. Tolinton, Alexandrine Teaching on the Universe, New York. 1932.

7. E. De, Faye, Clement d'Alexandrie 2e ed, Paris 1906.

8. R.E. Witt, The Hellenism of Clement of Alexandria, c 925 (1931) 195 – 204.

9. J. Moingt, La Gnose de Clément d'Alexandrie dans ses Rapports avec la Foi el la Philosophie, RSR 37 (1950) 195. 251, 38 (1951) 82- 118.

10. V. Ermoni, The Christologie of Clement of Alexandria, YTHST 5 (1904) 125 SQ.

11. H. A Wolfson, Clements of Alexandria on the Generation of the Logos. Church & History 20 (1951) 3 – 17.

الفصل الرابع

ترتليانوس

عندما ندرس تاريخ الكنيسة، نرى أن المسيحية قد انتشرت خلال القرنين الأول والثاني ليس فقط في أورشليم وأنطاكيا ومصر وروما وأفسس وسميرنا، وبلاد الغال (فرنسا حاليًا)، ولكنها وصلت أيضًا إلى أفريقيا، بل إن هذه الأخيرة تمخَّضت وولدت ليس فقط مؤمنين عاديين قبلوا المسيح يسوع كمخلِّص ورب لحياتهم وتصرفاتهم، بل إن أفريقيا ولدت أبطالاً في الإيمان أصبحوا كالنجوم اللامعة في سمائها الزرقاء الصافية، فبشروا شعبها بالإنجيل وعلَّموه الإيمان الصحيح الذي تسلَّموه من خدام الرب الأمناء. ومن بين هذه النجوم الأفريقية اللامعة ترتليانوس وكبريانوس، وأغسطينوس وآخرون.

ترتليانوس:

واسمه بالكامل في اللاتينية هو كنتينوس سيبتينوس فلورنتوس ترتليانوس QUINTUS, SEPTINUS, FLORENT, TERTULLIANUS ومسقط رأس هذا الرجل قارطجنة (CARTHAGO). وهي مدينة أثرية قديمة في شمال أفريقيا أسسها الفينيقيون في حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ولا تبعد كثيرًا عن تونس الحالية.

وُلد ترتليانوس في حوالي سنة ١٥٥- ١٦٠ من والدين وثنيين، وكان أبوه يحتل مركز رئيس فرقة الوالي الرومانية في هذه المدينة. وفي هذه المدينة الوثنية، نشأ الشاب ترتليانوس وتردد على مدارسها وتتلمذ على أيدي معلِّميها، ثم توجَّه بعد ذلك إلى روما لكي يدرس الحقوق فنجح فيها نجاحًا ملحوظًا. وبعد أن أنهى دراسة الحقوق ظل مقيمًا في روما وقتًا من الزمن يمارس فيها المحاماة، حيث طارت شهرته كالبرق، فأصبح محاميًا مشهورًا قديرًا، وكان المعلِّم الأفريقي متزوجًا، ولا نعرف الكثير عن زوجته. إلا أن كتاباته تحتوي على كتاب قد كتبه إلى زوجته، وفيه ينصحها بعدم التزوج مرة ثانية إذا شاءت العناية الإلهية بأن يغادر قبلها الحياة الأرضية. ولكن إن لم تستطع احتمال الترمُّل فليكن زوجها مسيحيًا حقيقيًا متدينًا (انظر كتابه AD. UXOREM).

تختلف الظروف التي تجدَّد فيها ترتليانوس عن الظروف التي تجدَّد فيها كلٌّ من القديس يوستينوس وإكليمندس، فكما سبقت الإشارة فإن هذين الآخرين قبلا الرب يسوع كمخلِّص وفادٍ لهما بعد بحث طويل ودراسة عميقة وتفكير ناضج، أما الذي قاد المعلِّم الأفريقي للمسيح فهو الشجاعة المنقطعة النظير التي أظهرها الكثيرون من الشهداء عندما استقبلوا الموت ليس فقط بلا خوف أو انزعاج، بل أيضًا بفرح وابتهاج.

فإن موقف هؤلاء الشهداء عند استشهادهم وتقديمهم الشهادة الحسنة اللامعة لشخص ربنا يسوع المسيح غير حاسبين

نفوسهم ثمينة عندهم، كان لهذا الموقف البطولي الأثر العميق على المحامي الأفريقي. ولقد سجل لنا هو نفسه هذه الانطباعات في كتابه (AD. SCAFULAM 5) فإن شجاعة المسيحيين الأولين الذين كانوا يستقبلون الموت بلا تردد ولا خوف، دفعت رجل القانون ترتليانوس إلى أن يفكر في دارسة الإنجيل والتعرُّف على هذه الديانة. ويحتمل أنه تجدَّد في حوالي عام ١٩٣. ومنذ ذلك الوقت بعد أن قبل المسيح مخلصًا وفاديًا، كرَّس نفسه وحياته للدفاع عن هؤلاء المسيحيين الذين كانوا بلا مدافع أرضي، فإن معظم كتابات هذا المدافع المحامي تحتوي على كتابات دفاعية عظيمة جدًا. ومن أشهر هذه الكتب كتبه الدفاعية (LES ECRITE APOLOGETIQUE)؛ ففي عام ١٩٧ كتب كتابَين يشرح فيهما بلباقة نادرة نقدًا لاذعًا وثباتًا لا تهزه العواطف، موقف المسيحية من الدولة وموقف الدولة من المسيحية.

ففي هذين الكتابَين حاول المحامي المُدافع أن يشرح ليس فقط للحكام الذين كانوا يضطهدون المسيحيين بوحشية وبلا شفقة، بل للشعب أيضًا أن هؤلاء ليس لهم الحق في اضطهاد مواطنين صالحين كالمسيحيين؛ فلقد أوضح في دفاعه عن المسيحيين أن الجهل هو المسئول الأول عن موقف الحكام والشعب في اضطهادهم للمسيحيين. فإن المسيحيين ليسوا بأعداء الدولة أو الإمبراطور ولا أعداء الجنس البشري كما اتهمهم البعض بذلك. وكيف يمكن أن تلاميذ ذاك الذي أوصى بأن نحب الأعداء، أن يكونوا أعداء للدولة أو للجنس البشري؟

(انظر كتاب APOLOGIE 29 - 1 - 7) فبعد أن ينفي المحامي الشهير تهمة أن المسيحيين أعداء للدولة، يطالب بحرية الدين، وأنه ليس من حق الأممي أن يحاكم المسيحي لأن الأول أممي والثاني مسيحي، وأن المسيحية لا يجب أن تكون جريمة يُحاكم عليها الذين ينتمون إليها (انظر كتاب الدفاع AUX PAIENS 1-19).

وعلى ما يظن أن ترتليانوس رجع بعد تجديده إلى وطنه قارطجنة ليخدم سيده هناك. ومع أنه لا يذكر في كتاباته أنه رسم كاهنًا إلا أن جيروم يؤكد هذا الأمر.[1]

ولقد احتل هذا الكاهن المحامي مكانةً عظيمةً جدًا في التعليم والتهذيب والإرشاد. إذ قد أسند إليه عند عودته إلى مسقط رأسه (التعليم المسيحي) أي الاهتمام بتعليم المسيحيين وغير المسيحيين الحقائق والعقائد المسيحية.

غير أن علاقته بالكنيسة الكاثوليكية ساءت بسبب تشجيعه لجماعة المونتانيين (MONTANISME) وانضم رسميًا إلى هذه الجماعة عام ٢٠٧. يبدو أن ترتليانوس كان له النفوذ القوي والتأثير الفعال على هذه الطائفة لدرجة أنه أصبح رئيسًا لجماعة فيها، بل إن هذه الجماعة انتحلت اسمه فدعوا أنفسهم: (الترتليانوسيين). ولقد ظلت هذه الجماعة قائمة في قارطجنة أو (كارتاج) إلى وقت ظهور القديس أغسطينوس.

لا يمكننا أن نحدد بالضبط تاريخ موت ترتليانوس، إلا أنه من المؤكد أن موته لم يكن قبل سنة ٢٢٠ (انظر J. QUASTEN P. 294). مات ترتليانوس ولكن تعاليمه التي تركها لنا وكتاباته العديدة جدًا، وجدت في قلوب الشعب والمعلّمين تربةً صالحةً فنمت فيها وترعرعت، فأتت بثمارها الكثيرة على مر العصور والأجيال. فإذا استثنينا القديس أغسطينوس، لأصبح ترتليانوس،

(1) Frederic Delforge. Soixante te moins de Jésus – Christ Le Christianisme au Vingtiéme Siecle, p. 10.

في الكنيسة اللاتينية الكاتب الأول ذا الشهرة اللامعة والمعرفة الكتابية واللاهوتية العميقة والقانوني المحنَّك والفيلسوف المفكِّر والدارس المتعمِّق؛ فقد درس بجانب دراسته للحقوق، والآداب، اللاتينية واليونانية والفلسفات المختلفة في عصره. وكما قال عنه جريلامير GRILLMEIER «إن كثيرين من اللاهوتيين يعتقدون أن التعاليم اللاهوتية الكرستولوجية الغربية تقدمت على التعاليم اللاهوتية الكرستولوجية الشرقية بعدة قرون بفضل ترتليانوس» (انظر GRILL. p. 166).

ويمكننا أن نضيف عدة شهادات واقتباسات من كتابات كتَّابٍ كثيرين كتبوا عن هذا الرجل وتعليمه وتأثيره على جيله والأجيال التالية، ولكننا نكتفي بتلخيص ما كتبه كاستن (QUASTEN) عنه فيقول: «أسلوبه يدل على تمكُّنه من اللغة اللاتينية ومقدرته الخطابية؛ فقد استطاع أن يصنع بل أن يخلق اصطلاحات غير معروفة وغير موجودة من قبل، لكي يعبِّر بها عن أفكاره وتعاليمه فإن هذه المقدرة اللغوية ساهمت مساهمةً عظيمةً وفعَّالةً في تاريخ الكنيسة المسيحية اللاتينية في شمال أفريقيا» (انظر 297- QUASTEN 296).

كان ترتليانوس رجل القانون والعلم حازمًا في قراراته، ثابتًا في تعاليمه وإيمانه، لا يتردد في الدفاع عن إيمانه ولا في الدفاع عن المظلومين، ولو كان هذا الأمر يُغضب الرؤساء ويعرِّض حياته لخطر الموت. ألم يكتب دفاعه ضد الحكام والأباطرة؟ موضحًا لهم موقف المسيحي من المجتمع الذي يعيش فيه؟ (راجع AUX, PAIENS «إلى الأمم»، APOLOGIE).

ومع أن ترتليانوس تعلَّم وتهذَّب بكل العلوم التي درسها كلٌّ من يوستينوس وإكليمندس إلا أن موقفه منها يختلف الاختلاف كله عن هذين المعلِّمين؛ فلقد سبق أن أشرنا إلى أن يوستينوس يعتبر أن بذور اللوجوس وجدت في فلاسفة اليونان والوثنيين تربةً نمت فيها. فاللوجوس أرشد فلاسفتهم ومعلِّميهم. ثم أن إكليمندس الإسكندري ذهب في هذا المجال إلى أبعد من ذلك لدرجة أنه علَّم بأن الدور الذي قام به الفلاسفة الوثنيون هو نفس الدور الذي لعبه الناموس عند اليهود. أما ترتليانوس فهو على عكس ذلك تمامًا؛ فهو يرفض زواج الفلسفة والدين، فلقد كتب ما ملخصه: «ماذا تعمل أثينا مع أورشليم؟ أيوجد اتفاق بين الكنيسة والأكاديمية؟ أيوجد انسجام بين الهراطقة والمسيحيين؟ لنبتعد عن كل محاولة لعمل مزيج من المسيحية والرواقية أو الأفلاطونية. وبعد أن امتلكنا المسيح يسوع، لا نريد فيما بعد مناقشات هدفها حب الاستطلاع، ولا نحيد عن الإنجيل. ولا نريد أن نضيف إلى إيماننا معتقدات أخرى» (راجع DE PRAESCR 7).

فترتليانوس لا يريد الرجوع إلى الأركان الضعيفة لكي يفهم عن طريقها وبواسطتها إنجيل المسيح. ويقول في موضع آخر: «أيوجد اتفاق بين المسيحي والفيلسوف؟ بين تلميذ اليونان وتلميذ السماء؟ بين الإنسان الذي يبحث عن الشهرة وبين الذي يريد أن يصل إلى الحياة؟ بين الذي يتكلم والذي يعمل؟ بين الذي يبني والذي يهدم؟ بين الذي يفسد الحق والذي يعلِّمه؟ (انظر APDI, 46) ولقد لقب سقراط بلقب «مُفسِد الشباب». وأما يوستينوس فقد قال عن سقراط بأنه مسيحي (انظر APOL 46; DE PRAESER).

وبالرغم من هذا الهجوم على العلوم والفلسفة، فهو يعتقد بأن بعض الفلاسفة قد وصلوا إلى جزء من الحق وفكروا بطريقة صحيحة بنَّاءة أمثال سينكا الفيلسوف وآخرين (انظر DEAN., 20).

ويعتقد البعض أن موقف ترتليانوس من الفلسفة والعلوم ما هو إلا انعكاس لتعاليم المونتانيين التي تأثر بها تأثرًا عميقًا.

كتابات ترتليانوس:

إن تأثير هذا الرجل ككاتب، ومعلِّم وقانوني ومدافع عن الإيمان، كان عظيمًا جدًّا ولا يمكن قصره على جيله أو كنيسته فحسب، بل لقد تخطَّى الحدود وعَبَر الأجيال. ويعوزنا الوقت لو أردنا أن نسرد هنا كل كتاباته بالتفصيل لأنها كثيرة جدًّا، ولذلك سنكتفي بالإشارة إلى البعض من كتاباته مع التعليق البسيط، ثم نعطي في نهاية الفصل قائمةً ببعض المراجع التي تساعد الدارس على التوسُّع في دراسة هذه الشخصية العظيمة. وكم نتمنى أن يقوم البعض بدراسة جدية ودقيقة لبعض آباء الكنيسة أمثال أغناطيوس الأنطاكي، وإكليمندس الروماني، وبوليكاربوس، وإيريناوس، وإكليمندس الإسكندري... إلخ.

١ - الكتابات الدفاعية:

(LES ECRITS APOLOGETIQUES DE TRETULLIENS)

(أ) من كتبه الدفاعية الكتابان اللذان كتبهما عام ١٩٧، وهما يعالجان نفس المشكلة؛ أي الدفاع عن المسيحيين وعن حقوقهم كمواطنين أكثر إخلاصًا وأكثر نشاطًا وحبًّا للوطن من أي مواطن آخر. والكتاب الأول يُسمَّى «للأمم» (AUX NATIONS).

(ب) أما الكتاب الثاني ويُسمى «دفاع» (APOLOGIE)، فيُعتَبَر من أهم ما كتب ترتليانوس؛ فقد حاول في هذا الكتاب أن يصل إلى قلوب حكام المقاطعات الرومانية لا لمهاجمتهم وإظهار غطرستهم وظلمهم في الحكم، بل لقيادتهم للمسيحية وإقناعهم بها.

فإن كان ترتليانوس يهدف من هذا الكتاب إلى الدفاع عن المسيحيين وعن حقوقهم، إلا أنه لم ينسَ قط الناحية العقائدية، فقد تكلم عن الروح، روح الإنسان الساكنة فيه، من أين جاءت ومتى خلقت؟ (انظر APOL. 17, 1, 4 - 6).

(ج) خطابه المفتوح إلى الحاكم أسكابولا (SCAPULA). وجَّه المدافع هذه الرسالة كخطاب مفتوح إلى الحاكم أسكابولا (حاكم في أفريقيا ٢١١ - ٢١٣) الذي كان يضطهد المسيحيين بوحشية وبلا رحمة، ووصلت وحشيته في الاضطهاد إلى أنه كان يأمر بإلقاء بعض المسيحيين للوحوش الضارية المفترسة. كما أنه أمر بإلقاء البعض الآخر في النار المتقدة. وعلى ما يُظن أن هذه الرسالة المفتوحة كُتبت عام ٢١٢، إذ أنه يشير إلى خسوف الشمس الذي حدث في ١٢ أغسطس ٢١٢ كعلامة على غضب الله. يحتوي هذا المكتوب على خمسة فصول.

(د) كتب كتابًا آخر يُسمى «ضد اليهود» (CONTRE LES JUIFS). والذي دفعه إلى كتابة هذا المصنَّف حوار دار بين مسيحي وبين دخيل يهودي على المسيحية؛ ففيه يتكلم عن المسيح الملك الذي مُلكه بلا نهاية وبلا حدود. كما أنه يوضح بأن النبوات التي تنبأ بها الأنبياء، تحقَّقت في المخلِّص.

٢ - الكتابات الجدلية:

(أ) حق الهراطقة في استعمال الكتاب (LA PRESCRIPTION DES HERETIQUES). حاول ترتليانوس أن يشرح قانونيًّا أن الهراطقة لا يملكون حق استعمال الكتاب المقدس (راجع فصل ١ - ١٥).

(ب) كتابه ضد ماركيون (ADVERSUS MARCIONEM):

يُعد هذا الكتاب أضخم ما كتبه ترتليانوس من ناحية الحجم، كما أنه في غاية الأهمية لأنه يُعتَبَر وثيقة تاريخية لدراسة

هرطقة ماركيون. ويحتوي هذا الكتاب على خمسة مجلدات، وفيه يفنِّد الكتاب عقيدة وأفكار ماركيون وخاصةً الازدواجية الموجودة بين إله العهد الجديد وإله العهد القديم. والكاتب نفسه يعرِّفنا بأن المجلد الأول كتب في السنة الخامسة عشرة من حكم الإمبراطور سفريوس أي عام ٢٠٧، كما أن بقية المجلدات ظهرت بعد فترة قصيرة من ظهور المجلد الأول (راجع MAR. ١, ١٥).

(ج) كتابه ضد هرموجن (CONTRE HERMOGENE):

وهو رسَّام غنوسي من قرطاج أو قارطجنة، كان يعتقد بأن المادة أزلية كأزلية الله، فلا بداية لها ولا نهاية. فهي إذًا مثل الله بل مساوية له. ولقد حارب ترتليانوس هرموجن موضحًا ضلال عقيدته، ويبدو بأن ثيوفيلوس الأنطاكي سبق أن كتب مصنَّفًا ضد هرطقة هرموجن (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 4, 24).

(د) كتاب ضد الفالنتينوسيين أو الفالنتينيين (CONTRE LES VALENTINENS):

وهو عبارة عن كتاب نقد لاذع لمذهب الغنوسيين الفالنتينوسيين ويقتبس الكاتب كثيراً من كتابات القديس إيريناوس (الكتاب الأول .ADV. HAER)، ثم يقتبس أيضًا بعض الاقتباسات من القديسين يوستينوس الشهيد، وميلتيادوس (MILTIADE).

(هـ) كتابه عن العِماد:

يُعتَبَر هذا الكتاب من الوثائق الثمينة والتاريخية التي تكلمنا عن ليتيرجية العِماد (نظام العِماد) وفاعليته.

(و) كتابه عن العقارب.

(ز) جسد المسيح:

يحتوي على مجلدَين يكمل أحدهما الآخر، وفي هذا الكتاب الذي يُسمَّى جسد المسيح (جسم المسيح) (CHAIR DU CHRIST) حاول ترتليانوس أن يشرح بطريقة واضحة ومقنعة للمؤمن حادثة قيامة الجسد. ويقول الكاتب (ترتليانوس) إن الهراطقة أنكروا حقيقة جسد المسيح، وهو يشير بذلك إلى أربعة مذاهب معروفة في وقته وهي الماركيونية والأبليسية (APELLE) والبازيليدوسية (BASILIDE) والفالنتينوسية (VALENTIN)؛ فكلٌّ هذه المذاهب الغنوسية تقبل بحقيقة المسيح الروحية وتعترف بها، ولكنها لا تقبل حقيقة جسده أو على الأقل إن البعض منها يشك في وجود جسد حقيقي للمسيح. ولقد كانت الأسئلة التي تشغل بال هذه الطوائف الغنوسية هي: هل كان للمسيح جسد؟ وما هو نوع هذا الجسد ومن أين جاء؟ ولقد حاول ترتليانوس أن يجيب على هذه الأسئلة فهو يعتبر أن ميلاد المسيح حقيقة واقعية لا شك فيها، وبهذا رفض تعاليم ماركيون الدسوتية، وكذلك عقيدة الغنوسيين؛ فالمسيح لم يأخذ طبيعته من الملائكة مع أنه يُدعَى ملاك الرب، ولا من النجوم كما يعتقد (APELLE) ولا من أية مادة روحية أيًا كانت كما ظن فالنتينوس، بل إنه كان مثلنا تمامًا في كل شيء ما عدا الخطية، ومع ذلك فهو لم يولد عن طريق زرع بشري. فإن جسد آدم الأول وجسد آدم الأخير لم يعرفا زرعًا بشريًا (انظر كتابه DE CARNE CHRIST 1, 17) كما أن ترتليانوس يرفض أيضًا قول الغنوسيين بأن المسيح لم يأخذ شيئًا من العذراء، فهم لا يقولون إن المسيح وُلد من العذراء بل وُلد عن طريق العذراء أو في العذراء (انظر DECAR 23).

(ح) قيامة الأجساد:

وهو يتكلم في هذا الكتاب عن الطوائف التي تنكر القيامة مثل طائفة الصدوقيين وجماعة الهراطقة وجماعة الوثنيين. ويقول إن الجسد خلقه الله وفداه المسيح ويجب أن يدان في الآخرة مع الروح.

- كتابه ضد براكسياس (CONTRE PRAXEAS):

كتب المعلِّم الأفريقي هذا الكتاب ضد عقيدة انتشرت في ذلك الوقت تدعى «الانتحالية» (MODALISME) ثم (PATRIPASSIEN) وستكون لنا الفرصة فيما بعد للحديث عن هذه الشيعة. على أن كتاب ترتليانوس موجَّه لشخص يدعى براكسياس (PRAXEAS) قبل تعاليم هذه الشيعة ونادى بها. وقد كتبه في حوالي عام ٢١٣ وتتلخَّص التعاليم التي نادى بها براكسياس فيما يأتي:

إن الآب هو نفسه الذي نزل في بطن مريم العذراء ووُلد منها، وهو أيضًا نفسه الذي تألم، فالآب هو نفسه يسوع المسيح (انظر PRAX 1) ورفض ترتليانوس هذه العقيدة، ويعتبر ما كتبه دحضًا لهذه الهرطقة في غاية الأهمية؛ فهو أول كاتب لاتيني، يستعمل الاصطلاح «الثالوث» وكتابه ضد براكسياس (ADV. PRAX) في غاية الأهمية أيضًا لأنه يحاول شرح الوحدة القائمة بين الآب والابن والروح القدس، وهذه الوحدة مؤسَّسة على التميز وليس على الانقسام؛ أي أنه يجب التمييز بين الآب والابن والروح القدس دون فصلهم الواحد عن الآخر.

ومع أن المعلِّم الأفريقي حاول جاهدًا الابتعاد عن السقوط في الهرطقات التي كانت تهدد الكنيسة، فقد انزلق انزلاقًا خفيفًا نحو عقيدة التابعية (SWBORDINATIANISME) عندما تعرَّض لشرح علاقة الآب بالابن.

(ط) كتابه عن الروح:

هذا الكتاب يُعد من أضخم كتبه حجمًا إذا استثنينا كتابه ضد ماركيون؛ ففي هذا الكتاب يرفض أيضًا الهرطقات المنتشرة كما أنه يرفض فكرة الوجود السابق للروح، فهو يؤمن بأن الروح والجسد يصلان معًا وفي نفس الوقت إلى الجنة. (انظر كتابه الروح AME 7) كما يعتقد أيضًا أن كل الأرواح تذهب بعد الموت إلى الهاوية ولا يفلت من الدخول فيها إلا أرواح الشهداء المختومة بدم الشهادة، فهي التي تذهب مباشرةً بعد الموت إلى الفردوس (انظر AME 55).[1]

٣- كتاباته عن النظام والآداب والتقشف:

كتب تحت هذه المجموعة عدة كتب نذكر أسماءها فقط:

١- إلى الشهداء ٢- الملاهي ٣- زينة النساء أو مظهر النساء

٤- الصلاة ٥- الصبر ٦- التوبة ٧- كتاب إلى زوجته

٨- حث على الطهارة ٩ - التزوُّج بامرأة واحدة

١٠- كتاب عن غطاء وجه العذارى ١١- التاج

١٢- الهروب في أثناء الاضطهاد ١٣- عبادة الأصنام

(1) La Morogamie.

١٤- الصوم ١٥- التواضع.

بجانب هذه الكتب توجد كتب أخرى كتبها هذا الرجل العظيم ولكنها ضاعت للأسف الشديد. وقد ذكر هو نفسه البعض منها في مؤلفاته التي سبقت الإشارة إليها كما أن بعض الكُتَّاب المتأخرين أمثال جيروم أشاروا إلى هذه الكتب.

ولقد حاول البعض إلصاق اسمه ببعض الكتب، ولكنهم لم ينجحوا في هذا الأمر.

تعاليم ترتليانوس:

إن تعاليمه متعددة الفروع وواسعة وكثيرة جدًا كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فلا يمكننا أن نتعرَّض لكل تعاليمه ولا حتى لجزء بسيط منها، ولكن الذي يهمنا في هذا البحث هو أفكاره الكرستولوجية، وماذا كان يرى في المسيح؟

كتب ترتليانوس الكثير عن شخص المسيح، عن اللوجوس، عن ابن الله. إلا أنه كان مضطرًا إلى أن يدافع عن الثالوث، وفي دفاعه عن هذه العقيدة كان مضطرًا بطبيعة الحال إلى أن يتكلم عن المسيح. ولكي نفهم تعاليم هذا الرجل والمواضيع التي حاول معرفتها، يجب علينا أن نلقي نظرة على الظروف التي كانت تحيط به، فإنه وُجِد في ظروف مشابهة، إن لم تكن أكثر تعقيدًا من الظروف التي وُجِد فيها الكثيرون من الآباء المدافعين، فكان يحارب في عدة جهات في وقت واحد؛ إذ أنه كان يدافع عن عقيدة التجسُّد محاولاً أن يشرح هذه العملية للدخلاء من الوثنية، وللوثنيين أنفسهم، هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، وكانوا مشدودين إلى فكرة أن يسوع المسيح هو واحد من هذه الآلهة العديدة. كان يحارب أيضًا ضد اليهود الدخلاء وغير الدخلاء الذين لم يروا في يسوع المسيح إلا مجرد إنسان. كان يناضل أيضًا ضد جماعة أخرى من اليهود رأت في لاهوت المسيح تهديدًا عظيمًا لوحدة اللاهوت وهي جماعة وحدة الله (MONARCHIANISME) وفوق هذا كله كان عليه أيضًا أن يحارب الهرطقات الموجودة داخل الكنيسة وخارجها، مثل أتباع ماركيون وفالنتينوس وغيرهما.

ولقد قام بحرب شعواء، لا هوادة فيها ضد هؤلاء أجمعين. وكان عليه أن يتسلَّح لكي يستطيع لا أن يصمد فقط ضد هجمات العدو، بل أن يقوم هو بنفسه بعمليات هجوم ضد التعاليم الضالة والهرطقات الكاذبة فيهدمها هدمًا ويدك قصورها الشامخة العالية. ولهذا السبب، فقد حاول أن يخترع مصطلحات جديدة وعديدة لكي تعبِّر عن تعاليمه اللاهوتية دون أن يبتعد عن المكتوب.

ومن المشاكل اللاهوتية الضخمة التي تعرَّض لمعالجتها في كتابه الذي كتبه ضد براكسياس (PRAXEAS) مشكلة الثالوث، ومما لا شك فيه أنه عندما يتكلم أي لاهوتي عن الثالوث لا بد له بأن يتكلم عن شخص المسيح يسوع. والذي دفع اللاهوتي الأفريقي إلى الكتابة في هذا الموضوع هو انتشار التعاليم التي تسمى «بالمودااليزم» (MODALISME) ويمكننا أن نترجم هذا الاصطلاح بكلمة «هيئة» أو «طريقة» أو «شكل»، أو «انتحال».

وملخَّص هذه العقيدة التي كان يعلِّم بها براكسياس (PRAXEAS) في روما وانتشرت أيضًا في قارطجنة أو قرطاج، هو أن المسيح هو الله الآب، فالمسيح ما هو إلا مظهر من مظاهر الله أو بمعنى آخر، فإن الله واحد وهذا الإله الواحد ظهر في يسوع المسيح في هيئة إنسان. وهو نفسه ظهر فيما بعد في شكل الروح القدس وحل على المؤمنين؛ فالآب والابن والروح

القدس ما هم إلا أسماء لا أقانيم.[1] وفي حقيقة الأمر لا يوجد إلا شخص واحد وهو الله الذي استعمل طريقة معينة فأصبح ابنًا أو أخذ شكل الابن، وبطريقة أخرى أصبح هو نفسه الروح القدس. وهذا الآب هو الذي تألم، ولذلك فقد سُميت هذه الجماعة بالـ (PATRIPASSIANISME) «أي الآب الذي يحتمل الآلام أو الذي يشعر بالآلام». والذي دفع هؤلاء إلى اختلاق هذا المذهب هو إيمانهم «بوحدة الله» (MONARCHIANSME)، فلقد رأوا في مذهب الآب والابن والروح القدس نوعًا من التعدد لا يمكن معه أن يكون هؤلاء الثلاثة إلهًا واحدًا، ولذلك فقد نادوا بأن الإله الواحد، الله الآب ظهر بطرق مختلفة، ظهر بهذه الطرق الثلاث دون أن يتحول إلى ثلاثة آلهة، بل هو نفس الإله، نفس الآب اتخذ هذه الطرق الثلاث المختلفة.

ومما لا شك فيه أن ترتليانوس نادى هو أيضًا بوحدة الله، ولكن هذه الوحدة هي وحدة الأقانيم، فإن الله هو آب وابن وروح قدس، هؤلاء الثلاثة الأقانيم هم إله واحد، الله الواحد المثلّث الأقانيم من جوهر واحد. فهو يقول أؤمن بأنه يوجد جوهر واحد في الثلاثة (انظر DE PUD. 21, 12). وكما سبق أن أشرنا فإن ترتليانوس هو أول كاتب لاتيني يستعمل الاصطلاح «التثليث». وفي كلامه عن التثليث، كان أول شخص أيضًا استعمل الاصطلاح (PERSONA) الذي يمكن أن نسميه «أقنومًا» (انظر ADV., PRAX. 12). هذا الاصطلاح سيلعب دورًا هامًا فيما بعد في المناقشات والمجادلات العقائدية أثناء انعقاد المجالس المسكونية.

تعاليمه الكرستولوجية:

ما هي عقيدته في اللوجوس، في المسيح؟

مما لا شك فيه أن تعليم ترتليانوس عن شخص المسيح يُعتَبَر تقدمًا عظيمًا وخطوة واسعة بالنسبة لسابقيه. وبالرغم من ذلك فلم يستطع أن يهرب من الشرك الذي سقط فيه الكثيرون من سابقيه، وهو مشكلة التابعية (SUBORDINATIANISME) فإن هذه المشكلة قد أتاهت المدافعين من قبله؛ فلقد حاول هؤلاء المدافعون شرح عقيدة اللوجوس ومتى وكيف ظهر، وحاولوا التمييز بين الكلمة الداخلي أو الساكن في الله LE VERBE INTERNE OU IMMANENT EN DIEU. وبين الكلمة الخارج أو المنطوق من الله أو الذي نطق به الله. وترتليانوس يعتقد بأن ظهور أو ميلاد اللوجوس بدأ بالتدريج، فمع أنه يستعمل كلمة «حكمة» (SAGESSE) عند التكلم عن الكلمة، والحكمة والكلمة صفتان يوصف بهما الأقنوم الثاني، إلا أنه يميز بين الميلاد الأول لهذا الأقنوم، والحكمة، قبل الخليقة وبين الميلاد الكامل في لحظة الخليقة، عندما نطق الله هذا اللوجوس وأصبح الكلمة، في هذه اللحظة أصبح الكلمة منظورًا وكاملاً، فعندما قال الله «ليكن نور»، كان هذا هو الميلاد الكامل للكلمة الذي خرج من الله، الذي انبثق منه. فإن هذا الكلمة كان ساكنًا في الله، كحكمة، كفكر (أم ٨: ٢٢). ولكن عند عملية الخليقة، خرج هذا الحكمة، وظهر هذا الكلمة اللوجوس من الله، أو أن الله أخرج أو بثق منه هذا الكلمة، فإن الكلمة قد انبثق من الله لكي يعمل معه في خلق العالم (أم ٢٢: ٢٧) وبهذه العملية - أي عملية انبثاق أو خروج اللوجوس أو الكلمة من الله - أصبح الله الآب أبًا وأصبح اللوجوس المنبثق منه أو المولود منه ابنًا. فهو الابن البكر لأنه وُلد قبل كل خليقته بل إنه الابن الوحيد، إذ أنه الوحيد الذي وُلد من الله (انظر كتابه ADV, PRAX 7) ويواصل ترتليانوس شرحه بالقول بأنه بناءً على ما سبق فالابن كابن ليس أزليًا (انظر HERMOG 3 EP. 321).

---

(١) كلمة «أقنوم» لم تكن معروفة ومنتشرة في ذلك الوقت بالطريقة التي عُرفت بها في نهاية القرن الثالث.

ومع ذلك فإن اللوجوس هو هو نفسه قبل وبعد الخليقة، وترتليانوس لا يريد بهذه العبارة الأخيرة أن يقول بأن الابن شخص يختلف عن شخص اللوجوس، بل إن صفة الابن أو الاصطلاح «ابن» لم يكن منذ الأزل بل كان نتيجة عملية انبثاق الابن من الآب.

وبما أن الابن انبثق أو خرج من الآب، فهذا الأخير هو الجوهر الكامل أو الكلي، وبناءً على ذلك، فإن الابن هو سيل من هذا الكل، الآب هو كلي الجوهر (TOTA SUBSTANTIA EST) بينما الابن هو جزء من هذا الكل (DERIVATION TOTIUS ET PORTIO).

ويستشهد ترتليانوس بكلمات المسيح التي تقول: «لأن أبي أعظم مني» (يو ١٤: ٢٨). وتظهر فكرة التابعية أو أولوية الآب على الابن أو سمو الآب على الابن في التشبيهات الكثيرة التي أعطاها لشرح هذه العقيدة، فهو يقول بأن خروج الابن من الآب يشبه تمامًا خروج شعاع الشمس من الشمس. هكذا نطق الله الكلمة، فإن الفرع يخرج من جذع الشجرة والنهر من الينبوع والشعاع من الشمس، كل هذه الأشياء خارجة من مصادر، ومولودة منها. وبناءً عليه فإننا نقول بلا تردد بأن الفرع هو ابن الجذع، والنهر هو ابن الينبوع والشعاع هو ابن الشمس، فإن المصدر هو أب لما وُلد منه. وهكذا يمكننا أن نطبق نفس الشيء على الكلمة الذي دُعي ابن الله؛ فالفرع لم ينفصل عن الشجرة أو الجذع، والنهر لم ينفصل عن المنبع ولم ينفصل الشعاع عن الشمس، فإن الجذع والفرع هما شيئان متميزان ولكنهما متحدان (راجع كتابه ADV. PRAX 8).

من هذا، يتضح أن ترتليانوس لا يفرِّق بين جوهر الينبوع وجوهر النهر، أو الجذع والفرع، هكذا فإن الابن هو من نفس جوهر الآب وخارج منه، وبما أنه خارج منه فهو خاضع له، إن الابن هو جزء من الآب دون أن يتجزأ الآب. وهذا لا يعني أن جزءًا فقط من الابن لاهوت، كلا، بل إن الابن كله لاهوت، لأنه خارج من جوهر الله، من لاهوت الله، فهو إذًا الله الآب هو ملء اللاهوت، والابن خارج من هذا الملء (انظر APOL 21. 2).

فمع أن المعلِّم الأفريقي قد أعطى المكانة الأولى في الثالوث للآب والمكانة الثانية للابن والمكانة الثالثة للروح القدس[١]، إلا أنه أكد كثيراً وبشدة على حقيقة أن هؤلاء الثلاثة من جوهر واحد (PRAX 9) ومن هذا الجوهر انبثق الابن اللوجوس والروح القدس، هؤلاء الثلاثة الأقانيم الآب والابن والروح القدس، جوهر واحد ووحدة واحدة يكونون الله المثلَّث الأقانيم.

ولقد رفض اليهود عقيدة الثالوث، لأنهم خشوا قيام نوع من الصراع والنضال والغيرة بين أفراد الثالوث، الأمر الذي ترويه لنا الأساطير الوثنية، أما ترتليانوس فيرى وحدة الثالوث بطريقة تختلف كل الاختلافات عن كثرة تعدد الآلهة في الوثنية، فإنه فهم فكرة «الوحدة» في الثالوث (MONARCHIA)، بأن الله الآب يظل سيدًا للكون ويحتفظ بهذا السلطان، ومع أنه محتفظ بهذا السلطان فقد منحه للابن، وهذا الأخير يستعمل هذا السلطان في العالم لكي ينفّذ به ما يريده الآب. وكل ما يريده الابن لا يختلف عما يريده الآب، فلا نزاع إذًا بين الآب والابن؛ لأن ما يريده الآب هو ما يريده الابن وينفِّذه الروح القدس. فلا صراع إذًا في داخل الله، وكل ما يوجد في هذه الوحدة المثلَّثة هو الانسجام والتوافق والمحبة.

(١) انظر Gillmeier,p. 170.

يتعرَّض ترتليانوس لمشكلة أخرى مختصة بالمسيح وهي طبيعته. ما هي هذه الطبيعة التي أخذها المسيح؟ أهي طبيعة سماوية ملائكية أم أرضية بشرية؟

فهو يعرِّفنا بأن نور الله الذي تنبأ عنه الأنبياء في القديم، والذي انتظرته الأجيال مدةً طويلةً، نزل إلى بطن العذراء وصار جسدًا. وفي ميلاده وُلد إلهًا وإنسانًا معًا. فإن هذا الجسد الذي تكوَّن عن طريق الروح القدس، والذي تغذَّى ونما وتكلم وعلَّم وعمل هو المسيح (انظر APOL. 21, 14) فإن كان اللوجوس أو الكلمة صار جسدًا، فما هي طبيعة العلاقة بين الجسد وبين اللوجوس؟ وهل التجسُّد يعني تغيير أو تحول الروح «اللوجوس» إلى جسد. أم أن الروح يظل غير متغيِّر ويلبس فقط الجسد؟ إن ترتليانوس يسمي هذه الحالة بعد التجسُّد حالة مزدوجة (UN DOUBLE STATUS) (انظر PRAX 11)، وهو يعني بذلك وجود طبيعتين في شخص المسيح، ولقد شدَّد بوضوح على وجود هاتين الطبيعتين في شخص المسيح؛ ففي المسيح توجد الطبيعة الإلهية، وتوجد الطبيعة البشرية، اتحاد الإلهي بالبشري (PRAX 27) وفي هذا الاتحاد الإلهي البشري، «اللوجوس»، يسوع، احتفظت كل طبيعة بمميزاتها الخاصة بها.

هذا الاتحاد الإلهي البشري تم في شخص واحد، في أقنوم الابن. على أن الروح المتجسِّد، وهو الابن متميز عن الآب، أي أنه ليس هو الآب، كما أنه متميز أيضًا عن الجسد الذي لبسه، أي أنه ليس هو الجسد (PRAX 27) فالروح والجسد هما إذًا جوهرا المسيح متميزان وغير مختلطين مع أنهما متَّحدان. وهو يرفض أيضًا الأفكار الروائية التي تعلِّم بأن اتحاد الجسد بالروح ينتج عنه شيء آخر من نوع آخر، مزيج من الروح والجسد، فلا هو روح ولا هو جسد. أما ترتليانوس فقد تمسَّك بعقيدة الطبيعتين في شخص واحد، شخص المسيح يسوع، الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية. فالروح لم يتحول إلى جسد بل إن اللوجوس صار جسدًا. واحتفظ كل منهما بمميزاته الخاصة به، فالجسد لا يصبح روحًا ولا الروح يصبح جسدًا، بل إن الكلمة صار جسدًا، وفي صيرورته جسدًا لم يلاشِ ما للجسد من مميزات خاصة به، والجسد بدوره لم يخفِ كلية اللاهوت في داخله، فإن كلًّا منهما يقوم بالعمل الخاص به؛ فاللوجوس كان يعمل المعجزات، من شفاء المرضى، وقيامة الأموات، وإخراج الشياطين... إلخ، أما مميزات الجسد فكانت ظاهرة أيضًا في الجوع والعطش والآلام، والاضطراب والحزن والبكاء، والفرح... إلخ. هذا هو المسيح: طبيعتان، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية متحدتان بلا اختلاط كلي أو امتزاج (انظر PRAX 27).

وبهذا أراد ترتليانوس أن يهاجم تعاليم بعض الوحدويين (MONARCHIENS) الذين علَّموا بأن المسيح كان كائنًا مكوَّنًا من الآب ومن الإنسان يسوع في شخص واحد هو المسيح. وفي هذا المسيح الابن، الذي هو اللاهوت، والابن الذي هو الناسوت، الواحد يُدعى المسيح والثاني يُدعى يسوع. ويعترض المعلِّم الأفريقي على هذا التعليم بالقول بأنه لا يمكن تقسيم اللاهوت والناسوت بين الآب والابن فالابن ليس الجسد، ولكن الابن اتحدت فيه هاتان الحقيقتان، أي اللاهوت والناسوت دون خلطهما أو مزجهما مزجًا كليًّا (PRAX 27, 1) فإن اللوجوس موجود في الله وله كيانه، ولكن عندما لبس اللوجوس جسدًا، أو بالعبارة الأصح عندما صار جسدًا، أصبح للابن حالتان: حالة اللاهوت وحالة الناسوت، أو بعبارة أخرى أنه بعد التجسُّد أصبح للمسيح طبيعتان، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، وهنا يمكن أن نقول بأنه عن طريق هذا الاتحاد الإلهي والبشري في الأقنوم الثاني، يوجد في المسيح طبيعتان وجوهران. جوهر اللاهوت «اللوجوس» الذي انبثق أو خرج من الله ثم جوهر الناسوت الذي أخذه من مريم العذراء.

ولقد شدّد ترتليانوس على هاتين الحقيقتين في المسيح: الله «اللوجوس» نفسه هو الذي كان في يسوع، وجسد يسوع لم يكن جسدًا خياليًّا أو ملائكيًّا أو هيوليًّا سماويًّا بل كان جسدًا مثل أجسادنا وله روح أيضًا مثل أرواحنا. ولقد كان تكوين يسوع الطبيعي كتكوين أي شخص آخر مكوَّن من روح وجسد. ولا يمكن أن يكون المسيح إنسانًا حقيقيًّا إن لم يكن مكوَّنًا من روح وجسد مثل أرواحنا وأجسادنا (انظر DE RESURT CARNE, 40). وبما أن المسيح كان له روح مثل أرواحنا وكان يتألم مثلنا فقد صرخ على الصليب من شدة ما عاناه في الصليب.

ويعتقد ترتليانوس بأن موت المسيح تم عندما انفصلت روحه عن جسده (انظر MAR 4, 42, 6).

كان ترتليانوس يعمل جاهدًا لكي يهدم التعاليم المُضلة التي نادى كلٌّ من الغنوسيين والماركيونيين الذين علَّموا بأن المسيح لم يكن له جسد حقيقي بشري بل إنه ليس جسدًا سماويًّا، فهو لم يولد من العذراء كما يعتقدون، بل وُلد عن طريق العذراء (أو في العذراء) ولقد علَّم فالنتينوس، كما سبقت الإشارة، بأن مرور الطفل يسوع من رحم أمه كان كمرور المياه عبر ثوب دون أن تمزقه، فالعذراء مريم ظلت عذراء حتى بعد ميلاد يسوع. أما ترتليانوس فلا يقبل هذا الفكر ويرفض رفضًا باتًّا عذراوية مريم بعد الميلاد. ويعتبر أن التمسُّك بعذراوية مريم المستمرة بعد الميلاد يعتبر تعليمًا غنوسيًّا، وكأن جسد يسوع الذي مر من رحم مريم العذراء في أثناء الميلاد لم يكن جسدًا حقيقيًّا (انظر DE CARNE CHRISTI 23, 7; ADV. OCCARC. 4, 19, DE MONO, 8).

ونحن نظن أن ترتليانوس على حق في هذا الأمر، وندعو الكنيسة الكاثوليكية التي تقدمت في الناحية العقائدية تقدمًا ملحوظًا تُحسَد عليه بأن تعيد النظر وتدرس ليس فقط هذه العقيدة الخاصة بعذراوية مريم المستديمة بل مواضيع عقائدية أخرى تقف حتى الآن في طريق وحدة الكنيسة التي يريدها المسيح بأن تكون واحدًا كما أنه والآب واحد.

والإله المحب القدير سار مع كنيسته عبر الأجيال يستطيع أن يفتح عيوننا وقلوبنا فتمتلئ من محبته وعندئذ لا نسعى إلا لغرض واحد هو مجد المسيح وحده وانتشار ملكوته في العالم.

مراجع هامة

1. Adolphe Harnack, Precis de L'histoire: Traduit par Eugene Choisy, Paris. Societe Arrongme. 33 Rue de Seine 1893.

2. J. Liebaert., L'incarnation des Orignes au Concile de Chalcedoine, Les editions du Cerf. pp, 85-92.

3. Ibide, A. Grillmeier. pp. 166-184.

راجع هذه الصفحات، فهو يعطي قائمة لكتب قيمة عن هذا الموضوع.

4. Ibide. Marc Lods. p. 42.

5. Ibide. J. Quasten. pp. 293-402.

راجع أيضًا هذا الكتاب فإنه يحتوي على قائمة مراجع هامة جدًا.

6. J. F. Bethune-Baker, Terullian's use of Substantia, Nature and Persona: YTHST 4 (1903) pp. 440-442.

7. C. Dodgson, Library of Fathers 10 oxford.

8. A. D'Ales, La Theologie de Tertullien, Paris 1905.

9. R. E. Roberts, the Theology of Tertullian, London 1929.

10. J. Morgan. Importance of Tertullian in the Development of the Christian Dogma, London 1928.

11. J. Berton, Tertullian le Schismatique, Paris 1928.

12. T. H. Brandy, Tertullian's Ethic, Guterslok 1929.

13. B. B. Warield, Studies in Tertullian and Augustine, Oxford, 1930, 1-109.

14. J. Riviera. Tertullien: Le Dogma de la Redemption, Louvaine 1931, pp. 140- 164.

الفصل الخامس

كبريانوس CYPRIEN

في دراساتنا لتاريخ الفكر المسيحي والعقائد، لا يمكننا أن ننسى عملاقًا آخر ظهر في أفريقيا، وبالتحديد في قارطجنة أو كارتاج، مدينة اللاهوتي العظيم ترتليانوس، وهو القديس كبريانوس.

لن نقف طويلاً عند حياة هذا الرجل العظيم الشهيد أو تعاليمه، فبالرغم من عظمة حياته الرعوية وشجاعته في قبول الاستشهاد، وبالرغم أيضًا من كتاباته الكثيرة والتي كان لها تأثيرها العميق على الشعب، فإننا لا نرى جديدًا في تعاليمه، فهو لا يختلف فيها كثيراً عن ترتليانوس. فقد كان معجبًا به كل الإعجاب لدرجة أنه كان يدرس مؤلفاته يوميًّا، ويقول جيروم عنه: «لقد تعوَّد ألا ينهي يومه قبل أن يكون قد قرأ بعض النصوص من كتابات ترتليانوس»، وكان يقول لسكرتيره: «تكرم وأعطِني المعلِّم». وكان يقصد بذلك ترتليانوس. (انظر JEROME DE VIR ILL 53).

وكما سبق القول إنه لا يختلف كثيراً في تعاليمه عن ترتليانوس. وهو الأمر الذي يهمنا في دراساتنا لتاريخ العقائد المسيحية، ولهذا السبب لا داعي للدخول في شرح تعاليمه، ولكن للاستفادة التاريخية نلقي نظرة عاجلة على حياة هذا الشهيد.

وُلد كاسيليوس كبريانوس CAECILIUS› CYPRIANUS بين سنتي ٢٠٠، ٢١٠ في أفريقيا. وعلى ما يُحتمل في كارتاج (قارطجنة)، ولقد نما وتربَّى في عائلة غنية جدًّا ومثقفة. اشتهر بالخطابة القوية المقنعة والبلاغة والفصاحة. على أنه كان يشمئز كل الاشمئزاز من الانحطاط في الآداب والأخلاق العامة والخاصة، وعافت نفسه الفساد الذي كان يسيطر على الحكومة، وينتشر في إداراتها وفي المجتمع بصفة عامة.

لهذه الأسباب، كان كبريانوس يبحث عن حياة أفضل ومَثَلٍ أعلى وأخلاق أرقى. وهنا هيَّأ الرب له أن يتقابل مع كاهن تقي، اتخذ كبريانوس اسمه بعد العماد وهو كاسيليوس، الذي قاده إلى قراءة الكتاب المقدس، وعملت النعمة بروح الله فيه، فتجدَّد هذا الغني. الفاحش الغنى، فأعطى كل ثروته للفقراء (انظر JEROME DE VIR ILL., 67) وبعد التجديد كرَّس نفسه للخدمة، وفي سنة ٢٤٩ اختاره شعب كارتاج أسقفًا لمدينتهم.

وما كاد يجلس على كرسي أسقفية أفريقية الشمالية، حتى اندلعت الاضطهادات المؤلمة والشنيعة التي شنَّها الإمبراطور دسيوس DECIUS أو DECE. وكانت هذه الاضطهادات في غاية العنف والقسوة حتى شملت كل مسيحي الإمبراطورية بجملتها؛ فلأول مرة يتعرَّض المسيحيون لاضطهادات عامة تشمل كل الإمبراطورية. لأن الإمبراطور دسيوس أراد أن يعمم

الديانة الوثنية، ولذلك طلب من كل مواطن روماني أن يقدم ذبائح للوثن[1].

وذهب ضحية لهذا الاضطهاد عددٌ كبير من المسيحيين الذين بسبب تمسُّكهم بالإيمان ولشهادتهم الحسنة ليسوع المسيح، اضطروا للاستشهاد. أما الأسقف كبريانوس، فقد كان في مكان آمن يستطيع منه أن يقود حركة المقاومة ويشجع المؤمنين على التمسُّك بإله الآلهة ورب الأرباب.

وعندما انتهى كابوس الاضطهاد عام ٢٥١ باغتيال الإمبراطور دسيوس، بدأت كنيسة أفريقيا تتنفس الصعداء. ولكن هذه الفرصة لم تكن إلا كحلم قصير؛ فقد بدأت الاضطهادات من جديد. ونُفي الأسقف كبريانوس بعيدًا عن كارتاج في ٣٠ أغسطس ٢٥٧. وعندما رجع بعد عام من المنفى، كان يعلم جيدًا أن إقامته في هذه المدينة، بل بقاءه في هذا العالم قصير جدًا، لذلك فقد كان يُعِد نفسه للموت، ولم يستغرق هذا الإعداد وقتًا طويلاً، ففي يوم ١٤ سبتمبر سنة ٢٥٨ قُطعت رأس هذا الأسقف الشهيد العظيم بالقرب من مدينة كارتاج.[2]

(١) كان دسيوس إمبراطورًا على روما من سنة ٢٤٨- ٢٥١ (انظر Quasten, pp. 404- 405)

(٢) انظر. Quasten, pp. 403- 40

الفصل السادس

أوريجانوس (ORIGENE)

في رحلتنا العقائدية التاريخية نتقابل مع شخصية أخرى لعبت في تاريخ الفكر المسيحي دورًا هامًا جدًا، بل دورًا حاسمًا ومصيريًا بالنسبة للتعاليم اللاهوتية التي كانت في دور التكوين والتطوير في ذاك الوقت. هذه الشخصية الفذة هي شخصية المعلِّم العظيم أوريجانوس المصري، وقد كتب عنه كاستن (QUASTEN) يقول: «لقد وصلت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية إلى أوج عظمتها في عهد خليفة إكليمندس، وهو أوريجانوس؛ فلقد كان معلِّما لامعًا وكتلة من المعرفة في الكنيسة القديمة. فهو رجل ذو شخصية ترفَّعت عن كل ضعف، وقد حصَّل كمية كبيرة جدًّا من المعرفة والعلم جعلته من أكبر المفكرين والخلاقين في العالم اللاهوتي كله» (انظر QUASTEN, p. 49).

ولحسن الحظ، حفظ لنا التاريخ وثائق لا بأس بها عن هذا الرجل وعن حياته. والفضل في ذلك يرجع إلى المؤرخ الكنسي الشهير أسابيوس (EUSEBE) الذي كرَّس لأوريجانوس جزءًا مهمًّا جدًّا في المجلد السادس لتاريخ الكنيسة. كما أن القديس جيروم تكلم أيضًا عنه (انظر JEROME DE VIR ILL 64,62). وذكره فوتيوس (PHOTIUS) في إحدى رسائله (PHOTIUS, BIBLIOTH, COD 118, EPIST 33).

هذه الوثائق ووثائق أخرى تعرِّفنا بأن أوريجانوس المصري، وبالتحديد الإسكندري، لم يكن وثنيًّا؛ فقد كان أبوه ليونيداس (LEONIDE) رجلاً تقيًّا يعرف الكتب المقدسة، وفي الوقت نفسه، كان مثقفًا ومطلعًا على كتابات الوثنيين؛ فلقد نشأ أوريجانوس منذ نعومة أظفاره في جو مسيحي تقي، يشْتَمُّ كل يوم رائحة الصلاة والتأمل والقراءات الكتابية التي كان يحرص أبوه كل الحرص على تسليمها لأولاده. وهنا يتميز أوريجانوس عن كثيرين من المدافعين واللاهوتيين الذين سبقوه، إذ أنه وُلد وتربَّى في جو مسيحي تقي فاضل.

وُلد أوريجانوس ليونيداس ليونيداس في حوالي عام ١٨٥ في مدينة الإسكندرية، وكان بكرًا لعائلة كبيرة العدد. وفي سن السابعة عشرة اجتاز هذا الشاب التقي الرقيق الإحساس في اختبار أليم قاس، عندما بدأ سفريوس (SEVERE) اضطهاداته العنيفة ضد المسيحيين (سنة ٢٠٢) والتي راح ضحيتها والده الرجل التقي ليونيداس، وكثيرون آخرون من المسيحيين. ويعرِّفنا أسابيوس بأن أوريجانوس الشاب كان يريد أن يلحق بأبيه لكي يتمتع معه بشرف الاستشهاد، وفي عشية اليوم الذي استُشهد فيه ليونيداس حاولت أمه أن تقنعه بكل الوسائل الممكنة بالعدول عن هذا القرار فلم تفلح، ولذلك خبأت كل ملابسه في الليل وفي الصباح لم يجد ثوبًا واحدًا للذهاب للمحكمة. وعندئذٍ كتب خطابًا إلى أبيه يشجعه على الاستشهاد ويقول له حرفيًا: «لا تغير رأيك بسببنا» (راجع QUASTEN 88).

بعد استشهاد ليونيداس، صادرت الدولة كل أملاكه فلم يبقَ لهذه العائلة التقية من متاع الحياة إلا دهنة زيت (٢مل ٤: ٢) هي عبقرية الشاب أوريجانوس وعلمه. واستخدم هذا الشاب المعلِّم دهنة الزيت هذه في بادئ الأمر بإعطاء بعض الدروس الخصوصية للأطفال. وبهذا العمل البسيط المتواضع كان الرب يُعده لعمل أعظم ومكان أسمى؛ فلقد حدث أن الاضطهادات العنيفة المريرة التي كانت تجتازها كنيسة المسيح، اضطرت الكثيرين إلى الهروب من نيرانها المحرقة، حتى هرب بعض القادة. وكان من الذين هربوا من وجه السيف، الذي كان يحصد بلا شفقة شبابًا وشيوخًا، المعلِّم إكليمندس. وبعد هروبه أصبحت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية الشهيرة، مهدَّدة ليس فقط بروح الفوضى وعدم النظام، بل بالغلق أيضًا. وكيف يمكن أن تُغلق هذه المدرسة التي كانت تُعد العمود الفقري والمحرِّك ليس بالنسبة للكنيسة المصرية فحسب، بل للكنيسة الجامعة ولهذا السبب، عيَّن الأسقف ديمتريوس DEMETRIUS الشاب النابغة العالم أوريجانوس مديرًا لهذه المدرسة. وكانت مقدرة أوريجانوس العلمية تفوق بمراحل كثيرة عمره الزمني. فعندما تعيَّن مديرًا لهذه المدرسة العظيمة كان في الثامنة عشرة من عمره، وقد استطاع هذا الشاب أن يديرها بحكمة فاقت حكمة الشيوخ، وكانت المسئوليات العديدة التي أُلقيت على عاتقه، محرِّكًا ودافعًا له إلى الإنتاج اللاهوتي والأدبي، الذي صار ثروة عظيمة لا تُقدَّر للكنيسة على مر العصور.

ولم يكن أوريجانوس مديرًا ولاهوتيًّا وأديبًا فقط، بل كان أيضًا رجلاً تقيًّا استطاع أن يترجم عمليًّا بحياته اليومية وتصرفاته مع الناس معنى الحياة المسيحية. ولقد قال عنه المؤرخ أسابيوس: «كانت حياته خير مفسِّر لأقواله» (انظر EUSEBE HIST. ECCL, 6, 3, 7).

كان مدير مدرسة الإسكندرية يحيا حياة التقشف والابتعاد عن اللذات العالمية. ويمكن أن نقسم حياته التعليمية إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى في حياته التعليمية، تبدأ في سنة ٢٠٣ عندما كلَّفه أسقف الإسكندرية بإدارة المدرسة وتنتهي هذه الفترة في سنة ٢٣١.

استطاع هذا المعلِّم الشاب بعد أن استلم إدارة مدرسة اللاهوت الإسكندرية أن يغزو لا الأوساط المسيحية فحسب، بل أيضًا الأوساط الوثنية التي أظهرت اهتمامًا كبيرًا بتعاليمه، فجاء إليه الكثيرون من مسيحيين وغير مسيحيين ليتتلمذوا على يديه.

وكانت المواد التي تُدرَّس في هذه المدرسة كثيرة ومتنوِّعة، فلم يقتصر المعلِّم المصري على تعليم الكتاب واللاهوت، بل كان يقوم أيضًا بتدريس الطبيعة والحساب والهندسة والفلك والفلسفة وخاصة الفلسفة اليونانية. غير أن المعلِّم شعر بأن المجهود الذي يقوم به والمسئوليات العديدة الكثيرة تفوق مقدرته البشرية، ولذلك فقد طلب من تلميذه هراكلاس HERACLAS أن يساعده في العمل، فأسند إليه تعليم المواد الابتدائية والتحضيرية، أما هو فقد كرَّس وقته للتدريس في قسم المتقدمين في الدراسة، أي لتدريس اللاهوت والكتب المقدسة والفلسفة.

ولم يكن أوريجانوس سجينًا في مدينة الإسكندرية العظيمة ولمدرستها الشهيرة، بل كان يتغيَّب مرات كثيرة عن التدريس فيها لقيامه ببعض الرحلات. فإن المؤرخ أسابيوس يعرِّفنا بأن الشاب المعلِّم قام برحلة إلى روما في سنة ٢١٢ لكي يرى الكنيسة

القديمة جدًا، كنيسة روما. وهناك تقابل مع اللاهوتي الشهير المعروف والذي سيلعب هو أيضًا دورًا لا يُستهان به في تاريخ الفكر المسيحي والعقائد، وهو الكاهن الكاثوليكي (هيبوليتوس) HIPPOLYTE ويُحتمل أنه ناقش معه بعض المشاكل اللاهوتية. ثم في سنة ٢١٥ قام برحلة أخرى، ولكن في هذه المرة إلى الشرق، وبالتحديد إلى العربية، إذ أن حاكمها الروماني رجاه أن يحضر إلى بصرة لكي يعلِّمه شيئًا عن المسيحية. ويحتمل أن يكون هذا الحاكم هو فورينوس جليانوس (FURNIUS, JULIANUS).

ثم قام برحلة أخرى تعليمية إلى فلسطين، ففي سنة ٢١٦ أمر كاراكالا (CARACALLA) بغلق المدارس وسلبها، فاضطر المعلِّم المصري إلى الهجرة إلى قيصرية فلسطين. فرحب به الأساقفة هناك ترحيبًا عظيمًا، بل طلبوا منه أن يقوم بالوعظ والتعليم في مدارسهم وكنائسهم وعندما علم أسقف الإسكندرية بهذا الأمر انهال باللوم على زملائه الأساقفة في قيصرية فلسطين لأنهم سمحوا لعلماني غير مرتسم أن يعلِّم في حضرتهم. وطلب من أوريجانوس العودة حالاً إلى الوطن. وقَبِل أوريجانوس أمر أسقفه ديمتريوس ورجع إلى الإسكندرية لاستئناف العمل.

ومع أن وسائل الإعلام كانت محدودة وبطيئة في ذلك العصر، وليس كما هو الحال في وقتنا الحاضر، إلا أن شهرة هذا المعلِّم الشهير انتشرت بسرعة عجيبة ليس فقط إلى آذان قادة الكنيسة والحكام فحسب، بل وصلت أيضًا إلى الأباطرة.

فإن والدة الإمبراطور ألكسندر سفريوس (SEVERE, ALEXANDRE) طلبت أن تسمع هذا المعلِّم المسيحي الإسكندري، فحضر المعلِّم المصري إلى أنطاكيا محاطًا بحرس إمبراطوري. ولا نعلم النتيجة التي وصلت إليها هذه المقابلة إذ إن المؤرخ أسابيوس لا يقول لنا شيئًا فيما إذا كانت (بولبه ماميه) قبلت الإيمان أم لا. ويحتمل أن هذه الرحلة تمت في حوالي سنة ٢٢٤ [١] (انظر EUS. HIST. ECCL 6, 48).

ولقد أرسله الأسقف ديمتريوس إلى بلاد اليونان لكي يدحض هرطقة ظهرت هناك. وبعد أن أنهى المعلِّم مهمته التي كُلِّف بها، توقف في طريق العودة في أورشليم لكي يرى أصدقاءه هناك. وعندئذ أراد الأساقفة والكهنة والشعب الاستفادة من وجود هذا العالم الشهير. ولكن المشكلة التي اعترضته هي أنه لم يكن كاهنًا. ولكي يتجنب كلٌ من ألكسندر أسقف أورشليم وثيوكتيستوس (THEOCTISTE) أسقف قيصرية اللوم الذي وجهه إليهما أسقف الإسكندرية لأنهما سمحا لعلماني بالوعظ في كنائسهما؛ فقد قاما بسيامة أوريجانوس كاهنًا حتى يتمكن الشعب كله من الاستفادة من وعظه وتعاليمه وعندما علم ديمتريوس بخبر سيامة أوريجانوس كاهنًا غضب جدًا واعترض على هذه السيامة التي اعتبرها باطلة. وعلل الأسقف ديمتريوس اعتراضه بأن أوريجانوس لم تتوفر فيه الشروط التي يجب أن تتوفر في الكاهن وذلك لأنه قد خصي نفسه.

وفي الواقع، يبدو أن هذا الشاب الذي نشأ في جو تقي جدًا متمسِّك بالمكتوب، قد طبَّق بطريقة حرفية وعملية في شبابه المبكر كلمات المسيح الواردة في متى ١٩: ١٢: «لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم، ويوجد خصيان خصاهم الناس، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات. من استطاع أن يقبل فليقبل».

على أن المؤرخ أسابيوس يعلِّق على موقف ديمتريوس بالقول: «عندما رأى ديمتريوس أن أوريجانوس أصبح رجلاً عظيمًا

(١) اختلفت الآراء في تحديد تاريخ هذه الزيارة وللتوسع في الموضوع انظر Quasten, pp. 50- 50 وكتاب د. أسد رستم ص ٩٤- ١٠٣.

شهيرًا ومعروفًا لدى العالم كله، لعبت المشاعر البشرية دورها في قلبه (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 6, 8, 4) وطلب ديمتريوس أسقف الإسكندرية انعقاد المجمع، ولقد قطع هذا المجمع المعلِّم العظيم من عضويته في كنيسة الإسكندرية. ثم اجتمع مجمع آخر في نفس المدينة سنة ٢٣١ وقرر قطعه (شلحه) من الكهنوت».

وفي سنة ٢٣٢ عندما تنيح الأسقف ديمتريوس وجلس على كرسي أسقفية الإسكندرية أحد تلاميذه ومساعديه وهو هراكلاس (HERACLAS) ظن أوريجانوس أن الأمور قد تغيرت وحاول الرجوع إلى بلاده الحبيبة ليشرب من نيلها العذب الحلو اللذيذ، الذي إذا شرب أجنبي منه لابد أن يرجع مرة أخرى ليشرب منه ثانية، فجاء هذا الوطني لكي يشرب من هذه المياه التي هو أحق الناس بها، ولكي يقوم بالتعاليم التي كان يرى بلاده في أشد الحاجة إليها. ولكن للأسف الشديد فإن الأسقف الصديق هراكلاس جدَّد الحرمان ضد أوريجانوس، ولهذا فقد اضطر إلى العودة إلى قيصرية فلسطين ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية في حياته.

أوريجانوس في فلسطين:

عندما رجع المعلِّم العظيم إلى فلسطين وجد القلوب والكنائس مفتوحة أمامه، ولم يُقِم أسقف قيصرية أي حساب للحرمانات التي نطق بها زميله الإسكندري، فطلب من أوريجانوس هذه المرة ليس التعليم في الكنائس فقط بل أيضًا أن يؤسس مدرسة لاهوت. وفعلاً تأسست مدرسة اللاهوت التي قام بالتدريس فيها وإدارتها المعلِّم المصري لمدة عشرين عامًا، قام خلالها هذا الرجل، الذي لا يعرف اليأس والتعب طريقهما إليه، بالتعليم والتهذيب والإرشاد، وهكذا أصبحت هذه المدرسة بفضله منارة عظيمة في محيط واسع كبير ترشد السفن إلى البر الأمين. وبفضلها وبفضل الذين تخرجوا منها انتشرت المسيحية في هذه المنطقة، وبدأت نهضة روحية مسيحية وحركة فكرية ثقافية، كانت مصر في أشد الحاجة إليهما. ولقد تخرَّج في هذه المدرسة رجال عظام أمثال غريغوريوس العجائبي الذي لم يتفق مع أوريجانوس في بعض العقائد، ثم واثينودوروس وفرميليانوس. ففي هذه المدرسة ألقى غريغوريوس العجائبي خطابه الوداعي لتعاليم أوريجانوس، وبهذا أعلن غريغوريوس انفصاله الرسمي عن جماعة أوريجانوس وعدم اتباعه لتعاليمه (انظر QUASTEN, p. 52).

تعرَّض المعلِّم المصري لعذابات تقشعر منها الأبدان أثناء الاضطهاد المريع الذي شنه الإمبراطور دسيوس (DECE) (٢٤٩-٢٥١) والذي شمل الإمبراطورية كلها تقريبًا، فقد قُيد بسلاسل ثقيلة في يديه ورجليه وعنقه وزُج به في سجن مظلم وكُوي بالحديد، وكان هم القاضي أن يحتفظ به حيًّا ليطيل عذابه، ولكن رغم هذه الآلام المبرحة ظل الرجل أمينًا لسيده (انظر EUS. HIST. ECCL. 6, 39, 5).

كان لهذا الاضطهاد والعذابات التي أضعفت جسده تأثيرها العميق والكبير على صحته حتى بعد أن خرج من السجن، فمات هذا المعلِّم المصري العظيم في صور ودُفن فيها في سنة ٢٥٣ بعد أن جاهد الجهاد الحسن وأكمل السعي.

كتابات أوريجانوس:

ربما يعتقد القارئ أني أبالغ عندما أقول إنه لو بقيت كل كتابات أوريجانوس، لكان كتاب في حجم هذا الكتاب لا يكفي لذكر أسماء الكتب والمواضيع التي قام بدراستها ومعالجتها. ولكي نبرِّر هذا القول سأذكر حقيقة أخرى قد يندهش لها القارئ أكثر، وهي أن القديس جيروم يعرفنا بأن المؤلفات التي كتبها هذا العبقري المصري حوالي ٢٠٠٠ كتاب (انظر ADV. RU 2, 22). وأما أبيفانوس (EPIPHANE) فقد قال: إن عدد كتبه يزيد على ستة آلاف كتاب (انظر MPL. HAER, 63, 64). على أن المعروف لدينا من هذه الكتب ثمانمائة كتاب فقط هي التي ذكرها القديس جيروم في خطابه إلى بولا (PAULA). (انظر EPIST, 33).

والسؤال الذي يفرض نفسه فرضًا، هو كيف يمكن لرجل مهما أوتي من مقدرة علمية وجسمية وثقافية أن يصل إلى بناء هذه الأهرامات الضخمة التي لا يمكن تنفيذها ماديًّا؟ هل كانت الأرقام التي ذكرناها، ما هي إلا أرقام صفحات الكتب التي كتبها؟ أي أن كتبه تحتوي على٢٠٠٠ صفحة وليس ٢٠٠٠ كتاب كما يعتقد جيروم؟ أو٦٠٠٠ صفحة، وليس ٦٠٠٠ كتاب كما يظن أبيفانوس؟ فمن الناحية العلمية لو كرَّس أوريجانوس حياته كلها للكتابة دون أن يقوم بأي عمل آخر غير الكتابة، فلا يمكنه أن يصل إلى هذا الرقم!

عندما نلقي نظرة سريعة على تعاليمه وكتبه، سنعرف أن هذه الأرقام كانت فعلاً كتبًا. أما كيف استطاع ماديًّا - أي من ناحية الوقت والمال- أن يبني هذه الأهرامات الشامخة، فذلك أن صديقًا له يدعى أمبرواز (AMBROISE) كان غنيًّا جدًّا وقد تجدَّد على يده وترك الغنوسية بفضل تعاليمه. هذا الرجل طلب من أوريجانوس أن يسجل كل تعاليمه. ولهذا الغرض قام بتمويل سبعة أشخاص من الذين يجيدون الكتابة السريعة، لمتابعة المعلِّم المصري أثناء قيامه بالتعليم وإلقاء المحاضرات والمناقشات والأنشطة الأخرى. وكانوا على ما يبدو يتناوبون العمل على دوريات مختلفة، ولقد سهَّلت هذه العملية تسجيل ما علَّم به هذا المعلِّم. وما نأسف له، هو أن هذه الأهرامات العلمية قد اختفت غالبيتها الساحقة، ولم يبقَ لنا منها إلا عناوينها وبعض المقتطفات والاقتباسات التي اقتبسها الكُتَّاب الذين جاءوا بعده (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 6, 33, 1-2)

فما هي إذن كتبه؟

مما سبقت الإشارة إليه، يتضح أنه لا يمكننا الدخول في هذا المحيط العميق، وذكر أسماء كل الكتب التي كتبها والتعليق عليها. ولذلك سنكتفي بذكر بعض الكتب فقط.

يعتبر أوريجانوس أعظم معلِّم ومفسِّر للكتاب المقدس، ولم يسبقه في ذلك مفسِّر ولا شارح للكتاب في كل تاريخ الكنيسة إلى عصره، فاستحق عن جدارة لقب مؤسس العلوم الكنسية، (انظر QUASTEN, p. 58).

١- ومن الأشياء العظيمة التي قام بعملها والتي كرَّس لها جزءًا كبيرًا من حياته، ما يدعى بالكسابلا (BIBLE SEXTUPLE) أي الكتاب المقدس ذو الأعمدة الستة؛ فلقد قام بوضع العهد القديم كله في كتاب ذي أعمدة ستة، ولقد وضع في العمود الأول النص العبري بأحرف عبرية. وفي العمود الثاني نفس النص العبري بأحرف يونانية لتسهيل عملية النطق، وفي العمود الثالث يذكر الترجمة اليونانية التي قام بها أكيلا اليهودي في زمن هادريانوس (HADRIEN)، وفي العمود الرابع الترجمة اليونانية التي ترجمها سيماك (SYMMAQUE) المعاصر لسبتيميوس سفريوس، وفي العمود الخامس وضع الترجمة

السبعينية، وفي العمود السادس وضع ترجمة ثيودوثيانوس (THEODOTIEN) اليهودي التي قام بعملها في سنة ١٨٠. وللأسف الشديد لم يبقَ من هذه التحفة العظيمة إلا بعض النصوص.

٢- كَتَب تفسيراً لكل أسفار الكتاب المقدس، ولكن للأسف الشديد لا يوجد حاليًا تفسير كامل لأي كتاب من هذه الكتب؛ فلم يصل إلينا من التفسير الذي كتبه عن متى في ٢٥ كتابًا إلا ثمانية كتب. ولا نملك أيضًا إلا ثمانية كتب من ٢٢ كتابًا لتفسير إنجيل يوحنا. ولقد كتب ١٥ كتابًا لتفسير الرسالة إلى رومية لم يبقَ منها إلا بعض الاقتباسات والمقتطفات التي اكتشفت حديثًا في طرة سنة ١٩٤١ (جنوب القاهرة بحوالي ١٥ كيلو مترًا). أما بخصوص العهد القديم فلا نملك إلا جزءًا من شرح نشيد الأنشاد في ٤ كتب من تسعة.

وهناك الكتب التي فُقدت كلها تقريبًا وهي ١٣ كتابًا لتفسير سفر التكوين، ٤٦ كتابًا لتفسير ٤١ مزمورًا، ٣٠ كتابًا لتفسير سفر إشعياء، ٥ كتب لتفسير المراثي، ٢١ كتابًا لتفسير حزقيال، ١٥ كتابًا لتفسير الأنبياء الصغار، ١٥ كتابًا لتفسير إنجيل لوقا، ٥ كتب لتفسير رسالة غلاطية.

٣- توجد أيضًا مجموعة أخرى من الكتب وهي كتاباته الدفاعية وأهم ما كتبه أوريجانوس في الدفاع هو كتابه ضد سلس (CELSE) ثم ٤ كتب عقائدية.

وأهم ما كتبه في العقائد كتابه الذي يدعى:

٤- المبادئ الأولى (LES PREMIERS PRINCIPLE): وهذا المجلد يعتبر تقريبًا الكتاب الأول من نوعه، الذي يحاول فيه الكاتب شرح العقيدة اللاهوتية، بطريقة نظامية ومسلسلة. ويحتوي هذا الكتاب على أربعة مجلدات؛ ففي المجلد الأول أو الكتاب الأول يتعرَّض اللاهوتي المصري لشرح العالم غير الطبيعي ووحدة الله والثالوث. وفي الكتاب الثاني يتكلم عن العالم الطبيعي وخلق الإنسان، والسقوط، والفداء، والقيامة، والدينونة. وأما في الكتاب الثالث فهو يتكلم عن اتحاد الجسد بالروح والصراع القائم بين الجسد والروح. وفي الكتاب الرابع يتعرَّض لمشكلة الكتب المقدسة.

٥- إن الحفريات التي تمت في طرة سنة ١٩٤١، كشفت لنا عن كتاب يحتوي على نقاش دار بينه وبين هراقليطوس في بصرة في العربية، عندما دعاه إخوة الكنيسة للذهاب إلى هناك لإصلاح الموقف وإرشاد هراقليطوس (HERACLIDE) إلى الصواب. وكان موضوع الحوار «الثالوث» (انظر HER 164, 9).

نضيف إلى ذلك عظاته التي لا تُحصى والتي لم يبقَ لنا منها إلا ٢٠ عظة فقط (انظر QUASTEN, pp. 60-62).

وتوجد كتب أخرى كثيرة لم يبقَ منها شيء بتاتًا، أو لا نملك منها إلا القليل، ونذكر هنا البعض من عناوينها: القيامة، خليط، الصلاة، حث على الاستشهاد، والمراسلات.

وكما سبق القول لا يمكننا أن نذكر كل ما كتبه هذا اللاهوتي العظيم. ونتمنى أن يتخصص أحد الشباب في دراسة حياة هذا الرجل وتعليمه، لكي يقدمه للعالم العربي تقديمًا أفضل وأشمل وأعمق من هذه العجالة التي لا تلمس إلا القليل من بحر حياته.

المسيح يسوع في مفهوم أوريجانوس

تعاليمه الكرستولوجية:

ما هي عقيدة أوريجانوس في شخص المسيح يسوع؟ إن اللاهوتي المصري علَّم هو أيضًا بلاهوت وناسوت المسيح، واستعمل الاصطلاح «الله الإنسان» (انظر كتابه DE PRINC2, 6, 3) لكي يدل به على أن الله لم يكن الله فقط بعد التجسُّد، بل كان إنسانًا أيضًا. على أن تعاليم أوريجانوس تعرَّضت لنقد لاذع شديد. وقبل أن ندخل في التفصيلات الكرستولوجية نرى أنه من الضروري أن نلقي نظرة سريعة على مفهوم أوريجانوس للروح، لأن ذلك يساعدنا على أن نفهم عقيدته في «اللوجوس» أي الكلمة.

كان أوريجانوس - على العكس من معلِّمه إكليمندس ويوستينوس - يرجع كل شيء ليس إلى اللوجوس بل إلى الله. فإن أوريجانوس شدَّد على حقيقة أن الله هو الأول، وهو النشاط والطاقة والحياة، فهو الخالق الذي عن طريق الكلمة خلق كل الأشياء. فهو يعمل وينتج عن طريق الكلمة أي اللوجوس الذي يستخدمه في عملية الإنتاج والخلق. (انظر كتاب BONIFAS, vol. 1, p. 150- 153 HARNACK, pp.100- 103).[1] وعملية الخلق كما يراها أوريجانوس عملية طويلة، ولكن يمكن أن نلخِّصها في المراحل الآتية: كما سبق القول إن الله في تعليم أوريجانوس هو الأول، وهو الله الخالق الذي كان منذ الأبد خالقًا. فكل ما هو موجود خلقه الله عن طريق كلمته أي اللوجوس. ولكن العالم الذي نراه الآن والذي نحن منه، ليس هو نفس العالم الذي خلقه الله في البداية عن طريق كلمته أي اللوجوس. فإن الله خلق في البداية عنصرين هامين جدًّا ساهما في تكوين العالم، ومنهما تكوَّن العالم الحالي.

العامل الأول أو العنصر الأول هو: الأرواح، فإن الله خلق الأرواح كخلائق تتمتع بحرية كاملة، ولقد دعا هذه الأرواح للاتحاد مع «كلمته»، «اللوجوس» وعن طريق اتحادها مع اللوجوس تتحد أيضًا مع الله. وكانت هذه الأرواح كلها من جوهر إلهي ومتساوية في الذكاء والقدرة والعمل ومعرفة الله ومحبته. ولقد دعوا كلهم إلى نفس المصير. لكن كان ينقص هذه الخلائق أو الأرواح شيء واحد وهو عمل الخير، الذي يتوقف على استعمال الحرية التي منحها لهم الله. فقد تركهم أحرارًا لاختيار الخير أي الاتصال بالله والحياة معه أو اختيار الشر والحياة بعيدًا عنه.

أما العنصر الثاني الذي تكوَّن منه العالم فهو المادة؛ فالمادة إذًا هي خليقة الله (وهنا يرفض أوريجانوس الغنوسية المتطرفة)، ولكن المادة التي خرجت من بين يدي الله منذ الأبد تختلف كل الاختلاف عن المادة الحالية، المادة الكثيفة الجامدة الثقيلة. فالمادة عندما خرجت من بين يدي الخالق كانت مادة خفيفة منيرة، لامعة شفافة سائلة، كاملة مهيَّأة لسكن الروح، هذا الروح الذي كان لابد أن يعمل من هذه المادة مسكنًا يليق بعمل الخير. لقد كانت المادة إذًا عند خروجها من يد الله قبل الروح غير كاملة، إن المادة والروح لم يكونا إلا ما سيصيران عليه بعد اختيارهما للخير أو للشر بحسب الحرية التي مُنحت لهما؛ فالكون بكل ما فيه ما هو إلا النتيجة الحتمية للاختيار الذي قامت به هذه الأرواح.

والذي حدث كما يظن أوريجانوس، أن بعضًا من هذه الأرواح التي خلقها الله، اختارت بحرية كاملة الاتحاد بالله،

---

(١) انظر في نهاية هذا الفصل المراجع كاملة.

وباللوجوس، وبناءً عليه فقد أظهرت محبتها وارتباطها الوثيق بالله. وهذه الأرواح تدعى الملائكة، أي الطبقة المنيرة السماوية الممجدة. على أن بعض الأرواح الأخرى ثارت على الله، وانفصلت عنه وعصت أوامره، بل أعلنت حربًا شعواء ضده وهم الشياطين، الذين حكم عليهم بالسكن في المناطق المظلمة والنجسة، وهي التي تثير الاضطراب وعدم الانسجام في العالم.

وتوجد طبقة ثالثة من الخلائق، وهذه الطبقة لم تتحد بالله كما فعل الملائكة، ولم تعلن حربًا ضد الله كما فعل الشياطين، ولكنها أخذت موقفًا وسطًا، فلقد تركت الله وانطوت على نفسها وأحبت ذاتها، وهذه هي جماعة البشر. فإن الجسد والعالم الأرضي، اللذين تسكنهما الأرواح البشرية هما النتيجة والعقاب لسقوط هذه الأرواح البشرية.

إن عملية السقوط كما يراها أوريجانوس ليست عملية وحيدة وفريدة ونتيجتها جماعية في التاريخ، ولكنها عملية فردية، فإن كل نفس بشرية قد سقطت من العالم الإلهي السابق، فإن أرواح البشر مخلوقة منذ زمن بعيد، منذ خليقة الأرواح الملائكية والشياطين؛ فالأرواح البشرية سابقة إذًا في وجودها للأجساد التي تسكن فيها على الأرض الآن. وسكن الأرواح في الأجساد يُعد عقابًا لها على تصرفاتها في العالم السابق.

ومن هنا ننتقل إلى الفكرة الرئيسية والهامة في موضوع دراستنا وهي عملية التجسُّد؛ فأوريجانوس يعتقد أنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الإلهية بجسد بشري، ولكي تتم هذه العملية - عملية الاتحاد الإلهي البشري- كان لابد من وجود وسيط. والوسيط الذي يلجأ إليه هو الروح البشرية الموجودة والمخلوقة قبل خلق الجسد، فإن الروح بطبيعتها تحتل مكانًا وسطًا، ففي استطاعة الروح الاتحاد بالله لكونها روحًا وفي استطاعتها أيضًا أن تتحد بالجسد لهذا السبب عينه. والأغرب من ذلك في مفهوم أوريجانوس بخصوص أبدية الأرواح أو وجودها السابق، هو أن عملية الاتحاد التي تمت بين اللوجوس وروحه البشرية، قد تمت بعد الخليقة مباشرةً، إذ أن اللوجوس عند تجسُّده كان لا بد له أن يأخذ روحًا بشرية، وقد تمت هذه العملية عند التجسُّد، بل لقد حدث الاتحاد بين اللوجوس وبين روحه البشرية بعد الخليقة مباشرةً، أو بمعنى أدق تمت عملية الاتحاد هذه بين اللوجوس وروحه في لحظة السقوط؛ لأن الله دعا كل الأرواح المخلوقة بعد الخليقة للاشتراك والاتحاد معه، على أن يكون هذا الاتحاد نابعًا من قلب محب وإرادة حرة للاختيار.

ولم يوجد بين كل هذه الأرواح «الوسطى» إلا روح واحدة قد التصقت باللوجوس بطريقة قوية متينة ثابتة لا تعرف الانفصام. ولأن هذه الروح قد التصقت باللوجوس بهذه الرابطة القوية فلم تعرف طريق السقوط الذي هوت فيه كل الأرواح الأخرى، وظلت ساكنة في السماء ومتحدة باللوجوس. ولذلك عندما جاء ملء الزمان وعندما أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، فإن هذه الروح التي كانت متحدة باللوجوس قبل التجسُّد صارت روحًا للإنسان يسوع بعد التجسُّد.[1] «لقد اتحد اللوجوس بالجسد عن طريق روح بشرية، وهذه الروح هي نفس طاهرة لم تعرف السقوط» (انظر هرنك PRECIS DE L'HISTOIRE, pp. 105-110).

إن هذه الروح التي قبلت باختيارها الشخصي ومحبتها العظيمة، الاتحاد باللوجوس والالتصاق به، هي نفسها باتحادها

(١) انظر – بخصوص هذا الموضوع – المراجع التي سنذكرها في نهاية هذا الفصل، ثم انظر كتاب – Bonifas Vol. I, pp. 151 .159, 337- 338

مع اللوجوس حلّت في الإنسان يسوع، أو بعبارة أخرى صارت الروح البشرية ليسوع الناصري؛ فإن هذه الروح التي كانت متحدة باللوجوس قبل التجسُّد، أصبحت الوسيط بينه وبين جسد يسوع الذي سكن فيه اللوجوس.

والسؤال الذي يعترض سبيلنا هو الآتي: ما هو نوع العلاقة القائمة بين اللوجوس وبين هذه الروح والجسد اللذين لبسهما؟ إن العلاقة بين اللوجوس وبين الروح قائمة على المحبة والانسجام والطاعة؛ لأن هذه الروح قد قبلت، منذ خلقها وبملء حريتها هذا الطريق، أي طريق لم تعرف السقوط (انظر هرنك CONTRE CELSE, 1. 32). وعندما سكن اللوجوس في هذا الجسد، في يسوع الناصري، وهو إنسان كامل من ناحية تكوينه أي روح وجسد، كان اللوجوس ابن الله يعمل في الإنسان يسوع لكي يرفعه ويسمو به.

ومع أن أوريجانوس يقول إن الروح التي اتحد بها اللوجوس لم تعرف السقوط (انظر BONIFAS 337-338) فهو يقول أيضًا إن هذه الروح تشبه تمامًا أرواحنا (انظر كتابه DE PRINCE., 2, 6, 5). وإلا كيف كان يمكن للمسيح أن يخلِّص أرواحنا لو أخذ روحًا تختلف عن الروح التي يجب أن يخلِّصها. ولكن على الرغم من ذلك فمع كونها شبيهة تمامًا بأرواحنا فإنها ظلت طاهرة قبل السقوط عن طريق اختيارها الشخصي الحر باتحادها باللوجوس، كما ظلت أيضًا بعد اتحادها بالجسد طاهرة نقية وبلا خطية.

وكان اللوجوس يرفع ويؤله تدريجيًّا الروح التي اتحد بها، وكانت الروح ترفع وتؤله هي أيضًا بدورها الجسد الذي سكنته.

ويستعمل أوريجانوس مَثَل الحديد والنار لكي يشرح عملية اتحاد اللاهوت بالناسوت. فإن الحديد لا يحمَر ولا يتحول إلى نار إلا بفعل النار. هذا هو تأثير اللاهوت على الروح وعلى الجسد، فإذا كان الحديد قد احمَر وتحول إلى نار، فالفضل في ذلك يرجع إلى النار، وإلى النار وحدها. فإن تألُّه روحه وجسده تدريجيًّا يرجع إلى اللوجوس الذي سكن فيهما ورفعهما إلى هذه الدرجة، درجة اللاهوت (انظر كتابه DE PRINC., 2, 6, 3; 2, 8, 2; 2, 6, 5).

من الاقتباسات السابقة وخاصة ما قاله في كتابه ضد سلس (CONTRE CELSE 3, 41) يتضح أن أوريجانوس يؤمن بأن روح المسيح وجسده كانا يرتفعان ويتحولان تدريجيًّا إلى درجة اللاهوت فهو يقول إن روح المسيح، وحتى جسده، تألَّها باتصالهما بالكلمة «اللوجوس». ويقول هرنك إن أوريجانوس كان يؤمن بأن اللوجوس لم يكن سجين الجسد، بل كان له السلطان أن يمارس ما كان يقوم به سابقًا، كان يواصل اجتماعاته بالأرواح الطاهرة. وخلال هذه الحياة على الأرض كان اللوجوس يمجد ويؤله بالتدريج الروح وهذه الأخيرة كانت بدورها تمجد وتؤله الجسد (انظر هرنك PRECIS DE L'HISTOIRE, pp. 105-110)

وهنا يبدو لنا الخطر، بل المنزلق الوعر الذي كان يهدد أوريجانوس. فمع أنه يكرر مرارًا كثيرة، وخاصة في شرحه للنصوص الآتية (يو١٠: ١٨، ١٢: ٢٧، ١٣: ٢١؛ مت ٢٦: ٣٨) أن هذه النصوص تدل على ناسوت المسيح (انظر كتابه DE PRINCE, 2, 6, 3) إلا أنه يقول أيضًا في بعض كتاباته بل في أماكن عديدة سبقت الإشارة إليها، بتأليه جسد المسيح.

ومن هذا يتضح أن هذا المعلِّم الذي نشأ في بيئة تشبَّعت بالغنوسية، كان يريد أن يعمل من الغنوسية الوثنية غنوسية مسيحية، كما حاول ذلك قبله إكليمندس الإسكندري. والدارس المدقق لتعاليم هذا الرجل يلاحظ ذلك بلا عناء، وخصوصًا في

شرحه لنظرية الخلق. لا ننكر بأنه استبعد الغنوسية التي تعتبر أن الله السامي لا علاقة له بالخليقة والمادة، عندما اعترف بأن الله هو الخالق. على أنه يعترف بأن العالم الذي خلقه الله، خلقه من مادة تختلف عما هو عليه الآن، مادة خفيفة شفافة نقية... إلخ.

وهناك نقطة أخرى تبرهن على أن الرجل، بالرغم من أنه نشأ في وسط مسيحي، كانت لا تزال بعض رواسب الوثنية باقية فيه، أو ربما كان لرغبته في إيجاد حل وسط يجذب عن طريقه الغنوسيين، علَّم بأن روح المسيح قد خُلقت منذ الأزل. كذلك أيضًا رأيه في نظام الخليقة، نشْتَمُّ منه رائحةً غنوسيةً؛ فمع أنه يستعمل العبارة «إنسان الله» عندما يتكلم عن يسوع المسيح لكي يشير إلى لاهوته وناسوته، ولكن التصريحات التي سبقت الإشارة إليها تبين لنا أنه يريد أن يرفع جسد هذا الإنسان يسوع إلى درجة اللاهوت. وهذا خطر عظيم.

والقارئ المدقق لتعاليم أوريجانوس يشْتَمُّ منها كل أنواع الهرطقات، إلا أنه استطاع أن يهرب من الكثير منها. فقد قال عنه هرنك ما معناه: «كان يمكن أن يُتهم أوريجانوس بأنواع كثيرة من الهرطقات، ولكنه استطاع أن يفلت منها بسبب الاحتياطات التي اتخذها» (هرنك ص١٠٩، المرجع السابق) فلقد كان اهتمامه الأعظم وشاغله الشاغل هو إبراز صورة اللاهوت «اللوجوس»، الله.

إن اللاهوت طغى حتى كاد يخفي الناسوت تمامًا، فمع أن الناسوت كان ظاهرًا أمام العين المجردة، ولكن في تعاليم أوريجانوس نكاد لا نرى إلا اللاهوت، أو ناسوتًا في طريقه إلى التأله. وهنا نتساءل أين إذًا الله الإنسان؟ أين يوجد ناسوته إذا كان اللوجوس يؤله الروح والجسد معًا؟

إننا لا ننكر فضل أوريجانوس في إدخال عقيدة الروح في التعاليم الكرستولوجية، فلقد كان الأول الذي علَّم بهذه التعاليم في الكنيسة الشرقية، عندما قال إن مخلِّصنا أراد أن يخلِّص الإنسان روحًا وجسدًا (راجع DE PRINC., 4, 2, 4) ولكن للأسف الشديد، إن تمسُّكه بفكرة الروح، قاده إلى أفكار غريبة عن الكتاب المقدس وعن المسيحية. على سبيل المثال: عقيدته في أن وجود الأرواح سابق لوجود الأجساد؛ أي أن الروح موجودة قبل الجسد الذي تحل فيه وتسكنه. ومن أفكاره الغريبة أيضًا أن الخلاص هو خلاص يشمل الجميع كونيًّا (COSMIQUE) فالمسيح الفادي لا يفدي الجنس البشري فحسب، بل حتى الملائكة الساقطين (انظر BONIFAS, vol. 1, p. 154).

وبما أننا رأينا فيما سبق علاقة اللوجوس بالروح وبالجسد، وكيف أن اللوجوس يعمل على رفع وتأليه الروح، والروح بدورها تعمل على رفع وتأليه الجسد. يجب أن نسأل هذا السؤال: ما هي العلاقة القائمة بين اللوجوس وبين الآب؟ من هو اللوجوس بالنسبة للآب؟

لقد سبق أن عرفنا أن علاقة اللوجوس بروح المسيح البشرية قد بدأت عند السقوط وبالتحديد عندما اختارت الروح بمحض إرادتها الاتحاد، عن طريق المحبة والطاعة الكاملة، باللوجوس. ولهذا السبب ظلت هذه الروح الوحيدة في السماء ولم تسقط إلى السجن الأرضي. وهكذا ظلت هذه الروح متحدة باللوجوس إلى يوم التجسُّد، اليوم الذي فيه حلَّت في الإنسان يسوع المسيح. الإنسان الكامل من الناحية الطبيعية مكوَّن من روح وجسد. وفي مفهوم أوريجانوس أن الأرواح موجودة

ومخلوقة قبل الأجساد، وكل الأرواح سجينة في الأجسام. أما روح المسيح فكانت في السماء مع اللوجوس إلى يوم حلولها معًا في الإنسان يسوع الناصري، فإن الإنسان يسوع الناصري كان يتكون إذًا مثل كل إنسان من روح عاقلة وجسد، ثم اللوجوس كان في هذا الإنسان يسوع الناصري وبالتالي فهو «الله - الإنسان».

وهنا نطرح السؤال الذي طرحناه سابقًا، وهو: ما هي العلاقة القائمة بين اللوجوس والله؟ أو بطريقة أخرى ما هي العلاقة القائمة بين الله الآب والله الابن؟ من هو الآب بالنسبة للابن ومن هو اللوجوس بالنسبة للآب؟

أوريجانوس يعلّم بأن اللوجوس انبثق من الآب، وهذا الانبثاق لا يعد تقسيمًا في ذات الله، بل إن هذه العملية - أي عملية الانبثاق أو خروج الابن أو اللوجوس من الآب - هي عملية روحية.

فالابن هو صورة الله غير المنظورة وهو أيضًا حكمة الله؛ فالابن بالنسبة للآب هو الحق. أما بالنسبة لنا فهو الذي يقودنا إلى الحق (انظر DE PRINCE., 1, 2, 6). وهذا الابن هو ابن أزلي، لا بداية له، فإنه موجود منذ الأزل ولا يوجد وقتٌ ما لم يكن الابن موجودًا فيه (انظر DE PRINC., 1, 2, 9; 4, 4, 1).

وكأني بأوريجانوس يرفض مقدمًا الأفكار التي نادى بها أريوس فيما بعد، الذي علّم بأنه يوجد وقت ما لم يكن الابن موجودًا فيه كما أنه يرفض عقيدة التبنّي، أي أن يسوع أصبح ابنًا بالتبنّي وليس بالطبيعة (انظر DE PRINC., 1, 2, 4).

ثم يقول: «وبما أن الحكمة (الكلمة أو اللوجوس) انبثق من الله فهو الله، ومولود من جوهر إلهي» (انظر كتابه SAP., 7, 25)، ولكي يعبّر أوريجانوس بطريقة صحيحة وواضحة فقد صاغ الاصطلاح الذي سيلعب دورًا كبيرًا في تاريخ العقيدة المسيحية وخاصةً في مجمع نيقية (سنة ٣٢٥) وهو «أموزيوس» (OMOOUSIOS)، والذي يعني أن طبيعة الابن من طبيعة الآب؛ فبحسب هذا التعبير، الابن من نفس جوهر الآب.

إذا اكتفينا بالاقتباسات السابقة فقط يمكن أن نقول مع كاستن (QUASTEN) بأن تعاليم أوريجانوس الكرستولوجية تقدمت بخطوات واسعة إلى الأمام، على تعاليم المعلّمين الذين سبقوه. على أننا نلاحظ أنه قد ترك لنا بعض النصوص في أماكن كثيرة أخرى في كتاباته لا تتفق وأقواله التي سبق أن أشرنا إليها بخصوص وحدة الجوهر وذاتيته. ويقول لودز (LODS) في تعليقه على مفهوم أوريجانوس للوجوس إن الوسيط بين الله والناس ما هو إلا إله ثانٍ (أو ثانوي) في عُرف أوريجانوس، هو ابن، ولكنه مختلف عن أبيه في الطبيعة، ومن المستحيل مساواته مع الآب، فهو أقل منه درجة أي تابع للآب. لا يملك اللاهوت بل يتقبّله من الآب، فهو الله بالاشتراك في لاهوت الآب (انظر IN JOB 2, 2, 8) الآب وحده هو الله بذاته، أما الابن فهو إله من درجة أدنى... (انظر LODS., p. 43).

ويواصل لودز تعليقه بالقول بأنه توجد عبارات أخرى في كتابات اللاهوتي الإسكندري تدل على نفس المعنى كقوله (DEUTEROS THEOS) أي إله ثان أو ثانوي (انظر CONT., CELSE, 5, 35) بل إنه يختلف عن الآب ليس فقط في تميزه كشخص آخر (IN JOB. 10, 21 PAGE 143. 76) بل في الجوهر أيضًا (انظر DE, 15 ,1).

ومما لا شك فيه أن هذه العبارات التي ذكرها لودز، وعبارات أخرى كثيرة، خطيرة المعنى ثقيلة النتيجة، قد أفلتت من قلم أوريجانوس. ولهذا السبب فقد اتهمه البعض بهرطقة التابعية (SUBORDINATATIANISME)، أي أن الابن أقل من

الآب في الدرجة وتابع له. فالقديس جيروم يصفه بالتابعية دون أي تردد. على أن غريغوريوس العجائبي والقديس أثناسيوس المصري يبرآنه منها. كذلك بعض الكتاب الحديثين أمثال رنيون وبرات (REGNON PRAT) فهما لا يوافقان على هذه التهمة (QUASTEN VOL. 1. P. 95).

ومن هذا، يتضح أن البعض يبرر اللاهوتي المصري من هذه الهرطقة، والبعض الآخر يرى في كتاباته ميلاً صريحًا للتابعية. والذي دفع البعض إلى أن يروا في أوريجانوس نوعًا من هرطقة التابعية هي النصوص التي سبقت الإشارة إليها، وخاصةً النص الآتي: «ونحن الذين نؤمن بكلام السيد الذي يقول: بأن الآب الذي أرسله هو أعظم منه، والذي لا يسمح بأن يلقَّب «بالصالح»... ناسبًا هذا اللقب للآب... فإنه بهذا يدين الذين يمجدون الابن بإفراط، فنحن نؤمن بأن المخلِّص والروح القدس يفوقان كل الأشياء المخلوقة، في العظمة والسمو بلا وجه للمقارنة، كذلك الآب يفوقهما في العظمة والسمو بدرجة سموهما وتفوقهما على كل الخلائق الأخرى (انظر IN JOB, 13, 15).

إن هذا التصريح خطير وغريب، لأن أوريجانوس قد رفض عقيدة «المودااليزم» (MODALISME) بل إنه تكلم عن الثالوث مرات كثيرة في كتاباته.

(JOH, 5. 17; p. 14, 257; 10, 139, 270; IN JES HOM 1, 4, 1; CUATT 15, 31 PAG 13, 1345).

وبالرغم من رائحة الهرطقات العديدة التي يمكن أن نشتمّها عندما نقوم برحلة في حدائق كتاباته، فقد كان أوريجانوس لاهوتيًا عظيمًا؛ فهو الذي أدخل في التعاليم اللاهوتية الشرقية عقيدة روح المسيح. ومما لا شك فيه أنه بالغ في ذلك وارتكب أخطاء عظيمة عندما علَّم بوجود الأرواح قبل وجود الأجساد. وهو الرجل الذي نادى أيضًا بفكرة وساطة اللوجوس بين البشر وبين الله، فباتخاذه روحًا بشرية كأرواحنا وجسدًا بشريًا كأجسادنا، أصبح إنسانًا، وفي نفس الوقت هو اللوجوس، اللاهوت. بهذا الامتياز (إله-إنسان) استطاع أن يربط الله بالإنسان. وأوريجانوس يرجع كثيرًا في تعاليمه إلى فكرة الروح واتحادها بالجسد، فإنه يعتقد أن الروح هو صورة اللوجس، واللوجس هو صورة الله. كما أنه رأى في شخص المسيح المخلص والفادي. وهنا أيضًا قد تطرف في فهم نظرية الخلاص. إذ أنه ظن بأن عملية الخلاص مقدَّمة للكون كله، والفرصة متاحة للشياطين أيضًا.

وهو يعتقد أن الكون كله سيخلص في النهاية، ولكن بما أن الأمر متوقف على حرية الخلائق واختيارها، فيكفي أن تحدث حادثة عصيان وعدم قبول الطريق الذي يؤدي للخلاص، فتبدأ عملية الخلق من جديد... وهكذا تستمر هذه العملية، أي خلق عالم جديد ثم سقوط ثم فداء. وهكذا دواليك... دون نهاية (انظر كتاب BONIFAS VOL. 1. P. 155).

بالرغم من كل هذه الأخطاء اللاهوتية، وبالرغم أيضًا من خلطه بعض التعاليم الغنوسية والرواقية والأساطير الوثنية بتعاليمه المسيحية، فقد كان لأوريجانوس تأثير عميق على كنيسة القرون الأولى؛ فبعد موته قامت جماعات لاهوتية تؤيد آراءه وتنادي بها، كما أن جماعات أخرى رفضت هذه الآراء، وبين هاتين الجماعتين قامت المجادلات التي تدعى في تاريخ الفكر المسيحي «المجادلات الأوريجانوسية» التي ظهرت في سنة ٣٠٠، ٤٠٠، ٥٠٠، فقد كان ضد تعاليم أوريجانوس كلٌّ من متوداوس الفليبي وبطرس الإسكندري (METHOD DE PHILIPPES ET PIETRE D' ALXANDRIE) ولقد دافع عن تعاليمه بامفيلوس القيصري (PAMPHILE, DE, CESAREE)، وبعد ذلك جاء في سنة ٤٠٠ إبيفانس السلاميني

(EPIPHANE DE SALAMINE)، ثم بطريرك الإسكندرية ثيوفيلوس لمهاجمة تعاليم أوريجانوس فأصدر قرارًا سنودسيًّا ضد هذه التعاليم. على أن السنودس (المجمع) الذي عُقد في القسطنطينية في سنة ٥٤٣ أصدر قرارًا بخمسة عشر حرمانًا على البعض من تعاليم أوريجانوس، ولقد وقَّع على هذه الحرمانات البابا فيجيل (VIGILE) وكل البطاركة (انظر .,QUASTEN p. 50) بالرغم من هذا كله، فقد لعبت تعاليم أوريجانوس دورًا عظيمًا في حياة الكنيسة الأولى وتركت أثرًا عميقًا في كثيرين من الآباء والمعلِّمين. وكم نتمنى لو أن الذين ينبشون بطون الأرض، يكتشفون بعضًا من مئات الكتب التي تركها هذا المعلِّم المصري العظيم، لتعطي لنا صورة مكتملة الجوانب عن تعاليمه بشكل عام، وعن مفهومه لشخص المسيح يسوع بشكل خاص.

مراجع هامة

1. Adolphe Harnack, Précis de L'histoire. Traduit par Eugéne, Choisy, pp. 98-111 (Paris Liprairie Fischbacher).

2. J. Liebaert, L'incarnation de Origines au Concile de Chaleedoine, (Les editions du cerf) pp. 93-107.

3. Farncois Bonifas, Histoire des Dogmes. de L'Eglise Chretienne, Tome I, pp. 143-159, 337-338 (Librairie Fischbacher).

4. A. Crillmeier, Le Christ dans la Tradition Chretienne de L'âge Apostolique á Chalcédoine (451) Les éditions du cerf) pp. 192-202.

5. J. Quasten, Initiation aux Peres de L'Eglise. Tome 2 (traduction de l'anglais par J. Laporte) (Les éditions du cerf) pp. 49-122.

6. T. De Regnon, Etude de Theologie Positive sur la Sainte Tirnite, premiere serie, deuxieme serie, 1892, troisieme serie, Paris 1898.

7. F. Prat, Origene le Théologien et L'exégáte. 3e ed. Paris 1907.

8. G. Bardy, La Regle de Foi D'Origene: RSR9, (1919) pp. 162-196.

9. R. Cadiou, Introduction au Systéme d'origene, Paris 1932.

10. J. J. Maydieu, La Procession du Logos d'apres le Commentaire d'origene sur L'errangile de Saint Jean: BLE 35 (1934), pp. 3-16, 49-7.

11. W. Fairweather, Origen and Greek Patristic Theology. N. Y. 1901.

12. H. Crouzel, Théologie de L'image de Dieu Chez Origéne, Paris 1950, pp. 71-142.

13. B. F. Westcoott, Origene: Dictionary of Christian Biography 4, 96-142.

14. G. L. Prestige, Fathers and Heretics, London, 1948. pp. 43-66.

١٥- الدكتور أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى، منشورات النور: بيروت لبنان، الجزء الأول من ص ص ٩٤-١٠٢.

الفصل السابع

هيبوليتوس

تمهيد:

ما هي عقيدة الكنيسة الغربية في شخص المسيح يسوع؟ كيف فهم الغربيون عملية التجسُّد؟ من هو يسوع الناصري بالنسبة للكنيسة الغربية؟

في عرضنا لتطور الفكر المسيحي عبر التاريخ في السؤال: «من هو يسوع المسيح؟» رأينا آراء مختلفة متنوِّعة. ولقد سبق أن رأينا أن السؤال الذي سأله السيد لتلاميذه في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» قد طرح على الكنيسة الأولى، ثم على الكنيسة في الأجيال اللاحقة. وما يزال هذا السؤال يطرح نفسه على الكنيسة كلها أينما كانت.

وفي دراستنا لتطور الفكر المسيحي، حاولنا أن نرى الإجابات المختلفة الكثيرة، التي أجابت بها الكنائس والجماعات والأفراد. وبما أن هذا السؤال قد طرحه السيد على تلاميذه، وكان ينتظر منهم جوابًا يعبِّر عن إيمانهم وعقيدتهم في شخصه. فإن نفس السؤال طُرح أيضًا وما يزال يُطرح على كل الكنيسة في كل زمان وفي كل مكان.

ولذلك فقد حاولت كل جماعة مسيحية أينما وُجدت أن تجاوب على هذا السؤال. وفي الإجابة على هذا السؤال: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٣) تضاربت الآراء واختلفت الأفكار. وظهرت المدارس الفكرية التي ولدت فيما بعد الطوائف الدينية، فإن المدارس الفكرية والمذاهب الدينية ظهرت عندما ظهرت الإجابات المختلفة المتنوِّعة على سؤال السيد. إذ أن البعض قد رأى في يسوع الناصري، المسيح، اللوجوس، الله الذي ظهر في الجسد. والبعض الآخر رأى فيه إنسانًا ومجرد إنسان. ولكنه إنسان نبي - على أن البعض الآخر رأى فيه إنسانًا وصل إلى درجة اللاهوت بعد العماد.

والجدير بالذكر أن معظم هذه الآراء والأفكار والمدارس قد ظهرت في الشرق، بل يمكن أن نقول بأن الأغلبية الساحقة ظهرت في الشرق.

فإن الإسكندرية قامت بدور رئيسي هام جدًا في تاريخ الفكر المسيحي؛ ففي الإسكندرية تأسست أول مدرسة مسيحية لتدريس علوم اللاهوت، المدرسة التي أسسها بانتينوس في سنة ١٧٩. فحتى المدرسة الثانية (مدرسة قيصرية) والتي وُلدت بعد نصف قرن من تأسيس مدرسة الإسكندرية، كان مؤسسها مصريًا أيضًا وهو أوريجانوس الذي تتلمذ على يدي إكليمندس الإسكندري، وهذا الأخير كان تلميذًا لبانتينوس.

ففي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة في الشرق في ثورة فكرية وفلسفية وعقائدية، كانت كنيسة الغرب تجهل الكثير

عن بعض التطورات اللاهوتية التي وصلت إليها أختها في الشرق؛ فمع أن الكنيسة الرومانية لم تكن منطوية على ذاتها، بل كانت كنيسة حيَّة نشطة جدًّا، استطاعت أن تعلن رسالة الإنجيل بلا خوف بل بشجاعة عظيمة لكثيرين، إلا أنها ظلت من الناحية التعليمية واللاهوتية بلا إنتاج فكري يُذكر حتى بداية القرن الثالث. فبينما كانت كتب دفاع الشرقيين عن المسيحية وعن إيمانهم بالمسيح منتشرة في طول الإمبراطورية وعرضها، لا نرى في الغرب إلا نوعًا من الإهمال، أو ربما نوعًا من الاعتماد والرجوع إلى ما قد قامت به الكنيسة الشرقية في دفاعها عن الإيمان المسيحي، وشرحها لإيمانها في شخص المسيح. ولقد ظلت كنيسة الغرب في هذا النعاس التعليمي اللاهوتي إلى بداية القرن الثالث. ويرجع ذلك إلى حقيقة أن الكنيسة الرومانية اهتمت كثيرًا بتنظيم الكنيسة من الناحية الإدارية والقانونية والاجتماعية والتبشيرية.

ففي بداية القرن الثالث، ظهر مكتوب دفاعي كتبه مينوكيوس فيلكس (MINUCIUS FELIX) وبالرغم من سلاسة الأسلوب وفصاحة الكاتب، فإنه لا يلمس الإيمان المسيحي إلا من بعيد جدًّا. على أن هذا المكتوب لم يكن المكتوب الأول في الكنيسة الرومانية، فلا يمكن أن ننسى إكليمندس الروماني وآخرين ممن كتبوا عن الإيمان المسيحي، ودافعوا عنه، ولكنهم كانوا قليلين عندما نقارنهم بكتّاب ومدافعي الشرق. ومن بين المعلِّمين الذين ظهروا وعلَّموا في روما عن شخص المسيح نذكر:

هيبوليت أو هيبوليتوس: (HIPPLYTE)

ولم يكن ظهور هيبوليتوس في بداية القرن الثالث شبيهًا بظهور المعلِّم المصري بانتينوس في الإسكندرية أو أوريجانوس، فإنه لم يؤسس مدرسةً تحمل كلمة مدرسة بكل ما في الكلمة من معنى، بل قام فقط بنشر تعاليمه اللاهوتية. وجدير بالذكر أن هذا المعلِّم الروماني يحتمل أنه كان شرقي الأصل. فإن كاستن (QUASTEN) يعتقد أن هيبوليتوس لم يكن رومانيًّا ولا لاتينيًّا. فإن معرفته المدهشة للفلسفة اليونانية منذ بدايتها إلى عصره، كذلك معرفته أيضًا للعبادات السرية اليونانية والشخصية اليونانية، تدل على أنه كان من أصل شرقي. كما يلاحظ أيضًا قرابة ملموسة بينه وبين تعاليم الإسكندرية، فيما يخص عقيدة اللوجوس؛ فهو يوناني في تعبيراته وأفكاره، ويعتبر أيضًا آخر كاتب مسيحي روماني كتب باليونانية.

يحتمل أن هيبوليتوس وُلد في ساردينيا (SARDAIGNE) بين سنتي ١٧٠، ١٧٥م، ورُسم كاهنًا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ولقد نقل فوتيوس (BIB. COD. 121 PHOTIUS) عن فمه أنه كان تلميذًا للقديس إيريناوس اليوناني. ويحتمل أيضًا أن المعلِّم الروماني تقابل وتناقش مع اللاهوتي المصري أوريجانوس عندما قام هذا الأخير بزيارته لروما عام ٢١٢. بل إن جيروم يعتقد بأن العظة المعنونة بعنوان: «إجلال أو تسبيح للسيد مخلِّصنا» قد ألقاها هيبوليتوس في روما في حضرة أوريجانوس.

فإن كان هيبوليتوس تلميذًا للقديس إيريناوس، فلا بد أنه اتبع آثار خطوات معلِّمه في محاربة الهرطقات التي كانت منتشرة في هذا الوقت والتي قاومها القديس إيريناوس بشدة.

كان هيبوليتوس عميق الفكر، متَّسع الاطلاع، امتدت معرفته إلى عدة فروع مختلفة من العلوم، ولقد تُوِّجت هذه المعارف في هذا الرجل بهبة الوعظ؛ فقد كان خطيبًا مفوهًا. ومع أنه قد طرق في تعاليمه وأبحاثه أبوابًا لم يطرقها المعلِّم المصري، ومع أنه أيضًا أنتج في كتاباته انتاجًا ضخمًا جدًّا، إلا أنه لم يستطِع أن يصل إلى نفس الدرجة التي وصل إليها

أوريجانوس في عمق الفكر والتجديد المستمر.

وتوجد نقاط كثيرة متشابهة في حياة المعلِّمين؛ فلقد رأينا أن سوء التفاهم الذي نشب بين معلِّم الإسكندرية وأسقفه، أدى إلى قطع الأول من الكنيسة وحرْمه. هكذا هبّت هذه العاصفة أيضًا بين المعلِّم الروماني وأسقفه كاليستوس (CALLISTE). ولكن على وجه آخر؛ فعندما حاول البابا كاليستوس تسهيل الأمور أمام الراجعين للإيمان بعد ارتدادهم عنه لسبب الاضطهادات العنيفة القاسية ولأسباب أخرى؛ فقد ثار هذا المتقشِّف ثورة عارمة ضد البابا واتهمه بالليونة التي ستهوي بالكنيسة وتقاليدها الرسولية إلى الحضيض. بل وصل به الأمر إلى اتهام البابا بهرطقة السابلينية.[1] وتفاقمت الأمور بين الكاهن وأسقفه. والتف حول هيبوليتوس جماعة من كنيسة روما وانفصلوا عنها واختاروه أسقفًا، فأصبح أول الذين يسميهم التاريخ فيما بعد بأضداد البابا (ANTIPAPES). استمر هذا الانقسام في الكنيسة الرومانية حتى في أيام البابا أربانيوس (URBAIN) ٢٢٣-٢٣٠. والبابا بونتينوس (PONTIEN) (٢٣٠ -٢٣٥) وظل هذا الانشقاق قائمًا إلى أن تقابل كل من البابا بونتينوس وهيبوليتوس في ساردينيا (SARDAIGNE) في المنفى، ويبدو أنهما تصالحا.

في ٢٨ سبتمبر سنة ٢٣٥ استقال بونتينوس لكي يسمح للكنيسة الرومانية أن تختار خليفة له. كما أن هيبوليتوس تنازل هو الآخر عن منصبه وموقفه واتحدت الكنيسة الرومانية وتبددت الغيوم التي انتشرت في سمائها، وانتُخب أنتروس (ANTEROS) بابا لها. ومات هيبوليتوس وبونتينوس في جزيرة «الموت» وقد أمر البابا فابيانوس (FABIEN) (٢٣٦-٢٥٠) بإحضار جسديهما إلى روما؛ فدُفن بونتينوس بجوار القديس كاليستوس في ناووس (مقبرة الباباوات)، كما أن هيبوليتوس دُفن هو الآخر في مقبرة فيا تبورتينا (VIA TIBURATIAN) واحتُفل بدفنهما في نفس اليوم وهو ١٣ أغسطس ٢٣٦ أو ٢٣٧، ففي هذا اليوم تحتفل الكنيسة باستشهاد القديس هيبوليتوس.

كتابات هيبوليتوس:

ومع أن الكتب التي كتبها هيبوليتوس عديدة جدًّا، إلا أنها واجهت نفس المصير الذي واجهته كتابات الكاتب المصري أوريجانوس. ولا نملك حاليًا إلا عددًا قليلاً جدًّا من كتاباته اليونانية. ولكن وصلت إلينا بعض كتاباته في لغات أخرى مترجمة إلى اللاتينية، والسريانية، والقبطية والعربية والأثيوبية.

ومن أهم ما كتب المعلِّم الروماني، المجموعة التي تتكوَّن من عشرة كتب والتي تُدعى:

(PHILOSO PHOUMENA OU, REFUTATION DE TOUTES LES HERESIES).

«رفض كل الهرطقات».

ولقد ضاع - لسوء الحظ - من هذه المجموعة الكتابان الثاني والثالث. أما بقية هذه المجموعة فقد اكتشفها منواد ميناس (MINOIDE MYNAS) عام ١٨٤٢ مكتوبة باليونانية في أسلوب القرن الرابع عشر. وعندما قام ميللر (M. E. MILLER) بطباعتها عام ١٨٥١ نسبها إلى أوريجانوس، ولكن في الطبعة التي قام بها دنكر (DUNKER) عام ١٨٥٩ نسب هذه المجموعة بطريقة واضحة ونهائية إلى هيبوليتوس؛ لأن مؤلف هذه المجموعة يذكر في مقدمتها كما في فصلين آخرين بأنه هو الكاتب

(١) سنرى فيما بعد عقيدة وتعاليم السابلينية.

لكتاب «جوهر الكون في تاريخ العالم» ومن المؤكد أن كاتب هذين الكتابين هو هيبوليتوس (QUASTEN ص ١٩٣- ١٩٩). لقد ضاع الكتابان الثاني والثالث من هذه المجموعة، فالكتاب الأول عبارة عن تلخيص لتاريخ الفلسفة اليونانية، وهو ركيك الأسلوب.

أما الكتاب الرابع فيتكلم عن الفَلَك والسحر، والجزء الثاني من هذه المجموعة يحتوي على الكتاب الخامس إلى الكتاب التاسع. ولقد حاول المؤلف أن يشرح العقيدة الصحيحة رافضًا ومفنِّدًا آراء الهراطقة، ولذلك فإن هذا الجزء يعتبر في غاية الأهمية لأنه يعطي لنا فكرةً عن تاريخ الهرطقات الغنوسية. وفي الكتاب العاشر من هذه المجموعة، يقدم لنا سجلًا تاريخيًّا لليهود ثم تفسيرًا للعقيدة الصحيحة، ويُحتَمَل أن هذه المجموعة كُتبت بعد موت البابا كاليستوس، إذ أن الكتاب يذكر أن البابا كاليستوس مات سنة ٢٢٢، عندما كان هيبوليتوس يقوم بكتابتها. إن هذه الكتب لم يذكرها الكاتب نفسه في قائمة كتبه ولا أسابيوس في تاريخ الكنيسة (٦: ٢٢) ولا جيروم.

٢- كتب هيبوليتوس كتابًا آخر يدعى (LE SYNTAGMA) وأسابيوس يعنونه بعنوان (ضد كل الهرطقات)، (انظر EUSEBE. HIST. ECCL.) ويذكر المؤلف ٣٢ هرطقة.

٣- ضد المسيح (ANTICHRIST): وهو الكتاب العقائدي الوحيد الذي وصل إلينا كاملاً. والكتاب موجَّه إلى شخص يدعوه هيبوليتوس الأخ المحبوب ثيوكيلوس. ويعطي الكاتب ملخَّصًا لهذا الكتاب في الفصل الخامس. ويشرح فيه الكيفية التي سيأتي بها ضد المسيح: ومن هو ضد المسيح، وفي أي وقت سيأتي.

٤- كتب تفسيرية: لقد كتب عدة كتب تفسيرية للعهدين، وكان يتبع في تفسيره نفس الطريقة المجازية التي اتبعها معلِّم الإسكندرية. على أنه يجدر بنا أن نذكر هنا أن هيبوليتوس هو الوحيد الذي أعطى لنا في كتابه الرابع لتفسير سفر دانيال تحديدًا لبعض التواريخ التي لم يذكرها أحد من الآباء، فهو يظن بأن المسيح ولد يوم الأربعاء ٢٥ ديسمبر في السنة الثانية والأربعين من حكم الإمبراطور أغسطس، وأنه مات في يوم ٢٥ أبريل.

٥- كتاب عن الفصح: كتبه في حوالي سنة ٢٢٠.

٦- كتب وعظية: ليس من السهل التمييز بين كتبه الوعظية والتفسيرية؛ لأن معظم تفاسيره تنهج النهج الوعظي.

٧- عظات أو تعاليم ضد الهرطقة.

٨- كتاب ضد اليهود.

٩- التقليد الرسولي: وهذا الكتاب ذو أهمية عظيمة، فهو يحتل الدرجة الثانية بعد الدسقولية؛ لأن الكاتب يصف لنا نظام الكنيسة القديمة فيتكلم عن النظم والفرائض التي كانت تمارسها الكنيسة في هذا الوقت: العشاء الرباني، العِماد، الدرجات الكهنوتية.

هذه الكتب التي ذكرناها ليست إلا بعضًا من كتابات هيبوليتوس العديدة جدًّا، ولقد ضاع الكثير منها، وجيروم يذكر لنا عدة كتب أخرى لا نعرف شيئًا عن محتوياتها لأنها ضاعت تمامًا مثل كتاب عن الكون، كتاب بعنوان ضد اليونان، كتاب عن أفلاطون (انظر PHILO. ١٠: ٣٢) ثم كتابه ضد هراطقة أرتيمون (ARTEMON) الذي ذكره أسابيوس (HIST. ECC. 5: 28) وكتابه عن القيامة الذي ذكره جيروم (DE VISILE, 61).

كما يُنسب أيضًا إلى هيبوليتوس قائمة الكتاب المقدس التي اكتشفها موراتوري MURATORI عام ١٧٤٠.

تعاليم هيبوليتوس الكرستولوجية:

كيف فهم هيبوليتوس فكرة اللوجوس أو المسيح؟

سلك معلِّم روما نفس الطريق الذي سلكه يوستينوس وتاتيانوس وأثيناغوراس وثيوفيلوس وترتليانوس، في تعاليمه عن يسوع المسيح. إلا أنه شدَّد أكثر منهم جميعًا على عقيدة التابعية[1] (SUBORDINATIANISME)؛ إذ أنه لم يكتفِ بالتمييز بين الكلمة الداخلية أو الكائنة في الله والكلمة المنطوقة كما فعل ثيوفيلوس. بل قدم نظرية تختلف نوعًا ما عن كل النظريات التي سبقت الإشارة إليها فيما يختص باللوجوس. ويعتقد هيبوليتوس أن عملية ظهور اللوجوس كانت عملية تطورية مرت بعدة مراحل يمكننا أن نلخِّصها في ثلاث:

١- المرحلة الأولى:

منذ البدء وقبل الخليقة كان الله وحيدًا مع ذاته. ومع ذلك لم يكن قط وحيدًا، لأن الله لم يتجرد قط من التفكير والعقل والحكمة والطاقة؛ فقد كان الله وحيدًا ولكنه في نفس الوقت «جمعًا» (انظر كتابه ضد نيوتس NOETOS 10-11). كان «جمعًا»؛ لأن الفكر أو العقل أو بعبارة أصح «اللوجوس» كان فيه، كان في داخله، فعندما كان الله وحيدًا في البداية وقبل بداية كل البدايات، لم يكن في حقيقة الأمر وحيدًا إذ أن الفكر (اللوجوس، الكلمة LE LOGOS) كان ملازمًا له، فقد كان اللوجوس إذًا في الله كالفكر في الإنسان.

وبما أن الله موجود قبل كل الوجود فاللوجوس موجود أيضًا قبل كل الوجود وأزليته مساوية تمامًا لأزلية الله ولا يوجد وقت ما، لم يكن اللوجوس غير موجود فيه، لأنه لا يمكن أن نتصور الله بلا حكمة أو بلا عقل لأن اللوجوس هو فكر الله، هو العقل الذي كان ساكنًا فيه بطريقة غير منظورة أو معروفة إلا منه. فالمرحلة الأولى لوجود أو ظهور اللوجوس هي المرحلة التي كان فيها الكلمة أي اللوجوس، كفكر الله، أو الله مفكِّرًا (انظر كتابه PHILO, 10. 33, ثمNOEL-10).

٢- المرحلة الثانية:

إن الله المفكِّر رأى في علمه السابق خلق العالم، وبدأ في تنفيذ هذه الخطة بتكليف اللوجوس بالقيام بهذه العملية. ولكي يقوم الكلمة، اللوجوس، بعملية الخليقة مع الله، فلقد أخرجه الله من ذاته أو نطقه خارجًا عنه. فإن هذا الفكر الداخلي الذي كان كامنًا في الله أصبح بعد عملية الانبثاق وقبل الخليقة حقيقة منظورة معروفة خارجًا عن الله؛ ففي عملية الانبثاق أو عندما نطق الله اللوجوس وأخرجه خارجًا عنه، أصبح الفكر الذي كان كامنًا في الله، وفي داخله، خارجًا عنه، وهذا الفكر الذي أصبح خارجًا عن الله هو «اللوجوس» وبما أنه خارج من جوهر الله نفسه فهو إذًا بِكره، وهو أيضًا نفس الله، على أنه ليس الله في ذاته وبذاته. فهو النور الخارج من النور والشعاع الخارج من الشعاع.

فإن الله الذي كان يملك في داخله اللوجوس في وقت ما قبل الخليقة، قد بثق أو أخرج من داخله الكلمة أي اللوجوس، كصوت أو كنور أو كشعاع. وعندئذٍ أصبح فكر الله الذي كان مخفيًا فيه، حقيقة خارجة منه. فقبل هذه العملية، أي عملية

(١) فكرة أن الابن تابع للآب وخاضع له، وأنه أقل منه درجة، فالآب أعظم من الابن وبناء عليه فإن الابن أقل من الآب.

اللفظ أو الانبثاق، لم يكن اللوجوس إلا فكرًا في داخل الله، أما بعد عملية الانبثاق أو الخروج أصبح اللوجوس خارجًا عن الله أو أمامه يراه وجهًا لوجه. وفيما بعد، أي بعد الخليقة، صار منظورًا وملموسًا ليس فقط لله بل منظورًا أيضًا من الخلائق. فبعد الخليقة التي ساهم في عملها اللوجوس والتي من أجلها ولخلقها لفظه الله خارجًا عنه أو أخرجه خارجًا عنه، يقوم الكلمة أي اللوجوس بدور آخر، هو العناية والقيادة، فهو يعمل على تنفيذ إرادة الله. وهو أيضًا الذي يقود البشر ويرشدهم إلى الطريق الصحيح. وهو أيضًا الذي ظهر للآباء والأنبياء في العهد القديم. انظر كتاباته الآتية:

(PHILO 10: 33; CONTRE NOETOS 10-11, HIPP_HAER 14, NAUTION 257. 5-7; 10 NAUTIN 257. 4)

ويسمي هيبوليتوس هذه المرحلة التي كان يتراءى فيها اللوجوس أو الكلمة لبعض الأنبياء وبعض الآباء مرحلة «اللوجوس أساركس» (LOGOS ASARKOS) أي اللوجوس بدون جسد (انظر PHILO, 10-33, HIPPOL., DE CHRISTO ET ANTICHR, 4 ED. ACHEBIS).

٣- المرحلة الثالثة:

تبدأ المرحلة الثالثة في تطور اللوجوس عندما يأمر الله كلمته، اللوجوس، بأن يشارك البشر حياتهم مشاركةً كاملةً وحقيقيةً. وعندئذٍ يطيع الابن اللوجوس أمر الآب فيتجسَّد ويصبح لوجوس-جسد (LOGOS-SARX) أو (LOGOS, ENSARKOS) أي اللوجوس في الجسد أو الكلمة في الجسد «الكلمة صار جسدًا». فيدخل اللوجوس في جسد شبيه بأجسادنا تمامًا ومن نفس «عجينتنا». والدليل القاطع على أن الابن، اللوجوس، كان من نفس طبيعتنا البشرية أنه كان خاضعًا لقوانين طبيعتنا، إذ أنه كان يجوع ويعطش ويتألم ويحزن ويبكي ويفرح، بل إنه تألم حتى الموت وذاق الموت فعلاً. على أنه انتصر في نهاية الأمر على هذا الموت بقيامته؛ ففي يسوع المسيح توجد طبيعتان، يوجد الكائن الإلهي «اللوجوس». ثم الإنسان الذي اتحد به اللوجوس في شخص يسوع (انظر PHILOS., 10. 33, 34).

في هذه المراحل الثلاث التي ذكرناها أعلاه، يلخِّص هيبوليتوس مفهومه لتطور اللوجوس؛ فإنه يؤمن بأن اللوجوس كان في البدء فكر الله الكامن فيه، وعندما نطق أو أخرج اللهُ هذا الفكر، هذا الكلمة خارجًا عنه، صار الكلمة الموجود أمامه والمنظور والمعروف ليس من الله فحسب بل منظورًا ومعروفًا من الخلائق أيضًا، ولقد أصبح هذا الكلمة، اللوجوس، منظورًا ومعروفًا وملموسًا بطريقة حسية عندما لبس جسدًا وصار إنسانًا.

ولقد أراد اللاهوتي الروماني بهذه النظرية أن يهدم تعاليم «الموداليزم» (MODALISM) التي سنتعرَّض لشرحها بالتفصيل فيما بعد. فإن هذه الجماعة اعتقدت بأن الآب والابن والروح القدس ليسوا ثلاثة أقانيم، بل ثلاث هيئات أو طرق فيها أظهر الله نفسه، فإن الله الآب هو نفسه الله الابن هو نفسه الله الروح القدس؛ فقد ظهر كالله الآب في أيام الآباء ثم ظهر كالله الابن في يسوع المسيح في أيام التجسُّد، وأخيرًا ظهر كالله الروح القدس في يوم الخمسين وفي أيام تأسيس الكنيسة. ولكي يهدم هيبوليتوس هذه النظرية التي لا تميز البتة بين الآب والابن والروح القدس، والتي تنادي بأن هذه الألقاب، آب وابن وروح قدس، ما هي إلا أسماء قد أُعطيت لنفس الشخص لكي تشرح ثلاث هيئات أو مراحل مر بها نفس الشخص. فقد شدَّد على التمييز بين الأقانيم وأنها لا تعبِّر عن حالة أو عن هيئة أو مرحلة وُجد فيها، أو لبسها أو مر بها نفس الشخص، بل إن هذه

الأقانيم الثلاثة حقيقة إلهية، وأن الآب ليس هو الابن ولا الابن هو الروح القدس، فإن هؤلاء ثلاثة أقانيم وليسوا ثلاث هيئات أو طرق ظهر بها الله الآب.

ومما لا شك فيه أن هيبوليتوس كان على عين الصواب عندما حاول أن يميِّز أقنوم الآب عن أقنوم الابن وعن أقنوم الروح القدس. فإن هؤلاء الثلاثة هم جوهر واحد ولكنهم ليسوا أقنومًا واحدًا بل ثلاثة أقانيم آب وابن وروح قدس؛ فمع أنه كان محقًّا كل الحق في التوكيد الشديد على التمييز بين الأقانيم الثلاثة، إلا أنه لم يستطع أن يبعد قدميه عن منحدرات الانزلاق الخطيرة.

فإن مفهومه للوجوس كان يتعارض مع مفهوم الموداليزم الخاطئ كما أنه كان يتعارض أيضًا مع مفهوم كلٍّ من البابا زيفرنيوس (ZEPHYRIN) ثم البابا كاليستوس (CALLISTE) اللذين كانا يدافعان عن الإيمان البسيط التقليدي، والخطأ الأول الذي وقع فيه هيبوليتوس هو اعتقاده بعملية النمو أو التطور في شخص اللوجوس؛ فهو قدم لنا اللوجوس في بادئ الأمر كفكر الله، كعقل الله، وهذا الفكر يتطور إلى حقيقة واقعية خارجًا عن الله، ابن الله، وهذا الابن يتطور أيضًا بطريقة أكثر واقعية وحسية عندما يأخذ جسدًا، عندما صار انسانًا. فمع أن المعلِّم الروماني يعترف بحقيقة مهمة جدًا لم يعترف بها بعض الآباء المدافعين وهي أزلية هذا اللوجوس، إلا أنه يعترف بوجود نوع من النمو والتطور أو التغيير في اللاهوت نفسه (انظر HIPPO. NOET., 10-11).

والخطأ الثاني الذي ارتكبه هيبوليتوس هو تعليمه بأن ميلاد اللوجوس أو انبثاقه هو عملية حرة كخلق الله للخليقة، وليست عملية حتمية عضوية لا مفر أو مهرب منها؛ فعندما يثق الله اللوجوس خارجًا عنه فإنه لم يقم بهذا العمل لأنه كان عملاً حتميًا وإلزاميًا أو عضويًا وضروريًا، بل لقد قام الله بهذا العمل عن طريق حريته؛ فهو عمل حر، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال: «... لو أراد الله أن يجعلك إلهًا لاستطاع ذلك وهناك مثال الكلمة (اللوجوس)» (انظر كتابه PHILOS, ١٠, ٣٣, ٧).

وتوجد نقطة أخرى يجب لفت نظر القارئ إليها، وهي أن هيبوليتوس يعتقد أن اللوجوس لم يُدعَ بطريقةٍ صحيحة ورسمية ابنًا لله إلا بعد التجسُّد، فمع أنه يؤمن بأن وجود اللوجوس معاصر لوجود الله (PREEXISTANT)، فهو والله (COEXISTANTS) موجودان منذ الأزل، إلا أنه يعتقد أن لقب الابن لم يعطَ بصفة رسمية وحقيقية إلا بعد التجسُّد؛ أي بعد الميلاد من العذراء. صحيح أن عملية الانبثاق أو عملية خروج اللوجوس من الله تُعد عملية ولادة (GEMERATION) فاللوجوس يمكن أن يُدعَى ابنًا بعد خروجه من الآب، إلا أن عملية الولادة هذه لم تكن عملية ولادة كاملة إلا بعد أن وُلد من العذراء مريم بطريقة منظورة ملموسة معروفة. بهذه العملية أصبح اللوجوس ابنًا لله (انظر HIPPOL. NAUTIN 241. 26- 242- 8).

والمعلِّم الروماني لا يريد أن ينكر بنوية اللوجوس كما فعل «البنويون» (ADOPTIONISTES) بل كان قصده أن اللوجوس لم يُدعَ ابنًا بطريقة صحيحة ومنظورة إلا بعد التجسُّد (انظر HIPPOL. HAER. NAUTIN 259. 14- 21).

ولم يستطع معلِّم روما الهروب من الخطأ الذي سقط فيه الكثيرون من المدافعين والمعلِّمين الذين سبقوه، فقد انزلق

كسابقيه في منحدر «التابعية» (SUBONDINATIANISME). إن هيبوليتوس تطرَّف في دفاعه ضد جماعة المواداليزم، فلكي يثبت لهم أن الآب ليس هو الابن وأن هذا الأخير ليس هو الروح القدس، وأن الله الواحد هو ثلاثة أقانيم، وأن الأقانيم الثلاثة متميز الواحد منهم عن الآخر بالرغم من أنهم وحدة واحدة وجوهر واحد، فلكي يبرهن على هذا التميز القائم بين الأقانيم الثلاثة، اضطر إلى أن يقول ما معناه أن اللوجوس ليس فقط أقنومًا متميزًا عن الآب ولكنه أقل منه؛ لأنه ما هو إلا صوت الآب، وما هو إلا انعكاس النور السماوي. ومع أنه لا يوجد انقسام في اللاهوت فهو يختلف عن الآب (انظر NOET, 11) وهو يقول عندما يتعرَّض لشرح عملية الانبثاق: «هكذا ظهر آخر» خارجًا عنه (عن الله). ولكني عندما أقول «آخر» لا أقصد أنه يوجد إلهان، بل بالعكس لا يوجد إلا نور الأنوار (انظر NOET, 11) وهنا ينضم هيبوليتوس في تفكيره إلى ترتليانوس (انظر TERTULLIEN ADV. PRAX. 8, 9).

ولقد اتبع أيضًا معلِّمه إيريناوس في تعاليمه الخاصة بعقيدة الخلاص (SOTRIOLOGIE) فهو يعلِّم بأن المسيح قد أخذ جسدًا حقيقيًّا من مريم العذراء، جسدًا كأجسادنا ومن نفس العجينة التي صُنع منها كل إنسان؛ فلو كان المسيح من طبيعةٍ تختلف عن طبيعتنا، كيف إذًا يمكن لنا أن نتبع خطواته، وهو من طبيعةٍ سامية مختلفة عن طبيعتنا، وكيف يمكن أن يكون من طبيعة أخرى، وهو قد تجرَّب بكل تجارب البشر إلا الخطية؛ فهو الإله الإنسان الذي جاء لكي يخلِّصنا، ويجدد عهودنا مع الله، جاء للمصالحة ولقد جاء في جسد حقيقي (ENSARKOS) وهكذا استطاع أن يخلِّص الإنسان كله (راجع PHILO 10. 33; 34). إن مجيء الابن إلى العالم هو إعلان محبة الله الجديدة للعالم، وبطريقة جديدة للعالم: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو ٣: ١٦).

مراجع هامة

1- J. Quasten. Initiation aux Péres, Vol. 2. Traduction de L'Anglaise par J. Laporte. (Les editions du cerf) P. 193 – 252.

راجع هذا الكتاب لأنه يحتوي على مراجع في غاية الأهمية بخصوص هذا الموضوع.

2- A. D'Alés. La Théologie de Saint Hippolyte, Paris 1906 2e ed.

3- G. Bardy. La Vie Spirituelle D'aprés Ies Péres de Trios Premiers Siecles, Paris 1935, pp. 149 – 159.

4- G. Bardy, L'Enigme d'Hippolyte. Melange de Scinece Religieuses (1948) 53 – 88.

5- C. C. Y. Bunsen, Hippolytus and his Age, London, 1854, 4 vol.

6- C. Wordsworth. St. Hippolytus and the Church of Rome in the Early part of the Third Century, London 1953.

7- B. Capelle, Le Logos, Fils de Dieu, dans La Theologie D'Hippolyte: RTAMQ, (1937) pp. 109 – 124.

8- B. Altaner, Precis de Patrologie, Mulhouse 1961.

9- A. Grillmeier. Le Christ dans la tradition Chrétienne De l'âge apostolique a Chalcédoine (451) (Les editions du cerf).

راجع هذا الكتاب والمراجع الموجودة فيه في غاية الأهمية ص ص ١٦٠ - ١٦٦.

10- Mare Lods: Précis D'Histoire de La Theologie Chretienne du IIe au Début du IVe Siecle. Editions Delachaux et Niestlé. Neuchate, pp. 41 – 42.

11- J. Liebaert. Histoire Des Dogmes.pp.80-82.

١٢- راجع كتابات هيبوليتوس نفسه.

الفصل الثامن

نوفاتيانوس NOVATIEN

حاولنا في الصفحات السابقة أن نشرح مفهوم المعلِّم الروماني هيبوليتوس لشخص المسيح. ولا يمكننا القول بأن تعاليمه كانت تمثل العقيدة العامة التي تعترف بها كل كنيسة روما، وخاصةً أن هيبوليتوس انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه رجع إليها في نهاية حياته. على أن تعاليمه تمثل عيّنة من التعاليم المختصة بشخص المسيح والتي كانت منتشرة في تلك المنطقة وفي تلك الحقبة من الزمن. وقبل أن نترك روما ونترك هذه الحقبة من الزمان في تاريخ الفكر المسيحي، يليق بنا أن نلقي نظرة سريعة على تعاليم معلِّم روماني آخر هو:

نوفاتيانوس: الذي يشبه هو أيضًا - إلى حد كبير - هيبوليتوس؛ فإن كليهما انفصل عن الكنيسة الرومانية وكليهما أيضًا حُرِّم منها. على أنه جدير بالذكر أن الخلافات التي فصلت بين هذين المعلِّمين هيبوليتوس ونوفاتيانوس وبين أساقفتهما كان معظمها مختصًا بالنظام الكنسي، والقليل، بل والقليل جدًّا، كان متعلقًا ببعض الأمور العقائدية.

كان نوفاتيانوس كاهنًا في الكنيسة الرومانية، وعلى ما يبدو كان يصبو بشغف إلى درجة الأسقفية، ولذلك فقد انتهز فرصة الانقسامات التي كانت تسيطر على كنيسة روما وطلب من ثلاثة أساقفة، أو بعبارة أصح أرغم مهددًا ثلاثة أساقفة، على وضع اليد عليه ورسامته أسقفًا (انظر EUSEBE. HIST. ECCL. 6, 43, 9 QUASTEN p. 255) وهكذا تجدَّد الانقسام في كنيسة روما، وبدأ الصراع بين البابا كورنيليوس الذي نُصِّب في سنة ٢٥١ ونوفاتيانوس وأتباعه. ولا نريد أن ندخل في تفاصيل النزاع الذي قام بينهما لأنه يتعلق بمشكلة قبول أو عدم قبول الأعضاء الذين ارتدوا عن الإيمان في وقت الاضطهاد كما أنه يتعلق ببعض المشاكل الأخرى التي تمس نظام الكنيسة، والتي لا تمس بطريقة مباشرة موضوع دراستنا، فلنترك إذًا البحث في موضوع النزاع ونسأل هذا السؤال الذي هو مركز بحثنا، ما هي أفكار نوفاتيانوس الكرستولوجية؟ ما هي عقيدته وإيمانه في شخص المسيح يسوع؟

جاء نوفاتيانوس بعد هيبوليتوس وعلَّم في روما في الوقت الذي انتشرت فيه تعاليم الدوسوتية، والموداليزم وعقيدة التبنِّي (LE MODALISME, LE DOCETISME ET L'ADOPTIANISME) فكان على نوفاتيانوس أن يحارب هذه التعاليم التي غزت روما في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، ولهذا فقد كتب كتبًا عديدة، ولكن أشهر هذه الكتب من الناحية العقائدية كتابه عن «الثالوث» (DE TRINITATE) ففي هذا الكتاب حاول المعلِّم الروماني شرح عقيدة الثالوث وعلاقة كل أقنوم بالآخر، ولكن الذي يهمنا في هذا الكتاب هو مفهومه للوجوس أو للابن. أو كيف فهم هذا اللاهوتي مشكلة التجسُّد،

وما هي علاقة الآب بالابن وبالروح القدس؟

لقد سبق أن رأينا أن هيبوليتوس حاول أن يميز بين الآب والابن والروح القدس وأكد بشدة على هذا الأمر بسبب انتشار المذاهب الثلاثة التي أشرنا إليها. ولهذا السبب عينه - أي انتشار الدوسوتية والموداليزم (الانتحالية)[1] وعقيدة التبنِّي - فقد اضطر نوفاتيانوس لاتباع نفس النظام في تعاليمه، إلا أنه شدَّد أكثر من سابقيه على التمييز بين الآب والابن والروح القدس، وأن المسيح كان إنسانًا حقًّا وإلهًا حقًّا منذ الأزل.

فلكي يحطم عقيدة «الانتحالية أو الهيئة» (MODALISME) وعقيدة التبني وعقيدة الدوسوتية، فقد علَّم بأن اللوجوس ليس هو الآب، بل كان مع الآب قبل كل بداية؛ فالكلمة كان ساكنًا في الآب منذ الأزمنة البعيدة التي لا يمكن تحديدها أو إخضاعها للزمن؛ لأن وجود الكلمة أي اللوجوس في الآب سابقٌ للزمن. وإلا فلا يكون الآب أبًا منذ الأبد. فمع أن الابن موجود قبل كل الوجود، وأن كل ما هو موجود قد وجد به. إلا أن الآب هو أصل الابن، هو المنبع الذي نبع منه اللوجوس لأن الآب لا أصل له.

أما الابن فيستمد أصله ووجوده من الآب. وبناءً على ذلك، فالآب سابقٌ للابن بالنسبة لكونه أبًا وإلا لما أصبح أبًا. فأصل الابن هو الآب الذي انبثق أو وُلِد منه، والابن أو الكلمة هو أيضًا وبكل تأكيد الله ويُدعَى الابن أو الأقنوم الثاني. وهذا الابن أو الكلمة هو أقل من الله. إنه يحتل الدرجة الثانية في الثالوث، لأن الآب موجود من ذاته وبذاته أما الابن فمنبثق من الآب الذي هو مصدره ومنبعه (انظر كتابه DE TRINITATE 17-31).

ولكي يثبت لجماعة الانتحاليين أن المسيح ليس هو الآب، بل أقنوم آخر غير الآب يرجع إلى سفر التكوين (٢١: ١٧): «ونادى ملاك الله هاجر من السماء...»، فهو يعتقد أن الملاك الذي نادى هاجر هو المسيح. فإن الذي نادى هاجر ليس هو الله الآب بل هو المسيح، الذي هو أيضًا الله، ولكنه ليس الآب، وبهذا أراد نوفاتيانوس التمييز بين الله الآب والله الابن الذي هو هذا الملاك.

وفي محاولته لإثبات الفرق بين الآب والابن، أو بعبارة أدق في محاولته التمييز بين الآب والابن وتحطيم عقيدة الانتحالية أو الهيئة؛ فقد سقط في نفس الأخطاء التي سقط فيها بعض الآباء وخاصةً هيبوليتوس، إذ أنه علَّم بأن الابن متميِّز عن الآب والدليل على ذلك هو أن الآب أعظم من الابن وهذا الأخير أقل من الآب، كما أن الروح القدس أقل من الابن (انظر كتابه عن الثالوث DE TRINITATE 27) فهو يقول: «إن البراقليطوس أخذ رسالته من المسيح، فإذا كان قد استلمها من المسيح فيكون هذا الأخير (المسيح) أعظم منه. فلو لم يكن أعظم منه لما استلم رسالته منه» (نفس الكتاب DE TRIN. 18).

كان هم نوفاتيانوس الأعظم وشاغله منصبَّين على مقاومة الهرطقات التي انتشرت في عصره وخاصةً هرطقة الانتحالية التي نادت بأن الله واحد والآب والابن والروح القدس ما هم إلا أسماء وليسوا أقانيم، ولهذا السبب فقد حاول المعلِّم الروماني بكل الوسائل أن يميز الأقانيم عن بعضها البعض، وفي محاولته التمييز بين هذه الأقانيم التي تكوِّن وحدة واحدة هي الله، ابتعد

(١) نترجم هنا كلمة (Modalisme) بالانتحالية أو الهيئة؛ إذ أن أتباع هذا المذهب يعتقدون بأن الآب نفسه انتحل هيئة إنسان أو انتحل عدة هيئات.

للأسف الشديد عن هذه الوحدة، وهو ما كان يتحاشاه الانتحاليون أنفسهم. فإن هؤلاء الانتحاليين (LES MODALISTES) نادوا بأنه لا يوجد إلا إله واحد وهو الله الآب الذي ظهر بهيئات متعددة عبر التاريخ، وفي تمسُّكهم بهذه العقيدة أرادوا الهروب من السقوط في خطأ تعدُّد الآلهة. وأما نوفاتيانوس فقد هاجم هذه الجماعة وعلَّم بأن الآب والابن والروح القدس ما هم إلا ثلاثة أقانيم وليسوا آلهة مختلفين في الجوهر. ولكن عندما حاول شرح هذه العقيدة، فقد ارتكب أخطاء لاهوتية لا تقل في خطورتها عن أخطاء الانتحاليين.

وكأني بالمعلِّم الروماني يتصور الثالوث كهرم قاعدته الآب، ووسطه الابن وقمته الروح القدس؛ فالآب هو الأصل والقاعدة، الذي يرتكز عليه كل البناء، والذي منه يخرج الابن الذي كان معه قبل كل بداية وهو خاضع له ولا يعمل إلا إرادته وينفذ أوامره، وأيضًا هو أقل من الآب. أما الروح القدس فهو خاضع أيضًا للابن وأقل منه ومُرسل من الابن ومأمور بأمره (انظر DE TRIN. 18; 27; 71).

ولم يستطِع الهروب من منزلق آخر أو على الأقل لم يكن بعيدًا عن الانزلاق في منحدر آخر وخطير؛ ففي دفاعه ضد الهرطقة الدسوتية وفي محاولته إثبات حقيقة التجسُّد وأن ابن الله أي اللوجوس الذي هو الله، قد أخذ فعلاً جسدًا حقيقيًا وبشريًا قد اضطر إلى أن يفصل أو يميِّز بطريقة قاطعة في بعض الأحيان بين ابن الله وابن الإنسان، أو على الأقل فإنه يشعر القارئ بأنه يفصل ابن الله من ابن الإنسان، فقد انتقد بشدة الذين لا يميزون بين ابن الله وابن الإنسان ويخلطون ابن الله بابن الإنسان (انظر DE TRIN. 24).

وبالرغم من أن نوفاتيانوس يتكلم عن وحدة ابن الله بابن الإنسان؛ أي أن اللوجوس أخذ فعلاً جسدًا (يو ١: ١٤) مثل أجسادنا إلا أنه يتكلم عن روح المسيح؛ فحتى عندما يتكلم عن موت المسيح لا يذكر أيضًا شيئًا عن الروح (انظر DE TRIN. ١٣) ولكنه يتكلم بوضوح عن الاتحاد الذي تم بين ابن الله وابن الإنسان، فهو إله وإنسان معًا (انظر;٢٤ DE TRIN. ١١; ٢١ ;٢٦) هكذا رأى نوفاتيانوس شخص المسيح يسوع.

مراجع هامة

1. J. Quasten. Initiation aux Peres de L'Eglise Vol. 2. Les editions du cerf, pp. 253-277.

راجع هذا الكتاب لأنه يعطي قائمة كتب في عدة ملفات مختلفة ومهمة جداً للباحث.

2. Ibide., A. Grillmeier. pp. 184 – 187.

3. Ibide., J. Liebaert. pp. 83 – 85.

4. H. Moore, The Treatise of Novatian on the Trinity (SPCK). London 1919.

5. C. B Daly. Novatian and Tertullian: Irish Theological Quaterly 19 (1952), pp. 33-43.

6. A D'Ales Novatien, Etude sur La Theologie Romaine au Milieu de 11le Siecle. Paris 1925.

7. R. Favre, La Communication des Idioms dans L'Ancienne Tradition Latine: BLE, 37 (1936), pp. 130-145.

8. C. Mohrmann, Les Origines de La Latinite chretienne a Rome: VC3 (1949), pp. 67-106. pp.163-183.

٩- الدكتور أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول ص ١١١- ١١٨ (منشورات النور- بيروت لبنان).

ملاحظة: كان نوفاتيانوس أول لاهوتي روماني يكتب باللغة اللاتينية (انظر Quasten p. ٢٥٨).

الفصل التاسع

ديونيسيوس الإسكندري DENYS D'ALEXANDRIE

عندما ترك أوريجانوس مدرسة الإسكندرية واستقر في قيصرية تولى إدارة المدرسة من بعده أحد تلاميذه الذي صار أسقفًا للكنيسة المصرية وهو هيراكلاس (HERACLAS). وعندئذ دعى أحد تلاميذ أوريجانوس المعجبين به والمتمسِّكين بتعاليمه لإدارة هذه المدرسة وهو ديونيسيوس. على أن هذا الأخير اختِير أيضًا أسقفًا للكنيسة المصرية (من سنة ٢٤٨ - ٢٦٥).

وُلد ديونيسيوس وشب في عائلة وثنية فنية جدًا. وكان منذ صباه شغوفًا بالعلم محبًا للاطلاع يبحث عن الحق والمعرفة. ووجد هذا الحق الذي كان يبحث عنه في الكتب المقدسة عن طريق الاطلاع والبحث، ولقد ذكر هو نفسه هذا الأمر في كتاباته (انظر EUSEBE HIST. ECCL. 7, 1, 1-3).

رُسم ديونيسيوس أسقفًا في سنة ٢٤٨ وبعدها مرت الكنيسة المسيحية - ليس في مصر فقط بل في كل الإمبراطورية تقريبًا- في بوتقة التجارب الممحِّصة؛ إذ أن الإمبراطور دسيوس شن حربًا شعواء على الكنيسة. واضطر الأسقف إلى الهروب ثم عاد إلى الإسكندرية بعد موت الإمبراطور دسيوس. وفي أثناء حكم الإمبراطور فالريانوس (VALERIEN) نُفي الأسقف المصري إلى ليبيا، وبعد عودته من المنفى تعرَّضت البلاد المصرية لتجربة أخرى لا تقل في شراستها وقسوتها عن التجارب السابقة، وهي الحرب الأهلية ثم وباء الطاعون. وبعد حياة جهاد وصبر وعمل وكفاح مات الأسقف ديونيسيوس عام ٢٦٥ في أثناء انعقاد مجمع أنطاكيا ولم يستطع حضور جلساته بسبب مرضه. وسُمي أسقف الإسكندرية بديونيسيوس العظيم أو الكبير لعظمة جهاده وصبره في التجارب.

كان تأثير هذا الأسقف عظيمًا ليس فقط على أبراشيته في مصر بل امتد نفوذه وتأثيره إلى خارج البلاد؛ فلقد حاول أن يفض النزاع الذي كاد يمزق كنيسة روما وكتب إلى نوفاتيانوس رسالة يحثه فيها على الرجوع إلى الكنيسة (انظر EUSEBE, HIST., ECCL., 6, 45).

كما أنه كتب كتبًا عديدة لمعالجة بعض المواضيع التي كانت تتعرَّض لها كنيسة عصره؛ فلقد كتب كتابًا عن الطبيعة وكتابين عن المواعيد. وكان الغرض من هذين الكتابين تصحيح بعض الآراء التي نادى بها الأسقف المصري نيبوس (NEPOS) الذي رفض تعاليم أوريجانوس الاستعارية والمجازية. وكان يؤمن بقبول المواعيد المذكورة في الكتاب بطريقة حرفية لا مجازية. وبناء على ذلك قال إن السنوات الألف التي يتكلم عنها سفر الرؤيا (رؤ ٢٠: ٢ -٦) لابد وأنها ستتحقق حرفيًا (انظر أسابيوس HIST., ECCL., 7; 24, 1- 3). ولقد ذهب الأسقف بنفسه إلى مقر الأسقف نيبوس (NEPOS) ودعا الإخوة إلى حوار مفتوح

دام ثلاثة أيام لكي يقنع هذا الأسقف بأخطائه (انظر أسابيوس HIST., ECCL, 7, 25, 6- 8).

ثم كتب أربع رسائل ضخمة إلى سميه بابا روما، والتي فيها دافع عن التهمة التي اتهمه بها بعض كهنته، بأنه ليس أرثوذكسيًّا. فشرح أسقف الإسكندرية لزميله أسقف روما إيمانه وعقيدته في المسيح، وهنا نسأل هذا السؤال الذي هو صُلب بحثنا ما هي عقيدة أسقف الإسكندرية وما هي تعاليمه الكرستولوجية؟ ماذا رأى في المسيح يسوع؟

كان ديونيسيوس تلميذًا غيورًا ومتحمسًا لتعاليم أوريجانوس، ولقد تأثر به تأثيرًا عظيمًا. ولذلك لا نجد فرقًا كبيرًا بين تعاليم هذين المعلِّمين المصريين؛ فإن الأسقف المصري نادى كمعلِّمه أوريجانوس بأن اللوجوس هو إله «ثانٍ» أو ثانوي أو أقل درجة من الآب، فاللوجوس خرج من الآب أي أنه غير مساوٍ للآب. واتهمه البعض بأنه في إحدى المناقشات الخاصة قد تلفَّظ ببعض التعبيرات التي تُشتَمُّ منها رائحة الهرطقة، مثل قوله بأن المسيح لم يكن بالطبيعة ابنًا الله، ولكنه خليقة يختلف جوهرها عن جوهر الله، فإن علاقة الابن بالآب شبيهة بعلاقة الكرمة بالكرَّام والسفينة بصانعها. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الأسقف سميه في روما، كتب البابا ديونيسيوس الروماني إلى ديونيسيوس المصري رسالة رقيقة ولكنها حازمة يرفض فيها التعبيرات والتشبيهات التي استعملها والتي تحمل في طياتها انقسامًا في جوهر اللاهوت، لأن اللاهوت غير منقسم الذات والابن مولود منذ الأزل، وهما من نفس الجوهر. ويقال إن ديونيسيوس الروماني هو الذي استعمل الاصطلاح الذي سيكون له النصر العظيم في مجمع نيقية وهو (HOMOOUSIA) أي من نفس الجوهر [1] غير أن البعض يظنون بأن أول من استعمل هذا الاصطلاح هو أوريجانوس.

وعندما نرجع إلى كتابات الأسقف المصري نفسها، نلاحظ تأثير تعاليم أوريجانوس عليه، ولكنه لا ينكر أزلية الابن فهو يقول: «لا يوجد زمن ما لم يكن فيه الله أبًا، ولا توجد لحظة ما حُرِم فيها الآب من اللوجوس، من الحكمة، من القوة. على أن الابن لا يستمد وجوده من نفسه، بل من الآب. وبما أن الآب أزلي فالابن أزلي أيضًا. إنه نورٌ من نور. وبما أن الله نور، فالمسيح لمعانه، وبما أن الله روح، لأن الكتاب يقول «الله روح» (يو ٤: ٢٤) فيليق أن ندعو الابن نفخته» (انظر EUSEBE, HIST., ECCL., 7, 26, 2) ويرجع ديونيسيوس إلى سفر الأمثال (٨: ٣٠) «كنت عنده صانعًا وكنت كل يوم لذته فرحة دائمًا قدامه» لكي يثبت أن كل الأشياء قد صُنعت ووُجدت باشتراك اللوجوس وهو موجود قبل كل هذه الأشياء.

بالرغم من أن أسقف الإسكندرية قد اتبع أستاذه أوريجانوس في عقيدة التابعية، إلا أنه شدَّد على أزلية الابن.

وبما أننا نتكلم هنا عن بعض معلِّمي الإسكندرية الذين لعبوا دورًا هامًّا جدًّا في تاريخ الفكر المسيحي وصياغته، فإننا لا ننسى المعلِّم ثيوغونستوس (THEOGNOSTE) الذي خلف الأسقف ديونيسيوس في إدارة مدرسة الإسكندرية من سنة ٢٦٥-٢٨٢ (انظر PHOTIUS, BIBL COD. 106).

ثم تولى إدارتها بعده المعلِّم بيآريوس (PIERIUS) (انظر EUSEBE 7. 32. 27). الذي كان يتصف بالتقوى والعلم، ولذلك فقد سُمي أوريجانوس الصغير. وجاء من بعد أوريجانوس الصغير للإشراف على هذه المدرسة «بطرس الإسكندري» (PIERRE DE L'ALEXANDRIE) ظل يعلِّم فيها إلى أن اختير أسقفًا لكنيسة الإسكندرية في حوالي سنة ٣٠٠. ولقد مات

(١) انظر المرجع السابق Lods., pp. 44, 45

هذا الأسقف شهيدًا في سنة ٣١١. ومع أن المؤرخ الكنسي أسابيوس يكرمه تكريمًا عظيمًا (انظر أسابيوس HIST., ECCL., 7. 32, 31). إلا أنه لا يذكر شيئًا عن كتاباته، ويرجع ذلك إلى أن الأسقف بطرس الإسكندري وتعاليم أوريجانوس كانا على طرفي النقيض. ولكن لحسن الحظ وصلتنا بعض تعاليمه عن طريق ليوس البيزنطي (LEONCE DE, BYZANCE) ثم عن طريق مجمع أفسس (سنة ٣٢١). فإن بطرس علَّم بوجود طبيعتين في المسيح، فلقد كتب قائلًا: «فكل هذه الأشياء وغيرها من آيات ومعجزات تدل على أنه كان الله الذي صار إنسانًا؛ فقد كان الله بالطبيعة وإنسانًا بالطبيعة أيضًا». (انظر VEONT., CONTRA NESTON ET EUTYCH., I). فلقد شدَّد الأسقف بطرس على حقيقة وجود الطبيعة البشرية كاملة في المسيح ووجود الطبيعة الإلهية كاملةً أيضًا فيه.

كما أنه رفض كليًّا أفكار أوريجانوس الخاصة بوجود الروح قبل الجسد؛ إذ أن أوريجانوس كان يؤمن بأن الأرواح خُلقت دفعةً واحدةً في البداية كما سبق أن شرحنا ذلك.

مراجع هامة

1. J. Quasten. 2e vol. pp. 124-132.

انظر هذا الكتاب الذي سبق ذكره عدة مرات لأنه يحتوي على قائمة مراجع في غاية الأهمية: ومراجع إنجليزية وفرنسية وألمانية.

2. C. L. Feltoe. The letters and other Remains of Dionysius of Alexandria (CPT), Cambrige, 1904.

3. C. L. Feltoe. St, Dionysius of Alexandria, Letters and Treatises, (SPCK). London, 1918.

4. J. Burel, Denys d'Alexandrie, se Vie, Son Temps ses Oeuvres, Paris, 1910.

5. P. S. Miller. Studies in Dionysius the Great of Alexandria Diss. Erlangen, 1933.

6. P. Morize, Denys D'Alexandrie, Paris 1881.

7. Marc. Lods, pp. 44-46.

8. L. B. Radford, Three Teachers of Alexandria: Theognoetus, Pierius and Peter: A study in the Early History of Origenism and Anti-Origenism, Cambridge 1908.

الفصل العاشر

الانتحالية (LE MODALISME)

سبق أن رأينا في العرض التاريخي العقائدي آراء بعض آباء الكنيسة ومعلِّميها، وكيف فهم هؤلاء على مر العصور وفي أماكن مختلفة شخصية الرب يسوع المسيح، أو بعبارة أصح ماذا كان جواب هؤلاء القادة والمعلِّمين عبر التاريخ وفي أماكن مختلفة، على سؤال السيد «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٣).

لقد رأينا أجوبة الكنيسة الأولى، ثم أجوبة كنيسة القرنين الأول والثاني، وأجوبة كنيسة القرن الثالث، وفي أثناء عرضنا لتعاليم بعض المعلِّمين وعقائد بعض الطوائف والجماعات التي ظهرت في هذه القرون الثلاثة الأولى ذكرنا الاصطلاح موداليزم (MODALISME) وشرحنا شرحًا سريعًا غير مفصَّل.

فما هي إذًا عقيدة الموداليزم ومتى وأين ظهرت؟

عندما نتتبع تاريخ الفكر المسيحي، وخاصةً التعاليم المختصة بشخص الرب يسوع المسيح، نلاحظ ظهور عدد كبير جدًّا من المذاهب والطوائف والمعلِّمين الذين حاولوا الإجابة بطريقة أو بأخرى على سؤال السيد: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» ففي الإجابة على هذا السؤال، رأى البعض في يسوع الإنسان نبيًّا، بل أعظم من نبي، فقد رأوا فيه «النبي». على أنه ظل نبيًّا وكان إنسانًا ومات إنسانًا. ورأى البعض الآخر في يسوع «النبي» الذي وصل بتقواه وطاعته الكاملة لله إلى درجة اللاهوت فأصبح ابنًا لله بالتبني. واعتقد بعض آخر أن المسيح قد جاء من السماء، وقد شُبِّه للناس بأنه بشر، وفي حقيقة الأمر لم يكن جسد المسيح إلا خيالًا. وظن البعض الآخر بأن الله واحد سامٍ عظيم ولا يمكن تقسيمه؛ لأنه وحدة واحدة ولقد نادت بهذا التعليم الجماعة التي تدعى جماعة «الوحدوية» أو الوحدانيين (MONARCHIANISME). وكان أعضاء هذه الجماعة من اليهود المسيحيين. وكان همها هو عدم تقسيم أو تجزئة الله فإن الله واحد.

واشترك في هذه العقيدة، وحدة الله وعدم تجزئته، بعض المعلِّمين وبعض القادة، فتمخضت هذه الجماعة وولدت طائفة تدعى الموداليزم (LE MODALISME) وكلمة الموداليزم تعني الطريقة أو الهيئة: الظهور بطريقة معيَّنة أو انتحال هيئة أو طريقة أو شكل للظهور أمام الناس. وقبل أن ندخل في شرح عقيدة هذه الطائفة وبأية طريقة أجابوا على سؤال السيد في قيصرية فيلبس، يحسن بنا أن نتعرَّف أولاً على بعض قادتها.

كانت التعاليم الخاصة بعقيدة وحدانية الله منتشرةً ومتعمِّقةً في الأوساط اليهودية المسيحية، وكان يتزعم هذه الحركات في القرن الثاني حوالي سنة ١٨٠ عددٌ لا بأس به من المعلِّمين ومنهم نوتوس السميرني (NOETUS DE SMYRNE) ثم انتشر

هذا المذهب في روما في أيام البابا زفيرينوس (ZEPHYRIN) (١٩٩-٢١٧) وتعمَّقت جذوره وتأصَّلت في المجتمع الروماني بفضل تعاليم ونشاط بعض أتباعه مثل أيمونوس وإكليمندس وبراكسياس (CLEOMENE, PRAXEAS, EPIGONE)، ولقد ذهب بعضهم إلى أفريقيا لنشر هذه التعاليم، وتقابلوا مع المعلِّم الأفريقي الشهير ترتليانوس (حوالي ١٥٥- ٢٢٥) على أن أشهر شخصية وأبرزها في جماعة الانتحاليين (MODALISTES) هو الكاهن سابليوس (SABELLIUS) الذي وُلد في نهاية القرن الثاني ومات في سنة ٢٦١؛ فقد كان معاصرًا للمعلِّم المصري أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤)، وكان ليبي الجنسية علَّم في روما واستقر بها.

تأثر سابليوس بأفكار وتعاليم جماعة الوحدانيين (MONARCHIANISME). والمختصة بوحدة الله، ولقد بدا له - كما بدا لهذه الجماعة - أن عقيدة الثالوث في الله الواحد عقيدة صعبة وغير معقولة. وكيف يمكن أن الله الواحد الذي لا يمكن أن يُقسَّم أو أن يُجزَّأ، أن يكون أبًا وابنًا والروح القدس في نفس الوقت؟ هذه الفكرة كانت مرفوضة رفضًا كليًّا من اليهود وصعبة الفهم على الوثنيين.

ولتسهيل هذه العقيدة لليهود أولاً وللوثنيين ثانيًا، وجد سابليوس شرحًا بسيطًا قد أغوى الكثيرين في عصره ومازال الآن طُعمًا جذابًا لبعض اللاهوتيين العصريين.[1] وتتلخَّص نظرية الكاهن سابليوس في الآتي:

قبل بداية كل بداية، كان الكائن الإلهي (LA MONADE DIVINE) وحدةً مُطلَقةً محصَّنةً لا تنوع ولا درجات ولا اختلافات ولا تميز فيه؛ إذ أنه وحدة واحدة ووحيدة. كان الراحة والصمت الأبديين، ومع أنه الصمت والراحة فهو مليء بالطاقات والقوات الخلاقة والمجيبة، وهو أيضًا قدير على الكلام وقطع الصمت. وبما أنه قدير على الحركة والعمل والتفكير والكلام والذكاء، فيمكن أن نسميه اللوجوس أو فيه اللوجس، لأنه مصدر الحياة ومصدر الكلام ومصدر العمل والحركة وهذه هي المرحلة الأولى للكائن الالهي.

أما المرحلة الثانية، فتبدأ بعد خلق العالم واتصال الإله بالعالم المخلوق. وهنا يعرض نظريته الجديدة عن الوحدة الإلهية التي لا يمكن أن تتجزأ أو تنقسم:

فهو يؤمن بأن الله أزلي، الذي خلق العالم وكل ما فيه، خرج عن صمته وعن راحته بخلقه لهذا العالم، وعندما خلقه، أصبح الله الآب الخالق وهو جوهر واحد وشخص واحد ووحدة واحدة. وهو أيضًا، أي الله الآب هو الذي أعطى الناموس لموسى وأوحى للأنبياء وقاد شعبه وقطع معهم العهود. فهو إذًا نفس الشخص منذ بدء الخليقة إلى وقت التجسُّد. وهنا في عملية التجسُّد تبدأ المرحلة الثانية بعد الخليقة، فإن الله نفسه أو بالعبارة الأصح الله الآب، نفس الجوهر ونفس الشخص، هو الذي تجسَّد في الإنسان يسوع الناصري.

فالذي تجسَّد في يسوع الناصري ليس الابن أو اللوجوس بالمعنى الذي فهمه الآباء، بل الآب نفسه هو الذي انتحل شخصية الابن وأصبح الابن. ففي لحظة التجسُّد أخذ الآب نفسه جسدًا، أي نفس الشخص الذي كان يعمل في أثناء الخليقة وبعدها، والذي أعطى الناموس وأوحى للأنبياء وقاد شعبه، هو هو الذي أخذ جسدًا وصار ابنًا. وعندما أخذ هذا الجسد

(١) انظر W. Pannenberg, Esquisse d'une Christologie, Les Editions du cerf, pp. 150- 152

وصار في هذه الهيئة، هيئة الإنسان أصبح ابنًا، أي الشخص الذي كان أبًا أصبح ابنًا. وهكذا ظل الله الآب والابن شخصًا واحدًا وجوهرًا واحدًا. هذا الشخص هو أيضًا الذي تألم وصلب ومات. وهنا أضيف إلى اسمهم اسم آخر غير الانتحالية أو الهيئة وهو (PATRIPASSIENS) أي الذين يؤمنون بآلام الآب. فإن الآب هو الذي كان يعمل في فترة العهد القديم، وهو نفسه الذي انتحل شخصية الابن أو أخذ هيئة الابن وقام بعملية الفداء فتألم وصُلب ومات وقام.

وتبدأ المرحلة الثالثة بعد الخليقة بحلول الروح القدس على التلاميذ وقيادته للكنيسة؛ فالروح الذي حل على التلاميذ يوم الخمسين والذي يرشد المؤمنين ويقدس حياتهم، هو أيضًا نفس الشخص الذي كان يعمل في العهد القديم كآب ويعطي العهود. والذي قام بعملية الفداء والمصالحة كابن، هو نفسه الذي يقدس المؤمنين ويقود الكنيسة ويرشدها كروح قدس. فالله الآب ظهر في هيئة الآب أو انتحل شكل الآب من بدء الخليقة إلى التجسُّد وفي التجسُّد أخذ الآب هيئة الابن فعمل كمصالح وفادٍ، وبحلول الروح القدس، أخذ الآب - الذي هو الابن - هيئة الروح القدس فعمل مقدِّسًا ومرشدًا.

فسابليوس يؤمن بوجود شخص واحد إلهي قام بثلاثة أدوار في ثلاث حقب من الزمن. ولكي يؤيد أفكاره، رجع إلى الكتاب المقدس كما رجع إليه معظم الهراطقة وكل المحافظين؛ فهو يرى في قول إشعياء: «أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي، نطقتك وأنت لم تعرفني» (إش ٤٥: ٥)، «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» (يو ١: ١)، «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠)، «صدقوني أني في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤: ١١).

لاقى سابليوس نجاحًا عظيمًا جدًّا لدرجة أن مذهب الانتحالية أو الهيئة يُدعَى أيضًا بالسابلينية نسبة إلى سابليوس. وما ساعد على نجاح هذه التعاليم وانتشارها ليس فقط في الأوساط المثقفة بل أيضًا في الأوساط البسيطة والعامة، هو بساطة هذه التعاليم وابتعادها عن التعقيدات والتحليلات الفلسفية، بل إن هذه التعاليم ظهرت لكثيرين، ليس فقط من البسطاء بل من قادة الكنيسة وأعمدتها، بأنها تعاليم سهلة وأرثوذكسية. فإن سابليوس لم ينكر في أية لحظة من اللحظات لاهوت الآب أو لاهوت الابن أو لاهوت الروح القدس. ثم إن هذا التعليم حافظ على وحدانية الله، الله الذي لا يمكن أن يتجزأ أو ينقسم. فلقد أراد سابليوس بملاشاة الأقانيم: أقنوم الآب والابن والروح القدس، أن يتجنب عملية التقسيم والتجزئة التي يتعرَّض لها المتمسِّكون بوجود ثلاثة أقانيم في الثالوث. وبدلًا من أن يعلِّم بوجود ثلاثة أقانيم في الثالوث علَّم بأن الله الواحد الوحيد الموحد الجوهر انتحل أو استعمل أو استخدم ثلاث طرق مختلفة لإعلان نفسه للبشر؛ فالتنوع لا يوجد إذًا في جوهر الله وذاته، بل في الطرق التي استعملها لكي يظهر نفسه للبشر عن طريقها. فبحسب مفهوم الكاهن الليبي، فإن الله مثلث الأقانيم بل مثلث الطرق.

كان سابليوس يهدف بهذا التعليم إلى المحافظة بشكل كامل على وحدة الله من ناحية، ولاهوت المسيح من ناحية أخرى، وهي المشكلة التي كانت تعاني وتقاسي منها كنيسة العصور الأولى؛ فإن اليهود المتنصرين لم يقبلوا بسهولة مساواة المسيح بالله. الأمر الذي بدا لهم عقيدة وثنية مصدرها تعدد الآلهة. ولكن سابليوس حاول بهذه التعاليم أن يبين لهم بأن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب وإله العهد القديم هو نفسه، وليس شخصًا آخر أو أقنومًا آخر كما تدَّعي الكنيسة المسيحية، هو الذي ظهر في يسوع، والروح القدس هو أيضًا نفس الشخص قد ظهر بطريقة أخرى وبهيئة أخرى لقيادة الكنيسة. نفس

الإله انتحل أو استعمل هذه الطرق الثلاث لكي يظهر للناس ويتكلم معهم. ولهذا فقد دعي أتباع هذا المذهب بالانتحاليين (LE MODALISTES).

ومع أن هذا المذهب يبدو جذابًا وبسيطًا للتعليم والفهم، وقد انغوى به كثيرون في القرون الأولى، وما زال منصوبًا كشرك أيضًا للكثيرين في العصر الحاضر، إلا أن كثيرين من آباء الكنيسة وقادتها أدركوا خطورة هذه التعاليم وأدانوها وحكموا برفضها؛ لأنهم رأوا فيها ملاشاة تامة لشخص الابن وعمله الفدائي، ثم ملاشاة كاملة أيضًا لوجود الثالوث. لأن سابليوس لا يؤمن بوجود الثالوث، أي وجود الأقانيم الثلاثة آب وابن وروح قدس في الله الواحد، بل يؤمن بأن الله الواحد قد ظهر بثلاث طرق مختلفة كآب وابن وروح قدس. وهناك أمر آخر وهو أن سابليوس علّم بأن الله قام بالأدوار الثلاثة في الحقب الثلاث من الزمن كآب وكابن وكروح قدس.

أما الكنيسة المسيحية فتعلّم بأن الله مثلث الأقانيم آب وابن وروح قدس موجودون كلهم قبل كل بداية ويعملون معًا. الله الآب مع اللوجوس خالقان والروح القدس الذي كان يقود الكنيسة في إسرائيل في العهد القديم يقودها أيضًا في العهد الجديد؛ فالله ثلاثة أقانيم وليس ثلاث طرق للتعبير. على عكس ما اعتقد سابليوس بأن الأقانيم ما هي إلا ثلاث طرق أو ثلاثة أسماء للتعبير عما قام به الله خلال هذه المراحل الثلاث.

إن تعاليم سابليوس لاقت نجاحًا عظيمًا كما سبق القول، بل إن تعاليمه انتشرت بين الأساقفة في روما، لدرجة أن المذهب الانتحالي أصبح تقريبًا مذهبًا رسميًا. ولكن البابا كاليسوس (CALLISTE 217-222) أصدر حرمانًا ضد سابليوس وأتباعه. ويظن البعض أن سابليوس ظل في روما بعد حرمانه واستمر في نشاطه وعمله في الكنيسة التي كان يقوم برعايتها، وأن بقاءه في روما سهّل عليه الاتصال بكنائس الشرق ونشر تعاليمه فيها[١]، على أن البعض الآخر يعتقد بأن سابليوس ذهب بعد حرمانه إلى مصر حيث وجد عددًا كبيرًا من أتباعه هناك[٢]. ويقال إن تعاليم هذا اللاهوتي الليبي انتشرت بسرعة عظيمة في مصر وخاصةً بعد موت أوريجانوس، لدرجة أن الوعظ عن المسيح وعن ابن الله أصبح نادرًا جدًّا. على أن الأسقف المصري ديونيسيوس قام بحملة شعواء ضد هذه التعاليم، وكذلك أيضًا اللاهوتي الروماني هيبوليتوس وعدد كبير في الشرق والغرب كتبوا ضدها. وبالرغم من ذلك فإن مذهب الانتحالية[٣] انتشر بسرعة عظيمة وفي مناطق كثيرة.

(١) انظر Adolph Harnack, History of Dogma, vol. 3

(٢) انظر Lods, pp. 40- 4.

(٣) لقد حاولنا أن نترجم كلمة (Modalisme) بكلمة الانتحالية أو الهيئة أو المظهر ولكننا نفضل كلمة «الانتحالية».

مراجع هامة

1- Hippolyte Contre Noetos.

2- Hippolyte Phillos, 9. 7. 11.

3- Tertullien Adv. Praxeas.

4- Ibide., Lods. pp. 40- 41.

5- François Bonifas. Histoire des Dogmes de L'Eglise. Chretienne, Tome 2. pp. 31- 36.

6- W. Fannenberg, Esquisse d'une Chritologie, les editions du Cerf.

7- A. Harnack, History of Dogma, vol. 3e, pp. 81- 100.

8- M. E. Haag, Histoire des Dogmes Chretienns. Libraire- Editeur, 10 Rue de La Monnaie 1862, pp. 140- 146.

الفصل الحادي عشر

بولس السميساطي (PAUL DE SAMOSATE)

كانت التعاليم الوحدانية (MONARCHIANISME) أو الانتحالية (MODALISME) منتشرةً في الغرب والشرق. ولقد وجدت تربةً خصبةً في الأوساط اليهودية المسيحية؛ إذ أن كثيرين من اليهود المتنصِّرين وجدوا في هذه التعاليم توافقًا وانسجامًا مع معتقداتهم فيما يختص بوحدة الله وعدم تقسيمه إلى أقانيم. فإن نوتوس (NOETUS) نادى بوحدانية الله في نهاية القرن الثاني، وفي بداية القرن الثالث ظهرت جماعة الانتحاليين (MODALISTES) وعلى رأسهم الكاهن الليبي سابليوس كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق.

ولقد لاقت هذه التعاليم نجاحًا عظيمًا وملحوظًا في الأوساط اليهودية المسيحية، لدرجة أنها انتشرت ليس بين بعض العلمانيين والكهنة فقط، بل سيطرت أيضًا على بعض الأساقفة في الغرب والشرق. وهنا نرى الأسقف بولس السميساطي واحدًا من ضحاياها.

كان بولس خطيبًا مفوهًا وسياسيًا ماهرًا ماكرًا أو إداريًا محنكًا. ولذلك فقد احتل مركزًا مرموقًا يُحسد عليه في مملكة الملكة «زينب أو زنوبة» (ZENOBIE). ويُظن أنها عُرفت بميلها لليهود. ويُحتَمَل أيضًا أنها كانت تعرف ولو جزئيًا بعض أفكار بولس السميساطي الذي كان يشغل مكانًا مرموقًا في الدولة. وبما أنها كانت تهدف إلى انفصالها عن روما، فقد رأت في بولس أداة سياسية فعالة، ولهذا السبب فقد ساعدت بنفوذها وسلطانها بولس للوصول إلى كرسي أسقفية أنطاكيا عام ٢٦٠. ويُظن أيضًا أن الأسقف الأنطاكي (بولس) نهج نفس المنهج الذي رسمته الملكة زينب وهو مناصبة الرومان العداء. وكان الأسقف الأنطاكي يتمتع بسلطةٍ دينيةٍ ومدنيةٍ في نفس الوقت، إذ أنه ظل حتى بعد وصوله إلى الأسقفية يمارس مهمة الإشراف على الأمور المالية والجباية في الدولة[١].

ما هي تعاليمه؟

يعرِّفنا أسابيوس، المؤرخ الكنسي، بأن انحراف بولس السميساطي ظهر حالًا بعد أن نُصِّب أسقفًا؛ إذ أنه علَّم تعاليمًا لا تتفق وتعاليم الكنيسة (HIST., ECCL., 7, 27, 2) والمصادر التاريخية التي تحتوي على تعاليم الأسقف الأنطاكي قليلة، ولكن لحسن الحظ فإن كلًّا من بولس البيزنطي والإمبراطور يوستيفيانوس وبطرس الشمّاس قد احتفظوا لنا ببعض الشذرات

---

(١) انظر J. Quasten, pp. 166- 167 (Vol. 2) وكتاب رستم، الجزء الأول، ص ١١٨- ١٣٠.

من الحوار الذي دار بينه وبين الكاهن مالكيون (MALCHION) إذ أن هذا الأخير هو الذي اكتشف وأعلن هرطقة الأسقف. فما هي هرطقته؟

كما سبقت الإشارة، كانت التعاليم الوحدانية والانتحالية منتشرةً في ذلك الوقت، وبما أن هذه التعاليم كانت تنمو وتترعرع في الأوساط اليهودية المسيحية، فإنها وجدت في شخص بولس السميساطي الذي كان متأثرًا بهذه التعاليم فلاحًا ماهرًا، وفي الملكة زينب، التي عُرفت بعطفها على اليهود، تربةً خصبةً. ومن الصعب تحديد عقيدته بطريقة واضحة صحيحة لأن معظم الوثائق التي نملكها عن تعاليمه هي الحجج التي قدمها الذين لم يتفقوا معه في أفكاره. فيُحتَمَل أن أسقف أنطاكية كان يعلِّم بأن الله واحد، أي أقنوم واحد، وفي هذا الأقنوم يمكننا أن نميز اللوجوس والحكمة، وهما عبارة عن صفتين وليسا أقنومين. ولقد خرج اللوجوس من الله. أو انبثق منه منذ الأزل. ويمكن تسمية هذا اللوجوس والحكمة، وهما عبارة عن صفتين وليسا أقنومين، أو قوة غير شخصية وليس أقنومًا مميزًا عن الله. ويعتقد بأن اللوجوس هو الذي كان يعمل في الأنبياء ويرشدهم وهو أيضًا الذي كان يعمل في ابن داود المولود من العذراء، يسوع الناصري، فيسوع إنسان مثلنا تمامًا، فمع أنه أعظم من موسى والأنبياء ولكنه إنسان كامل، ولقد حل اللوجوس في هذا الإنسان يسوع، ولذلك فمن الضروري التمييز بين اللوجوس وبين يسوع، فإن الأول أعظم من الثاني(1)؛ إذ أن يسوع بشري ومثلنا في طبيعته، ومريم لم تحمل في بطنها اللوجوس بل حملت يسوع البشري وهكذا ظل هذا الإنسان يسوع إنسانًا مثلنا لا فرق بينه وبين أي إنسان آخر إلى يوم عماده، الذي في أثنائه وعن طريقه أوحي له بطريقة خاصة بأنه المسيح الذي حل فيه اللوجوس، وارتبط بيسوع الناصري برباط المحبة القوية.

استطاع المسيح بفضل رباط المحبة القوية أن ينتصر ليس فقط على الخطية بل أيضًا على خطية أجداده، ولهذا السبب فقد أصبح فاديًا ومخلِّصًا لأنه تمَّم مشيئة الله بطريقة كاملة. وبفضل هذه المحبة القوية، فقد ارتبط بربط وثيقة ثابتة. ولأن يسوع قد سلك بأمانة وتدقيق أمام الله ولأن اللوجوس قد اتحد به، فقد رفعه الله كمكافأة له وأعطاه اسمًا فوق كل اسم.

ولقد حذف بولس كل الترانيم التي تصف المسيح كإله أزلي(2) موجود قبل وجود العالم وتأسيسه. ويعتقد كاستن (QUASTEN) بأنه من المحتمل أن بولس كان يعلِّم تعاليمًا انتحالية (MODALISTE) لا تقبل عقيدة الثالوث، أي وجود ثلاثة أقانيم في الله. والاقتباس الذي اقتبسه لينوس يُظهِر أن بولس اكتفى بأن يسمي الآب بالله الذي خلق كل الأشياء والابن الذي صار إنسانًا، وأن يسوع كان أفضل وأعظم من موسى والأنبياء، ولكنه لم يكن الكلمة (LEONCE DE SECTS, 3, 3).(3)

فمن هذه الاقتباسات واقتباسات أخرى، يتضح أن التهمة التي وُجهت إلى الأسقف الأنطاكي تهمة مزدوجة، التهمة الأولى هي إيمانه بعقيدة الانتحاليين، فهو لا يؤمن بوجود الأقانيم الثلاثة، بل وجود إله واحد ووحيد له ثلاث صفات وليس ثلاثة أقانيم. والتهمة الثانية التي اتُّهم بها هذا اللاهوتي السوري (أصلاً من سوريا) هي عقيدته بالبنوية (ADOPTIONISME). أي أن يسوع لم يصبح ابن الله إلا بعد العماد وبعد أن أعلن الآب أنه تبنَّى هذا الإنسان يسوع ليكون ابنًا له.

---

(1) انظر Quasten, pp. 166- 168.

(2) Adolphe Harnack, Precis de L'Histoire, pp. 112- 133.

(3) انظر نفس المؤلف Harnack, History of Dogma, vol. 3, pp. 34- 50.

والخطر في الاتجاهين، الانتحالي والتبنّي، عظيم هدّام؛ فإن خطر الانتحالية كما سبقت الإشارة كان يهدف إلى ملاشاة عقيدة الثالوث، لا وجود لثلاثة أقانيم بل هذه الأقانيم ما هي إلا طرق انتحلها الله ليظهر نفسه في العالم. أما خطر التبنّي فهو أيضًا هدّام للإيمان ولعقيدة «الكلمة صار جسدًا». فإن اللوجوس، أي الكلمة لم يصر جسدًا، بل إن الله قد تبنّى الإنسان يسوع الناصري في وقت العماد، ومن هذه اللحظة أصبح ابنًا ليس بالطبيعة ولكن بالتبنّي. فإن الله رفع هذا الإنسان يسوع إلى درجة اللاهوت عن طريق التبني غير الطبيعي، ويكمن وراء هذا التعليم اسم آخر، هو وجود ابنين لله، كما أشار إلى ذلك المؤرخ اللاهوتي هارنك (HARNACK HIST. OF DOGMA PP. 42-50). احتوت تعاليم بولس السيمساطي على الهرطقات الانتحالية والتبني والأرطومونية (ARTEMONISME).

فالعقيدة المسيحية كانت إذًا مهددة أو بالمعنى الأصح إن شخصية المسيح كانت باهتة وغير ظاهرة بالطريقة التي تليق به. ومما لا شك فيه أن هرطقة هذا الأسقف كانت واضحةً وضوح الشمس في النهار، ولكن من كان يجرؤ على اتهام ذلك الأسقف الذي قبض بيديه على سلطتين عظيمتين. فلقد أمسك بيد السلطة الروحية كأسقف لمدينة أنطاكية، ثم قبض باليد الأخرى على السلطة الزمنية، إذ أنه كان يُعتبَر المشرف على خزينة الملكة زينب ومستشارًا لها.

ولكن بالرغم من هذا السلطان المزدوج الذي وُشِّح به، فإن الرب يقيم لنفسه شهودًا أمناء في كل جيل وعصر يستطيعون أن يعلنوا الحق عاليًا متمسّكين به ومضحين من أجله، مهما كان الثمن غاليًا ومكلِّفًا. فإن هؤلاء الشهود أقامهم ويقيمهم وسيقيمهم الرب لكي يعلنوا عبر الأجيال لكل عاتٍ ومبتعد ومتغطرس، قائلين: «يا نبوخذ نصر لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر» (دا ٣: ١٦ -١٨).

فلقد أقام الرب شخصًا غيورًا تقيًّا لمقاومة هذا الأسقف الذي عُرِف ليس بالهرطقة في التعليم فقط، بل بسوء السلوك أيضًا؛ إذ أنه نهج في حياته منهج الملوك والحكام، فكان عالميًّا فخورًا طموحًا.

كانت مهمة الأخ مالكيون (MALCHION) الكاهن مهمة حساسة بل خطيرة؛ ففي مهاجمته لتعاليم الأسقف كان يهاجم في وقتٍ واحد رئيسه الروحي ورئيسه المدني أيضًا. وكان هذا الكاهن عالمًا ومنطقيًّا. فكاستن يقول إن الفضل يرجع إلى مالكيون في إدانة بولس والنصرة عليه (انظر QUASTEN VOL. 2. A 166).

وهذا لا يعني أن مالكيون كان وحيدًا في صراعه ضد هذا الأسقف وأنه لم يكن إلا هذا الرجل وحده أمينًا لله، كما ظن إيليا النبي فإن «الرب أبقى في إسرائيل سبعة آلاف، كل الركب التي لم تجث للبعل وكل فم لم يقبله» (١ مل ١٩: ١ -٢١).

ولقد تمثّلت هذه البقية الأمينة للتعاليم الصحيحة في الكاهن المعلِّم مالكيون ودومنون وانضم إليهما عددٌ لا بأس به من أساقفة وكهنة وعلمانيين مثقفين ثقافة يونانية رومانية.

يُظن أن لينوس أسقف طرسوس هو الذي دعا لعقد هذا المجمع للنظر في أمر الأسقف بولس[1] واجتمع المجمع (السنودس) عام ٢٦٤ في أنطاكية نفسها، ويحتمل أن الذي رأس هذا المجمع هو بولس نفسه، فلم يصل المجتمعون إلى نتيجة

(١) انظر د. أسد رستم، الجزء الأول، ص ٢٢٣. انظر أيضًا هارنك.Harnack, Hist. of Dogma Vol. 3, p. 38

عملية[1]، ولقد أعقب هذا المجمع مجمع آخر انتهى إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها المجمع الأول[2].

ويقول الدكتور أسد رستم إن الذين اجتمعوا في المجمع الأول رغبوا في الاستفادة من علم ديونيسيوس الإسكندري وحكمته ودرايته وشهرته فدعوه إلى الاجتماع معهم في أنطاكيا. وأراد ديونيسيوس أن يلبي هذه الدعوة ويعيد الوحدة إلى صفوف كنيسة المسيح ولكنه اعتذر عن الحضور نظرًا لتقدمه في السن، وحض الأساقفة على التقوى وخوف الله (د. أسد رستم ص ١٢٣، ١٢٤).

وبالرغم من النتيجة غير المشجعة التي وصل إليها المجمعان السابقان، وخاصة المجمع الثاني الذي جاء إليه ممثلون من أقطار العالم المسيحي كله، والذي دُعي بالمجمع الأعظم، فإن الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الهرطقة والضلال، لم تستطع صدمة هذين المجمعين أن تضعف من عزيمتهم، فقد تابعوا النضال لإعلان الحق الإلهي. ولذلك فقد بذلوا الجهد لعقد مجمع آخر، وفعلاً انعقد مجمع آخر في سنة ٢٦٨ في أنطاكيا أيضًا. وقد تضاربت الآراء في عدد الذين حضروا في المجمع، فقال البعض إنهم كانوا حوالي ٧٠ أو ٨٠ نائبًا (انظر ATHANASE, DES SYNOD. 43 HILAIRE DE SYNOD, p. 86). وقال البعض الآخر إنهم كانوا حوالي ١٨٠ نائبًا (انظر HARNACK HIST. OF DOGMA, VOL. p. 38).

ولم يجهل أعضاء هذا المجمع (السنودس) فكر بولس الثعلبي وخبرته الطويلة وحنكته في الأمور السياسية والدبلوماسية، ولذلك فقد طلبوا من الكاهن مالكيون العالم ومدرس المنطق الشهير المعروف بعمله وخبرته وتقواه القيام بالنقاش وطرح الأسئلة على الأسقف الأنطاكي. ولقد سجل الحوار أشخاص تمرّنوا على الكتابة السريعة. وبعد النقاش الطويل، استطاع هذا الكاهن بلباقته وعلمه إظهار هرطقة الأسقف وفساد تعاليمه وضلال عقيدته. فحكم المجمع بقطعه من الكنيسة وعينوا أسقفًا آخر بدلًا منه.[3] ولقد كتب كل الرعاة المجتمعين رسالة إلى كلٍّ من ديونيسيوس أسقف روما وماكسيموس أسقف الإسكندرية، وكذلك إلى كل كنائس المقاطعات والبلاد الأخرى شارحين هرطقة وفساد عقيدته وسوء سلوكه (راجع أسابيوس HIST., ECCL. 7, 29, 1- 30, 1).

ولكن للأسف الشديد فإن بولس السميساطي لم يخضع لقرار السنودس، ولم يقبل قرار الخلع، فظل في منصبه كأسقف لأن الملكة زينب أيدته، فظلت أوامره نافذة معمولاً بها، وكأنه لم يحدث شيء. ولم يغير قرار السنودس شخصية بولس ولا تعاليمه. وقد استمرت الأمور تسير على ما كانت تسير عليه لمدة أربع سنوات أخرى.

ولكن عندما تولى أوريليانوس الحكم وسقطت الملكة زينب وسلطانها، تغيرت الأمور وزال سلطان ونفوذ الأسقف الأنطاكي بزوال سيدته وحاميته.

وعندئذٍ بدأت الكنيسة تتنفس الصعداء بعد أن تحررت من أسقف هرطوقي طاغٍ، ولقد ظنت في ذلك الوقت بأنها تخلّصت تخلصًا نهائيًا من الهرطقات والتعاليم الضالة بحكمها على بولس السميساطي وقطعه من الكنيسة، ولم تعلم بأن

(١) نفس المؤلف هارنك ص ٣٩.

(٢) انظر أيضًا Quasten, vol. 2, p. 166.

(٣) يعتقد د. أسد رستم بأن دومنوس هو الذي انتُخب أسقفًا لمدينة أنطاكيا بدلًا من بولس (انظر كتاب د. رستم الجزء الأول ص ١٢٧).

بولس لم يكن إلا واحدًا من موكب طويل من الهراطقة والمعلِّمين الكذبة الذين سيوجهون سهامهم السامة لكي يقتلوها ويقضوا عليها. لم تعلم هذا لكنها علمت يقينًا بأن الذي وعدها قائلاً: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» أمين وعادل وسيحقق وعده لها بالرغم من ضعفها وعدم أمانتها.

مراجع هامة

1- Eusebe, Histoire Ecclesiastique. 7, 27, 2.

2- Saint Hilaire (De Synod 581, 86).

3- Leonce (De Sectis 3, 3).

4- H. J. Lawlor, The Sayings of Paul of Samosata, JTHST 19, (1917- 1918), pp. 20- 45, pp. 115- 120.

5- H. de Riedmatten, Les Actes du Proces de Paul de Samosate, (Paradosis 6), Fribourg 1952.

٦- المرجع السابق Quasten ص ١٦٦- ١٦٨ يحتوي على قائمة من الكتب التي تعالج هذا الموضوع.

٧- راجع الدكتور أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى - الجزء الأول، ص ١١٩-١٣٠.

8- Ibide., M. E. Haag, Histoire des Dogme Chrétiens.

9- A. Harnack, History of Dogma, vol, 3, pp. 34- 50.

10- Ibide., J. Liebaert, Histoire des Dogmes.

الفصل الثاني عشر

لوقيانوس LUOKEN

إن كنيسة أنطاكيا قد حاولت هي أيضًا الإجابة على هذا السؤال الذي طرحه السيد في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» وكنيسة أنطاكية كنيسة قديمة؛ إذ أن أعضاءها «... هم الذين تشتتوا من جراء الضيق الذي حصل بسبب استفانوس فاجتازوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية» (أع ١١: ١٩).

كما أنه في أنطاكيا دُعي التلاميذ لأول مرة في التاريخ بمسحيين: «ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكيا أولاً» (أع ١١: ٦). والتقليد الكنسي الأنطاكي يُرجِع تأسيس كنيسة أنطاكيا إلى القديس بطرس نفسه[1]. فكان على هذه الكنيسة أن تجاوب هي أيضًا على نفس السؤال المطروح: «من يقول الناس...» مثل أخواتها في الإسكندرية وقيصرية وقارطجنة وروما. وهذا ما حاول القيام به أساقفتها ومعلِّموها وقادتها وأعضاؤها. ومع أن هؤلاء الأساقفة والمعلِّمين والقادة- لم يهملوا الناحية التعليمية والعقائدية في كنائسهم: فإن مدرسة أنطاكيا اللاهوتية لم تظهر إلا في الجزء الثالث من القرن الثالث. والذي قام بتأسيس هذه المدرسة والتعليم فيها هو:

لوقيانوس:

يعتقد البعض بأن لوقيانوس من سميساط أي بلد بولس السميساطي؛ فعندما أصبح هذا الأخير أسقفًا استدعى لوقيانوس، الرجل العالم المثقف ورسمه كاهنًا وأوكل إليه مهمة التعليم في مدينة أنطاكيا (انظر د. أسد رستم نفس المجلد ص ١٤٤).

ونجهل الكثير عن حياة وتعاليم هذا الرجل، ولكن ما وصل إلينا يعطي لنا فكرة ولو جزئية عن حياته وتعاليمه.

وهارنك يقدمه لنا كشخصية بارزة لامعة، ومثقف ثقافة عظيمة[2]، وكان يجيد اللغة العبرية، ولذلك فقد قام بتصحيح ترجمة العهد القديم (انظر JMPARHL, PRAEF, JEROME., ADV. RUF 2, 27)

وجيروم يشير أيضًا إلى كتيب لوقيانوس، لكنه لا يذكر محتويات هذا الكتيب (JER., DE VIR, ILL 77).

كان لوقيانوس يتبع نظامًا يختلف عن النظام الذي كانت تتبعه مدرسة الإسكندرية في تعاليمها؛ فهذه الأخيرة كانت أمينة لطريقة أوريجانوس التفسيرية، أي التفسير المجازي. وبناءً على ذلك، فإن هذا التفسير كان يرى السيد في كل مكان في الكتاب المقدس. أما مدرسة أنطاكيا فقد اتجهت ناحية التحليل للفصول الكتابية مستعينةً بعلم اللغة والقواعد والتاريخ. فمدرسة

---

(١) راجع كتاب د. أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى. الجزء الأول ص ١٩-٢١.

(2) A. Harnack, History of Dogma, vol. 4, pp. 1- 6.

أنطاكيا اتبعت نظامًا يمكن أن نسميه الطريقة العلمية. أما مدرسة الإسكندرية فقد اتبعت نظامًا يمكن أن نسميه الطريقة الروحية. وربما لهذا السبب نجد أن التفاسير التي قامت بإنتاجها مدرسة أنطاكيا عمرت وقتًا أطول من التفاسير التي أنتجتها مدرسة الإسكندرية، إلا أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أنه في الوقت الذي ظهرت فيه مدرسة أنطاكيا كطفل رضيع يحبو على يديه ورجليه، كانت مدرسة الإسكندرية قد وصلت إلى أوج عظمتها، فانتشرت تعاليمها ليس في الإسكندرية فقط في بلاد كثيرة أخرى بفضل أوريجانوس والمدرسة التي أسسها في قيصرية.

ما هي تعاليم لوقيانوس الكرستولوجية؟

قبل أن نتكلم عن تعاليم لوقيانوس العقائدية، نرى أنه يجدر بنا أن نشير إلى حقيقة أن المعلِّم الأنطاكي كان يتمتع بشهرة عظيمة، لا لثقافته الواسعة وإجادته للغة العبرية فقط، بل لأنه كان يحيا حياة لا تشوبها شائبة، فقد كان مترفعًا عن الدنايا ونزيهًا ولقد مارس حياة التقشف، على العكس تمامًا من ولي نعمته الأسقف بولس السميساطي، وكان أيضًا غيورًا لله وانتشار ملكوته ودافع عن الإيمان بكل ما وُهب من مقدرة عملية، وختم حياته بالاستشهاد في يوم ٧ يناير ٣١٢ على يد الإمبراطور مكسيموس دايوس (MAXIMIN DAIA) بعد أن قاسى عذابات تفوق الوصف (انظر RUFINC HIST. ECCL. ٩. ٦).

وأسابيوس المؤرخ الكنسي يقدم لنا صورةً منيرةً رائعةً عن مقدرته العلمية وحياته التقشفية، ثم عن دفاعه واستشهاده (انظر أسابيوس HIST., ECCL., ٩, ٦, ٣) وكتاب أسد رستم الجزء الأول ص ١٧٩.

ولكن للأسف، فإن المعلِّم الأنطاكي شوَّه الصورة التي ذكرناها أعلاه بتعاليمه المنحرفة. فعلى ما يعتقد أن الأسقف بولس ترك بتعاليمه أثرًا عميقًا جدًّا على الشاب لوقيانوس السميساطي، وأن هذا الأخير لم يقبل فقط هذه التعاليم، بل نادى بها وعلمها في مدرسة أنطاكيا. وفساد عقيدته لم يكن خطرًا على هذا الشخص - لوقيانوس - وحده، بل كان سُمًّا مميتًا لمدرسة كاملة، أي مدرسة أنطاكيا، بل إن هذا الداء القاتل امتد فعله إلى أجيال عديدة وبلاد مختلفة متنوعة.

فإن الوثائق التاريخية تعرِّفنا بأن لوقيانوس كان خلفًا للأسقف بولس السميساطي في تعليمه لعقيدته، وأبًا ومصدرًا وينبوعًا لتعاليم آريوس. فإن هذا الأخير (آريوس) كان فخورًا بأنه تلميذ للوقيانوس، لدرجة أنه كان يصف نفسه بالقول آريوس اللوقيانوسي.[1]

والخطاب الذي أرسله أسقف الإسكندرية بعد عشر سنوات من وفاة لوقيانوس إلى كل أساقفة مصر وسوريا وآسيا وكبادوكية، يعرفنا بأن لوقيانوس كان خليفةً لبولس السميساطي وأبًا لآريوس. إذ أن آريوس اعتنق أفكار المعلِّم الأنطاكي ونادى بها، كما أن لوقيانوس اعتنق هرطقة الأسقف بولس وعلَّم بها (انظر THEODORE, HIST., ECCL., 1, 4 EPIPHARE, HEAR, 69, 9).

وبناءً على ذلك، يمكننا أن نقول إن الهرطقة الآريوسية التي هددت كيان الكنيسة، والتي أدت فيما بعد إلى انقسامات خطيرة ومؤلمة، والتي نعاني من نتائجها حتى الآن، لم تولد في مصر بل قد حُبل بها ووُلدت في أنطاكيا ثم ظهرت في الإسكندرية عندما نادى بها آريوس الليبي تلميذ لوقيانوس الأنطاكي.

(١) انظر Quasten, vol. 2.p. 171

ولقد علَّم لوقيانوس بنفس التعاليم التي علَّم بها أستاذه بولس من قبل، بعد أن أضاف إليها بعض الإضافات الطفيفة؛ فهو يؤمن بأن الله واحد وحيد لا مساو له. وهو الخالق لكل الأشياء، وكل ما هو خارج عنه فهو مخلوق؛ فهو الذي خلق الحكمة أو اللوجوس. وهذه الحكمة أو هذا اللوجوس أو الكلمة أخذ جسدًا بشريًا لا روحًا. وبما أن ابن الله تألم وجاع وعطش واضطرب، فإنه أخذ فعلاً جسدًا، بل كان يسوع إنسانًا حقيقيًا. والخطورة هنا ليست في تعليمه بحقيقة ناسوت المسيح بل إن الخطورة كامنة في المناداة بأن يسوع كان إنسانًا وابنًا بالتبنِّي فقط وليس ابن الله بالجوهر.

والمسيح هو الشخص الذي عرَّفنا بالله، والذي ارتفع إلى المجد بعد أن أظهر طاعةً كاملةً ومحبةً عارمةً لله. ويحتمل أنه علَّم أيضًا نفس العقيدة التي نادى بها أستاذه وأسقفه، المختصة بالتمييز بين يسوع وبين اللوجوس. والخطأ في هذه العقيدة هو التفريق بين ابن الله وابن الإنسان، بين اللاهوت والناسوت، وكأنه يوجد ابنان لله لا ابن واحد. وبهذا فقد مهَّد لوقيانوس الطريق لآريوس وللهرطقة الآريوسية التي ستظهر بعد استشهاد المعلِّم الأنطاكي بما لا يزيد عن عشر سنوات.

ونعرف من خطاب الأسقف ألكسندر الإسكندري الذي أشرنا إليه سابقًا، بأن لوقيانوس ظل محرومًا أثناء الفترة التي تولى فيها الجلوس على كرسي أنطاكية الثلاثة الأساقفة الذين خلفوا على التوالي الأسقف بولس السميساطي (انظر THEODORET HIST. ECCL. ١,٤).

انتصر الإمبراطور أوريليانوس على أعدائه وهزم الملكة زينب وكسر شوكتها، فزال بزوال سلطانها الأسقف بولس، لأن الإمبراطور نفَّذ قرارات مجمع (سنودس) سنة ٢٦٨. ولا نعلم شيئًا عن أخباره بعد ذلك. على أن البعض يعتقد بأن أتباع بولس كانوا يواصلون اجتماعاتهم في الخفاء.(١)

شعرت كنيسة أنطاكيا بعد تدخل الإمبراطور في النزاع وإبعاد الأسقف بولس عن رئاستها، بأن الكابوس الذي كان جاثمًا على صدرها قد انزاح وأن الهرطقة التي كانت تهدد الكنيسة كلها اختفت إلى الأبد. ظنت الكنيسة ذلك عندما نفَّذ الإمبراطور أوريليانوس في سنة ٢٧١ قرارات مجمع (سنودس) سنة ٢٦٨. ولكنها لم تعلم بأنه كان في داخل الكنيسة ثعالب صغيرة مختفية تعمل في الخفاء على إفساد الكروم: «خذوا لنا الثعالب، الثعالب الصغار المفسدة الكروم» (نش ٢: ١٥).

---

(١) انظر Loofs, F. Paulus, p.182.

مراجع هامة

1. Eusebe, Hist, Eccl., 9, 6, 3, Bufin, Hist. Eccl. 9, 6, Jerome De vir ill., 77, Theodoret. Hist., Eccl. 1, 4.

2. G. Bardy, Le Discours Apologetique de Saint Lucien d'Antioch (Rufin, H. E. 9. 9) RHE 22 (1925) 487-512.

3. G. Bardy. Recherches sur saint Lucien d'Antioche et Son École. Paris 1936.

(٤) راجع كتاب ٢ Quasten voi. ص ١٧٠ تجد قائمة بكتب هامة عن نفس الموضوع.

(٥) راجع أيضًا الجزء الأول من كتاب د. أسد رستم، ص ١٤٣-١٤٧. يذكر قائمة هامة أيضًا بكتب تخص الموضوع.

6. A. Harnack, History of Dogma, Translated from the Third German Edition by E. B. Speirs D. D. and James Miller B. D. Volume IV. pp. 1-6.

7.Ibide., A. Harnack, Precis de L'Histoire, pp. 176-179.

الفصل الثالث عشر

آريوس ARIUS

كان لوقيانوس المعلِّم الأنطاكي غيورًا على الدين يدافع عنه بكل قوته وعلمه، لا يخاف من وعيد ولا يُغوى بوعود. ولذلك فقد نادى بمعتقداته التي كان يؤمن بها ويعلِّمها، وللأسف الشديد أن معظم هذه التعاليم كانت تصطبغ بالصبغة الهرطوقية. وبالرغم من أن هذا المعلِّم كان هرطوقيًّا في تعاليمه ومعتقداته، فقد تمسَّك بها تمسُّكًا وثيقًا وقت الاضطهاد الذي شنَّه مكسيمنيوس ضد المسيحيين في سوريا. فأُلقِي القبض على هذا المعلِّم لأنه مسيحي وسُجن في نيقوميدية. وقاسى في سجنه أنواعًا من العذاب تقشعر لها الأبدان، ويعجز صاحب القلم السيال عن وصفها على حقيقتها؛ فقد ضُرِب وجُلِد ووُضِع على صاجات ساخنة وحُرِم من الأكل والشرب، وبالرغم من هذه العذابات الشنيعة كان جوابه لمعذبيه «أنه مسيحي».

كان المسيحيون في الإمبراطورية الرومانية موضوع اضطهادات عنيفة وقاسية في أوقات كثيرة وأماكن مختلفة، وقد اجتاحت بعض المناطق مثل سوريا ومصر. حتى بعد قرار العفو الذي أصدره الإمبراطور بقلاريوس في سرديكة في سنة ٣١١ والذي كان يحتوي على وقف الاضطهادات ضد المسيحيين انظر (EUSEBE HIST., ECCL., 8, 17)؛ فمنذ ظهور المسيحية، مرت الكنيسة بأوقات عاصفة وأوقات هادئة إلى أن جاء قسطنطين[1]، وأصدر ليكينيوس ما يُسمى بمعاهدة ميلان التي تضمنت حرية الأديان. وعندئذٍ أعلن الإمبراطور ليس فقط حرية العبادة بل إعادة أملاك الكنائس التي صادرتها السلطات السابقة، وعمل أيضًا على مساعدة الكنائس وترميمها وبنائها.

وهنا بدأت الكنيسة تتنفس الصعداء وتشعر بالحرية التي كانت تتوق إليها منذ زمن بعيد. فمع أن الكنيسة لم تصبح في هذا الوقت ديانة الدولة كما يظن البعض خطأ، ولكنها تتمتع بامتيازات عظيمة جدًّا ويكفي أنها صارت مساوية في الحقوق لباقي الديانات الأخرى الموجودة في الإمبراطورية. وقد أصبحت الكنيسة فيما بعد كنيسة الدولة، وهنا تتحد القوتان العظيمتان: القوة الروحية والقوة الزمنية، الله وقيصر!

في هذا الوقت الذي كانت تتمتع فيه المسيحية بالحرية، ظهر آريوس تلميذ المعلِّم الأنطاكي، وهو.

---

(١) يعتقد البعض بأن قسطنطين قَبِل المسيحية أو على الأقل منح الحرية للمسيحيين بعد أن رأى رؤيا طُلِب منه فيها أن يرسم علامة الصليب قبل إقدامه على معركة حربية كان لابد له أن يخوضها، وقد كسب فعلًا المعركة بعد أن فعل ما طُلب منه (انظر Eusebe, Vita Constantini 1, 28- 30 د. أسد رستم، الجزء الأول ص ص ١٨٠- ١٨١).

آريوس الليبي:

وُلد ونشأ في عائلة مسيحية أم وثنية؟ لا نعلم عن ذلك شيئًا، كل ما نعرفه هو أنه ليبي الجنسية درس اللاهوت في مدرسة أنطاكيا على يد المعلِّم لوقيانوس (انظر BONIFAS VOL. 2, p. 36). ثم جاء بعد ذلك إلى الإسكندرية ورُسم هناك شيخًا في كنيسة بنكاليس (انظر كتاب هارنك A. HARNACK HIST OF DOGMA VOL. 4, pp. 6-15) أو كاهنًا (انظر كتاب بونيفاس، المجلد الثاني، ص ٣٦). ولقد أجمع الكُتَّاب على أن آريوس كان عالمًا مثقفًا، وواعظًا مفوهًا وزاهدًا متقشفًا، وعالمًا في التفسير، فاستطاع هذا الشاب العالم المتقشف الزاهد أن يجذب حوله جماعةً من أهل الإسكندرية، على الأخص من الرهبان الذين وجدوا في أسلوبه الوعظي والتعليمي تجديدًا وابتكارًا يختلف عن العظات التي تعودوا على سماعها.

كان أريوس يهاجم في عظاته تعاليم سابليوس التي كانت تهاجمها كنيسة الإسكندرية، ولكنه بدأ يهاجم أيضًا عقيدة أزلية الابن وانبثاق جوهره من الآب؛ إذ أنه اعتقد أن هذه العقيدة تقود إلى السابلينية (انظر بونيفاس ٢: ٣٧).

١- ولذلك فقد علَّم بأن الله إله واحد غير مولود، أزلي، أما الابن فهو ليس أزليًّا؛ إذ أنه وُجد وقتٌ ما لم يكن الابن موجودًا فيه، صحيح أن وجود الابن سبق خلق العالم، ومع ذلك فهو ليس أزليًّا.

٢- إن هذا الابن غير الأزلي وغير المولود من جوهر الآب خرج من العدم مثل كل الخلائق الأخرى بحسب قصد الله ومشيئته.

٣- إن المسيح الذي يعبده المسيحيون ليس إلهًا ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة: كلي العلم، كلي المقدرة، عديم التغيير... إلخ.

٤- إن معرفة الابن محدودة وليست مطلقة، ولا يستطيع أن يعلن لنا بطريقة كاملة.

٥- إن الله خلق الكلمة، الابن لأجلنا، لأنه عندما أراد أن يخلقنا، خلق كائنًا يُدعَى الكلمة، أو الحكمة لكي نكون على صورته. فلو أراد الله ألا يخلقنا لأصبح وجود الابن مستحيلاً. فالابن مخلوق مثل كل الخلائق، متغير، غير أزلي، ليس كلي العلم، ولقد كان حرًّا أن يظل صالحًا كما خرج من بين يدي الله أو أن يرتد إلى الشر مثل الشيطان. على أن الله قد سبق وقرر بأن يسلك الابن في طريق الصلاح. ولهذا فقد منحه مجدًا إلهيًّا. وهذا المجد الإلهي ما هو إلا هبة من الله، وعن طريق هذا المجد الممنوح ارتفع الابن فوق كل الخلائق (انظر كتاب بونيفاس ٢: ٣٦ -٤٠).

كان ألكسندروس هو أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت، ولقد وصفه بونيفاس بالقول بأنه كان شيخًا ضعيفًا ومريضًا. ولو لم يكن بجانبه الشاب أيفانسيوس أثناسيوس المتقد غيرة وحماسة، لمرت الأمور دون أن يعيرها أحد اهتمامًا كبيرًا (بونيفاس ٢: ٤١). ونظن أن بونيفاس يبالغ في وصف أسقف الإسكندرية، ومما لا شك فيه أن أثناسيوس كان كتلةً من الإيمان والغيرة والتقوى، وقد قام بدور هام جدًا في هذا الصراع العقائدي. إلا أن أسقف الإسكندرية ألكسندروس لم يهمل هذا الأمر، بل عندما سمع بتعاليم آريوس استدعاه وناقش معه هذه المشكلة، وأخيرًا عندما رفض آريوس الخضوع، طلب ألكسندروس عقد مجمع (سنودس) في حوالي ٣٢٠ أو ٣٢١ وقد حضره حوالي مائة أسقف مصري وليبي للنظر في قضية آريوس (انظر كتاب HARNACK HIST., OF DOGMA, vol. pp. 7-10)

ولقد عرض الأسقف الإسكندري على المجمع (السنودس) بدعة الكاهن آريوس، فناقشوها معًا ولم يتبع آريوس في آرائه إلا أسقفان ليبيان، وهما ثيوفاس وسكوندس (هارنك تاريخ العقيدة.,HIST., OF DOG الجزء الرابع ص ٨-١٠). وبعض القسوس وبعض الشمامسة (أو ٦ قسوس و٦ شمامسة) (انظر كتاب د. أسد رستم الجزء الأول ص ١٩٤) وقرر المجمع قطع الكاهن آريوس من الخدمة.

وعندما صدر قرار الحرمان وجد آريوس أن الجماعة التي تلتف حوله وتقول بقوله وتؤمن بإيمانه في الإسكندرية قليلة جدًا. وتُعد على الأصابع. ولذلك فقد ثبَّت أنظاره على الخارج. ولقد سبق أن ذكرنا أن آريوس درس في أنطاكيا على يدي المعلِّم لوقيانوس، وبناءً على ذلك فهو كان يعرف البعض من الذين نادوا بتعاليم معلِّم أنطاكيا، خصوصًا أنه نادى هو نفسه بها، بل كان فخورًا بتتلمذه على يدي لوقيانوس. فيحتمل إذًا أنه كان يعرف أو كان على صلة ببعض زملائه في زمن التلمذة، والذين كانوا يشايعون لوقيانوس في عقائده أمثال أسابيوس أسقف نيقوميدية وأسابيوس أسقف قيصرية فلسطين، وغريغوريوس أسقف بيروت، وثيودوتوس أسقف اللاذقية وآخرين، فجاء آريوس إلى قيصرية فلسطين وشرح لمؤرخ الكنيسة العظيم أسابيوس أسقف هذه المدينة موقفه وعقيدته. وكان أسابيوس عالمًا مشهورًا في تاريخ الكنيسة والآباء ويتمتع بمكانة عظيمة في المنطقة كلها. إلا أنه كان يميل إلى تعاليم لوقيانوس دون المجاهرة بها. ونصح أسابيوس آريوس بأن يكتب إلى سميه أسقف نيقوميدية، فكتب إليه ثم ذهب لمقابلته. وبعد أن أطلع أسابيوس أسقف نيقوميدية على أفكار وتعاليم آريوس كتب هو بدوره إلى عدد كبير جدًا من الأساقفة، حاضًا إياهم على الوقوف بجانب آريوس وتأييده (انظر THEODORET, HIST., ECCL., 1.5).

دعا أسقف نيقوميدية إلى عقد مجمع فيها للنظر في قضية آريوس واجتمع المجمع وقرر قبول آريوس الكاهن واتباعه في الشركة. ولقد كتب المجمع إلى الأسقف ألكسندروس بأن يرفع الحرمان عن آريوس كما طلب أيضًا من آريوس بأن يكتب إلى أسقفه موضحًا عقيدته وإيمانه. وكتب فعلاً آريوس إلى أسقفه رسالة رقيقة ولبقة معترفًا فيها بأنه لم يعلِّم ولم يناد بغير ما نادى به أسقفه (انظر EPIPHANT. HAER, 69, 7).

ويعتقد بونيفاس بأن مجمعَين قد انعقدا في كلٍّ من بيت عنيا وفي فلسطين لبحث مشكلة آريوس وطالب كلاهما برجوع آريوس ولكن ألكسندروس رفض هذا القرار المجمعي، فانفصل آريوس مع أتباعه عن الكنيسة (انظر BONIFAS. 2 VOL. 41).

ويظن هارنك أن سنودس بيت عنيا هو المجمع الذي حُكم فيه لآريوس بعودته إلى درجته وخدمته. فلقد انعقد هذا المجمع بأمر وتحت رئاسة زميل آريوس في التلمذة وهو الأسقف أسابيوس النيقوميدي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت العلاقات بين الأسقف المصري والأسقف النيقوميدي غير طيبة، وهذان الأمران لعبا دورًا لا يهمل في موضوع آريوس، إلا أنهما لم يكونا جوهريين.[1] ومع أن المجمع اتصل بأسقف الإسكندرية لكي يوافق على قرار المجمع (السنودس) ولكي يقبل آريوس في الخدمة. إلا أن ألكسندروس رفض هذا القرار رفضًا باتًّا. وحالما وصلت إليه هذه الأخبار، رأى فيها تصدعًا في وحدة الكنيسة التي هي جسد المسيح والتي يجب أن تحتل المكان الأول في المجامع. ولذلك فقد أرسل عددًا كبيرًا جدًا من الرسائل إلى الأساقفة شارحًا لهم قضية آريوس وركز بشدة على وحدة الكنيسة.

---

(١) انظر هارنك.A. Harnack, Hist. of Dogma, vol. 4. pp. 8- 15

أما آريوس فقد انتهز هذا القرار السنودسي الذي أصدره مجمع نيقوميدية في صالحه، وعاد إلى الإسكندرية مع جماعة من أتباعه وبدأ نشاطه في الخدمة. ولقد ألف آريوس في أثناء الفترة التي أقامها في نيقوميدية كتابه المعروف «بالمثالية» (THALIA).

كان آريوس كاتبًا وشاعرًا، ألَّف بعض الترانيم العقائدية التي انتشرت بين جميع طبقات المجتمع المصري، وسرت العدوى ليس فقط في مصر بل في بلاد أخرى، وتزعمها جماعة من تجار الانشقاقات والانقسامات أمثال استيريويوس الذي جال في بلاد الشرق مناديًا ومبشِّرًا بالبدعة الآريوسية (انظر نفس المرجع لهرنك من ص ١٨-٢٣ من المجلد الرابع ثم كتاب د.أسد، الجزء الأول، ص ١٩٧).

وعلى ما يظهر فإن نجم آريوس بدأ يلمع من جديد ليس فقط في مصر وموانئ الإسكندرية حيث كان يتغنَّى البعض، على الأخص الملاّحون الذين كانوا يحملون ويفرغون السفن، بالترانيم العقائدية التي كتبها آريوس والتي كان يصف فيها علاقة الآب بالابن، بل إن شهرته امتدت إلى بلاد كثيرة في الشرق وأصبح أتباعه وأضداده كثيرين. وبهذا فقد اتسعت شُقة الخلاف واستفحلت إذ أن كلًّا من الجانبين حاول أن يجذب إليه العدد الأكبر وخصوصًا من الأساقفة ذوي النفوذ والتأثير على المستويين السياسي والديني، ولذلك فقد كتب كلٌّ من الطرفين رسائل عديدة وخطابات طويلة يشرح فيها عقيدته وموقفه مدعيًا بأنه على حق، وأنه لا يسلك إلا على الصراط المستقيم والإيمان القويم. بل إن كلاً من الطرفين رجع إلى الكتاب المقدس واقتبس آياته التي تؤيد وجهة نظره.

ولم تكن هذه المجادلات عبارة عن ثرثرة كلامية ومعارك خطابية وهجمات عظيمة كما ظن الإمبراطور قسطنطين ذلك، بل إن الأمر كان أخطر من ذلك بكثير، إذ تولَّدت الأحزاب وشاعت الاضطرابات. وهنا انقسمت الكنيسة ليس في مصر فقط بين أتباع ألكسندروس الأسقف وأتباع الكاهن آريوس، بل إن هذا الانقسام قد انتشر أيضًا في كنائس كثيرة في الشرق كله، بين الأساقفة وبين الشعب. لقد ظهرت هذه الاضطرابات والانقسامات في الكنيسة الشرقية في نفس الوقت الذي بدأ فيه الإمبراطور قسطنطين يشعر بالاطمئنان الجزئي والسلام على وحدة الإمبراطورية؛ إذ أنه بذل كل غالٍ ورخيص للوصول إلى عرش هذه الإمبراطورية الرومانية وتوحيدها، وقد وصل إلى هذا الهدف بعد موقعة خريسوبوليس التي فيها سُويت الأمور بينه وبين ليكتبوس وأصبح سيدًا للموقف في سنة ٣٢٣-٣٢٤. وهنا يظهر خطرٌ جديد لتمزيق هذه الإمبراطورية، ومع أنه ظن في بداية الأمر بأن هذه الانقسامات والاضطرابات ما هي إلا نزاعات ومعارك كلامية، لكنه أدرك حالاً أن هذه النزاعات والانقسامات تهدد سلامة الإمبراطورية تهديدًا جديًّا وخطيرًا.

ومن المؤسف والمؤلم والمحزن أن هذه الانقسامات والاضطرابات ظهرت في الكنيسة بصورة بشعة، فأصبحت كنضال بين حزبين سياسيين، بل كحرب بين جيشين، يقاتل أحدهما الآخر على مسمع ومرأى من الوثنيين، الذين كانت الكنيسة تريد أن تكتسبهم وتضمهم إلى ديانة يسوع المسيح، ديانة الحب والسلام، وأي حب وسلام؟!

لم يقبل الإمبراطور قسطنطين هذه الصورة البشعة التي ظهرت بها المسيحية. وفي حقيقة الأمر، لم يكن رفضه لهذه الصورة غير المشرِّفة للمسيح، نابعًا من غيرته للمسيح وللمسيحية فقط، بل كان يرى في هذه الانقسامات والمعارك اللاهوتية عملاً خطيرًا وهدَّامًا لوحدة الإمبراطورية الرومانية. ولهذا السبب فقد استشار الإمبراطور صديقه العزيز الأسقف هوسيوس

(HOSIUS)، واتفق الاثنان على أن يكتب الإمبراطور شخصيًا إلى كلٍّ من ألكسندروس أسقف الإسكندرية وإلى آريوس داعيًا إياهما إلى ترك المجادلات العقيمة التافهة والرجوع إلى الصلح والسلام والبنيان. وحمل هذه الرسالة الأسقف هوسيوس نفسه لكي يناقش الأشخاص المعنيين بالأمر في مشكلة الانقسام الخطيرة. وتُعتبَر هذه الرسالة من أهم الرسائل الدينية التي كتبها قسطنطين. (راجع HARNACK, HIST OF DOG, VOL. 4, 13-1).

ومع أن هذه الرسالة لم تأتِ بالنتائج التي كان ينتظرها الإمبراطور، إلا أن رحلة هوسيوس ومقابلته لبعض الأطراف الداخلة في النزاع مثل ألكسندروس وآريوس ثم أسقف نيقوميدية، قد سمحت له بأن يكوّن صورة متكاملة الجوانب للموقف. وهنا ظهر اقتراح عقد مجمع مسكوني في نيقية للبت في هذا الأمر.

ولقد تضاربت الآراء حول من هو الذي دعا لعقد هذا المجمع. فهارنك يعتقد بأن الذي أخذ مبادرة اجتماع مجمع مسكوني هو الأسقف هوسيوس نفسه. (HARNACK HIST., OF DOG., vol. 4, pp. 13-15)، إلا أن البعض الآخر يظن بأن الذي فكر في عقد مجمع مسكوني هو أسقف الإسكندرية ألكسندروس (انظر PHILOSTROGE. HIST ECCL. 1)، أما المؤرخ الكنسي أسابيوس فهو يعتقد بأن الذي دعا لاجتماع مجمع نيقية هو الإمبراطور قسطنطين نفسه. على أي حال لقد أمر الإمبراطور بعقد هذا المجمع بعد أن وُلدت فكرته.

مجمع نيقية: (LE CONCILE DE NICEE)

مثلما اختلفت الآراء على تحديد صاحب المبادرة لعقد مجمع نيقية، اختلفت أيضًا في تعيين رئيس هذا المجمع العظيم، الذي وإن لم يكن أول مجمع في تاريخ الكنيسة، إلا أنه أول مجمع مسكوني؛ فلقد ظن البعض بأن الذي رأس هذا المجمع هو فستاثيوس أسقف أنطاكيا. واعتقد البعض الآخر بأن الذي رأس هذا المجمع هو الأسقف هوسيوس صديق الإمبراطور ومستشاره، وخصوصًا أن اسمه كان أول الموقِّعين، ورأى البعض الآخر في أسابيوس المؤرخ الكنسي رئيسًا لهذا المجمع.[1] ويتساءل هارنك قائلاً: من هو الذي رأس هذا المجمع؟ أهو فستانيوس أم أسابيوس القيصري أم هوسيوس؟ لا نعلم بالضبط. إلا أنه من الواضح الجلي أن هوسيوس كان يحتل مركزًا هامًا جدًّا، وقام بدور حاسم في مجمع نيقية.[2]

والأمر الذي لا شك فيه أن هذا المجمع العظيم عُقد في مدينة نيقية ورأسه أحد الأساقفة وحضر الافتتاح الإمبراطور قسطنطين نفسه.

وكم كان المنظر غريبًا وعجيبًا ومدهشًا، بل مؤثرًا للغاية عندما اجتمع هؤلاء الأساقفة وكان يعرض بعضهم على بعض التشوهات الجسدية وآثار الجروح والضربات والجلدات التي تركتها فترة الاضطهادات العنيفة القاسية. والآن كل شيء قد تغير بل إن الإمبراطور نفسه حاضر معهم يأمر جيشه بحراستهم والعناية بهم!

وبدأ مجمع نيقية جلساته في ١٩ يونيو ٣٢٥، واختلف المؤرخون أيضًا على عدد الممثلين في هذا المجمع. فهرنك يعتقد بأن عدد الأساقفة كان يتراوح بين ٢٥٠-٣٠٠، ثم يتعرَّض لخطاب القديس أثناسيوس الذي يذكر فيه بأن عدد الأساقفة ٣١٨

(١) انظر د. أسد رستم، الجزء الأول، ص ٢٠١.

(2) Harnack. Hist., of Dog., vol. pp. 45- 51.

أسقفًا، إلا أنه يقول إن هذا الخطاب تحوم حوله الشكوك (انظر HARNACK, HIST., OF DOGMA, vol. 4. pp. 45-51)، واحتلت كنائس الشرق في هذا المجمع المكانة الأولى، بل إن الأغلبية الساحقة من أعضائه جاءت من الشرق ولم يأتِ من الغرب إلا أربعة أو خمسة أشخاص. لم يوجد أي ممثل لكنيسة بريطانيا. وناب عن كنيسة أسبانيا شخص واحد، كما ناب عن كنيسة بلاد الغال (فرنسا) شخص واحد، كما ناب عن كنيسة روما شخصان (نفس المرجع هرنك Ibide., pp. 45-51).

ويمكننا أن نلاحظ وجود ثلاثة أحزاب في هذا المجمع:

(١) الحزب المصري، وعلى رأسه الأسقف ألكسندروس وأثناسيوس وانضم إلى هذا الحزب ممثلو الغرب وهم أقلية.

(٢) حزب آريوس اللوقيانوسيون (أتباع لوقيانوس) وعلى رأسه الأسقف أسابيوس النيقوميدي. وهذا الحزب لا يضم هو الآخر إلا أقلية من أعضاء المجمع، ولكنها أقلية متحمسة.

(٣) وأما الحزب الثالث فيمكن أن نسمِّيه الحزب المحايد أو أتباع أوريجانوس، وعلى رأسه أسابيوس القيصري مؤرخ الكنيسة المعروف. وقد اشتهر بالعلم والاتزان والمعرفة (انظر BONIFAS I, vol. I, pp. 42-45)، ثم هرنك (HAR. HIST., OF DOG., 4. pp. 45-51). ويقول هرنك إن أغلبية الأساقفة الذين كانوا يمثلون الكنائس في هذا المجمع كانوا على درجة متوسطة من العلم (Ibide., p. 50).

هذه الصورة تعطينا فكرة، ولو جزئية عن هذا المجمع المسكوني الأول العظيم الذي نظر في قضية آريوس وتعاليمه. ولقد بدأ رئيس المجمع بتحية الإمبراطور وشكره على اهتمامه وعنايته بالكنيسة ثم دعا المجمع إلى فحص القضية التي من أجلها انعقد هذا المجمع.

فعُرضت تعاليم آريوس أمام الآباء المجتمعين التي نادى بها، ولقد قرأوا بعض الفصول من كتابه الذي يدعى «المثالية» لكي يقارنوا تعاليمه بتعاليم الكتاب المقدس وتعاليم الآباء.

ويعتقد البعض بأن الآباء المجتمعين في المجمع سدوا آذانهم اشمئزازًا، حال سماعهم هذه التعاليم الهرطوقية[١]، واكتفوا بهذه العيِّنات المقروءة للحكم عليه. على أن بعض المؤرخين يظن أن المجمع طلب استحضار آريوس واستجوابه. والأمر المؤكد المحق هو أن مجمع نيقية كان يضم ثلاثة أحزاب كما سبقت الإشارة. فبعد عرض القضية واتهام آريوس بالهرطقة، قام الحزب الموالي له وعلى رأسه أسقف نيقوميدية بالدفاع عن الكاهن الليبي وعن عقيدته. وبعد جدال عنيف ونقاش طويل، اقترح أسقف نيقوميدية وحزبه الذي كان يؤيد آريوس نصًّا لقانون الإيمان. ولكن المجمع رفض قانون الإيمان الذي اقترحه الأسقف أسابيوس النيقوميدي. وهنا تغيرت الأوضاع؛ فعندما رفض المجمع قبول قانون الإيمان الذي اقترحه الأسقف أسابيوس فإنه رفض في الوقت نفسه هرطقة آريوس؛ إذ أن هذا القانون كان يحتوي على كثير من تعاليم آريوس. وجدير بنا أن نلفت نظر القارئ إلى الدور الذي قام به الشمَّاس أثناسيوس في هذا المجمع. فمع أن البعض يظن أن أثناسيوس لم يشترك في المناقشات التي دارت في مجمع نيقية، وأن الأساقفة فقط هم الذين تفاوضوا في هذه القضية وهم وحدهم الذين اتخذوا القرارات،[٢]

(1) Saint Athanase, Epist., Ad. Epist., Aegypti 13

(2) Bardy G., Origines de L'Arianisme, Fliche et Martin.

فإننا نعتقد مع البعض الآخر من المؤرخين بأن الدور الذي قام به القديس أثناسيوس في هذا المجمع كان دورًا هامًّا جدًّا وحاسمًا.[1]

ولقد رأى الآريوسيون في شماس الإسكندرية مدافعًا عنيدًا عن الحق الكتابي وعن تعاليم الرسل والآباء، فوهنت عزائمهم وخارت قواهم وسيطر عليهم اليأس، ولهذا فقد انضم حزب آريوس الذي فقد الأمل في الحصول على النصر، إلى حزب الأغلبية، حزب أتباع أوريجانوس وهو الحزب الذي كان يتزعمه أسابيوس القيصري. وكان هذا الحزب يعتبر حزبًا محايدًا وكان يضم أغلبية أعضاء مجمع نيقية.

أراد الأسقف أسابيوس القيصري رئيس هذا الحزب أن تكون له الكلمة الأخيرة والحل المقبول المُرضي من جميع الأحزاب. وكان الأسقف القيصري يتمتع بشهرة عظيمة لمعرفته الواسعة بكتابات الآباء والتقاليد وتاريخ الكنيسة، ولذلك فقد انتهز فرصة رفض المجمع لقانون الإيمان الذي قدمه سميه، واقترح قانونًا آخر للإيمان. ولقد حاز هذا القانون قبول الكثيرين في المجمع. ولكن عند مناقشاته، ومعارضة الحزب المصري لبعض أجزائه ظهرت الأخطاء اللاهوتية التي كان يخفيها هذا القانون، وعلى ذلك فقد اقترح إدخال بعض التصويبات والتعديلات على قانون إيمان أسابيوس القيصري.

وهنا قدم حزب الإسكندرية وعلى رأسه الأسقف ألكسندروس والشمّاس أثناسيوس قانون إيمان لا يُعتبَر قانونًا جديدًا، بل هو عبارة عن توضيح وتنقيح للقانون الذي اقترحه أسابيوس. ولقد ظن البعض، أنه في حقيقة الأمر، أن أسابيوس قد استوحى جوهر نص قانونه هذا من قانون إيمان كان ألكسندروس ينوي تقديمه. وعندما تعرَّض المجلس لمناقشة قانون الإيمان الذي اقترحه أسابيوس أُدخلت عليه بعض التعديلات والعبارات التي تُعتبَر في غاية الأهمية. فإن البعض يعتقد بأن الإمبراطور قسطنطين، بإيحاء من صديقه الأسقف هوسيوس، اقترح إدخال الاصطلاح (HOMOOSIOS).[2]

وناقش المجلس قانون الإيمان المنقّح الذي قدمه وفد الإسكندرية والذي يشدِّد فيه على أن يسوع المسيح هو الابن الوحيد المولود من الآب، أي من جوهر الآب والمساوي له في كل الكمالات الإلهية. كما أن الآباء تمسَّكوا بعقيدة أن الابن مولود من الآب ولكنه غير مخلوق، وهنا استبعدوا بطريقة واضحة وصريحة تعاليم الآريوسية التي كانت تنادي بعدم مساواة الابن للآب، وأن الابن مخلوق كباقي الخلائق. اعترض أتباع آريوس على ادخال الاصطلاح، «مساو للآب في الجوهر» (LE FILSEST CONCUBSTANTIEL DU PÉRE) وقالوا إن هذه العبارة لا توجد في الكتاب المقدس وغريبة عليه، وبناءً على ذلك يجب رفضها. ولكن أثناسيوس وأتباعه ردوا على هذا الاعتراض بالقول إنه صحيح أن هذا الاصطلاح غير موجود حرفيًّا في الكتاب المقدس لكنه معنويًّا مأخوذ من الكتاب (انظر BONIFAS VOL. 2. pp. 43-45)، وأن الكتاب المقدس يتكلم عن أن الابن خارج من جوهر الآب، وبناءً على ذلك فإن كان هذا الاصطلاح غريبًا على الكتاب لفظيًّا ولكنه مُستوحَى منه معنويًّا.

وبعد نقاش طويل استقر الرأي على قبول قانون الإيمان المنقح، وهو كالآتي:

(١) انظر بونيفاس Bonifas الجزء الثاني ص ص ٤٣-٤٥.

(٢) هومو ديسيوس كلمة يونانية تعني بأن جوهر الابن من جوهر الآب، أي أنهما متساويان في الجوهر، انظر كتاب Harnack. Hist., of Dog., vol. 4. pp. 50-54.

«نؤمن بإله واحد آب ضابط الكل خالق كل الأشياء ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الآب، المولود الوحيد، أي من جوهر الآب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء في السماء وعلى الأرض، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسَّد وتأنس وتألم وقام أيضًا في اليوم الثالث وصعد إلى السماء. وسيأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات. وبالروح القدس. وأما الذين يقولون إنه كان زمان لم يوجد فيه وإنه لم يكن له وجود قبل أن وُلد وإنه خلق من العدم أو إنه من مادة أخرى أو جوهر آخر أو إن ابن الله مخلوق أو إنه قابل التغيير أو متغير فهم ملعونون من الكنيسة الجامعة الرسولية».(١)

وافق مجمع نيقية على قانون الإيمان هذا، ووقَّع عليه المجتمعون حتى الآريوسيون أنفسهم إلا أسقفان مصريان هما ثيونس وسكوندس، ثم حكم بهرطقة تعاليم آريوس.

وبما أن الإمبراطور كان يسعى من وراء هذا المجمع إلى وحدة الإمبراطورية، فقد أمر بحرق كتب آريوس ونفيه.(٢)

يُعتبَر هذا المجمع حدثًا تاريخيًا هامًا جدًا في تاريخ العقيدة المسيحية؛ لأنه في هذا المجمع تقرر مسكونيًا أن الابن مساوٍ للآب في الجوهر. كما أن هذا المجمع يُعتبَر أيضًا مجمعًا تاريخيًا هامًا بالنسبة لكنيسة الشرق بشكل عام، وبالنسبة لكنيسة مصر بنوع خاص؛ إذ فيه استطاع أسقف الإسكندرية ألكسندروس وشماسه التقي المتحمس مع كل الوفد المصري إعلان الحق الإلهي، والتمسُّك به والدفاع عنه. وهارنك يشير إلى هذه الحقيقة بالقول: «لقد كان مجمع نيقية الخطوة الأولى التي اتخذها أسقف الإسكندرية، والذي به أظهر أولوية الشرق على الغرب».(٣)

قرر مجمع نيقية أن قانون الإيمان الذي أصدره هو القانون المعبِّر عن الإيمان المسيحي الحقيقي. وبناءً على ذلك فمن يخالف تعاليم هذا القانون يخالف الإيمان المسيحي ويجب حَرْمه، ولذلك فقد حرم المجمع آريوس وأتباعه، ونُفي مع بعض مؤيديه أمثال أسابيوس النيقوميدي وثيوغونيوس النيقي.

وعندما حرم هذا المجمع المسكوني آريوس وأتباعه، تنفس الإمبراطور قسطنطين الصعداء وظن أن الخطر الذي كان يهدد الإمبراطورية من الناحية الدينية قد انزاح. كما أن الكنيسة وخصوصًا كنيسة مصر، شعرت بأن هذا العقاب الذي أُنزل بآريوس ومشايعيه عقابٌ إلهي؛ فقد انتصرت الكنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. ولكن للأسف الشديد فإن كثيرين من الأساقفة والآباء الذين اشتركوا في أعمال هذا المجمع عادوا إلى أبرشياتهم وكنائسهم وبدأوا من جديد ينادون بالتعاليم التي كانوا يعلِّمون بها من قبل هذا المجمع المسكوني. ولقد سبَّب هذا الأمر اضطرابات كثيرة ومعارك كرستولوجية جديدة، واجتماعات محلية ومسكونية. فإذًا لم يستطع مجمع نيقية أن يحل المشكلة حلًا نهائيًا، وظلت وستظل نبوة سمعان الشيخ نافذة المفعول: «... ها إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم» (لو ٢: ٣٤).

بعد هذا العرض التاريخي العاجل الذي من أجله اجتمع مجمع نيقية يحسن بنا الآن أن نلقي نظرة على تعاليم آريوس

---

(١) انظر علم اللاهوت، دار الثقافة المسيحية، ص ١٧٠ وقانون الإيمان المستعمل حاليًا في الكنائس الكاثوليكية والكنائس الإنجيلية مذكور في ص ١٧٣ من نفس الكتاب المذكور أعلاه.

(2) Harnack. Hist., of Dog., vol. 4. pp. 54-59.

(3) Harnack. Hist., of Dog., vol. 4. pp. 59.

الخاصة بشخص المسيح. وبما أن بحثنا مركّز على شخص المسيح يسوع على مر العصور، فإننا نطرح على آريوس نفس السؤال الذي سأله السيد لتلاميذه في قيصرية فيلبس: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٣).

لقد حاول آريوس الليبي أن يجيب هو أيضًا على سؤال السيد، فما هو جوابه؟

تعاليم آريوس الكرستولوجية (تعاليم آريوس الخاصة بشخص المسيح):

ماذا رأى آريوس في يسوع المسيح الناصري؟

كان المعلِّم الليبي خطيبًا مفوَّهًا وواعظًا مشهورًا، استطاع بأسلوبه السلس وعلمه الواسع أن يجتذب الكثيرين إلى كنيسة بنكاليس التي كان يرعاها في الإسكندرية. كما أنه استطاع بمهارة ولباقة أن يهاجم في بداية خدمته الرعوية تعاليم سابليوس التي قاومتها كنيسة الإسكندرية بشدة. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى، التفت حوله جماعة من الرهبان والراهبات ومن الشعب الذين أُعجبوا في بداية الأمر بوعظه وتعاليمه التي كان يهاجم فيها عقيدة سابليوس الهادمة للثالوث. ولكنه عندما بدأ الوعظ والتعليم عن الابن، انزلق كما انزلق قبله الكثيرون، إلا أن سقوطه كان عظيمًا. فكما سبقت الإشارة أنه أراد في بداية الأمر أن يهاجم عقيدة سابليوس التي لا تعترف بوجود أقانيم في الثالوث، فحاول أن يشرح الاختلاف والتمييز الموجود بين الآب والابن وأنهما ليسا شخصًا واحدًا كما علَّم بذلك سابليوس. بل إن الابن يختلف كليًّا وجزئيًّا عن الآب، فهو يؤمن بأن الله وحده الإله الواحد غير المولود والأزلي، موجود بذاته وبدون تدخل أي سلطان آخر. وأما عقيدته في الابن فيمكننا أن نلخصها في الآتي:

١- إن الابن ليس أزليًّا إذ أنه يوجد وقتٌ ما لم يكن الابن موجودًا فيه؛ فمع أن الابن موجودٌ قبل وجود الخليقة، وهذه الأخيرة قد أوجدت به، إلا أنه غير أزلي.

٢- إن الابن غير أزلي، وهو خليقة الله الآب مثل كل الخلائق الأخرى، إلا أنه سابق لها.

٣- الابن ليس من جوهر الآب، بل من جوهر آخر؛ فقد خرج من العدم بحسب مشيئة الله وقصده.

٤- الابن متغيِّر وليس ثابتًا.

٥- إن معرفة الابن للآب محدودة وليست مطلقة ولا يستطيع أن يعلن لنا الآب بطريقة كاملة.

٦- إن الله الآب قد خلق الابن لأجلنا لأنه عندما أراد أن يخلِّصنا فقد خلق كائنًا يدعى الكلمة أو الحكمة لكي نكون على صورته. فلو لم يرد الله خلق الخليقة لأصبح وجود الابن مستحيلاً.

٧- إن المسيح الذي يتعبَّد له المسيحيون ليس إلهًا ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة مثل: كلي القدرة، كلي العلم، كلي الحكمة وعديم التغير، أزلي... إلخ.

٨- وبناءً على ذلك فهو ليس إلهًا بذاته ومن ذاته، ولكنه ارتقى إلى هذه الدرجة عن طريق رفع الله الآب له.[1]

---

(١) انظر الكتب الآتية:

Harnack, Précis de L'Histoire, pp. 179-185.
Harnack, Hist., of Dog., vol. 4, pp. 23-50.
M. E. Haag, Hist., des Dog., Chné Pre Parties, pp. 148-151.
Bonifas, Hist., des Dog., vol. 2, pp. 37-40

وعلم اللاهوت النظامي، دار الثقافة المسيحية ص ٢٩٢-٢٩٣.

ويعتقد آريوس بأن الروح القدس هو أيضًا أدنى من الابن وهو مخلوق أيضًا (انظر HARNACK, PRECIS DE L'HIST., pp. 180-181)

ولقد حاول هرنك أن يلخِّص عقيدة آريوس في نقطتين هامتين:

(١) كان آريوس يرى في الله الآب إلهًا عظيمًا ساميًا نائيًا وبعيدًا عن البشر وعن كل المخلوقات. وكان هذا الإله السامي يريد الاقتراب من هذه الخليقة.

(٢) فخلق الكلمة، أي المسيح، الذي هو أول كل الخليقة والذي أصبح عن طريق النعمة الممنوحة له من الله، ثم عن طريق مثابرته وسعيه نحو الكمال إلهًا. فقد نال درجة اللاهوت بالتبنِّي (انظر هرنك HIST., OF DOGMA, vol. 4. pp. 40-50).

فمع أن آريوس كان يعتقد بأن الابن قد احتل أسمى مكان ووصل إلى أعلى درجة في الارتفاع، إذ أنه قد أُعطِي كل سلطان، وله تسجد كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب (في ٢: ١٠)، إلا أنه كان يعتقد أيضًا بأن هذا السمو الذي وصل إليه الابن وهذا المجد الذي كُلِّل به، وهذه العظمة التي عظم بها كل هذه ما هي إلا هبة وعطية من الله الآب للابن، لأنه هكذا مسرَّة الآب.

وصل آريوس إلى درجة القول بأنه يمكن أن نقول إن الابن هو الله أو إله أو حتى إله قوي... إلخ (HARNACK, HIST., OF DOG., vol., 4. pp. 18-20).

وقد يبدو للقارئ أنه يوجد تناقض ظاهر في كلام آريوس هنا وفيما ذكرناه سابقًا عندما قلنا بأنه يؤمن «بأن المسيح الذي يتعبَّد له المسيحيون ليس إلهًا ولا يملك الصفات الإلهية المطلقة مثل كلي القدرة، كلي العلم، كلي الحكمة وعديم التغير...إلخ».

ولكن في حقيقة الأمر لا يوجد أي تناقض في عقيدة آريوس. وهنا تكمن الهرطقة؛ فهو يعتقد بأنه يمكن القول بأن الابن هو إله، بل وإله قوي. ولكن هذا الإله القوي العظيم الذي ارتفع فوق كل رياسة وسلطان، قد وصل إلى هذه الدرجة ليس لأنه عظيم وسامٍ وإله منذ الأزل أو لأنه هو نفسه مصدر كل سمو وعظمة وسلطان، بل لأن الآب الذي خلقه وجعله بكر كل خليقة قد منحه هذه العظمة وهذا السلطان. فالمسيح الذي يتعبد له المسيحيون ليس إلهًا، بمعنى أنه لم يكن إلهًا منذ الأزل ولم يكن موجودًا منذ الأزل، بل إن الله قد خلق هذا الابن في زمن مُعيَّن ثم تبنَّاه ورفعه معطيًا له اسمًا فوق كل الأسماء، ودرجة تفوق كل الدرجات. فعن طريق هذا التبني وهذه الرفعة التي وصل إليها الابن بعد أن رفعه الآب يمكن أن ندعوه إلهًا.

على أن الابن لم يكن البتة، لا من الأصل ولا بالطبيعة، إلهًا؛ فجوهر الابن يختلف الاختلاف الكلي والجزئي عن جوهر الآب. ولذلك فقد رفض آريوس الاصطلاح الذي استُعمل في مجمع نيقية عن مساواة جوهر الآب بجوهر الابن وهو (HOMOOSIOS) «متساوٍ في الجوهر». فالله الآب شيء والابن الذي أصبح عن طريق التبني إلهًا شيء آخر.

ويقول هرنك إن تعاليم آريوس انتشرت بسرعة في العهد القسطنطيني بين الوثنيين المتعلِّمين وأنصاف المتعلِّمين الذين انضموا إلى الكنيسة في ذلك الوقت، لأنها كانت تتفق إلى حد كبير مع بعض الأفكار الوثنية التي تنادي بأن الله واحد سامٍ ولا يمكن مقارنته بأحد، والذي منه خرجت عدة آلهة (انظر هرنك HIST., OF DOGMA, vol. 4. pp. 40-50).

فآريوس إذًا يرفض مساواة جوهر الابن بجوهر الآب، والآب وحده هو الله الأزلي، الذي لا يمكن مساواته بأحد. ولكي

يدعم حجته، فقد رجع إلى الكتاب المقدس فاقتبس عدة نصوص، منها: «انظروا الآن. أنا أنا هو وليس إله معي» (تث ٣٢: ٣٩؛ ٦: ٤؛ أم ٨: ٢٢؛ مز ٤٠: ٨).

ومفهوم آريوس للتبنِّي يختلف أيضًا عن مفهوم الكنيسة؛ فهو يدعو يسوع ابن الله، ولكن هذا التبنِّي لا يعني أن الابن خرج من جوهر الآب، وبالتالي فهو مساوٍ له في القدرة وفي الجوهر، بل إن الله قد تبنَّى الابن كما يتبنَّى شخصٌ ما طفلاً؛ فهذا الأخير يصير ابنًا شرعيًّا ووارثًا له، ولكنه يختلف عن الآب في الجوهر، فالابن وصل إلى درجة التبني عن طريق الإعلان الإلهي: أي أن الله تبنَّى يسوع المسيح فأصبح ابنًا بالتبني وليس بالطبيعة. وهنا نلاحظ أن آريوس سلك نفس الطريق الذي سلكه البنويون (LES ADOPTIONISTES). ولكي يؤيد فكرته هذه رجع أيضًا إلى الكتاب فاقتبس لوقا ٢: ٥٢؛ ٣: ٢١-٢٢. ولكي يثبت أيضًا أن الله قد رفع يسوع إلى درجةٍ ساميةٍ، اقتبس النصوص الآتية: أعمال ٢: ٣٦؛ ١ كورونثوس ١٥: ٢٨؛ فيلبي ٢: ٦- ١١؛ عبرانيين ١: ٤؛ ٣: ٣. كما أنه رجع إلى الكتاب المقدس أيضًا عندما حاول إثبات أن الابن قد خُلق وكان بكر كل خليقة: «الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة» (كو ١: ١٥)، ولكي يوضِّح أن الآب أعظم من الابن رجع إلى يوحنا ١٤: ٢٨: «لأن أبي أعظم مني»، ولكي يبرهن على أن الابن كان يضطرب ويخاف، وخاضعًا للطبيعة البشرية اقتبس يوحنا ١٢: ٢٧؛ ١٣: ٢١؛ متى ٢٦: ٣٩.

من هنا يتضح أن آريوس كان لا يؤمن بأزلية الابن ولا بمساواته في جوهر الآب، ولهذا السبب، فإن قانون الإيمان النيقوي شدَّد على هذه النقطة معلنًا أزلية الابن ومساواته لجوهر الآب. فهو يقول: «نؤمن بإله واحد، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله المولود من الآب المولود الوحيد أي من جوهر الآب، مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر».

والخطأ الذي وقع فيه آريوس، والذي وقع فيه الكثيرون أيضًا، هو أنه اعتبر الآيات التي تتكلم عن ناسوت الابن، كما لو كانت تتكلم عن شخص الابن كليًّا وجزئيًّا. ولقد غاب عن ذهنه أن هذا الإنسان يسوع الناصري ابن مريم الذي وُلد وعاش وتألم وجاع وعطش ثم في نهاية المطاف صُلِب ومات ثم قام من بين الأموات، هو نفسه الذي يقول عنه يوحنا: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» (يو ١: ١) «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو ٨: ٥٨؛ ١٧: ٥؛ رؤ ١: ٨؛ ٢٢: ١٣)والآيات التي سُمِّي الابن فيها بأسماء إلهية كثيرة وعديدة (منها ما جاء في يوحنا ١: ١؛ ٢٠: ٢٨؛ أعمال ٢٠: ٢٨؛ رومية ٩: ٥؛ ٢تسالونيكي ١: ١٢؛ ١ تيموثاوس ٣: ١٦؛ عبرانيين ١: ٨؛ ١يوحنا ٥: ٢٠؛ إشعياء ٩: ٦؛ متى ١: ٢٣).

ادعى آريوس بأن الابن محدود العلم، ومما لا شك فيه أن ابن الإنسان - يسوع الناصري - الناسوت محدود العلم، ومحدود المعرفة والقوة، إذ أنه كان ينمو بطريقة طبيعية وعادية كما ينمو ويكبر كأي طفل آخر (لو ٢: ٥٢؛ مر ١٣: ٣٢). إلا أن هذا الإنسان - يسوع الناصري - لم يكن مجرد يسوع الناصري فقط، بل كان «الله الذي ظهر في الجسد»، هذا هو السر العظيم الذي يفوق كل إدراك. إذ أنه «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد» (١ تي ٣: ١٦). فكل ما رآه آريوس هو الجسد والجسد فقط. ولم يستطع أن يرى الله الذي كان ساكنًا في الجسد... وفي هذا الجسد كان الله، كان اللوجوس الذي يرى كل شيء ويعلم كل شيء؛ فهو يقول عن نفسه: «كل شيء قد دفع إليَّ من أبي وليس أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (مت ١١: ٢٧؛ لو ١٠: ٢٢؛ يو ٢: ٢٣ - ٢٥؛ يو ١: ٢٧؛ رؤ ٢: ١٣). كل هذه

الآيات تثبت أن المسيح كان يتمتع بمعرفة كاملة شاملة ليس فقط لما سيحدث، بل كان يعرف نفسه كما يعرف الآب معرفة جيدة. ولذلك فهو الوحيد الذي يستطيع أن يعلن هذا السر ويعرِّفنا بالآب. فهو ليس كما يدعي آريوس بقوله: «إن معرفة الابن للآب محدودة وليست مطلقة، ولا يستطيع أن يعلن لنا بطريقة كاملة». وكما أن المسيح كان يتمتع بمعرفة كاملة عن نفسه وعن الآب فهو كان يتمتع أيضًا بقدرة غير محدودة (عب ١: ٣؛ رؤ ١٠: ١٨؛ ١١: ١٧).

ويكفي أن نلقي نظرة ولو سريعة على حياته ومعجزاته، فهي خير دليل على قدرة ذاك الذي تعجب التلاميذ من قدرته: «فخافوا وتعجبوا قائلين فيما بينهم من هو هذا. فإنه يأمر الرياح أيضًا والماء فتعطيه» (لو ٨: ٢٥).

إن الشواهد الكتابية التي تشير إلى لاهوت وناسوت المسيح كثيرة وعديدة، يعوزنا الوقت لو حاولنا أن نقتبسها كلها. ولقد رجع إليها آباء الكنيسة في رفضهم للهرطقات التي ظهرت فيها. وكان ألكسندروس أسقف الإسكندرية واعيًا كل الوعي ومدركًا كل الإدراك لخطورة الهرطقة الآريوسية. وكما يقول عنه هرنك إنه كان يعتبر أن هذه الهرطقة من أبشع الهرطقات التي عرفها التاريخ المسيحي، إذ أنها هرطقة ضد المسيح... وأن آريوس وأتباعه أعداء الله... وقاتلوا لاهوت المسيح. (انظر هرنك HIST., OF DOG., vol. pp. 20-23).

إن آريوس لم يكن الأول ولن يكون الأخير الذي يهاجم عقيدة لاهوت الابن؛ فحتى بعد موته سيقوم آريوسيون كثيرون ينهجون منهجه ويسلكون في نفس الطريق الذي سلك فيه، وينادون بتعاليمه بل ينادون بتعاليم أخرى أكثر ضلالاً، ويهاجمون التعاليم الصحيحة، وهكذا لا نقول إن الكنيسة تنقسم من جديد، بل نقول إنها تستمر في انقسامها إلى أحزاب وجماعات، ينهش بعضها بعضًا.

ولكن الذي يطمئن قلب المؤمن هو أن رب الكنيسة وعد بأن يكون فيها ويقودها إلى الشاطئ الآمن. وهذه الهجمات ما هي إلا أمواج، وحتى وإن كانت أمواجًا عاتية قوية، وتستمر طويلاً في لطمها لهذه السفينة، فإنها تلطم صخرة راسخة قوية فلا تزحزحها من مكانها قيد أنملة، بل تتمزق عليها فلا يبقى لها قوة ولا أثر لأنه مكتوب: «الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية... ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه» (مت ٢١: ٤٢)، «أبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت ١٦: ١٨).

مراجع هامة

1. Francois Bonifas, Histoire des Dogmes de L'Eglise Ibide., Chrétienne, Tome 2. pp. 36-50.

2. A. Grillmeier. Le Christ dans La Tradition Chretinn, pp. 215-225. اقتباس مركز

3. Bardy, Origines de L'Arianisme, Fliche et Martin. 3: 69-83.

4. Bardy, Recherches sur Saint Lucien d'Antioche et son École, Paris 1936.

5. H. M. Gwatkin, Studies of Arianisme, Cambridge 1900.

6. Epiphane, Ancoratus 33, 4: ed. K. Holl. Ges 1, 42. pG 43, 77 AB.

7. Sozoméne. Hist., Eccl., 1, 15.

8. Philostorge, Hist. Eccl., 2, 2, 1, 7.

9. Eusébe vit. Con., 3., 7.

10. Theodoret. His Eccl. 1, 8.

11. Harnack, Hist of Dog, translated from the third German edition by E. B. Speirs D. D. and James Miller B. D. Volume 4 pp. 15-50.

12. A. Harnack, Precis de L'Histoire Traduit par E. Choisy, Paris Librairie Fischpaeher Societe anonyme, 33 rue de Seine 1893. pp. 176-194.

13. M. E. Haag. Hist., des Dogmes Chretiens 1re partie pp. 148-152.

(١٤) علم اللاهوت النظامي، دار الثقافة المسيحية: القاهرة ص ٢٨٣-٣٥٥.

(١٥) د. ق. أندراوس واطسون والدكتور القس إبراهيم سعيد، شرح أصول الإيمان، دار الثقافة المسيحية: القاهرة، ص ٤٦-٥٠، ص ١٤٧-٢١٠.

(١٦) الدكتور أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى: الجزء الأول، ص ١٩٣-٢٠٣.

الفصل الرابع عشر

القديس أثناسيوس ATHANASE

إن السؤال الأول الذي يخطر على بالنا بعد هذا العرض العقائدي التاريخي الموجز لمشكلة آريوس هو الآتي: ما هو موقف الأساقفة والآباء بعد مجمع نيقية؟ هل استطاع الأساقفة والآباء المناداة والتعليم بالقرارات التي اتخذها مجمع نيقية؟

لقد انفضَّ هذا المجمع بعد أن نظر أيضًا في بعض القضايا الأخرى التي كانت تشغل آباء الكنيسة. على أن القضية العظمى والمشكلة الكبرى كانت قضية آريوس وأتباعه، الذين علّموا بتعاليم لا تتفق وروح الكتاب، ولذلك فقد تقرر في هذا المجمع قبول قانون الإيمان الذي يعلِّم بأزلية الابن وبأن جوهره مساوٍ لجوهر الآب، ولا يوجد أي اختلاف في جوهر الاثنين (HOMOOSIOS).

وعندما قبل مجمع نيقية الاعتراف بأزلية الابن ومساواته في جوهر الآب، فقد اعترف، بل أعلن جهارًا انتصار الأرثوذكسية[١] التي كان يتزعمهما كلٌ من أسقف الإسكندرية ألكسندروس وشماسه العظيم أثناسيوس. ولقد أراد الإمبراطور أن يستأصل الداء من أصله فأمر بحرق كتب آريوس (انظر هرنك HIST., OF DOG., vol., 4. pp. 55-60) حتى يتجنَّب «المماحكات» العقائدية التي تؤدي إلى الانقسامات والاضطرابات السياسية في الإمبراطورية. ثم أمر بنفي آريوس وأتباعه واعتبارهم ألد أعداء المسيح. وهنا شعر الجانب الأرثوذكسي بانتصار عظيم لا يفوقه انتصار. وكيف لا يشعرون بانتصار عظيم ومجمع نيقية قد سحق الهرطقة التي كانت تهدد الكنيسة كلها؟ كما أن الإمبراطور شعر أيضًا بالاطمئنان على سلامة الإمبراطورية ووحدتها وأن خطر الانقسام قد زال وأن شبح المعارك الحزبية قد انزاح.

هذه هي انطباعات الإمبراطور وانطباعات الكثيرين من الأساقفة الأرثوذكسيين بعد قرارات مجمع نيقية.

ولكن للأسف الشديد كانت الحقيقة الواقعة تختلف الاختلاف كله عن القرارات السنودسية والمجمعية؛ فقد رجع الأساقفة بعد مجمع نيقية إلى أبرشياتهم والقسوس إلى كنائسهم، وبدأ كل منهم يُعلّم ما كان يُعلّم به قبلاً. بل إن البعض تطرَّف في الهرطقة التي فاقت هرطقة آريوس نفسه؛ فمع أن آريوس وبعض أتباعه تم نفيهم، إلا أن الآريوسية بنت عشَّها في حدائق كثيرين من الأساقفة والرعاة.

وهكذا بدأت غيوم الانشقاق تصعد من جديد في جو الكنيسة، فعكَّرت صفاءها وشوَّهت شهادتها، وحجبت عنها جزئيًا

(١) كلمة أرثوذكسي تعني «ذو الرأي المستقيم».

شمس البر والتمتع بنوره؛ فإن الأحزاب التي كانت في مجمع نيقية، ظهرت من جديد بعد هذا المجمع، واستأنفت نشاطها مستغلةً كل الوسائل للوصول إلى نشر تعاليمها وهدم تعاليم الأحزاب الأخرى.

ويرجع السبب في ذلك إلى تأثير أم الإمبراطور هيلانة وأخته قسطنطينة وحاشيتها الإكليريكية، فإن أم وأخت الإمبراطور كانتا آريوسيتين. ولذلك فقد عملت هيلانة على إقناع قسطنطين بأن آريوس وأتباعه أبرياء ولا يستحقون، بأية حال، هذا الحكم القاسي ومن الواجب النظر في قضيته مرة أخرى لإنصافه وإصلاح هذه الغلطة العظيمة. واستطاعت بإلحاحها ولجاجتها على الإمبراطور أن تؤثر عليه لكي يرجع أسابيوس أسقف مدينة نيقوميدية إلى أبرشيته، وفعلاً رجع أسابيوس إلى أبروشيته في سنة ٣٢٨ (انظر كتاب بونيفاس.HIST., OF DOG., vol., 4. 62: 66 هرنك TOME 2. 77-50 pp، ثم كتاب الدكتور أسد رستم الجزء الأول ص ٢٠٧).

وعندما رجع الأسقف النيقوميدي إلى أبروشيته، بدأ نشاطه ونفث سمومه ضد تعاليم مجمع نيقية، على أنه بدأ ينفث سمومه هذه بطريقة خفية وغير مباشرة. وكان أسابيوس يتمتع بسلطة عظيمة وتأثير قوي على الحاشية الإمبراطورية. ولذلك فقد استطاع عن طريق دبلوماسيته المحكمة، ومكره ومراوغته، ثم استغلاله لنفوذه وعلاقاته ببعض الشخصيات في البلاط، وخصوصًا أخت الإمبراطور التي أوصت أخاها قبل موتها بإصلاح الغلطة التي ارتكبت في مجمع نيقية في الحكم غير العادل الذي صدر ضد آريوس، لقد استغل أسابيوس النيقوميدي كل هذه الطرق لإثبات براءة آريوس وإعادته إلى منصبه. ولذلك فقد قدم أسابيوس مع بعض الأساقفة قانون إيمان يدل ظاهره على الأرثوذكسية التي لا غش فيها، والتمس من الإمبراطور العفو عن آريوس لأن هذا القانون الذي قُدِّم هو إيمان آريوس الذي يشرح فيه إيمانه وعقيدته في شخص الابن، وهو قانون سليم وأرثوذكسي ولا تشوبه شائبة، بحسب الظاهر. عندئذٍ أصدر الإمبراطور قسطنطين أمره بإرجاع آريوس إلى كنيسته، وطلب من أسقف الإسكندرية إعادته إلى منصبه.

كان الأسقف ألكسندروس العجوز، الذي وصفه البعض بالضعف، قد رحل إلى عالم الأبدية، وخلفه في الجلوس على كرسي الأسقفية في الإسكندرية الشاب التقي الورع المملوء غيرة وحماسة الشمَّاس أثناسيوس الذي نُصِّب أسقفًا لهذه المدينة العظيمة يوم ٨ يونيو سنة ٣٢٨.

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل حياة هذا القديس البطل العظيم الذي كرَّس حياته لخدمة الرب ومجده؛ لأن هذا الأمر يحتاج وحده لمجلد، وكم يكون مفيدًا ونافعًا أن يكرِّس شخص من الدارسين وقتًا ليكتب بحثًا عن حياة وجهاد القديس أثناسيوس. فقط نشير إلى أن أثناسيوس وُلد حوالي ٢٩٦ ثم رُسِم شماسًا في سنة ٣١٩ وارتقى الأسقفية في سنة ٣٢٨. ولم يصل أثناسيوس إلى هذه الدرجة بسهولة وبلا مقاومة، فمع أنه كان محبوبًا من الشعب ومُذكًّى منه كل التذكية، إلا أنه قد وجدت حفنة من الكهنة وعلى رأسهم ملاتيوس في عهد ألكسندروس، ثم يوحنا أرتف في عهده لم يوافقوا على تنصيبه أسقفًا وقاوموه كل المقاومة. وتداخلت عناصر أجنبية في المقاومة ضد الأسقف الجديد. فإن أسابيوس أسقف نيقوميدية كان يعتبر أثناسيوس خصمًا قويًا عنيدًا يجب التخلُص منه بأية وسيلة ممكنة حتى يستطيع نشر الآريوسية في الشرق. وكان متأكدًا من أن ارتقاء أثناسيوس الشاب الغيور التقي لعرش أسقفية الإسكندرية يعني القضاء العاجل المؤكد على الآريوسية. ولهذا فقد عمل على

إثارة الفتن وتكوين الأحزاب وإشعال نار العداء بين أثناسيوس وبعض الكهنة المصريين. ويُظن أن أسابيوس لم يكن بريئًا من حياكة التهمة التي اتهم بها يوحنا أرتف أثناسيوس لدى الإمبراطور قسطنطين. فإن يوحنا أرتف قد اتهم القديس أثناسيوس بأنه فرض الضرائب على المؤمنين وأنه قد أمر بكسر كأس الإفخارستية الذي كان يستعمله الكاهن أسخيراس.

ولم يترك الإمبراطور هذا الأمر بلا تحقيق، فاستدعى أسقف الإسكندرية وأظهر هذا الأخير براءته، وأكاذيب الكاذبين المحتلين، فرجع إلى أبروشيته في سنة ٣٣٢ كريمًا شريفًا مرفوع الرأس.

وعندما فشلت هذه المؤامرة الرخيصة ومؤامرات أخرى، لم يفشل أعداء الأسقف الأمين المجاهد في إيجاد حيلة أخرى، وكانت الفرصة الذهبية لنصب هذا الشرك لاصطياد النسر القوي، هو أمر الإمبراطور بإرجاع آريوس إلى مركزه في الإسكندرية. فإن أعداء أثناسيوس كانوا يعلمون يقينًا أنه لا يمكنه أن يقبل هذا القرار الإمبراطوري ولن يخضع له. وفعلاً فإن رجل الله العظيم لم يخشَ الإمبراطور وسلطانه، بل خضع لما أملاه عليه سيده في روح الصلاة والتعبُّد (أع ٤: ١٩ - ٢٢). ولذلك فقد رفض أمر الإمبراطور ولم يقبل أن يرجع آريوس إلى الخدمة المقدسة، وهو يعلم بأنه ثعلب مُفسِد للكروم وأن مؤيديه ذئاب خاطفة لا تشفق على الخراف.

ولقد انتهز أعداء أثناسيوس هذه الفرصة وعقدوا مجمعًا للنظر في أمر عودة آريوس للخدمة.

مجمع صور:

اجتمع هذا المجمع في صور عام ٣٣٥ تحت رئاسة الأسقف أسابيوس القيصري مؤرخ الكنيسة (انظر هرنك HIST., OF DOG., vol., 4. pp. 62-66) ولقد جاء أثناسيوس من الإسكندرية مع خمسين أسقفًا لحضور هذا المجمع (السنودس)، ولكن الوفد مُنع من الدخول إلى المجمع بحجة أن الوفد المصري غير مدعو للاشتراك في أعمال المجمع (انظر كتاب JEAN MARIE LEROUX. ATHANASE D'ALEXANDRIE, p. 21). إلا أنه يحتمل أن أثناسيوس حضر جزءًا من هذا المجمع.

وكنا ننتظر أن يكون موضوع البحث في هذا المجمع (السنودس) الذي عُقد في ذلك الوقت بالذات هو مشكلة العقيدة والتحقُّق من قانون إيمان آريوس والتأكد من صحته وسلامته. وهل قَبِل آريوس فعلاً قانون الإيمان النيقوي الذي رفض الاعتراف به في سنة ٣٢٥، أم مازال مصرًا على اعتقاده الشخصي في ابن الله؟ فإن المجمع (السنودس) لم يتعرَّض البتة لبحث أية مشكلة لاهوتية في اجتماعه هذا، بل إن البحث فيه كان مركَّزًا على النظر في الاتهامات المقدمة ضد أسقف الإسكندرية، وكانت هذه الاتهامات كثيرة وعديدة. ولكنها كانت كلها أيضًا أكاذيب وافتراءات مصطنعة ضد أسقف الإسكندرية. فمن ضمن هذه الاتهامات التي حاولوا إلصاقها به هي: أنه أمر بقتل أحد الأساقفة المصريين المعارضين لسياسته وهو الأسقف أرسينوس (ARSENIOS)، ولقد أحضر أحد الشهود ذراعًا وادعى أنها ذراع الفقيد أرسينوس. وعندئذٍ تقدم أثناسيوس وسأل قائلاً من منكم يستطيع أن يقسم بأنه يعرف أرسينوس جيدًا وأن هذه الذراع ذراعه؟ فتقدم بعض الأساقفة وأقسموا بأنهم يعرفونه جيدًا، وأن هذه ذراعه. فطلب أثناسيوس السماح لشاهد بالدخول، وعندما دخل هذا الشاهد كانت الدهشة عظيمة وخيبة الأمل كبيرة؛ لأن هذا الشاهد لم يكن إلا أرسينوس نفسه بذراعين سليمتين.

وبالرغم من فشل هذه الحجة فشلاً ذريعًا مخجلاً، فقد أصر بعض أعضاء هذا المجمع على الوصول إلى الهدف الذي

اجتمعوا من أجله، وهي إدانة أثناسيوس وخلعه من الكرسي. فاتهموه باتهامات أخرى رخيصة لا أساس لها، مثل أنه أمر بكسر كأس الإفخارستية الذي يستعمله الكاهن أسخيراس أحد معارضي أثناسيوس، كما اتُهم أيضًا بأنه على علاقة غير شريفة بامرأة سيئة الأخلاق.[١] ولكنهم لم يستطيعوا تقديم الدليل على أية حجة من هذه الحجج.[٢]

وعندما أدرك القديس أثناسيوس أن هدف المجمع ليس البحث عن الحقيقة بل أن يصدر حكم تعسفي ضده، فقد انطلق إلى الإمبراطور سرًا لكي يرفع دعواه إليه. وانتهز المجمع هذه الفرصة فحكم على أثناسيوس غيابيًا، ثم حكم بإرجاع آريوس إلى مركزه.

وطلب أثناسيوس مقابلة الإمبراطور إلا أن هذا الأخير رفض المقابلة. وفي إصراره وعناده المقدس انتهز فرصة خروج الإمبراطور للنزهة وعرض عليه قضيته، وتظاهر الإمبراطور بإجراء العدل فطلب أن يحضر إليه وفد من صور، فجاء لتمثيل هذا المجمع أسابيوس النيقوميدي وأسابيوس القيصري وأربعة آخرون (انظر كتاب د. أسد رستم، الجزء الأول، ص ص ٢١٣-٢١٤). وكانت التهمة الوحيدة التي اتُهم بها القديس أثناسيوس هي أنه هدَّد بعدم تصدير قمح الإسكندرية إلى القسطنطينية، الأمر الذي أغاظ وأغضب الإمبراطور كثيرًا، إلا أن الإمبراطور لم يكن في حاجة للإغاظة والغضب ضد هذا الرجل الذي يحاول فصل السلطة الدينية عن السلطة الروحية، ولذلك فقد صدق قسطنطين الإمبراطور على الحكم الذي أصدره مجمع صور والذي اشتمل على خلع أثناسيوس من كرسيه ونفيه وإعادة آريوس إلى مكانته وقبوله في الكنيسة.

ونُفي القديس العظيم إلى تريفز TREVES وهي مدينة ألمانية حاليًا. ولقد ثار الشعب المصري ضد هذا القرار. ولكن هذه الثورة العارمة لم تغير شيئًا من قرار الإمبراطور. فقادوا القديس أثناسيوس إلى المنفى في سنة ٣٣٥. ولم يكن هذا النفي إلا حلقة في سلسلة طويلة وثقيلة كان على رجل الله أن يحملها على كتفه بصبر وشكر وثبات وعزم؛ لأنه كان موقنًا في داخله بأن الجريمة التي ارتكبها والتي من أجلها يُحاكم ويُنفى، هي دفاعه عن لاهوت الابن وعن أزليته. ولهذا لم تستطع القوات الأرضية أن تزحزح هذا الرجل الصامد كالصخر ولو قيد أنملة، لأنه كان يضع نصب عينيه هذا القول: «طوباكم إذا أبغضكم الناس وإذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الإنسان» (لو ٦: ٢٢).

انتصار آريوس وموته:

إن القرارات التي أصدرها مجمع صور بشلح الأسقف أثناسيوس ونفيه، ثم إعطاء يمين الشركة لآريوس وإرجاعه إلى منصبه كخادم، كانت تعد نصرًا عظيمًا لآريوس وأتباعه.

وبما أن الكنيسة في مصر قد رفضت كليًا وجزئيًا قرارات هذا المجمع (إلا حزب المعارضة) فقد رفضت بالطبع رجوع آريوس إلى الإسكندرية، ولذلك فقد نُصِّب رسميًا في كنيسة في أورشليم (انظر كتاب بونيفاس BONIFAS JOME 2. 49).

وبعد تنصيبه في أورشليم، ذهب إلى القسطنطينية ودخلها مع جماعة من أتباعه في موكب انتصاري ضخم، ولكن هذا الانتصار لم يكن إلا كيقطينة يونان؛ ففي نفس اليوم بينما كان يسير في شوارع مدينة القسطنطينية مع بعض أتباعه، شعر بألم شديد في

(١) انظر Bonifas.Tome 2, pp. 48-51.

(٢) ثم كتاب J. M. Leroux, Athanase d'Alexandrie, p. 22.

بطنه، فترك أصدقاءه ودخل إلى مكان هادئ لقضاء حاجته، فاندلقت أحشاؤه ومات في الحال في سنة ٣٣٦. ولقد تضاربت الآراء في سبب موته؛ فإن أتباعه اتهموا الأرثوذكس «بتسميمه» الذين رأوا في هذا الموت المفاجئ السريع قضاءً إلهيًّا عادلاً على آريوس الهرطوقي. ولكن المحايدين لم يروا في موته إلا عملية تسمُّم وليست قضاءً إلهيًّا، بل إن موته يرجع إلى عملية طبيعية وهي إصابته بمرض الدوسنتاريا. المرض الذي لم يستطع آريوس العجوز الذي تجاوز الثمانين من عمره مقاومته والتغلُّب عليه.[1]

موت الإمبراطور قسطنطين:

مات الإمبراطور قسطنطين في ٢٢ مايو سنة ٣٣٧، ولم يطلب أن يُعمَّد إلا في اللحظات الأخيرة من حياته، ولقد عَمَّده الأسقف أسابيوس النيقوميدي (انظر BONIFAS JOMES 2, p. 50).

ولقد ترك الإمبراطور ثلاثة أبناء ورثة للإمبراطورية فحكموها معًا فتولى ابنه الإمبراطور قسطنطين الثاني الغرب. أما الابن الثاني وهو قسطنديوس فحكَم الشرق، أما قسطنس فقد تولى حكم البرية وجزءًا من أفريقيا. ولقد كان قسطنديوس الذي حكم الشرق آريوسيًّا، وأما قسطنطين الثاني وقسطنس فكانا أرثوذكسيَين.

وبعد أن تولى هؤلاء الأباطرة الثلاثة زمام الحكم في الإمبراطورية أصدروا قرارًا بإعادة الأساقفة المنفيين. ويعتقد ليرو (LEROUX) بأن الإمبراطور قسطنطين الثاني هو صاحب المبادرة في إطلاق سراح الأساقفة المنفيين، وكان يهدف من ذلك إلى إثارة الشغب والاضطرابات في الأجزاء التي كان يحكمها أخوه قسطنديوس في الشرق (انظر كتاب LEROUX ATHANASE D'ALEXANDRIE 25).

وليكن ما يكون في أمر هذا القرار، فقد رجع أثناسيوس إلى وطنه في ٢٣ نوفمبر ٣٣٧ واستقبله الشعب استقبالاً رائعًا عظيمًا بعد غياب طويل استمر حوالي سنتين. وعندما علم الآريوسيون وأصدقاؤهم بخبر وصول أثناسيوس إلى الإسكندرية اضطربوا وبدأوا حالاً في حياكة المكايد وتدبير المؤامرات وحبك التهم لإقصاء بطل الإيمان في أسرع وقت، بعيدًا عن هذه المدينة. وكان على رأس المعارضين في عودة أثناسيوس إلى الإسكندرية أسابيوس أسقف نيقوميدية الذي أصبح أسقفًا للقسطنطينية وكان كما سبقت الإشارة قوي التأثير، طويل الذراع، يتمتع بنفوذ عظيم في البلاط الإمبراطوري.

ولقد كتب أعداء أثناسيوس إلى الأباطرة ثم إلى أسقف روما يوليوس يدَّعون أن الشعب المصري لا يرغب في عودة أثناسيوس، وأنه ثائرٌ غاضب على هذه الأوضاع ويجب إقصاؤه بأقصى سرعة. ولقد اتهموا أثناسيوس أيضًا بأنه منع توزيع القمح على فقراء مصر وأخذه لنفسه.

ولكن الأساقفة المصريين الأرثوذكس اجتمعوا في نفس السنة ٣٣٨ وأظهروا تأييدهم الكامل لأثناسيوس وابتهاجهم بعودته. ويحتمل بأن أثناسيوس اتصل بأصدقائه الرهبان لكي يقوموا بمظاهرة في صالحه، وعندئذٍ جاء أنطونيوس نفسه من الصحراء لكي يؤيد صديقه الأسقف أثناسيوس (انظر المرجع السابق LEROUX ص ٢٦).

وكان لهذه المظاهرة تأثير عميق على نفسية الشعب وعلى نفسية مؤيدي الأسقف؛ لأن أنطونيوس كان مكرَّمًا في أعين كل الشعب. وكان رد أسقف روما على هذه الدعايات ضد أسقف الإسكندرية هو الدعوة لعقد مجمع مسكوني في روما للبت في

---

(١) انظر BONIFAS, JOME 2, p. 49.

هذه المماحكات، ولكن الأساقفة الآريوسيين رفضوا هذا الاقتراح، بل احتجوا بشدة على دعوة عقد مجمع مسكوني لينظر في قضية شرقية قد سبق أن أصدر حكمًا فيها مجمع شرقي.

وكان رد فعل روما على هذا الاحتجاج شديدًا، بل إن أسقف روما أظهر في هذه الفرصة أولوية روما على بقية الأسقفيات الأخرى[1] وأرسل خطابًا شديد اللهجة إلى أسابيوس، وعندما استلم أسابيوس أسقف القسطنطينية هذا الخطاب أراد بأن يلطِّف من موقفه وأن يكتسب الكثيرين إلى جانبه[2]، فحاول أن يجمع حوله جماعة من المعتدلين ولذلك فقد عقد مجمعًا في أنطاكيا في سنة ٣٤١ وقدم فيه مع حزبه قانون إيمان، يعتبر حلًا وسطًا بين قانون الإيمان النيقوي والعقيدة الآريوسية. وبما أن مؤلفي قانون الإيمان هذا (أسابيوس وحزبه) كانوا يهدفون إلى مقاومة قانون إيمان نيقية، ولكن بلباقة وبطريقة خفية، وفي الوقت نفسه مد يد المساعدة للآريوسيين، فقد اجتهدوا في إيجاد بعض الصيغ والعبارات التي استعملت في مجمع نيقية في تعظيم وتمجيد يسوع المسيح، ولكنهم تجنبوا استخدام بعض الاصطلاحات الأساسية والهامة التي استعملها مجمع نيقية مثل «وهو مساوٍ للآب في الجوهر»، وظنوا أنهم بذلك يفلحون في جذب الآريوسيين والأرثوذكسيين لقبول هذا الحل الوسط. ولقد قرر هذا المجمع خلع القديس أثناسيوس وتعيين غريغوريوس في محله.[3]

وعندئذ لجأ أسقف الإسكندرية إلى روما لكي يعرض قضيته على الأسقف يوليوس، فاستقبله هذا الأخير خير استقبال وعقد مجمعًا ألغى قرارات مجمع أنطاكيا.

وهنا نرى الكنيسة منقسمة من جديد إلى حزبين:

١- الذين يؤيدون قانون إيمان نيقية وهم الغربيون وأثناسيوس.

٢- والذين يرفضون قانون الإيمان النيقوي وهم الشرقيون وعلى رأسهم أسابيوس النيقوميدي، إلا أن حزب أسابيوس كان يضم المعتدلين أيضًا.

وفي حقيقة الأمر كانت توجد ثلاثة أحزاب أو تيارات لاهوتية:

١- حزب أثناسيوس أو حزب الأرثوذكسيين المتمسِّكين بقانون إيمان نيقية.

٢- حزب الآريوسيين وكان على رأس الحزب في بداية الأمر أسابيوس النيقوميدي قبل أن يغير اتجاهه جزئيًا.

٣- ومن هذين الحزبين وُلد الحزب الثالث الذي يدعى الحزب النصف الآريوسي SEMIARIEN وكان على رأس هذا الحزب أسابيوس القيصري، تكوَّن هذا الحزب من الذين رفضوا عقيدة آريوس وعقيدة أثناسيوس. وحاول أتباع هذا الحزب إيجاد حل وسط للمشكلة الكرستولوجية؛ فقد رأوا في الابن صورة الله، بل هو الله بالطبيعة ولكنه ليس من طبيعة الله الآب، ولقد رفضوا- مثل ما فعل الآريوسيون- اصطلاح: «مساوٍ للآب في الجوهر».[4]

---

(1) Batiffol. P. Paix Const., 422-431

(٢) انظر Leroux p. 27.

(٣) انظر Bonifas, Jome, 2. p. 50.

(٤) انظر M. E. Haag. Hisr., Des Dog., Pre Partie, pp. 178-183.

مجمع سارديكا:

أصبح قسطنطين الإمبراطور الوحيد في الغرب بعد أن قتل أخوه قسطنطين الثاني. ولقد سئمت نفسه الانشقاقات والاضطرابات التي قسمت الكنيسة والتي كانت تهدد وحدة الإمبراطورية، ولذلك فقد اتفق مع أخيه إمبراطور الشرق قسطنديوس على عقد مجمع للنظر في هذه المشاكل.

وعقد المجمع في مدينة سارديكا (SARDIQUE) على حدود الإمبراطوريتين في سنة ٣٤٣. وكان الهدف منه هو إرجاع السلام والوحدة إلى الكنيسة وإلى الإمبراطورية، ولكن للأسف الشديد قد ساد الاضطراب والانقسام في هذا المجمع قبل أن يجتمع. فلقد وصل أولاً إلى مكان الاجتماع الأسقف أثناسيوس في صحبة الوفد الغربي ومن بينهم الأسقف هوسيوس (HOSIUS) الذي كان رئيسًا لمجمع نيقية، ويبدو أنه اختير أيضًا لرئاسة مجمع سارديكا. وبدأ المجمع أعماله قبل وصول الحزب الأسابيوسي. وعندما وصل الأسابيوسيون وعرفوا بأن أثناسيوس له الحق في التصويت والاشتراك في أعمال هذا المجمع احتجوا على ذلك بحجة أن أثناسيوس قد خُلِع من الخدمة بقرار من مجمع أنطاكيا. وتركوا سارديكا وذهبوا إلى مدينة أخرى تدعى فليبوبوليس وهناك عقدوا مجمعًا آخر، وهكذا بدأ المجمعان أعمالهما في مدينتين مختلفتين، وأصدر كلٌّ منهما قراراته:

فإن مجمع سارديكا الذي حضره القديس أثناسيوس قد أكد من جديد تمسُّكه بقانون إيمان نيقية وإرجاع أثناسيوس إلى منصبه، وقطع باسيليوس أسقف أنقرة وغريغوريوس أسقف الإسكندرية.

أما مجمع فليبوبوليس فقد رفض قبول قانون الإيمان النيقوي وأقر ثانيةً قانون الإيمان الأنطاكي، ثم أصدر الحكم بخلع أثناسيوس وماركلوس، وقطع يوليوس أسقف روما وهوسيوس أسقف قرطبة.

ومن هذا نلاحظ أن فجوة الخلاف قد اتسعت بين هذه الأحزاب الدينية.

وكان حزب الأسابيوسيين يتمتع بمساعدة الإمبراطور قسطنديوس وكثرة المدد. وعلى الرغم من ذلك فقد كان حزبًا مفككًا لأنه كان يضم المعتدلين في داخله الذين حاولوا إيجاد حل للمشكلة، وتقريب أثناسيوس من آريوس، كما كان يضم أيضًا في داخله الآريوسيين المتطرفين، وكان كل منهم ينتقد الآخر بشدة. فلم تكن رابطة عقائدية تربطهم معًا إلا اتفاق على رفض عقيدة «مساو للآب في الجوهر». أما الحزب النيقوي فكان على العكس يتمتع بروابط قوية وثيقة وحدت صفوفه؛ فلقد كانت عقيدة مساواة الابن للآب في الجوهر عقيدة أساسية يجب التمسُّك بها وتعليمها، كما كان الحزب الأرثوذكسي يمتاز أيضًا بأن أثناسيوس الرجل العظيم هو المدافع عن هذه العقيدة. ولقد وقفت الكنيسة اللاتينية الرومانية بجانبه فأيدته في جهاده وإيمانه.

ولقد تغيرت الأوضاع عندما ثارت الجنود الرومانية وهجمت على الإمبراطور قسطنس وقتلته في سنة ٣٥٠ وأصبح بذلك قسطنديوس الإمبراطور الوحيد على الشرق والغرب.

وعندئذ أراد الإمبراطور قسطنديوس إذلال الغرب والذين يتعاونون معه[1] أمثال أثناسيوس والأساقفة الأرثوذكس في مصر وفي غيرها. ولذلك دعا لعقد مجمع في ميلانو في سنة ٣٥٥ وعندما اجتمع الأساقفة هناك طلب منهم الموافقة على إصدار

(١) انظر Harnack. Hist., of Dog., vol. 4. pp. 70-73.

الحكم بخلع أثناسيوس أو النفي للجميع. ولقد رفض البعض التوقيع على إصدار الحكم بخلع أثناسيوس أمثال أسقف روما ليباريوس (٣٥٢- ٣٦٦) الذي خلف الأسقف يوليوس (٣٣٧- ٣٥٢). ولكن الأغلبية الساحقة وقّعت على هذا القرار تحت تأثير الضغط والتهديد. وعندئذٍ أمر الإمبراطور بنفي أثناسيوس، ولم يقبل الرجل الشجاع هذا الأمر بل شعر أنه ليس من حق الحكام أن يتدخلوا في الأمور الدينية التي لا يفهمون فيها شيئًا. فاغتاظ الإمبراطور وثار ثورةً عارمةً ضد هذا القديس وأرسل قوةً عسكريةً مكونةً من حوالي ٥٠٠٠ جندي مسلحين للقبض على الأسقف وقيادته إلى المنفى، وعندما وصل الجيش إلى الكنيسة التي كان القديس أثناسيوس يقيم الصلاة فيها وجدوها تعج بالعابدين. ولقد توسل الكثيرون إلى الأسقف بأن يهرب وينجو بحياته الثمينة والضرورية للكثيرين، فرفض أثناسيوس وعندما فشلت هذه التوسلات تدخل بعض الرهبان واختطفوه خطفًا وهربوا به إلى الصحراء. ولقد ثار الشعب كله ضد السلطات الحاكمة وضد أمر الإمبراطور ولكن هذا الأخير لم يُعِر هذه الثورات والمظاهرات أي اهتمام بل أمر الحكام بالبحث عن أثناسيوس وتسليمه، ولكن كل المساعي باءت بالفشل ولم يستطع حاكم الإسكندرية القبض على أثناسيوس لأن كل الشعب كان مؤيدًا له، ولقد وجد أثناسيوس ملجأً آمنًا عند الرهبان واستطاع القديس العظيم أن يكتب في هذه الفرصة بعضًا من الكتب، بل كان يذهب من حين إلى آخر خفية إلى الإسكندرية ليتفقّد الرعية، وهكذا ظل على هذه الحال ست سنوات من ٣٥٥- ٣٦١ . ولقد عيَّن الإمبراطور أحد موظفي المالية أسقفًا بدل أثناسيوس، فقابل الشعب هذا الأمر بالسخط والغضب والاحتقار.

وهجر الشعب الكنيسة التي كان يصلي فيها الأسقف الجديد جورجيوس، وأغاظ هذا التصرف الأسقف فطلب من البوليس إحضار الذين ذهبوا إلى الصحاري والمقابر لإقامة الصلاة فيها. فحاصر البوليس هذه المقابر وقبض على الكثيرين وألقى بهم في السجون (انظر كتاب LEROUX ذكر سابقًا ص ٣٩، ٤٠).

وكانت الكنيسة في ذلك الوقت العصيب تشبه سفينة في بحر هائج صاخب تلطم أمواجه العاتية القاسية هذه السفينة التي كادت تتحطم وتتكسر وتختفي في اليم العميق. ولقد رأى الآريوسيون المتطرفون والآريوسيون المعتدلون أن النصر حليفهم، ولذلك تطرّف البعض منهم في تعليمه أمثال آيتوس (AETIUS) ثم أيونوميوس (EUNOMIUS) فقد علّم كلٌّ منهما بأن الابن له بداية فهو مخلوق مثل باقي الخلائق لأنه إذا كان الابن أزليًا أي لا بداية له، فهذا لا يعني أنه من جوهر الله الآب، فهو يشبه الله ولكن ليس من جوهره، وهذا التشابه الموجود بين الآب والابن هو بحسب إرادة الآب[1]؛ لأنه إذا كان الابن أزليًا كما يعتقد الأرثوذكس فهذا يعني أنه هو نفسه أصل وعلّة وجوده، وبناء على ذلك فهو ليس من نفس الجوهر الذي منه الله الآب بل من جوهر يشبه هذا الجوهر. ولقد اعترض الذين لا يقبلون أزلية الابن بالقول: إذا كان الابن مولودًا فهو أزلي، وإذا كان أزليًا فهو غير مولود. وبناءً على ذلك فقد رأوا أن قانون الإيمان النيقوي غير معقول ويجب تصحيحه. وهكذا عُقد مجمع جديد في أنقرة في سنة ٣٥٨، ويحتمل أن باسيليوس أسقف هذه المدينة هو الذي دعا لانعقاده.[2] ولقد كان باسيليوس من حزب الآريوسيين المعتدلين الذين حاولوا أن يكوّنوا نقطة الالتقاء والتوافق بين الآريوسيين المتطرّفين وبين الأرثوذكس.

---

(١) انظر M. E. Haag.pp.168-183.

(2) Epiphanios Haag. 73

ومن المعروف أن الذين كانوا يسيطرون على هذا المجمع هم جماعة أنصاف الآريوسيين أو المعتدلين (LES SEBI-ARIENS) الذين يؤمنون بأن الابن مشابه لجوهر الآب. على أنهم لا يقبلون ولا يعترفون بفكرة أن الابن من نفس الجوهر الذي منه الآب. إنه من جوهر مشابه لجوهر الآب وليس من ذات الجوهر الذي منه الآب؛ فهم يرفضون هنا العقيدة الأساسية التي تمسَّك بها الأرثوذكس في الشرق وفي الغرب، والتي أقرها مجمع نيقية والتي من أجلها أيضًا يحارب ويناضل البطل الباسل والقديس الشجاع أثناسيوس، وهي حقيقة «مساو للآب في الجوهر» ولقد استبدلوا الاصطلاح الذي قَبِله مجمع نيقية: «مساو للآب في الجوهر» بالاصطلاح: «مشابه للآب في الجوهر». وبذلك فقد رفضوا عقيدة الأرثوذكس كما أنهم رفضوا أيضًا عقيدة الآريوسيين المتطرفين التي تعلم بأن الابن مخلوق من العدم كبقية الخلائق. فهم (المعتدلون) يقولون بأن الابن مولود من الآب قبل كل الدهور بحسب قصد الله ومشيئته. فالابن بحسب هذا المفهوم «النصف الآريوسي» يحتل مكانًا وسطًا بين الله وبين الخليقة (انظر كتاب BONIFAS- TOME 2. pp. 52- 54). ومن الطبيعي، فقد رفض الأرثوذكس هذه العقيدة كما رفضها أيضًا المتطرفون خصوصًا أن عناصر جديدة دخلت في الحزب الآريوسي المتطرف فدفعه أكثر إلى الانزلاق والابتعاد عن الأرثوذكسية وعن حزب المعتدلين، ولقد علَّم هؤلاء المتطرفون تعاليمًا أكثر خطورة وأبشع هرطقة من التعاليم التي علَّم بها آريوس نفسه.

وهنا تزداد الفجوة اتساعًا ويصبح الانقسام خطرًا يهدد سلامة الإمبراطورية؛ لأن الانقسام لم يعد بعد بين الأرثوذكسيين المتمسِّكين بقانون الإيمان النيقوي وبين الذين يرفضون قبوله، بل لأن الانقسام سيطر أيضًا على هذا الحزب الأخير.

وهنا تظهر من جديد الحاجة الملحَّة، والتي تعودت عليها الكنيسة وهي الحاجة إلى انعقاد مجمع آخر ليفصل في هذه المشاكل العقائدية التي تهدِّد بانقسام الإمبراطورية والكنيسة. ولقد نصح الإمبراطور بعضُ المغرضين من الآريوسيين الذين خشوا بأن يكونوا أقلية في المجمع بعمل مجمعين: مجمع في الشرق في سلفكية (في تركيا) حيث يتنافس فيه المجتمعون باللغة اليونانية، ومجمع في الغرب في ريمينة (في إيطاليا) ويتناقش فيه المجتمعون باللغة اللاتينية. وبدأ مجمع ريمينة أعماله في يونيو ٣٥٩. ولقد جاء لحضور هذا المجمع ٤٠٠ أسقف، وعلى ما يظن أنهم جاءوا مرغمين على ذلك بالأمر الإمبراطوري أو على الأقل أُرغِم عدد كبير منهم على الحضور (انظر المرجع السابق LEROUX, pp. 41- 43).

ولقد حضر مجمع سلفكية مائة وخمسون أسقفًا من الشرق. وهكذا اجتمع المجمعان منعزلَين الواحد في الشرق والآخر في الغرب، لتسهيل التفاهم وتوفير المال كما اقترح البعض على الإمبراطور الذي طلب من الأسقف مرقس أسقف أرسوز بعمل قانون إيمان لكي يناقشه المجمعان. وسيحمل هذا القانون فيما بعد اسم: «قانون الإيمان المؤرخ»، ودعي بهذا الاسم لأن الأسقف مرقس ذكر أولاً وقبل نص القانون موافقة الإمبراطور على هذا الاجتماع ثم ذكر أيضًا السنة والشهر واليوم الذي تمت فيه هذه الموافقة.

ومحتويات هذا القانون تتفق واتجاهات الآريوسيين المعتدلين؛ فقد استبدل عبارة «مساو للآب في الجوهر» بعبارة «مشابه للآب في الجوهر» كما أنه أقر بأن الابن مولود قبل الدهور. ولقد سبق أن أشرنا إلى عقيدة الآريوسيين المعتدلين، إلا أن هذا يشير ولأول مرة إلى نزول المسيح إلى الجحيم.[1]

---

(١) انظر المراجع المذكورة هنا Socrates, Hist., Eccl., 2, 34

ورفضت أغلبية مجمع ريمينة القانون المؤرخ وطالبت بتطبيق القانون النيقوي، إلا أن الأقلية (٨٠ أسقفًا تقريبًا) قبلت التجديد والأوامر الإمبراطورية. ولقد كان أمر الإمبراطور واضحًا ومحددًا للذين يشرفون على هذا المجمع العمل سواء باللين أو بالشدة، على أن ينضم المجمع كله إلى حزب الأقلية. ولقد قام ممثل الإمبراطور في المجمع بتنفيذ هذا الأمر خير قيام. وانتهى الأمر بأن معظم أعضاء مجمع الغرب قَبلوا هذا القرار بسبب الضغط الإمبراطوري.

أما مجمع الشرق فقد انقسم على ذاته لأن الأغلبية فيه لم تقبل قانون الإيمان المقترح. ومع أن الأغلبية في مجمع الشرق ظلت تعادي القديس أثناسيوس إلا أنها لم تتطلع إلى قانون إيمان جديد قد ينتج عنه انقسامات جديدة وهرطقات أخرى.

وأمام إصرار هذا المجمع وعدم قبوله التوقيع على قانون الإيمان المؤرخ، فقد أمر الممثِّل الإمبراطوري بإنهاء أعمال المجمع بعد ثلاثة أيام من بدايته. وذهب وفدان عن المجمعين إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور ولقد ظن الأساقفة الشرقيون بأن أساقفة الغرب تبنُّوا نفس الموقف الذي اتخذوه، ولكن خيبة الأمل عندهم كانت عظيمة عندما عرفوا بأن أساقفة الغرب وقَّعوا على قانون الإيمان المؤرخ. ولقد استعمل البوليس العنف مع أعضاء مجمع سلفكية حتى انضم معظم أعضائه إلى أعضاء مجمع ريمينة بعد أسابيع قليلة. وفي يناير سنة ٣٦٠ وقع الوفدان في القسطنطينية على قانون الإيمان المؤرخ (انظر المرجع السابق LEROUX, pp. 40-43)، وأُرسلت رسالة بذلك إلى جميع أساقفة المسكونة. كما هدَّدت السلطات كل من لا يوافق على هذا القرار، وبالرغم من ذلك امتنع عدد لا بأس به عن التوقيع على قانون الإيمان.

فمع أن أثناسيوس كان منفيًا وبعيدًا عن المجمع لكنه كان قوي التأثير عظيم السلطة، ولذلك فقد طلب من الوفد المصري والليبي التمسُّك بالإيمان النيقوي وعدم الانضمام إلى أي قانون إيمان آخر. وبناء على ذلك فلم يوقِّع أغلبية ممثلي مصر وليبيا على هذا القرار.

عندما وقَّعت الأغلبية الساحقة على قانون الإيمان المؤرخ، فكأني بها توقِّع على وثيقة إعدام القانون النيقوي، وبناءً عليه فإنها تعلن إنكار أزلية ابن الله. وأمام التهديد بالنفي والخلع عن المراكز السامية العظيمة، اختارت الأغلبية الساحقة الطريق الواسع الرحب المملوء بالإكرام والتعظيم والمجد الأرضي. وبهذا ولأجل هذا أيضًا وقَّعت الأغلبية الساحقة على قانون «الإيمان المؤرخ» الذي أمر به الإمبراطور والذي كان يسعى من ورائه إلى توحيد الإمبراطورية وتجنُّبها الانقسام. ولذلك فقد استعمل القسوة والشدة والاضطهاد والنفي لكي يصير هذا القانون مقبولاً من الجميع. وهكذا مر النيقاويون (المتمسِّكون بقانون إيمان نيقية) الأرثوذكسيون بفترات عصيبة وأوقات صعبة، انتشرت خلالها الآريوسية بطريقة سريعة وسهلة.

ولكن هذه الفترة لم تكن إلا عشرة أيام الضيق التي تكلم عنها الرائي: «هوذا إبليس مزمع أن يلقي بعضًا منكم في السجن لكي تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام» (رؤ ٢: ١٠). فلقد تغيرت الأحوال جزئيًا عندما مات الإمبراطور قسطنديوس في ديسمبر ٣٦١ وأوصى هو نفسه بأن يتولى بعده يوليانوس بن يوليوس. ومع أن الإمبراطور الجديد لم يكن محبًا ومشجعًا للمسيحية إلا أنه أظهر روح التسامح جزئيًا وخصوصًا للأساقفة المنفيين وأمر بعودتهم إلى أوطانهم. ولذلك رجع القديس أثناسيوس إلى الظهور بعد أن اختفى في الصحراء أكثر من ست سنوات. ولقد انتهز الأسقف الإسكندري فرصة عودة أساقفة المنفى، وعقد مجمعًا في أثناء مرورهم بالإسكندرية لكي يتشاوروا معًا في الأمور التي حدثت أثناء نفيهم وخصوصًا موضوع

الآريوسيين. وكان بعض الأساقفة الأرثوذكس لا يريدون قبول الآريوسيين في الكنائس ويطالبون بمحاربتهم. على أن أثناسيوس كان يميل لمد يد المصالحة للآريوسيين الذين يقبلون الإيمان النيقوي. وهكذا أراد أثناسيوس فور وصوله إلى رعيته المحبوبة، البدء في البناء والعمل، ولكن للأسف الشديد لم يمضِ على وصوله للإسكندرية إلا ثمانية شهور حتى صدر أمر إمبراطوري بالقبض على أثناسيوس، فثار الشعب ثورة عظيمة جدًّا ضد هذا القرار. ولكن الإمبراطور الوثني لم يعر هذه الثورة أي اهتمام وأصر على نفيه من جديد. أما القديس أثناسيوس فكان يعزّي شعبه بالقول: ما هذه إلا غيوم ستختفي قريبًا. وانطلق رجل الجهاد إلى أصدقائه في الصحراء للاختفاء هناك. ولم تستطِع قوات الإمبراطور الوصول إليه أو التعرُّف على مكانه. وظل هكذا مختفيًا إلى أن قُتِل الإمبراطور يوليانوس في ٢٦ يونية ٣٦٣، فرجع أثناسيوس كعادته نشيطًا قويًّا لا يعرف الفشل طريقه إليه.

وعندما تولى عرش الإمبراطورية جوفيانوس أو يوفيانوس كتب في سنة ٣٦٣ كتابًا رقيقًا ولطيفًا جدًّا إلى أثناسيوس يدعوه فيه لزيارته والإقامة في القصر الإمبراطوري بعضًا من الوقت وكان الإمبراطور جوفيانوس أرثوذكسيًّا متمسِّكا بالقانون النيقوي، وفعلاً لبّى الأسقف الإسكندري الدعوة الإمبراطورية. إلا أن هذا الإمبراطور لم يعمر طويلاً فقد مات في ٣٦٥ واستولى بعده على زمام الأمور الإمبراطور فلنس VALENS الذي أصدر حالاً أمرًا إمبراطوريًّا بنفي كل الأساقفة الذين سبق أن نفاهم قسطنديوس. كما أنه أعطى أمرًا خاصًّا بأن هذا القرار ينطبق أيضًا على أثناسيوس فلا بد من نفيه. وهكذا نُفي هذا الرجل العظيم للمرة الخامسة، ولكنه هذه المرة اختار مخبأً أكثر قربًا من المدينة ومُعدًّا بالوسائل للراحة والرفاهية أكثر من المرات السابقة. فلم يذهب إلى الصحراء بل اختبأ في فيلا أحد أصدقائه في ضواحي الإسكندرية، حيث قضى فيها حوالي سنة. ولا نعلم بالضبط الظروف التي دفعت شعب الإسكندرية في أول فبراير ٣٦٦ للذهاب إلى مقر مخبئه والهتاف بحياته وتأييده. وأمام هذا الأمر الواقع اضطر الإمبراطور إلى أن يسمح له باستئناف عمله الرعوي في مدينة الإسكندرية. وهكذا تنتهي فترة النفي التي استمرت حوالي ٢٠ سنة من حياة رجل الله المجاهد في سبيل الإيمان الصحيح، فقد كان أسقفًا لمدينة الإسكندرية لمدة ٤٥ عامًا قضى منها عشرين عامًا في المنفى.

والدارس لتاريخ حياة هذا القديس العظيم والبطل المجاهد يلاحظ - بلا شك - انطباعًا خاصًّا قد انفرد به عن كثيرين من القديسين الذين يكلمنا عنهم التاريخ، فقد تعودنا أن نرى أو نتصور القديسين يعيشون في جو من التأمل الروحي السماوي، لا صلة لهم بما هو أرضي، يقضون ليلتهم في الصلاة والتأمل ونهارهم في العمل والوعظ. ومما لا شك فيه أن القديس أثناسيوس كان رجل صلاة وكانت له شركة عظيمة وقوية مع الرب. لكن الأمر الذي ميَّز هذا القديس عن كثيرين هو أنه اندمج في المجتمع ودافع فيه عن الحق الإلهي. لقد تحدى أقوى وأعظم القوات الأرضية في وقته غير هياب للنفي أو للموت. ولم يعرف الفشل واليأس طريقها إلى قلبه الذي امتلأ أولاً بالمسيح ابن الله ففاض غيرة وحماسة وحبًّا له، ولذلك أصبحت نفسه غير ثمينة عنده.

ومع أن البطل المجاهد في سبيل انتصار قانون الإيمان النيقوي استطاع في نهاية حياته أن يتمتع ببضع سنوات من الهدوء نسبيًّا، إلا أنه لم يرَ اليوم الذي فيه انتصر قانون الإيمان النيقوي الذي قَبِله مجمع القسطنطينية في سنة ٣٨١ والذي جاهد من أجله كل حياته.

مجمع القسطنطينية:

اجتمع هذا المجمع في مدينة القسطنطينية في سنة ٣٨١ للبت في الأمور العقائدية التي كانت تشغل أذهان الكثيرين. وعلى ما يُظن أن الإمبراطور ثيودوسيوس هو الذي دعا لعقد هذا المجمع المسكوني، وكان يضم حوالي مائة وخمسين أسقفًا، وتولى رئاسة جزء من هذا المجمع الأسقف غريغوريوس النزينزي أسقف القسطنطينية. وقرر آباء المجمع المسكوني الثاني قبول قانون الإيمان النيقوي، ثم أضافوا إليه بعض الفقرات لتوضيحه وشرحه. ويُحتَمَل أن المجمع المسكوني الثاني قد أضاف بعض العبارات غير الموجودة في قانون الإيمان (هذا احتمال) مثل «... الروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء»، كما أن هذا القانون يوجز المادة المختصة بيسوع المسيح في الجزء الأول ولكنه يتوسَّع في المادة الثانية ثم يضيف بعض التفاصيل. ونلاحظ أيضًا أن قانون إيمان المجمع المسكوني الثاني يضيف هذه العبارات: غفران الخطايا، الكنيسة، القيامة، الحياة الأبدية. نجد هذه العبارات في قانون إيمان الرسل، ولكنها غير موجودة في قانون إيمان نيقية. ولا يذكر هذا القانون الحرمان المذكور في القانون النيقوي ثم يشدِّد على عقيدة الروح القدس ومساواته للآب.

وبعد أن نظر المجمع المسكوني الثاني بعضَ المشاكل الأخرى، أنهى أعماله وأرسل رسالة شكر للإمبراطور. واعتمد الإمبراطور قرارات هذا المجمع الذي اعتبره مجمعًا أرثوذكسيًّا. وبهذا القرار نرى الأرثوذكسية وقد انتصرت من جديد. هذا هو القرار الذي جاهد من أجله حقًّا، والوصول إليه رجل الله العظيم القديس أثناسيوس، نعم! إنه لم يرَ هذا اليوم الذي انتصرت فيه الأرثوذكسية وتم الاعتراف بها، إلا أنه رأى قبل موته علامات كثيرة كانت تشير إلى قرب يوم الانتصار هذا. ولذلك فقد انطلق قديس الإسكندرية العظيم على هذا الرجاء في يوم ٣ مايو سنة ٣٧٣ لكي يتلاقى مع ابن الله وجهًا لوجه. ويمكننا أن نقول عن ذلك الرجل «وإن مات أثناسيوس فإنه يتكلم بعد».

إن المجمع الذي اجتمع في القسطنطينية في سنة ٣٨١ قَبِل قانون الإيمان النيقوي بعد أن أدخل عليه بعض التعديلات والإضافات، وهذا هو نص قانون الإيمان الذي نُسِب إلى مجمع القسطنطينية «نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل. خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقُبر، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب وأيضًا يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه، وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجَّد، الناطق بالأنبياء، وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. ونترجَّى قيامة الموتى والحياة في الدهر العتيد. آمين».

وقد قَبِل مجمع توليدو الذي عُقد في أسبانيا سنة ٥٨٩ نفس القانون بعد أن قام بتغيير الجملة الآتية: «وأؤمن بالروح القدس الرب والمحيي المنبثق من الآب والابن...» أي أن الروح القدس لم ينبثق من الآب وحده بل انبثق من الابن أيضًا. وقبلت كل الكنائس الغربية والكنائس الإنجيلية فيما بعد هذا النص الذي يتكلم عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن

ورفضته الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية.

بعد أن أنهى مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني أعماله تنفَّس الإمبراطور ثيودوسيوس وقادة الكنيسة الصعداء، وشعروا كما شعر الإمبراطور قسطنطين وقادة الكنيسة بعد قبول قانون الإيمان النيقوي في سنة ٣٢٥ بسرور وارتياح عظيمَين، لأنهم ظنوا بأن مجمع نيقية استطاع أن يستأصل الهرطقة من جذورها ويعيد الوحدة إلى الإمَبراطورية وإلى الكنيسة المهدَّدتين بالانقسام والاضطراب!

فهل استطاعت الإمبراطورية والكنيسة أن تصلا إلى هذه الوحدة المنشودة بعد المجمع المسكوني الأول؟! وهل ستستطيع الإمبراطورية والكنيسة أن تصلا إلى هذه الوحدة المنشودة بعد مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني؟ هذا ما سنحاول دراسته في المجلد الثاني.

وقبل أن نترك هذه الحقبة التي حدثت فيها تطورات كثيرة وجذرية في تاريخ الفكر المسيحي، نود أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى شخصية أخرى لعبت دورًا هامًّا وكبيراً في تاريخ الهرطقات وهي شخصية الأسقف أبولوناريوس APOLLINAIRE (٣١٠- ٣٨١).

الفصل الخامس عشر

أبولوناريوس APOLLIN-AIRE

كان أبولوناريوس أسقفًا للاذقية وصديقًا حميمًا للقديس أثناسيوس، وفي بدء حياته كان يقف بجانب الأسقف المصري[1] يصارع بجانبه ويناضل نضاله ضد الذين رفضوا قانون الإيمان النيقوي، ولذلك فلقد نزل خبر انحراف أبولوناريوس العقائدي على أثناسيوس نزول الصاعقة، وفي حقيقة الأمر كان أسقف اللاذقية يريد أن يجد حلًا سلميًا للمشكلة اللاهوتية التي تعرَّضت لها الكنيسة في ذلك العصر؛ فكما سبق أن رأينا أن الكنيسة انقسمت بعد مجمع نيقية إلى أحزاب وجماعات ومدارس، وكان سبب الانقسام هو نفس السؤال الذي طرحه المسيح على تلاميذه: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» فإن الذين كانوا يتمسَّكون بقانون الإيمان النيقوي وعلى رأسهم أسقف الإسكندرية علَّموا بأن الجواب على هذا السؤال هو: (أنت هو المسيح ابن الله الحي؟) (من ذات جوهر الآب متساوٍ مع الآب في الجوهر). والذين لم يقبلوا قانون الإيمان النيقوي انقسموا إلى أحزاب؛ فالبعض رأى في المسيح نبيًا، والبعض الآخر رأى فيه ابنًا لله لا بالطبيعة بل بالتبني؛ أي أن الله تبنَّى يسوع المسيح وبناءً على ذلك فقد رفعه الله إلى أعلى درجات المجد والعظمة؛ فالصراع العقائدي الذي كان يسيطر على الأحزاب المتعارضة في ذلك الوقت تلخَّص في عدم الاتفاق على جوهر المسيح فيما إذا كان من نفس جوهر الآب أو من جوهر آخر، وما إذا كان مخلوقًا كبقية الخلائق أم هو نفسه الخالق والأزلي الذي لا بداية له، وأن بنوَّته معاصرة تمامًا لأبوة الآب. هذه هي الأسئلة والمشاكل التي تعرَّضت لها الكنيسة بعد مجمع نيقية. وهنا يظهر أسقف اللاذقية الذي تمسَّك بالقانون النيقوي لأنه يعتقد بأن اللوجوس أزلي، فإن كان يؤمن بأزلية الابن فما هي هرطقته إذًا؟

كان مفهوم أبولوناريوس للإنسان يشبه إلى حدٍّ كبير مفهوم يوستينوس الذي تأثر تأثرًا كبيرًا بالأفلاطونية التي كانت تعلِّم بأن الإنسان مكوَّن من ثلاثة عناصر: ١- الجسد، (SOMA) ٢- النفس، (PSYCPE) ٣- الروح (PREUMA).

ولقد حاول الأسقف اللاذقي أن يستفيد من هذه النظرية الأفلاطونية لكي يحل بها المشكلة اللاهوتية التي كانت تمزِّق الكنيسة، ولم يعلِّم أن نظريته الجديدة عرَّضته لخطرٍ آخر؛ فإن أبولوناريوس علَّم بأن المسيح يتكوَّن من ثلاثة عناصر: الجسد والنفس واللوجوس؛ فالذي كان يحرك الجسد هو طاقة حيوية عاقلة فيه. واللوجوس، الكلمة حل في المسيح محل الروح (AME). وهنا نرى التأثير الأفلاطوني واضحًا؛ فإن الأفلاطونية علَّمت كما سبقت الإشارة بأن الإنسان يتكوَّن من جسد ونفس

(١) انظر Leroux p. 50

وروح عاقلة. وفي تعليم أبولوناريوس نرى أن اللوجوس حل محل الروح العاقلة. فهو يرفض إذًا وجود روح عاقلة في المسيح، ولكي يؤيد بدعته هذه فقد رجع إلى الكتاب المقدس كما رجع إليه كل الأرثوذكسيين والهراطقة على السواء؛ فهو يقتبس قول الرسول يوحنا: «والكلمة صار جسدًا...» معلقًا على عبارة: «صار جسدًا» بالقول بأن الرسول لا يقول إن الكلمة صار «روحًا» بل صار جسدًا[١]؛ فإن «اللوجوس» ابن الله الأزلي اتخذ لنفسه جسدًا، وفي اتخاذه هذا الجسد، فقد حل محل الروح، فالمسيح إذًا بلا روح عاقلة لأن الكلمة أو اللوجوس أو ابن الله الذي أخذ جسدًا حل محل هذه الروح العاقلة.

وهو يعتقد بأنه كان من الضروري، بل من اللازم، أن يُجرَّد المسيح من روح بشرية عاقلة. وذلك لأنه لو كان للمسيح روحًا بشرية مثل كل البشر لما كان ممكنًا له أن يصل إلى درجة القداسة الكاملة، لأن الخطية مرتبطة وعالقة بالروح البشرية، فحيث يوجد إنسان مكون تكوينًا كاملًا من جسد ونفس وروح، فهناك تسكن وتكون الخطية. والذي يميز يسوع عن كل البشر، والذي أهَّله لأن يكون قديسًا لا عيب فيه هو أن «اللوجوس» حل محل الروح. ويواصل أبولوناريوس اعتراضه على وجود روح في المسيح بالحجة الآتية:

إن قبول فكرة وجود روح في المسيح تخلق لنا مشاكل لا تُحَل، ومنها: إن وجود روح بشرية في المسيح يفترض أن هذه الروح تتمتع بالحرية والإرادة والتصرف والسلوك. هذه الامتيازات التي تتمتع بها كل الأرواح البشرية، وهذه الأشياء عينها لا تتفق وإرادة اللوجوس في أحيانٍ كثيرة عند استعمالها. وهنا ينشأ الصراع والنضال وعدم التوافق وعدم الانسجام بين اللوجوس، الكلمة، وبين الروح البشرية في المسيح، وهذا الأمر لا يمكن قبوله بأية حال من الأحوال في المسيح، وكيف يمكننا أن نقبل وجود صراع ونضال وتناقض في داخل المسيح؟ ولحل هذه المشكلة، اقترح أبولوناريوس عدم وجود روح بشرية في المسيح؛ لأنه لا يمكن قبول فكرة وجود صراع أو تناقض في شخص المسيح. ويقدم أسقف اللاذقية حجةً أخرى فيقول إن قبول فكرة وجود روح في المسيح تقودنا بطريقة لا تقبل الرفض، إلى الاعتراف بوجود مسيحَين: اللوجوس، الكلمة، ابن الله من ناحية، ثم الإنسان المكوَّن تكوينًا بيولوجيًا نفسيًا روحيًا من ناحية أخرى.

وأبولوناريوس يعتقد أن عملية التجسُّد قد تمت عندما اتحد ابن الله أو اللوجوس بطبيعة بشرية لتكوين وحدة أساسية التي عن طريقها وبها تكوَّن الكائن الإلهي البشري. وبعد هذا الاتحاد أصبح الإنسان المكوَّن أو المركَّب إنسانًا سماويًا.[٢] وأسقف اللاذقية لا يعني بعبارة «الإنسان السماوي» عند كلامه عن المسيح أن جسده قد نزل من السماء، كما فهم البعض ذلك خطأً، بل العكس فإنه يعلِّم بأن المسيح أخذ طبيعته البشرية من مريم العذراء ولم تصبح إلهية إلا بعد اتحادها باللاهوت. ولكي تكون عملية الاتحاد بين الله والإنسان يسوع قوية وأساسية، وكاملة لا يعوقها أي عائق، يجب نفي الروح من هذا الإنسان السماوي؛ لأن اللوجوس الكلمة حل محلها، فالعناصر التي تكوَّن منها الإنسان السماوي هي اللاهوت من

---

(١) انظر Bonifas, Tome 2. pp. 91-92

(٢) انظر هذه المراجع بخصوص نفس الموضوع

Apoll. Ep. Ad. Dionys. Al: Ed Leitzmann, pp. 256-257.

Apoll. Ep. Ad Dionys. Al: Ed Leitzmann, pp. 256- 257.

Apoll. Ad. Sarapion., fragm. p. 160.

فوق، ثم الناسوت من ناحية البشرية، إلا أن هذا الناسوت خالٍ من الروح البشرية. وهذا الكائن المركَّب من اللوجوس ومن الطبيعة البشرية الناقصة يكون الكائن الكلي، أي المسيح.[1]

وهو يعتقد أن اتحاد اللوجوس بالجسد يشبه إلى حدٍّ كبير اتحاد النفس البشرية بالجسد البشري، فإن الروح تتحد بالجسد وهي التي تسيطر عليه وتديره، كذلك فإن اللوجوس ابن الله قد احتمل في تجسيده مكانَ الروح؛ فهو الذي يعمل في الجسد ويسيطر عليه. والعقبة الكبرى التي ظهرت أمام أبولوناريوس هي أن وجود روح في المسيح يفرض بالضرورة نوعًا من الصراع وعدم التوافق، لأن الروح لها رغباتها وميولها التي لا تتفق تمامًا مع رغبات وميول اللوجوس.

ومن خطابه الذي أرسله إلى الإمبراطور جوفيانوس يلاحظ أنه كان متمكنًا من عقيدته [2]؛ فقد حاول شرحها بطريقة سهلة مقبولة، ويقول (جريلميير GRILLMEIER ص٢٦٠) بصدد ذلك: «لم يستطع أحد قبله أن يشرح هذه العقيدة بهذه السهولة والوضوح».

مما لا شك فيه أن أبولوناريوس استطاع أن يقدم أفكاره اللاهوتية بطريقة جذابة وسهلة وواضحة لأنه كان كاتبًا ماهرًا وشاعرًا مشهورًا في عصره وبيئته. ولكن إنكاره لوجود روح في المسيح يُعَد هرطقة، أدانتها الكنيسة وحكمت بحذفها من تعاليمها؛ فعدم قبوله لفكرة وجود روح في المسيح يعني أن تكوين المسيح البشري كان ناقصًا وغير كامل؛ لأنه اعتبر أن الروح هي التي تسيطر على الجسد وتديره، وهي أيضًا مركز الانفعالات والتي توجه التصرف والسلوك. فإذا كان جسد المسيح قد جرد من هذه الروح وأن اللوجوس حل محلها في هذا الجسد فلا يمكننا في هذه الحالة أن نقول إن المسيح قد تجرب بكل التجارب التي يمر بها الإنسان المركب تركيبًا عاديًا. فإن عدم قبول فكرة وجود روح في المسيح يعنى إزالة مركز الإرادة والسلوك والتصرف. وبناءً على ذلك فإن المسيح لم يتعرَّض في حياته الأرضية لأية تجربة أيما كانت؛ لأن اللوجوس الذي حل محل الروح كان يقود جسدًا مُجرَّدًا من كل إرادة. وهذا يتعارض مع المكتوب الذي يعرِّفنا بأن الله ظهر في الجسد، وهذا الجسد لم يكن جسدًا مجردًا من الروح كما ظن الأسقف أبولوناريوس بل كان جسدًا حقيقيًا وكاملاً من حيث تكوينه، فإن كنا نرى يسوع يبكي بحزن، يتألم بفرح. يضطرب بالروح... فإن كان يمر بهذه الأحاسيس والمشاعر والانفعالات لأنه كان إنسانًا كامل التكوين. ولأنه كان كامل التكوين، فقد جُرِّب في بشريته كما يجرَّب أي إنسان آخر؛ فالرسول يقول: «لأنه فيما هو قد تألم مجربًا يقدر أن يعين المجربين» (عب ٢: ١٨) «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية» (عب ٤: ١٥؛ ٧: ٢٦؛ ٩: ١٤؛ يو ٨: ٤٦؛ ٢كو ٥: ٢١؛ ١ يو ٣: ٥). بل إن كاتب الرسالة إلى العبرانيين أكد بشدة على هذه الحقيقة في قوله: «من ثم كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء» (عب ٢: ١٧)، فكيف يمكن له أن يكون مشابهًا لإخوته في كل شيء إذا كان المسيح لا يتمتع بوجود روح بشرية فيه؟ ورُب معترض يقول: إذا كان من الضروري أن يشبه المسيح إخوته في كل شيء لكان من الضروري أيضًا أن يخطئ لكي تكون المشابهة كاملة والتجسُّد حقيقيًا، وهنا نرى عظمة يسوع وقداسته وقدراته؛ فمع أنه كان يشبه إخوته في كل شيء، أي أنه كان مكوَّنًا تكوينًا كاملاً من الناحية النفسية والطبيعية ومعرَّضًا لكل أنواع

---

(1) Apoll., De Unions: éd., L. 187. 7-114.

(٢)انظر J. Liebaert.

التجارب التي يتعرَّض لها أي إنسان مثله، فقد استطاع - وهو الوحيد في ذلك - أن يقول متحديًا لليهود: «من منكم يبكتني على خطية» (يو ٨: ٤٦) وهذا لا يعني أن الجسد والروح كانا لا يعملان في المسيح كما يعمل الجسد والروح في أي إنسان آخر لدفعه للخطية ولارتكابها، بل إن المسيح كان مجرَّبًا في جسده وروحه كأي إنسان آخر، والرسول يقول: «... فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد» (رو ٨: ٣؛ غل ٣: ١٣)؛ فانتصار المسيح على الخطية وقهره لها لا يرجع بأية حال من الأحوال إلى غياب الروح البشرية من يسوع، كما يعتقد أبولوناريوس، بل يرجع إلى حقيقة واحدة: وهي أن الذي كان يعمل في هذا الإنسان يسوع الناصري المكوَّن من روح عاقلة وجسد طبيعي، هو أن اللوجوس ابن الله حل في هذا الإنسان؛ فقداسة يسوع وكمال تصرفه وسمو أخلاقه ومثالية حياته لا ترجع إلى غياب الروح منه ولا حتى إلى غياب العامل الذكري في الحَبَل به من عذراء بطريقة معجزية، ولكن السبب الوحيد في كماله هو: «عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد»؛ أي أن الله نفسه حل في الإنسان يسوع المسيح.

فإن انتصار يسوع الناصري على الخطية والتجارب لا يرجع إذًا إلى غياب روح بشرية ميَّالة إلى السقوط في الخطية، بل يرجع بالحري إلى وجود «اللوجوس» فيه، ووجود اللوجوس في الإنسان يسوع الناصري لم يلاشِ الناسوت، بل كان يوجِّهه ويرشده ويقوده.

رفضت الكنيسة بدعة أبولوناريوس منذ بداية ظهورها؛ لأنها تؤمن بأن المسيح جاء لا لكي يخلِّص الجسد فقط، بل ليخلِّص الإنسان كله روحًا وجسدًا، فلو لم يكن للمسيح روح كبقية البشر لأصبح المستحيل أن يخلِّص أرواح البشر. ولقد كرر هذه الحقيقة مشدِّدًا عليها أوريجانوس المصري وترتليانوس[1] وتكلم عنها فيما بعد غريغوريوس النزينزي.[2]

إن مجمع الإسكندرية الذي اجتمع في سنة ٣٦٢ للنظر في قضية الذين تركوا الاعتراف بقانون الإيمان النيقوي، بحث هذه المشكلة أيضًا ولقد صدرت أحكام بهرطقة تعاليم أبولوناريوس في: (١) المجمع (السنودس) الروماني الذي عقده البابا دماسوس سنة ٣٧٧ (٢) وفي المجمع (السنودس) المصري الذي اجتمع في الإسكندرية سنة ٣٧٨. (٣) وفي المجمع الأنطاكي سنة ٣٧٩. (٤) وفي المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١. وبالرغم من ذلك فقد ظلت هذه التعاليم منتشرة حتى إلى ما بعد سنة ٤٢٠. وهكذا ظهرت هرطقة جديدة في الكنيسة ولم تكن الأخيرة للأسف الشديد.

تعودت الكنيسة خلال هذه القرون الأربعة الأولى أن تلتقط أنفاسها وتتنسَّم الصعداء في كل مرة كانت تحكم فيها في مجمع رسمي على هرطقة من الهرطقات أو على ضلالة من الضلالات ظنًّا بأنها قد قضت على هذه الهرطقة وعلى هذه الضلالة بالحكم الذي استطاعت أن تصدره في مجمع كنسي ضد هذه التعاليم. ولكن للأسف الشديد لم يكن لهذه الأحكام الكنسية والمجمعية إلا تأثير جزئي، بل في أحيان كثيرة كانت هذه الأحكام المجمعية الكنسية ضد الهرطقات التي ظهرت في تاريخ الفكر المسيحي، بمثابة الدعاية لهذه الهرطقات وللتعاليم المضلة. ولهذا السبب ولأسباب أخرى انتشرت بعض التعاليم التي حكمت الكنيسة بحرمانها، فهكذا انتشرت تعاليم الغنوسيين وتعاليم ماركيون وتعاليم البنويين وتعاليم الانتحاليين

(١) انظر Weigenborg Stud., Pat. 3 (1961), pp. 327-328

(2) Greg. Naz. Ep. 101 Adm Cledon. PG. 37, 181-C-184A.

وتعاليم بولس السميساطي وتعاليم لوقيانوس وتعاليم آريوس وأتباعه... إلخ.

إن الفترة التي مرت بها الكنيسة في القرون الأربعة الأولى كانت فترة صعبة معقَّدة، إذ أن معظم الهرطقات التي ظهرت في تاريخ الفكر المسيحي بخصوص التعاليم الكرستولوجية، ظهرت في هذه الحقبة من الزمن، ومما لا شك فيه أن هرطقات وتعاليم مضلة قد ظهرت في القرون الأخرى وسنتعرَّض لها فيما بعد، إلا أن أغلبية التعاليم المضلة التي ظهرت في تاريخ العقائد المسيحية قد ظهرت خلال هذه القرون الأربعة- بل منذ نشأة الكنيسة، جاء إليها العدو ليلاً، منتهزًا فرصة نيام الناس وزرع زوانًا في وسط الحنطة (مت ١٣: ٢٤- ٣٠)، ولقد نما هذا الزوان في نفس التربة وفي نفس الحقل أسوة بالنباتات الجيدة التي بذرها صاحب الحقل وكبر هذا الزوان بجانب النباتات الجيدة والطيبة وأعطى أثماره الرديئة المدمِّرة والمخرِّبة. ولقد سبق أن رأينا في دراستنا لهذه الفترة، الأثمار الرديئة والمُرَّة التي أنتجها هذا الزوان «تعاليمًا مضلة» وابتعادًا عن الحق الإلهي، وانقسامًا مريرًا محزنًا في جسد المسيح أي الكنيسة، التي في محاولتها للإجابة على سؤال المسيح: «من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟» (مت ١٦: ١٣) انقسمت إلى جماعات وأحزاب وطوائف وكنائس يحارب بعضها بعضًا باسم الله ولأجله، وهو من كل هذا بريء. وهكذا نرى أن نبوة سمعان الشيخ قد تحققت خلال هذه القرون الأربعة، بل لا تزال تتحقق أيضًا منذ أن نطق بها إلى يومنا هذا؛ أي أن المسيح: «قد وضع لسقوط وقيام الكثيرين... ولعلامة تُقاوم» (لو ٢: ٣٤)، أي أنه صار حجر عثرة يسقط عليه الكثيرون، بل للأسف الشديد الأغلبية الساحقة؛ ذلك لأن الأغلبية الساحقة رأت في المسيح عثرة وجعلته أيضًا عثرة!

ولكن بالرغم من هذا كله، بالرغم من الزوان الذي ينمو في وسط النباتات الجيدة في حقل السيد، وبالرغم من التعاليم المتفشية والمضلَّة التي تعرَّضت وستتعرَّض لها الكنيسة في كل مكان وزمان، وبالرغم من الزوابع العاصفة والقاصفة التي تهب بشدة وبعنف على السفينة الصغيرة، فإن الذي يطمئن قلب المؤمن ويمنحه السلام الكامل والضمان للمستقبل، هو أن سيد هذه السفينة المهدَّدة بالعواصف والرياح موجود في وسطها، فلن تهلك. لأنه هو نفسه الذي أعطى كلمته لكنيسته، فوعده لها القائل: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها» (مت ١٦: ١٨)، وعد صادق وأمين، والذي وعد الكنيسة بالنصرة والغلبة على العدو صلَّى أيضًا من أجل وحدتها وحفظها من الانقسام والانشقاق، فلقد طلب في صلاته الوداعية قائلاً: «ليكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو ١٧: ١). إن أمنية المسيح العظمى هي أن تختفي الانشقاقات والانقسامات البغيضة التي لا تلد إلا الكراهية وعدم التفاهم وعدم الانسجام. إنه يريد كنيسة واحدة متحدة بالروح، متخذة عبرة من الانشقاقات والانقسامات التي مزقت في الماضي وتمزق في الحاضر أيضًا جسد المسيح الذي هو الكنيسة، فإن كان المسيح يريد كنيسة صحيحة الإيمان سليمة العقيدة جوابها على سؤاله في قيصرية فيلبس: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، فإنه يريد أيضًا كنيسةً حيةً متفاعلةً مع المجتمع وفي المجتمع الذي توجد فيه وخادمة له لأن سيدها قد جاء ليَخدِم لا ليُخدَم وليبذل نفسه فديةً عن كثيرين. أين هذه الكنيسة؟! هل عندما ينظر المسيح إلى كنيسته اليوم يرى فيها سحابة من الشهود؟ ليساعدنا لكي نكون شهودًا أمناء لشخصه الكريم.

آمين

مراجع هامة

1. A.Harnack. History of Dogma. Volume IV. pp. 6- 71.
2. A.Harnack. Previs de L'histoire. pp. 176 – 194.
3. M. F. Haag. Histoire des dogmes Chretiens. 1re partie pp. 148- 182.
4. F. Bonifas. Histoire des Dogmes de L'Eglise Chretienne. Tome 2. pp. 63 - 65.
5. H. M. Gwatkin. Studies of Arianism. London 1900.
6. M. Richard. Saint Athanase et La Psychologie du Christ Selon Les Ariens. Mel, SCRE L4 (1947) pp. 5- 54.
7. G. Voisin La doctrine Christologie de St. Athanase. Rev. Hist. E. 1 (1900) pp. 226- 248.
8. P. Glatier. St. Athanase et L'ame Humaine du Christ. Greg. 36 (1955). pp. 553- 589.
9. J. M. Leroux. Athanase d'Alexandrie. Eglise d'Hieret d'aujourd'hui. Les editions ouvrieres.

كتب للقديس أثناسيوس:

1. Apologie Contre Leariens.
2. La Circulaire aux eveques.
3. Les Quatre discours Contre Le Ariens.
4. Apologie L'Empereur Constrance.
5. Apologie du Chrisianisme Contre Le Paiens.
6. L'incarnation du verbe.
7. La vie de St. Antoine.
8. Apologie Sur Sa Fuite.

مجمع نيقية:

1. Bardy. G. Origines de L'Arianisme, Fliche et Martin 3,80 – 90.
2. Theodoret. Hist. 1. 7, 8.
3. Baynes. N. H. Journal of Roman Studies 1928, p. 279 f.
4. Eusebe vit. Cont. 3. 7, 10, 9.
5. Rufin. Hist. eccl., 10, 3.
6. Philostorge. Hist. eccl. 1,8.
7. Sozomene. Hist. eccl. 1, 17.

8. Basile, Epist. 81.

٩. علم اللاهوت النظامي. دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ص ١٦٦- ١٧٦، ٢٩٩- ٣٠٩.

١٠. الدكتور أسد رستم، مؤرخ الكرسي الأنطاكي: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى. الجزء الأول، ص ١٩٩- ٢٠٥.

بعض المراجع عن أبولناريوس وأثناسيوس:

1. G. Voisin. L'apollinarisme, Louvain – Paris 1901.

2. C. A. Raven Apollinarism. An Essay on the Christology of the Early Church, Cambridge 1923.

3. A. Grillmeier.

4. A. Gaudel. La Theologie du Logos Chey Saint Athanase. Rev SRQ (1929) pp. 524- 539.

5. E. Weigl. Christologie. V. Toda d'Ath. 9 – 13.

6. Apollinaire, Ep. Ad. Dionys. A1, ed., Lietzmann, pp. 256 – 257, 49.

7. H. de Riedmatien. Apollinarist Christology, pp. 240 – 248. F. Bonifas. Tome 2, 91 – 94.

8. Jean Denielou Et Henri Marron. Nouvelle Histoire de L'eglise Ed. Seuil. pp. 380 – 386.

9. Epiphane. Adv. Haer, 77, 20.

10. J. Liebaert. Hist. des Dogmes. pp. 143- 164.

١١. شرح أصول الإيمان: تأليف الدكتور القس إبراهيم سعيد والدكتور القس أندراوس واطسون. دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ص ١٥٣.

- هل تطور اللاهوت المسيحي عبر العصور؟
- هل تأثر الفكر المسيحي بالسياسة، أو الثروة، أو العلم؟
- هل الفكر اللاهوتي المسيحي الآن له أصول كتابية، أم مجرد فلسفة؟
- هل كانت الهرطقات فاسدة تمامًا؟

في هذا الكتاب ستجد سردًا تاريخيًّا لقصة تطور الفكر المسيحي منذ عصور ما قبل الميلاد خطوة بخطوة، لنرى كيف كان الفكر اللاهوتي كائنًا ينمو ويتطور ويتفاعل مع الأحداث والظروف المصاحبة.

دار الثقافة

١٠١١٠٥٧٥